للقاضي عبد الوهاب المالكي

متى تصل العطاش الى ارتواءٍ اذا استقت البحار من الركايا

ومن يحمي الاصاغر عن مرادٍ وقد جلس الاكابر في الزوايا

وان ترفّع الوضعاء يوماً على الرفعاء من احدى البلايا

اذا استوت الاسافل والاعالي فقد طابت منادمة المنايا

لمحمد بن يحيى الواسطي م سنة ٦١٣

وقائلة لما كبرت وصار لي ثمانون عاماً عش كذا وتوقّ واسلم

ودم وانتشق روح الحياة فانه لأطيب من بيت بصعدة مظلم

فقلت لها عذري لديك ممهد ببيت زهير فاعلمي وتعلمي

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا ابا لك يسأم

مؤلف الكتاب ابو الفتح نصر الله بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب ضياء الدين ولد بجزيرة ابن عمر ونشأ
بها وانتقل مع والده الى الموصل واشتغل بها وحصل العلوم وحفظ القرآن العظيم وكثيرا
من الاحاديث والاشعار ثم اقتصر على شعر ابي تمام والبحتري والمتنبي فحفظ دواوينهم
حتى تمكن من صوغ المعاني الجياد وصار له بذلك اتم الاستعداد فلما كملت له الادوات قصد الملك
الناصر صلاح الدين فاستوزره ولده الافضل وحسنت حاله عنده فلما توفي السلطان صلاح الدين
واستقل ولده الافضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة وردت امور الناس اليه وصار
الاعتماد في جميع الاحوال عليه ولما اخذت دمشق من الافضل وانتقل الى صرخد وكان ضياء الدين
قد اساء على اهلها فهموا بقتله فاخرجه الحاجب محاسن بن عجم في صندوق فلما قصد
العادل الديار المصرية لياخذها من ابن اخيه وتعوض الملك الافضل الديار الشرقية وخرج من
مصر لم يخرج ضياء الدين في خدمته لانه خاف من جماعة كانوا يترصدونه فخرج مستترا وله في
كيفية خروجه رسالة طويلة شرح فيها حاله فعاتب عليه الافضل مدة فلما استقر الافضل في
سميساط عاد الى خدمته واقام عنده ثم فارقه واتصل بخدمة اخيه الظاهر صاحب حلب
فلم يطل مقامه عنده فخرج مغاضبا فعاد الى الموصل فلم يستقم حاله فورد الى اربل فلم
يستقم حاله ايضا فسافر الى سنجار ثم عاد الى الموصل واتخذها دار اقامته ثم توفي في
بغداد سنة سبع وثلاثين وستمائة وكانت ولادته سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ومن تصانيفه
هذا الكتاب الدال على غزارة فضله فانه جمع فيه فاستوعب ولم يترك شيئا مما يتعلق بفن الكتابة
الا ذكره ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه واشتهر فوصل الى بغداد نسخة منه فانتدب له الفقيه
عز الدين المدائني بتصدي لمؤاخذته والرد عليه كتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر فلما اكمله
ورآه اخوه موفق الدين كتب بهذين البيتين المثل السائر يا سيدي صنفت فيه الفلك الدائر
لكن هذا الفلك دائر تصير فيه المثل السائرا

المقدمة	في أصول علم	البيان وفيها	عشرة فصول
الفصل الأول في موضوع علم البيان	الفصل الثاني في الآلة	دفيه ثمانية	انواع
النوع الأول في علم العربية	النوع الثاني فيما يحتاج اليه من اللغة	النوع الثالث في امثال العرب	النوع الرابع في تأليفات من تقدم
النوع الخامس في الاحكام السلطانية	النوع السادس حفظ القرآن العظيم	النوع السابع حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار	النوع الثامن فيما يختص بالنظم دون النثر
الفصل الثالث في الحكم على المعاني	الفصل الرابع في الترجيح بين المعاني	الفصل الخامس في جوامع الكلم	الفصل السادس في الحكمة التي هي ضالة المؤمن
الفصل السابع في الحقيقة والمجاز	الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة	الفصل التاسع في اركان الكتابة	الفصل العاشر في الطريق الى تعلم الكتابة
المقالة الأولى	في الصناعة	اللفظية وهي	قسمان
الأول في اللفظة	المفردة	الثاني في الالفاظ	المركبة وفيه انواع
النوع الأول في السجع	النوع الثاني في التجنيس	النوع الثالث في الترصيع	النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم
النوع الخامس في الموازنة	النوع السادس في صيغ الالفاظ واختلافها	النوع السابع في المعاظلة اللفظية	النوع الثامن في المنافرة بين الالفاظ
المقالة الثانية	في الصناعة المعنوية	وهي	قسمان

٢

القسم الأول	في الكلام	عليها	مجملا
القسم الثاني	في الكلام	عليها	مفصلا
وفيه		ثلاثون	
نوعا		النوع الأول في الاستعارة	النوع الثاني في التشبيه
النوع الثالث في التجريد	النوع الرابع في الالتفات	النوع الخامس في توكيد الضميرين	النوع السادس في عطف المظهر على المضمر
النوع السابع في التفسير بعد الابهام	النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات	النوع التاسع في التقديم والتأخير	النوع العاشر في الحروف العاطفة والجارة
النوع الحادي عشر في الخطاب بالجملة	النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى	النوع الثالث عشر في عكس الظاهر	النوع الرابع عشر في الاستدراج
النوع الخامس عشر في الايجاز	النوع السادس عشر في الاطناب	النوع السابع عشر في التكرير	النوع الثامن عشر في الاعتراض
النوع التاسع عشر في الكناية والتعريض	النوع العشرون في المغالطات المعنوية	النوع الحادي والعشرون في الاحاجي	النوع الثاني والعشرون في المبادي والافتتاحات
النوع الثالث والعشرون في التخلص والاقتضاب	النوع الرابع والعشرون في التناسب بين المعاني	النوع الخامس والعشرون في الاقتصاد	النوع السادس والعشرون في الاشتقاق
النوع السابع والعشرون في التضمين	النوع الثامن والعشرون في الارصاد	النوع التاسع والعشرون في التوشيح	النوع الثلاثون في السرقات الشعرية

٢٢٦
٢٣٥

مثل السائر

T. C.
MİLLİ E.İTİM BAKANLIĞI
RAGIP P. Ş. K.T. FLIĞI
MÜDÜRLÜĞÜ
Sayı: ~~1033~~

حسبي الله وحده
من الكتب التي وقفها الفقير
إلى الله ذي المواهب
محمد المدعو بين الأنام براغب

ط
١٧

١٢٠٠

~~١١٨٩~~

١١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله أن يلهمنا من الحمد ما هو أهله وأن يعلمنا من البيان ما يقصر عنه منزلة نطق
وفضله وحكمة الخطاب وفصله ونرغب إليه أن يوفقنا للصلاة على رسوله
الذي هو أفصح من نطق بالضاد ونسخ بهديه شريعة كل هاد وعلى آله وصحبه الذين
منهم من سبق وبدر ومنهم من صابر وصبر ومنهم من آوى ونصر أما بعد فإن
علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام
وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وحطبوا حطباً وما من تأليف إلا وقد تصفحت
شينه وزينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة
لأبي القسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن
سنان الخفاجي غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولاً وأجدى محصولاً وكتاب سر
الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر
الأصوات والحروف والكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما
لا حاجة إلى ذكره ... عنها أصوات ...
ذلك كله في مواضعه ... إلا الكاتب ... علم ... أبواباً
ولم ... أو ترك ... عشرة على ضرب
كثير ... الكريم ولم أجد ... تعرض لذكره
... ... هذا ... وإذا نظر إلى فوائد هذه

وجدت

وجدته محتوياً عليه بأسره وقد أوردتها هاهنا وشفعتها بالضرب الآخر
الذي هو في الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت إليها ما
... أني بالابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ومنحتني درجة الاجتهاد
التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما تكون متبوعة وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي
هذا وعلى غيره من الكتب وقد بنيته على مقدمة ومقالتين والمقدمة تشتمل
على أصول علم البيان والمقالتان تشتملان على فروعه فالأولى في الصناعة
اللفظية والثانية في الصناعة المعنوية ولا أدعي فيما ألفته فضيلة الإحسان
ولا السلامة من سقطات اللسان فإن الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديع في إغرابه وإنه لصاحب من
الكتب فيقال إنه مفرد من بين أصحابه ومع هذا فإني ... هو هذا العلم
دون خافيه وحمت حول حماه ولم أقع فيه إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم
الكلم التي بها تنظم العقود فترصع وتخلب العقول فتخدع وذلك شيء تحيل
عليه الخواطر لا تنطق به الدفاتر فاعلم أيها الناظر في كتابي هذا أن مدار
علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب
وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً وإذا انتضيته ... ... له
فإن ... ولا ... إلا ... بصراً ونبهاً ... إياك

الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا وكل جارحه منك قلبا ولسانا
فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك وما مثلي فيما مهدته
لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه
ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان علته ما كل ماشية بالرجل شملال

ولنرجع الى ما نحن بصدد ذكره فنقول اما مقدمة هذا الكتاب فانها
تشتمل على عشرة فصول

الفصل الاول

في موضوع علم
البيان موضوع كل علم هو الشي الذي يسال فيه عن احواله التي تعرض لذاته
فموضوع الفقه هو افعال المكلفين والفقيه يسال عن احوالها التي تعرض لها
من الفرض والنفل والحلال والحرام والندب والمباح وغير ذلك وموضوع
الطب هو [illegible] والطبيب يسال عن احواله التي تعرض له من صحته
وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد والحاسب يسال عن احوالها التي
تعرض لها من الضرب والقسمة [illegible] النسبة وغير ذلك وموضوع النحو هو
الالفاظ والمعاني والنحوي يسال عن احوالها في الدلالة من جهة الاوضاع
اللغوية وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم وبهذا الضابط انفرد كل
علم [illegible] البيان هو الفصاحة والبلاغة
وصاحبه [illegible] احوالها [illegible] النحوي [illegible]

في

قال ان النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة
عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة والمراد
بها ان يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك امر وراء النحو والاعراب الا
ترى ان النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك
فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن ها هنا غلط مفسروا الاشعار في
اقتصارهم على شرح المعنى وما فيه من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الاعراب
منه دون شرح ما تضمنه من اسرار الفصاحة والبلاغة

الفصل الثاني

في آلات علم البيان وادواته اعلم ان صناعة تاليف الكلام المنثور والمنظوم تفتقر
الى آلات كثيرة وقد قيل ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم حتى قيل ان كل ذي علم يسوغ
له ان ينسب نفسه اليه فيقول فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا
يسوغ له ان ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب [illegible] يفتقر
اليه من الخوض في كل فن وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا
تغني تلك الالات شيا ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي
يقدح بها الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيا وكثيرا
ما راينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ
في تعلم علم مشكل المسلك صعب الماخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل
العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه نفاذ واغرب من ذلك انه ما صاحب الطبع في

فيه

من

[illegible]

المنظوم يجيد في المدح دون الهجا او في الهجا دون المدح او يجيد في المراثي دون
التهاني او في التهاني دون المراثي وكذلك صاحب الطبع في المنثور فهذا ابن الحريري
صاحب المقامات قد كان على ما اشتهر عنه من تنميق المقامات واحدا في فنه
فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته قيل هذا يستصلح لكتابة الانشا في
ديوان الخلافه ويحسن اثره فيه فاحضر وكلف كتابة كتاب فافحم ولم يجر
لسانه في طويله ولا قصيره فقال فيه بعضهم

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه وسيلت عن ذلك فقلت لا عجب لان المقامات مدارها
جميعها على حكاية تخرج الى مخلص واما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له لان المعاني
تتجدد فيها بتجدد حوادث الايام وهي متجدده على عدد الانفاس الا ترى
انه اذا كان الكاتب المفلق في دوله من الدول الواسعه التي يكون لسلطانها
سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهه يسيره لا بل عشر
سنين فانه يدون عنه من المكاتبات ما يزيد على عشره اجزا كل جزء منها
اكبر من مقامات الحريري حجما لانه اذا ... ابا واحدا اجتمع من كتبه
اكثر من هذه العده المشار اليها فاذا نخلت وغربلت واختير الاجود منها اذ
تكون كلها جيده يخلص منها النصف وهو خمسة اجزا والله يعلم ما اشتملت

عليه

عليه من العجايب والغرايب وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعه على ان الحريري قد
كتب في اثنا مقاماته رقاعا في مواضع عده فجا بها منحطه عن كلامه في حكاية المقامات
لا بل جا بالغث البارد الذي لا نسبة له الى باقي كلامه فيها وله ايضا كتابة انشا
خارجة عن المقامات واذا وقف عليها اقسم ان قايل هذه ليس قايل هذه لما بينهما
من التفاوت البعيد وبلغني عن الشيخ ابي محمد احمد بن الخشاب رحمه الله انه
كان يقول ابن الحريري رجل مقامات اي انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها
وان اتى بغيرها فلا يقول شيا فانظر ايها المتامل الى هذا التفاوت في الصناعه
الواحده من الكلام المنثور ومن اجل ذلك قيل شيان لا نهاية لهما البيان والجمال
وعلى هذا فاذا ركب الله تعالى في الانسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينيذ الى
ثمانيه انواع من الالات **النوع الاول** منها معرفة علم العربيه
من النحو والتصريف **النوع الثاني** معرفة ما يحتاج اليه من اللغه
وهو المتداول المالوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره
المعيب **النوع الثالث** معرفة امثال العرب وايامهم ومعرفة الوقايع
التي جات في حوادث خاصه باقوام فان ذلك يجري مجرى الامثال ايضا
النوع الرابع الاطلاع على تاليفات من تقدمه من ارباب هذه الصناعة
المنظوم منه والمنثور والتحفظ للكثير منه **النوع الخامس** معرفة
الاحكام السلطانيه من الامامه والاماره والقضا والحسبه وغير ذلك

النوع السادس حفظ القرآن الكريم والنادر باستعماله وادراجه في مطاوي كلامه النوع السابع حفظ ما يختاج اليه من الاخبار الوارده عن النبي صلى الله عليه وسلم والسيرة ... في الاستعمال النوع الثامن وهو مختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر ولنذكر بعد ذلك فايدة كل نوع من هذه الانواع ليعلم ان معرفته مما تمس الحاجة اليه فنقول اما علم النحو فانه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة ابجد في تعليم الخط وهو اول ما ينبغي اتقان معرفته على احد ليس مختصا بهذا العلم خاصة بل بكل علم لا بل ينبغي معرفته لكل احد ينطق باللسان العربي ليامن معرة اللحن ومع هذا فانه وان احتيج اليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الافهام فان الواضع لم يخص منه شيئا بالوضع بل جعل الوضع عاما والا فاذا نظرنا الى ... وأقسامه المدونة وجدنا اكثرها غير محتاج اليه في افهام المعاني الا ترى انك لو امرت رجلا بالقيام فقلت له قوم باثبات الواو ولم تجزم لما اخل من فهم ذلك شي وكذلك الشرط لو قلت ان تقوم اقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثنا فاذا قلت جا زيد راكب وما في السما قدر راحة سحاب وقام القوم الا زيد فلزمت السكون في ذلك كله ولم تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب و السحاب ولا على نصب زيد وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له

والمفعول

والمفعول معه وفي المبتدا والخبر وغير ذلك من اقسام اخرى لا حاجة الى ذكرها لكن قد تخرج ... بالا يفهم الا بقيود تقيده وانما يقع ذلك في الذي تدل صيغته ... بمعان مختلفة ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول اعلم ان من امثلة الفاعل والمفعول ما لا يفهم الا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل فانه اذا لم يكن ثم علامة تبين احدهما من الاخر والا اشكل الامر كقولك ضرب زيد عمرو ويكون زيد المضروب فانك اذا لم تنصب زيدا وترفع عمروا والا فلا يفهم ما اردت وعلى هذا ورد قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلما وكذلك لو قال قايل ما احسن زيد ولم يبين الاعراب في ذلك لما علمنا غرضه اذ يحتمل ان يريد به التعجب من حسنه او يريد به الاستفهام عن اي شي منه احسن ويحتمل ان يريد به الاخبار بنفي الاحسان عنه ولو بين الاعراب في ذلك فقال ما احسن زيدا او ما احسن زيد او ما احسن زيد علمنا غرضه وفهمنا مغزى كلامه لانفراد كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة بما يعرف به من الاعراب فوجب حينيذ بذلك معرفة النحو اذ كان ضابطا لمعاني الكلام حافظا لها من الاختلال واول من تكلم في النحو ابو الاسود الدولي وسبب ذلك انه دخل على ابنة له بالبصره فقالت له يا ابه ما اشد الحر متعجبة ورفعت اشد فظنها مستفهمة فقال شهرا ناجر فقالت يا ابه انما اخبرتك ولم اسالك فاتى علي ابن ابي طالب رضي الله عنه فقال يا امير المومنين ذهبت لغة

استفهام

مطلب اول من وضع النحو

العرب ويوشك ان تطاول عليها زمان ان تضمحل فقال له وما ذاك فاخبره خبر
ابنته فقال هلم صحيفة ثم املى عليه الكلام يتألف عن اسم وفعل وحرف
جا لمعنى ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون في كتبهم وقيل ان ابا الاسود دخل
على زياد بن ابيه بالبصرة فقال اني ارى العرب قد خالطت العجم وتغيرت
ألسنتها افتأذن لي ان اصنع لهم ما يقيمون به كلامهم فقال لا فقام من عنده
ودخل عليه رجل فقال ايها الامير مات ابانا وخلف بنون فقال زياد مات
ابانا وخلف بنون ردوا علي ابا الاسود فردوه فقال اصنع ما كنت
نهيتك عنه فوضع شيئا ثم جا بعده ميمون الاقرن فزاد عليه ثم جا بعده
عنبسة بن معدان المهري فزاد عليه ثم جا بعده عبد الله بن ابي اسحق
الحضرمي وابو عمرو بن العلا فزادا عليه ثم جا بعدهما الخليل بن احمد الازدي
وتتابع الناس واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك وهذا ما بلغنا
في امر النحو في اول وضعه وكذلك العلوم كلها توضع منها في مبادي امرها
شي يسير ثم يزاد بالتدريج الى ان يستكمل اخيرا فان قيل اما علم النحو فمسلم
اليك انه يجب معرفته لكن التصريف انما هو معرفة اصل الكلمة وزيادتها
وحذفها وابدالها وهذا لا يضر جهله ولا ينفع معرفته ولنضرب لذلك
مثالا كيفا اتفق فنقول اذا قال القايل رايت سرداحا لا يلزمه
ان يعرف الالف في هذه الكلمة زايدة هي ام اصلا لان العرب لم تنطق

بها الا كذلك ولو قالت سردح بغير الف لما جاز لاحد ان يزيد الالف فيها
من عنده فيقول سرداح فعلم بهذا انه انما ينطق بالالفاظ كما سمعت عن
العرب من غير زيادة فيها ولا نقص وليس يلزم بعد ذلك ان يعلم اصلها
ولا زيادتها لان ذلك امر خارج عما تقتضيه صناعة تاليف الكلام الجواب
عن ذلك انا نقول اعلم انا لم نجعل معرفة التصريف كمعرفة النحو لان
الكاتب او الشاعر اذا كان عارفا بالمعاني مختارا لها قادرا على الالفاظ مجيدا
فيها ولم يكن عارفا بعلم النحو فانه يفسد ما يصوغه من الكلام ويختل عليه
ما يقصده من المعاني كما اريناك في ذلك المثال المتقدم واما التصريف
فانه اذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معاني كلامه وانما تفسد عليه
الاوضاع وان كانت المعاني صحيحة وسياتي بيان ذلك في تحرير الجواب
فنقول اما قولك ان التصريف لا حاجة اليه واستدلالك بما ذكرته
من المثال المضروب فان ذلك لا يستمر لك الكلام فيه الا ترى انك مثلت
كلامك في لفظة سرداح وقلت انه لا يحتاج الى معرفة الالف فيها زايدة
هي ام اصلا لانها انما نقلت عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا
نقص وهذا لا يطرد الا فيما هذا سبيله من نقل الالفاظ على هيئتها من غير
تصرف فيها بحال فاما اذا اريد تصغيرها او جمعها او النسبة اليها فانه
اذا لم يعرف الاصل في حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها يضل

نقصان

نقصان

حينيذ عن السبيل وينشا من ذلك مجال للعايب والطاعن الا ترى انه
اذا قيل للنحوي وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغير لفظة اضطراب
فانه يقول ضطيريب ولا يلام على جهله بذلك لان الذي تقتضيه صناعة
النحو قد اتى به وذاك ان النحاة يقولون اذا كانت الكلمة على خمسة احرف
وفيها حرف زايد او لم يكن حذفته نحو قولهم في منطلق مطيلق وفي جحمرش
جحيمر فلفظة منطلق على خمسة احرف وفيها حرفان زايدان هما الميم والنون
الا ان الميم زيدت فيها لمعنى فلذلك لم تحذف وحذفت النون واما لفظة
جحمرش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف ايضا ولم يعلم النحوي
ان علما النحو انما قالوا ذلك اتكالا منهم على تحقيقه من علم التصريف لانه
لا يلزمهم ان يقولوا في كتب النحو اكثر مما قالوا وليس عليهم ان يذكروا في باب من
ابواب النحو شيا من التصريف لان كلا من النحو والتصريف علم منفرد براسه
غير ان احدهما مرتبط بالاخر ومحتاج اليه وانما قلت ان النحوي اذا سيل
عن تصغير لفظة اضطراب يقول ضطيريب لانه لا يخلو اما ان يحذف من لفظة
اضطراب الالف او الضاد او الطا او الرا او البا وهذه الحروف المذكورة
غير الالف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الاولى ان تحذف الحرف
الزايد ويترك الحرف الذي ليس بزايد فلذلك قلنا ان النحوي يصغر لفظة
اضطراب على ضطيريب فيحذف الالف التي هي حرف زايد دون غيرها مما ليس

من حروف الزيادة واما ان يعلم ان الطا في اضطراب مبدلة من تا وانه
اذا اريد تصغيرها نُعاد الى الاصل الذي كانت عليه وهو التا فيقال
ضتيريب فان هذا لا يعلمه الا التصريفي وتكليف النحوي الجاهل بعلم التصريف
معرفة ذلك تكليفه علم ما لم يعلمه فثبت بما ذكرناه انه يحتاج الى علم التصريف
لئلا يغلط في مثل هذا ومن العجب ان يقال انه لا يحتاج الى معرفة التصريف
الم يعلم ان نافع بن ابي نعيم وهو من اكبر القرا السبعة قدرا وافخمهم شانا
قال في معايش معائش بالهمز ولم يعلم الاصل في ذلك فاخذ عليه وعيب
من اجله ومن جملة من عابه ابو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف ان نافعا
لم يدر ما العربية وكثيرا ما يقع اهل العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين
لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها واذا علم حقيقة الامر في ذلك لم
يغلط فيما يوجب قدحا ولا طعنا وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع
من علما العربية لان اليا فيها ليست مبدلة من همزة وانما اليا التي تبدل
من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد الف الجمع المانع من الصرف ويكون
بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سفاين وفي هذا الموضع غلط نافع
رحمة الله عليه لانه لا شك اعتقد ان معيشة بوزن فعيلة وجمع فعيلة
هو على فعايل ولم ينظر الى ان الاصل في معيشة معيشة على وزن مفعلة
وذلك لان اصل هذه الكلمة من عاش التي اصلها عيش على وزن فعل ويلزم

مضارع فعل المعتل العين يفعل بالضم الياء نحو يعيش ثم ننقل حركة العين الى الفاء فيصير يعيش ثم نبني من يعيش مفعول فيقال معيوش به كما يقال مسيور به ثم تخفف ذلك بحذف الواو فيقال معيش به كما يقال مسير به ثم تؤنث هذه اللفظة فيصير معيشة ومع هذا فلا ينبغي لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر ان يهمل من علم العربية ما يخفى عليه باهماله اللحن الخفي فان اللحن الظاهر قد كثرت مقاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوي ولا شك ان قلة المبالاة بالامر واستشعار القدرة عليه يوقع صاحبه فيما لا يشعر انه وقع فيه فيجهل بما يكون عالما به الا ترى ان ابا نواس كان معدودا في طبقات العلما مع تقدمه في طبقات الشعرا وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه فقال في صفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على ارض من الذهب

مطلب تغليط ابو نواس في قوله صغرى وكبرى

وهذا لا يخفى على مثل ابي نواس فانه من ظواهر علم العربية وليس من غوامضه في شي لانه امر نقلي يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف وقول ابي نواس صغرى وكبرى غير جائز فان فعلى افعل لا يجوز حذف الالف واللام منها وانما يجوز حذفهما من فعلى التي لا افعل لها نحو حبلى الا ان تكون فعلى افعل مضافة وها هنا قد عريت عن الاضافة وعن الالف واللام فانظر كيف وقع ابو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته

وقد

وقد غلط ابو تمام في قوله

بالقائم الثامن المستخلف اطادت قواعد الملك ممتدا لها الطول

مطلب تغليط ابي تمام في قوله اطادت

الا ترى انه قال اطادت والصواب اتطدت لان التا تبدل من الواو في موضعين احدهما مقيس عليه كهذا الموضع لانك اذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتعد ومثله ما ورد في هذا البيت فانه من وطد يطد كما يقال وعد يعد فاذا بني منه افتعل قيل اتطد ولا يقال اطاد واما غير المقيس فقولهم في وجاه تجاه وقالوا تكلان واصله الواو لانه من وكل يكل فابدلت الواو تاء للاستحسان فهذه الامثلة قد اشرت اليها ليعلم مكان الفايدة في امثالها وينوفي علي اني لم اجد احدا من الشعراء المفلقين سلم من ذلك فاما ان يكون لحنا ظاهرا دل على جهله بمواقع الاعراب واما ان يكون خطا في تصريف الكلمة ولا اعني بالشعراء من هو قريب عهده بزماننا بل اعني بالشعراء من تقدم زمانه كالمتنبي ومن كان قبله كالبحتري ومن تقدمه كابي تمام ومن سبقه كابي نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى على ان الخطا في التصريف اشد قبحا من الخطا في النحو لانه قل ما يقع له كلمة يحتاج في استعمالها الى الابدال والنقل في حروفها واما النحو فانه يقع فيه الخطا كثيرا حتى انه ليشذ ظاهره في بعض الاحوال فكيف خافيه كقول ابي نواس في الامين محمد رحمه الله تعالى

ل

يا خير من كان ومن يكون الا النبي الطاهر الميمون

فرفع في الاستثنا من الموجب وهذا من ظواهر النحو ولبس من خافيه في شي وكذلك قال ابو الطيب المتنبي

ارايت همة ناقتي في ناقة نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا

تركت دخان الرمث في اوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا

وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكا اذفرا

فجمع في حال التثنيه لان الناقة ليس لها الا ركبتان فقال ركبات وهذا من اظهر ظواهر النحو وقد خفي على مثل المتنبي ومع هذا فينبغي لك ان تعلم ان الجاهل بالنحو لا يقدح في فصاحته ولا بلاغته ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغه فوجب اتباعهم واما الادغام فلا حاجة اليه للكاتب لكن الشاعر ربما يحتاج اليه لانه قد يضطر في بعض الاحوال الى ادغام حرف والى فك ادغام من اجل اقامة الميزان الشعري واما النوع الثاني وهو قولنا انه يحتاج الى معرفة اللغة مما تداول استعماله فسنبين بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة والكلام على جيدها ورديها في المقاله المختصه بالصناعة اللفظيه ويفتقر ايضا مولف الكلام الى معرفة عدة اسما مما يقع استعماله في النظم والنثر ليجد اذا ضاق به

موضع

موضع في كلامه بايراد بعض الالفاظ فيه العدول عنه الى غيره مما هو في معناه وهذه الاسما تسمى المترادفة وهي اتحاد المسمى واختلاف اسمايه كقولنا الخمر والراح والمدام فان المسمى بهذه الاسما شي واحد واسماوه كثيرة وكذلك يحتاج الى معرفة الاسماء المشتركه ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات كالعين فانها تطلق على العين الناظرة وعلى ينبوع الماء وعلى المطر وغيره الا ان الاسما المشتركة تفتقر في الاستعمال الى قرينة تخصصها كيلا تكون مبهمة لانا اذا قلنا عين ثم سكتنا وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بازا هذا الاسم واذا قرنا اليه قرينة تخصصه زال ذلك الابهام بان يقول عين حسنا او عين نضاخة او عين ملثة او غير ذلك وهذا موضع للعلما فيه مجاذبات جدلية فمنهم من ينكر ان يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعا ويقول ان ذلك يخل بفايدة وضع اللغه لان اللغة انما هي وضع الالفاظ في دلالتها على المعاني اي في وضع الاسما على المسميات لتكون منبية عنها والاشتراك لا يبان فيه وانما هو ضد البيان لكن طريق البيان ان يجعل احد المعنيين في اللفظ المشترك حقيقة والاخر مجازا فاذا قلنا هذه كلمة واطلقنا القول فهم منه اللفظة الواحدة واذا قيدنا اللفظ فقلنا هذه كلمة شاعرة فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر وهي

وسوم خ

بمنزلة الاسم خ

خذل

مجموع كلمات كثيرة ولو اطلقنا من غير تقييد واردنا الغضبيه من الشعر لما
فهم مرادنا البته هذا خلاصة ما ذهب اليه من ينكر وقوع اللفظ المشترك
على المعنيين بالحقيقة وفي ذلك ما فيه وسابين ما يدخله من الخلل فاقول
في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكري ولم يكن لاحد فيه قول من قبلي
وهو اما قولك ان فايده وضع اللغه انما هو البيان واللفظ المشترك يخل
بهذه الفايده فهذا غير مسلم بل فايدة وضع اللغه هو البيان والتحسين
اما البيان فقد وفي به الاسما المتباينة التي هي كل اسم واحد دل على مسمى
واحد فاذا اطلق اللفظ في هذه الاسماء كان بينا مفهوما لا يحتاج الى قرينه
ولو لم يضع الواضع من الاسماء شيا غيرها لكان كافيا في البيان واما التحسين
فان الواضع لهذه اللغه العربيه التي هي احسن اللغات نظر الى ما يحتاج
اليه ارباب الفصاحة والبلاغه فيما يصوغونه من نظم ونثر ورأى ان
مهمات ذلك التحسين ولا يقوم به الا الاسما المشتركة التي هي كل اسم واحد
دل على مسميين فصاعدا فوضعها من اجل ذلك وهذا الموضع
يتجاذبه جانبان يترجح احدهما على الاخر وبيانه ان التحسين يقضي بوضع
الاسما المشتركة ووضعها يخل بفايده البيان عند اطلاق اللفظ وعلى هذا
فان وضعها الواضع ذهب بفايده البيان وان لم يضع ذهب بفايده
التحسين لكنه ان وضع استدرك ما ذهب من فايده البيان بالقرينه وان

لجعل لكل مسمى اسما يدل عليه ومن جملة المعاني التي يحتاج الى وضع الالفاظ للدلالة عليها معنى تعالى

لم يضع لم يستدرك ما ذهب من فايده التحسين فترجح جانب الوضع
فوضع فان قيل فلم لا تنسب الاسما المشتركه الى اختلاف القبايل لا الى واضع
واحد قلت في الجواب هذا تعسف لا حاجة اليه والدليل على ان
هذه الاسما من واضع واحد انا نرى قد ورد من الجموع ما يقع على مسميين
اثنين كقولهم كعاب جمع كعب الذي هو كعب الرجل وجمع كعبه وهي
البنيه المعروفه فاذا اطلقنا اللفظ فقلنا كعاب من غير قرينه لا ندرك
ما المراد من ذلك الكعب الرجل ام البنيه المعروفه وكذلك ورد واحد وجمع
على وزن واحد كقولهم راح اسم الخمر وراح جمع راحة وهي الكف وكقولهم
عقاب وهو الجزء الاعلى الذنب وجمع عقبه ايضا وفي اللغه من هذا
شي كثير وهو بالاجماع من علماء العربيه انه لم يجر فيه خلاف بين
القبايل فاتضح بهذا ان الاسما المشتركه من واضع واحد وكان
فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقره صفرا فاقع لونها
تسر الناظرين فقال ان لون البقره كان اسود والاصفر هو الاسود
فانكرت عليه هذا القول فاخذ يجادل مجادلة غير عارف ويعزو ذلك
الى تفسير النقاش وتفسير البلاذري فقلت له اعلم ان هذا الاسم الذي
هو الاصفر لا يخلو في دلالته على الاسود من وجهين اما انه من الاسما
المتباينه التي يدل كل اسم منها على مسمى واحد كالانسان والاسد

والفرس وغير ذلك واما ان يكون من الاسماء المشتركه التي يدل الاسم
منها على مسميين فصاعدا ولا يجوز ان يكون من الاسماء المتباينه لانا نراه
متجاذبا بين لونين احدهما هذا اللون الزعفراني الشكل والاخر اللون
المظلم الشكل وعلى هذا فانه يكون من الاسماء المشتركه واذا كان من
الاسماء المشتركه فلا بد له من قرينه تخصصه باحد لونيه ونرى تلك
القرينه مخصصه له باللون الزعفراني دون اللون المظلم لان الله تعالى
قال صفرا فاقع لونها والفاقع من صفات اللون الزعفراني خاصه لانه
قد ورد للالوان صفات متعدده لكل لون منها صفه فقيل ابيض يقق
واسود حالك واحمر قان واصفر فاقع ولم يقل اسود فاقع ولا اصفر
حالك فعلم حينيذ ان لون البقره لم يكن اسود وانما كان اصفر فلا يخفى
عند ذلك الفقيه ما اشرت اليه اذعن بالتسليم واما النوع الثالث
فهو معرفه امثال العرب وايامهم ومعرفه الوقايع التي وردت في حوادث
خاصه باقوام وقولي هذا لا يقتضي كل الامثال الوارده عنهم فان منها
ما لا يحسن استعماله كان من الفاظهم ايضا ما لا يحسن استعماله وكنت جردت
من كتاب الامثال للميداني اوراقا خفيفه تشتمل على الحسن من الامثال التي
يدخل في باب الاستعمال وسبيل المتصدي لهذا الفن ان يسلك ما سلكته
وليعلم ان الحاجه اليه شديده وذاك ان العرب لم تضع الامثال الا

لا

لاسباب اوجبتها وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لامر من
الامور عندهم كالعلامه التي يعرف بها الشي فليس في كلامهم اوجز منها
ولا اشد اختصارا وسبب ذلك ما اذكره لتكون من معرفته على يقين
فاقول قد جا عن العرب من جمله امثالهم ان يبغ عليك قومك لا يبغ
عليك القمر وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور كما قال المفضل بن
محمد انه بلغنا ان بني ثعلبه بن سعد بن ضبه في الجاهليه تراهنوا على الشمس
والقمر ليله اربع عشرة من الشهر فقالت طايفه تطلع الشمس والقمر
يرى وقالت طايفه يغيب القمر قبل ان تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه
بينهم حكما فقال واحد منهم ان قومي يبغون علي فقال الحكم ان يبغ
عليك قومك لا يبغ عليك القمر فذهبت مثلا ومن المعلوم ان قول
القايل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر اذا اخذ على حقيقته من
غير نظر الى القراين المنوطه به والاسباب التي قيل من اجلها لا يعطي من
المعنى ما قد اعطاه المثل وذاك ان المثل له مقدمات واسباب قد عرفت
وصارت مشهوره بين الناس معلومه عندهم وحيث كان الامر كذلك
جاز ايراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد ولولا تلك المقدمات
المعلومه والاسباب المعروفه لما فهم من قول القايل ان يبغ عليك قومك
لا يبغ عليك القمر ما ذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول

لك صح

والاصل فيه صح

معنى مفيد لان البغي هو الظلم والقمر ليس من شانه ان يظلم احدا فكان يصير
معنى المثل ان كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر وهذا كلام مختل المعنى
ليس بمستقيم فلما كانت الامثال كالرموز والاشارات التي يلوح بها على
المعاني تلويحا صارت من اوجز الكلام واكثره اختصارا وحيث هي بهذه
المثابه فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها واما ايام العرب فانها تتنوع
وتتشعب فمنها ايام تخاير ومنها ايام محاربه ومنها ايام منافره ومنها
غير ذلك ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصف يوم يمر به
في بعض الاحوال شبيها بيوم من تلك الايام ومماثلا له فاذا جا بذكر
بعض تلك الايام المناسبه لمراده الموافقه له وقاس عليه يومه فانه
يكون في غايه الحسن والرونق وهذا لاخفا به واما الوقايع التي
وردت في حوادث خاصه باقوام فانها كالامثال في الاستشهاد بها
وسابين لك نبذه منها حتى تعلم مقدار الفايده بها فمن ذلك انه ورد عن
النبي صلى الله عليه وسلم حديث بيعة الحديبيه تحت الشجره وكان ارسل
عثمن رضي الله عنه الى مكه في حاجه عرضت له ولم يحضر البيعه فضرب
رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمال على اليمين وقال هذه عن عثمن
وشماله خير من يمينه وقد استعملت انا هذا في جمله كتاب فقلت ولا يعد
البر برا حتى يلحق الغيب بالحضور ويصل من يصله بالجزاء ولا شكور بزنته

الغايب بالشاهد من كرم الاحسان ولهذا نابت شمال رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن يمين عثمان ومن ذلك انه ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه
استدعى ابا موسى الاشعري ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد
الحارثي فمضى الى يرفى مولى عمر وساله عما يروج عنده وينفق عليه فاشار
الى خشونه العيش فمضى ولبس جبه صوف وعمامه دكنا وخفا مطابقا وحضر
بين يديه في جمله العمال فصوب عمر نظره وصعده فلم تقع الا عليه فادناه
وساله عن حاله ثم اوصى ابا موسى الاشعري به وقد استعملت انا هذا في
جمله تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافه فقلت واذا استعنت باحد على
عملك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال
تنتقل بتنقل الاجساد واياك ان تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب
بالربيع بن زياد فانظر كيف فعلت في هاتين القضيتين وكيف اوردتهما في الغرض
الذي قصدته وامض انت على هذا النهج فانه من محاسن هذه الصناعه
وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله عن الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن ايوب رحمه الله الى ديوان الخلافه ببغداذ في سنة
احدى وسبعين وخمسمايه وضمنه ما ابلاه في خدمة الدوله من فتح الديار
المصريه ومحو الدوله العلويه واقامه الدوله العباسيه وشرح فيه ما
قاساه في الفتح من الاهوال ولما تاملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه الخطابه

مر قوله واياك ان تخدع الى قوله بن زياد فيه ما يقرب من سوء الادب بمقام عمر رضي الله عنه لان عمر لم يخدع بذلك لان غرض ابن زياد لم يكن ما يؤول الى فساد

حقها الا انه اخل شي واحد وهو ان مصر لم تفتح الا بعد ان قصدت من الشام
ثلث مرات وكان الفتح في المره الثالثه وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله عليه
وسلم مكة فانه قصدها عام الحديبيه ثم سار اليها في عمرة القضاء ثم سار
اليها عام الفتح ففتحها وقد سالني بعض الاخوان ان انشي في ذلك كتابا الى ديوان
الخلافه معارضا للكتاب الذي انشاه عبد الرحيم بن علي رحمه الله فقلت
ومن جملتها ما فعله الخادم في الدوله المصريه وقد قام بها منبر وسرير
وقالت منا امير ومنكم امير فردا الدعوه العباسيه الى معادها واذكر المنابر
ما فيته بها من زهو اعوادها وكانت اخرجت منها اخراج البنت من قريته
وقذف الشيطان على حقها بباطله وعلى صدقها بفريته ثم طوتها الليالي طي
السجل للكتاب وكثر عليها مرور الدهر حتى نسي لها عدد السنين والحساب
ولم يعدها الى وطنها حتى تغربت لها الارواح عن اوطانها وسهرت لها اجفان
السيوف وسهر العيون عن اجفانها ونطاردت الاراء في تسهيل امرها قبل
مطاردة اقرانها وحتى تقدمتها غزوات ثلث كلها ذوات غروب وكل خطب
من خطوبها ذو خطوب الى ان تخض ليلها عن صبحه واصبحت في الاسلام كعام
حديبيته وعمرة قضايه وعام فتحه وفي ذكر اخبارها ما يطبع الاسنه
في روس الاقلام ويرهب سامعها ولم يناله شي من مكروهها سوى الكلام ويومها
لله وله هو اليوم الذي ارخ فيه معاد نصرها ومبعاد نشرها واذا عدت

ليالبها السالفه كانت كساير الليالي وهذه ليله قدرها فهذا فصل من
فصول الكتاب فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري وفتح مكه وذكرت ايضا
حديث الحباب بن المنذر الانصاري حيث قال بعد وفاه النبي صلى الله عليه
وسلم منا امير ومنكم امير وذلك لما حضر ابو بكر وعمر وابو عبيده بن
الجراح رضي الله عنهم في سقيفه بني ساعده والقصه مشهوره فقال
الحباب بن المنذر منا امير ومنكم امير فقال ابو بكر رضي الله عنه بل نحن
الامرا وانتم الوزرا وهذا الذي ذكرته هو نكته هذا الفتح التي عليها المعو
ومركزه الذي عليه يدور وعجبت من عبد الرحيم بن علي البيساني مع تغلغله
في فن الكتابه كيف فاته ان ياتي به في الكتاب الذي كتبه الى الملك الناصر صلاح
الدين يوسف المقدم ذكره في سنه ثلاث وثمانين وخمسمايه وضمنه فصولا
تشتمل على امور انكرت عليه من ديوان الخلافه فمن تلك الامور التي انكرت
انه تلقب بالملك الناصر وذلك هو لقب لامير المومنين خاصه فانه الامام
الناصر لدين الله فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد اجاد
فيه كل الاجاده ولم اجد فيه مغمزا الا في هذا الفصل الذي تضمن حديث
اللقب وانه لم يات بكلام يناسب باقي الفصول المذكوره بل اتى بكلام فيه
غثاثه كقوله ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام وشيا من هذا النسق
وكان الاليق الاحسن ان يحتج فيها بحجه ويذكر كلاما فيه ذلاقه ورشاقه

ياحبذا السوال لو علمت مسارع صلاح الدين يوسف ابن ايوب رحمه الله

وحضر عندي في بعض الايام بعض اخواني وجرى حديث ذلك فسالني
عما كان ينبغي ان يكتب في هذا الفصل فذكرت ما عندي وهو قد علم ان
للانبيا والخلفا خصايص يختصون بها على حكم الانفراد وليس لاحد من
الناس ان يشاركهم فيها مشاركة الانداد وقد اجرى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ذلك في اشيا نص عليها بحكمه ومن جملتها انه نهى غيره
ان يجمع بين كنيته وبين اسمه وهذا مسوغ لامير المومنين ان يختص بامر
يكون به مشهورا وعلى غيره محظورا وقد وسم نفسه بسمة نزلت عليه
من السما وتميزت به من بين السمات والاسما ثم استمرت عليها الايام
حتى خوطب بها من اطراف البلاد وعرفه بها الحاضر والباد ورفعها
الخطبا على المنابر في ايام الجمع ومواسم الاعياد وقد شاركته انت فيها
غير مراقب لما يريد به التعظيم ولا فارق بين فسحة التحليل وحرج التحريم
والشرع والادب يحكمان عليك بان تلغي ما فرط منك بالمتاب والا تخرج
فيه الى التفريع الذي هو اشد العتاب ومثالك من عرف الحق فامسكه
بيده ونسخ اغفال امسه باستينا في التيقظ في غده والله قد رفع المواخذه
عمن اتى الشي خطا لا عمدا وقبل التوبه ممن اخذ على نفسه الاخلاص عهدا
فانظر ايها المتامل كيف جيت بالخبر النبوي وجعلته شاهدا على هذا الموضع
ولا يمكن ان يحتج في مثل ذلك بمثل هذا الاحتجاج وما اعلم كيف شذ عن زياده

ان

ان ياتي به مع انه كانت مغلق ارضنني كتابته ولم اجد في المعتدين من تاله
في هذا الفن واما النوع الرابع وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم
والمنثور فان ذلك فوايد جمه لانه يعلم منه اغراض الناس ونتايج افكارهم
ويعرف به مقاصد كل فريق منهم والى اين ترامت به صنعته في ذلك فان
هذه الاشيا مما تشحذ القريحه وتذكي الفطنه واذا كان صاحب هذه
الصناعه عارفا بها تصير المعاني التي ذكرت وتعب في استخراجها كالشي الملقى
بين يديه ياخذ منه ما اراد ويترك ما اراد وايضا فانه اذا كان مطلعا على
المعاني المسبوق اليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق اليه ومن
المعلوم ان خواطر الناس وان كانت متفاوته في الجوده والرداه فان بعضها
لا يكون عاليا على بعض او منحطا عنه الا بشي يسير وكثيرا ما تتساوى القرايح
والافكار في الاتيان بالمعاني حتى ان بعض الناس قد ياتي بمعنى مصوغ بلفظ
ثم ياتي الاخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جا به
الاول وهذا الذي تسميه ارباب هذه الصناعه وقوع الحافر على الحافر
وسياتي لذلك باب مفرد في اخر كتابنا هذا ان شا الله واما النوع
الخامس وهو معرفة الاحكام السلطانيه من الامامه والاماره والقضا
والحسبه وغير ذلك فانما اوجبنا معرفتها والاحاطه بها لما يحتاج اليه
الكاتب في تقليدات الملوك والامرا والقضاه والمحتسبين ومن يجري

مجراهم وايضا فانه قد يحدث في الامامه حادث في بعض الاوقات بان
يموت الامام القايم بامر المسلمين ثم يتولى بعده من لم تتكامل فيه شرايط الامامه
او يكون كامل الشرايط غير ان الامام الذي كان قبله عهد بها الى اخر غيره وهو
ناقص الشرايط او يكون قد نازع الامامه اثنان او يكون ارباب الحل والعقد
قد اختاروا اماما وهم غير كاملي الشرايط التي يجب ان توجد فيهم او يكون امر
غير ما ذكرناه فتختلف الاطراف في ذلك وينتصب ملك من الملوك له عنايه
بالامام الذي قام بالمسلمين فيامر كاتبه ان يكتب كتابا في امره الى الاطراف المخالفه
له واذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفا بالحكم في هذه الحوادث واختلاف اقوال
العلما فيها وما هو رخصة في ذلك وما ليس برخصه فانه لا يكتب كتابا ينتفع
ولسنا نعني بهذا القول ان يكون الكتاب مقصورا على فقه محض فقط لانا لو اردنا
ذلك لما كنا نحتاج فيه الى كتب كتاب بلاغي بل كان يقتصر على ارسال مصنف
من مصنفات الفقه عوضا عن الكتاب وانما قصدنا ان يكون الكتاب الذي يكتب
في هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحه في موضع والمحاققه
في موضع مشحونا ذلك بالنكت الشرعية المبرزة في قوالب البلاغه والفصاحه
كما فعل الكاتب الصابي في الكتاب الذي كتبه عن عز الدوله بختيار بن
معز الدوله بن بويه الى الامام الطايع لما خلع المطيع فانه من محاسن الكتب
التي تكتب في هذا الفن واما النوع السادس وهو حفظ القران الكريم

فان صاحب هذه الصناعة ينبغي له ان يكون عارفا بذلك لان فيه فوايد كثيره
منها انه يضمن كلامه بالايات في اماكنها اللايقه بها ومواضعها المناسبه لها
ولا شبهه فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزاله والرونق ومنها انه
اذا عرف مواقع البلاغه واسرار الفصاحه المودعه في تاليف القران اتخذه بحرا
يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها في مطاوي كلامه كما فعلته انا فيما
انشاته من المكاتبات وكفى بالقران الكريم وحده الة واداة في استعمال افانين
الكلام فعليك ايها المترشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض
رموزه واشاراته فانها تجارة لا تبور ومنبع لا يغور وكنز يرجع اليه وذخر فانه
يعول عليه واما النوع السابع وهو حفظ الاخبار النبويه مما يحتاج الى
استعماله فان الامر يجري في ذلك مجرى القران الكريم وقد تقدم القول
عليه فاعرفه واما النوع الثامن وهو ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك
معرفة العروض وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز فان الشاعر محتاج
اليه ولسنا نوجب عليه المعرفه بذلك لينظم بعلمه فان النظم مبني على الذوق
ولو نظم بتقطيع الافاعيل لجا شعره متكلفا غير مرضي وانما اريد للشاعر
معرفة العروض لان الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات وقد يكون ذلك
جايزا في العروض وقد ورد للعرب مثله فاذا كان الشاعر غير عالم به لم
يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك ايضا يحتاج الشاعر الى العلم

بالقوافي والحركات ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح فاذا كمل
صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الالات وكان ذا طبع مجيب وقريحة
مواتية فعليه بالنظر في بابنا هذا والتصفح لما اودعناه من حقايق علم البيان
وينهنا عليه من اصول ذلك وفروعه على ان الذي ذكرناه من هذه الالات
الثمان هو كالاصل لما يحتاج اليه الخطيب والشاعر ومعرفته ضرورية
لا بد منها وهاهنا اشيا اخر هي كالتوابع والروادف وبالجملة فان صاحب
هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة
ما يقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله
المنادي في السوق على السلعة فاظنك بما فوق هذا والسبب في ذلك انه
موهل لان يهيم في كل واد فيحتاج ان يتعلق بكل فن

الفصل الثالث

في الحكم على المعاني وفايدة هذا الفصل الاحاطة باساليب المعاني على اختلافها
وتباينها وصاحب هذه الصناعة مفتقر الى هذا الفصل والذي يليه بخلاف
غيرهما من هذه الفصول المذكورة ولا سيما مفسري الاشعار فانهم به اعنى
واعلم ان الاصل في المعنى ان يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب الى التاويل يفتقر
الى دليل كقوله تعالى وثيابك فطهر فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس
ومن تاول ذهب الى ان المراد هو القلب لا الملبوس وهذا لا بد له من
دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلم

ان تصلي

انه قال اذا اردت الصلاة فادخل بيتك واغلق بابك فالظاهر من هذا هو البيت
والباب ومن تاول ذهب الى انه اراد انك تجمع عليك همّ قلبك وتمنع ان يخطر
به شي سوى امر الصلاة فعبّر عن القلب بالبيت وعن منع الخواطر التي تخطر
له باغلاق الباب وهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالمعنى
المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف والمعنى المعدول عن ظاهره الى
التاويل يقع فيه الخلاف اذ باب التاويل غير محصور والعلما متفاوتون في هذا فانه
قد ياخذ بعضهم وجها ضعيفا من التاويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من
الوجوه القوية فان السيف بضاربه

ان السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهن اذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراة حده مثل الجبان بكف كل جبان

التاويل
وذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتاويل الى شي غير مرضي فقال التفسير
بيان وضع اللفظ كقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فتفسيره من الرصد يقال
رصدته اذا رقبته وتاويله تحذير العباد من تعدي حدود الله ومخالفة امره اوامره
والذي عندي انه اصاب في الاخر ولم يصب في الاول لان قوله التفسير بيان
وضع اللفظ حقيقة لا مستند لجوازه بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ
حقيقة ومجازا لانه من الفسر وهو الكشف كتفسير الرصد في الاية المشار
اليها بالرقبة وتفسيره بالتحذير من تعدي حدود الله ومخالفة اوامره واما

وأمّا

التاويل فانه اخصّ من التفسير وذاك انه رجوع عن ظاهر اللفظ وهو مشتق
من الاول وهو الرجوع يقال آل يؤول اذا رجع وعلى هذا فان التاويل خاص
والتفسير عام فكل تاويل تفسير وليس كل تفسير تاويلا ولهذا يقال تفسير القران
ومن تفسيره ظاهر وباطن وهذا الفصل الذي نحن بصدد ذكره هاهنا اكثره
يرجع الى التاويل لانه ادق ولا يخلو تاويل المعنى من ثلاثة اقسام اما ان يفهم
منه شيء واحد لا يحتمل غيره واما ان يفهم منه الشيء وغيره وتلك الغيرية اما
ان تكون ضدا او لا تكون ضدا وليس لنا قسم رابع فالاول يقع عليه اكثر
الاشعار ولا يجري في الرقة واللطافة مجرى القسمين الاخيرين واما القسم
الثاني فانه قليل الوقوع جدا وهو من طرف التاويلات المعنوية لان دلالة
اللفظ على المعنى وضده اغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده فمما
جا منه قول النبي صلى الله عليه وسلم صلاة في مسجدي هذا خير من الف
صلاة في غيره من المساجد الا المسجد الحرام فهذا الحديث يستخرج منه
معنيان ضدان احدهما ان المسجد الحرام افضل من مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم والاخر ان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من
المسجد الحرام اي ان صلاة واحدة فيه لا تفضل الف صلاة في المسجد الحرام
بل تفضل ما دونها بخلاف المساجد الباقية فان الف صلاة فيها تقصر عن
صلاة واحدة فيه وكذلك جا قول النبي صلى الله عليه وسلم ايضا من

كلام

الدقة

بل فيه معنى ثالث وهو المساواة بلا خيرية وانحصار الكلام على المعنيين ليس بسديد الا اذا ادعي انه اراد المعنى المضادد لا غيره

كلام السوء الاولى اذا لم تستحي فافعل ما شئت وهذا يشتمل على معنيين ضدين
احدهما ان المراد به اذا لم تفعل فعلا يستحيى منه فافعل ما شئت والاخر
ان المراد به اذا لم يكن لك حياء يزعك عن فعل ما يستحيى منه فافعل ما شئت
وهذان معنيان ضدان احدهما مدح والاخر ذم ومثله ورد في الحديث
النبوي ايضا وذلك انه ذكر شريح الحضرمي عند النبي صلى الله عليه وسلم
فقال لا يتوسد القران وهذا يحتمل مدحا وذما اما المدح فالمراد به انه لا ينام
الليل عن القران فيكون القران متوسدا معه لم يتهجد به واما الذم فالمراد به انه
لا يحفظ من القران شيئا فاذا نام لم يتوسد معه القران وهذان التاويلان من
الاضداد وكثيرا ما يرد امثال ذلك في الاحاديث النبوية ويجري على هذا
النهج من الشعر قول ابي الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها كافورا

واظلم اهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان احدهما ان المنعم عليه يحسد المنعم
والاخر ان المنعم يحسد المنعم عليه وكذلك ورد قوله ايضا من قصيدة يمدحه

فما زلت ما املت منك فربما سريت بما لا يعجز الطير ورده

فان هذا البيت يحتمل مدحا وذما واذا اخذ بمفرده من غير نظر الى ما قبله فانه
يكون بالذم اولى منه بالمدح لانه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ وصدر
البيت معنى بان الشرطية وقد اجيبت بلفظة رب التي معناها التقليل اي

لست من نوالك على يقين فان نلته فربما وصلت الى مورد لا يصل اليه الطير لبعده
واذا نظر الى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله
وكثيرا ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره كقوله من قصيدة اولها

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من اعدايك القمران
ولله سر في علاك وانما كلام العدى ضرب من الهذيان

ثم قال فيها

فمالك تعنى بالاسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

فان هذا بالذم اشبه منه بالمدح لانه يقول انك لم تبلغ ما بلغته بسعيك
واهتمامك بل بجد وسعادة وهذا لا فضل فيه لان السعادة تنال الخامل والجاهل فقد
ومن لا يستحقها واكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصايده الكافوريات
وحكى ابو الفتح بن جني قال قرأت على ابي الطيب المتنبي ديوانه الى ان وصلت الى
قصيدته التي اولها اغالب فيك الشوق والشوق اغلب
فاتيت منها على هذا البيت وهو

وما طربي لما رايتك بدعة لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

فقلت يا ابا الطيب لم تزد على ان جعلته ابا زنة فضحك لقولي وهذا القسم
من الكلام يسمى الموجه اي له وجهان وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن
تاتيه واما القسم الثالث فانه يكون اكثر وقوعا من القسم الثاني وهو واسطة

بين طرفين لان القسم الاول كثير الوقوع والقسم الثاني قليل الوقوع وهذا
القسم الثالث وسط بينهما فمما جاء منه قوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم فان هذا
له وجهان من التاويل احدهما القتل الحقيقي الذي هو معروف والاخر هو
القتل المجازي وهو الاكباب على المعاصي فان الانسان اذا اكب على المعاصي
قتل نفسه في الاخرة ومن ذلك ما ورد في قصة ابرهيم وذبح ولده عليهما
السلم فقال الله تعالى حكاية عنه وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب
هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في
المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تومر ستجدني ان شا الله
من الصابرين فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابرهيم قد صدقت الرويا انا
كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلا المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا
عليه في الاخرين سلام على ابرهيم كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المو
وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله تعالى وبشرناه باسحق نبيا من
الصالحين قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده وقد يكون اسمنا فا
بذكره بعد ذكر اسمعيل عليه السلام وذبحه والتاويل متجاذب بين هذين
فلا دليل على الاختصاص باحدهما ولم يرد في القران ما يدل على ان الذبيح اسمعيل
ولا اسحق عليهما السلام وكذلك لم يرد في الاخبار التي صحت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم واما ما يروى عنه انه قال انا ابن الذبيحين فخارج

عن الاخبار الصحيحة وفي التوراة ان اسحق عليه السلام هو الذبيح ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لازواجه اطولكن يدا اسرعكن لحوقا بي فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بايديهن حتى ينظرن ايهن اطول يدا ثم كانت زينب اسرعهن لحوقا به وكانت كثيرة الصدقة فعلمن حينئذ انه لم يرد الجارحة وانما اراد الصدقة فهذا القول يدل على المعنيين المشار اليهما ومن ذلك ما روي عن انس بن مالك رضي الله عنه انه قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فلم يقل لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم افعله لم لا فعلته وهذا القول يحتمل وجهين من التاويل احدهما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على خلق من يصحبه والاخر انه وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الاعمال كانه يستنطق لما في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفعله من غير حاجة الى استيذانه ومن ذلك ما ورد في الادعية النبوية فانه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال اللهم اقطع اثره وهذا يحتمل ثلاثة اوجه من التاويل الاول انه دعا عليه بالزمانة لانه اذا زمن لا يستطيع ان يمشي على الارض فينقطع اثره الوجه الثاني انه دعا عليه بان لا يكون له نسل من بعده ولا عقب الوجه الثالث انه دعا عليه بان لا يكون له اثر من الاثار مطلقا وهو ان لا يفعل فعلا يبقى اثره من بعده كائنا ما كان من عقب او بناء او غراس

او غير ذلك وظفرت الحرورية برجل فقالوا له ابرأ من علي وعثمن فقال انا من علي وعثمن بري فهذا يدل على معنيين احدهما انه بري من عثمن وحده والاخر انه بري منهما جميعا والرجل لم يرد الا الوجه الاول ومن ذلك ما يحكى عن عبد المسيح بن بقيلة لما نزل بهم خلد بن الوليد على الحيرة وذاك انه خرج عبد المسيح فلما مثل بين يديه قال انعم صباحا ايها الملك قال له خلد قد اغنانا الله عن تحيتك هذه بسلام عليكم ثم قال له من اين اقصى اثرك قال من ظهر ابي قال فمن اين خرجت قال من بطن امي قال فعلام انت قال على الارض قال ففيم انت قال في ثيابي قال ابن كم انت قال ابن رجل واحد قال خلد ما رايت كاليوم قط انا اسأله عن الشي وهو ينحو في غيره وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن وهو يصلح ان يكون جوابا لخلد عما سأل ويصلح ان يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بقيلة وقد ورد في التوراة النهي ان يوكل الجدي بلبن امه وهذا يحتمل التحريم من وجهين احدهما ما دل عليه ظاهر لفظه وهو تحريم لحم الجدي بلبن امه خاصة واذا اكل بلبن غير لبن امه جاز ذلك ولم يكن حراما وهذا لا ياخذ به احد من اليهود الوجه الاخر وهو الذي يوخذ به عند اليهود جميعهم ان اكل اللحم باللبن حرام كائنا ما كان من اللحوم الا طايفة منهم يسمون القرايين فانهم تاولوا فاكلوا لحم الطير باللبن وقالوا انما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الالبان والطير من ذوات البيض

لا من ذوات الالبان ومما يجري على هذا النهج ما يحكى عن افلاطن انه قال
ترك الدوا ردوا فذهب بعض الاطباء انه اراد اذا لطف المزاج وانتهى الى
غاية لا يحتمل الدوا فتركه حينيذ والاضراب عنه دوا وذهب اخرون
الى انه اراد بالترك الوضع اي وضع الدوا على الدا ردوا يشير بذلك الى
حذق الطبيب في اوقات علاجه ومثله في الشعر قول الفرزدق

اذا جعفر مرت على هضبة الحمى فقد اخزت الاحيا منها
قبورها

وهذا يدل على معنيين احدهما ذم الاحيا والاخر ذم الاموات اما ذم
الاحيا فهو انهم خذلوا الاموات يريد انهم تلاتوا في قتالهم وقوم اخرون
فقر الاحيا عنهم واسلموهم او انهم استنجدوهم فلم ينجدوهم واما ذم الامو
فهو ان لهم مخازي وفضايح توجب عارا وشنارا فهم يعدون بها الاحيا ويلصقونها
بهم وعلى هذا ورد قول ابي تمام

بالشعر طول اذا اصطكت قصايده في معشر وبه عن معشر
قصر

فهذا البيت يحتمل تاويلين احدهما ان الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق
بمدح غيرك يريد بذلك ان ماثره كثيره وماثر غيره قليله والاخر ان الشعر
يكون ذا فخر ونباهة بمدحك وذا خمول بمدح غيرك ولفظة الطول تفهم

منها ضد القصر ويفهم منها الفخر من قولنا طال فلان على فلان اي فخر
عليه ومما ينتظم بهذا السلك قول ابي كبير الهذلي

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التاويل احدهما انه اراد بسعي الدهر سرعة تقضي الاوقا
مدة الوصال فلما انقضى الوصل عاد الدهر الى حالته في السكون والبطء الاخر
انه اراد بسعي الدهر سعي اهل الدهر بالنمايم والوشايات فلما انقضى ما كان
بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية وهذا من باب وضع المضاف اليه
مكان المضاف كقوله تعالى واسال القرية اي اهل القرية ومن الدقيق المعنى في
هذا الباب قول ابي الطيب المتنبي في عضد الدولة من جملة قصيدته التي اولها

اوه بديل من قولتي واها فقال

لو فطنت خيله لنايله لم يرضها ان تراه يرضاها

وهذا يستنبط منه معنيان غريبان احدهما ان خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة
لما رضيت له بان تكون من جملة عطاياه لان عطاياه انفس منها الاخر ان خيله
لو علمت انه يهبها في جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكره خروجها عن ملكه
هذان الوجهان انا ذكرتهما وانما المذكور منهما هو احدهما وهذا
الذي اشرت اليه من الكلام على المعاني وتاويلاتها كاف لمن عنده
ذوق وله قوة على اشباهها ونظايرها

الفصل الرابع في الترجيح بين المعاني

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهمها ودينارها بل المحك
الذي يعلم منه مقدار عيارها ولا يوزن به الا ذو فكر منتقد وبحجة منتقد
فليس كل من حمل ميزانا سمي صرافا ولا كل من وزن به سمي عرافا والفرق بين هذا
الترجيح والترجيح الفقهي ان هناك يرجح بين دليلي الخصمين في حكم شرعي وهاهنا
يرجح بين جانبي فصاحته وبلاغته في الفاظه ومعاني خطابيته وبيان ذلك ان
صاحب الترجيح الفقهي يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الاحاد وبين
المسند والمرسل وما جرى هذا المجرى وهذا لا يتعرض اليه صاحب علم
البيان لانه ليس من شانه ولكن الذي هو من شانه ان يرجح بين حقيقة ومجازين او بين يرجح
حقيقتين او بين مجازين ويكون ناظرا في ذلك كله الى الصناعة الخطابية وربما
اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهي في بعض المواضع كالترجيح بين عام وخاص او ما
شابه ذلك وكنا قدمنا القول في الحكم على المعاني وانقسامها ولنبين في هذا
الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تاويلاتها فنقول اما القسم الاول
من المعاني فلا تعلق للترجيح به اذ ما دل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل الا وجها
واحدا فليس من هذا الباب في شيء والترجيح انما يقع بين معنيين يدل عليهما
لفظ واحد ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة اقسام اما ان يكون اللفظ حقيقة
في احدهما مجازا في الاخر او حقيقة فيهما جميعا او مجازا فيهما جميعا وليس

لنا قسم رابع والترجيح بين الحقيقتين او بين المجازين يحتاج الى نظر واما الترجيح
بين الحقيقة والمجاز فانه يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما والشيان
المختلفان يظهر الفرق بينهما بخلاف ما يظهر بين الشيئين المشتبهين فمثال
الحقيقة والمجاز قوله تعالى ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى
اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون
فالجلود هاهنا تفسر حقيقة ومجازا اما الحقيقة فيراد بها الجلود
مطلقا واما المجاز فيراد بها الفروج خاصة وهذا هو المانع البلاغي الذي
يرجح جانب المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية عن المكني عنه وقد
يسال هاهنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغي وينال
ما يبان به هذا الترجيح فيقال طريقه ان لفظ الجلود عام فلا يخلو اما ان يراد به
الجلود مطلقا او يراد به الجوارح التي هي ادوات الاعمال خاصة ولا يجوز
ان يراد به الجلود على الاطلاق لان شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة شهادة
باطلة اذ هي شهادة غير شاهد والشهادة هاهنا يراد بها الاقرار فنقول
اليد انا فعلت كذا وكذا وتقول الرجل انا مشيت الى كذا وكذا وكذلك الجوارح
الباقية تنطق مقرة باعمالها فترجح بهذا ان يكون المراد به شهادة الجوارح
واذا اريد به الجوارح فلا يخلو اما ان يراد به الكل او البعض فان اريد به
الكل دخل تحته السمع والبصر ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فايدة وان اريد

به البعض نهو بالفرج اخص منه بغيره من الجوارح لامرين احدهما ان
الجوارح كلها قد ذكرت في القران الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصيه
ما عدا الفرج فكان حمل الجلد عليه اولى ليستكمل ذكر الجميع الاخر انه ليس
في الجوارح ما يكره التصريح بذكره الا الفرج فكنى عنه بالجلد لانه
موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته فان قيل ان تخصيص السمع
والبصر بالذكر من باب التفضيل كقوله تعالى فاكهة ونخل ورمان والنخل والرمان
من الفاكهة قلت في الجواب هذا القول عليك لا لك لان النخل والرمان
انما ذكر التفضيل لهما في الشكل او في الطعم والفضيلة ها هنا في ذكر الشهادة
انما هي تعظيم لامر المعصيه وغير السمع والبصر اعظم في المعصيه لان
معصية السمع انما تكون في سماع غيبة او في سماع صوت مزمار او وتر
او ما جرى هذا المجرى ومعصية البصر انما تكون بالنظر الى محرم وكلا
المعصيتين لا حد فيها واما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر فاعظم
لان معصية اليد توجب القطع ومعصية الفرج توجب جلد مايه او
الرجم وهذا اعظم فكان ينبغي ان يخص بالذكر دون السمع والبصر واذا ثبت
فساد ما ذهبت اليه فلم يكن المراد بالجلود الا الفروج خاصة واما مثال
المعنيين اذا كانا حقيقيين فقول النبي صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في
خبايا الارض والخبايا جمع خبيه وهو كل مخبي كائنا ما كان وهذا يلمع الى

معنيين حقيقيين احدهما الكنوز المخبوه في بطون الارض والاخر الحرث والغراس
وجانب الحرث والغراس ارجح لان مواضع الكنوز لا يعلمها حتى يلتمس والنبي صلى
الله عليه وسلم لا يامر بذلك لانه شي مجهول غير معلوم فبقي المراد
بخبايا الارض ما يحرث ويغترس ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم
اذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال وهذا الحديث مرخص في ترك
صلاة الجماعه بسبب المطر وله تاويلان احدهما انه اراد نعال الارض وهو
ما غلظ منها والاخر انه اراد الاحذيه والوجه هو الثاني لظهوره في
الدلاله على المعنى واكثر العلما عليه ولو كان المراد به ما غلظ من الارض
لخرج عن هذا الحكم كل ارض تكون ارضه سهلة لا غلظ فيها واما مثال
المعنيين المجازيين فقول ابي تمام

فقد بلونا ابا سعيد حديثا وبلونا ابا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا ورعيناه بارضا وجميما
فعلمنا ان ليس الا بشق النفس صار الكريم يدعى كريما

فالساحل والقليب يستخرج منهما تاويلان مجازيان احدهما انه اراد بهما
الكثير والقليل بالنسبه الى الساحل والقليب والاخر انه اراد بهما السبب
وغير السبب فان الساحل لا يحتاج في وروده الى سبب والقليب يحتاج
في وروده الى سبب وكلا هذين المعنيين مجاز فان حقيقة الساحل والقليب

صوابه وجميما بالجيم والله الموفق

تخيرتها والوجه هو الثاني لانه ادل على بلاغة القايل ومدح المقول فيه
اما بلاغة القايل فالسلامة من هجنة التكرير والمخالفة بين صدر البيت وعجزه
فان عجزه يدل على القليل والكثير لان البارض هو اول النبت حين يبدو وفاد اكثر
وتكاثف سمي جميما فكانه قال اخذنا منه تبرعا ومسئلة وقليلا وكثيرا واما مدح
المقول فيه فلتعدادها لانه الاربع في تبرعه وسؤاله واكثاره واقلاله وما
في معناه هذه الاحوال من المشاق فهذا ما يتعلق بالترجيح البلاغي بين الحقيقة
والحقيقة وبين المجاز والمجاز وبين الحقيقة والمجاز وها هنا ترجيح اخر
لا يتعلق بما اشرنا اليه هو خارج عما يقتضيه المعاني الخطابية من جهة إذ
الفصاحة والبلاغة وذلك ان نرجح بين معنيين احدهما تام والاخر مقدر او
يكون احدهما مناسبا للمعنى بتقدمه او تاخره عنه والاخر غير مناسب
او بان يتطرق الترجيح بينهما الى شي خارج عن اللفظ تمثال المعنيين
اذا كان احدهما تاما والاخر مقدرا فهذا الموضع من ادق معاني الترجيح
والطفها والفرق بين المعنيين المشار اليهما ان المعنى التام هو الذي بال
يدل عليه لفظه ولا يتعداه واما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه
بل يستدل عليه بقرينة اخرى و[illegible] قد تكون من توابعه وقد لا من صح
تكون فما جا من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في سايمة الغنم
زكاة فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان احدهما تام والاخر مقدر فالتام

دلالة

دلالته على وجوب الزكاة في السايمة لا غير واما المقدر فدلالته على سقوط
الزكاة عن المعلوفة الا انه ليس مفهوما من نفس اللفظ بل من قرينة اخرى هي
وهو صح كالتابعة له وهي انه لما خصت السايمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم
ذلك ان المعلوفة لا زكاة فيها وللفقهاء في ذلك مجاذبات جدلية يطول
الكلام فيها وليس هذا موضعها والذي يترجح عندي هو القول بفحوى
المعنى المقدر وهو الذي تسميه الفقهاء مفهوم الخطاب وله في الشعر
اشباه ونظاير فمما ورد من ذلك شعرا قول جري بن كليب الفقعسي من
شعراء الحماسة وقد خطب اليه بن كوز ابنته فرده

تبغي ابن كوز والسفاهة كاسمها ليستاد منا ان شتونا
لياليا

فلا تطلبنها يا ابن كوز فانه غذا الناس مذ قام النبي الجواريا

وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر اما التام فان ابن كوز
قد صح سال ابا هذه الجارية ان يزوجه اياها في سنة والسنة الجدب فرده
وقال غذا الناس البنات مذ قام النبي صلى الله عليه وسلم وانا ايضا اغذو
مثله ولولا ذلك لوادتها كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجه اخر وهو انهم
كانوا يئدون البنات قبل الاسلام فلما جا النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك
فقوله غذا الناس مذ قام النبي الجواريا اي في النساء كثرة فتزوج بعضهن وخل ابنتي

ال صح

وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ واما المعنى المقدر الذي
يعلم من مفهوم الكلام فانه يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم امر باحيا البنات
ونهى عن الوأد ولو انكحتها لكنت قد وأدتها اذ لا فرق بين انكاحك اياها وبين
وأدها وهذا ذم للخاطب وهو معنى دقيق ومجي المعاني المستخرجة من
المفهوم قليل في الشعر واما ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه
فان ذلك ادق من الاول والطف ماخذا فمما ورد منه قول النبي صلى الله عليه
وسلم من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين فهذا يستخرج منه
المعنيان المشار اليهما فالقائم منهما يدل على انه من جعل قاضيا فقد عرض
نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين واما المقدر فانه يدل على انه من جعل
قاضيا فقد امر بمفارقة هواه وهذا لا يدل عليه اللفظ بنفسه بل يستدل
عليه بقرينة اخرى ولكنها ليست من توابعه ووجه ذلك ان لفظ الحديث
عام يشمل القضاة على الاطلاق ولا يخلو اما ان يراد به عذاب الدنيا او
عذاب الاخرة ولا يجوز ان يكون المراد به عذاب الاخرة لانه ليس كل قاض
معذبا في الاخرة بل المعذب منهم قضاة السوء فوضح بهذا ان المراد بالحديث
عذاب الدنيا وعلى هذا فلا يخلو اما ان يكون العذاب صورة او معنى ولا يجوز
ان يكون صورة لانا نرى الانسان اذا جعل قاضيا لا يذبح ولا يناله شي من ذلك
فبقي ان يكون المراد به عذابا معنويا وهو من المجازي غير الحقيقي وفحوى

ذلك

ذلك ان نفس الانسان مركبة على حب هواها فاذا جعل قاضيا فقد امر بترك
ما جبل على حبه من الامتناع من الرشوة والحكم لصديقه على عدوه ورفع
الحجاب بينه وبين الناس والجلوس للحكم في اوقات راحته وغير ذلك من الاشيا
المكروهة التي تشق على النفس وتجد بها الما مبرحا والذبح هو قطع الحلقوم
والالم حاصل به وكذلك قطع النفس عن هواها هو ذبح معنوي والالم ايضا
حاصل به وهو كالذبح الحقيقي بل اشد منه لان الم الذبح الحقيقي يكون لحظة واحدة
ثم ينقضي ويزول والم قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي فهو اشد العذاب
قال الله عز وجل في عذاب اهل النار وحيل بينهم وبين ما يشتهون وقال في نعيم
اهل الجنة فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وكثيرا ما رأينا وسمعنا من
حمله حب الشي على اتلاف نفسه في طلبه وركوب الاهوال من اجله فاذا امتنع
عنه مع حبه اياه فقد ذبح نفسه اي قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة
ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد الاصغر جهاد النفس الجهاد
الاكبر فكما ان مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فلذلك قطعها عن
هواها ذبح بغير سكين وهذا موضع غامض والترجيح فيه مختص بالوجه
الاخر لاشتماله على المعنى المقصود وهو المراد من القضاة على الاطلاق
واما مثال المعنيين اذا كان احدهما مناسبا لمعنى تقدمه او لمعنى
تاخر عنه والاخر غير مناسب فالاول وهو ما كان مناسبا لمعنى تقدمه

فمخالفتها الاقدام على الحرب جهاد الكفر ونفس الحرب جهاد اصغر ولكن المخاطرة لا يسع الابن المخلد ولا يسع من المنفعة تامل وافهم والله الموفق للصواب

انتقلنا من الجهاد الاكبر الى الجهاد الاكبر الكفار الجهاد الا

كقوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا فالدعا هاهنا
يدل على معنيين احدهما النهي ان يدعا الرسول باسمه فيقال له يا محمد كما يدعو
بعضهم بعضا باسمايهم وانما يقال له يا رسول الله او يا نبي الله الاخر
النهي ان يجعلوا حضورهم عنده اذا دعاهم لامر من الامور كحضور بعضهم
عند بعض بل يتادبون معه بان لا يفارقوا مجلسه الا باذنه وهذا الوجه هو
المراد لمناسبته معنى الايه التي قبلها وهو قوله تعالى انما المومنون الذين
امنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه
واما الثاني وهو ما كان مناسبا المعنى باخر عنه فكقوله تعالى والتين والزيتون
وطور سينين فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف وهما اسما جبلين ايضا
وتاويلهما بالجبلين اولى للمناسبة بينهما وبين ما اتى بعدهما من ذكر الجبل الذي
هو الطور وعلى هذا ورد قول الشاعر في ابيات الحماسه

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد على لانسان من الناس درهما
ولكنني مولى قضاعة كلها فلست ابالي أن ادين وتغرما

فاذا نظرنا الى البيت الاول وجدناه يحتمل مدحا وذما اي انهم كانوا يغنونه
بعطايهم ان يدين وانه كان يخاف البين حذرا ان لا يقوموا عنه بوفا به لكن
البيت الثاني حقق ان الاول ذم وليس بمدح فهذا المعنى لا يتحقق فهمه
الا باخره واما الذي يكون الترجيح فيه بسبب خارج عن مفهوم اللفظ

بقوله

فقوله تعالى وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم فهذا
يستنبط منه معنيان احدهما ان الله يعلم السر والجهر في السموات والارض
وفي ذلك تقديم وتاخير اي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض
الاخر انه في السموات وانه يعلم السر والجهر في الارض من بني ادم الا ان الوقف
يكون على السموات ثم يبتدا بعد الكلام فيقول يعلم سركم وجهركم في الارض
الا ان هذا يمنع منه اعتقاد التجسيم وذلك شي خارج عن مفهوم اللفظ

الفصل الخامس في جوامع الكلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم اوتيت جوامع الكلم فالكلم جمع كلمة والجوامع
جمع جامعة والجامعة اسم فاعله من جمعت فهي جامعة كما يقال في المذكر
جمع فهو جامع والمراد بذلك انه صلى الله عليه وسلم اوتي الكلم الجوامع
للمعاني وهو عندي ينقسم قسمين الاول منهما هو ما استخرجته ونبهت
عليه ولم يكن لاحد فيه قول سابق وهو ان ثنا الفاظا تتضمن من المعنى
ما لا يتضمنه اخواتها مما يجوز ان تستعمل في مكانها فمن ذلك ما ياتي على حكم
المجاز ومنه ما ياتي على حكم الحقيقه اما ما ياتي على حكم المجاز فقوله صلى الله
عليه وسلم يوم حنين الان حمي الوطيس وهذا لم يسمع من احد قبل رسول
الله صلى الله عليه وسلم لو اتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا استعرت
الحرب لما كان مودّيا من المعنى ما يوديه حمي الوطيس والفرق بينهما ان

الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار وذلك يخيل الى السامع
ان هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في
قولنا استعرت الحرب او ما يجري مجراه وقد ورد شي من ذلك في
اقوال الشعرا المفلقين ولقد تصفحت الاشعار قديمها وحديثها وحفظت
ما حفظته منها وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي
فيه مثل هذه الالفاظ اجد لها نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الالحان
وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له سوى انه يستحسنه
من غير نظر فيما نظرت انا فيه ويظنه كغيره من الالفاظ المستحسنة فمما
جا من ذلك قول ابي تمام

كم صارم عضب اناف على قفا ... منهم لاعبا الوغا حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه ... وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة وهو عبارة عن الراس ولا يجا بمثلها
في معناها ما يسد مسدها وكذلك ورد قول البحتري

قلب يطل على افكاره ويد ... تمضي الامور ونفس لهوها التعب

فقوله قلب يطل على افكاره من الكلمات الجامعة الجوامع ومراده بذلك ان
قلبه لا تملاه الافكار ولا تحيط به وانما هو عال عليها يصف بذلك عدم
احتفاله بالفوادح المحببة لا يوتي بمثلها بما يسد مسدها واما ما ياتي

على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي

سقى الله اوطارا لنا ومآربا ... تقطع من اقرانها ما تقطعا

ليالي تنسيني الليالي حسابها ... بلهنية اقضي بها الحول اجمعا

سدى غمرة لا اعرف اليوم باسمه ... واعمل فيه اللهو مرأى

ومسمعا

فقوله لا اعرف اليوم باسمه من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن
معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يات بمثل
قوله لا اعرف اليوم باسمه واما القسم الثاني من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز
الذي يدل فيه بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي ان الفاظه صلوات
الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على ايجازها واختصارها وجل كلامه
جار هذا المجرى فلا يحتاج الى ضرب الامثلة به وسياتي في باب الايجاز
منه ما فيه كفاية ومقنع فان قيل فما الفرق بين هذين القسمين اللذين
ذكرتهما فانهما في النظر سوا قلت في الجواب ان الايجاز هو ان يوتى بالفاظ داله
على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير
لها فيما يعبر به عن معناها بل ان كانت لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف
اخر خارج عن وصف الايجاز وحينئذ تكون ايجازا وزيادة واما هذا القسم
الاخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها فتارة تكون موجزة وتارة

لانكون موجزة ولقبس الغرض منها الايجاز وانما الغرض مكانها من الحسن
الذي لا نظير لها فيه الا ترى الى قول ابي تمام وطن النهي فان ذلك عبارة عن
الراس ولا شك ان الراس اوجز لان الراس لفظة واحدة ووطن النهي لفظتان
الا ان وطن النهي احسن في التعبير عن الراس من الراس فبان بهذا ان احد هذين
القسمين غير الاخر

الفصل السادس

في الحكمة التي هي ضالة المؤمن

قال النبي صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فهو احق بها اذا
وجدها والمراد بذلك ان الحكمة قد يستفيدها اهلها من غير اهلها كما يقال
رب رمية من غير رام وهذا لا يختص علما واحدا من العلوم بل يقع في كل علم
والمطلوب منه هاهنا هو ما يختص علم البيان من الفصاحة والبلاغة دون
غيره ومذ سمعت هذا الخبر النبوي جعلت وكدي في تتبع اقوال الناس
في مفاوضاتهم ومحاوراتهم فانه قد تصدر الاقوال البليغة والحكم والامثال
ممن لا يعلم مقدار ما يقوله فاستفدت بذلك فوايد كثيرة لا احصرها عددا
وانا اذكر منها طرفا يستدل به على اشباهه ونظايره فمن ذلك اني سرت
في بعض الطرق في صحبتي رجل بدوي من الانباط لا يعتد بقوله وكان
يقول غدا ندخل البلد ونشتغل عني وكان الامر كما قال فدخلت مدينة حلب

وشغلت

وشغلت عنه اياما ثم لقيني فقال لمن تروي فسترت عظامه وهذا القول
من الاقوال البليغة وهو من الحكمة التي هي الضالة المطلوبة عندك ومني الفصاحة
والبلاغة ثم اني سمعت منه بعد ذلك شيا يناسب قوله الاول فاني سفرت له
الى صاحب حلب في شي اخذته منه فاستقله وقال الملك اروى لشذوذ والبيت
وهذا ايضا من الحكمة في بابها وسافرت مرة اخرى على طريق المناظر
وكان في صحبتي رجل بدوي فسالته عن مسافة ما بين نهر وارك فقال
اذا خرج سرحاهما تلاقيا فعبر عن قرب المسافة بينهما باوجز عبارة
وابلغها ثم سالته ليلة من الليالي عن الصبح لنرحل من موضعنا فقال قد
ظهر الصبح الا انه لم يتبين الانسان بصره وهذا القول من الحكمة ايضا
وكان تزوج غلام من غلماني بدمشق فوقعت المراة منه بموقع وشغف
بها ثم اني سافرت من دمشق لمهم عرض لي وسافر ذلك الغلام في صحبتي
فلما غدنا من [illegible] قلق بامراته والمقام عندها فسالته عن حاله
فقال انها قد طالت وحسنت وهي كذا وكذا واخذ يصفها فقال له اخ
كان حاضرا يا مولاي هي تلك لم تزد شيا وانما هي في عينه جبار من الجبابرة
وهذا القول قد ورد في بعض ابيات الحماسة وهو معنى ودمن

ابيات المعاني

اهابك اجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها

وكثيرا ما تصدر هذه الاقوال عن السنة الجهال

وسمعت ما يجري هذا المجرى من بعض العبيد الاحابيش الذين لا يستطيعون
تقويم صيغ الالفاظ فضلا عما وراء ذلك وذاك انه رأى صبيا في يده طاقة ريحان
فقال هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان فلما سمعت ذلك منه اخذني منه
التعجب وذكرت شعر ابي نواس الذي تواصفه الناس في هذا المعنى وهو
قوله — ووردة جاء بها شادن في كفه اليمنى فحيانا
سبحت ربي حين ابصرتها ريحانة تحمل ريحانا
وحضر عندي في بعض الايام رجل نصراني موسوم بالطب وكان لا يحسن يقوّم
كلمة واحدة وهو الكن اللسان سيء العبارة فسألته عن زيارة شخص وهل
هو يتردد اليه ام لا فقال الظلام الليل يهديني الى باب من اوده وضوء النهار
يضلني عن باب من لا اوده وهذا من الطف المعاني واحسنها وهو من الحكمة
المطلوبة وكنت قصدت زيارة بعض الاخوان من الاجناد وهو من
الاغتام الاعجام فسألته عن حاله وكان قد توالت عليه امور طالت ايامها
وعظمت آلامها فقال لي في الجواب ما معناه انه لم يبق عندي لارتياع
لوقوع نائبة من النوائب وهذا المعنى لو اتى به شاعر مفلق او كاتب
بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان وكنت في سنة ثمان وثمانين وخمس
مائة بارض فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج
لعنهم الله وتقاتل الفريقان على مدينة يافا وكان الى جانبي ثلثة فرسان

فتعاقدوا على الحملة الى نحو العدو فلما حملوا صدق منهم اثنان ونكل واحد فقيل
له في ذلك فقال الموت طعام لا تجشمه المعدة فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها
واذا هي صادرة عن رجل من اهل بصرى غتم من الاغتام ولو اخذت في ذكر ما
سمعته من هذا الاسلوب وانما دللت بيسير ما ذكرته على المراد وهو انه
يجب على المتصدي للشعر والخطابة ان يتتبع اقوال الناس في محاوراتهم فانه
لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة ولو اراد استخراج ذلك بفكره لاعجزه
ويحكى عن ابي تمام انه لما نظم قصيدته البائية التي اولها
على مثلها من اربع وملاعب — انتهى منها الى قوله
ترى اقبح الاشياء اوبة آمل كسته يد المأمول حلة خائب
ثم قال — واحسن من نور تفتحه الصبا
ووقف عند صدر هذا البيت يردده واذا سائل يسأل على الباب وهو
يقول من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا فقال ابو تمام
بياض العطايا في سواد المطالب
فاتم صدر البيت الذي كان يردده من كلام السائل وسمعت امرأة قد توفي
لها ولد وهو بكرها الذي هو اول اولادها فقالت كيف لا احزن له وهو
اول درهم وقع في الكيس واخذت انا هذا المعنى واودعته كتابا من كتبي في
التعازي وهو كتاب كتبته الى بعض الاخوان وقد توفي بكره من الاولاد فقلت

وبهرا اول درهم ذخرته في كيس الادخار واعددته لحوادث الليل والنهار
وبلغني عن الشيخ ابي محمد احمد بن احمد المعروف بابن الخشاب البغدادي وكان اماما
في علم العربية وغيره فقيل انه كان كثيرا ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين
فاذا اتاه طلبة العلم لا يجدونه في اكثر اوقاته الا هناك فليم على ذلك وقيل
له انت امام الناس في العلم فما الذي يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة
فقال لو علمتم ما اعلم لما لمتم ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة
فانه يجري في ضمن هذيانهم معاني غريبة لطيفة ولو اردت انا وغيري ان
ناتي بمثلها لما استطعنا ذلك ولا شك ان هذا الرجل راى ما رايته ونظر الى ما
نظرت اليه

الفصل السابع في الحقيقة والمجاز

وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان لا بل هو علم البيان باجمعه فان في
تصريف العبارات على الاسلوب المجازي فوائد كثيرة سيرد بيانها في مواضعها
من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وقد نبهنا في هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها
فاما الحقيقة فهي اللفظ الدال على موضوعه الاصلي واما المجاز فهو ما اريد به
غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة وهو ماخوذ من جاز هذا الموضع الى هذا
الموضع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذن اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمعاج والمزار
واشباههما وحقيقته هي الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ

من

من محل الى محل كقولنا زيد اسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا
الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية اي عبرنا وانما عبرنا
من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هي صفة الشجاعة وقد يكون
العبور لغير وصلة وذلك هو الاتساع كقولهم في كتاب كليلة ودمنة قال
الاسد وقال الثعلب فان القول لا وصلة بينه وبين هذين بحال من الاحوال
وانما اجري عليهما اتساعا محضا لا غير ولها مثال في المجاز الحقيقي الذي
هو المكان المجاز فيه فانه لا يخلو اما ان يجاز من سهل الى سهل ومن وعر
الى وعر او من سهل الى وعر فالجواز من سهل الى سهل او من وعر الى
وعر هو كقولنا زيد اسد فالمشابهة حاصلة في ذات بينهما كالمشابهة
الحاصلة في المجاز والجواز من سهل الى وعر كقولهم قال الاسد وقال الثعلب
فانه لا مشابهة بين القول وبين هذين كذلك لا مشابهة بين السهل
والوعر وسياتي كشف الغطاء عن ذلك واشباع القول في تحقيقه في باب
الاستعارة فليؤخذ من هناك وقد ذهب قوم الى ان الكلام كله حقيقة
لا مجاز فيه وذهب اخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا هذين
ادّعاه المذهبين فاسد عندي وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما فاقول محل النزاع
هو ان اللغة كلها حقيقة والفاظها مجاز ولا فرق عندي بين قولك انها
كلها حقيقة او انها كلها مجاز فان كلا الطرفين عندي سواء لان منكرهما غير

مسلّم لها وانا بصدد ان ابين ان في اللغة حقيقة ومجازا والحقيقة اللغوية هي
حقيقة الالفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشي اي
نفسه وعينه فالحقيقة اللفظية اذن هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له
في اصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له الى لفظ اخر غيره
وتقرير ذلك بان اقول المخلوقات كلها تفتقر الى اسما يستدل بها عليها
ليعرف كل منها باسمه من اجل التفاهم بين الناس وهذا يقع ضرورة لابد منها
فالاسم الموضوع بازا المسمى هو حقيقة له فاذا نقل الى غيره صار مجازا
ومثال ذلك انا اذا قلنا شمس اردنا به هذا الكوكب العظيم الكبير الضو
وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازايه وكذلك اذا قلنا بحر اردنا به هذا الما
العظيم المجتمع الذي طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازايه فاذا
نقلنا الشمس الى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة وكذلك اذا
نقلنا البحر الى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة فان قيل ان الوجه
المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه
فالجواب عن ذلك من وجهين احدهما نظري والاخر وضعي اما النظري فهو ان
الالفاظ انما جعلت ادلة على افهام المعاني ولو كان ما ذهبت اليه صحيحا لكان البحر
يطلق على هذا الما العظيم الملح وعلى الرجل الجواد بالاشتراك وكذلك الشمس ايضا
فانها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكبير الضو وعلى الوجه المليح بالاشتراك وحيث

اذا ورد احد هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو
من احد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فانا اذا قلنا
شمس او بحر واطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد وانما يفهم
منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الما المعلوم لا غير فبطل اذن ما ذهبت اليه
بما بيناه واوضحناه فان قلت ان العرف يخالف ما ذهبت اليه فان من
الالفاظ ما اذا اطلق لم يذهب الفهم منه الا الى المجاز دون الحقيقة كقولهم
الغايط فان العرف خصص ذلك بقضا الحاجة دون المطمين من الارض قلت
في الجواب هذا شي ذهب اليه الفقها وليس كما ذهبوا اليه لانه ان كان اطلاق
اللفظ فيه بين عامة الناس من اسكاف وحداد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم
فهم لا يفهمون من الغايط الا قضا الحاجة لانهم لم يعلموا اصل وضع هذه
الكلمة وانها المطمين من الارض واما خاصة الناس الذين يعلمون اصل الوضع
فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا الحقيقة لا غير الا ترى ان هذه
اللفظة لما وردت في القران الكريم واريد بها قضا الحاجة قرنت بالفاظ
تدل على ذلك كقوله تعالى او جا احد منكم من الغايط فان قوله او جا احد منكم
دليل على انه اراد قضا الحاجة دون المطمين من الارض والكلام في هذا وامثاله
انما هو مع من علم اصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازا واما الجهال فلا
اعتبار بهم ولا اعتداد باقوالهم والعجب عندي من الفقها الذين دونوا

ذلك على ما دونوه وذهبوا الى ما ذهبوا اليه واما الوجه الوضعي فهو ان
المرجع في هذا وما يجري مجراه الى اصل اللغة التي هي وضع الاسماء على المسميات
ولم يوجد فيها ان الوجه المليح يسمى شمسا ولا ان الرجل الجواد يسمى بحرا
وانما اهل الخطابه والشعر توسعوا في الاساليب المعنويه فنقلوا الحقيقه
الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغه في اصل الوضع ولهذا اختص كل منهم
بشي اخترعه في التوسعات المجازيه هذا امرؤ القيس قد اخترع شيا لم يكن
قبله فمن ذلك انه اول من عبر عن الفرس بقيد الاوابد ولم يسمع ذلك لاحد
قبله وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم حنين الان حمي
الوطيس واراد بذلك شده الحرب فان الوطيس في اصل الوضع هو التنور
نقله الى الحرب استعاره ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي صلى
الله عليه وسلم ولو وضع اللغه ما ذكر شيا من ذلك فعلمنا حينيذ ان من اللغه
حقيقه بوضعه ومجاز بتوسعات اهل الخطابه والشعر وفي زماننا هذا
قد يخترعون اشيا من المجاز على حكم الاستعاره لم يكن من قبل ولو كان هذا
موقوفا من جهه واضع اللغه لما اخترعه اخر من بعده ولا زيد فيه ولا نقص
منه واما الفرق بينه وبين الحقيقه فهو ان الحقيقه جاريه على العموم في نظايره
الا ترى انا اذا قلنا فلان عالم لما صدق على كل ذي علم واحد صدق على كل ذي
علم بخلاف واسل القريه لا يصح الا في بعض الجمادات دون بعض اذ المراد اهل

القريه لانهم ممن يصح السوال لهم ولا يجوز ان يقال واسل الحجر والتراب وقد
يحسن ان يقال واسال الربع والطلل واعلم ان كل مجاز فله حقيقه لانه انما يصح ان
يطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقه موضوعه له اذ المجاز هو اسم للموضع
الذي ينتقل فيه من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من الحقيقه الى غيرها
واذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقه نقل عنها الى حالته المجازيه فكذلك ليس من
ضروره كل حقيقه ان يكون لها مجاز فان من الاسما ما لا مجاز له كاسما الاعلام
لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات وكذلك فاعلم ان
المجاز اولى بالاستعمال من الحقيقه في باب الفصاحه والبلاغه لانه لو لم يكن
كذلك لكانت الحقيقه التي هي الاصل اولى منه حيث هو فرع عليها وليس
الامر كذلك لانه قد ثبت وتحقق ان فايده الكلام الخطابي هي اثبات الغرض
المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر اليه عيانا الا
ترى ان حقيقه قولنا زيد اسد هي قولنا زيد شجاع لكن فرق بين القولين
في التصوير والتخييل واثبات الغرض المقصود في نفس السامع لان قولنا
زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى انه رجل جري مقدام واذا قلنا زيد
اسد تخيل عند ذلك صوره الاسد وهيئته وما عنده من البطش والقوه
ودق الفرايس وهذا لا نزاع فيه واعجب ما في العباره المجازيه انها تنقل
السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الاحوال حتى انها ليسمح بها البخيل ويشجع

بها الجبان ويحلم بها الطايش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام افاق وندم على ما كان منه من بذل مال او ترك عقوبة او اقدام على امر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغني عن القاء العصي والحبال واعلم انه اذا ورد عليك كلام يجوز ان تحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر فان كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز فلا ينبغي ان تحمل الا على طريق الحقيقة لانها هي الاصل والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الاصل الى الفرع الا لفايدة مثال ذلك قول البحتري

مهيب كحد السيف لو ضربت به ذرى اجإ ظلت واعلامها
وهد

ويروى ايضا لو ضربت به طلا اجا جمع طلية وهي العنق فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز لان الحقيقة اولى به الا ترى ان الذرى جمع ذروة وهو اعلى الشي يقال ذروة الجبل اعلاه والطلا جمع طلية وهي العنق والعنق اعلى الجسد ولا فرق بينهما في صفة العلو ها هنا فلا يعدل اذن الى المجاز اذ لا مزية له على الحقيقة وهكذا كلما يجي من الكلام الجاري هذا المجرى فانه ان لم يكن في المجاز زيادة فايدة على الحقيقة والا فلا يعدل اليه

الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة

اعلم

الفصاحة

اعلم ان هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج ولم يزل العلما من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ولم اجد من ذلك ما يعول عليه الا القليل وغاية ما يقال في هذا الباب ان الفصاحة هي الظهور والبيان في اصل الوضع اللغوي يقال افصح الصبح اذا ظهر ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات احدها انه اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحا الوجه الاخر انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقط صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص فان اللفظ قد يكون ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو فهو اذن فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا وليس كذلك بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال لانه اذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف الوجه الاخر انه اذا جي بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ينبغي ان يكون فصيحا وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن في اللفظ لا وصف قبح فهذه الاعتراضات الثلثة واردة على قول القايل ان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل ولما وقفت على اقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ولم يثبت عندي منها ما اعول عليه ولكثرة ملابستي لهذا الفن ومعاركتي اياه انكشف لي السر فيه وسأوضحه في كتابي

هذا واحق القول فيه فاقول ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين واعني
بالظاهر البين ان تكون الفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب
لغة وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مالوفة الاستعمال بين ارباب النظم
والنثر دايرة في كلامهم وانما كانت مالوفة الاستعمال دايرة في الكلام دون
غيرها من الالفاظ لمكان حسنها وذلك ان ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة
باعتبار الفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا
القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الالفاظ سبب استعمالها دون غيرها واستعما لها
دون غيرها سبب ظهورها وبيانها فالفصيح اذاً من الالفاظ هو الحسن فان
قيل من اي وجه علم ارباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه
وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه قلت في الجواب ان هذا من الامور
المحسوسة لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات فالذي يستلذه السمع منها
ويميل اليه هو الحسن والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح الا ترى ان السمع
يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ويكره صوت
الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس
والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لا خلاف في لفظة المزنة والديمة حسنة أن صح
يستلذها السمع وان لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات
الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد ومع هذا فانك ترى لفظتي

المزنة

المزنة والديمة وما جرى مجراهما مالوفة الاستعمال وترى لفظة البعاق
وما جرى مجراها متروكاً لا يستعمل وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة
الفصاحة او من ذوقه غير ذوق سليم لا جرم انه ذم وقدح فيه ولم يلتفت
اليه وان كان عربياً محضاً من الجاهلية الاقدمين فان حقيقة الشي اذا علمت
وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها فاذا ثبت ان الفصيح من
الالفاظ هو الحسن فاني اقول ان الفصاحة مختصة بالالفاظ دون المعاني
فان قيل ما الدليل على ذلك قلت في الجواب لو تاملت ما ذكرته بالنظر الصحيح
لما اوردت على هذا السوال ولكن اذا اوردته فساجيب عنه من وجهين
الوجه الاول اني قد قدمت القول بان الفصاحة في اصل الوضع اللغوي
من الظهور والبيان واللفظ الفصيح هو الظاهر البين وانما كان ظاهراً بيناً
لانه مالوف الاستعمال وانما كان مالوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه يدرك
بالسمع والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف من مخارج
الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو
الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان
قبحه وقد مثلت ذلك في المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة
البعاق ولو كانت الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في
الدلالة عليه سوا ليس منها حسن ومنها قبيح ولما لم يكن كذلك علمنا انها تخص

اللفظ دون المعنى وليس لقايل ههنا ان يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت
انت بين اللفظ والمعنى فاني لم افصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هي له
والمعنى يجي فيه ضمنا وتبعا الوجه الثاني ان وزن فعيل هو اسم فاعل من
فعل بفتح الفاء وضم العين نحو كرم فهو كريم وشرف فهو شريف ولطف فهو
لطيف وهذا مطرد في بابه وعلى هذا فان اللفظ الفصيح هو اسم فاعل من فصح
فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للابانة عن المعنى فكانت الفصاحة مختصة به
فان قيل انك قلت ان الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين اي المفهوم ونرى
من ايات القران ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى الا باستنباط وتفسير وتلك
الايات فصيحة لا محالة وهذا بخلاف ما ذكرته الجواب عن ذلك اني
اقول هذا لا ينقض على ما ذكرته لان الايات التي تستنبط وتحتاج الى تفسير
ليس شي منها الا ومفردات الفاظه كلها ظاهرة واضحة وانما التفسير يقع
في غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة الفاظه المفردة لان معنى المفردة
يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قادحا في فصاحة تلك
الالفاظ لانها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة اي ظاهرة
واضحة واعجب ما في ذلك ان تكون الالفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة
واضحة كلها واذا نظر اليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير وهذا
لا يختص به القران وحده بل في الاخبار النبوية والاشعار والخطب

والمكاتبات

والمكاتبات كثير من ذلك وسا اورد ههنا منه شيا فاقول قد ورد
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال صومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون
واضحاكم يوم تضحون وهذا الكلام مفهومة مفردات الفاظه لان الصوم والفطر
والاضحى مفهوم كله واذا سمع هذا الخبر من غير فكره قيل قد علمنا ان صومنا
يوم نصوم وفطرنا يوم نفطر واضحانا يوم نضحي فما الذي اعلمنا به مما لم نعلمه واذا
انعم الناظر نظره فيه علم ان معناه يحتاج الى استنباط والمراد به انه اذا اجتمع
الناس على ان اول شهر رمضان يوم كذا ولم يكن ذلك اليوم اوله فان الصوم
صحيح واوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس عليه وكذلك يقال في يوم
الفطر ويوم الاضحى ولهذا الخبر المشار اليه اشباه كثيرة تفهم معاني الفاظها
المفردة واذا تركبت يحتاج في فهمها الى استنباط واما ما ورد من ذلك شعرا
فكقول ابي تمام

ولهت فاظلم كل شي دونها واضا منها كل شي مظلم

فان قوله والظلمة والاضاءة كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت بجملته يحتاج في فهمه
الى استنباط والمراد به انها ولهت فاظلم ما بيني وبينها لما نالني من الجزع لولهها
كما يقول الجازع اظلمت الارض علي اي صرت كالاعمى الذي لا يبصر واما قوله
واضا منها كل شي مظلم اي وضح لي منها ما كان مستترا اعني من حبها اياي وكذلك
ورد قول ابي عبادة البحتري في منهزم

إذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه وكان الصديق يكره ذلك السهب
فان المسير والسهب والظهر والعدو والصديق كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت
بمجموعه يحتاج معناه الى استنباط والمراد به ان هذا المنهزم يرى ما بين يديه محبوبا
اليه وما خلفه مكروها عنده لانه يطلب النجاة ويؤثر البعد مما خلفه والقرب مما
امامه فاذا قطع سهبا وخلفه وراه صار عنده كالعدو وقبل ان يقطعه كان
له صديقا اي يطلب لقاه ويحب الدنو منه فانظر ايها المتامل الى ما ذكرته
من هذه الامثلة حتى يثبت عندك ما اردت بيانه واما البلاغة فان اصلها البلاغة
في وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ
الشي منتهاه وسمي الكلام بليغا من ذلك اي انه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية
والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني وهي اخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان
فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال كل كلام بليغ فصيح وليس
كل كلام فصيح بليغا ونفرق بينها وبين الفصاحة من وجه اخر غير الخاص والعام
وهو انها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب فان اللفظة الواحدة لا
يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة اذ يوجد فيها الوصف
المختص بالفصاحة وهو الحسن واما البلاغة فلا توجد فيها لخلوها من المعنى
المفيد الذي ينتظم كلاما مسألة تتعلق بهذا الفصل هل اخذ علم البيان
من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من اشعار العرب ام بالنظر وقضية

العقل

العقل الجواب عن ذلك انا نقول لم يوخذ علم البيان بالاستقراء
فان العرب الذين الفوا الشعر والخطب لا يخلو امرهم من حالين اما انهم ابتدعوا
ما اتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل او اخذوه
بالاستقراء ممن كان قبلهم فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على اسرار اللغة ومعرفتهم
جيدها من رديها وحسنها من قبيحها فذلك هو ما ذهبت اليه وان كانوا اخذوه
استقراء ممن كان قبلهم فهذا يتسلسل الى اول من ابتدعه ولم يستقره فان كل لغة
من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة المختصين بالالفاظ والمعاني
الا ان اللغة العربية مزية على غيرها لما فيها من التوسعات الخطابية
التي لا توجد في لغة اخرى سواها مسألة اخرى تتعلق بهذا الفصل
ايضا هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو ام لا
الجواب عن ذلك انا نقول الفرق بينهما ظاهر وذاك ان اقسام النحو
اخذت عن واضعها بالتقليد حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ولما كان
العقل يأباه ولا ينكره فانه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قلد في
ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول واما اقسام علم البيان من الفصاحة
والبلاغة فليست كذلك لانها استنبطت بالنظر وقضية العقل من غير
واضع اللغة ولم تفتقر فيها الى التوقيف منه بل اخذت الفاظ ومعان على هيئة
مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها فان كل

عارف باسرار الكلام من اي لغة كانت من اللغات يعلم ان اخراج المعاني في
الفاظ حسنة رايقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها في
الفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع ولو اراد واضع اللغة خلاف ذلك لما
قلدناه فان قيل لو اخذت اقسام النحو بالتقليد من واضعها لما احتيج الى ادلة
عليها وعلم بقضية النظر ان الفاعل ينبغي ان يكون مرفوعا والمفعول منصوبا الجواب
عن ذلك انا نقول هذه الادلة واهية لا تثبت على محك الجدل فانها ولا الذين
نصبوها لا فانها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير
دليل ابداه لهم فاستخرجوا لذلك ادلة وعللا والا فمن اين علم هؤلاء ان الحكمة التي
دعت الواضع الى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها

الفصل التاسع في اركان الكتابة

اعلم ان للكتابة شرايط واركانا اما شرايطها فكثيرة وهذا التاليف موضوع
لمجموعها وللقسم الاخر من الكلام المنظوم وليس يلزم الكاتب ان ياتي بالجميع في
كتاب واحد بل ياتي بكل نوع من انواعها في موضعه الذي يليق به كما ارينا
فيما ياتي من هذا التاليف واما الاركان التي لا بد من ايداعها في كل كتاب بلاغي ذي
شان فخمسة الاول ان يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة فان الكاتب من
اجاد المطلع والمقطع او يكون مبنيا عن مقصد الكتاب ولهذا باب يسمى باب المبادئ
والافتتاحات فليحذره وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر

الركن

الركن الثاني ان يكون الدعا المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني
عليه الكتاب وقد نبهنا على طرف من ذلك في باب يخصه ايضا فليطلب من هناك
وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته وكثيرا ما تجده في مكاتباتي التي انشانها
فاني قصدته فيها وتوخيته بخلاف غيري من الكتاب لانه ربما يوجد في كتابه غير
نبيه ولا تجده في كتابتي كثيرا الركن الثالث ان يكون خروج الكاتب من معنى الى
معنى برابطة لتكون رقاب المعاني اخذا بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة
ولذلك باب مفرد ايضا يسمى التخلص والاقتضاب وهذا الركن ايضا
يشترك فيه الكاتب والشاعر الركن الرابع ان تكون الفاظ الكتاب غير
مخلولقة بكثرة الاستعمال ولا اريد بذلك ان تكون الفاظا غريبة فان
ذلك عيب فاحش بل اريد ان تكون الالفاظ المستعملة مسبوكة سبكا
غريبا يظن السامع انها غير ما في ايدي الناس وهي مما في ايدي الناس وهناك
معترك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والاقدام شجاعتها
كما قال البحتري

باللفظ يقرب فهمه في بعده عنا ويبعد نيله في قربه

وهذا الموضع بعيد المنال كثير الاشكال يحتاج الى لطف ذوق وشهامة
خاطر وهو شبيه بالشي الذي يقال انه لا داخل العالم ولا خارج العالم
فلفظه هو الذي يستعمل وليس بالذي يستعمل اي ان مفردات الفاظه هي

المستعملة المألوفة ولكن تنسكبها وتركيبها هو الغريب العجيب واذا سموت
ايها الكاتب الى هذه الدرجة واستطعمت طعم هذا الكلام المشار اليه علمت
انه حينيذٍ كالروح الساكنة في بدنك التي قال الله تعالى فيها قل الروح من
امر ربي وليس كل خاطر يرقى الى هذه الدرجة ذلك فضل الله يؤتيه من يشا
والله ذو الفضل العظيم ومع هذا فلا تظنن ايها الناظر في كتابي اني اردت
بهذا القول اهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن
والملاحة ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فانه اذا كان كذلك كان
كصورة حسنة بديعة في حسنها الا ان صاحبها بليد أبله والمراد ان تكون
هذه الالفاظ المشار اليها جسما لمعنى شريف على ان تحصيل المعاني الشريفة
على الوجه الذي اشرت اليه ايسر من تحصيل الالفاظ المشار اليها وحكي
عن المبرد رحمه الله انه قال ليس احد في زماني الا وهو يسالني عن مشكل من
معاني القرآن او مشكل من معاني الحديث النبوي او غير ذلك من مشكلات
علم العربية فانا امام الناس في زماني هذا واذا عرضت لي حاجة الى بعض
اخواني واردت ان اكتب اليه شيئا من امرها احجم عن ذلك لاني ارتب المعنى
في نفسي ثم احاول ان اصوغه بالفاظ مرضية فلا استطيع ذلك ولقد
صدق في قوله هذا وانصف غاية الانصاف ولقد رايت كثيرا من الجهال
الذين هم من السوقة ارباب الحرف والصنائع وما منهم الا من يقع له المعنى

الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ولكنه لا يحسن ان يزوج بين
لفظين فالعبارة عن المعاني هي التي تخلبت بها العقول وعلى هذا فالناس كلهم
مشتركون في استخراج المعاني فانه لا يمتنع الجاهل الذي لا يعرف علما من العلوم
ان يكون ذكيا بالفطرة واستخراج المعاني انما هو بالذكا لا بتعلم العلم وبلغني ان
قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون
بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار
الشعر المنقولة عن العرب وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معاني حسنة
مليحة ومعاني غريبة وان لم تكن الالفاظ التي صيغت بها صنيعة وهذا الركن
ايضا يشترك فيه الكاتب والشاعر الركن الخامس الا يخلو الكتاب من معنى
من معاني القرآن والاخبار النبوية فانهما معدن الفصاحة والبلاغة وايراد
ذلك على الوجه الذي اشرت اليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حل معاني
القرآن والاخبار النبوية احسن من ايراده على وجه التضمين وتوخي ذلك
في كل كتاب عسر جدا وانا انفردت بذلك دون غيري من الكتاب فاني استعمله
في كل كتاب حتى انه ليأتي في الكتاب الواحد في عدة مواضع منه ولقد انشات
تقليدا لبعض الملوك مما يكتب من دواوين الخلافة ثم اني اعتبرت ما ورد فيه
من معاني الايات والاخبار النبوية فكان ما يزيد على الخمسين وهذا لا
اتكلفه تكلفا وانما ياتي على حسب ما يقتضيه الموضع الذي يذكر فيه وند

عرفتك ايها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك في الفصل الذي ياتي
بعد هذا الفصل فخذه من هناك وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر لان
الشاعر لا يلزمه ذلك اذ الشعر اكثره مدايح وايضا فانه لا يتمكن من صوغ معاني
القران والاخبار في المنظوم كما يتمكن منه في المنثور ولربما امكن ذلك في الشي
اليسير في بعض الاحيان واذا استكملت معرفة هذه الاركان الخمسه واتيت
بها في كل كتاب بلاغي ذي شان فقد استحقيت فضيله التقدم ووجب لك
ان تسمي نفسك كاتبا

الفصل العاشر في الطريق الى تعلم الكتابه

هذا الفصل هو كنز الكتابه ومنبعها وما رايت احدا تكلم فيه بشي ولما حببت الى
هذه الفضيله وبلغني الله منها ما بلغني وجدت الطريق اليها ينقسم الى ثلاث
شعب الاولى ان يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على اوضاعهم في استعمال
الالفاظ والمعاني ثم يحذو حذوهم وهذه ادنى الطبقات عندي الثانيه ان يمزج
كتابة المتقدمين بما يستجده لنفسه من زياده حسنه اما في تحسين الفاظ او في
تحسين معان وهذه هي الطبقه الوسطى وهي اعلا من التي قبلها الثالثه ان لا
يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شي منها بل يصرف همه الى حفظ القران الكريم
وكثير من الاخبار النبويه وعدة من دواوين فحول الشعرا ممن غلب على شعره
الاجاده في المعاني والالفاظ ثم ياخذ في الاقتباس من هذه الثلثه اعني القران

والاخبار النبويه والاشعار فيقوم ويقعد ويخطي ويصيب ويضل ويهتدي
حتى يستقيم على طريق يفتتحها لنفسه واخلق بتلك الطريق ان تكون مبتدعه
غريبه لا شركه لاحد من المتقدمين فيها وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصا رجها
يعد اماما في فن الكتابه كما يعد الشافعي وابو حنيفه ومالك وغيرهم من الايمه
المجتهدين في علم الفقه الا انها مستوعره جدا ولا يستطيعها الا من رزقه
الله لسانا هجاما وخاطرا رقاما وقد سهلت لي صعابها وذللت فجاجها وكنت
اشح باظهار ذلك لما عانيت في نيله من العناء فاني سلكت اليه كل طريق حتى
بلغته اخيرا وانما يكون نفاسة الاشيا لعزه حصولها ومشقة وصولها

ليس يحلو وجود الشي تعقبه طلابا حتى يعز طلابه عن ص

ولقد مارست الكتابه ممارسة كشفت لي اسرارها واظفرتني بكنوز جواهرها
اذ لم يظفر غيري باحجارها فما وجدت اعون الاشيا عليها الا حل ايات
القران العزيز والاخبار النبويه وحل الابيات الشعريه وقد قصرت هذا
الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق الى تعلمها لمن وقف على ما ذكرته
علم اني اتيت شيا فريا وان الله قد جعل تحت خواطري بنات الافكار سربا وهذه
الطريق يجهلها اكثر من يتعاطى هذه الصناعه والذي يعلمها منهم يرضى بالحوا اشي
والاطراف ويقنع من لبها بمعرفة ما في الاصداف ولو استخرج منها ما
استخرجت واستنتج ما استنتجت لهام بها في كل واد ونزع الى سلوك

طريقها كل زاد

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعا وسجودا

ولا ارتاب بهذا الطريق ان يكون الكاتب مرتبطا في كتابته بما يستخرجه من الشعر
والقران والاخبار النبوية بحيث انه لا ينشئ دابا الا من ذلك بل اريد انه اذا
حفظ القران واكثر من حفظ الاخبار النبويه والاشعار ثم نقب عن ذلك تنقيب
مطلع على معانيه مفتش عن دفاينه وقلبه ظهرا لبطن عرف حينيذ من اين
تؤكل الكتف فيما ينشيه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزه
الطبيعيه الا ترى ان صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر الى معرفه ايات الاحكام
واخبار الاحكام والى معرفة لغة الاحكام والناسخ والمنسوخ من الكتاب
والسنه والى معرفه علم العربيه والى معرفة الفرايض والحساب من المعلوم
والمجهول من اجل مسايل الدور والوصايا وغيرها والى معرفه اجماع الصحابه
فهذه ادوات الاجتهاد فاذا عرفها استخرج بفكره حينيذ ما يوديه
اليه اجتهاده كما فعل ابو حنيفه والشافعي ومالك وغيرهم من ايمه الاجتهاد
وكذلك يجري الحكم في الكاتب اذا احب ان يرتقي الى درجه الاجتهاد في الكتابه
فانه يحتاج الى اشيا كثيره قد ذكرتها في صدر كتابي هذا الا ان راسها وعمودها
وذروه سنامها ثلاثه اشيا هي حفظ القران الكريم والاكثار من حفظ
الاخبار والاشعار وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع فاول ما ابدا به

على عقيب ذلك ان اقول حل الابيات الشعريه ينقسم الى ثلاثه اقسام الاول
منها وهو ادناها رتبه ان ياخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زياده
وهذا عيب فاحش ومثاله كمن اخذ عقدا قد اتقن نظمه واحسن تاليفه فاوهاه
وبدده وكان يقوم عذره في ذلك ان لو نقله عن كونه عقدا الى صوره اخرى
مثله او احسن منه وايضا فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور
السرقه فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون الفاظه باقيه لم يتغير منها شي
وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجنا لا مستحسنا كقوله في بعض
ابيات الحماسه وهي

والذي حنق على كانما تغلي عداوه صدره في مرجل
ارجيته عني فابصر قصده وكويته فوق النواظر من عل

فقال في نثر هذين البيتين فكم لقي الذي احنق كانه ينظر الى الكواكب من عل وتغلي
عداوه صدره في مرجل فكواه فوق ناظريه فاكبه لفمه ويديه فلم يزد هذا الناثر
على ان ازال رونق الوزن وطلاوه النظم لا غير ومن هذا القسم ضرب
محمود لا عيب فيه وهو ان يكون البيت من الشعر قد تضمن شيا لا يمكن تغيير
لفظه فحينيذ يعذر ناثره اذا اتى بذلك اللفظ ومثاله قول
الشاعر في اول الحماسه

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي بنو اللقيطه من ذهل بن شيبانا

وقد نثرت ذلك فقلت لست ممن تستبيح ابله بنو اللقيطة ولا الذي اذا اهتم بامر كانت الامال لديه وبسيطه ولكني احمي اهلي وافوت الامل واقوى يبيق السيف للعذل فذكر بنى اللقيطه هاهنا لا بد منه على حسب ما ذكره الشاعر وكذلك الامثال السايره فانه لا بد من ذكرها على ما جات في الشعر واما القسم الثاني وهو وسط بين الاول والثالث في المرتبه فهو ان ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ويعبر عن البعض بالفاظ اخر هناك يظهر الصنعه في المماثله والمشابهه ومواخاة الالفاظ الباقيه بالالفاظ المرتجله فانه اذا اخذ لفظا الشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لا يلايمه كان كمن جمع بين لولوه وحصاه ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والطريق المسلوك الى هذا القسم ان ياخذ بعض بيت من الابيات الشعريه هو احسن ما فيه ثم يماثله وسا وردها هنا مثالا واحدا من ذلك ليكون قدوة للمتعلم فاقول قد ورد هذا البيت من شعر ابي تمام في وصف قصيدة له

حذا تملا كل اذن حكمه وبلاغة وتدر كل وريد

فقوله تملا كل اذن حكمه من الكلام الحسن وهو احسن ما في هذا البيت فاذا اردت ان تنثر هذا المعنى ولا بد لك من استعمال لفظه بعينه لانه في الغايه القصوى من الفصاحه والبلاغه فعليك حينيذ ان تواخيه بمثله وهذا عسر

جدا

جدا وهو عندي اصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه لانه مسلك ضيق لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو في غاية الحسن والجوده واما نثر الشعر بغير لفظه فذاك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر الى مواخاته وقد نثرت هذه الكلمات المشار اليها واثبتها في جمله كتاب فقلت وكلامي قد عرف بين الناس واشتهر فلو قال قايل لمن هذا قيل وهل يخفي القمر واذا عرف الكلام صارت المعرفه له علامة ولم يخش عليه سرقة اذ لو سرق لدلت عليه الوسامه ومن خصايص صفاته انه يملا كل اذن حكمه ويجعل فصاحة كل لسان عجمه واذا جرت نفثاته في الافهام قالت هذه بنت فكر ام بنت كرمه فانظر كيف فعلت في هذا الموضع فاني لما اخذت تلك الكلمات من البيت الشعري التزمت بان اواخيها بما هو مثلها او احسن منها فجيت بهذا الفصل كما تراه وكذلك ينبغي ان يفعل فيما هذا سبيله واما القسم الثالث وهو اعلا من القسمين الاولين فهو ان يوخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه وثم يتبين حذق الصايغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه في صناعته فان استطاع الزياده على المعنى فتلك الدرجه العاليه والا احسن التصرف واتقن التاليف ليكون اولى بذلك المعنى من صاحبه الاول واعلم ان من ابيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فيورده بضروب من العبارات وذلك عندي شبيه بالمسايل السيالة في الحساب التي يجاب عنها بعده من الاجوبه ومن الابيات ما يضيق فيه المجال حتى لا يكاد

الماهر في هذه الصناعة لا يخرج عن ذلك اللفظ وانما يكون هذا العديم النظير
فاما ما يتسع المجال في نثره فكقول ابي الطيب المتنبي

لا تعذل المشتاق في اشواقه * حتى يكون حشاك في احشائه

وقد نثرت هذا المعنى فمن ذلك قولي لا تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوي
القلب على ما طواه * ومن ذلك وجه اخر وهو اذا اختلفت العينان في النظر
فالعذل ضرب من الهذر * ومن هذا الباب قول ابي الطيب المتنبي ايضا

ان القتيل مضرجا بدموعه * مثل القتيل مضرجا بدمائه

اخذت هذا المعنى فنثرته فمن ذلك قولي القتيل بسيف العيون كالقتيل
بسيف المنون غير ان ذاك لا يجرد من غمده ولا يقاد صاحبه بعبده فزدت
على المعنى الذي تضمنه البيت وغيرت اللفظ ومن ذلك وجه اخر وهو دمع
المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل فلا يختلف بينهما بونا سوى انهما
يختلفان لونا وهذا احسن من الاول واما ما يضيق فيه المجال فيعسر على
الناثر تبديل الفاظه فكقول ابي تمام

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى * لها الليل الا وهي من سندس خضر

وقول ابي الطيب المتنبي

وكان بها مثل الجنون فاصبحت * ومن جثث القتلى عليها تمائم

وامثال هذا لا تاتي الا قليلا وسببه ان المعنى يحصر في مقصد من المقاصد

حتى

حتى لا يكاد ياتي الا قلقا كهذين البيتين الا ترى ان ابا تمام قصد المواخاة في ذكر
لوني الثياب من الاحمر والاخضر وجاء ذلك واقعا على المعنى الذي اراده من
لون ثياب القتلى وثياب الجنة فاذا انك نظم هذا البيت واريد صوغه بغير
لفظه لا يمكن ذلك وبيت ابي الطيب جار هذا المجرى فانه بناه على واقعة من
الوقايع وذلك ان حصنا من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه
واخربوه فنهض سيف الدولة اليه واسترجعه وجدد بناه وهزم الروم
ونصب من جثث القتلى على السور فنظم المتنبي في هذا قصيدة اوله

على قدر اهل العزم تاتي العزايم

فلما انتهى الى ذكر الحصن جا بهذا البيت في جملة ابيات فشرح صورة الحال في
ازعاج الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه وابرز ذلك في معنى التمثيل بالجنون والتما
وهذا لا يمكن تبديل لفظه وهو وامثاله مما يجب على الناثر ان يحسن الصنعة في
فك نظامه لانه يتصدى لنثره بالفاظه فان كان عنده قوة تصرف وبسطة عبارة
فانه ياتي به حسنا رايقا وقد نثرت هذين البيتين اما بيت ابي تمام فاني قلت في
نثره لم تكسه المنايا نسج شفارها حتى كسته الجنة نسج شعارها فبدل احمر ثوبه
باخضره وكاس حمامه بكاس كوثره وهذا من الحسن على غاية يكون كم حسودها
من جملة شهودها واما بيت ابي الطيب المتنبي فاني قلت في نثره سري الحصن
كان مستعبدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا واخذها مخادعة لا افتراسا

فاتركها حتى استفادها ولا ازالها حتى استعادها وكانما ان بها جنونا فبعث
لها من عزايمه عزايم وعلق عليها من رؤس القتلى تمايم وفي هذا من الحسن ما لا
خفا به فمن شا ان ينثر شعرا فلينثره هكذا والا فليتركه وقد جيت بهذا المعنى
على وجه اخر وابرزته في صورة اخرى وذاك اني اضفته الى البيت الذي
قبله وهو

بناها فاعلا والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

ولما نثرت هذين البيتين قلت في نثرهما ما اذكره وهو بناها والاسنة في بنايها
متخاصمة وامواج المنايا فوق ايدي الناس متلاطمة ومما اجلت الحرب عنها
حتى ازالت اقطارها بركض الجياد واصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمايم
من الرؤس والاجساد ولا شك ان الحرب تعرد عمن عز جانبه ونقول الا
هكذا فليكتسب المجد كاسبه وهذا احسن من الاول واتم معنى وقد تصرفت
في هذا الموضع بزيادة في معناه ونثرته على اسلوب احسن من هذا الاسلوب
فقلت بناها ودون ذلك البناء شوك الاسل وطوفان المنايا الذي لا يقال
ساوي منه الجبل ولم يكن بناوها الا بعد ان هدمت رؤس عن اعناق
فكانما اصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمايم او شبيت بعطل فعلقت
مكان الاطواق وهذا الفصل فيه زيادة على الذي قبله واذا انتهى بنا الكلام
الى هاهنا في التنبيه على الشعر وكيفية نثره وذكر ما يسهل منه وما يعسر

لو قال مكان قوله فوق ايدي الناس فوق رؤوس الابطال لكان ابلغ لفظا واتم معنى ثم قوله ايدي الناس في غاية السماجة كما ترى

فلنتبع

فلنتبع ذلك بقول كلي في هذا الباب فنقول من احب ان يكون كاتبا وكان عنده
طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم
ياخذ في نثر الشعر من محفوظاته وطريقه ان يبتدئ فياخذ قصيدا من القصايد
فينثره بيتا بيتا على التوالي ولا يستنكف في الابتدا ان ينثر الشعر بالفاظه او
باكثرها فانه لا يستطيع الا ذلك واذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ارتفع
عن هذه الدرجة وصار ياخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن
ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة وحينيذ يحصل لخاطره بما شره
المعاني لقاح فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني وسبيله ان يكثر الادمان
ليلا ونهارا ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة فاذا كتب كتابا او
خطب خطبة تدفقت المعاني في اثنا كلامه وجاءت الفاظه معسولة لا
مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصا وهذا شي خبرته بالتجربة
ولا ينبيك مثل خبير فان قيل الكلام قسمان منظوم ومنثور فلم خصصت على
حفظ المنظوم وجعلته مادة المنثور وهلا كان الامر بالعكس قلت في الجواب
ان الاشعار اكثر والمعاني فيها اغزر وسبب ذلك ان العرب الذين هم اهل الفصا حه
كان جل كلامهم شعرا ولا تجد الكلام المنثور في كلامهم الا يسيرا ولو كثر فانه
لم ينقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر فاودعوا اشعارهم كل المعاني كما
قال الله تعالى الم تر انهم في كل واد يهيمون ثم جا الطراز الاول من المخضرمين

فلم يكن لهم الا الشعر ثم استمرت الحال على ذلك فكان الشعر هو الاكثر والكلام
المنثور بالنسبة اليه قطرة من بحر ولهذا صارت المعاني كلها مودعة في الاشعار
وحيث كانت بهذه الصورة فكان يخشى على حفظها واستعمال معانيها في الخطب
والمكاتبات لهذا السبب وقد نثرت في هذا الموضع ابياتا تكون قدوة للمتعلم
فمن ذلك قولي في فصل من فصول الكلام يتضمن ذكر السيادة وهو الشريف
من تشرف بنفسه لا بما دفن مع ابيه في رمسه فان تلك مكارم انتحلت الزمان
بها اياما ثم ماتت اربابها فدفنت مع موتاها ولو ساد الناس بابائهم لكانت السيادة
للطبقة الاولى ولكان خلق الابناء مجبولا وهذا المعنى ماخوذ من قول
الشاعر ۞ وما الفخر بالعظم الرميم وانما فخار الذي يبغي الفخار بنفسه ۞
غير ان الفصل الذي ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ما تضمنه هذا البيت
ومن ذلك ما كتبته في فصل من كتاب يتضمن معاتبة اخ لاخوته ويتنصله اليهم
فقلت جرحوا قلبي وجهتم يذهب بالم الجراحة وطرفوا عيني وهم يذرون
في نظرها ملاحة واذا صدرت الاساءة عن الاحباب لم تكن ونترتها وترا
واصبحت وهي منسية اذا تجددت الاساءة بالذكر وما منهم الا من يبسط
ذي يديه ويحمي بالحمد ولولا ان الاسماء معارف للاشخاص لكان نكارا على
اسمه وكيف اخشن عليهم وقد جبلني الله لهم على اللين ام كيف اذود النفس
عنهم وهي مشتقة منهم وادم بين الماء والطين ومنهم امل من شجر في اغصانا

كهذه الاغصان وقد اصيبت بجرثومتها بالجداد ولهذا قيل ان الاخوة
يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الاولاد اخر هذا الفصل
ماخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله

۞ تعزيت عمن اثمرتك حياته وشكل التعزي عن ثمارك اجدر
۞ تعذر ان نعتاض عن امهاتنا واباينا والنسل لا يتعذر

غير ان ابن الرومي ذكر ذلك في تعزية انسان بابنه فتصرفت انا في هذا المعنى
ونقلته الى هذا الفصل في تضمنه معاتبة اخ لاخوته ومن ذلك ما
ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب فقلت والعيش كل العيش في
سن الحداثة وما ياتي بعدها فلا يدعى الا بسن الغثاثة وليس بعد الاربعين
من مصيف للذة ولا مرتع وهي نهاية القوة الصالحة من الطبايع الاربع
فاذا تجاوزها المرء اشفقت ثمار عمره على خرصها وصارت زيادته كزيادة
التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها ويصبح عند ذلك وهو يدعى ابا
ان كان يدعى ابنا وينقص ثوبا من المشيب لا يجر ذيله خيلا ولا يزهى به حسنا
وان قيل ان احسن الثياب شعارا البياض فقيل الا هذا الثوب فانه مستثنى
ويكفيه من القطاعة ان ينظر الاحباب اليه نظر القال ولولا ان المحمود
بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ومن الناس من يدلس لونه بصبغة
الخضاب ويلبس ذلك الاحداد على فقد الشباب وهو في فعله هذا

كاذب ولا يخفى انس الصدق من وحشة الكذاب وخداع النفس بمنعها ان
تسلو عن بيره المعطله وقصره المشيد ونحسنها الخروج في ثوب مرقع وهي
تراه بعين الثوب الجديد وبعض هذا ماخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله

رايت خضاب المرء بعد مشيبه حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

غير ان في هذا الفصل معاني كثيرة لفظية لا يوجد في كلام اخر ومن ذلك
قولي في وصف الجود والسخاء وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة فمنها
قولي في العطاء وهو شا فهتني اسباب الغنى بره بنيه حتى كادت تنطق
واخضرت اكناف منزل عطايه حتى كادت تورق ومن فضيله بره انه لا ياتي
به على الناس واذا غرسه عند انسان رب ذلك الغراس ولا يستكثر
ما جادت به سحايبه ولا يمنعه عطا يومه عن عطا غده وبعض هذا
المعنى ماخوذ من شعر ابي نواس

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا لا يهدمون لما بنوه اساسا

ومن هذا المعنى ايضا قولي وهو اخذ المكارم من سمايها وارضها وقام
بثقلها في الناس وفرضها وتجلا ببعض اسمارا الشهور حتى اصبح بعضها حاسدا
لبعضها فالمحرم للعايذ بحرمه وصفر الطامع في مسعاة قدمه وربيع للرايد
نواله ورجب لا قوال عذاله وهذا ماخوذ من قول الفرزدق

بيداك ربيع الناس فيها وفي الاخرى الشهور من المحرم

وقد قال الشعرا في ذلك كثيرا الا اني انا تصرفت في هذا المعنى تصرفا لم يتصرفه
احد غيري ومن هذا المعنى ما ذكرته في فصل من كتاب وهو ولقد
سوى بين اعدايه في البغض وبين امواله فهذه مغنية بوقايع نصاله وهذه
مغنية بصنايع نواله ولو احب المال لكان احبه اليه ما يبذله كما ان احب الناس
اليه من يسأله ومن احسن ما سنه من الكرم انه جاد حتى بذل رغبه الكاتبين
زهدا وراى الحمد عوضا من الصنيعه فابا ان يعتاض من صنايعه حمدا وبعض
هذا ماخوذ من شعر ابي نواس وهو

ليت اعدايي كانوا لا اي استحق مالا

ومن ذلك قولي في وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والاتجاد وما
يتعلق بذلك ويجري معه وهذا الفصل يشتمل على معان مختلفه فمن ذلك ما
ذكرته في وصف العسكر وهو وسرنا في غمامه من الكتايب تظلها غمامه من
من الطيور الاشايب فهذه يضمها اخر من حديد وهذه يضمها اخر من صعيد
وما زلت بلدا الا ازالت ارضه من سمايه والبست نهاره ثوب ظلمايه
وبدلت احراره بعبيده وحرايره باماية وكذلك فعلت بمدينه فلانه وقد
ضرب الامن عليها اسوارا وبعد عهدها بالنوايب فلم تتخذ لها ديارا فهي
تخبر عن الهنيه الخفض ولم تروع عنه بالانتقال ولا رات الشيب وقد
القى لونه في ذوايب الاطفال فما شعر اهلها الا وقد زحمها الجيش بكاهله وربما

ها

بوابله قبل طله وطل السحاب قبل وابله وبرزت خيل القوم وهاربي فرسانها
وهي مستبقة الى طرادها كاستباقها الى ميدانها وما منهم الا من تناول القناة
في يده بين الهذمين ويستقل السرج منه ومن جواده بين مطهمين فجرت
المغاوير الى المغاوير وتلاقت الرياح بالاعاصير وكان الطعن بينهم عناقا واللبث
فواقا وسبق الم الموت الم الجراح وتقدت غير مختضبة لسرعتها اسنة الرماح
وحصل القوم في القبضة ودموع عقبى النهضة وجي بالاسرى مقرنين في
الاصفاد موقنين ان رؤسهم عوار على تلك الاجساد ولو استطاع راس الحليم
ان ينكر عنقه لانكره ولا بوده وهو العظيم ان يقال له ما اعظمه بل يقال ما احقره
وتصرفت ايدي المسلمين في القتل والنهاب وكان للسيف رقاب وللسبي رقاب
في هذا الفصل معان كثيرة مستحسنة ومنها ما اخذ من شعر
المتنبي كقوله
سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه
وكقوله واستعار الحديد لونا والقى لونه في ذوائب الاطفال
ومن ذلك ما ذكرته في وصف المسلوبين في فصل من جملة كتاب يتضمن البشرى نثر
بهزيمة الكفار وهو فسلبوا وعاضتهم الدما عن اللباس فهم في صورة عار
وزيهم زي كاس وما اسرع ما خيط لهم لباسها الاحمر غير انه لم يجب عليهم
ولم يزر وما لبسوه حتى لبس الاسلام شعار النصر الباقي على الدهر وهو

شعار

شعار نسجه اليسار الخارق لا الصنع الحاذق ولم يغب عن لابسيه الا ريثما
غابت البيض في الطلى والهام والقنا الطعن بين الف الخط واللام وهذه
معان حسنة رائقة ومنها معنى واحد ماخوذ من شعر البحتري وهو
سلبوا واشرقت الدما عليهم محمرة فكانهم لم يسلبوا
ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن فتحا وهو اصدرت هذا الكتاب والفتح نثر مطلب
غض طري لم تنصل حمرة يومه ولا اغمدت سيوف قومه فسطوره مترية
غبار عجاجه ممثلة لخط ضربه واعجام زجاجه وهذا المعنى ينظر الى
قول ابي تمام
كتبت اوجههم مشقا ونمنمة ضربا وطعنا يقد الهام والصلفا
كتابة ما تني مقروءة ابدا وما خططت بها لاما ولا الفا
الا ان ابا تمام مثل آثار الضرب والطعن في الوجوه بالكتابة وانا مثلت خط
الكتاب واعجامه بالضرب والطعن فكانني عكست المعنى الذي ذكره ابو تمام
وهذا مقصد في حل الابيات الشعرية حسن فان استخراج المعنى من عكسه
ادق من استخراجه من نفسه وقد نبهت على ذلك في مواضع اخر من هذا
الباب ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن فتحا من فتوح الكفار نثر
وهو واقبلت احزاب الكفر وهي معتصمة بصليبها ورافعة على اعواد
عالية لهيبه خطيبها ولم تعلم ان الله كتب عليه الهوان عقيب تلك الكرامة

وانه ذو شعب ابع النزيع تحسن في حكم النجامه وكيف ترجو بكفرها طهورا ولها
منه معنى الاحتفاء وللاسلام معنى السلامة ولما التقى الجمعان اصطفقت بين
وشمال وزحفت جبال الجبال وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت الايفي
بالآجال واقامت الخيل اقدام فرسانها واظلم النقع فلم تبصر الا باذانها وتاتت
النحور ثارها من كعوب الرماح واشتبكت الاسنه فلا طريق بينها لمهب الرياح
واستوصلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالجداد وحال الحد السيف دون حديد
الاصفاد ونقلوا الى جهنم يصلونها وبيس المهاد وانقلب المسلمون وقد ملاوا الاغماد
نصرا والصحايف اجرا والايدي وفرا والقلوب جذلا والالسنة شكرا وكان
ذلك اليوم في الايام علما وفي الاقسام قسما ولم يره الزمان منسوبا اليه الا راجع
شبابا بعد ان ناهز هرما في هذا الفصل شي من معاني الشعر وذلك من
قول ابي الطيب المتنبي

اتاهم باوسع من ارضهم طوال السبيب قصار العسب
تغيب الشواهق في جيشه وتبدو صغارا اذا لم تغب
ولا تعبر الريح في جوه اذا لم تخطا القنا او تثب

ومن قوله ايضا

في جحفل ستر العيون غباره فكانما يبصرن بالآذان

ومن ذلك ما ذكرته في الانجاد واجابة الصريخ وهو اذا استصرخ اصرخ

بعزم غذته صحبة الجيش عن لذة العيش فهو يستعذب بحر الثغر على برد الثغور
ولهو بالبيض الذكور عن بيض الخدور ولا طيب عنده الا ارج العجاج ولا اعناق
الا اطراف الزجاج ولا ارب له في الرقاد الا على صهوات الجياد فعسكر قلبه
امضى في الوغا من عسكره ونجدته باسه تابى لقا الاقران في درع او مغفر وهذه
المعاني ماخوذة من ابيات الحماسه ومن شعر مسلم بن الوليد ومن ذلك
ما ذكرته في وصف المخبر دون المنظر وهو اذ اسمو بن لا امر فكن واحدا في مكانك
ولا ترض بكثرة الشركا فيقال فلان من اقرانك الم تر الى الحربا وهي دويبة
حقيرة الشان ضعيفة الاركان فانه ارتفع في هواه عن الارض وانسها الى السما
وشمسها وقال لا احب من تغير الايام من حسنه ولا من يتسم احد باسمه
حليه ولا اخذنه والحسن ليست منوطة بجهارة المناظر والنه وبل على الخبر المستتر
في الافيده الباطنه لا على الظواهر ومن ها هنا قيل ان وضاه النفوس نضر من
وضاه الاجساد ورقم الشيم احسن من رقم الابراد واخر هذا الفصل نظر
الى قول سحيم عبد بني الحسحاس

ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما او اسود اللون اني ابيض الخلق

الا ان اول الفصل تضمن معنى غريبا لم يسبقني اليه احد ومن ذلك ما ذكرته
في الحسد في فصل من كتاب وهو تاسد سيدنا ينظر الى زهرة دنياه ولا ينظر
الى استحقاقه وهو كالناظر الى الاطواق الموضوعة في الجيد ولا يدري ان

ان الجيد احسن من اطواقه ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الجسد من صدره
وقال الى احسد من لم يبته قد رد نياه الى معشار قدره ومن ذلك ما ذكرته في نثر
صدر كتاب يتضمن الاعتذار عن تواتر المكاتبات وهو اذا اعتذر من انقطاع
الكتب اعتذر الخادم من اتصالها ولو كانت واردة على غير ذلك الباب
الكريم لخاف من املالها وقد علم احتمال تثقيلها من جملة الايادي التي اثقلته
واراد ان يجري معها سوابق شكره فاعجلته وما امهلته وهو الان من نهض
بين قديم منها وجديد واصبح كخراش اذ تكاثرت عليه فلم يدر لكثرتها
ما يصيد فان امسك سيدنا عن اياديه والا فليتفضل على الشكر بالانظار
وليعلم ان ذمته وفا به كذمة ديون المال في الاعسار وهذا فصل في هذا
المعنى قلما يوتى بمثله وفيه معنى واحد من قول الشاعر

تكاثرت الظبا على خراش فما يدري خراش ما يصيد

ومن ذلك ما ذكرته في استصلاح مودة فقلت كنت عنده بالمنزلة التي امن
بها ما اخشيه فصرت اخاف ما لم اجنه وكان لا يقبل علي شهادة عينه فاصبح
الان وهو يقبل شهادة اذنه لكن لم يجعل الله القلوب بين اصبعين من اصابعه
الا لتذهب بها في كل واد ومن ها هنا كانت تنتقل من واد الى قلى
ومن قلى الى وداد ولا شك ان لها بين الحالتين عمرا تنتهي اليه كما تنتهي اعمار
الاجساد والصبر خير ما استعمل في جفاء الاخوان وانما اذا جرى في

مكان

مكان ثم انحرف عنه فلا بد ان يعود الى ذلك المكان وبعض هذا ماخوذ من
من شعر ابن الرومي

عهدتك لا تعتد بالعين شاهدا علي فلم اصبحت تعتد بالاذن

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الملوك على يدي بعض الفقراء وهو
الشيم الكريمة للانسان بمنزلة المسك في سرر الغزلان غير ان طيب هذه
يعبق بالانوف وطيب هذه يعبق بالاذان وقد جعل تفاوت المرتبة بين هذين
الطيبين فرقا فاحدهما يبقى دايما فلا يذهب والاخر يذهب فلا يبقى ونصيب مولانا
من الطيب الباقي نصيب زكت معادنه وكثرت خزاينه وسارت في الارض
محاسنه ورفعه الله به الى محل يبعد شاوه على الطالب فلا يرى الا في لسان
شاعر او لسان خاطب وهو مما استثنى من خلق الناس الذي هو من طين لازب
ومن اجل ذلك يرون اشباها ما عداه وما منهم الا من يقر بفضله ولو كان
من حساده او عداه وقد اصبحوا وهم يقلبون لديه جفن يكثرون ويقول كل
منهم لصاحبه افسحر هذا ام انتم لا تبصرون هذا الفصل وان تضمن شيا
من القران الكريم فليس المراد ها هنا القران بل منه شي ماخوذ من
الشعر وهو قول المتنبي

الناس ما لم يروك اشباه والدهر لفظ وانت معناه

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الخمر وهو الخمر لا تفي لذة اسكارها بتنغيص خمارها

فهي خرقاء البيان بذيّة اللسان وتأبيتها بذلك انها من ناقصات العقول والاديان وقد عرف منها سنة الجور في احكامها ولولا ذلك لما استشارت من الرؤس جنايه اقدامها وهذا احسن من قول الشاعر واغرب والطف لانه قال

ذكرت حفايظها القديمه اذ غدت وهنا تداس بارجل العصار

لانتهم حتى انتشو فتحكمت فيهم فنادت فيهم بالثار

وكذلك قلت في وصفها ايضا وهو مدامه تنفي خواطر الهموم وتسري مسري الارواح في الجسوم وتشهد بان الكرم مستمد من ماء الكروم وتمثل حببها نجوما الا انها مضله والهدايه للنجوم وبعض هذا ماخوذ من قول ابي نواس

اذا هي حلت في اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل

ومازال الشعرا يتواردون على هذا المعنى حتى سمح لكن الذي ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعاني في وصفها وكذلك ما ذكرته في وصفها ايضا وهو الخمر كالعذرا في نفورها وملازمه خدورها ولهذا انشا من نكاح المزاج وتصخب لمس الماء صخب الابكار لمس الازواج ومن شانها ان تلبس عند الزفاف كليلا على راسها وكذلك شان العرايس عند زفافها الى اعراسها وهذه المماثله بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يات بها احد غيري

وانما وصفتها بكرا كقول ابي نواس

فقلت لشيخ منهم متكلم له دين قسيس وفي نطقه كفر

أعندك بكر مزة الطعم قرقف صنيعه دهقان تراخى له العمر

فقال عروس كان كسرى ربيبها معتقه من دونها الباب

ووصفت بالنكاح والزواج كقوله ايضا

وقهوه كالعقيق صافيه يطير من كاسها لها شرر

زوجتها الماء كي يذل به فامتعضت حين مسها الذكر

ومن ذلك ما ذكرته في الحزم وهو لا ينبغي للحازم ان يشاور المورد المؤذن بضيقه وان اقضى الصدر الى رحبه فان توقي الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه وليدع قول من يقعد على امل السلامه ويلبس الجانب الكاذب ويقول ليس للعزم الا تمام الصدور وليس له تمام العواقب بعض هذا ماخوذ من قول ابي تمام

وركب كاطراف الاسنه عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه

لامر عليهم ان تتم صدوره وليس عليهم ان تتم عواقبه

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الراي والكيد وهو اخفى على العدو كيده حتى لم يدع دايبا واعمى عليه سلوك الطريق حتى ظنه حايدا فتسيوفه تسطو

على بعدها ولا تقطع الا وهي في غدها • وبعض هذا المعنى اخذته من
شعر ابي تمام وهو

سكن الكيد فيهم ان من اعظم كيد ان لا يسمى اريبا •

وكذلك قولي في هذا المعنى وهو اخذ بسمع العدو وبصره وسد مطالع ورده
وصدره فيداه مغلولة انها مطلقة السراح ومقاتله بادية على انها شاكية
السلاح • وهذا المعنى ينظر الى المعنى الذي قبله وكذلك قولي ايضا وهو
يبيت برايه العدو قبل جيشه ويلقاه بطيش قلبه الذي كل الحلم في طيشه
فاذا اظلمت وجوه الاراء كان رايه لها صباحا واذا جهزت الجحافل الحرب
كان قلبه لها سلاحا • وبعض هذا المعنى ماخوذ من شعر البحتري

وهو المرء ما غزا بلدا بالراي الا كفاه غزو الجنود •

ومن ذلك ما ذكرته في وصف السير والركاب والخيل والقفار وما يتعلق
بها فمنه ما يتعلق بالسير وهو • ركب ظهر الليل بناوي مسير شهبه بمسير
اشهبه ويستقرب بعد المدى في نيل مطلبه غير ان ذلك تفري اديم الغياهب • وهذا
فري اديم السباسب • وهذا ماخوذ من قول المتنبي

يباري نجوم القذف في كل ليلة نجوم له منهن ورد وادهم •

ومن هذا المعنى ايضا قولي وهو • اتخذ ظهرا واستلان خشونة المسري
فلم يزل يقذف صبغه سواده بصبغه جواده حتى بدت في اديم الليل

شبات صباحه • وشابه الادهم في غرته واوضاحه • فعند ذلك اخذ
احدهما في رجيله واخذ الاخر في نزوله • وهذا المعنى ينظر الى الذي قبله وفيه
من شرف الصنعة ما لا خفا به • ومن ذلك ما ذكرته ايضا في فصل من كتاب
سرت وتخني بنت عفره لا يذهب السرى بمراحها ولا يستزيد الحادي من مراحها
فهي طموح باثناء الزمام واذا سارت بين الاكام قيل هذه واحدة من الاكام
ولم تسم حسرة الا لانها تقطع عرض الفلاة كما تقطع الجسر عرض الما • ولا سميت
حرفا الا لانها جاءت لمعنى في العزايم لا لمعنى في الافعال والاسماء • وخلفها
جنب من الخيل يعتل بجذع ويدبر بصخره • وينظر من عين بحظه ويسمع باذن
حشره • ويجري مع الريح الزعزع فيبذرها وقد ظهر فيها اثر الفتره • وما قيد
خلقها الا وهو يهتدي بها في المسالك المضله ويطا على اثارها فيرتسم وجوه
البدور باشكال الاهله • هذا والليل قد القى جرانه فلم يبرح • والكواكب قد
ركدت فيه فلم تسبح وانا اود لو زاد طوله ولم تظهر غرة اديمه ولا حجوله
فقد قيل الليل ادنى للبعد واكتم للاسرار • ودل عليه القول النبوي بان الارض
تطوى فيه ما لا تطوى في النهار • وما زلت اسير مرتديا بثوبه حتى كاد ينصل
لون السواد • وظهر ذنب السرحان فاغار على سرح الشماء كما يغير السرحان
على سرح النقاد • فعند ذلك تململت العين من الكرى تململ الطاير ولم يكن ذلك
على ظهر الارض المطمينة وانما كان على الظهر السابر • [illegible]

وفي هذا الفصل كل مليحة من المعاني ولو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان كافيا
وبعضه ماخوذ من الشعر كقول ابي تمام

طموح باثناء الزمام كانما يجاذبها من عدوها طيف جنة

وكقوله

بالشدقميات العتاق كانما اشباحها من الاكام اكام

ومن ذلك ما ذكرته في النسب في فصل من كتاب وهو لهم نسب لا يدخله لام
التعريف وهو موضوع لا يجري على سنن التوقيف فاذا ذكر اوله وقفت
من عرفانه على طلل ووجدته مهملا في جملة المهمل وان قيل انه من نجوم السافلة
لكنه لا يخرج عن الثور او الحمل فما ارهف لوصفه لسان لا ابنا ولا انقدح له
زناد خاطر الاحبا وهم منه كاوى الذي يرى الناس له ابنا ولا يرون لابنه ابا
وهذا من اغرب ما يؤتى به في ذم النسب وهو من باب توليد المعاني الذي يسمى
الكيميا وبعضه مستولد من قول ابي نواس

وما خبز الاداوى يرى ابنه ولم يرا اوى في الحزون ولا السهل

فابو نواس ذم خبز الخصيب في عدم رؤيته وانا نقلت ذلك الى النسب فجا
الطف واحسن واليق وادخل في باب الصنعه واذا حقق النظر فيما ذكره
ابو نواس في هذا المعنى لم يوجد مناسبا فان الخبز في عدم رؤيته لا يحمل على ابن
اوى وانما المناسبة تقع في النسب من اجل ذكر الابن والاب ومن ذلك

ولعمري لقد احسن المصنف ما شاء في هذا المعنى وزاد على ابي نواس كزيادة الشمس على القمر رحمه الله تعالى

آوي وانما

ما ذكرته في ذم قوم وهو تركت قوما لم ينقعوا صدى ولم يجروا الى مدى فاعراضهم
نكرة العارف واموالهم حنظلة النافق لا تمطر سحبهم على كثرة ما بها ولا تزكو
الذريعة بارضهم على نبابها وبعض هذا المعنى ماخوذ من شعر الشريف الرضي

تركت اناسا لم يهشوا لمنة ولم ينقعوا غل الظما الخوامس
على القرب فيهم انني غير طامع ومنك على بعد المدا غير ايس

ومن هذا الباب ايضا قولي وهو تركت قوما يسلون الحبيب ويملون القريب
ولا يرعون من رعاهم ولا يدرا اللبن على مرعاهم فنوالهم نخايا واعراضهم ضحايا ومن
احسن صفاتهم انهم يغتبقون بالظنة ولا يرتاحون لمنة فالذرايع لديهم مدفونة
والصنايع غير مسنونة وبعض هذه المعاني ماخوذ من شعر ابي الطيب

رايتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزا كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن

ومن ذلك ما ذكرته في الحث على الاغتراب وهو لولا التغرب لما ارتقت بنات
الاصداف الى شرف الاعناق ولا ارتقى تراب الاحجار الى نور الاحداق
وكذلك قولي في هذا المعنى وهو في الانتقال تنويه لخامل الاقدار ولولا ذلك لم
يكن الهلال لحلة الابدار والمندل الرطب حطب في اوطانه والمسك دم في سرر
غزلانه ولولا فراق السهم وتره لم يحظ بفضل الاصابه ولولا فراق الوشيج شبته
لم يتحل بعز السنان ولا تشرف الذوابه وهذا الفصل فصل من القول في معناه

ومما لم يتسنّ للخواطر ابتداؤه ثمنه ماهو ماخوذ من الشعر ومنه ما سنح به الخاطر
على غير مثال وهو يشهد لنفسه   ومن ذلك ما ذكرته في وصف الايام وهو
ايام تعد باعوام لقصر اعمارها وشهور لا يشعر بانصافها ولا سرارها
فالاوقات بها اصايل والمحاسن فيها شمايل والمآرب في ساعاتها رياض
في خمايل فما ادري اهي خيالات احلام غررت ام احاديث امان مرت
بعض هذه المعاني ماخوذ من ابيات الحماسة

شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لهن ولا سرار

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الاخوان وهو ليس الصديق من عد سقطات قرينه
وجازاه بغثه وسمينه بل الصديق من ماشى اخاه على عرجه واستقام له على
عوجه فذلك الذي ان راى سيية وطيها بالقدم او راى حسنة رفعها على
علم وبعض هذا المعنى ماخوذ من ابيات الحماسه

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا عني وما سمعوا من صالح دفنوا

الا ان الذي ذكرته هو ضد هذا المعنى وقد يستخرج المعنى من ضده وهو
احسن ما يستخرج من نفسه   ومن هذا قولي ايضا ليس الصديق من
صري اخلاف وده وغش في صفقة عهده بل الصديق من لا يرد سلعة وده
بانالة ولا عيب ولا يخص محافظة اخايه بشهادة دون غيب فذلك اخي من
غير نسب وكنزي من غير نشب   وهذا ماخوذ من الفقه في تصرية ضرع

الشاه عند البيع وذلك يوجب الرد   ومما ينتظم بهذا السلك قولي وهو الانفا
عن خلايق الوداد كالانتقال عن نسب الميلاد فكما يحرم هذا في نص الحكم المشروع
فكذلك يحرم هذا في خلق الكرم المطبوع على ان نسب الخله الذي ينميه القلب الى
القلب اوصل من نسب الرحم الذي ينميه الابن الى الاب ولهذا كانت مودة سلمان
قربى ونسب ابي لهب سبا وتبا وبعض هذا ماخوذ من شعر ابي فراس وهو

كانت مودة سلمان لهم نسبا ولم يكن بين نوح وابنه رحم

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الديار وهو ديار كانت مغاص حجته فاصبحت
وهي لاعين حجته ولقد عميت اخبار قطانها واثار اوطانها حتى شابهت احديهما
الاخرى في العفاء وكنت اظن انها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب
ظلام غير ان السحاب بكاهم فجرت بها سوافح دموعه والليل شق عليهم ثوبه
فطر الصباح من خلال صدوعه   وهذه معان لطيفة جدا وبعضها
ماخوذ من شعر الشريف الرضي رحمه الله

امرابع الغزلان غيرك البلى حتى غدوت مرابع الغزلان

ومما يلتئم بهذا المعنى قولي ايضا وهو دار اصبحت مرابع اذواد بعد ان كانت
مناجع رواد فلو تصورت الامال التي مثلت بفنائها كما تصورت الاثار الماثلة
من بنائها الرايت رسومها مع رسوم القباب وعلمت كم غادرها من بحر ونضب
من سحاب   وهذا معنى حسن له من نفسه متن وحامد ومن سامعه يمين

وشاهد، وهو من المعاني المستخرجة ومن ذلك قولي أيضا وهو النقص موكل
بكمال النعماء ولذلك كان الوخم مقترنا بالمرعى والماء وقلما ترى ثمرة الا ومعها
زنبور ولا لذة الا والى جانبها شيء محذور وكذلك قولي أيضا وهو لا يظفر
المرء بمطالبه شفعا ولا يأتيه من كل جهة نفعا بل ترى مرعى بلا ماء وماء بلا مرعى
ولذلك كانت النحلة مع الشهد والشوكة مع الوردة وبعض هذه
المعاني مأخوذ من قول أبي تمام

أرض بها عشب ذاك وليس بها ماء وأخرى بها ماء ولا عشب

إلا أن في الكلام المنثور زيادة على ما تضمنه من الشعر وكأنه ينظر إليه نظرا
بعيدا ومن سبيل المتصدي لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل
الاكسير في صناعة الكيمياء ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب
وفضة كما فعلت في هذا الموضع فاني أخذت معنى هذا البيت من الشعر
فاستخرجت منه ما ليس منه وهذا أعلى الدرجات في نثر المعاني الشعرية
وقد بسطت القول في هذا الموضع وكشفت عن دفائنه في الكتاب الذي سميته
بالوشي المرقوم في حل المنظوم وهو كتاب مفرد لهذا الفن خاصة ومن هذا
الضرب الذي هو الكيميا في توليد المعاني ما ذكرته في وصف الربيع هو واحد
ميزان عامه والمستفيد لسانه من كلامه وقد وصف بأنه ميعاد نطق
الأطيار وميلاد أجنة الأزهار والذي تستوفي به حولها سلافة العقار

فاذا سلبت السحب فيه سيوفها كان ذلك للرضى لا للغضب واذا خلعت على الأرض
غلائلها الدكنا لبست منها ديباجة منسوجة بالذهب وهذا المعنى مستولد
من قول أبي تمام في وصف السحاب

قد سلبته الجنوب والدين والدنيا وضافي الجباه في سلبه

ومن ذلك ما ذكرته في لين القول واعادته وما يجري مجراه كقولي في فصل من كتاب
وهو لم اعتد عليه القول لانه لا يبلغ تحدي مبادئه الا بتحريك سوطه وعنانه
بل اخذنا بادب الله في اذكار القرآن واتباعا لسنة نبيه في تثويب الاذان
وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي تمام

لو رأينا التأكيد خطة عجز ما شفعنا الاذان بالتثويب

وكذلك قولي أيضا وهو قد علم أن لين القول أنجع قبولا وهو من أدب كليم
الله إذ بعثه الى فرعون رسولا الا ترى أن الحدا أبلغ من المطايا بلطفه ما لا يبلغه
السوط بعنفه وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي تمام

وخذهم بالرقى ان المهاري يهيجها على السير الحداء

ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا وهو ان لذات الدنيا مشوبة بالاشياء التي جبلت
النفوس على حبها وكلما تستلذه الابدان من مآكلها فانه يضرها من جهة طيبها
ولهذا يذم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج واعجب من ذلك انه لا ينتفع
الانسان بشيء من لذاتها الا ضره من جهة ثوابه وقد ضرب لذلك مثل من

الأمثال وقيل ان كلما ينفع الكبد مضر بالطحال وهذا ماخوذ من الأمثال
العربية والمولده ومن ذلك ما ذكرته في الزهد وهو الناس في الدنيا
ابنا الساعة الراهنة وكما ان النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الاحوال
ليست بها بقاطنة ولهذا كانت المآتم بها كالاعراس تفترق بعد جمعها
فهذه تنسي ما مضى من لذة سرورها وهذه تنسي ما مضى من ألم فجعها
ولا شبيه لها على ذلك الا الاحلام التي تبلا شي خيالها عاجلا وتجعل اليقظه
حقها باطلا وما ينبغي حينئذ ان يفرح بها مقبلة ولا يوسى عليها مدبرة
وكلما تراه العين منها ثم يذهب فكانها لم تره وغاية مطلوب الانسان منها
ان يمد له في مدة عمره ويملى له في امتداد كثره اما تعميره فيعرضه المشيب
الذي هو عدم في وجود وهو اخو الموت في كل شي الا في سكنى اللحود
فالجوارح التي تدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول واصبح كالطلل
الدارس الذي ليس عنده من معول فلا ليلى يليلي ولا النوار ينوار ولا
الأسماع أسماع ولا الابصار ابصار واما ماله فان امسكه فهو عرضه
لوارث يأكله او لحادث يستاصله وان انفقه كان عليه في الحلال حسابا
وفي الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة وهذه عقباها الخاسرة
وبعض هذا الفصل ماخوذ من شعر صالح بن عبد القدوس

وإذا الجنازة والعروس تلاقيا الفيت جمعا كله يتفرق

ومن قول أبي العتاهية

إنما أنت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي أنت فيها

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية وهو كيف يظلم ذاك اللحد
وبه من اعمال ساكنه انوار ام كيف يجدب وبه من فيض يمينه سحائب مدرار
ام كيف توحش اقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الاقطار ام كيف يخفيه طول
العهد على زواره وطيب ترابه هاد للزوار وما اعلم ما اقوله في هذا الخطب
الجليل الذي دق فيه الحزن الجليل وسمحت له النفوس بالغالية على حب الحياة
وذلك من الغدر القليل وقد قيل انه لم يخلق الدمع الا انذارا بان ثواب النها
ستنوب وقد جعله الله ذخرا للقائها وانما يدخر السلاح للقاء الحروب
فالذي ذخرته منه لم يغن عني في هذه النائبة واي جنة للقوم في وجه سهامها
الصائبة لا جرم اني اصبحت بين يديها هدفا للرماء ولم يبق مني الا رمق
الحشاشة ومن العجب بقاء ذلك الدماء وشي من هذا الفصل ماخوذ من شعر

لم يخلق الدمع لامرٍ عبثا الله ادرى بلوعة الحزن

وكذلك ذكرت فصلا من كتاب اخر يتضمن تعزية وهو فيا ويح ابي اسلمته
الى الثرى وما كان يسلمها الى الاعدام والبسته ظلمة اللحد وطالما جلا عنها
غيابة الظلم والاظلام وغادرته يوحشه مستوحشا وقد كان يونسها
بنوافل الانعام ومثله لا يواري القبر منه الا صورة بدر كما النفاد وتبلى كا

يبلي غيرها من الاجساد ولكنه لا يستطيع مواراة الذكر الخالد الذي
يذهب بشمائه الحساد ويتمثل في السماء بصورة الكواكب وفي الارض بصورة
الاطواد وبعض هذا ماخوذ من قول بعض شعراء الحماسه

نثر ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام بالفصاحه وهو فصل من كتاب فقلت
وله البيان الذي يغض من نسق الفريد ولا تخلق نضرة لباسه الجديد وهو
فوق كلام المجيد ودون القرآن المجيد واذا اختصر واصفه قال انه
يستميل سمع الطروب ويستخف وقار القلوب ويمثل ابيات بيضا من
غير ضم الى الجيوب ويسري في الارض غير لاغب اذا مس غيره فتر
اللغوب ولا يزال الناس في عشق معانيه ضربا واحدا والعاشقون ضروب
ولما وقفت عليه قلت سبحان من اعطا سيدنا فلم يخل رخصة بنبوة البيان
الا انه لم يرسل ولولا ان الوحي قد سد بابه لقيل هذا كتاب منزل ولقد
خار الله لاولي الفصاحه اذ لم يجيوا الى عصره ولم يبلوا فيه بداء الحسد
الذي يصليهم بتوقد جمره ولئن سلموا من ذلك فما سلمت اقوالهم من اقواله
التي يمحها محو المداد وقد كانت باقيه من بعدهم فلما اتى صارت كما
صاروا الى الالحاد وفي هذا الفصل شي من المعاني الشعريه
كقول البحتري

مستميل

مستميل سمع الطروب المغني عن اغاني معبد وعقيد
وكقول الشريف الرضي
عشقت وما لي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب
وفيه ايضا شي من معاني القرآن الا انها جات ضمنا وتبعا وموضعها ياتي بعد حل
الابيات الشعريه وكذلك ذكرت فصلا اخر من هذا الاسلوب وهو وان
لكلامه طعما يعرف مذاقه من بين الكلام وخفه الارواح معلومه من بين ثقل الاجسام
فلو لم نعرفه بطعمه عرفناه بوسمه والصباح لا يتمارى في اسفاره ولا يفتقر الى
دليل على اشراق انواره وقد علم ان العرق ينعرف بغصنه وان القول يعرف بلحنه
ونفايس هذه العقود لا يبرزها الا انفاسه فدررها لفظه وسلوكها قرطا
ومن هذا الباب قولي ايضا وهو الفاظ تخفق البنود او زار الاسود ومعان تدل
بارعها فيها انها هي السيوف وان قلوبا تمتهاهي الغمود فيخالها الانامل جوه طعان
او حلبه رهان وبعض هذا ماخوذ من شعر البحتري
يقظان ينتخب الكلام كانه جيش لديه يريد ان يلقى به
ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان من اهل الكتابه كان اعتدى
عليه شخص يدعي الكتابه وليس من اهلها فقلت وقد نبط بسيدنا في الحظ اللذان
ويبيت الاخر الى الصعاد فهو يدبر هذا في معركه المقال وهذا في معركه الطراد
ولربما صهل احد قلبه من فوق صفحات الدروج كما تصهل الجياد من تحت اعواد

السروج فله احتفال المواطن والمجالس واليه عنا اصحاب العمايم والقلانس
لا كمن لا يحاورهمه طرفي ردايه واذا نودي لفضيلة قيل انما يسمع الحي نداءه
وكم في الناس من صور لا نجد لمعناها اثرا واذا رايتها قلت ارى مخيلة ولا ارى
مطرا واي حال لعبد من ليس له الاجمال ثيابه وهل ينفع السيف الكهام ان يجعل
من الذهب حلية قرابه وكل من هاولا يرد ذنبه يسعى للاراس ولا هم له الا في عيشة
الطاعم الكاسي واذا اعتبر حاله وجد من البهايم وان كان منسوبا الى الناس والسيادة
ليست في وشي الثياب ولا في طيب الطعام والشراب وانما هي في شيئين لها شهامة
قلم تفرق لها قلوب الغمود او شهامة رمح تفرق لها قلوب الاسود وكاني بقوم
يسمعون هذا وكلهم يتمعض امتعاض المغضب ويتتابع نفسه تتابع المتعب
ويعترض الشجي في حلقه حتى يغص من غير ان يشرب ولم يزل بالحساد من
سيدنا دابو بهم ارقا ويوسعهم شرقا وكثيرا ما تعرق له جباههم وكذا المت
يبلي جبينه عرقا وما ادري لها ولا دواء الا ان يطرحوا عن مناكبهم ثقل المساجلة
والحسد انما يكون ممن يجري مع صاحبه في مضمار المماثلة وكنت احب ان نقام
على الكتابة محتسب حتى يتفلس منها خلق كثير ويستريح جياد كثيرة من ركوب
حمير وفي مثل هذه السوق يظهر اهل الخلابة والنجش وما منهم الا من هو في
الحضيض الاسفل وقد اجلس نفسه على قايمة العرش ونار الاله المعمرة تميز
خالص النقود من زيفها ولا حيف في هذا المقام على من اسرفت دعواه الكاذبة

في

في خيفها   وبعض هذا الفصل ماخوذ من شعر عبد السلم بن رغبان

يزهى به الفلان الا ان ذا الذنب المحبس وان ذا بالكعوب
عود اذا يقضب ذا الطلى بلعابه يجوب ذا المهجان بالتركيب

ويكفيك ايها المترشح لنثر الشعر ان تنظر الى هذا الفصل وتتامل الموضع الذي
اخذت منه معنى هذين البيتين ووضعته فيه فان فيه غنى ومقنعا واما حل
ايات القران العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية لان الفاظه ينبغي
ان يحافظ عليها لمكان فصاحتها الا انه لا ينبغي ان يوخذ لفظ الاية بجملته فان
ذلك من باب التضمين وانما يوخذ بعضه فاما ان يجعل اولا للكلام او اخرا على
حسب ما يقتضيه موضعه وكذلك يفعل بالاخبار النبوية على انه قد يوخذ
معنى الاية والخبر فيكسى لفظا غير لفظه وليس لذلك من الحسن ما للقسم الاول
للفايدة التي اشرنا اليها وقد سلكت في ذلك طريقا اخترعتها وكنت ابا عذرها
وعند تامل ما اوردته منها في هذا الكتاب يظهر للمتامل صحة دعواي ولين
كان من تقدمني اتى بشيء من ذلك فاني ركبت جوادا وركب جملا ونال من مورده
نهلة واحدة ونلت منه نهلا وعللا ومن اتاه الله في القران بصيرة فانه يسلك
الفاظه ومعانيه في كلامه ويستغني به عن غيره الا انه ينبغي ان يكون فيه
صواغا تخرج منه ضروب المصوغات او صرافا يتجهبذ في نقوده المختلفة
من الذهب المختلف الالوان ولا اقول من الفضة فليس فيه من الفضة شي

حلايا الفوايد

فيه صح

وهو اعلى من ذلك او يكون تاجرا يديره على يديه ويتصرف في ارباحه ويخرج من
الامتعه المجلوبه من مناسجه كل غريبه عجيبه وكل هذا يفهمه من عرف
فلزم وحكم بما علم ● وما كل من نال القريض بشاعر ولا كل من عانى الهوى بمتيم
واعلم ان المتصدي لحل معاني القران يحتاج الى كثرة الدرس فانه كلما ادام
على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهره من قبل وهذا شي جربته وخبرته فاني
كنت اخذ سورة من السور واتلوها وكلما مررت بمعنى منها اثبته في ورقه مفرده
حتى انتهي الى اخرها ثم اخذ في حل تلك المعاني التي اثبتها واحدا بعد واحد ولا
اقنع بذلك حتى اعاود تلاوة تلك السوره فافعل بها مثل ما فعلته اولا وكلما
صقلتها التلاوه مره بعد مره ظهر في كل مره من المعاني ما لم يظهر في المره التي
قبلها وسأورد في هذا الموضع سورة من السور ثم اردفها بايات اخرى من
سور متفرقه حتى يتبين لك ايها المتعلم ما فعلته فتحذو حذوه وقد بدات
بالسوره اولا وهي سورة يوسف عليه السلم لانها قصه مفرده براسها
وفيها معان كثيره فالاول ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب وهو وصل كتاب
الحضره السامية احسن الله اثرها واعلى خطرها وقضى من العليا وطرها
واظهر على يديها ايات المكارم وسورها واسجد لها كواكب السياده وشمسها
وقمرها وهذا اول معنى في السوره وقد نقلته عن قصه المنام الى الدعاء ثم
ابرزت هذا المعنى في صوره اخرى وهو اكرم النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين

وتقدمه

وتقدمه اني رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لي ساجدين فهذه
النعمه هي تاتي العسير وتجلو ظلمه الخطب بالصباح المنير فانظر الى اثر رحمة الله
كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شي قدير ثم تصرفت
في هذا المعنى فاخرجته في معرض اخر وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان
الخلافه لبعض الوزراء فقلت وقد علم ان امير المومنين ادنى مجلسه من سمائه وانسه
على وحشة الانفراد بحفل نعمائه ورفعه حتى ودت الشمس لو كانت من اترابه والقمر
لو كان من لداته وذلك مقام لا تستطيع الجدود ان ترقى الى ثنيته ولا الامال
ان تطوف حول كعبته ولا الشفاه ان تتشرف بتقبيل تربته فليبرز لعجابا بما ناله
مواطي اقدامه ولينظر الى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه ومن هذا ما
ذكرته في ذم بخيل وهو لم ادرك مواهب فلان ملات امالي بطمعها وعودها وفرغت يدي
من نيل جودها فلم احظ الا بلامع سرابها وكانت كدم القميص في كذابها ومن
ذلك ما ذكرته في تزكيه انسان مما رمي به وهو لم يرم بذنب الا كانت البراءه له
مناب الشهود وجي من اهلها بشاهد ذي القميص المقدود ومن ذلك ما ذكرته
في عذر الهوى وهو لم يهو حبيبا الا كان لاهل اللوم فيه اسوه ولا ليم من اجله الا
اعتذر بعذر امراه العزيز الى النسوه ومن ذلك ما ذكرته في فصل من جواب كتاب
الى بعض الاخوان وهو ان كان الكلام كما قيل ذكرا والجواب انثى فجوابي هذا عروس
تجلى في حللها الحبره وعقودها المشذره وتزهى بما اتاها الله من الحسن الذي

ليس بالمجلوب ولا يرضى بتقطيع الأيدي دون تقطيع القلوب وها قد أرسلتها
إلى سيدنا حتى يعلم أن نتائج خاطري على الفطرة وأنها معشوقة الصور في كل الناس
في هواها سوغته في هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي والبيت من الشعر
ومن ذلك ما ذكرته في تقلب الأيام وهو لقينا أياما ضاحكات وليتها أيام عابسات
فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم
وهو ليس ممن يرقب عجف الزمان فيبذر الحب في سنبله ولكنه يستأنف الصبر
في آخره ويستهلك المال في أوله فلا يبقي من يومه لغده ولا يتهم ربه بما في يده
ومن ذلك ما ذكرته في حب الرشوة وهو الرشوة تحل عقد القلوب وتهون
فراق المحبوب ألا ترى أن رد البضاعة حكم على أخي يوسف بالإضاعة ومن ذلك
ما ذكرته في الاستسلام لحكم الأقدار وهو لا يحترس من جنود الأقدار بالآراء
المتجمعة وسواء عندها الباب الواحد والأبواب المتفرقة ومن ذلك ما
ذكرته في تتابع الإساءة وهو لم يزل يرشقني بقوارضه حتى تكاثر النبل واستحكم
النبل ولم يكفه الإلقاء في غيابة الجب حتى قال إن يسرق فقد سرق أخ له من
قبل ومن ذلك ما ذكرته في التوكل وهو إذا طلب أمرا أجمل في السعي
للمطلوب ووكله إلى الذي بيده مفاتيح الغيوب وتأسى في حاجته منه بالحاجة
التي كانت في نفس يعقوب ومن ذلك ما ذكرته في وصف الكيد وهو لم يأت
أمرا إلا أخفى أسباب أواخيه وبدأ فيه بالأوعية قبل وعاء أخيه فصله

ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام **وأما الآيات** التي هي من سور
متفرقة فأولها ما كتبته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان جوابا عن كتابه وهو
ورد كتابه عشية يوم كذا فعرض علي عرض الجياد على سليمان وتساوينا في
الاشتغال منه ومنها بالاستحسان غير أن الجياد وإن حسنت فإنها لا تبلغ في
الحسن مبلغ الكتاب لكن قلت كما قال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت
بالحجاب ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سوق وأعناق فإنه لم يقض ها هنا بمسح
سطور ولا أوراق وإنما اشتغلت عن عبادة بعبادة ولو شئت لفتنت عن إفادة
بإفادة وهذا مأخوذ من قصة سليمن عليه السلام في سورة ص وهي قوله
تعالى ووهبنا لداود سليمن نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات
الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي
فطفق بالسوق والأعناق فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها
وبين الكتاب ثم إني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة وبالمخالفة بينهما أخرى
وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل علي
بن يوسف إلى الديوان العزيز النبوي ببغداد في فصل من كتاب وهو وقد علم أن
المال الذي يختزن كالماء الذي يحتقن فكما أن هذا يأجن بتعطيل الأيدي عن
امتياح مشاربه فكذلك يأجن هذا بتعطيل الأيدي عن امتياح مواهبه وأي
فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تملك به القلوب وتفك به الخطوب وتركب

به ظهر العزم الذي ليس بركوب ومن بسط الله يده فيه ثم قبضها بخله فانه
يقف دون الرجال مغمورا ويقعد عن نيل المعالي ملوما محسورا واذا ادركته
منيته مضى وكانه لم يكن شيئا مذكورا وقد ناط الله بيد الخادم ما ناطه من امر
بلاده لم يدخر منها الا مربط اشقره ومركز اسمره وما عداهما فانه مصروف
الى قوة الاسلام في سد ثغوره وتكثير جنوده وايقاد حرب عدوه بعد
خمودها واستباحة جمرها عند وقوده وما يفضل عن ذلك فانه للناس
يشتركون في وشله وغمره والمسلم اخو المسلم يساويه في حقه من بيت
المال وان خالفه في مرتبة قدره ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما
يفعله ان يمس من هذا المال بتبعة المطلوب او يلتحق بالقوم الذين يكنزونه
فيجزون عليه بكي الجباه والظهور والجنوب ولم يات به الله على فترة من
مثله الا ليمحو به سيئات الزمن ويعيد به الاسلام الى وطنه بعد ان طال
عهده بمفارقة الوطن ولان يكون حسنة من حسنات امير المومنين يرقمها
الدنيا في ديوانه ويثقل بها في الاخرة كفة ميزانه في هذا الفصل معنى ايتين
احديهما في سورة هل اتى والاخرى في سورة براءة ومن ذلك ما كتبه
عنه الى عمه الملك العادل ابي بكر بن ايوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل
اليه وهو من شيمة الاقدار ان تذهب ببصائر ذوي الالباب وتمثل لهم الخطا
في مثال الصواب ولولا ذلك لما زل الحليم واعوج المستقيم والملوك

نسخه

يقبل

يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لا زال عفوها مامولا واحسانها
عند الله مقبولا وفعلها في المكرمات متتابعا اذا كان فعل الايادي مفعولا وينتهي
الى عفوها الذي يكفي فيه لفظة الاعتذار ولا ينفك مواطنه الاصرار ولو عرف
ذنبه بادر بالقرع له سن الندامة وعاد على نفسه بالملامة ولما كان عجيبا ان
يكون مليما وان يكون مولانا كريما الفه حمل اصرة الذنب وهو بري من حملها وخاف
ان تكون هذه كاخواتها التي سلفت من قبلها والامور المتشابهة يقاس البعض
منها على البعض والملسوع لا يستطيع ان يرى يجر حبل على الارض ولم يحترم الملوك
الان حرمة سوى ان فر الى الاعتصام والتجي به الى اقوام لم يكونوا له باقوام واذا
ضاق عن المرء قربه كان الابعد له من ذوي الارحام وليس باول من ذهب هذا
المذهب ولا باول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ولين قال بعض الناس
انه عجل في اعتصامه وفراره وانه لو صبر لحمد مغبة اصطباره فهذا قول من
لم يعرف حال الملوك فيقيم له عذرا ولا ابتلي بما ابتلي به من عوارض مولانا مرة
بعد اخرى ولقد تكاثرت عليه هذه الافواك المونية حتى ملات طرفه كحل
السهاد وجنبه شوك القتاد واصبح وهو يرى انه زلق في خطيئته زلقا
وغص بندمه من اجلها شرقا وبدت له سوته حتى طفق يخصف عليها ورقا
ومع هذا فانه واثق ان حلم مولانا لا يوتى من الزلل وان حصاة الذنوب لا
تخف بوزن ذلك الجبل وها هو قد جاء للنازع العتبى وعاد مستشفعا

ولا شفيع اكرم من القربى ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب وفي
الذي أوردته من هذا الفصل معنى آية من القرآن في سورة البقرة وهي قوله
تعالى فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ومن ذلك
ما كتبته عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان بن مسعود صاحب
الموصل الى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسال في التقليد
وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة فمما جاء في صدر الكتاب بعد الدعا قوله
وهو اذا توفي ولي من اولياء الدولة فمن السنة ان يعزى بفقده ويستخرج
اذنها في سليله القايم من بعده حتى لا تخلو ارضها من رواسي الجبال ولا سماؤها
من مطالع الكواكب التي تجلو ظلمة الليال وقد مضى والد العبد الى رحمة الله
وهو متزود من الطاعة خير زاد غير خايف من احصاء الرقيب العتيد
اذ جعلها له من العتاد وما عليه وقد ثقلت كفة ميزانه ما كان في الكفة
الاخرى من السجلات الكثيرة الاعداد ومضمون وصيته التي عهد بها ان
يمشي في الطاعة على اثره ويهتدي بالاوامر الشريفة في مورد الامر
ومصدره وقد جعلها العبد نحو فكره اذا قام واذا قعد وسبحة صلاته
اذا ركع واذا سجد وهو يرى انه لم يمض والده حتى ابقى للدولة من يثبت قدمه
موضع قدمه وعند ذلك يقال ان غصن الشجرة كالشجرة في ثبات اصله وقوة
منبته وهذا مقام لا ينازع فيه الآباء عن الابناء وليست المزية لاكمال السن

وانما هي لشبيبة العنا وقد اوتي يحيى الحكم قبل ان تجري القلم في كتابه وشهد
له بالتزكية قبل ان ينتصب في محرابه وكذلك قد امر رسول الله صلى الله عليه
وسلم اسامة على فتاء عمره وشهد انه خليق بما اسند اليه من امره والعبد ان
بسط الاستحقاق لسانه فان الادب يحكم بانقباضه ويريه ان التفويض
الى انعام الديوان العزيز اسرع في نجح اغراضه ولا شك ان منتهى الآمال لا يبلغ
ادنى تلك المواهب ولو جمعت في صعيد واحد ثم سالت مطالبها لما نقصت
خزائن العطايا من تلك المطالب وهذا الفصل من اول الكتاب وفيه معنى
اثنين من سورة مريم عليها السلام اما الاولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى
عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا واما الثانية فقوله تعالى وحنانا من لدنا
وزكاة وكان تقيا وفي هذا الفصل ايضا معاني ثلاثة اخبار من الاخبار النبوية
وليس هذا موضعها وانما جاءت ضمنا وتبعا ومن ذلك ما ذكرته في وصف الغبار
في الحرب وهو وعقد العجاج سقفا فانعقد وارانا كيف رفع السما بغير عمد
غير انها سما بنيت بسنابك الجياد وزينت بنجوم الصعاد ففيها ما يوعد
من المنايا لا ما يوعد من الارزاق ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين
الاستراق وهذه معاني ماخوذة من سورة الرعد وسورة الصافات
وسورة الذاريات ومن ذلك ما ذكرته في وصف طعام وهو فصل من كتاب
فقلت طعام لا يمل اذا شبتنا لا طعمة بملها وكانما تولته يد الخلقة ولم تنا

الأبدي بعملها فهو من بقايا المائدة التي نزلت من السماء وقد طاب جنى لاجتلاح
من يعمد الى استعمال الماء وما رآه ذو شبع الآراء تركه عبثا وود لو زيد
الى بطنه بطنا . وبعض هذا ماخوذ من سورة المائدة ومن ذلك ما ذكرته نثر
في فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو قد تكاثرت وسائل الخادم حتى لا
يدري ما يجعله لطلابه سفيرا وما منها الا ما يقال انه اول وليس فيهما ما
جعل اخيرا غير انه لا يذكر منها الا ما هو توام ايمانه والتي لا يبطر الله من
ابن آدم الا الى مكانه وفي ذلك كاف عن الوسائل الجليلة والطريقة وقول
لا اله الا الله لا يعدله شي من الحسنات المودعة في الصحيفة وقد تجدد
الآن للخادم مطلب هو بالنسبة الى مواهب الديوان العزيز يسير ولو قامت
مطالب الناس في صعيد واحد لاعطي كلا منها مرامه ولم ينقل ذلك كثير
وكتابه هذا ساير الى تلك المواهب التي يضيق عنها صدر الارض باتساعه
وليس الذي يساله ممتنعا فيحال على النظر الى الجبل في امتناعه وكان عبيد
الديوان العزيز اطوار فكذلك مطالبهم اطوار وقد جعل الله الاشيا متفاوتة
في مراتبها وكل شي عنده بمقدار . هذا فصل من احسن ما يكتب في استنجاز
مطلوب وفيه معان ثلثة اخبار نبوية ومعنى آيتين من القرآن وليس هذا
موضع الاخبار وانما جا تضمنا وتبعا فالاية الاولى من سورة الاعراف والاية
الثانية في سورة الرعد . ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب وهو اذا جا

ليل

ليل قلمه وطلعت فيه نجوم كلمه لم يقعد لها شيطان بلاغته مقعدا الا وجد له
شهابا مرصدا فاسرارها مصونة عن كل خاطف مطوية عن كل قايف وهذا
المعنى ماخوذ من سورة الجن . ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب ايضا فقلت نثر
له بنت فكر ما تمخضت معنى الا انتخبته من غير ما تمهله وانت به تومها تحمله ولم
يعرض على ملا من البلغا الا القوا اقلامهم ايهم يستعبره لا ايهم يكفله في
هذين السطرين آيتان من القرآن الكريم الاولى في سورة مريم في قصتها وقصة
ولدها عليهما السلام وهي قوله تعالى فاتت به قومها تحمله والثانية في سورة
آل عمران في قوله تعالى اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم . ومن ذلك ما ذكرته في نثر
فصل من كتاب يتضمن وصف القلم فقلت وقد اوحى الله الى قلمه ما اوحاه الى النحل
غير انها تاوي الى المكان الوعر وهو ياوي الى البيان السهل ومن شانه ان
يجتني من ثمرات ذات ارواح لا ذات اكمام ويخرج من بعثاته شراب مختلف طعمه
فيه شفا الافهام وابن ما تنبته كافة الخشب مما تنبته لطافة المعنى ولا يستوي
نضارة هذا الثمر وهذا الثمر ولا طيب هذا المجتنى وهذا المجتنى وقد ارخص
الله ما يكثر وجوده فيذهب في لهوات الافواه واغلى ما يعز وجوده فيبقى خالدا
على السنة الرواة وكل هذه الاوصاف لا تصح الا في قلم سيدنا الذي اذا خلا
خاطره امتلات بحيثه الحافل واذا حلا كتابه وجدت الكتب الخالية من
قبله وهي عواطل فلا جيفيد ان ينظر الى غيره بعين الاحتقار ولو اصغى ان نسمه

وهو قايم بمقام الاختصار هذا الفصل غريب عجيب وقد جمع بين الاضداد
نثر فاله بعيد وفهمه قريب وهو ماخوذ من سوره النحل ومن ذلك ما ذكرته
في ذم بخيل وهو له شيمه في الجود لا يشام نايلها واذا هزها سايلها قال كلا
نثر انها كلمة هو قايلها وهذا ماخوذ من سوره المومنين ومن ذلك ما ذكرته
في صدر كتاب وهو وصلها به فوقفت منه على اللفظ الرخيم والمعنى الذي
في كل واد يهيم وقال يا ايها الملا اني القي الي كتاب كريم ثم اخذ في اعلاقه وتشويه
ذكره ولم يستفت الملا في الاذعان لامره ولا اهدى في قبالته سوى همته
لشانه وصدره لا جرم انها تقبل ولا ترد ويعتد بها ولا تعد فانها مال لا
ينفده الانفاق وجوهر تحلى به الاخلاق والاعناق وهذا ماخوذ من
قصه سليمان عليه السلام في كتابه الى بلقيس وهي مذكوره في سورة النمل وفي
هذا من شرف الصنعه انه خولف بين معانيه ومعاني ما اتى به القران الكريم
نثر ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار
وهو اذا خطب القلم عن الرمح الذي هو نديده قام مختفلا واسهب متروبا
ومرتجلا حتى ياتي في خطابته بالمعاني الاخاير واصدق القول ما صدر عن
شهادة الضمائر للضماير وكتابنا هذا يصف معركة احمرت ضبابتها
وضاقت بالاسود غاباتها فالطعن بها مختصر والموت محتقر والنصر من العرفين
مفتقر وكان للاسلام هناك زجر السنيح وفوز القدح المنيح وليس الذي

بوقت

بوقت المعونة من الله الذي هورت المسبح كمن يوقها من المسبح ولقد نفذت
الرماح في اعداء الله حتى اعتدلت من جانبي الصدور والظهور وتركت الناجي
منهم وهو لا ينظر الى الصليب الا نظر الخايف المذعور فليس لهم من بعدها جيش
يجمع ولا لواء يرفع وقد كانت بلادهم من قبل مانعه وهي الان لا تدب عنها ولا
تمنع وهذه معركة قلت بها الرقاب الماسوره وكثرت النفوس المقتوله وقربت
بها القرابين التي تاكلها النار لا لانها مقبوله ومعنى الايه في هذا الفصل ماخوذ
دهاآراء من ال عمران الا انه خالفه وذاك ان القربان كان يقبل فتنزل النار تاكله واحسا
هولاء الكفار قربان تاكله النار لكنها لا تاكله لانه مقبول وياتي الفصل يتضمن
نثر معنى حسنا دقيقا ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من
خلق بعض الاخوان وهو ولقد صبرت على اخلاقه العاتيه وعاملته بالخليقه
الراضيه وعالجته بضروب المعالجات فلم ينفع فيه رقى الراقيه ولا نفث النافثه
ولما اعيا على اصلاحه اخذت بمقاله الخضر لموسى في المرة الثالثه وهذا ماخوذ
نثر من قصه موسى عليه السلام وقصه الخضر في سورة الكهف ومن ذلك ما
ذكرته في فصل من كتاب وهو فجمعوا في دار الندم يعرضون عليها غدوا وعشيا
وصار الامر الذي كانوا يرجونه مخشيا واصبحوا كاهل النار الذين صاروا اعداء
وكانوا شيعا وقال الضعفا منهم للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا وهذا ماخوذ من
نثر سورة حم المومن ومن سورة سبا ومن ذلك ما ذكرته في ذم غلام ابله كنت

أناسي من يلهه نكدًا فكتبت يومًا من الأيام إلى بعض إخواني كتابًا وعرضت فيه بذكره
فقلت ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يقظ في صورة نائم وحتى حقق قول الناسخ
في نقل أرواح الأناسي إلى البهائم فما أرسل في حاجة إلا ذهبت عن قلبه منه يسيره
ولا طلب منه ما استحفظه إلا نال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة وهذا فصل يشتمل
على عدة معانٍ منها ما هو مأخوذ من القرآن من سورة الكهف ومن ذلك ما
ذكرته في تقليد قاضٍ وهو فصل منه فقلت والفضائل ما بقيت موجودة ولم
تفقد وهي جنة وإن أودى أربابها ولا يموت من لم يولد ومن أكرم ما أوتيه منها
فضيلة التقوى التي الكرم من شعارها والعاقبة والحسنى كلاهما من آثارها وما
يقول الآية اتخذها حارسًا يمنع الخصم من تسور محرابه ويؤمن قلبه من
الخشية الداعية إلى استغفاره ومتابه وقد قرن الله له هذه الفضيلة بالعلم
الذي علمه بعلامته ووسمه بوسامته وقذف في روعه ما الإنسان معه عن
السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته وعلى ما بلغه فإنه فيه
أحد المنهومين اللذين لا يشبعان وإذا كان لغيره فيه نظر واحد ومسمع فله
فيه نظران ومسمعان وفي هذا الفصل المختصر معاني عدة آيات وخبر من
الأخبار النبوية أما الآية الأولى فقوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم وأما
الآية الثانية فقوله تعالى والعاقبة للتقوى وأما الثالثة فقوله تعالى وهل
أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب وأما الآية الرابعة فقوله تعالى فانطلقا حتى

إذا ركبا في السفينة خرقها وكذلك إلى آخر القصة وهذا من أحسن ما يأتي في
هذا الباب ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء
فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب وقد علم منه أنه يعتد لطالب فضله فضلًا ويرى
التبرع بمعروفه فرضًا إذا رآه بغيره مع المسألة نفلًا وما ذاك إلا لمزية خُلق
توحّد بطيب التربة وشرف الرتبة وأوتي من كنوز الكرم ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة
ولهذا خرج على قومه من الأخلاق في زينته وفضل الخلق بطينة غير طينته ومن
فضله أنه يسأل عن السائلين ويحتال في استنباط أمل الآملين ثم مضيت على
هذا النهج حتى انتهيت الكتاب والغرض أن يعلم أيها المتعلم كيف يصنع بذلك
في أخذه إذا أخذته من بعض الآية ثم تضيف إليه كلامًا من عندك وتجعله مسجوعًا
كما فعلت أنا في هذا الموضع ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصة قارون
من سورة القصص وهي قوله تعالى إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه
من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن
الله لا يحب الفرحين فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت إليه كلامًا من
عندي حتى جاء كما تراه مسجوعًا وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه
السورة أيضًا وهي قوله تعالى فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون
الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وهكذا ينبغي لك
إذا أردت أن تسلك هذه الطريق وقدرت على سلوكها وهي من محاسن

حفظ الاخبار النبويه

الصناعه البلاغيه وليس فوقها من الكلام ما هو اعلى درجة منها والله يختص بها
من يشا من عباده وفيما ذكرته من شرح هذه الايات كفايه للمتعلم واما الاخبار
النبويه فكالقران العزيز في حل معانيها فان قلت ان الاخبار النبويه لا تجري الامر
فيها مجرى القران اذ القران له حاصر وضابط وكل اياته تدخل في الاستعمال
كما قال بعضهم لو ضاع مني عقال لوجدته في القران الكريم واما الاخبار فليست
كذلك لانها كثيره لا تحصر ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال
ومنها ما لا يدخل ولا بد من بيان يمكن الاحاطة به والوقوف عنده قلت
في الجواب عن هذا انك اول ما تحفظه من الاخبار هو كتاب الشهاب فانه كتاب
مختصر وجميع ما فيه يستعمل لانه يتضمن حكما وادابا فاذا حفظته وتدربت
باستعماله كما اريتك هاهنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل
في الاستعمال وبما لا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخاري ومسلم والموطا
والترمذي وسنن ابي داود وسنن النسائي وغيرها من كتب الحديث وتاخذ
ما تحتاج اليه واهل مكه اخبر بشعابها والذي تاخذه ان امكنك حفظه
والا درس عليه فهو المراد لانك ان لا تحفظ فلست منه على ثقه وان كان لك
محفوظات كثيره كالقران الكريم ودواوين كثيره من الشعر وما ورد من الامثال
السايره وغير ذلك مما اشرنا اليه فعليك بمداومه المطالعه للاخبار
والاكثار من استعمالها في كلامك حتى يرتسم على خاطرك فيكون اذا احتجت منها الى

شي وجدته وسهل عليك ان تاتي به ارتجالا فتامل ما اوردته عليك واعمل به
وكنت جردت من الاخبار النبويه كتابا يشتمل على ثلاثه الاف خبر كلها يدخل في
الاستعمال وما زلت اواظب مطالعته مده تزيد على سنين فكنت انهي مطالعته
في كل اسبوع مره حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمايه مره وصار
محفوظا لا يشذ عني منه شي وهذا الذي اوردته هاهنا في حل معاني الاخبار
هو من هناك وسأذكر ما دار بيني وبين بعض علماء الادب في هذا الاسلوب
الذي انا بصدده هاهنا وذاك انه استوعره وانكره وقال هذا لا يتهيا الا في
الشي اليسير من الاخبار النبويه فقلت لا بل يتهيا في الاكثر منها فقال قد ورد
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اختصم اليه في جنين فقضى على من اسقطه بغره
عبدا او امه فاين يستعمل هذا فافكرت فيما ذكره ثم انشات هذا الفصل من
الكلام واودعته فيه وهو قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل
وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصور الممثله من باقل ولو عرف كل انسان
قدره لما مشى بدن الا تحت راسه ولا انتصب راس الا على بدنه ولكان صاحب
العمامه احق بعمامته وصاحب الرسن احق برسنه وكنت سمعت بكاتب من
الكتاب كلمه الى غثاثته وقلمه بغاثه لا يستنسر واي بطش لبغاثه واذا وجب
الوضو على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سبل ثلاثه هذا وهو
يدعي انه في الفصاحه امه وحده ومن قس اياد وسحبان وايل عنده واذا

كشف عن خاطره وجد بلداً لا يخرج عن العجمة والكزة وان رام ان يستنتجه في حين
من الاحيان تعصّى عليه تعذّر عبد او امة وكثيراً ما نتقدم ونقتضيه منه على
الافاضل من العلماء وقد صار الناس الى زمان يعلو فيه حضيض الارض قمم السماء
فلما اوردته عليه ظهرت امارة الحسد على صفحات وجهه وفلتات لسانه مع
اعجابه واستغرابه اياه ثم قال وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا
الحديث وهو لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال فهذا اين يستعمل في
المكاتبات فترويت في قوله ترويا يسيراً ثم قلت هذا يستعمل في كتاب الى ديوان
الخلافة وامليت عليه الكتاب فجاء هذا الحديث في فصل منه وهو اذا افاض الخادم
في وصف ولاية نكصت همم الاولياء عن مقامه وعلموا انه اخذ الامر بزمامه
فقد اصبح وليس بقلبه سوى الولاء والايمان فهذا يظهر اثره في طاعة السر
وهذا في طاعة الاعلان وما عداهما فان دخوله الى قلبه من الاشياء المحظورة
والملائكة لا تدخل بيتاً فيه تمثال ولا صورة فليعول الديوان العزيز منه على
سيف من سيوف الله يفري بالاضارب ويسري بالاحامل ولا يسل الا في حق
ولا يغمد الا في محق باطل وليعلم انه كرشه وعيبته في تضمن الاسرار وانه احد
سعد به اذا عدت مواقف الانصار فلما رأى هذا الفصل بهت له وعجب
منه ثم اني لم اقنع بايراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثاً آخر وهو قول
النبي صلى الله عليه وسلم الانصار كرشي وعيبتي وحيث عرفتك ايها المتعلم

ما

ما يقتدى به في هذا الموضع فقد ذكرت لك امثلة كثيرة تتدرب بها
فمن ذلك ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب وهو اعاذ الله ايامه من الغير
وبين خطر بجمته نقص كل خطر وجعل ذكره زاداً لكل راكب وانساً لكل سمر
ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
وهذا المعنى ماخوذ من الحديث في وصف نعيم الجنة فنقلته الى الدعاء
ومن ذلك ما ذكرته في وصف الحلم وهو تركته حتى جال في الميدان
وامتد في الاشطان ولم استصرخ خوفاً من قيام الملك وقعود الشيطان والحلم
لا يظهر اثر حلمه الا عند تلدده والكظم هو شد ما يخاف من تبدده وهذا
المعنى اخذته من قصة ابي بكر رضي الله عنه في خصامه فانه بغى عليه ثلاث مرات
وهو ساكت ففي الثالثة انتصر فقال النبي صلى الله عليه وسلم كان الملك جالساً
الى جانب ابي بكر يكذب خصمه بما يقول فلما انتصر قام الملك وقعد الشيطان
ومن ذلك ما ذكرته في النصرة على العدو في موطن القتال وهو اخذنا بسنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم في النصر الذي نرجوه ونبذنا في وجه العدو
كفاً من التراب وقلنا شاهت الوجوه فثبت الله ما تزلزل من اقدامنا واقدم
حيزوم فاغنانا عن اقدامنا وهذان المعنيان احدهما ماخوذ من حديث
غزوة بدر وذاك ان رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من المشركين واراد ان
يضربه فخر على الارض ميتاً من قبل ان يصل اليه وسمع الرجل المسلم صوتاً من

فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال ذلك من
مدد السماء الثالثة ومن ذلك ما ذكرته في ضيق مجال الحرب وهو وضاق
الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ونصال الخرص الغرز بالغرر
والصدور بالصدور واستظل جنيبنا بالسيوف لاشتباك مجالها وتبوأت مقاعد
الجنة التي هي تحت ظلالها وهذا مأخوذ من الحديث النبوي وهو قول النبي صلى
الله عليه السلام الجنة تحت ظلال السيوف ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب
أذم فيه الزمان فقلت ولكنها الأيام تبدي لنا من جورها كل غريبة وتسوسنا
سياسة العبد المجدع الذي كان رأسه زبيبة وليس لمرء فيها بلقاء من أحداثها
نعمى كانت أو بؤسى إلا أن يكل الأمور إلى وليها فيقول لحاج آدم موسى وهذا مأخوذ
من الخبر النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم لحاج آدم موسى فقال له موسى
أنت أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم فقال آدم أنت الذي اصطفاك
الله برسالته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى ومن ذلك ما ذكرته في وصف بعض
الكتاب وهو فصل من كتاب كتبته إليه فقلت ولقد سردت عليه أحاديث
البلاغة فاستغنى عن بسط ردايه وهدي إلى جوامع كلمها فاقتدى الناس
باهتدايه فإذا اشتبهت عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة وإن
أغرب في أساليبها لم يقل فيه ما قيل في رواية أبي هريرة وهذا الفصل من

احسن

أحسن ما أوتي به في صناعة نثر المعاني وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة قال
قلت يا رسول الله أسمع منك أشياء فلا أحفظها فقال ابسط رداءك فبسطته
فحدث حديثا كثيرا فما نسيت شيئا حدثني به وأما رواية أبي هريرة فشك
فيها قوم لكثرتها وقد اجتمع في هذا الفصل معنى الحديث النبوي وغيره ومثل
هذا لا يتفطن له عند الوقوف عليه إلا من تحرى في الوقوف على الأخبار النبوية
ومن أجل ذلك جعلته ركنا من أركان الكتابة في الفصل التاسع ومن
ذلك ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة فقلت ومن صفاتها أنها مدرة
مستوبلة الطينة مجموع لها بين حر مكة ولأواء المدينة إلا أنها لم يؤمن
حرمها من الخطفة ولا نقلت حماها إلى الجحفة في هذه الكلمات القصار آية
من القرآن وخبران من الأخبار النبوية فالآية من سورة العنكبوت وهي
قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم وهذا
موضع يختص بالأخبار لا بالآيات غير أن الآية جاءت ضمنا وتبعا وأما الخبران
فالأول منهما قول النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ولأواء المدينة
ضمنت له على الله الجنة وأما الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم في دعائه
للمدينة اللهم حببها إلينا كما حببت إلينا مكة وانقل حماها إلى الجحفة فانظر أيها
المتأمل إلى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سوا بسوا
وهذا طريق لو ادعينا الانفراد بسلوكه لما اختلف علي في الاعتراف به اثنان

نثر
ومن ذلك ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتاب ورد منه وكان كتابه
تاخر عني زمانا طويلا فقلت ولما تاملته ضممته الي والتزمته ثم استلمته والثمته
وعلمت ان المعارف وان قدمت ايامها انساب وشيجه وتانست بالخلق النبوي
في العجوز التي كانت تاتي في زمن خديجه وهذا ماخوذ من الخبر المنقول عن
عايشة رضي الله عنها وهو انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح
الشاة فيبعضها اعضا ويقسمها في اصادق خديجه وكانت تاتيه عجوز فيكرمها
ويبسط لها رداه فسالته عن ذلك فقال منه كانت تاتينا في زمن خديجه
وحسن العهد من الايمان   ومن ذلك ما ذكرته في وصف كتاب وهو كل
سطر منه روضة غير انها ليل في صباح وكل معنى منه دمية غير ان ليس
على مصورها من جناح وهذا ماخوذ من الحديث في تحريم الصور   ومن
ذلك ما ذكرته في وصف كريم وهو فاغنى بجوده اغنا المطر وسما الى المعالي
سمو الشمس وسار في منازلها مسير القمر ونجح من ابكار فضايله ما ادعاه
غيره فقيل للعاهر الحجر ومن ذلك ما ذكرته في وصف الفصاحه فقلت
ابكار الخواطر لا تستولد على انفرادها وغايتها ان تتناكح في استنتاج اولادها
وانا انكح فكري لغيري نكاح الانساب للانساب ولا اخاف ان اضوي فاميل
الى الاغتراب وهذا ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم في الامر بنكاح
البعيدة النسب فقال غربوا لا تضووا ويريد بذلك ان الانسان اذا نكح المراة

وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش وللعاهر الحجر

القريبة اليه حصل بينهما حيا يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي فيجي الولد ضاويا
اي هزيلا   ومن ذلك ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن
كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جرت بينه وبينه مخاصمه فقلت
وصل كتابه وهو كتاب من اكثر الشكوى وطلب العدوى ونزل من التظلم بالعدوة
الدنيا وانزل خصمه بالعدوة القصوى والقاضي لا يحكم لاحد الخصمين حتى
يحضر صاحبه وان فقيت عين احدهما فربما فقيت عين الاخر وهشم جانبه
على انه قد اعترف ان كليهما كان للحم اخيه بالغيب اكلا وعليه في حال حضره
جاهلا وسباب المومن معدود من فسوقه والطراقه عن تورد هذا المقام
اولى من طروقه ولولا تغليظ النكير لما جعل للسان واليد سوا فما جرحا ولما
اخر الله المغفرة عن الخايضين فيها حتى يصطلحا فكن انت ممن اطاع تقواه لا
هواه واتبع من علم الحق فراه وسمعه فرواه واعلم ان تهاجر الاخوين فوق
ثلاث من منهيات الحرام وان الفايز بالاجر منهما هو البادي بالسلام ودفع السيئة
بالحسنة يجعل العدو وليا حميما وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابرا
وجعل له حظا عظيما والشيطان انما يحوم على اثارة مواقع الشنان ولا يجد
من اعماله بنية تشبه الامارة بين الاخوان   وفي هذا الفصل معاني ايات
واخبار وهذا الموضع مختص بذكر الاخبار دون الايات فاول المعاني الماخوذ
من الاخبار قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا اتاك احد الخصمين وقد فقيت عينه

عينيه فلا تحكم له فربما اتى خصمه وقد تقيت عمباه واما المعنى الثاني فقوله
صلى الله عليه وسلم سباب المومن فسوق وقتاله كفر واما المعنى الثالث
فقوله صلى الله عليه وسلم ان الاعمال تعرض على الله تعالى يوم الاثنين ويوم
الخميس فيغفر لكل امر لا يشرك بالله شيا الا امرا كانت بينه وبين اخيه شحنا
فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا واما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه وسلم
لا يحل للمومن ان يهجر اخاه فوق ثلاث واما المعنى الخامس فقوله صلى الله
عليه وسلم اذا التقى المتهاجران اعرض هذا واعرض هذا وخيرهما الذي
يبدا بالسلام واما المعنى السادس فقوله صلى الله عليه وسلم ان ابليس
له عرش على البحر يبث بنيه في افاق الارض فياتي احدهم فيقول فعلت كذا
وكذا فيقول ما فعلت شيا وياتي احدهم فيقول زيلت بينه وبين اخيه او
بينه وبين زوجته فيقول نعم الولد انت فانظر كم في هذه الاسطر اليسيره
من معنى خبر نبوي هذا سوى ما فيها من معاني الابات واذا عددت منه
الكلمات المذكوره في هذه الاسطر وجدتها جميعها منتظمه من الايه والخبر وهذا
ما يدلك على الاكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجه اليه على الفور
ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب وهو جواب عن كتاب يتضمن تهددا
وتخويفا فقلت ورد الكتاب مضمنا من الوعد والوعيد ما انس نفس
الملوك واوحشها وتقع ضلوعه واعطشها واقام له من الظنون السيئه

حسودا

جنودا انفا ناله وتاخذ عليه شعب الافكار ولا تزاوله وكانت كلمانه طوالا
راورانه ثقالا وما افلت من سطر من سطوره الا كان الاخر له عقالا ولما
استكمل الوقوف عليه تغلبت اطوار الخوف والرجا من اطواره وعرضت عليه
الجنة والنار في قرطاسه كما عرضت على رسول الله صلى الله وسلم في عرض جداره
ولولا وثوقه باناة مولانا لذهبت نفسه فرقا وابتغى في السماء سلما وفي الارض
نفقا لكنه قد توسم في كرمه مخايل الصنع الوسيم وعره منه ما غره من ربه الكريم
وعلم ان خلق حلمه يغلب خلق غضبه اذ هذا حادث وهذا قديم في هذا
الفصل معنى خبر من الاخبار النبويه وهو انه كان صلوات الله عليه يوما يخطب
فمال بيده الى الجدار وقال عرضت على الجنة والنار في عرض هذا الجدار فلم ار كاليوم
في الخير والشر ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب الى بعض الاخوان وهو الخادم
يواصل بالدعاء الذي لا يزال القلبه رسيلا وللسانه رسيلا واذا رفع اذنته الملايكة
قربا اذا تباعدت عن غيره ميلا ولا اعتداد بالدعاء الا اذا صدر عن اكرم مصدر
ووجد له فوق السما مظهرا وان لم يكن هناك مظهر ووصف باطنه بانه الابيض
الناصع الذي هو خير من ظاهر الاشعث الاغبر ولا يعامل الخادم اهل وده
الا بمثل هذه المعاملة ومن خلفه المجازفه في بذل الموده اذا اخذ الناس بسنته
المكايله في هذا الفصل معنى خبرين احدهما قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا
كذب الكاذب تباعد الملك عنه ميلا لنتن كذبه والاخر قوله صلى الله عليه

حديث رب اشعث

وسلم رب اشعث اغبر مدفوع بالابواب لو اقسم على الله لابره ومن ذلك
ما ذكرته في صدر كتاب وهو جواب عن كتاب تتضمن خطبة موده فابتدات الكلام
فيه بعد تصديره بالدعاء فقلت لولا العاده لرفع الخادم كتابه هذا ان يسطر
في ورقه وليس ذلك الا لارساله في خطبة موده راى صورتها في سرقه ولما انها
قال ان يكن ذلك من عند الله تمضه وابدى لها صفحة الرضى وان كانت كل موده
لم ترضه وخير المودات ما بسرها ضره تشاركها في وسامتها ولا تصاهيها في
درجه كرامتها فتلك التي تزدهي ذا الهمه ابوه وجمالا ولم يغله مهرها ولو بذل
فيه نفسا لاما لا وما يظنها الخادم الا هذه الموده التي خطبها وقد علت ان
تكون راغبة ولكن هو الذي ارغبها على انه لم يترشح لها الا من هو من اكفايها
وليست الاكفاء هاهنا الا ما تبذله الضماير من صفايها وقد اتاح الله لها كفوا
يكثر من ايناسها ويضعها من البر في محله ناسها فيجعل كل يوم من ايامها عرسا
حتى تتصل مواسم اعراسها ثم مضيت على هذا النهج الى اخر الكتاب والمعنى
الماخوذ فيه من الخبر النبوي في موضعين الاول ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال لعايشه رضي الله عنها ان جبريل عليه السلام عرض علي صورتك في سرقه
والسرقه حريره بيضا وقال هذه زوجتك في الدنيا والاخره فقلت ان يكن
ذلك من عند الله يمضه فاخذت انا هذا المعنى ونقلته الى خطبه موده ولا
ياتي في خطبة المودات شي احسن منه ولا الطف ولا اسد مقصدا الخبر الثاني

قول

القلوب

قول النبي صلى الله عليه وسلم انما تنكح المراه لاربع لحسنها او لدينها او لمالها
او لجمالها فقلت انا فتلك التي تزدهي ذا الهمة ابوة وجمالا اي قد جمعت الحسب
والجمال ومن ذلك ما ذكرته في تحبب المال وهو بين المال علاقه وكيده
وبين القلب وهي له بمنزله المحب وهو لها بمنزله المحبوب وليس ذلك الا لان
الله قبض قبضه من جميع الارض فخلق ادم من تلك القبضه ويوشك حينيذ
ان صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضه ولولا ان يكون منهما عنصر
ابدايه لما جعلهما الاطباد وادابه ولا يستغرب اذن ان يكون على حبهما مطبوعا
اذ كان منهما مصنوعا وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله
خلق ادم من قبضة قبضها من جميع الارض فجا بنو ادم على قدر الارض منهم الاحمر
والابيض والاسود وبين ذلك والحزن والسهل والخبيث والطيب غير اني
استنبطت معنى حب المال من هذا الحديث وهو معنى غريب لم اسبق اليه
ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام وهو ليس السحر ما اودع في جفن طليعه بل
ما اودع في صوغ معنى او نظم سجعه ولذلك كان لبيد في شعره احرى من لبيد
في سحره وكلا صنعيهما من الغريب العجيب غير ان ما يستنبط من القلب اعجب مما
يدفن في القليب وهذا المعنى ماخوذ من قصه لبيد بن الاعصم في سحره النبي
صلى الله عليه وسلم ومن عرف القصه وصورتها علم ما ذكرته في تفريع هذه الكلم
البديعه ومن ذلك ما ذكرته في وصف المنجنيق من جمله كتاب فقلت ونصب

المنجنيق يجثم بين يدي السور منتصبا ويبسط كفه اليه مواثبا ثم يولي عقوبته
بعصاه التي يفتك باحجاره واذا عصا عليها بلد اخذت في تاديب اسواره فما
كان الا ان استمرت عقوبتها عليه حتى صار قايمه حصيدا وعاصيه مستقيدا
وقال الم يكن نهي عن المد والتجريد فاني لا ارى الا مدا وتجريدا وعند ذلك
اذعن بفتح الابواب وتلا قوله تعالى لكل اجل كتاب وكذلك لم يات صعبا الا استسهل
ولا اخشنا بطيا الا استعجل ولطالما وقف غيرنا في هذا البلد فشفه طول
الانتظار ولم يحظ منه الا بمشابهة النصب احجار الديار في هذا الفصل معنى
خبر من الاخبار النبوية وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن
ضرب الحد ولا مد ولا تجريد اي لا يمد على الارض ولا يجرد عنه ثوبه
ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب الى الديوان العزيز النبوي خلد الله دولة
الديوان العزيز النبوي ولا زالت كمامها وادعة وعلياها جامعة وجدودها
كالنجوم التي ترى في كل حين طالعة وايامها كالليالي ساكنة ولياليها كالايام
ناصعة وابوابها كابواب الجنة التي يقال فيها ثامن وثامنه اذا قيل في غيرها
سابع وسابعه وهذا الدعا قد استجابه الله قبل ان ترفع اليه يد او ينطق
به ضمير واذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه اولا وجاهو في الزمن
الاخير فليس له حينئذ الا ان يدعو لما خوله الديوان العزيز بالدوام وان
يعيذه من النقص بعد التمام ثم يستهدي ما يؤمل له من الخدم التي يعتدها

من لطايف الاحسان واذا ندب لتكليف او امر بها قال والحمد والشكر
سبحان ولا شك ان درجات الاوليا تتفاوت في الصفات والاسما فمنها
ما يكون بطن الارض ومنها ما يرى كالكواكب في افق السما ولولا النهي عن تزكية
المر نفسه لادعا الخادم ان له اعلاها وحا بالاوليا من بعده فقال والشمس وضحاها
والقمر اذا تلاها لكنه لا يمت بطاعة عند الله من ذخره وسر الولا في هذا
المقام اكرم من جهره وليس الذي يمت بصلاته وصيامه كالذي يمت بسر وقر في
صدره والله لا ينظر الى الاعمال وانما ينظر الى القلوب وفرق بين المطيع بحضر
الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم
في الطاعة لسره وعلم انه الاشعث الاغبر الذي لو اقسم على الله لابره
في هذا الفصل من الاخبار والايات عدة مواضع وهذا الموضع مختص بالاخبار
فلنذكر ما دون الايات اما الاول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم
ترون اهل الدرجات العلى في الجنة كما ترون الكواكب في افق السما واما الخبر
الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم ما فضلكم ابو بكر بصلاة ولا صيام ولكن فضلكم
بسر وقر في صدره واما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث
اغبر ذي طمرين لو اقسم على الله لابره وفيما اوردته من حل المعاني الشعرية
وحل ايات القران والاخبار النبوية طريق واضح لمن يقوى على سلوكه والله
الموفق للصواب

بلغ مطالعة ومراجعة من اول الكتاب الى هذا الباب محمد ... ١٠٣٥

المقالة الاولى في الصناعة اللفظية وهي قسمين

القسم الاول في اللفظة المفردة

اعلم انه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تاليفه الى ثلاثة اشياء الاول
منها اختيار الالفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلي المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل
النظم الثاني نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها الثالث الغرض المقصود من ذلك
الكلام على اختلاف انواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم
فتارة يجعل اكليلا على الراس وتارة يجعل قلادة في العنق وتارة يجعل شنفا في الاذن
ولكل موضع من هذه المواضع هيبة من الحسن تخصه فهذه ثلاثة اشيا لا بد للخطيب
والشاعر من العناية بها وهي الاصل المعتمد عليه في تاليف الكلام من النظم والنثر
فالاول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي
المراد بالبلاغة وهذا الموضع يضل في سلوك طريقه العلما بصناعة صوغ
الكلام من النظم والنثر فكيف الجهال الذين لم تنفحهم منه رائحة ومن الذي يوتيه
الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضي ولو لم تمسسه نار حتى ينظر الى اسرار ما يستعمله
من الالفاظ فيضعها في مواضعها ومن عجيب ذلك ان ترى لفظتين تدلان على معنى
واحد وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة الا
انه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما
في مواضع السبك وهذا لا يدركه الا من دق فهمه وجل نظره فمن

ذلك

ذلك قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وقوله رب اني نذرت لك
ما في بطني محررا فاستعمل الجوف في الاولى والبطن في الثانية ولم يستعمل الجوف
في موضع البطن ولا البطن في موضع الجوف واللفظتان سوا في الدلالة وهما
ثلاثيتان على عدد واحد ووزن واحد فانظر الى سبك الالفاظ كيف يفعل
ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى ما كذب الفواد ما راى وقوله ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد فالقلب والفواد سوا في الدلالة
وان كانا مختلفين في الوزن ولم يستعمل في القران احدهما في موضع الاخر
وعلى هذا ورد قول الاعرج من ابيات الحماسة

نحن بنو الموت اذا الموت نزل ... لا عار بالموت اذا حم الاجل

والموت احلى عندنا من العسل

وقال ابو الطيب المتنبي

اذا شئت حفت بي على كل سابح ... رجال كان الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله
وقد وردت لفظة العسل في القران دون لفظة الشهد لانها احسن منها ومع هذا
فان لفظة الشهد وردت في بيت ابي الطيب فجاءت احسن من لفظة العسل في بيت
الاعرج وكثيرا ما تجد ذلك في اقوال الشعراء وغيرهم من بلغاء الكتاب ومصقعي
الخطباء وتحته دقايق ورموز اذا علمت وقيس عليها اشباهها ونظايرها كان

صاحب الكلام في النظم والنثر قد انتهى الى الغاية القصوى في اختيار الالفاظ
ووضعها في مواضعها اللايقة بها واعلم ان تفاوت التفاضل يقع في تركيب
الالفاظ اكثر مما يقع في مفرداتها لان التركيب اعسر واشق الا ترى ان الفاظ القران
الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم ومع ذلك فانه يفوق
جميع كلامهم ويعلو عليه وليس ذلك الا لفضيلة التركيب وهل تشك ايها
المتامل لكتابنا هذا اذا فكرت في قوله تعالى وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي
وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين
انك لم تجد ما وجدته لهذه الالفاظ من المزية الظاهرة الا لامر يرجع الى
تركيبها وانه لم يعرض لها هذا الحسن الا من حيث لاقت الاولى بالثانية
والثالثة بالرابعة وكذلك الى اخرها فان ارتبت في ذلك فتامل هل ترى
لفظة منها لو اخذت من مكانها وافردت من بين اخواتها كانت لابسة من
الحسن ما لبسته في موضعها من الاية ومما يشهد لذلك ويويده انك ترى
اللفظة تروقك في كلام ثم تراها في كلام اخر فتكرهها وهذا ينكره من لم يذق طعم
الفصاحة ولا عرف اسرار الالفاظ في تركيبها وانفرادها وساضرب لك
مثالا يشهد بصحة ما ذكرته وهو انه قد جات لفظة واحدة في اية من القران
وبيت من الشعر فجات في القران جزلة متينة وفي الشعر ركيكة ضعيفة
فاثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين اما الاية فهي قوله تعالى فاذا طعمتم

فانتشروا

فانتشروا ولا مستانسين لحديث ان ذلكم كان يوذي النبي فيستحيي منكم والله لا
يستحيي من الحق واما بيت الشعر فهو قول ابي الطيب المتنبي

تلذ له المروة وهي توذي ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من ابيات المعاني الشريفة الا ان لفظة توذي قد جات فيه وفي
الاية من القران فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها في تركيب
الاية فانصفها المتامل لما ذكرناه واعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته
وهذا موضع غامض يحتاج الى فضل فكر وامعان نظر وما تعرض للتنبيه احد
قبلي وهذه اللفظة التي هي توذي اذا جات في الكلام فينبغي ان تكون مندرجة مع ما
بعدها متعلقة به كقوله تعالى ان ذلكم كان يوذي النبي وقد جات في قول المتنبي منقطعة
الا ترى انه قال تلذ له المروة وهي توذي ثم قال
ومن يعشق يلذ له الغرام فجا بكلام مستانف وقد جات
هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي واضيف اليها كاف الخطاب فازال ما بها
من الضعف والركة وذاك انه اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فجاه جبريل عليه
السلام فقال بسم الله ارقيك من كل داء يوذيك فانظر الى هذا السر في استعمال
اللفظة الواحدة فانه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد اصلحها وحسنها ومن
ها هنا تزاد الها في بعض المواضع كقوله تعالى فاما من اوتي كتابه بيمينه فيقول
هاوم اقروا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه ثم قال تعالى ما اغنى عني ماليه هلك

عني سلطانيه فان الاصل في هذه الالفاظ كتابي وحسابي ومالي وسلطاني فلما
اضيفت الهآ اليها وتسمى هآ السكت اضافت اليها حسنا زايدا على حسنها واكسبتها
لطافة ورشاقة وكذلك ورد في القرآن قوله تعالى ان هذا اخي له تسع وتسعون
نعجة ولي نعجة واحدة فلفظة لي ايضا مثل لفظة تؤذي وقد جاءت في الاية مندرجة
متعلقة بما بعدها واذا جاءت منقطعة لا تجي لايقة كقول ابي الطيب المتنبي

تمسي الاماني صرعى دون مبلغه فلا يقول لشي ليت ذلك لي

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فادخل فيه ما ليس منه كقول
ابي الطيب المتنبي

ما اجدر الايام والليالي   بان تقول ماله وما لي

فان لفظة لي هاهنا قد وردت بعد ما وتبعها له ثم قال وما لي فجاء الكلام على نسق
واحد ولو جاءت لفظة لي هاهنا كما جاءت في البيت الاول لكانت منقطعة عن
النظير والشبيه فكان يعلوها الضعف والركة وبين ورودها هاهنا وورودها
في البيت الاول فرق يحكم فيه الذوق السليم وهاهنا من هذا النوع لفظة اخرى
قد وردت في اية من القرآن وفي بيت من شعر الفرزدق فجاءت في القرآن
حسنة وفي البيت الشعري غير حسنة وتلك اللفظة هي لفظة القمل
اما الاية فقوله تعالى فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم ايات مفصلات   واما البيت الشعري فقول الفرزدق

من عزه احتجرت كليب عنده زربا كانهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة في الاية دون هذا البيت من الشعر لانها جاءت في
الاية مندرجة في ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها وجاءت في الشعر قافية
اي اخرا انقطع الكلام عندها واذا نظرنا الى حكمة اسرار الفصاحة في القرآن
غصنا منه في بحر عميق لا قرار له فمن ذلك هذه الاية المشار اليها فانها قد تضمنت
خمسة الفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واحسن هذه
الالفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم فلما وردت هذه الالفاظ الخمسة
بجملتها قدم لفظتا الطوفان والجراد واخرت لفظة الدم اخرا وجعلت لفظتا
القمل والضفادع في الوسط ليطرق السمع اولا الحسن من الالفاظ الخمسة وينتهي
اليه اخرا ثم ان لفظة الدم احسن من لفظتي الطوفان والجراد واخف في (الاسنع)
ومن اجل ذلك جي بها اخرا ومراعاة مثل هذه الاسرار والدقائق في استعمال
الالفاظ ليس من القدرة البشرية   وقد ذكر من تقدمني من علماء البيان للالفاظ
المفردة خصائص وهيآت تتصف بها واختلفوا في ذلك فاستحسن احدهم شيئا
خولف فيه وكذلك استقبح الاخر شيئا خولف فيه ولو حققوا النظر ووقفوا
على السر في اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف
في شي منها وقد اشرت الى ذلك في الفصل الثامن من مقدمة كتابي هذا الذي
يشتمل على ذكر الفصاحة وفي الوقوف عليه والاحاطة به غنى عن غيره لكن

لا بد أن نذكرها هنا تفصيلاً لما أجملناه هناك لأنا ذكرنا في ذلك الفصل أن
الألفاظ داخلة في حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه
السمع منها فهو الحسن وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح وإذا ثبت ذلك فلا حاجة
إلى ما ذكر من تلك الخصائص والهيآت التي أوردها علماء البيان في كتبهم لأنه إذا
كان اللفظ لذيذاً في السمع كان حسناً وإذا كان حسناً دخلت تلك الخصائص والهيآت
في ضمن حسنه وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة
حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع
إلا حسناً ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج
وبين لفظة المدام ولفظة الإسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين
لفظة الأسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا يجاب بجواب
بل يترك وشأنه كما قيل اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر في رحله وما مثاله
في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء
الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة
وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل
ومبسم كأنما نظم من أقاح وطرة كأنها ليل على صباح وإذا كان بإنسان من سقم
النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن
يسوي بين هذه الألفاظ وهذه ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فإن

هذا حاسة وهذا حاسة وقياس حاسة على حاسة مناسب فإن عاند معاند
في هذا وقال أغراض الناس مختلفة في اختيار ما يختارونه من هذه الأشياء
وقد يعشق الإنسان صورة الزنجية التي ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التي
وصفتها قلت في الجواب نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال
بل نحكم على الكثير الغالب وكذلك إذا رأينا شخصاً يحب أكل الفحم مثلاً وأكل
الجص والتراب ويختار ذلك على ملاذ الأطعمة فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم
عليه بأنه مريض وقد فسدت معدته وهي محتاجة إلى العلاج ومداواة ومن له
أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتاً منكراً كصوت
حمار وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهي على
ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول
القائل الذي غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل
من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه
نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسناً والذي نستقبحه هو
الذي كان عندهم مستقبحاً والاستعمال ليس بدليل على الحسن فإنا نحن نستعمل
الآن من الكلام ما ليس بحسن وإنما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن
في كل الأحوال وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة
النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه

معذور في أن يقول ما قال

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومع هذا فإن قول القائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل
على أنه حسن قول فاسد لا يصدر إلا عن جاهل فإن استحسان الألفاظ واستقباحها
لا يؤخذ بالتقليد من العرب لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال وإنما هو شيء له
خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه وقد تقدم الكلام
على ذلك في باب الفصاحة والبلاغة وأما الذي يقلد العرب فيه من الألفاظ
فإنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها والأخذ بأقوالها في الأوضاع
النحوية من رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم الشرط
وأشباه ذلك وما عداه فلا وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافيا إلى زيد دون عمرو
أو إلى عمرو دون زيد لأنه وصف ذوقي لا يعتبر بالإضافة ألا ترى أن لفظة
المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف أحد
في حسنها وكذلك لفظة البعاق فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم
فإذا استعملها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت إذا
إلى استعمالهم إياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها وقد ذكر ابن
سنان الخفاجي ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف وقسمها إلى عدة أقسام
كتباعد مخارج الحروف وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي غير شاذة وأن تكون

مصغرة في موضع يعبر به عن شيء لطيف أو خفي أو يجري مجراه وأن لا تكون مبتذلة
بين العامة وغير ذلك من الأوصاف وفي الذي ذكره ما لا حاجة إليه أما تباعد
المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه لأن الواضع قسمها ثلاثة أقسام ثلاثيا
ورباعيا وخماسيا فالثلاثي من الألفاظ هو الأكثر ولا يوجد فيه ما يكره استعماله
إلا الشاذ النادر وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عددا
واستعمالا وأما الخماسي فإنه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر
وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل غير مكروه ولا تقتضي حكمة هذه
اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة
في تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستكراها فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء
والخاء والعين وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ولا بين اللام والراء ولا بين الزاي
والسين وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب ومن
العجب أنه كان يخل بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة وقد اعتنى بأمور أخرى
جزئية كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق
كالغليان والضربان والنقزان والنزوان وغير ذلك مما جرى مجراه فإن
حروفه جميعها متحركات وليس فيها حرف ساكن وهي مماثلة لحركات الفعل
في الوجود ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف
والحواشي فكيف كان يخل بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض

على أنه لو أراد الناظم والناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ
وهل هي متباعدة أو متقاربة لطال الخطب في ذلك وعسر ولما كان الشاعر ينظم
قصيدًا ولا الكاتب ينشئ كتابًا إلا في مدة طويلة تمضي عليها أيام وليال ذوات
عدد كثير ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فإن فطرة الذوق السليم هي الحاكمة في
هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح وسأضرب لك مثالًا فأقول
إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ وقيل لك ما تقول في هذه اللفظة أحسنة هي أم
قبيحة فإني لا أراك عند ذلك إلا تفتي بحسنها أو قبحها على الفور ولو كنت لا تفتي
بذلك حتى تقول للسائل اصبر علي إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك
بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة
شرطًا في اختيار الألفاظ وإنما شذ عنه الأصل في ذلك وهو أن الحسن من الألفاظ
يكون متباعد المخارج فحسن الألفاظ إذن ليس معلومًا من تباعد المخارج وإنما علم
قبل العلم بتباعدها وكل هذا راجع إلى الذوق والفطرة السليمة وإذا استحسنت لفظًا
أو استقبحته وجد ما تستحسنه متباعد المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج
فاستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده على أن هذه القاعدة
قد شذ عنها شواذ كثيرة لأنه قد يجيء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ألا ترى
أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك
وتسمى ثلاثتها الشجرية وإذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسنًا رائقًا فإن قيل

جيش

جيش كانت لفظة محمودة أو قدمت الشين على الجيم فقيل شجي كانت أيضًا لفظة
محمودة ومما هو أقرب مخرجًا من ذلك الباء والميم والفاء وثلاثتها من الشفة وتسمى
الشفهية وإذا انتظم منها شيء من الألفاظ كان جميلًا حسنًا كقولنا فم فهذه اللفظة
من حرفين هما الفاء والميم وكقولنا أدفنه بفمي وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة جميعها
وكلاهما حسن لا عيب فيه وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضًا ولو كان
التباعد سببًا للحسن لما كان سببًا للقبح إذ هما ضدان لا يجتمعان فمن ذلك أنه يقال
ملع إذا عدا فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان
وكل ذلك متباعد ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق
السليم ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة وههنا نكتة غريبة وهو
أنا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صار علم وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد
على حسنها وما يدري كيف صار ذلك القبح حسنًا لأنه لم تتغير من مخارجها شيء
وذاك أن اللام لم تزل وسطًا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كان مخارج الحروف
معتبرًا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في ملع وعلم فإن قيل إن إخراج
الحروف من الحلق إلى الشفة أيسر من إدخالها من الشفة إلى الحلق فإن ذلك
انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل الجواب عن ذلك أني أقول لو استمر لك
هذا لصح ما ذهبت إليه كما ترى من الألفاظ ما إذا عكسنا حروفه من الشفة إلى
الحلق أو من وسط اللسان ومن آخره إلى الحلق لا يتغير كقولنا غلب فإن الغين من

حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة واذا عكسنا ذلك صار
بلغ وكلاهما حسن مليح وكذلك نقول حلم من الحلم وهو الاناة واذا عكسنا هذه
الكلمة صارت ملح على وزن فعل بفتح الفاء وضم العين وكلاهما ايضا حسن مليح وكذلك
نقول عفر ورفع وعرف وفرع وحلف وفلح وقلم وملق وكلم وملك ولو شئت
لاوردت من ذلك شيئا كثيرا تضيق عنه هذه الاوراق ولو كان ما ذكرته مطردا
لكنا اذا عكسنا هذه الالفاظ صار حسنها قبحا وليس الامر كذلك واما ما ذكره
ابن سنان من جريان اللفظ على العرف العربي فليس ذلك مما يوجب لها حسنا ولا قبحا
وانما يقدح في معرفة مستعملها فيما ينقله من الالفاظ فكيف يعد ذلك من جملة الاوصاف
الحسنة واما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شيء لطيف او خفي او ما جرى مجراه فهذا
مما لا حاجة الى ذكره فان المعنى يسوق اليه وليست معاني التصغير من الاشياء الغا مضة
التي يفتقر الى التنبيه عليها فانها مدونة في كتب النحو وما من كتاب نحو الا والتصغير
باب من ابوابه ومع هذا فان صاحب هذه الصناعة مخير في ذلك ان شاء ان يورده
بلفظ التصغير وان شاء بمعناه كقول بعضهم

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو لبد

فهل كان يمكن هذا الشاعر ان يصغر من هؤلاء القوم ويحقر من شانهم بالفاظ
التصغير ونحو هكذا كما جاء في بيته هذا فالوصية به اذن ملغاة لا حاجة اليها
واما الاوصاف الباقية التي ذكرت فهي التي ينبغي ان ينبه عليها فمنها ان

لا يكون الكلمة وحشية وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين الى صناعة النظم والنثر
وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك بل الوحشي ينقسم قسمين احدهما غريب حسن والاخر
غريب قبيح وذاك انه منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بانيس وكذلك الالفاظ
التي لم تكن مانوسة الاستعمال وليس من شرط الوحشي ان يكون مستقبحا بل ان يكون
نافرا الا بالجنس فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا وعلى هذا فان احد قسمي الوحشي وهو لف صح
الغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والاضافات واما القسم الاخر من الوحشي الذي
هو قبيح فان الناس في استقباحه سواء ولا يختلف فيه باد ولا قروي ومتحضر واحسن
الالفاظ ما كان مألوفا متداولا ولا لانه لم يكن مألوفا متداولا الا لمكان حسنه وقد تقدم
الكلام على ذلك في باب الفصاحة فان ارباب الخطابة والشعر نظروا الى الالفاظ وتتبعوا عنها
ثم عدلوا الى الاحسن منها فاستعملوه وتركوا ما سواه وهو ايضا يتفاوت في درجات
حسنه فالالفاظ اذن تنقسم ثلثة اقسام قسمان حسنان وقسم قبيح فالقسمان الحسنان
احدهما ما تداول استعماله الاول والاخر من الزمن القديم والى زماننا هذا ولا يطلق
عليه انه وحشي والاخر ما تداول استعماله الاول دون الاخر ويختلف في استعماله
بالنسبة الى الزمن واهله وهذا هو الذي لا يعاب استعماله على العرب لانه لم
يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي وقد تضمن القران الكريم منه كلمات معدودة
هي التي يطلق عليها غريب القران وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئا وهو الذي يطلق
عليه غريب الحديث وحضر عندي في بعض الايام رجل متفلسف فجرى ذكر

القرآن الكريم فأخذت في ذكر وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه
من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأي فصاحة هناك وهو يقول تلك
إذن قسمة ضيزى فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له اعلم أن لاستعمال
الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا إمامك مثل ابن سينا والفارابي ولا من أضلهم مثل
أرسطاطاليس وأفلاطن وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة ضيزى فإنها
في موضعها لا يسد غيرها مسدها ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة
على حرف الياء فقال تعالى والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وكذلك إلى آخر
السورة فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال ألكم الذكر وله
الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع التي جاءت السورة جميعها
عليه وغيرها لا يسد مسدها في مكانها وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا
إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملايمة لأخواتها ولا منا سبة
لأنها تكون خارجة عن حرف السورة وسأبين ذلك فأقول إذا جئنا بلفظة في
معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى أو ظالمة
إلا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ظالمة لم يكن النظم
كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام وهذا لا يخفى على
من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه ربا لسانه
في فمه إفحاماً ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد الذي مستنده تقليد لبعض الزنادقة قبحهم الله

الذين يكفرون شيئاً ويقولون ما يقولونه جهلاً وإذا حوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم
وحيث انتهى بي القول إلى ها هنا فإني راجع إلى ما كنت بصدد ذكره فأقول
وأما القبيح من الألفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشياً فقط بل يسمى الوحشي
الغليظ وسيأتي ذكره وإذا نظرنا إلى كتاب الله الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلاً سلساً
وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً هذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء وألفاظه
كلها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالاً وكفى به قدوة في هذا الباب قال النبي صلى
الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع
المثاني يريد بذلك فاتحة الكتاب وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها
سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة وإن لم يفهموا
ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة فإن أفضل الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة
معناه وهكذا فلتكن الألفاظ في سهولة فهمها وقرب متناولها والمقتدي بألفاظ القرآن
يكتفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة وأما ما ورد من اللفظ الوحشي
في الأخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طهفة بن أبي زهير النهدي وذاك أنه لما قدم
وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبي زهير فقال أتيناك يا رسول
الله من غوري تهامة على أكوار الميس ترتمي بنا العيس نستحلب الجهام في أرض غائلة
النطاء غليظة الموطأ قد نشف المدهن ويبس الجعثن وسقط الأملوج ومات العسلوج
وهلك الهدي وفاد الودي برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث

الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستحيل

الرمن لنا دعوة الاسلام وشرايع الاسلام ما طما البحر وقام تعار ولنا نعم همل
اغفال ما تبض ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل اصابتها سنية حمرا موزلة ليس
لها علل ولا نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لهم في محضها
ومخضها ومذقها وفرقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك
له في المال والولد من اقام الصلاة كان مسلما ومن اتى الزكاة كان محسنا ومن شهد
ان لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بني نهد ودايع الشرك ووضايع الملك لا تلطط
في الزكاة ولا تلحد في الحياة ولا تثاقل عن الصلاة وكتب معه كتابا الى بني نهد من محمد
رسول الله الى بني نهد السلم على من آمن بالله ورسوله لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة
ولكم العارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا
يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يوكل اكلكم ما لم تضمروا الاماق وتاكلوا الرباق من
اقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفا بالعهد والذمة ومن ابى فعليه الربوة
وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضي استعمال هذه الالفاظ ولا تكاد
توجد في كلامه الا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما جرى مجراه على انه قد
كان في زمنه متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله الا يسيرا
لانه اعلم بالفصيح والافصح وهذا الكلام هو الذي نعده نحن في زماننا وحشيا
لعدم الاستعمال فلا تظن ان الوحشي من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك
النطق به وانما هو الغريب الذي يقل استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به

كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك في اللفظ قسمان احدهما انه
غريب الاستعمال والآخر انه ثقيل على السمع كريه على الذوق واذا كان اللفظ بهذه
الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ويسمى ايضا
المتوعر وليس وراءه في القبح درجة اخرى ولا يستعمله الا اجهل الناس ممن لم يخطر
بباله شي من معرفة هذا الفن اصلا فان قيل فما هذا النوع من الالفاظ قلت قد
بينت لك انه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به وساضرب لك في ذلك
مثالا منه ما ورد لتابط شرا كقوله في كتاب الحماسة

يظل بموماة ويمسي بغيرها جحيشا ويعروري ظهور المسالك

فان لفظة جحيش من الالفاظ المنكرة القبيحة ويا لله العجب اليس انها بمعنى فريد وفريد
لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شي من وزنه
فتابط شرا ملوم من وجهين في هذا الموضع احدهما انه استعمل القبيح والآخر انه
كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها ومما هو اقبح منها ما ورد لابي
تمام كقوله

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها
غليظة في السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة دهاريس ايضا وعلى هذا ورد
قوله من ابيات يصف فرسا من جملتها

نعم متاع الدنيا حباك به ... أروع لا جيدر ولا جبس

فلفظة جيدر وحشية غليظة وأغلظ منها قول أبي الطيب

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ... شيم على الحسب الأغر دلائل

فإن لفظة جفخ مرة الطعم وإذا مرت على السمع اقشعر منها وأبو الطيب في استعماله إياها كاستعمال تأبط شرا لفظة جحيش فإن تأبط شرا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما أشرنا إليه فيما تقدم وكذلك أبو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي جفخت فإن معناها فخرت والجفخ الفخر يقال جفخ فلان إذا فخر ولو استعمل عوضا عن جفخت فخرت لاستقام وزن البيت وحظي في استعماله بالأحسن وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء وهذا الذي ذكرته وما جرى مجراه من الألفاظ هو الوحشي الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته وهذه الأمثلة دليل على ما أردناه فالعرب إذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ لكن تلام على استعمال الغريب القبيح وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين معا وهو في أحدهما أشد ملامة من الآخر على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر وذلك شيء استخرجته أنا دون غيري فإني وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم

الذوق السليم عنده فمن ذلك قول الفرزدق

ولولا حياء زدت رأسك شجة ... إذا سبرت ظلت جوانبها تغلي

شرنبثة شمطاء من يرما بها ... تشبهه ولو بين الخماسي والطفل

فقوله شرنبثة من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر وهي ههنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها وكذلك قد وردت لفظة مشمخر فإن بشرا استعملها في أبياته التي يصف فيها لقاءه الأسد فقال

وأطلقت المهند عن يميني ... فقد له من الأضلاع عشرا

فخر مضرجا بدم كأني ... هدمت به بناء مشمخرا

وعلى هذا ورد قول البحتري في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى فقال

مشمخر تعلو له شرفات ... رفعت في رؤوس رضوى وقدس

فإن لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ولا بأس بها ههنا في الشعر وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيمة فقال اقمطر وبالها واشمخر نكالها فما طابت ولا ساغت ومن هذا الأسلوب لفظة الكنهور في وصف السحاب كقول أبي الطيب

يا ليت باكية شجاني دمعها ... نظرت إليك كما نظرت فتعذرا

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فلفظة الكنهور لا تعاب نظمًا وتعاب نثرًا وكذلك تجري الأمر في لفظة العرمس وهي اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يعاب مستعملها كقول أبي الطيب المتنبي

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ولو استعملت في الكلام المنثور من الكتابات والخطب لطابت ولا ساغت وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام كقوله

هي العرمس الوجنا وابن ملمة وجاش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد قوله أيضًا يا موضع الشدنية الوجناء

فإن الشدنية لا تعاب شعرًا وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة وهكذا تجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ المشار إليها وعلى هذا فاعلم أن كلما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم وليس كلما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور وذلك شيء استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهذا الفن ولأن الذوق الذي عندي دلني عليه فمن شاء أن يقلدني فيه وإلا فليدمن النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز

نعم

فهمه ويبعد متناوله وإذا رأوا كلامًا وحشيًا غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك لأن الفصاحة هي الظهور والبيان لا الغموض والخفاء وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضع فأقول إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيًا متوعرًا عليه عنجهية البداوة بل أعني بالجزل أن يكون متينًا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع وكذلك أعني بالرقيق أن يكون ركيكًا سفسفًا وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كما قال أبو تمام

ناعمات الأطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق

وسأضرب لك مثالًا للجزل من الألفاظ والرقيق فأقول انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئًا من ذلك وحشي الألفاظ ولا متوعرًا ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى

وفيما اعا
لان قوله عنجهية
لفظ ما لا
يليق بالنثر
على دعواه والله
الموفق

فانك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الالفاظ ولا مستسفا فمثال الاول وهو
الجزل من الالفاظ قوله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن
في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون واشرقت الارض
بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا
يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا
الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم ياتكم رسل منكم
يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة
العذاب على الكافرين قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين
وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال
لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا
وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين فتامل
هذه الايات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل احواله وذكر النار والجنة
وانظر هل فيها لفظة الا وهي سهلة عذبة على ما بها من الجزالة وكذلك
ورد قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم
وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم
وضل عنكم ما كنتم تزعمون واما مثال الثاني وهو الرقيق من الالفاظ
فقوله تعالى في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والضحى والليل اذا سجى ما

ودعك

ودعك ربك وما قلى الى اخر السورة وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسالة واذا
سالك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان ولعلك ترى سبك
القران الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة وكذلك كلام العرب
الاول في الزمن القديم مما ورد عنها نثرا ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم
لما قدم على امرئ القيس في اشياخ بني اسد يسالونه العفو عن دم ابيه فقال انك
في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه ايامه وتنتقل به احواله
بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب ولك من سودد منصبك
وشرف اعراقك وكرم اصلك في العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة
ورجوع عن الهفوة ولا تتجاوز الهمم الى غاية الا رجعت اليك فوجدت عندك
من فضيلة الراي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها
وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص
بذلك كندة دوننا للشرف البارع كان لحجر ولو كان يفدى هالك بالانفس
الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لا يرجع اخراه
على اولاه ولا يلحق اقصاه ادناه فاحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب
عليك في احدى خلال ثلاث اما ان اخترت من بني اسد اشرفها بيتا واعلاها
في بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته
فنقول رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستلل سخيمته الا تمكينه من الانتقام او فداء ما

يروح على بني اسد من نعمها فهي الوف تجاوز الخمسة فكان ذلك فلما رجعت بجر
القضب الى اجفانها لم يردها تسليط الاحن على البرآء واما ان وادعتنا الى
ان تضع الحوامل فتسلك الازر وتعقد الخمر فوق الرايات فبكى ساعة ثم رفع
راسه فقال لقد علمت العرب انه لا كف لحجر في دم واني لن اعتاض به جملا
ولا ناقة فاكتسب به سبة الابد وفت العضد واما النظرة فقد اوجبتها
للاجنة في بطون امهاتها ولن اكون لعطبها سببا وستعرفون طلايع كندة بعد ذلك
تحمل في القلوب حنقا وفوق الاسنة علقا

اذا جالت الحرب في مازق تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون ام تنصرفون قالوا بل ننصرف باسوا الاختيار وابلى الاجترار بمكروه
واذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل

لعلك تستوخم الورد ان غدت كتايبنا في مازق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس لا والله ولكن استعذبه فرويدا ينفرج لك دجاها عن فرسان
كندة وكتايب حمير ولقد كان ذكر غير هذا بي اولى اذ كنت نازلا بربعي ولكنك قلت
فاجبت فقال قبيصة ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والاعتاب فقال امرؤ
القيس هو ذاك فلينظر الى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرئ القيس
حتى يدع المتعقفون تعمقهم في استعمال الوحشي من الالفاظ فان هذا الكلام
قد كان في الزمن القديم قبل الاسلام بما شاء الله وكذلك هو كلام كل فصيح من

العرب مشهور وما عداه فليس بشيء وهذا المشار اليه ها هنا هو من جزل
كلامهم وهو على ما تراه من السلاسة والعذوبة واذا تصفحنا اشعارهم ايضا وجد
الوحشي الالفاظ قليلا بالنسبة الى المتسلسل في الفم والسمع الا ترى الى هذه
الابيات الواردة للسموال بن عاديا وهي

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا انا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت اجالنا لنا وتكرهه اجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف انفه ولا طل منا حيث كان قتيل
علونا الى خير الظهور وحطنا لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل
اذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
وايامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول
واسيافنا في كل غرب ومشرق بها من قراع الدارعين فلول
معودة ان لا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قبيل

فاذا نظرنا الى ما تضمنته من الجزالة خلناها زبرا من الحديد وهي مع ذلك

سهلة مستعذبة غير فظة ولا غليظة وكذلك قد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما تكاد تذوب لرقته كقول عروة بن اذينة

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضا باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وكذلك ورد قول الآخر

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه غب القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجدا وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل وأطيب ما يكون من النهار

ومما ترقص الأسماع له وترف على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية في محبوبته من بني جرم

بنفسي من لو مر برد بنانه على كبدي كانت شفا أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وإذا

وإذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى إلا شيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الألفاظ وشظف العبارات ولا يخلد إلى ذلك إلا إما جاهل بأسرار الفصاحة وإما عاجز عن سلوك طريقها فإن كل أحد ممن شدا شيئا من علم الأدب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام وذاك أنه يلتقطه من كتب اللغة أو يتلقفه من أربابها وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحة فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه وإن مارى في ذلك ممار فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان مشارا إليه حتى يعلم صحة ما ذكرته هذا ابن دريد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحطا مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عشر معشار ما علمه هذا العباس بن الأحنف قد كان من أوائل الشعراء المحدثين وشعره كمر نسيم على عذبات أغصان أو كلؤلؤ طل على طرر ريحان وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة فمن ذلك قوله

وإني ليرضيني قليل نوالكم وإن كنت لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم من الود إلا عدتم بجميل

وهكذا ورد قوله في فوز التي كان يشبب بها في شعره

يا فوز يا منية عباس قلبي يفدي قلبك القاسي

أساءت إذ أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني شوقي فآتيكم والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الأبيات وأعلق بالخاطر وأسرى في السمع ولمثلها تخف رواجح الأوزان وعلى مثلها تسهر رواقد الأجفان وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ولم أجرها بلساني يومًا من الأيام إلا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة قريبة بعيدة وقد كان أبو العتاهية أيضًا في غرة الدولة العباسية وشعراء العرب إذ ذاك موجودون كثيرًا وكانت مدائحه في المهدي بن المنصور وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة ألفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه وكذلك أبو نواس فإنه قدم على شعراء عصره وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ويكفي منهم مسلم بن الوليد الذي كان فارس الشعر وله الأسلوب الغريب العجيب غير أنه كان تعجبه في أكثر ألفاظه ويحكى أن أبا نواس جلس يومًا إلى بعض التجار ببغداد وجماعة من الشعراء فاستسقى ماء فلما شرب [illegible] الماء وطابا ثم قال أجيزوه فأخذ أولئك الشعراء يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجتازًا فقال ما شأنكم مجتمعين فقالوا هو كيت وكيت وقد قال أبو نواس عذب الماء وطابا فقال أبو العتاهية حبذا الماء شرابا فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث وكل شعر أبي العتاهية

كذلك سهل الألفاظ وسأورد منه هاهنا نبذة يستدل بها على سلاسة طبعه وتدفق خاطره فمن ذلك قصيدته التي يمدح فيها المهدي ويشبب بجاريته عتبة وهي

ألا ما لسيدتي ما لها تدل فأحمل إدلالها
ألا إن جارية للإمام قد أسكن الحسن سربالها
لقد أتعب الله قلبي بها وأتعب في اللوم عذالها
كأن بعيني في حيث ما سلكت من الأرض تمثالها

فلما وصل إلى المديح قال من جملته

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه نيات القلوب لما قبل الله أعمالها

ويحكى أن بشارًا كان شاهدًا عند إنشاد أبي العتاهية هذه الأبيات فلما سمع المديح قال انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده يريد هل زال عن سريره طربًا بهذا المديح ولعمري إن الأمر كما قال بشار وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته سواء كان في مديح أو غيره وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة فليؤخذ من هناك واعلم أن هذه الأبيات المشار إليها

ها هنا من رقيق الشعر غزلًا ومديحًا وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك
العصر ومع هذا فإنك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات وهذا
هو الكلام الذي يسمى السهل الممتنع تراه يطمعك ثم إذا حاولت مماثلته راغ عنك
كما يروغ الثعلب وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر فإن خير الكلام ما دخل
الأذن بغير إذن وأما البداوة والعجرفية في الألفاظ فتلك أمة قد خلت ومع أنها
قد خلت وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت
فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر وبعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجري
من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها
مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة
مزاج ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم
وتأهبوا للطراد وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات
وقد تحلين بأصناف الحلي وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ها هنا وجدته يدلك
على الطريق وضربت لك أمثالًا لا مناسبة واعلم أنه يجب على الناظم والناثر
أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والخاء والذال والشين
والصاد والطاء والظاء والغين فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال
ما يجيء من هذه الأحرف المشار إليها والناظم في ذلك أشد ملامة لأنه يتعرض لأن
ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه الذي يمجه

أبو تمام ينحت من صخر والبحتري يغرف من بحر

السمع

السمع لعدم استعماله كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها
قف بالطلول الدارسات علاثا   وكما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته الشينية
التي مطلعها   مبيتي من دمشق على فراش   وكما فعل ابن هانئ المغربي في قصيدته
الخائية التي مطلعها   سرى وجناح الليل أقتم أفتخ   والناظم لا يعاب إذا لم ينظم
هذه الأحرف في شعره بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة وأما
الناثر فإنه أقرب حالًا من الناظم لأن غاية ما يأتي به سجعتان أو ثلاث أو أربع على
حرف من هذه الأحرف وما تعدم في ذلك ما يروق إذا كان بصدد العدة
اليسيرة فإن تكلفها الشاعر أن ينظم شيئًا على هذه الحروف فتقل هذه الحروف
هي مقاتل الفصاحة وعذري واضح في تركها فإن واضع اللغة لم يضع عليها
ألفاظًا تعذب في الفم ولا تلذ في السمع والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو
نزر يسير ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر وأما القصائد المقصدة
فلا تصاغ منه وإن صيغت جاء أكثرها بشعًا كريهًا على أن هذه الحروف متفاوتة
في كراهة الاستعمال وأشدها كراهة أربعة أحرف وهي الخاء والصاد والطاء
والغين وأما الثاء والذال والشين والظاء فإن الأمر فيهن أقرب حالًا وهذا
موضع ينبغي لصاحب هذه الصناعة أن يمعن نظره فيه وفيما أشرنا إليه كفاية
للمتعلم فليعرفه وليقف عنده ومن أوصاف الكلمة أن لا تكون مبتذلة

بين العامة وذلك بتقسيم قسمين الأول ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع
له في أصل اللغة فغيّرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر وهو ضربان
الأول ما يكره ذكره كقول أبي الطيب

اذاق الغواني حسنه ما اذقنني وعفّ فجازاهن عني بالصرم

فإن أصل لفظة الصرم في وضع اللغة هو القطع يقال صرمه إذا قطعه فغيّرتها
العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص دون غيره فابتذلوا السخف ضاداً ومن أجل
ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها لكن المكروه منها ما يستعمل
على صيغة الاسمية كما جاءت في هذا البيت وأما إذا استعملت على صيغة الفعل
كقولنا صرمه وصرمته ويصرمه فإنها لا تكون كريهة لأن استعمال العامة لا يدخل
في ذلك وهذا الضرب المشار إليه لا يعاب البدوي على استعماله كما يعاب المتحضر
لأن البدوي لم تتغير الألفاظ في زمنه ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت في زمن
المتحضرة من الشعراء ومن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما جرى مجراها
على الشاعر المتحضر ولم يعب على الشاعر المتبدي ألا ترى قول
أبي صخر الهذلي

قد كان صرم في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

فإن هذا لا يعاب على أبي صخر كما عيب على المتنبي قوله في البيت المقدم ذكره وقد صنف

الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادي المعروف بابن الجواليقي كتاباً في هذا الفن
وسمه بإصلاح ما تغلط فيه العامة فمنه ما هذا سبيله وهو الذي أنكر استعماله
لكراهيته ولأنه مما لم ينقل عن العرب فهذان عيبان وأما الضرب الثاني وهو
أنه وضع في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره إلا أنه ليس بمستقبح
ولا مستكره وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دمث الأخلاق حسن الصورة
أو اللباس أو ما هذا سبيله والظرف في أصل اللغة مختص بالنطق فقط وقد قيل
في صفات خلق الإنسان ما أذكره هاهنا وهو الصباحة في الوجه والوضاءة في
البشرة الجمال في الأنف الحلاوة في العينين الملاحة في الفم الظرف
في اللسان الرشاقة في القد اللباقة في الشمائل كمال الحسن في الشعر
فالظرف إنما يتعلق بالنطق خاصة فغيرته العامة عن بابه وممن غلط في هذا
الموضع أبو نواس حيث قال

اختصم الجود والجمال فيك فصارا إلى جدال

فقال هذا يمينه للعرف والبذل والنوال

وقال هذاك وجهه للظرف والحسن والكمال

فافترقا فيك عن تراض كلاهما صادق المقال

وكذلك غلط أبو تمام فقال

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أحداً ثقلت إذن وكان خفيفا

اذن ثقلت

وحلاوة الشيم التي لو مازجت خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

فأبو نواس غلط هاهنا في أنه وصف الوجه بالظرف وهو من صفات النطق وأبو تمام غلط في أنه وصف الخلق بالظرف وهو من صفات النطق أيضا في وضع اللغة

القسم الثاني ما ابتذلته العامة وهو الذي لم تغيره عن وضعه وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم لا لأنه مستقبح ولا لأنه مخالف لما وضع له وفي هذا القسم نظر عندي لأنه إن كان نعباره عما يكثر تداوله بين العامة فإن من الكثير التداول ألفاظا فصيحة كالسماء والأرض والماء والنار والحجر والطين وأشباه ذلك وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه وجاءت في كلام الفصحاء نظما ونثرا والذي ترجح في نظري أن المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولها العامة أو الخاصة فمما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي

وملمومة سيفية ربعية يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

فإن لفظة اللقالق مبتذلة بين العامة جدا وكذلك قوله

ومن الناس من تجوز عليهم شعراء كأنها الخازباز

وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البرسام الذي ذكره في شعره حيث قال

إن بعضا من القريض هذاء ليس شيئا وبعضه إحكام

منه ما يجلب البراعة والفهم ومنه ما يجلب البرسام

ومثل

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام وضعت من قدره ولو كان معناه شريفا وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر لكن منهم المقل ومنهم المكثر حتى إن العرب العاربة قد استعملت ذلك لكنه في أشعارها أقل فمن ذلك قول النابغة الذبياني في قصيدته التي أولها

أمن آل مية رائح أو مغتدي فقال

أو دمية في مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة آجر مبتذلة جدا وإذا شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن الكريم فانظر إلى هذا الموضع فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ولا بلفظة القرمد أيضا ولا بلفظ الطوب الذي هو لأهل مصر فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر في القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا فعبر عن الآجر بالوقود على الطين ومن هذا القسم المبتذل قول الفرزدق في قصيدته التي أولها عرفت بأعشاش وما كدت تعرف فقال

وأصبح مبيض الضريب كأنه على سروات النيب قطن مندف

فقوله مندف من الألفاظ العامية ومن هذا القسم قول البحتري

وجوه حساد كم مسودة أم صبغت بعدي بالزاج

فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا وقد استعمل أبو نواس هكذا

النوع في شعره كثيرا كقوله

يا من جفاني وملا نسيت أهلا وسهلا

وما ان مرحبا لما رايت مالي قلا

اني اظنك فيما فعلت تحكي القرلا

وكقوله ومُلِحَّة بالعذل تحسب انني بالجهل اترك صحبة الشطار

وقد استعمل لفظة الشاطر والشاطرة والشطار والشطارة كثيرا وهي من الالفاظ التي اسذلتها العامة حتى سمجت من ابتذالها وهذه الامثلة تمنع الواقف عليها من استعمال اشباهها وامثالها ومن اوصاف الكلمة الا تكون مشتركة بين معنيين احدهما يكره ذكره فاذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح فاما اذا جاءت ومعها قرينة فانها لا تكون معيبة كقوله تعالى فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون الا ترى ان التعزير لفظة مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام وعلى الضرب الذي هو دون الحد وذلك نوع من الهوان وهما معنيان ضدان بحيث وردت في هذه الاية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها خصصت معناها بالحسن وميزته عن القبح ولو وردت مهملة بغير قرينة واريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح مثال ذلك لو قال قايل لقيت فلانا فعزرته لسبق الى الفهم انه

ضربه

ضربه واهانه ولو قال لقيت فلانا فاكرمته وعززته لزال ذلك اللبس واعلم انه قد جاء من الكلام ما معه قرينة اوجبت قبحه ولو لم تجي معه لما استقبح كقول الشريف الرضي

اعزز علي بان اراك وقد خلا عن جانبيك مقاعد العواد

وذكر ابن سنان الخفاجي هذا البيت في كتابه فقال ان ايراد هذه اللفظة في هذا الموضع صحيح الا انه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر لا سيما وقد اضافه الى من يحتمل اضافته اليه وهم العواد ولو انفرد لكان الامر فيه سهلا فاما الاضافة الى من ذكره ففيها قبح لا خفا به هذه حكاية كلامه وهو مرضي واقع في موقعه ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول قد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر وفي القران الكريم فجاءت حسنة مرضية وهي قوله تعالى واذ غدوت من اهلك تبوى المومنين مقاعد للقتال وكذلك قوله تعالى وانا لمسنا السما فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا الا ترى انها في هاتين الايتين غير مضافة الى من يقبح اضافته اليه كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد مقاعد الزيارة او ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة ولهذا جاءت هذه اللفظة في الايتين على ما تراه من الحسن وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي وعلى هذا ورد قول تابط شرا

أقول الجبان وقد صغرت لهم وطابي ويومي ضيق الجحر معور

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب

كثقب الحية واليربوع وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة

تخصصه سبق إلى الوهم ما يقبح ذكره لاشتهاره دون غيره ومن ههنا ورد

قول النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن لا يلسع من جحر مرتين بحيث قال يلسع

زال اللبس لأن اللسع لا يكون إلا للحية أو غيرها من ذوات السموم وأما ما ورد

مهملا بغير قرينة فقول أبو تمام

أعطيتني دية القتيل وليس لي عقل ولا حق عليك قديم

فقوله ليس لي عقل يظن أنه من عقل الشيء إذا علمه ولو قال ليس لي عليك عقل

لزال اللبس فيجب إذن على صاحب هذه الصناعة أن يراعي في كلامه مثل هذا

الموضع وهو من جملة الألفاظ المشتركة التي يحتاج في إيرادها إلى قرينة تخصصها

ضرورة ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا وهذا

ما ذكره ابن سنان في كتابه ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي

إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

وقال إن لفظة سويداواتها طويلة فلهذا قبحت وليس الأمر كما ذكره فإن

قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة وقد كانت

وهي مفردة حسنة فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول والدليل على ذلك أنه قد

[illegible]

ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى فسيكفيكهم

الله فإن هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى ليستخلفنهم في الأرض فإن هذه

اللفظة عشرة أحرف وكلتاهما حسنة رائقة ولو كان الطول مما يوجب قبحا

لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة سويداواتها

الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقي منها ثمانية أحرف ومع هذا

فإنها قبيحة ولفظة ليستخلفنهم عشرة أحرف وهي أطول منها بحرفين ومع هذا

فإنها حسنة رائقة والأصل في هذا الباب ما أذكره وهو أن الأصول من الألفاظ

لا يحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا عذب وعسجد فإنهما لفظتان

إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية وأما الخماسي من الأصول فإنه قبيح ولا يكاد

يوجد منه شيء حسن كقولنا صهصلق وجحمرش وما جرى مجراهما وكان ينبغي

على ما ذكره ابن سنان أن يكون هاتان اللفظتان حسنتين واللفظتان الواردتان في

القرآن قبيحتين لأن تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتين خمسة خمسة ونرى الأمر

بالضد مما ذكره وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف

بعضها مع بعض وقد تقدم الكلام على ذلك وهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي

الأصول شيء إلا ما كان من اسم نبي عرب اسمه ولم يكن في الأصل عربيا نحو إبراهيم

وإسمعيل ومما يدخل في هذا الباب أن تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل

النطق بها سواء كانت طويلة أو قصيرة ومثال ذلك قول امرئ القيس

في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصايد السبع الطوال فقال

غدايره مستشزرات الى العلى تضل المداري في مثنى ومرسل

فلفظة مستشزرات مما يقبح استعمالها لانها تثقل على اللسان ويشق النطق بها وان لم تكن طويلة لانا لو قلنا مستنكرات او مستنفرات على وزن مستشزرات لما كان بها بين اللفظتين من ثقل ولا كراهة ولربما اعترض لطولها وليس الامر كذلك فانا لو حذفنا منها الالف والتا وقلنا مستشزر لكان ذلك ايضا ثقيلا وسببه ان الشين قبلها تا وبعدها زاي ثقل النطق بها والا فلو جعلنا عوضا من الزاي فا فقلنا مستشرف لزال ذلك الثقل ولقد راني بعض الناس وانا اعيب على امرء القيس هذه اللفظة المشار اليها فاكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في ان امرء القيس اشعر الشعراء فعجبت من اربناطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة وقلت له لا يمنع احسان امرء القيس من استقباح ما له من القبيح ومثال ذلك كمثال غزال المسك فانه يخرج منه المسك والبعر ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حامية للخبث من الاستكراه فاسكت الرجل عند ذلك وحضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنا اذ ذاك بالديار المصرية وكان لليهودي في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وغيره وكان لعمري كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية هي سيدة اللغات وانها اشرفهن مكانا واحسنهن وضعا فقال ذلك الرجل كيف لا تكون كذلك

وقد جات اخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني كوميل ممالا على وزن فوعيل فجا واضع اللغة العربية وحذف هذا الثقل المستشنع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر اشيا كثيرة ولقد صدق في الذي ذكره وهو كلام عالم به ومن اوصاف الكلمة ان تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تاليف الكلمة ولهذا اذا توالت حركات خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فانه اذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت ومن اجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على اليا لان الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس اليا فتكون عند ذلك كانها حركتان ثقيلتان ولنمثل لك مثالا لتهتدي به في هذا الموضع وهو انا نقول اذا اتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة احرف وهي ج ز ع فاذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجزع او مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك احسن من ان لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجزع وكذلك اذا والينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك احسن من موالاة حركة الضم عند قولنا الجزع ومن المعلوم ان هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا للمخارج حروفها حتى ينسب ذلك الى اختلاف تاليف المخارج بل وجدناها تارة تكتسي حسنا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها فعلمنا ان ذلك حادث عن اختلاف تاليف حركاتها واعلم انه قد توالت حركة الضم في بعض الالفاظ

ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا كقوله تعالى ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر وكقوله
تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر وكقوله وكل شيء فعلوه في الزبر فحركة الضم في
هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة وكذلك ورد قول ابي تمام

نفس يحتثه نفس ودموع ليس تحتبس

ومغان للكرى دثر عطل من عهده درس

شهدت ما كنت اكتمه ناطقات بالهوى خرس

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها وهي مع ذلك حسنة
لا ثقل بها ولا ينبو السمع عنها وهذا لا ينقض ما أشرنا إليه لأن الغالب أن يكون توالي
حركة الضم مستثقلا فاذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الأصل المقيس عليه

القسم الثاني في الألفاظ المركبة

قد قدمنا القول في شرح أحوال اللفظة المفردة وما تختص به وأما اذا صارت
مركبة فإن لتركيبها حكما آخر وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجا ت
ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة ومثال
ذلك كمن أخذ لآلي ليست من ذوات القيم الغالية فألفها وأحسن الوضع في تأليفها
فخيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة
وفي عكس ذلك من يأخذ لآلي من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها فإنه يضع من
حسنها وكذلك يجري حكم الألفاظ الغالية مع فساد التأليف وهذا موضع شريف

ينبغي

ينبغي الالتفات إليه والعناية به واعلم أن صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية
أنواع هي السجع ويختص بالكلام المنثور والتصريع ويختص بالكلام المنظوم وهو داخل
في باب السجع لأنه في الكلام المنظوم كالسجع في الكلام المنثور والتجنيس وهو يعم القسمين
جميعا والترصيع وهو يعم القسمين أيضا جميعا ولزوم ما لا يلزم وهو يعم القسمين أيضا
والموازنة وتختص بالكلام المنثور واختلاف صيغ الألفاظ وهو يعم القسمين جميعا
وتنافر الألفاظ وهو يعم القسمين جميعا وتكرير الحروف وهو يعم القسمين جميعا

النوع الأول في السجع

وحده أن يقال هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد وقد ذمه
بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به
وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليأتي بالسور
جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل منه سورة من
السور فمن ذلك قوله تعالى إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجد ون
وليا ولا نصيرا وكقوله تعالى في سورة طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة
لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في
السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر
وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وكذلك قوله تعالى في سورة ق بل كذبوا
بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج وكقوله
تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به
جمعا وأمثال ذلك كثيرة وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي صلى الله عليه
وسلم شيء كثير فمن ذلك ما رواه ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم استحيوا من الله حق الحياء قلنا إنا لنستحيي من الله يا رسول الله قال ليس ذلك
ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت
والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ومن ذلك ما رواه عبد الله
ابن سلام فقال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس قبله
وقيل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت في الناس لأنظر إليه فلما تبينت
وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء تكلم به أن قال أيها الناس أفشوا
السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام
فإن قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع
أسجعا كسجع الكهان ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه وسلم
الجواب عن ذلك أنا نقول لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقا لقال
أسجعا ثم سكت وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان فلما قال أسجعا كسجع
الكهان صار المعنى معلقا على أمر آخر وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه فعلم
أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير وأنه لم يذم السجع على الإطلاق

وقد ورد في القرآن الكريم وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به في كثير من كلامه
حتى إنه غير الكلمة عن وجهها اتباعا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته
عليهما السلام أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة وإنما أراد ملمة لأن الأصل
فيها من ألم فهو ملم وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ارجعن مأزورات غير مأجورات
وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات طلبا للتوازن
والسجع وهذا مما يدلك على فضيلة السجع على أن هذا الحديث النبوي الذي تضمن
إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر فإن الوهم يسبق إلى إنكاره ويقال فإن سجع الكهان
الذي تعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والجواب
عن ذلك أن النهي لم يكن عن السجع نفسه وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ
المسجوع ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة عبد
أو أمة قال الرجل أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أي أتبع سجعا كسجع
الكهان وكذلك كان الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر أجابوا بكلام مسجوع
كما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة فإنه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها
ثمرة في كمرة فقيل له نريد أبين من هذا فقال حبة بر في إحليل مهر والحكاية مشهو رة
فلهذا اختصرناها هاهنا وكذلك قال سطيح فإنه قال عبد المسيح جا إلى سطيح
وهو موف على الضريح لرؤيا الموبذان وارتجاس الإيوان وأتم الكلام إلى آخره

مسجوعا والحكاية مشهورة أيضا فلهذا اختصرناها فالسجع إذن ليس بمنهي عنه
وإنما المنهي عنه الحكم المتبوع في قول الكاهن فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أسجعا كسجع الكهان أي أحكما كحكم الكهان وإلا فالسجع الذي أتى به
ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل
ومثل ذلك بطل وهذا الكلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وإنما المنكر
هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن من أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة واعلم
أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب في جميع
الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال
فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد فقط إذ لو كان ذلك هو المراد
من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا وما من أحد منهم ولو شدا شيئا يسيرا
من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتي بها في كلامه بل ينبغي أن تكون
الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة وأعني بقولي غثة
باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ
المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن فهو في
الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من
الخزف الملون وهذا مقام تزل عنده الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب
هذا الفن بعد الواحد ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا فإذا صفا الكلام المسجوع

من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوبا آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا
أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ويكون مثاله
كمثال غمد من ذهب على نصل من خشب وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية اللاتي تقدم
ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما وسأبين لك في هذا مثالا تتبعه فأقول
إذا صورت في نفسك معنى من المعاني ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتك
ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجا إلى الزيادة ولا إلى النقص
وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه وإذا دللت عليه
بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا إلا أن تضيف إليه شيئا آخر أو تنقص منه فإذا فعلت
ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف وأما إذا
كان محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام فإذا
تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابه كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم
يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها وفي مثل ذلك فليتنافس وعن مقامه فليتقاعس
ولصاحبه أولى بقول أبي الطيب المتنبي

أنت الوحيد إذا ركبت طريقة ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا

فإن قيل فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه فكان ينبغي أن يأتي
القرآن كله مسجوعا وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع قلت
في الجواب إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي جميعها مسجوعة وما منع أن

بأن القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسالك الإيجاز والاختصار والسجع لا
يواتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن
لهذا السبب وها هنا وجه آخر أقوى من الأول وذاك أنه قد ثبت أن المسجوع من
الكلام أفضل من غير المسجوع وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع
معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين
جميعاً واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة فإن عري الكلام المسجوع منه
فلا يعتد به أصلاً وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري وسأبينه ها هنا وأقول فيه
قولاً هو أبين مما تقدم وأمثل لك فيه مثالاً إذا وجدته أمنت الطاعن والعائب
وقيل في كلامك ليبلغ الشاهد الغائب والذي أقوله في ذلك هو أن يكون كل واحدة
من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير الذي اشتملت عليه أختها فإن كان
المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى
بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت
إحداهما كافية في الدلالة عليه وجل كلام الناس المسجوع جارٍ عليه وإذا تأملت
كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى
أكثر المسجوع منه كذلك والأقل منه على ما أشرت إليه أولاً ولقد تصفحت المقامات
الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما فوجدت الأكثر
من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته فالكلام المسجوع إذن يحتاج إلى أربع شرائط

الأول اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم الثانية
اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم الثالثة أن يكون
اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا المعنى تابعاً للفظ الرابعة أن يكون كل واحدة
من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها فهذه أربع
شرائط لا بد منها وسأورد ها هنا من كلامي أمثلة تحتذى حذوها فإني لما سلكت
هذه الطريق وأنشأت كلامي مسجوعاً توخيت أن تكون كل سجعة بمعنى غير الذي تضمنته
أختها ولم أخل بذلك في مكاتباتي كلها وإذا تأملتها علمت صحة ما ذكرته فمن ذلك
ما كتبته في صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة وهو الخادم واقف موقف
راج هائب لازم بكتابه هذا وقار حاضر عن شخص غائب موجه وجهه إلى ذلك
الجناب الذي تقسم فيه أرزاق العباد وتتأدب به الزمان تأدب ذوي الاستعباد
وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود كما تستغني بنسبها إليه عن شرف الأجداد
ولو ملك الخادم نفسه لقصرها على خدمة قصره وأحظاها من النظر إليه ببرد العيش
الذي عمرها محسوب من عمره وهذا القول يقوله وكل ما حد به حاسد
وسا مثله راكع ساجد والديوان العزيز محسود الاقتراب وهو موطن الرغبات
الذي الاغتراب إليه ليس بالاغتراب وما يتنافس في القرب من أبوابه الكرام إلا
ذوو الهمم الكريمة وقد ودت الكواكب بأسرها أن تكون له منادمة فضلاً عن تداني
خدمه ومن ذلك ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس وهو

الكريم من أوجب لسائليه حقا وجعل كواذب آمالهم صدقا وكان خرق العطايا
منه خلقا ولم يرين بين ديمه وبين رحمه فرقا وكل ذلك موجود في كرم مولانا اجراه
الله من فضله على وتيره وجعل همه على تمام كل نقص قديره واوطاه من كل مجد سريرا
كما بوأه من كل قلب سريره ولا زالت يده بالمكارم جديره ومن الايام مجيره ولضرايبها
من البحار والسحايب مغيره ولا برحت تستولد عقايم المعالي وتستجد انيتها حتى
تشهد الناس منها في كل يوم عقيقة او وكيره ومن صفات كرمه انه يسلك الاموال
مآثر ويتخذها عند السؤال ذخاير فهي تغني لديهم بالانفاق وذكرها على مرور
الايام باق ومن ربح منه صفقة وقد باع صامتا بناطق وما هو معرض لحوادث
السرقات بما لا تصل اليه يد سارق ومثله من عرف الدنيا فرغب عن اقتنايها
وجد في ابتناء المحامد بهدم بنايها وعلم انما الها ليس عند الضنين به الا احجارا
وان غناه منها لا يزيده الا افتقارا فهو لماله عند جمعه ولا يستخلصه ولم يرضعه
سغبها ولا يفطمه ومن ذلك ما كتبته في جواب كتاب يتضمن اباق غلام نثر
وهو اول كتاب ورد من المكتوب عنه المكتوب اليه فقلت واما الاشارة الكريمة الى
في امر الغلام الابق عن الخدمة فقد ينفر المهر من علفه ويطير الفراش الى
حريقه وغير بعيد ان ينبو به منعه او يكبو به مطمعه فيرجع وقد حمل من
رجوعه ما ذمه من ذهابه وعلم ان الغنيمة كل الغنيمة في ايابه فما كل شجرة تحلو
لذايقها ولا كل دار ترحب بطارقها ومن ابق عن مولاه مغاضبا وجانب محل

احسانه

احسانه الذي لم يكن له مجانبا فانه نجد من مفارقة معاهد الاحسان ما نجده
من مفارقة معاهد الاوطان وهل اضل سعيا ممن دفع في صدر العافية وغدا
يسال عن الاسقام والقى الثروة من يده ومضى في طلب الاعدام ومع هذا فان
الخادم يشكره على ذنب الابق الذي اقدم على اجتراحه وليس ذلك الا لانه صار
سببا لانفتاح باب المكاتبة الذي لم يطمع في انفتاحه ولا جزاه عنده الا السعي
في اعادته الى الخدمة التي يتقلب في افيايها وفي ابر به من امه التي تقلب في احشايها
ومن فضلها انها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع ومن كرمها بالوجه الضاحك
والفضل الواسع فانظر ايها المتامل الى هذه الاسجاع جميعها واعطها حقها من
النظر حتى تعلم ان كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في اختها التي تليها وكذلك فليكن
السجع والا فلا وسأورد ها هنا من كلام الصابي ما تراه من ذلك تجده في
كتاب فقال الحمد لله الذي لا تدركه الاعين بالحاظها ولا تحده الالسن بالفاظها
ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم انتهى الى الصلاة
على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لم ير للكفر اثرا الا طمسه ومحاه ولا رسما الا
ازاله وعفاه ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور وكذلك لا فرق بين
محو الاثر وعفاء الرسم ومن كلامه ايضا في كتاب وهو وقد علمت ان الدولة العباسية
لم تزل على سالف الايام وتعاقب الاعوام تعتل طورا وتصح اطوارا وتلتاث مرة
وتستقل امرارا من جنت اصلها راسخ لا يتزعزع وبنيانها ثابت لا يتضعضع وهذه

الأسجاع كلها متساوية المعاني فإن الاعتلال والالتياث والتطور والمرة والرسوخ
والثبات كل ذلك سوا وكذلك ورد في جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه
جوابا عن كتاب وصله من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله فقال وصلني كتابه
مفتتحا من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين والتقلد لأمور المسلمين بما أعراقه الزكية
مجوزة لاستمراره وأرومته العلية مسوغة لاستقراره له ولكل نجيب آخذ بخطر من
نسبه وضارب بسهم في منصبه إذ كان ذلك جاريا على الأصول المعهودة فيه
والأسباب المعاقدة له من إجماع المؤمنين كافة فإن تعذر اجتماعهم مع انبساطهم
في الأرض وانتشارهم في الطول والعرض فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله
وأعيان كل صقع وأماثله وهذا الكلام كله متماثل المعاني في أسجاعه فإن إمارة المؤمنين
والتقلد لأمور المسلمين سوا في المعنى وكذلك الأعراق والأرومة والتجويز والتسويغ
والأشراف والأفاضل والأعيان والأماثل والقطر والصقع كل ذلك سوا وعلى
هذا جا كلامه في كتاب آخر فقال يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويسير تدبيره
وهو ثاو لم يبرح وكلا هذين سوا أيضا وما أحسن هذا المعنى لو قال يسافر رأيه
وهو دان لم يبرح ويثخن الجراح في عدوه وسيفه في الغمد لم يبرح فإنه لو قال مثل
هذا سلم من هجنة التكرار وأمثال ذلك في كلام الصابي كثير وعلى منواله
نسج الصاحب بن عباد فمن ذلك ما ذكره في وصف مهزومين فقال طاروا واتقين
بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم وكلا المعنيين سوا وكذلك قوله في هذا

الكتاب يصف ضيق مجال الحرب فقال مكان تضيق على الفارس والراجل ضيق
على الرامح والنابل ومن كلامه في كتاب وهو لا يتوجه همته إلى أعظم مرغوب
الأطماع ودان ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان دان واستكان وكل هذا الذي
ذكره شي واحد وله من كتاب وهو وصل كتابه جامعا من الفوائد أشدها
للشكر استحقاقا وأتمها للحمد استغراقا وتعرفت من إحسان الله فيما وفره من
سلامته وهيأه من كرامته أنفس موهوب ومطلوب وأحمد مرتوب ومخطوب
وهذا كله متماثل المعاني متشابه الألفاظ وفيما أوردته ها هنا مقنع فأنعم
نظرك أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك ووضعت يدك عليه حتى
تعلم كيف تأتي بالمعاني في الألفاظ المسجوعة والله الموفق للصواب
فإن قيل إنك اشترطت أن يكون كل واحدة من الفقرتين في الكلام المسجوع دالة
على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها وإنما اشترطت هذه الشريطة فرارا
من أن يكون المعنيان شيئا واحدا ونرى قد ورد في القرآن لفظتان بمعنى واحد
في آخر إحدى الفقرتين المسجوعتين كقوله تعالى واذكر في الكتاب إسمعيل إنه
كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا فكل رسول نبي قلنا في الجواب ليس
هذا كالذي اشترطناه أنا من اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذي اختصت
به أختها وإنما هذا هو إيراد لفظتين في آخر إحدى الفقرتين بمعنى واحد وهذا
لا بأس به لمكان طلب السجع ألا ترى أن أكثر هذه السورة التي هي سورة مريم

عليها السلام مسجوع على حرف الباء وهذا يجوز لطالب السجع أن يأتي به وهو
بخلاف ما ذكرته أنا ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها
طلبا للسجع فقال مأزورات وإنما هو موزورات وقال لعين لامة وإنما هي
ملمة إلا أنه ليس في ذلك زيادة معنى بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام
موزورات وكذلك يفهم من لفظة لامة أنها بمعنى ملمة فالسجع قد أجيز معه تغيير
وضع اللفظة وأجيز معه أن تورد لفظتان بمعنى واحد في آخر إحدى القرينتين
ومع هذا فلم يجز استعماله أن تورد فقرتان بمعنى واحد لأنه تطويل محض لا فائدة
فيه وبين الذي ذكرته أنت وبين ما ذكرته أنا فرق ظاهر والذي قدمته من الأمثلة
المسجوعة للصابي وللصاحب ابن عباد ربما كانت يسيرة أتهم فيها بالتعصب
ويقال إني لفقتها التقاطا من جملة رسائلهم وقد خرجت من عهدة هذه التهمة
بذاك أني وجدت للصابي تقليدا بنقابة الأشراف العلويين ببغداد وكنت أنشأت
تقليدا بنقابة الأشراف العلويين بالموصل وقد أوردت التقليدين هاهنا ليتأملهما
الناظر في كتابي هذا ويحكم بينهما إن كان عارفا ويسأل عنهما العارف إن كان مقلدا
وقد أوردت تقليد الصابي أولا لأنه المتقدم زمانا وفضلا وهو هذا ما عهد أمير
المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي حين وشجت به الأنساب وأكدت
له الأسباب وظهرت دلائل عقله ولبابته ووضحت مخايل فضله ونجابته ومهد له
بها الدولة وضياء الملة أبو نصر عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين

مطلب ما كتبه أبو إسحق الصابي للمولى الشريف الرضي في تقليد نقابة الطالبيين عليه

١٠

٩٧

ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين ووصفه به من الحلم الرزين وإسناده فيه
من رفيع المنزلة وتقديم المرتبة والتأهيل لولاية الأعمال والحمل للأعباء الثقال
وحبب رغبته فيه سابقة الحسين أبيه في الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة والمقا مات
المشهودة التي طابت بها أخباره وحسنت فيها آثاره وكان محمد متخلقا بخلائقه وذاهبا
في طرائقه علما وديانة وورعا وصيانة وعفة وأمانة وسهامة وصرامة وآخذا بالحظ
الجزيل من الفضل الجميل والأدب الجزل والتوجه في الأهل والإيفاء بالمناقب على
لداته وأترابه والإنافة على قرابته وأضرابه فقلده ما كان داخلا في أعمال أبيه من نقابة
نقباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر النواحي والأعمال شرقا وغربا وبعدا
وقربا واختصه بذلك جذبا بضبعه وإنافة بقدره وقضاء لحق نجحه وترفيها لأبيه
وإسعافا له بإيثاره فيه إلى أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر في المظالم وتسيير
الحجيج في المواسم والله يعقب أمير المؤمنين فيما أمر ودبر ويحسن العاقبة فيما مضى
وأمضى وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب أمره بتقوى الله
التي هي شعار المؤمنين وسناء الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين وأن يعتقدها
سرا وجهرا ويعتمدها قولا وفعلا ويأخذ بها ويعطي ويسن بها وينوي ويأتي ويذر
ويورد ويصدر فإنها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب والمسلك
المفضي إلى دار الثواب وقد حض الله أولياءه عليها وهداهم في محكم كتابه إليها فقال عز
من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وأمره بتلاوة كتاب الله

مواظبا وتصفحه مداوما وملازما والرجوع الى احكامه فيما احل وحرم ونقض وابرم
واثاب وعاقب وباعد وقارب فقد صحح الله برهانه وحججه واوضح منهاجه ومحجته
وجعله نجما في الظلمات طالعا ونورا في المشكلات ساطعا من اخذ به نجا وسلم ومن
عدل عنه هوى وندم قال الله تعالى وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وامره بتنزيه نفسه عما تدعو اليه الشهوات ت
وتطلع اليه التبعات ان يضبطها ضبط الحليم ويكفها كف الحكيم ويجعل عقله
سلطانا عليها وبصره امرا ناهيا لها ولا يجعل لها عذرا الى صبوة ولا هفوة
ولا يطلق لها عنانا عند ثورة ولا فورة فانها امارة بالسوء منصبة الى الغي من
رفضها نجا ومن اتبعها هوى فالحازم منهم عند تحرك وطره واربه واهتياج
غلمته ولا يدع ان يغضها بالشكيمة ويعركها عرك الاديم ويقودها الى مصالحها
بالحزايم ويعتقها عن مقارفة الماثم والمحارم كما يعتز بتذليلها وادبها ويجل
برياضتها وتقويمها والمفرط في امر يطرحه اذا طمحت ويجمح معها اذا جمحت فلا
يلبث ان تورده حيث لا يصدر وتلجيه الى ان يعتذر وتقيمه مقام النادم الواجم
وتنكبه سبيل الراشد السالم واحق من تحلى من المحاسن وتصدى لاكتساب
المحامد من ضرب بمثل سهمه في نسب امير المومنين الشريف ومنصبه المنيف
واجتمع معه في ذوابة العترة الطاهرة واستظل باوراق الدوحة الفاخرة
فذلك الذي تتضاعف له به المآثر ان اثرها والمثالب ان اسف اليها ولا سيما

من كان مندوبا بالسياسة ومترشحا للتغلب على اهله اذ ليس يفي بالصلاح لمن
ولي عليه ولا يفي باصلاح ما بين جنبيه ومن اعظم الهجنة عليه ان يامر ولا ياتمر
ويزجر ولا يزدجر قال الله تعالى ذكره اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم
وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون وامره ان يتصفح احوال من ولي عليهم من استقراء
مذاهبهم والبحث عن بواطنهم ودخايلهم وان يعرف لمن تقدمت قدمه منهم ونظام
فضله فيهم منزلته ويوفيه حقه ورتبته وينتهي في اكرام جماعتهم الى الحدود التي
توجبها انسابهم واقدارهم وتقتضيها مواقعهم واخطارهم فان ذلك يلزمه لسببين
احدهما يخصه وهو النسب الذي بينه وبينهم والاخر يعمه والمسلمين جميعا وهو
قول الله جل ذكره قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في القربى فالمودة لهم الاعظام
لاكابرهم والاشتمال على اصاغرهم واجب متضاعف الوجوب عليه مما كان اللزوم
له ومن كان منهم في دون تلك الطبقة من احداث لم يحنكوا وجذعان لم يقرحوا ويحرون
الى ما يزري بانسابهم ويغض من احسابهم عذلهم ونبههم ونهاهم ووعظهم فان نزعوا
واقلعوا فذلك المراد بهم والمقصد فيهم وان اصروا وتتابعوا نالهم من العقوبة بقدر
ما يكف ويردع فان تعدوا الا تجاوزه الى ما يلذع ويوجع من غير تطريق لاعراضهم
ولا امتهان لاحسابهم فان الغرض منهم الصيانة لا الاهانة والادالة لا الازالة
واذا وجبت عليهم الحقوق وتعلقت بهم دواعي الخصوم قادهم الى الانقياد لما يصح منها
ويجب والخروج الى سنن الحق فيما يشتبه ويلتبس ومتى لزمتهم الحدود اقامها عليهم

بحسب ما أمر الله فيها بعد أن تثبت الجرائم وتصح وتبين وتتضح وتتجرد عن الشك
وتخلى من الظن والتهمة فإن الذي يتحدث في حدود الله عز وجل أن يدرأها عن عباده
مع نقصان اليقين والصحة وأن يمضي عليهم مع قيام الدليل والبينة قال الله عز
وجل ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وأمره بحياطة أهل النسب
الأطهر والشرف الأفخر عن أن يتعبه الادعياء أو يتخلل فيه الدخلاء ومن
انتمى إليه كاذبا وانتحله باطلا ولم يوجد له ثبت في الشجرة ولا مصداق عند
النسابين المهرة أوقع به لكذبه وفسقه وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه
ويتنزع بها غيره ممن تسول له مثل ذلك نفسه وأن يحصن الفروج عن مناكحة
من ليس كفوا لها في شرفها وفخرها حتى لا يطمع في المرأة الحسيبة النسيبة إلا
من كان مثلا لها مساويا ونظيرا موازيا فقد قال الله تعالى إنما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وأمره بمراعاة متبتلي أهله ومتعبديهم
وصلحائهم ومجاوريهم وأراملهم وأصاغرهم حتى تستد الخلة من أحوالهم وتدر
المواد عليهم وتتعادل أقساطهم مما يصل إليهم من وجوه أموالهم وأن يزوج
الأيامى ويربي اليتامى ويلزمهم المكاتب فيتلقنوا القرآن ويعرفوا فرائض الإسلام
والإيمان ويتأدبوا بالآداب اللائقة بذوي الأحساب فإن شرف الأعراق محتاج
إلى شرف الأخلاق ولا حمد لمن شرف حسبه وسخف أدبه إذ كان لم يكتسب الفخر
الحاصل بفضل سعي ولا طلب ولا اجتهاد بل بصنع الله ومنه به في المنة عليه

وبحسب

وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية والاعتداد بما فيها
من المزية وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب والترفع عن الرذائل والمثالب
وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه
عليه من النظر في المظالم والأخذ للمظلوم من الظالم وأن يجلس للمترافعين إليه جلوسا
عاما ويتأمل كلامهم تأملا تاما فما كان منها متعلقا بالحاكم رده إليه ليحمل الخصوم عليه
وما كان من طريقه الغشم والظلم والتغلب والغصب قبض عنه اليد المبطلة
وثبت اليد المستحقة وتحرى في قضاياه أن تكون موافقة للعدل ومجانبة للختل
فإن عادتي الحاكم وصاحب المظالم واحدة وهي إقامة الحق ونصرته وإبانته وإنما رتبة
وإنما يختلف سبيلاهما في النظر إذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر وصاحب المظالم
يفحص عما غمض واستتر وليس له مع ذلك أن يرد الحاكم حكومة ولا يحل له قضية
ولا يتعقب ما ينفذه ويمضيه ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه والله يهديه ويوفقه
ويسدده ويرشده وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل إلى مقصدهم ويحميهم في
بدايتهم وعودتهم ويرتبهم في مسيرهم ومساكنهم ويرعاهم في ليلهم ونهارهم حتى
لا ينالهم شدة ولا تصل إليهم معرة وأن يريحهم في المنازل ويوردهم المناهل
ويناوب بينهم في النهل والعلل ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء مجتهدا في الصيا نة
لهم ومعتذرا في الذب عنهم ومتلوما على متأخرهم ومتخلفهم ومنتهضا لضعيفهم
ومنهضهم فإنهم حجاج بيت الله الحرام وزوار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام

قد هجروا الأهل والأوطان وفارقوا الجيرة والإخوان وحسموا المغارم الثقال
وتعسفوا السهولة والجبال يلبون دعاء الله ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون
ثوابه وحقيق على المسلم أن يحرسهم متبرعا ويحوطهم متطوعا فكيف من تولى
ذلك وضمنه وتقلده واعتنقه قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من
استطاع إليه سبيلا. وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها
وأقطارها وأكنافها وأن يجبي أموال وقوفها ويستقصي جميع حقوقها وأن يلم شعثها
ويسد خللها بما يحصل من هذه الوجوه قبله لا يزول رسم جرى فيها ولا ينتقص
عادة كانت لها وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها ويذكر اسمه بعده
بأن عمارتها جرت على يديه وصلاحها أداه قول أمير المؤمنين في ذلك تنويها
باسمه وإشادة لذكره وأن يولي ذلك من قبله من حسنت أمانته وظهرت
عفته وصيانته فقد قال الله جل من قائل إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله
واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا
من المهتدين. وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في
الأمصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء الرجال
وذوي الوفاء والاستقلال وأن يعهد إليهم مثل الذي عهد إليه ويعتمد عليهم في
مثل ما اعتمد عليه ويستقصي في ذلك آثارهم ويتعرف أخبارهم فمن وجده محمودا
قربه ومن وجده مذموما صرفه لم يمهله واعتاض منه من ترجى الأمانة عنده

ويكون الثقة معهودة منه وأن يختار لكتابته وجبايته والتصرف فيما قرب منه وبعد
عنه من يرتضيه ولا يشينه وينصح له ولا يغشه ويجمله ولا يحتجنه من الطبقة المعروفة
بالظلف المصونة عن النطف ويجعل لهم من الأرزاق الكافية والأجرة الوافية ما
يصدهم عن المكاسب الذميمة والمآكل الوخيمة وليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء
الحاجة قال الله عز وجل وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى
ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له محنته إلى
أصحاب المعاون بالشد على يده وإيصال حقه إليه وحسم الطمع الكاذب فيه
وقبض اليد الظالمة عنه إذ هم منه ويؤذن للمتصرفين بين أمره ونهيه والوقوف عند
رسمه وحده هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته لك وعليك قد أبان منه سبيلك وأوضح
دليلك وهداك لرشدك وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ولا تخالفه وانته إليه
ولا تجاوزه وإن عرض لك عارض يعجزك الوفاء به ويشتبه عليك الخروج منه
أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادرا وكنت إلى ما يأمرك به صائرا إن شاء الله تعالى
وأما التقليد الذي أنشأته أنا فقد أوردته بعد هذا التقليد وهو ●
أما بعد فإن كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس
بمعلم وعلى هذا فإن حمده يتنزل من الكلام منزلة الأعضاء من الأجسام واسمه
يتنزل من الكتاب منزلة الرقوم من الثياب وقد جمعنا في كتابنا هذا بين التسمية
والتحميد وجعلنا أحدهما مفتاحا للنثر والآخر سببا للمزيد ثم أردفناهما

بالصلاة على سيدنا محمد الذي اتاه الله بالقرآن المجيد وجعل شهادته قبل كل
شهيد وعلى آله وصحبه الذين هدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد
ومما يقترن بهذه الصلاة في ثوابها ويجري على اعقابها النظر في امر الاسرة النبوية
التي وصل ودها بوده وجعلها احد الثقلين المخلفين من بعده وقد تقادم الان
زمانها وتشعبت اغصانها ونسي مالها والرقاب من عهدة الامانة ولم يوضع فيما
وضعها الله ورسوله من المكانة واولى الناس بها من اضمر ولاها حقا واحتان
يرد معها الحوض حين يقال لوارده سحقا وكان من تحت يده منها بارا رفيقا حتى
لا يسأله برا ولا رفقا ونحن نرجوا ان نفوز بفضيلة هذه الحسنة وان يسبق
اليها سبق المقترب في الجمعة ببدنة ومن اهم امورها ان تختار لها زعيم يرأف بها
رأفة الوالد بولده ويقوم بامرها قيام الرأس بجسده حتى يأتلف اصولها كلها في
مغرسها ولا يحكم عليها من ليس بها من انفسها وقد اخترنا لها من وفقنا في اختياره
واخذنا فيه ببيان الرأي وحزمه لا بشبهة الهوى واغتراره ولو لم يكن من القوم
الذين لو لم يكن استحقاقه لها ثابتا والتعويل عليه متعينا فكيف وقد له فيها قدمة
الميلاد ووراثته اباها عن سابق الجدود وسوكد الاجداد وهو ابنها السيد
الاجل الحسيب النسيب فلان بن فلان بن فلان الحسيني ولو شئنا الاستنبا منه
النسبة كابرا عن كابر وتصدنا بها آخرا بعد اول عن اول قبل آخر حتى وصلنا
هذا الفرع بشجرته الطيبة وهذا القطر بسحائبه الصيبة وشرف الانساب

اصدقته ما كان الدهر به شهيدا واحدثه ما كان قديما واخلقه ما كان جديدا وما تولى
الروح الامين مدحه قرآنا اكرم مما تولى الشعر امتداحه قصيدا ولا فضل للعترى
الى هذا النسب حتى يلحق البنوة بالابوة ويصف درجة الفضيلة الى محتد النبوة
وحينئذ يقال ما اقرب هذا الشبه على قدم عهده وهذا الورد بعد ذهاب
ورده وانت ذلك الرجل الذي تردد الشرف في مناسبه تردد القمر في منازله
وزهي المجد بمناقبه زهو الروض في خمائله فلا لاحسنك يغنيك عن سوال الممن
وما بها لا يودك وحسبك قلبا وفيا والحسب ما حفظت اواخره اوائله وصحبت
الليالي والايام ذلاذله واقرت به الاعداء بما رددت فضائله وهذه هي الماثر التي
اذا نظمت غارت الشعرى عليها من الشعر واذا نثرت وجدت في محكم الذكر
وانت صاحبها وابن صاحبها ومن لم يرثها عن اباعدها بل عن اقاربها ولو كانت
رياستها مصابيحا ومشبت بها الصرامتواضعا لذلك عليك وصفها وعرف
مناعرها وقد قلدناك امر هذه الاسرة الطاهرة التي هي اسرتك وامرناك
عليها وامرتها امرتك فتولها تولى من خفض لها جناحه وافاض عليها سماحه
وامضى فيها غدوته وروحته حتى يقال انك الراعي الذي ثنا ولثلته فاراح حسيرها
وجبر كسيرها وازداد لها خصبا واوردها رفها لا غبا وادكا في كلائتها عينا وقلبا
ومن حقها عليك ان تنظر الى ذات شمالها وذات يمينها وتتصفح احوالها في امر
دنياها ودينها فاول ذلك ان تعلمها كتاب الله الذي في تعليمه نهج الصواب وفي

تلاوته مضاعفة حسنات الثواب وقد مثّل قارئه بالبيت العامر وتاركه
بالبيت الخراب وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل وتولى الله حفظه من
التحريف والتبديل وافتتحه بالسبع المثاني التي لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الانجيل
وهو موصوف بانه النور المستضاء به في غيابة الظلما والحبل الممدود من الارض
الى السماء والبحر الذي لا يستخرج لؤلؤه ومرجانه الا الراسخون من العلما وكذلك
نخذ هذه الاسرة بتعليم الفضايل التي تتفاوت بها الهمم وسسها برياضة الاداب
وتهذيب الشيم ولا تتركها فوضى لا تسمو احداها بسنة القدر المنيف ولا يرجع الى
حسب تليد ولا الى سعي طريف ويكون غاية ما عنده من الفضيلة ان يغالي الشرف
ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفي فضل مكانها ويخالف بين شان
غيرها من المسلمين وبين شانها فلا تبذل مجالس الولاة في انتزاع ظلامة ولا في
اقامة حد يسلب معه ردا الكرامة وانت تتولى ذلك منها فاذا وجب عليها من
حق نخذها بانتصابه وامض فيها حكم الله الذي امر بامضايه ولكن ذلك على وجه
الرفق الذي يسلس له القياد وتتوطا له المهاد وان امكنك اقتلاع شي من هذه
الظلامات التي تتوجه عليها فافعل وقد اتم الله فضلها بنبع كرايمها الامن كفي لا دناة
في عنصره ولا غضاضة في جوهره وهو الذي ان فاته شرف النبوة في مغرسه فلم يفته
شرف النبوة في معشره واذا انتسبا الى اقدار فلا فرق بين مناكح المخطوبة وبين
الاسلات المسلوبة فاحفظ لا شربك حرمة هذه المنزلة واجعلها في كتاب الوصايا

التي

التي وصيت بها مكان البسملة وكما امرناك بالنظر في صون اقدارها فكذلك نامرك
بالنظر في حفظ مادة ذويها ودينارها وقد علمت ان لها اوقافا وقفها قوم يحظو
باجرها واسمها وستحظى انت بالعدل في قسمها فاجر على كل منها برزقه واعط كل
ذي حق حقه وفي الناس طايفة ادعيا يرمون الحاق الراس بالذنب والسع بالغرب
ويحلفون ابا الغيراب وانا الغيراب كل ذلك رغبة في سحت يا كلونه لا في نسب
يوصلونه فتنقب عن حال ما دل لا منتميا واجعل التسبب نسبا والغريب غريبا
حتى تخلص السلالة من طرايقها وتنقي الشجرة فانها على اعراقها ومن علمت كذبه
فازجره باليم الازدجار واعلمه بانه قد تبوا مقعده من النار واشهره في الناس
حتى ينتهي غيره بذلك الاشتهار وها هنا وصية هي اهم من هذه الوصية امرا
واعظم اجرا واحذر بان تكون بها الاولى وتكون بها الاخرى وهي الاخذ على
السنة السفهاء من الخوض فيما شجر بين ال النبي واصحابه واظهار العصبية التي
تزحزح الحق عن نصابه وترجعه على اعقابه وليس مستنبطها الا معا الا ذوي
الجهل وربما نشا منها فتنة والفتنة اشد من القتل فوكل بها ولا رغرما فاطعا
ونهيا قامعا وكن في ذلك شارعا لما كان الله شارعا فاوليك السادات هم النجوم
الذين بايهم كان الاهتدا كان به الاقتدا وقصارى المحسن في هذا الزمان ان يتعلق
منهم سببا وياخذ عنهم دينا او ادبا ولا يبلغ مد احدهم ولا نصيفه ولو انفق
مثل احد ذهبا ونحن نعلم انك واقف على سنن اقتصادك فان هذه الوصية

هي محض اعتقادك والمنصف في هذا المقام من رمقه بنظر جلي ووفى ابا بكر وعمر
حقهما وان كان من يسل على نكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضيلة فيها ولا
من صحابته وهذا من اهله ونعوذ بالله من الاهواء الزائغة والاقوال التي
ليست بسابغة ولا حجة الا بالحق ولله الحجة البالغة وقد جعلنا لك فيما
لنا عطاء دارا نستعين به على لوازم النفقات ونخرج ما قلناه في وفاته عرضك
التي هي محسوبة من الصدقات فان من ساد قوما يفتقر الى تحمل اثقالهم والافاضة
من ماله على احوالهم وهذا بر يكون منا اصله ومنك فرعه وثواب يكون لك فضله
ولنا شرعه وصاحب الاحسان من سن سبيل الاحسان ولم يرض ان يبالك مكانه
حتى امددناك فيه بالامكان فاغط من مالنا وتعلم من سنة ابضالنا ولد ولنا
بذلك ثوب جمال كلما لبس زاد جدة وعمر ذكر لما مضت عليه مدد الايام طال
مدة ولا ملك في الدنيا لمن لم يجعل ملكه حديثا حسنا ويشتري المحامد باله فيجعله
لها ثمنا ومن عرف قدر الثناء جد في تحصيله ولو انفق الكثير في قليله فكم من دولة
اعدمت منه فدرست اثار معالمها ولو كانت منه مثرية لما ذهبت مع بقاء مكارمها
واذ ذكرنا هذا فلنختمه بما يكون قلادة لصاحب هذا التقليد وهو ان تجرد الغاية
بوجاهته حتى يلبس تقلدها بذلك التجويد ونحوي ذلك ان يعلم الناس ما له في
الدولة من المنزلة الكاملة ويعرفوا انه فيها ابن جلا غير محتاج الى وضع العمامة ونحن
نامر نوابنا وولاتنا واصحابنا ان يوفوه حق ابوته الشريفة وفضيلته التي

ردفها

ردفها فاضحت وهي لها ردفه وان يعطوه ما شاء من اعلاء شانه وبسط يده
وقول لسانه ان شاء الله تعالى ۝ وقد وجدت للصابي ايضا تقليدا انشاه
لفخر الدولة ابي الحسين بن ركن الدولة ابي علي بن بويه عن الخليفة الطايع رحمة
الله وهو مثبت هاهنا على صورته وكان عرض علي تقليد كتب للملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن ايوب عن الخليفة المستضيء بالله رحمه الله في سنة احدى وسبعين
وخمسمائة فوجدت فيه كلاما نازلا بالمرة وسالني بعض الاخوان بمدينة الموصل
ان اعارضه فعارضته بتقليد في معناه وهو مثبت ايضا هاهنا وكلا التقليدين
باسم ملك كبير وفيهما يظهر ما يظهر من فصاحة وبلاغة فاما التقليد الذي انشاه
الصابي فهو هذا ما عهد عبد الله بن عبد الكريم الطايع لله امير المومنين الى فخر
الدولة ابي الحسن بن ركن الدولة ابي علي مولى امير المومنين حين عرف غناه وبلاه
واستصح دينه ويقينه ورعى قديمه وحديثه واستنجب عوده ونجاره واتى
عز الدولة ابو منصور بن معز الدولة ابي الحسين مولى امير المومنين عليه واشار
بالمزيد في الصنيعة اليه واعلم امير المومنين اقتداءه به في كل ما ذهب مذهب
فيه من الخدمة وغرض رمى اليه من النصيحة دخولا في زمرة الاولياء
المنصورة وخروجا عن جماعة الاعداء المدحورة وتصرفا على موجبات البيعة
التي هي لعز الدولة ابي منصور منوطة وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه ماخوذة
مشروطة فقلده الصلاة واعمال الحرب والمعاون والاحداث والخراج والاعشار

للصابي
تقليد كا
الى ع

والضباع والحمية والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والضياع والعطا
والنفقة في الاولياء والمظالم واسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة
بكورة همذان واسداباذ والدينور وقرميسين والايغارين واعمال اذربيجان
واران والسجابين وموقان وايقامنه باستقبال استدامتها والاستزاد بالشكر
منها والتجنب لغمطها وجحودها والتنكب لايحاشها وتنفيرها والتعهد لما مكن له
الحظوة والزلفى وحرس عليه الاثرة والقربى بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح
والولاء الصريح والغيب الامين والصدر السليم والمقاطعة لكل من قطع العصمة
وفارق الجملة والمواصلة لكل من حمى البيضة واخلص النية والكون تحت ظل امير المومنين
وذمته ومع عز دولته اي منصور وفي حوزته والله جل اسمه يعرف لامير المومنين
حسن العقبى فيما ابرم ونقض وسداد الراى فيمن رفع وخفض ويجعل عزايمه مقرونة
بالسلامة محجوبة عن موارد الندامة وحسب امير المومنين الله ونعم الوكيل امره بتقوى
الله التي هي العصمة المتينة والجنة الحصينة والطود الارفع والمعاذ الامنع والجانب
الاعز والملجا الاحرز وان يستشعرها سرا وجهرا ويستعملها قولا وفعلا ويتخذها
ذخرا دفعا لنوائب القدر وكهفا حاميا من حوادث الغير فانها اوجب الوسايل
واقرب الذرايع واعودها على العبد بصالحة وادعاها الى كل منا الخير واولاها
بالاستمرار على هدايته والنجاة من غوايته والسلامة في دنياه حين توبق موبقاتها
وتردي مردياتها وفي اخرته حين تروع رايعاتها وتخيف مخيفاتها وان يتادب

بآداب الله في التواضع والاخبات والسكينة وصدق اللهجة اذا نطق وغض
الطرف اذا رمق وكظم الغيظ اذا احفظ وضبط اللسان اذا غضب وكف اليد
عن المآثم وصون النفس عن المحارم وان يذكر الموت الذي هو نازل به والموقف
الذي هو صاير اليه ويعلم انه مسؤول عما اكتسب مجزي عما ارتمل واحتقب ويتزود
من هذا الممر لذلك المقر ويستكثر من اعمال الخير لتنفعه ومن مساعي البر
لتنقذه وياتمر بالصالحات قبل ان يامر بها ويزدجر عن السيئات قبل ان يزجر عنها
ويبتدي باصلاح نفسه قبل اصلاح رعيته فلا ينعتهم على ما ياتي ضده ولا ينهاهم
عما يقترف مثله ويجعل ربه رقيبا عليه في خلواته ومروته مانعة له من شهواته
فان احق من غلب سلطان الشهوة واولى من اضرع غد الحمية من ملك ازمة الامور
واقتدر على سياسة الجمهور وكان مطاعا فيما يرى متبعا فيما يشاء يلي على الناس ولا
يلون عليه ويتنقص منهم ولا يتنقصون منه فاذا اطلع الله تعالى منه على نقا جيبه
وطهارة ذيله وصحة سريرته واستقامة سريرته اعانه على حفظ ما استحفظه
وانهضه بثقل ما حمله وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من الحيرة فقد قال
الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقال عز
من قايل يا ايها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون وقال اتقوا
الله وكونوا مع الصادقين الى اي كثيرة خصنا بها على اكرم الخلق واسلم الطرق
فالسعيد من نصبها ازاء ناظره والشقي من نبذها وراء ظهره واشقى منهما من بعث

عليها وهو صادف عنها واهاب اليها وهو بعيد منها وله ولامثاله يقول الله
تعالى ذكره اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون
وامره ان يتخذ كتاب الله اماما متبعا وطريقا متوقعا ويكثر من تلاوته اذا خلا بفكره
ويملا بتاملها ارجا صدره فيذهب معه فيما اباح وحظر ويقتدي بما نهى وامر
ويستبين بتبيانه اذا استغلقت دونه المعضلات ويستضيء بمصابيحه اذا غم
عليه في المشكلات فانه عروة الاسلام الوثقى ومحجته الوسطى ودليله المقنع
وبرهانه المرشد والكاشف لظلم الخطوب والشافي من مرض القلوب والهادي
لمن ضل والمتلافي لمن زل فمن نجا به فقد فاز وسلم ومن لها عنه فقد خاب وندم
قال الله تعالى وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد وامره ان يحافظ على الصلوات ويدخل فيها في حقائق الاوقات قائما
على حدودها متبعا لرسومها جامعا فيها بين نيته ولفظه متوفيا المطامح بسهوه
ولحظه منقطعا اليها عن كل قاطع لها مشغولا بها عن كل شاغل عنها متثبتا في ركوعها
وسجودها مستوفيا عدد مفروضها ومسنونها موفرا عليها ذهنه صارفا
اليها همه عالما بانه واقف بين يدي خالقه ورازقه ومحييه ومميته ومعاقبه
ومثيبه لا تستتر دونه خائنة الاعين وما تخفي الصدور فاذا قضاها على
هذه السبيل منذ تكبيرة الاحرام الى خاتمة التسليم اتبعها بدعاء مرتفع بارتفاعها
ويستتبع باستماعها لا يتعدى فيه مسائل الابرار ورغائب الاخيار من استصفاح

واستغفار واستقالة واسترحام واستدعاء لمصالح الدين والدنيا وعوائد الاخرة
والاولى فقد قال الله تعالى ان الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا وقال تعالى ان
الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وامره بالسعي في ايام الجمع الى المساجد الجامعة
وفي الاعياد الى المصليات الضاحية بعد التقدم في فرشها وكسوتها وجمع القوام
والموذنين والمكبرين فيها واستسعاء الناس اليها وحضهم عليها اخذين الاهبة متنظفين
في البزة مودين لفريضة الطهارة وبالغين في ذلك اقصى الاستقصاء معتقلين خشية
الله وخيفته مدرعين تقواه ومراقبته مكثرين من دعائه عز وجل وسواله مصلين
على محمد رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى اله بقلوب على اليقين موقوفة ودهم الى
الدين مصروفة والسن بالتقديس والتسبيح فصيحة وامال في المغفرة والرحمة
فسيحة فان هذه المصليات والمتعبدات بيوت الله التي فضلها ومناسكه التي
شرفها وفيها يتلى القران ويعوذ العائذون ويتعبد المتعبدون ويتهجد المتهجدون
وحقيق على المسلمين اجمعين من وال ومولى عليه ان يصونوها ويعمروها ويواصلوها
ولا يهجروها وان يقيم الدعوة على منابرها لامير المومنين ثم لنفسه على الرسم الجاري
فيها قال الله تعالى في هذه الصلاة يايها الذين امنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة
فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع وقال في عمارة المساجد انما يعمر مساجد الله
من امن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك
ان يكونوا من المهتدين وامره ان يراعي احوال من يليه من طبقات جند امير المومنين

وموالبه وتطلق لهم الارزاق في أوقات الوجوب والاستحقاق وان تحسن في
معاملتهم وتجمل في استخدامهم وتتصرف في سياستهم بين رفق من غير ضعف وخشونة
في غير عنف مثيبا لمحسنهم ما زاد بالاناة في حسن الاثر وسلم معها من دواعي الاشر
ومتعهدا لمسيئهم ما كان التعهد له نافعا وفيه ناجعا فان تكررت زلاته وتتابعت
عثراته تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحا ولغيره واعظا وان يختص اكابرهم
وأماثلهم واهل الراي والخطر منهم بالمشاورة في الملم والاطلاع على بعض المهم
مستخلصا بذلك صدورهم بالبسط والادناء ومستشحذا بصائرهم بالاكرام
والاجتباء فان في مشاورة هذه الطبقة استظهارا على مواقع الصواب وتحرزا
من غلط الاستبداد واخذا بمجامع الحزامة وامنا من مفارقة الاستقامة
وقد حض الله عز وجل على الشورى في قوله لرسوله عليه الصلاة والسلام
وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين وامره بان يعمد
لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ورباط المرابطين ويقسم لهم قسما وافرا
من عنايته ويصرف اليها طرفا بل شطرا من رعايته ويختار لها اهل الجلد
والشدة وذوي الباس والنجدة ممن حنكته الخطوب وعركته الحروب واكسبته
دربته خدع المتنازلين وتجربته مكايد المتقارعين وان يستظهر بكثف عددهم
واعتبار عددهم وانتخاب خيلهم واستجادة اسلحتهم غير مستقل بعثا اذا بعثه
ولا مستكثرهم اذا وجهه بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تملهم وترفههم

ولا تؤودهم فان في ذلك من ثابت الاجمام والعدل في الاستخدام تزيدا في تدريب
رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر وبعد العقبى والذكر واحراز النجح
والاجر وما احق ان تكون الولاة به عاملين وللناس عليه حاملين وان تكرر في
اسماعهم وتثبت في قلوبهم مواعيد الله تعالى للمصابرين والمرابطين وتسامح بالنفس
من حيث لا يقدمون على تورط غرة ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ولا ينكصون عن
تورد معركة ولا يلقون بايديهم الى التهلكة فقد اخذ الله ذلك على خلقه المرابطين
عن دينه وان يزيح العلة فيما يحتاج اليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها ومعاقلها صح
وبناء حصونها واستطراق طرقها ومسالكها وافاضة الاقوات والعلوفة فيها
للمرتبين بها والمترددين اليها والحامين لها وان يبذل امانه لمن طلبه ويعرضه
على من لم يطلبه ويفي بالعهد اذا عاهد وبالعقد اذا عاقد غير مخفر ذمة ولا خائن
امانة فقد امر الله تعالى بالوفاء فقال عز وجل يا ايها الذين امنوا اوفوا بالعقود ونهى
عن النكث فقال عز من قائل ومن نكث فانما ينكث على نفسه وامره ان يعرض
من في عمله على احكامهم فمن كان اقراره واجبا اقره ومن كان اطلاقه سائغا
اطلقه وان ينظر في الشرطة والاحداث نظر عدل وانصاف ويختار لها من
يخاف الله ويتقيه ولا يحابي ولا يراقب فيه ويتقدم اليهم بتتبع الجهال وردع
الضلال وتتبع الاشرار وطلب الدعار مستدلين على اماكنهم متوغلين الى
مكامنهم متولجين عليهم في مظانهم متوثقين ممن يجدونه منهم معتمدين احكام

الله تعالى فيهم بحسب الذي يتبين من أمرهم ويصح من فعلهم في كبيرة ارتكبوها
وعظيمة احتقبوها ومهجنة إن قارفوها واستهلكوها ومحرمة إن باحوها
وانتهكوها فمن استحق حداً من حدود الله تعالى المعلومة أقامه عليه غير
مخفف منه وأحله به غير مقتصر به عنه بعد أن لا يكون عليهم في الذي يأتونه
حجة ولا يعترضهم في وجوبه شبهة فإن المستحب في حدود الله أن تقام بالبينات
وأن تدرأ بالشبهات فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها الأناة مع تعلقها مع نقصان
ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ومن وجب عليه القتل احتاط بما يحتاط به على
مثله من الحبس الحصين والتوثق الشديد وكتب إلى أمير المومنين بخبره وشرح
جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو شهادة تقع عليه ولينتظر من جوابه ما
يكون عمله بحسبه فإن أمير المومنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد إلا ما
أحاط به علماً وأتقنه فهماً وكان بمنجاته فيه عن بصيرة لا تخالجها شك ولا يشوبها
ريب ومن ألم بصغيرة من الصغاير ويسيرة من الجرائر من حيث لم يعرف له
مثلها ولم يتقدم له أختها وعظه وزجره ونهاه وحذره واستتابه وأقاله
ما لم يكن عليه خصم في ذلك يطالب بقصاص منه وجزاء له فإن عاود نال له
التقويم والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ووفى
بما أقدم فقد قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون
وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير ويطهرها من القبائح والمناكير

الشيب

ويمنع من جمع أهل الخنا فيها ويألف شملهم بها فإنه شمل يصلحه ال... سبب وجمع
يحفظه التفريق وما زالت هذه المواطن الذميمة والمطارح اللئيمة داعية لمن
يأوي إليها ويعكف عليها إلى ترك الصلوات وإهمال المفترضات وركوب المنكرات
واقتراف المحظورات وهي بيوت الشياطين التي في عمارتها لله معصية وفي إخرابها
للخير مجلبة والله يقول لنا معشر المومنين كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله ويقول عز من قائل لغير
المومنين فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف
يلقون غيا وأمره أن يولي الحماية في هذه الأعمال أهل الكفاية والغناء من الرجال
وأن يضم إليهم كل من خف ركابه وأسرع عند الصريخ جوابه مرتباً لهم في المسالح
وشاكاً بهم ثغر المسالك وأن يوصيهم بالتيقظ ويأخذهم بالتحفظ ويزيح عللهم في
علوفة خيلهم والمقرر من أزوادهم وميرهم حتى لا يثقل لهم على البلاد وطأة ولا تعدو هم
إلى تحيفهم ونيلهم [?] حاجة وأن يحوطوا السابلة ذاهبة وعائدة ويبذرقوا القوافل
صادرة وواردة ويحرسوا الطرق ليلاً ونهاراً ويتفقدوها رواحاً وغدواً
وينصبوا لأهل العيث الأرصاد ويكمنوا لهم بكل واد ويتفرقوا عليهم حيث يكون
التفرق عليهم مضيقاً لفضائهم ومؤدياً إلى انفضاضهم ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع
مطفياً لجمرتهم وهادماً لسورتهم وألا يخلو هذه السبل من حماة لها وسيارة فيها
يترددون في جوادها ويتعسفون في عوادها حتى تكون الإيما محفوفة والأموال

والنفس

مصونة والنفس محسومة والغارات مأمونة ومن حصل في أيديهم من لص خاتل
وصعلوك خارب ومخيف لسبيل ومنتهك لحريم امتثل في أمره أمر أمير المؤمنين
الموافق قول الله عز وجل إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في
الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من
الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم وأمره بوضع
الرصد على من يجتاز في أعمالهم من اباق العبيد والاحتياط عليهم وعلى من يكون
معهم والبحث عن الأماكن التي فارقوها والطرق التي استطرقوها ومواليهم
الذين ابقوا منهم ونشزوا عنهم وأن يردوهم عليهم قسرا ويعيدوهم إليهم صغرا
وأن ينشدوا الضالة مما أمكن أن ينشد ويحفظوها على ربها بما جاز أن يحفظ
ويجتنبوا الامتطاء لظهورها والانتفاع بأوبارها وألبانها ونجرها وحلبها وأن
يعرفوا اللقطة ويتتبعوا آثارها ويشيعوا خبرها فإذا حضر صاحبها وعلم أنه
مستوجبها سلمت إليه ولم يعترض فيها عليه والله عز وجل يقول إن الله
يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم ضالة
المؤمن حرق النار وأمره أن يوصي عماله بالشد على أيدي الحكام وتنفيذ ما يصدر
عنهم من الأحكام وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذابين عنها المقيمين
لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها ومن خرج عن ذلك من ذي عقل ضعيف
وحلم سخيف بالوه بما يردعه وأحلوه بما يزعه ومتى تقاعس متقاعس عن

حضور

حضور مع خصم يستعدي عليه بأمر يوجبه الحكم عليه والتوى بمال يحصل عليه
ودين يستقر في ذمته فأدوه إلى ذلك بأزمة الصغار وخزائم الاضطرار وإن
يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ويثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج وينزعوها منها صح
فإنهم أمناء الله في فصل ما يقضون وبت ما يبتون وعن كتابه وسنة نبيه صلى
الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال الله عز وجل يا داود إنا جعلناك
خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وأن يوفي مثل
ذلك من المعاونة عمال الخراج في استيفاء حقوق ما استعملوا عليه واستظهار بما لهم
فيه والرياضة لمن يلتوي عنده من معامليهم وإحضارهم طائعين أو كارهين إلى
بين أيديهم فمن آداب الله تعالى للعبد الذي يحق عليه أن يتخذها ويجعلها إلى الرضى
عنه سببا قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان
واتقوا الله إن الله شديد العقاب وأمره أن يجلس للرعية جلوسا عاما
وينظر في مظالمها نظرا تاما يساوي في الحق بين خاصها وعامها ويوازي في
المجالس بين عزيزها وذليلها وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه
بعد الفحص والتأمل والبحث والتبين حتى لا يحكم إلا بعدل ولا ينطق إلا بفصل
ولا يثبت يدا إلا فيما وجب تثبيتها فيه ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه
وأن يسهل الإذن لجماعتهم ويرفع الحجاب بينه وبينهم ويوليهم من حسانه

الكنف ولين المنعطف والاشتمال والعنايه والصون والرعايه باسعادل
به اقسامهم وتتوارى منه اقساطهم ولا يصل الركين منهم الى استضامة ما
تأخر عنه ولا ذو السلطان الى هضيمة من حل دونه وان يدعوهم الى احسن
العادات والخلايق ويحضهم على احمد المذاهب والطرايق ويحلى عنهم كلّه ويمد
عليهم ظلّه ولا يسومهم عسفا ولا يلحق بهم حيفا ولا يكلفهم شططا ولا يجشمهم
مضلعا ولا يسلم لهم معيشة ولا يواخذهم في جريمة ولا ياخذ بريا بسقيم ولا حاضرا
بعديم فان الله جل وعز نهى ان تزر وازرة وزر اخرى وجعل كل نفس رهينة
بما كسبها بريّة من مكاسب غيرها وبرفع عن هذه الرعية ما عسى ان يكون سُنّ
عليها من سنة ظالمة وسلك بها من محجة جايرة ويستقري اثار الولاة قبله عليها
فيما رجوه من خير او شرّ اليها فيقرّ من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح
فان من غرس الخير يحظى بمعسول ثمره ومن زرع الشر يصلى بمرّ وذيعه والله
يقول والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا كذلك
نصرف الآيات لقوم يشكرون وامره ان يجبي مال الخراج واثمان الغلات
ووجوه الجنايات موفرا ويريد ذلك متميزا بما يستعمله من الانصاف لاهلها
واجرايهم على صحيح الرسوم فيها فانه مال الله الذي به قوة عباده وحماية بلاده
ودرور حلبه واتصال مدده وبه يحاط الحريم ويدفع العظيم ويحمى الذمار
ويذاد الاشرار وان يجعل افتتاحه اياه بحسب ادراك اصنافه وعند حضور

مواقيته واحيانه غير مستسلف شيئا قبلها ولا موخر لها عنها وان يخص اهل
الطاعة والسلامة بالترفيه لهم واهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد عليهم
ليلا يقع ارهاق لمذعن او اهمال لطامع وعلى المتولي لذلك ان يضع كلا من الامر
موضعه ويوقعه موقعه مجتنبا لاطلاق الغلظة من لا يستحقها ولاعطاء الفسحة
من ليس اهلها والله يقول وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى
ثم يجزاه الجزاء الاوفى وامره ان يتخير عماله على الاعشار والخراج والضياع
والجهبذة والصدقات والجوالي من اهل الظلف والنزاهة والضبط والصيانة
والجزالة والشهامة وان يستظهر مع ذلك عليهم بوصية تبعها اسماعهم وعهود
يعلقها اعناقهم بان لا يضيعوا حقا ولا ياكلوا سحتا ولا يستعملوا ظلما ولا يقارفوا
غشما وان يقيموا العمارات ويحتاطوا ويتحرزوا من انتواء حق لازم او تعطيل رسم
عادل مودين في جميع ذلك الامانة مجتنبين للخيانة وان ياخذ جهابذتهم باستيفاء
وزن المال على تمامه واستجادة نقده على عياره واستعمال الصحة في قبض ما
يقبضون واطلاق ما يطلقون وان يوعز الى سعاة الصدقات في اخذ الفرائض
من سايمة مواشي المسلمين دون عاملتها وكذلك الواجب فيها وان لا يجمعوا بينها
متفرقا ولا يفرقوا مجتمعا ولا يدخلوا بها خارجا عنها ولا يضيفوا اليها ما ليس
منها من فحل ابل او اكولة راع وعقيلة مال فاذا اجتبوها على اهلها الذين
ذكرهم الله تعالى في كتابه الا المولفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل في

بض

إشاعه

ركابه ويسقط سهمهم فان الله يقول انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها
والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من
الله والله عليم حكيم والجباية من اهل الذمة ان ياخذ منهم الجزية في المحرم من
كل سنة حسب منازلهم في الاحوال وذات ايديهم في الاموال وعلى الطبقات
المطبقة فيها والحدود المعهودة لها وان لا ياخذها من النساء ولا ممن لم يبلغ
الحلم من الرجال ولا من ذي سن عالية ولا لذي علة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب
متبتل وان يراعي جماعتهم ولاة العمال مراعاة يسترها ويظهرها ولا يلاحظهم
ملاحظة يخفيها ويبديها بالتلاين ولو عن الحق الواجب او يعدل او عن السنن اللاحب
فقد قال الله تعالى واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا وامره بان يندب لعرض
الرجال واعطاياتهم وحفظ جراياتهم واوقات اطماعهم من يعرفه بالثقة في
متصرفه والامانة فيما يجري على يده والتعفف عن الاسفاف الى الدنية والاتباع
للدناءة وان يبعثه على ضبط الرجال وشيات الخيل وتجديد العرض بعلة الاستحقاق
وايقاع الاحتياط في الانفاق فمن صح عرضه ولم يبق في نفسه شيء منه من شك يعرض
له او ريبة يتوهمها اطلق اموالهم موفورة وحصلها في ايديهم غير مثلومة وان يرد
على بيت المال ارزاق من سقط بالوفاة والاخلال ناسبا ذلك الى جهته موردا الى
حقيقته وان يطالب الرجال باحضار الخيل المختارة والالات والشكك المستكملة
على ما توجبه مبالغ ارزاقهم وحسب منازلهم ومراتبهم فان اخر احدهم شيئا من ذلك

قاصصته

قاصصته به من رزقه واغرمته مثل قيمته فان المقصر فيه خائن لامير المؤمنين
ومخالف لرب العالمين اذ يقول الله سبحانه واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن
رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وامره ان يعتمد في اسواق الرقيق
ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه الالات من هذه الولايات من
ثقة ودراية وعلم وكفاية ومعرفة ورواية وتجربة وحنكة وحصافة ومسكة
فانها احوال تضارع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه وان يتقدم الى ولاة اسواق
الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويصونون امره والتحرز من وقوع تخون فيه
واهمال اذ كان ذلك عائدا بتحصين الفروج وتطهير الانساب وان يبعد عنه
اهل الريبة ويتخيروا اهل العفة ولا يمضوا بيعا على شبهة ولا عقدا على تهمة والى
ولاة العيار بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش
والنزاهة من اللبس وبحسب الامام المقرر بمدينة السلام وحراسة السكك
من ان تتداولها الايدي المزغلة وتتناقلها الجهات المسنة واثبات اسم امير المؤمنين
على ما يضرب ذهبا وفضة واجراء ذلك على الرسم والسنة والى ولاة الطرز
بان يجروا الاستعمال في جميع المناسج على اتم النيقة واسلم الطريقة واحكم الصنعة
وافضل الصحة وان يثبتوا اسم امير المؤمنين على طرز الكسى والفرش والاعلام والبنود
والى ولاة الحسبة بتصفح احوال العوام في حرفهم ومتاجرهم ومجتمع اسواقهم
ومعاملاتهم وان يعايروا الموازين والمكاييل ويقروها على التعديل والتكميل

ومن المطلعومنه على جباية أو تلبيس أو غيلة او تدليس أو خيس ما يوفيه استفضال
فيما يستوفيه نالوه تغليظ العقوبة وغظيمها وخصوه بوجيعها واليمها واقفين
في ذلك عند الحد الذي يرونه لذنبه مجازيا وفي تاديبه كافيا فقد قال الله تعالى
ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون
هذا عهد امير المؤمنين اليك وحجته عليك وقد وقفك على سواء السبيل وارشدك
فيه الى واضح الدليل واوسعك تعليما وتحكيما واقنعك تعريفا وتفهيما ولم
يالك جهدا فيما عصمك وعصم على يديك ولم يدخرك ممكنا فيما اصلح بك واصلحك
ولا ترك لك عذرا في غلط تغلطه ولا طريقا الى تورط تتورطه بالغا لك في الاوامر
والزواجر الحث بلزوم الائمة ان يدلوك على منجيات المسالك صادا بك
عن مرديات المهالك مريدا فيك ما يسلك في دينك ودنياك ونعوذ بالحظ عليك
في اخرتك واولاك فان اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت وان تتابعت واعوججت
فقد خسرت وندمت والاولى بك عند امير المؤمنين مع مغرسك الزاكي ومنبتك
النامي وعودك الانجب وعنصرك الاطيب ان تكون لظنه محققا ولمخيلته فيك
مصدقا وان تشريده بالاثر الجميل قربا وثوابا يوم الدين وزلفى عند امير المؤمنين
وثناء حسنا من المسلمين فخذ ما نبذ اليك امير المؤمنين من معاذيره وامسك بيدك
على ما اعطى من مواثيقه واجعل عهده مثالا تحتذيه واماما تقتفيه واستعن
بالله يعنك واستهده يهدك واخلص اليه في طاعته يحاض لك الحظ من معونته

ومهما أشكل عليك من خطب او اعضل عليك من صعب او بهرك من باهر او بهظك
من باهظ فاكتب الى امير المؤمنين منهما وكن الى ما يرد عليك منهما ان شاء الله والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته ۝ واما التقليد الذي انشاته انا فهو هذا
اما بعد فان امير المؤمنين يحمد الله الذي يكون لكل خطيئة قيادا ولكل امر مهادا
ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى له زادا وحمانه عيب الخلافة فلم يضعف
عنه طوقا ولم يال فيه اجتهادا وصغرت لديه امر الدنيا فاتسورت له محرابا
ولا عرضت عليه جيادا وحققت فيه قوله تعالى تلك الدار الاخرة نجعلها
للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ثم ارتقى سبعا شدادا وتجلى له ربه فلم
يزغ منه بصرا ولا اكذب فؤادا ثم من بعده على اسرته الطاهرة التي زكت اوراقا
واعوادا وورثت النور المبين تلادا ووصفت تابها احد الثقلين هداية وارشادا
وخصوصا عمه العباس المدعو له بان يحفظ نفسا واولادا وان يبقي كلمة الخلافة
فيه خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا واذا استوفى القلم مداه من هذه الحمدلة
واسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فانه ياخذ في انشاء هذا التقليد
الذي جعله حليفا لقرطاسه واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع
من راسه وليس ذلك الا لافاضته في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها
مقام الاكثار واشتبه التطويل فيها بالاختصار وهي التي لا يفتقر واصفها الى
القول المعاد ولا يستوعر سلوك اطوادها ومن العجب وجود التسهل في

سلوك الاطواد وتلك هي مناقبك ايها الملك الناصر الاجل السيد الكبير العالم
العادل المجاهد المرابط صلاح الدين ابو المظفر يوسف بن ايوب والديوان
العزيز يتلوها عليك تحدثا بشكرك وتباهي بك اولياه وتنوه بها بذكرك وتقول
انت الذي تستكفي فتكون لله ولنا سهمها الصايب وشهابها الثاقب وكنزها الذي
يذهب الكنوز وليس بذاهب وما ضرها وقد حضرت في نصرتها اذا كان غيرك
الغايب فاشكر اذا مساعيك التي اهلتك لما اهلتك وفضلتك على الاوليا بما
فضلتك ولئن شوركت في الولاء بعقيدة الاضمار فلم تشارك في عزمك الذي
انتصر لله ولنا وكان له بسطة الانصار وفرق بين من امد بقلبه ومن امد بيده
في درجات الامداد وما جعل الله القاعدين كالذي قال لو امرتنا لضربنا اكبادها
الى برك الغماد وقد كان من المساعي انك كفيت الخلافة امرمنازعها وطمست
على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها
محفوف من الباطل بمحرابين وراث ما راه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
السوارين اللذين اولهما كذابين فبمصر منهما واحد تاه بمجرى انهارها من تحته
ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته ولعب بالدين حتى لم تعد يوم جمعته
من يوم احده ولا يوم سبته واعانه على ذلك قوم رمى الله ابصارهم بالعمى
والصمم واتخذوه صنما ولم يكن الضالة هنالك الا بعجل او صنم فقمت انت في وجه
باطله حتى قعد وجعلت في جيده حبلا من مسد وقلت لبيده تب فاصبح ولا

يسعى بقدم ولا يبطش بيد وكذلك فعلت بالاخر الذي بحث باليمن ناجمه وسار
فيه سائمه ووضع بيته موضع الكعبة اليمانية وقال هذا ذو الخلصة الثانية
فقامت بك عترة الاسلام بسيفه انهما يقوم باداء حقه وها هنا فليصبح القلم
للسيف من الحساد وليتقاصر مداه عن مكانه وقد كان له من الانداد ولم يحط
بهذه المرتبة الا لانه اصبح لك صاحبا ونحو باجي طال نحوا اعز جانبا وقضى
بولايتك وكان بها قاضيا لما كان جده قاضيا وقد قلدك امير المومنين البلاد
المصرية واليمنية غورا ونجدا وما اشتملت عليه رعية وجندا وما انتهت اليه
اطرافها برا وبحرا وما تستنقذه من مجاوريها مسالمة وقهرا واضاف اليها بلاد
الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة مستثنيا منها ما هو
بيد نور الدين اسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب واعمالها فقد
مضى ابوه عن اثار في الاسلام رفع ذكره في الذاكرين وتخلفه في عقبه في الغابرين
وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل ولبست منه الربوة الامين
ذلك الجبل فليكن له منك جار تؤمنه ووداد يدنا ارضا وتصبح وهو له
كالبنيان يشد بعضه بعضا والذي قدمناه من الثناء عليك ربما جاوزنك درجة
الاقتصاد والفتك عن فضيلة الازدياد فاياك ان تنظر الى سعيك نظر
الاعجاب وتقول هذه بلاد انا افتتحها بعد ان اضرب عنها كثير من الاضراب
ولكن اعلم ان الارض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ولا منة للعبد باسلامه

بل المنة لله بها ابتدأ عبده وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لما اشاعه
واجاب مانعه لكن ذخره الله لك ليحظى في الآخرة بمفازه وفي الدنيا برقم
طرازه فالق بيدك عند مثل القول الفا التسليم وقل لا علم لنا الا ما علمتنا انك
انت العليم الحكيم وقد قرن تقليدك هذا الخلعة تكون لك في الملبس شعارا وفي
الوسم فخارا وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبا
وابصارا ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ويشير اليك
بان الانعام قد اطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق ثم انك خوطبت بالملك وذلك
خطاب يقضي لصدرك بالانشراح ولاملك بالانفساح وتومر معه يد بك
الى العلياء لا تضمها الى الجناح وهذه الثلاثة المشار اليها هي التي تكمل بها
اقسام السيادة وهي التي لا مزيد عليها في الاحسان فيقال انها الحسنى وزياده
فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون في الايام كريم الانساب واجعله
لها عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب هذا ولك عند امير
المومنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وانت ناء عن الحضور وتقضي ان تكون
مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور وهذه المكانة قد عرفتك
نفسها وما كنت تعرفها وما تقول الا انها لك صاحبة وانت توسعها فامرها
عليك حراسة تقضي بتقيدها واعمل لها فان الاعمال خواتيمها واعلم انك
قد تقلدت امرا يعتنى به بقي الحلوم ولا ينفك صاحبه من عهدة الملوم وكثيرا

ما ترى حسنا انه يوم القيامة وهي مقتسمة بايدي الخصوم ولا ينجو من ذلك الا
من اخذ اهبة الحذار واشفق من شهادة الاسماع والابصار وعلم ان الولاية
ميزان احدى كفتيه في الجنة والاخرى في النار قال النبي صلى الله عليه وسلم يا
ابا ذر اني احب لك ما احب لنفسي لا تامرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى
هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بخديعة الحرص والآمال ومثل الدنيا
وقد سيقت اليك بحذافيرها الست مصيرها الى زوال والسعيد من
اذا جاءته قضاها ارب الارواح لا ارب الجسوم واخذها وهي السم دواء وقد
تتخذ الادوية من السموم وما الاغتباط بما يختلف عليه اختلاف المساء والصباح
وهو كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح
والله يعصم امير المومنين وولاة امره من تبعاتها التي لا ينسيهم ولا ينسوها
واحصاها الله عليهم ونسوها ولك انت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك
من العناية التي جذبت بضبعك ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك فخذ
هذا الامر الذي تقلدته اخذ من لم تعقبه بالنسيان وكن في رعايته ممن اذا نامت
عيناه كان قلبه يقظان وملاك ذلك كله في اسباغ العدل الذي جعله الله تالي
الحديد والكتاب واغنى ثوابه وحده عن اعمال الثواب وقدر يوما منه بعبادة
ستين عاما في الحساب ولم يامر به امر الا زيد قوة في امره وحصن به من عدوه
ومن دهره ثم جاء به يوم القيامة وفي يديه كتابا امان وجلس على منبر من نور عن

بمن الرحمن مع هذا فان مركبه صعب لا يستوي على ظهره الا من امسك عنان
نفسه قبل امساك عنانه وغلبت له ملكه على لمة شيطانه ومن اوكد ترو ضه ان
يمحى السنن السيئة التي طالت مدد ايامها وياس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم تعاود
امد الانحسار ظلامها وتلك السنن هي المكوس التي انشاها الهمم الحقيرة ولا غنى
للايدي الغنية اذا كانت ذات نفوس فقيرة وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها
قد زادها الله محقا وقد استمرت عليها العوائد حتى الحقها الظالمون بالحقوق
الواجبة فسموها حقا ولولا ان صاحبها اعظم الناس جرما لما اغلظ في عقابه
ومثلت توبة المراة الغامدية بمتابه وهل اشقى ممن يكون السواد الاعظم له
خصما وبصير وهو مطالب منهم بما يعلم وبما لم يحط به علما وانت مامور بان تاتي
هذه الظلامات فتمحي على ابطالها وتحلق اسماها في المحو بافعالها حتى لا يبقى لها
في العبارة صورة منظورة ولا في الالسنة احاديث مذكوره واذا فعلت ذلك
كنت قد ازلت عن الماضي سنة سوء سنها بداه وعن الاتي متابعة ظلم وجده طريقا
مسلوكا يجري على مداه فبادر الى ما امرت به مبادرة من لم يضق به ذرعا ونظر
الى الحياة الدنيا بعينها فراها في الاخرة متاعا واحمد الله على ان قيض لك امام
الهدى يقف بك على هداك وياخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو
اعدى عداك وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على اطراف متباعدة وتفتقر
في سياستها الى ايد متساعدة ولهذا تكثر بها قضاة الاحكام واولو تدبيرات

السيوف

السيوف والاقلام وكل منها ولاية ينبغي ان تنتقي على يد الاختبار وتسلط عليه
شاهدا عدلا من امانة الدرهم والدينار فما اضل الناس شيء كحب المال الذي
تورق عن اجله الاديان وهجرت بسببه الاولاد والاخوان وكثيرا ما يرى
الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان واذا استعنت باحد منهم
على شيء من امرك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان
الاحوال تنتقل تنقل الاجساد واياك ان تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن
الخطاب بالربيع بن زياد وكذلك فامر ها ولاة على اختلاف طبقاتهم بان يامروا
بالمعروف مواظبين وينهوا عن المنكر محاسبين ويعلموا ان ذلك من ذات
حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين وليبدوا اولا بانفسهم فيعدلوها عن
هواها ويامروها بما يامرون به سواها ولا يكونوا ممن يهدي الى الطريق البر
وهو عنه جائر وانتصب لطب المرضى وهو محتاج الى الطبيب وعائد فما تنزل بركات
السماء الا على من خاف مقام ربه والزم التقوى اعمال لسانه ويده وقلبه واذا
صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل
قوم الا بمصباحهم ومما يومرون به ان يكونوا لمن تحت ايديهم اخوانا في الاصطحاب
وجيرانا في الاقتراب واعوانا في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب فالمسلم اخو
المسلم وان كان عليه اميرا واولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه
كبيرا وليست الولاية لمن يستحقها بكثرة التعسف وتتولاها بالسوط العنيف

ولكنها لمن يمال على جوانبه ويتوكل من اطنابه ولمن اذا اغضب لم يُر للغضب عنده
اثر واذا الحف في سؤ الحلم يلق الالحاف بخلق الضجر واذا حضر الخصوم بين يديه
عدل بينهم في قسمة القول والنظر فذلك الذي يكون كصاحبه في اصحاب اليمين
والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الامين ومن سعادة المرء ان يكون ولاته مدارس
بآدابه وجارين على نهج صوابه واذا تطايرت الكتب يوم القيمة كانوا حسنات
مثبتة في كتابه وبعد هذه الوصية فان ها هنا حسنة هي من الحسنات كالام
الولود ولطالما اغنت عن صاحبها اغنا الجنود وتيقظت لنصره والعيون رقود
وهي التي يسبغ لها الالآء ولا تتخطاها البلآء ولامير المؤمنين بها عناية تبعها الرحمة
الموضوعة في قلبه والرغبة في المغفرة لما تقدم وتاخر من ذنبه وتلك هي
الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية افضالها وجعلها سببا الى التعويض
عنها بعشر امثالها وهو يامرك ان تتفقد احوال الفقراء الذين قدرت عليهم
مادة الارزاق والبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق فاولئك
اولياء الله الذين مستهم الضر فصبروا وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها
اذ نظروا وينبغي ان تهيئ لهم من امرهم مرفقا وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا
وما اطلنا لك القول في هذه الوصية الا اعلاما بانها من المهم الذي يستقبل
ولا يستدبر ويستكثر منه ولا يستكثر وهذا يعد من جهاد النفس في بذل
المال وتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال وامير المؤمنين يعرفك

من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته اخا وتستخوله بنفسك ان كان احد بنفسه
سخا ومن صفاته انه العمل المحبو بفضل الكرامة الذي ينمي اجره بعد صاحبه الى
يوم القيمة وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق وكل الاعمال عاطلة لا خلوق لها
وهو المختص دونها بزينة الخلوق ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الايمان
ولما جعل الله الجنة له ثمنا ولبست لغيره من الاثمان وقد علمت ان العدو وهو
جارك الادنى والذي يبلغك وتبلغه عينا واذنا ولا يكون للاسلام نعم الجار حتى
يكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك وما لك اذا قامت لغيرك
الاعذار وامير المؤمنين لا يرضى منك بان تلقاه مكافحا وتطرق ارضه مماسيا
او مصابحا بل يريد ان تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير
وان تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه الله على لسان سعد في بني قريظة وبني النضير
وعلى الخصوص البيت المقدس فانه بلاد الاسلام القديم واخو البيت الحرام في
شرف التعظيم والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم وقد اصبح
وهو يشكو طول المدة في اسر رقبته واصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول
الوحشة في غربتها عنه وغربته فانهض اليه نهضة توغل في قرحه وتندمل
صعب قياده بسمحه وان كان له عام حديبية فاتبعه بعام فتحه وهذه الاشارة
انما تكون بعد سداد ما في اليدين من ثغر كان مهملا فحميت موارده ومنتهب مما
فرفعت قواعده ومن اهمها ما كان حاضر البحر فانه عورة مكشوفة وخطة

مخوفه والعدو قريب منه على بعده وكثيرا ما يأتيه فجاءة حتى يسبق برقه رعده
فينبغي ان ترتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجعانها وتقل اقرانها ويكون قتالها
لان تكون كلمة الله هي العليا لا لان ترى مكانها وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال
أسوار ويعلم اهله ان ثنا السيف امنع من بناء الاحجار ومع هذا فلا بد لها من
أسطول يكثر عدده ويقوى مدده فانه العدة التي تستعين بها على كشف العار
والاستكثار من سبا العبيد والاماء وجيشه اخو الجيش السليماني فذاك
يسري على متن الريح وهذا على متن الماء ومن صفات خيله انها جمعت بين الخيل
والمطار وتساوت اقدار خلقها على اختلاف مدة الاعمار فاذا اشرعت قيل
جبال متلفعة بقطع من الغيوم واذا نظر الى اشكالها قيل اهلة غير انها
تهتدي في مسيرها بالنجوم ومثل هذا الخيل ينبغي ان يغالى في جيادها ويستكثر
من قيادتها وليومر عليها امير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ويسلك طرقه
سلوك من لم يقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره وكذلك فليكن ممن اثنت الايام
تجاربه ورجحها مناكبه وممن يذلل الصعب اذا هو ساسه وان يبس لان جانبه
وهذا هو الرجل الذي يراس على القوم فلا يجد هزة بالرياسة وان كان في
الساقة ففي الساقة او كان في الحراسة ولقد افلحت عصابة اعتصمت من رايه
وايقنت بالنصر من رايته كما ايقنت بالنجح من رايه واعلم انه قد اخل في الجهاد
بركن يقدح في عمله وهو تمامه الذي ياتي في اخره كما ان صدق النية ياتي في

اوامره وذلك هو قسم الغنائم فان الايدي قد تداولته بالاجحاف وخلطت جهادها
فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة
وجعل الاستيثار بالمغنم من اشراط الساعة الموعودة ونحن نعوذ به ان تكون
زماننا هذا شر زمان وناسه شر ناس ولم نستحلفنا على حفظ اركان دينه ثم
نهمله اهمال مضيع ولا اهمال ناس والذي نامرك به ان تجري هذا الامر على
المنصوص من حكمه وتبري ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وانت المطالب
باثمه وفي ارزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الاكلة
التي تكون غدا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما فتصفح ما سطرناه لك
من هذه الاساطير التي هي عزائم مبرمات بل ايات محكمات وتحبب الى الله والى امير
المومنين باقتفاء هداها وابن لك منها مجدا يبقى في عقبك اذا اصيبت البيوت في
اعقابها وهذا التقليد ينطق عليك بانه لم يال في الوصايا التي اوصاها وانه
لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها امير المومنين
عند ختامه وسال فيها خيرة الله التي تبرا من كل امر منزلة نظامه ثم قال
اللهم اني اشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فاني لم
امره الا باوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى وهي لمن سعى بها هدى ورحمة وبشرى
واذا اخذ بها افلح حجته يوم يسال عن الحجج ولم يختلج دون رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن الحوض في جملة من يختلج وقيل له لا حرج عليك ولا اثم اذ نجوت

من ورطات الاثم والحرج والسلام ۝ وهذا الذي ذكرته من كلامي وكلام الصابي
في هذه التقاليد الاربعة لم اقصد به الوضع من الرجل وانما ذكرت ما ذكرته
لبيان موضع السجع الذي يثبت على المحك ولا شك ان هذا الوصف المشار اليه
في فقر الاسجاع لم يكن مقصودا في الزمن القديم اما لمكان عسره او لانه لم ينتبه
له وكيف اضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن والواحد فيه
ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد اجاد في السلطانيات كل الاجادة واحسن
كل الاحسان ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه الى
سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته اياه بالعصيان لاستحق به فضيلة
التقدم كيف وله من السلطانيات ما اتى فيه بكل عجيبة لكنه في الاخوانيات مقصر
وكذلك في كتب التعازي وعندي فيه راي لم يره احد غيري ولي فيه قول
لم يقله احد سواي وذاك ان عقل الرجل في كتابته زائد على فصاحته وبلاغته
وسابين ذلك فاقول لينظر الناظر في هذين التقليدين اللذين اوردتهما له
فانه يرى وصايا وشروطا واستدراكات واوامر ما بين اصل وفرع وكل جزء
وكثير وقليل ولا يرى ذلك في كلام غيره من الكتاب الا انه عبر عن تلك الوصايا
والاوامر والشروط والاستدراكات بعبارة في بعضها ما فيه من الضعف
والركة وقد قيل ان زيادة العلم على المنطق هجنة وزيادة المنطق على العلم
خدعة ومع هذا فاني اقر للرجل بالتقدم واشهد له بالفضل واذ فرغت مما

اردت

اردت تحقيقه في هذا الموضع فاني ارجع الى ما كنت بصدد ذكره من الكلام على السجع
وقد تقدم من ذلك ما تقدم وبقي ما انا ذاكره هاهنا وهو ان السجع ينقسم الى ثلاثة
اقسام الاول ان يكون الفصلان متساويين لا يزيد احدهما على الاخر كقوله تعالى
فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر وقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات
قدحا فالمغيرات صبحا فاثرن به نقعا فوسطن به جمعا الا ترى كيف جاءت هذه
الفصول متساوية الاجزاء حتى كانها افرغت في قالب واحد وامثال ذلك في
القران كثيرة وهو اشرف السجع منزلة للاعتدال الذي فيه القسم الثاني ان
يكون الفصل الثاني اطول من الاول لا طولا يخرج به عن الاعتدال طولا كثيرا
فانه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيبا فمما جاء من ذلك قوله تعالى بل كذبوا
بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا راتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا الا ترى
ان الفصل الاول ثماني كلمات والفصل الثاني والثالث تسع تسع ومن ذلك قوله
تعالى في سورة مريم وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وامثال هذا في القران الكريم
كثير ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاث فقر فان الفقرتين
الاوليين تحسبان في عدة واحدة ثم تاتي الثالثة وينبغي ان تكون طويلة طولا
تزيد عليهما فاذا كانت الاولى والثانية اربع لفظات تكون الثالثة

عشر لفظات أو احدى عشرة مثال ذلك ما ذكرته في وصف صديق فقلت
الصديق من لم يعتض عنك بخالف ولم يعاملك معاملة الخالف وإذا بلغته
أذنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف فالأولى والثانية هاهنا أربع
لفظات لأن الأولى لم يعتض عنك بخالف والثانية ولا يعاملك معاملة الخالف وجاءت
الثالثة عشر لفظات وهكذا ينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القبيل فإن زادت
الأولى والثانية على هذه العدة يسيرا فالأمر في ذلك وقس عليه إلا أنه لا ينبغي أن يجعله
قياسا مطردا في السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام بل يعلم أن الجواز بعد الحاجتين
من التساوي في السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة الثالثة ألا ترى أنه قد
وردت ثلاث سجعات متساويات في القرآن الكريم كقوله تعالى وأصحاب اليمين
ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود فهذه السجعات
كلها من لفظتين لفظتين ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستا لما كان ذلك
معيبا القسم الثالث أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول وهو عندي عيب
فاحش وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم
طوله ثم يجيء الفصل الثاني قصيرا عن الأول فيكون كالشيء المبتور فيبقى الإنسان عند
سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها وإذا انتهينا إلى هاهنا وبينا أقسام
السجع ولبه وقشوره فنقول فيه قولا كليا وهو أن السجع على اختلاف
أقسامه ضربان أحدهما يسمى السجع القصير وهو أن يكون كل واحدة من السجعتين

فهو زاد الثالثة بالحساب ولكن لا زاد القصير من الأولى والثانية عليها الصح

مولفة

مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة
من سمع السامع وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا ولا يكاد
استعماله يقع إلا نادرا والضرب الآخر يسمى السجع الطويل وهو ضد الأول لأنه
أسهل متناولا وإنما كان القصير من السجع أوعر مسلكا من الطويل لأن المعنى
إذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه لقصر تلك الألفاظ وضيق
المجال في استجلابه وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من
حيث وليس كما يقال وكان ذلك سهلا وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته
في عدة ألفاظه وأما السجع القصير فأحسنه ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله
تعالى والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا وقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر
وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة
وأربعة وخمسة وكذلك إلى العشرة وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل فمما
جاء منه قوله تعالى والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى
وقوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر وأما السجع الطويل فإن درجاته
تتفاوت أيضا في الطول فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو أن يكون تأليفه
من إحدى عشرة إلى اثنتي عشرة لفظة وأكثره خمس عشرة لفظة كقوله تعالى
وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه

تعالى بعد خضر آمستند ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور فالاولى احدى عشرة لفظة والاخرى ثلث عشرة لفظة وكذلك قوله تعالى لقد جاكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين روف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ومن السجع الطويل ما يكون تاليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا ويقللكم في اعينهم ليقضي الله امرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور ۞ ومن السجع الطويل ايضا ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط واعلم ان التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور وفايدته في الشعر انه قبل كمال البيت الاول من القصيدة تعلم قافيتها وتشبيه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان وقد فعل ذلك القدما والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة في افانين الكلام فاما اكثار التصريع في القصيدة فلست اراه مختارا لان هذه الاصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها انما يحسن منها في الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة في الوجه او كان كالطراز في الثوب فاما اذا تواتر وكثر فانه لا يكون شي لم يذكره على هذا الوجه احد غيري ۞ فالمرتبة الاولى وهي اعلا درجات التصريع ان يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه في فهم معناه غير محتاج الى صاحبه الذي يليه ويسمى

التصريع الكامل وذلك كقول امرء القيس

افاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي

وان كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج الى ما يليه وعليه ورد قول المتنبي

اذا كان مدح فالنسيب المقدم ... اكل فصيح قال شعرا متيم

المرتبة الثانية ان يكون المصراع الاول مستقلا بنفسه غير محتاج الى الذي يليه فاذا جا الذي يليه كان مرتبطا به كقول امرء القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فالمصراع الاول غير محتاج الى الثاني في فهم معناه لكن لما جا الثاني صار مرتبطا به وكذلك ورد قول ابي تمام

الم يان ان تروى الظماء الحوايم ... وان ينظم الشمل المبدد ناظم

وعليه ورد قول المتنبي

الراي قبل شجاعة الشجعان ... هو اول وهي المحل الثاني

المرتبة الثالثة ان يكون الشاعر مخيرا في وضع كل مصراع موضع صاحبه ويسمى التصريع الموجه وذلك كقول ابن الحجاج البغدادي

من شروط الصبوح في المهرجان ... خفة الشرب مع خلو المكان

فان هذا البيت يجعل مصراعه الاول ثانيا ومصراعه الثاني اولا وهذه المرتبة

كالثانية في الجودة. المرتبة الرابعة أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه إلا بالثاني ويسمى التصريع الناقص وليس بمرضي ولا حسن فمما ورد منه قول المتنبي

مغاني الشعب طيبا في المغاني — بمنزلة الربيع من الزمان

فإن المصراع الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثاني.

المرتبة الخامسة أن يكون التصريع في البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ويسمى التصريع المكرر وهو ينقسم قسمين أحدهما أقرب حالا من الآخر فالأول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها وهي أنزل الدرجتين كقول عبيد بن الأبرص

فكل ذي غيبة يؤوب — وغائب الموت لا يؤوب

القسم الآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقول أبي تمام

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا — فأصبح للهندية البيض مرتعا

المرتبة السادسة أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقا على صفة يأتي ذكرها في أول المصراع الثاني ويسمى التصريع المعلق فمما ورد منه قول امرئ القيس

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي — بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فإن المصراع الأول معلق على قوله بصبح وهذا معيب جدا وعليه ورد قول المتنبي

قد علم البين منا البين أجفانا — تدمى وألف في ذا القلب أحزانا

فإن المصراع الأول معلق على قوله تدمى. المرتبة السابعة أن يكون التصريع في البيت مخالفا لقافيته ويسمى التصريع المشطور وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها فمن ذلك قول أبي نواس

أقلني قد ندمت على الذنوب — وبالإقرار عذت من الجحود

فصرع بحرف الراء في وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلا نادرا

النوع الثاني في التجنيس

إعلم أن التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثين منهم وصنف الناس فيه كتبا كثيرة وجعلوه أبوابا متعددة واختلفوا في ذلك وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض فمنهم عبد الله بن المعتز وأبو علي الحاتمي والقاضي أبو الحسن الجرجاني وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانسا لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا وعلى هذا فإنه هو اللفظ المشترك وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء إلا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيسا وتلك تسمية بالمشابهة لا لأنها دالة على حقيقة المسمى بعينه وعلى هذا فإني نظرت في التجنيس وما يشتبه به ويجري مجراه فوجدته ينقسم إلى سبعة أقسام مشتبهة به فأما القسم الأول فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها كقوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم

المحرمون ما لبثوا غير ساعة وليس في القرآن الكريم غير هذه الآية فاعرفها ويروى في الأخبار النبوية أن الصحابة تنازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلوا بين جرير والجرير أي دعوا زمامه ومما جاء منه في الشعر قول أبي تمام

فأصبحت غرر الإسلام مشرقة بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأول استعارة من غرة الوجه والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشيء أكرمه فاللفظ إذن واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

من القوم جعد أبيض الوجه والندى وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد السيد والبنان الجعد ضد السبط فأحدهما يوصف به السخي والآخر يوصف به البخيل وكذلك قوله

بكل فتى ضرب يعرض للقنا محيا محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب بالسيف في الحرب معروف وكذلك قوله

عدا كثر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب

فالثغور جمع ثغر وهو واحد الأسنان وهو أيضا البلاد الذي على تخوم العدو ثم قال في هذه القصيدة

كم أحرزت قضب الهندي مصلتة تهتز من قضب تهتز في كثب

بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت أحق بالبيض أبدانا من الحجب

فالقضب

فالقضب السيوف والقضب القدود على حكم الاستعارة وكذلك البيض السيوف والبيض النساء وهذا من النادر الذي لا يتعلق به أحد وكذلك قوله

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا صدور العوالي في صدور الكتائب

فلفظ الصدور في هذا البيت واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيخود

حتى أغادر كل يوم بالفلا للطير عيدا من بنات العيد

فالعيد فحل من فحول الإبل والعيد اليوم المعروف من الأيام وقد أكثر أبو تمام من التجنيس في شعره فمنه ما أغرب فيه فأحسن كالذي ذكرته ومنه ما أتى به كريها مستثقلا كقوله

ديوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصفا

وكقوله

وأهل موقان إذ ماقوا فلا وزر أنجاهم منك في الهيجا ولا سند

وكقوله

مهلا بني مالك لا تجلبن إلى حي الأراقم دؤلول ابنة الرقم

ثم قال فيها

من الرديئة اللاتي إذا عسلت بشمت بالصغار الأنف الشمم

وكقوله

قربت ثراه عمن الدين واستترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وله من هذا الغث البارد المتكلف شي كثير لا حاجة الى استقصايه بل قد اوردنا منه
قليلا يستدل به على امثاله   ومن الحسن في هذا الباب قول ابي نواس وهو

عباس عباس اذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وكذلك قوله

فقل لابي العباس ان كنت مذنبا فانت احق الناس بالاخذ بالفضل

ولا تجحدوني ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

وعلى هذا النهج ورد قول البحتري

اذا العين راحت وهي عين على الهوى فليس بسر ما تسر الاضالع

فالعين الجاسوس والعين المعروفة   وكذلك ورد قول بعضهم

ومرى سوابق دمعها فتوالفت ساق يجاوب فوق ساق ساقا

فالساق ساق الشجرة والساق القمري من الطيوره وعلى هذا الاسلوب جا قول بعض
المتاخرين وهو الشاعر المعروف بالغزي في قصيدة قصد التجنيس في كثير
من ابياتها فمن ذلك ما اورده في مطلعها وهو

لو زارنا طيف ذات الخال احيانا ونحن في حفر الاجداث احيانا

ثم قال في اثنايها

تقول انت امرؤ جاف مغالطة فقلت لا هومت اجفان اجفانا

وكذلك

وكذلك قال في اخرها

لو يتق غيرك انسان ملاذ به فلا برحت لعين الدهر انسانا

وابن الغاني قد ذكر في كتابه بابا وسماه رد الاعجاز على الصدور وجاعن باب
التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جملة اقسامه كالذي نحن بصدد ذكره هاهنا
فما اورده الغاني من الامثلة في ذلك قول بعضهم

ونشري بجميل الصنع ذكرا طيب النشر

ونفري بسيوف الهند من اشرف في النفر

ونجري في شري الحمد على شاكلة النجر

وكذلك قول بعضهم في الشيب

بابياضا اذري دموعي حتى عاد منها سواد عيني بياضا

وكذلك قول البحتري

واغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على اغر محجل

كالهيكل المبني الا انه في الحسن جا كصورة في هيكل

وليس الاخذ على الغاني في ذلك مناقشة على الاسما وانما المناقشة على ان نصب نفسه
لايراد علم البيان وتفصيل ابوابه ويكون احد الابواب التي ذكرها داخلا في الاخر ويعمى
عليه ذلك ويخفى عنه وهو اشهر من فلق الصباح   وربما جوز بعض الناس ان يدخل في التجنيس
ما ليس منه نظرا الى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى فمن ذلك قول ابي تمام

أظن الدمع في خدي سيبقى رسوما من بكائي في الرسوم

فهذا ليس من التجنيس في شيء إذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا وهذا مما ينبغي أن ينبه عليه ليعرف ومن علماء البيان من جعل له اسما سماه به وهو الترديد أي أن اللفظة الواحدة رددت فيه وحيث نبهت عليه هاهنا فلا أحتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه وأما الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس فالقسم الأول منها أن تكون الحروف متساوية في تركيبها مختلفة في وزنها فمما جاء من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم كما حسنت خَلقي حسن خُلقي ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان في التركيب مختلفتان في الوزن لأن تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف هي الخاء واللام والقاف إلا أنهما قد اختلفا في الوزن إذ وزن الخَلق فَعل بفتح الفاء ووزن الخُلق فُعل بضم الفاء ومن هذا القسم قول بعضهم لا تنال غرر المعالي إلا بركوب الغرر واهتبال الغرر وقال البحتري

وغرر الجان المغرور يبحوا ما ثناه أي ساعة ما امان

نصاب الانفات وقد هيا لحظه طرفه طرف السنان

ولذلك قول الآخر

قد ذبت بين حشاشة وذماء ما بين حر هوى وحر هواء

القسم الثاني من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس فمما جاء منه

قوله

قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة فإن هاتين اللفظتين على وزن واحد إلا أن تركيبهما مختلف في حرف واحد وكذلك قوله تعالى وهم ينهون عنه وينأون عنه وكذلك قوله تعالى ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وعلى نحو من هذا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم الخيل معقود بنواصيها الخير وقال بعضهم لا تنال المكارم إلا بالمكاره وقال أبو تمام

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وقال البحتري

من كل ساجي الطرف أغيد أجيد ومهفهف الكشحين أحوى أحور

وكذلك قوله

سواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها

القسم الثالث من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد كقوله تعالى والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق وكقوله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وكذلك ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ودخل ثعلب صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله ومجلسه غاص فجلس إلى جانبه ثم أقبل عليه وقال أخاف أن أكون ضيقت عليك على أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين فقال له أحمد الصديق لا يحاسب والعدو لا يحتسب له وهذا كلام حسن من كلا الرجلين

مطلب

والتجنيس في كلام أحمد رحمه الله في نوادره يحاسب ويجتنب له وقد جاء شيء من ذلك
عليه خفة الطبع فمنه ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد
فقلت وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبي وسبوحه قد تطلعت أن يقال لها
اضربي ومواطن الجهاد قد بعد عهدها باستسقاء شآبيب النحور وانابيب الذوابل
والنسور وما ذاك إلا لأن العدو إذا طلب تقمص ثوب إذلاله وتنصل من صحة
نصاله واعتصم بمعاقله التي لا فرق بينها وبين عقاله ومن ذلك ما ذكرته في وصف
كريم فقلت وقد جعل الله حرمه ملقى الجفان وملتقى الأجفان فهو حمى لمن جنا
عليه زمانه وجار لمن بعد عنه جيرانه ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان
الخلافة وهو ولقد استبان للخادم من بركة طاعتهما يعمى عنه غيره فما يراه ووجد
من أثره في صلاح دنياه ما استدل به على صلاح أخراه فهو المركب المنجي والعمل المرجو
لا المزجي والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم وتأويل قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون
عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ومن ذلك ما ذكرته في أثناء كتاب إلى بعض
الإخوان وذلك في وصف بعض المنعمين فقلت نحن من حسن شيمه وفواضل إحسانه بين
هنية وهنيئة ومن نمن بقيته وأمانة غيبه بين أم معبد وأبي عبيدة ومن ذلك ما
ذكرته في مطلع كتاب إلى بعض الإخوان فقلت الكتب وإن عدها قوم عرضا من
الأعراض وقالوا هي نتائج سواد في بياض فإنها عند الإخوان روحها وسيما
ونجلا لربها وهي حياة القلوب إذا فارق جسم جسما ومن أحسنها كتاب سيدنا

ثم تمشيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب ومن هذا القسم قوله اي تام

أيام يدمي عنه تلك الدما شغفا وتقمر لبنا الأكباد
بيض نمن إذا رمقن سوافرا صورا وهن إذا رمقن صواد

وكذلك قوله

بدرا لاحت فيك بادرة النوى خطا وشمس أولعت بشماس

وكذلك قوله

كادوا النبوة والهدى فتقطعت أعناقهم في ذلك المضمار
جهلوا فلم يستكثروا من طاعة معروفة بعمارة الأعمار

وكذلك قوله   لأن الرماح إذا غرسن بمشهد فجنى العوالي في ذراه معالي

وكذلك قوله   إذا أحسن الأقوام أن يتطاولوا بلا نعمة أحسنت أن تتطولا

وكذلك قوله

أي يوم يكذب الدهر عنه وهو ملقى على طريق الليالي
بين حال جنت عليه وحول فهو نضو الأحوال والأحوال
شذ ما استنزلتك عن دمعك الأظعان حتى استهلت صوب العزالي
أي حسن في الذاهبين تولى وجمال على ظهور الجمال
وكمال مخيم في ذرى الخيم وحلم معصم في الحجال

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا والأبيات الباقية جاءت تبعا

ومما جاء من ذلك قول علي بن جبلة

وكم لك من يوم رعت بناته بذات جفون او بذات جفان

وكذلك قول محمد بن وهيب الحميري

قسمت صروف الدهر باسا ونائلا فمالك موتور وسيفك واتر

وهذا من الملح النادرة ومن هذا القسم قول البحتري

جدير بان تنشق عن ضوء وجهه ضبابة نقع تحتها الموت ناقع

وكذلك قوله

نسيم الروض في ريح شمال وصوب المزن في راح شمول

وذم اعرابي رجلا فقال كان اذا سال الحف واذا سئل سوف يحسد على الفضل ويزهد في الافضال

القسم الرابع من التشبيه بالتجنيس ويسمى المعكوس وذلك ضربان احدهما عكس الالفاظ والاخر عكس الحروف فالاول كقول بعضهم عادات السادات سادات العادات وكقول الاخر شيم الاحرار احرار الشيم ومن هذا النوع ما ورد شعرا قول الاضبط بن قريع من شعراء الجاهلية

(مثال)

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه ٥ ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه

وكذلك ورد قول ابي الطيب المتنبي

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكذلك قول الشريف الرضي من ابيات يذم فيها الزمان فقال

أسف

اسف بمن يطير الى المعالي وطار بمن يسف الى الدنايا

وكذلك قول الاخر

ان الليالي للانام مناهل تطوى وتنشر بينها الاعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

واحسن من هذا كله والطف قول ابن الرقاق الاندلسي

غيرتنا يد الزمان فقد شبت والنجي ٥ فاستحال الضحى دجى واستحال الدجى ضحى ٥

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب التبديل وذلك اسم مناسب لمسماه لان مؤلف الكلام ياتي بما كان مقدما في جزء كلامه الاول مؤخرا في الثاني وبما كان مؤخرا في الاول مقدما في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم اشكر لمن انعم عليك وانعم على من شكرك ومن هذا القسم قوله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وكذلك ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم جار الدار احق بدار الجار وكتب علي بن ابي طالب عليه السلام الى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال اما بعد فان الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا بما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول امل وكان قد والسلام وروي عن ابي تمام انه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها من عوادي يوسف وصواحبه ٥ انكر عليه ابو سعيد الضرير وابو العميثل

(مطلب) (ح)

(في الهامش: [illegible])

هذا الابتداء وقالا لم لا تقول ما يفهم فقال لم لا تفهمان ما يقال فاستحسن منه
هذا الجواب على الفور من التجنيس المشار اليه وقد جاءني شيء منه كقولي في فصل من
كتاب يتضمن تهنئة وهو فكم كان في افتراع عذرة الحصن من افتراع عذرة حصان
ولم جنيته من سنان خط استرقه لحظ سنان وكذلك قولي في صدر كتاب
الى ديوان الخلافة وهو الخادم يبلغ خدمته الى ذلك الجناب الذي يمطره الشفاه
قبلا ويوسعه العفاة املا ويرى الخول به ملوكا والملوك خولا وطاعته هي محك
الاعمال التي اشير فيها بقوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وكذلك ورد قولي ايضا
وهو فصل من تقليد وزير فقلت وقد صدق الله لهجة المثني عليك اذ يقول
انك الرجل الذي تضرب به الامثال ولا تضرب له الامثال والمهذب الذي لا
يقال معه اي الرجال واذا وزرت مملكة فقد خطبت منك بشد ازرها وسد
ثغرها واصبحت وانت صدر لقلبها وقلب لصدرها فهي مزدانة منك بالفضل
المبين معانة بالقوي الامين واما الضرب الثاني من هذا القسم وهو
عكس الحروف فكقول بعضهم

اهديت شيئا يقل لولا احدوثة الفال والتبرك
كرسي تفاءلت فيه لما رأيت مقلوبه يسرك

وكذلك قول الاخر

كيف السرور باقبال وآخره اذا تأملته مقلوب اقبال

حسبه

واجود من هذا قول الاخر

جاذبتها والريح تجذب عقربا من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت الثم ثغرها فتمنعت وتجنبت عني بقلب العقرب

واذا قلب لفظ عقرب صار برقعا وهذا الضرب نادر الاستعمال لانه قلما يقع
كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صوابا القسم الخامس من المشبه بالتجنيس ويسمى
المجنب وذلك ان يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين احداهما كالتبع للاخرى والجنيبة
لها كقول بعضهم

ابا العباس لا تحسب باني لشيبي من حلى الاشعار عار
فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الاحجار جار

وهذا القسم فيه عندي نظر لانه بلزوم ما لا يلزم اولى منه بالتجنيس الا ترى ان
التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وها هنا لم يتفق الا جزء من اللفظ وهو اوله
واما اللزوم في الكلام المنثور فهو تساوي الحروف التي قبل الفواصل المسجوعة وهذا
هو كذلك لان العين والراء تساويا في البيت الاول في قوله الاشعار عار والجيم والراء
في البيت الثاني في قوله الاحجار جار القسم السادس من المشبه بالتجنيس
وهو ما يساوي وزنه وتركيبه غير ان حروفه تتقدم وتتاخر وذلك كقول ابي تمام

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتاخرت وقد ورد في الكلام المنثور

كقوله صلى الله عليه وسلم في فضيلة تلاوة القرآن الكريم فقال يقال لصاحب
القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرأ
فقوله صلى الله عليه وسلم اقرأ وارق من التجنيس المشار اليه

النوع الثالث في الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذاك ان يكون في احد جانبي العقد من
اللآلي مثل ما في الجانب الآخر وكذلك جعل هذا في الالفاظ المنثورة من الاسجاع
وهو ان تكون كل لفظة من الفاظ الفصل الاول مساوية لكل لفظة من الفاظ الفصل
الثاني في الوزن والقافية وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى لما عليه من زيادة
التكلف فاما قول من ذهب الى ان في كتاب الله شيئا منه ومثله بقوله تعالى ان الابرار
لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم فليس الامر كما وقع له لان لفظة لفي قد وردت في القرينتين
معا وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه لكنه قريب منه واما الشعر
فاني كنت اقول انه لا يتزن على هذه الشريطة ولم اجده في اشعار العرب لما فيه
من تعمق الصنعة وتعسف الكلفة واذا اجيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة
التي تكون اذا اجيء به في الكلام المنثور ثم اني عثرت عليه في شعر المحدثين ولكنه قليل
جدا فمن ذلك قول بعضهم

فمكارم اوليتها متبرعا وجرائم الغيتها متورعا

فمكارم بازاء جرائم واوليتها بازاء الغيتها ومتبرعا بازاء متورعا وقد اجاد بعضهم ان يكون

احد

احد الفاظ الفصل الاول مخالفا لما يقابله من الفصل الثاني وهذا ليس يشيء تخالفته
حقيقة الترصيع فما جاء من هذا النوع منثورا قول الحريري في مقاماته فهو
يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه فانه جعل الفاظ
الفصل الاول مساوية لالفاظ الفصل الثاني وزنا وقافية فجعل يطبع بازاء يقرع
والاسجاع بازاء الاسماع وبجواهر بازاء بزواجر ولفظه بازاء وعظه ومما جاء من
هذا النوع ما ذكرته في جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو وقد اعدت الجواب ولم
استعر له نظما منمقا ولا جلبت اليه حسنا مسترقا بل اخرجته على رسله وغنيت بجمال
حسنه عن صقله فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط فهو يدل في اثواب بذلته وقد
جرى الجمال بجملته والحسن من شيمته فطرة التصوير لا ما حشته فكرة التزوير والترصيع
في قولي وشيمته فطرة التصوير وحشته فكرة التزوير وكذلك ورد قولي في فصل
من الكلام يتضمن شغف الاولاد فقلت من قوم اولاده ضرمه واوداده لحمه
حساده فهذه الالفاظ متكافية في ترصيعها فقوم بازاء ضرمه واوداده بازاء لحمه واولاده
بازاء حساده وكذلك قول بعضهم في الامثال المولدة التي لم ترد عن العرب وهو
من اطاع غضبه اضاع ادبه فاطاع بازاء اضاع وغضبه بازاء ادبه وقد ورد هذا
الضرب كثيرا في الخطب التي انشاها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباته رحمه الله فمن
ذلك قوله في اول خطبة الحمد لله عاقد ازمة الامور بعزايم امره وحاصد ائمة
الغرور بقواصم مكره وموفق عبيده لمغانم ذكره ومحقق وعيده بلوازم

شكره فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزنًا وقافيةً والألفاظ التي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالف في الوزن فإن مواعيد تخالف وزن عبيد ولا تخالف قافيتها التي هي الدال ومن ذلك قوله أيضًا من جملة خطبة أولئك الذين أمّلوا فخبتم ورحلوا فأقمتم وأبادتهم الموت كما علمتم وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كأن عمتم كلا والله ما أشخصوا لتقروا ولا نغصوا لتسروا ولا بدّ أن تمرّوا حيث مرّوا فلا تشقوا بخدع الدنيا ولا تغتروا وهذا الكلام أيضًا مثل الذي قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن وكذلك قوله أيضًا في خطبة أخرى أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكم وأديموا التحسب على ابيضاض اللمم وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم وأجيلوا الأفكار في انقراض الأمم وأما ما ورد في الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضًا فكقول ذي الرمة

كحلاء في برج صفراء في دعج كأنها فضة قد مسّها ذهب

فصدر البيت مرصع وعجزه خال من الترصيع وعذر الشاعر في ذلك واضح لأنه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته هذه على حرف الباء ولو رصّع هذا البيت الترصيع الحقيقي لكان يلزمه أن يأتي بألفاظه على حرفين حرفين أحدهما الباء فكان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف وذلك مما يعسر وقوعه في الشعر وأرباب هذه الصناعة قد قسموا الترصيع إلى هذين القسمين المذكورين وهذه القسمة لا أراهم أصابوا إلا أن حقيقة

الترصيع

الترصيع موجودة في القسم الأول دون الثاني ومما جاء من هذا القسم الثاني قول الخنساء

حامي الحقيقة محمود الخليقة مهدي الطريقة نفّاع وضرّار

وكذلك قول الآخر

سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت من الكرم

النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم

وهو من أشق هذه الصناعة مذهبًا وأبعدها مسلكًا وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أواخر الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفًا واحدًا وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل رويّ الأبيات الشعرية وقد جمع أبو العلاء عبد الله بن سليمان في ذلك كتابًا وسماه كتاب اللزوم فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والرديء الذي يذم وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها فمن ذلك ما ذكرته في حلية كاتب في فصل يتضمن ذم جبان فقلت إذا نزل به خطب ملكه الفرق وإذا ضلّ في أمر لم يؤمن إلا إذا أدركه الغرق ومن ذلك ما ذكرته في مثال كتاب إلى بعض الإخوان فقلت الخادم يهتدي من دعائه وثنائه بما يسلك أحدهما سماءً والآخر أرضًا ويصون أحدهما نفسًا والآخر عرضًا وأعجب ما فيهما أنهما توأمان

غير أن هذا مستنتج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان والتزوم ههنا في
الواو والضاد ولذلك ورد قولي في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة فقلت وقد علم
من شيمة الديوان العزيز أنه يسترها بامداد الايدي إلى بابه وإذا اغبا أحدهما
في المسالة نهاه عن اغبابه حتى لا يخلو حرمه الكريم من الطائف ولا يده الكريمة من
الإسعاف فالتزوم ههنا في لفظتي بابه واغبابه ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب
إلى ديوان الخلافة أيضا وهو وممّا شدّ به عضد الخادم من الانعام فإنه قوة العبد
التي خولته ولا تقوى بصعد السحب الا بكثرة غيثها الذي أنزلته وغير خاف أن
عبد الدولة لها كالعرين من طرافها ومركز الدائرة من أطرافها ولا يؤيد السيف إلا
بقائمه ولا ينهض الجناح إلا بقوادمه فالتزوم في هذا الموضع في الراء والقاف في قولي
طراف وأطراف ومن ذلك ما كتبته في صدر كتاب إلى الملك الأفضل علي بن يوسف
أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة فقلت المملوك يهني مولانا بنعمة
الله المؤذنة باستخلاصه واجتبائه وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه ولو
أنصف لهني الأرض منه بواليها والأمة بكاليها وخصوصا أرض مصر التي حظيت
بشرف سكناه وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه وكل هذه الفصول
المذكورة من هذه المكتوبات التي أنشأتها لا كلفة على التزام اللزوم فيها وقرأت
في كتاب الأغاني لأبي الفرج أن لقيط بن زرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن ذي الجدين
فحظيت عنده وحظي عندها ثم قتل فآمت بعده وتزوجت رجلا غيره وكانت

كبيرا

كبيرا ما تذكر لقيطا فلامها على ذلك فقالت إنه خرج في يوم دجن وقد تطيب وشرب
فطرد البقر وصرع منها ثم أتاني وبه نضح دم فضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت
ثمه فلم أر منظرا كان أحسن من لقيط فقولها ضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت ثمه
من الكلام الحلو في باب اللزوم ولا كلفة عليه وهكذا فليكن فإن الكلفة وحشة
تذهب برونق الصنعة وما ينبغي لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجيء
متكلفا ومثاله في هذا المقام كمن أخذ موضوعا رديا فأجاد فيه صنعته فإنه يكون
عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل فأضاع جودة الصنعة في رداءة الموضوع
وقد سلك ذلك أبو العلا عبد الله بن سليمان فيما جاء من قوله في جزء اللامع الحار
منه الأبيات ـــــــ وهي

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيها ولا عرس ولا أخت
وقد تحملت من الوزر ما تعجز أن تحمله البخت
إن مدحوني ساءني مدحهم وخلت أني في الثرى سحت

وله من ذلك الجيد كقوله

لا تطلبن بآلة لك حالة قلم البليغ بغير جد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

وهذا بين الاسترسال وبين الكلفة وأما ما تكلف فيه تكلفا ظاهرا وإن أجاد
فقوله تنازع في الدنيا سواك وما له ولا لك شيء في الحقيقة ما

ولكنها مال لرب مقتدر بغير حنوب الارض مورد فيها
ولم يحظ من ذاك النزاع بطائل من الامر الا ان يعد سفيها
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها فتنفقوها مثل مختلفيها
تداعوا الى النزر القليل فجالدوا عليه وخلوها لمغترفيها
وما ام صل او حليلة ضيغم باظلم من دنياك واعتز فيها
تلاقي الوفود القادميها بوجهه ويبكي على اثار منصرفيها
وما هي الا سوكة ليس عندها وجدك ارطاب لمخترفيها
كانيذن للطير والوحش بازم فالفت شرورا بين مختطفيها
تنات عن الانصاف من ضيم لم تجد سبيلا الى غايات منتصفيها
فاطبق ناعيها وكفا ومقلة وقل لعوى الناس فالك بفيها

وله ايضا

ارى الدنيا وما وصفت ببر اذا اغنتك نفيرا اوهقته
اذا خشيت لشر عجلته وان رجيت لخير عوقته
حياة كالحبالة ذات مكر ونفس المرء صيد اعلقته
فلا تخدع بحليتها اريب وان هي سورته ونطقته
اذا فتحت شغبا من جناها وصدت فاه عما ذوقته

وقد ورد للعرب شي من ذلك الا انه قليل فمما جاء منه قول بعضهم في ابيات الحماسة

ان

رابع عشر البر

ان التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فادقها واجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان اكثرها لنا واقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

وهذا من اللطائف التي ما يشهد لنفسه وعما يجري هذا المجرى قول جحدر بن حبة العبسي من شعراء الحماسة ايضا

ولا ادوم قدري بعدما نضجت بخلا لتمنع ما بيتها اثافيها
حتى تقسم شيئا بين من وسعت ولا يؤنب تحت الليل عافيها

ومما ورد من ذلك ايضا قول طرفة بن العبد البكري

الم تر ان المال يكسب اهله صلوحا اذا لم يعط منه نوائبه
ارى كل مال لا محالة ذاهبا وافضله ما ورث الحمد كاسبه

وكذلك ورد قول الفرزدق

وغير لون راحلتي ولوني ترددي الهواجر واعتمامي
اقول لها اذا ضجرت وعضت بمورك الوراك مع الزمام
علام تلفتين وانت تحتي وخير الناس كلهم امامي

وكذلك قوله ايضا

منع الحياة من الرجال ونفعها حدق تقلبها النساء مراض

وكان اوده الرجال ادا او حدق النساء لنبلها اعراض

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذوق صحيح فانظر إلى هذا الغزل في كلامه السهل
الذي كأنه ماء جارٍ وانظر إلى ما أوردته لأبي العلاء المعري فإن أثر الكلفة عليه بادٍ ظاهر
وممن قصد من العرب قصيدة على اللزوم كثير عزة وهي القصيدة التي أولها

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتا وهي مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها
وليس عليها من أثر الكلفة شيء ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها وقد ذكر بعضهم من
هذا النوع ما ورد في أبيات الحماسة وهو

وقينة لبست لهذا العيش قد لبثت من نزق وطيش
إذا بدت قلت أمير الجيش من ذا قضى بعرف طعم العيش

وهذا ليس من باب اللزوم لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم أو الناثر ما لا يلزمه كقولنا
شرق وفرق مثلا فإنه لو قيل بدلا من ذلك شرق وخنق لجاز ذلك وفي هذه الأبيات
لا يقع الأمر كذلك لأنه لو قيل طيش وعرش لما جاز وهذا يقال له الردف في الشعر
وهو الياء والواو قبل حرف الروي وإذا جيء بذلك في الشعر أو في الكلام المنثور لا
يقال إنه التزم ما لا يلزم لأن الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العدول إلى غيره وهاهنا
لا مندوحة ومن لطيف ذلك ما يروى لامرأة من البصرة مجنت أبي نواس
فقالت ازجري جونسل حرابه

اذا

إذا قعدت وقعت نابه كالأرنب الجاثم فوق الرابيه

وكذلك ورد قول أبي تمام وهو

خدم العلا فخدمنه وهي التي لا تخدم الأقوام ما لم تخدم
وإذا انتحى في فلة من سؤدد فأتت له الأخرى بلغت تقدم

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضا

ولو حرسي لوجدت تحرقا بضا في الأكرمين ولا تصادي
حذرا أن يكرى الطرف شزرا إلى بعض الموارد وهو صادي

وله من أبيات تتضمن مرثيه

لقد نعت عتابه وزهيره وتغلبه أخرى الليالي ووائله
ومستدر المعروف تشري هباته إليهم ولا تشري إليهم غوائله
طواه الردى طي الرداء وغيبت فضائله عن قومه وفواضله
طوى شيما كانت تروح وتغتدي وسائل من أعيت عليه وسائله
فيا عارضا للعرف أقلع مزنه ويا واديا بالجود جفت مسايله
ألم ترني أبرقت عيني على أبي محمد النجم المشرق آفله
وأحصلتها فيه كما لو أتيته طريد الليالي أحصلتني نوافله

وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء فإن حسن هذا مطبوع
وحسن ذاك مصنوع وكذلك أقول في غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولا فإن الألفاظ

اذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة
جاءت غير محتاجة الى التأنق ولا شك ان صورة الخلقة غير صورة التخلق فان قيل فما
الفرق بين المتكلف في هذه الانواع وغير المتكلف قلت في الجواب اما المتكلف فهو
الذي يأتي بالفكرة والروية وذلك ان ينضي الخاطر في طلبه ويتعب على تتبعه واقتناص
أثره وغير المتكلف يأتي مستريحا من كلفة وهو ان يكون الشاعر في نظم قصيدة او الخطيب
والكاتب في انشاء خطبة او كتابة فبينا هو كذلك اذ سنح له نوع من هذه الانواع بالاتفاق
لا بالسعي والطلب الا ترى الى قول ابي نواس في مثل هذا الموضع وهو

أرب الاطلال لا تعبأ بها انها من كل بؤس دانيه
وانعت الراح على تحريمها انما دنياك دار فانيه
من عقار من رآها قال لي صدت الشمس لنا في آنيه

وعلى هذه اللطافة والسهولة ورد قوله أيضا

كم من غلام ذي تحاسين أفسده ناطف ياسين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد وحكى ابرهيم البندجي قال رأيت شيخا ضعيفا يبيع
الناطف زرا فقلت له يا شيخ ما زلت في هذه الصناعة قال مذ كنت ولكن الحال كانت
واسعة والسلعة نافقة وكنت ممن يشار اليه حتى قال ابو نواس فيّ وانشد هذا البيت
فانظر ايها المتأمل ما أحلى لفظة ابي نواس في لزومه وما أعزه عن الكلفة فكذلك
فلتكن الالفاظ في اللزوم وغيره واعلم انه اذا صغرت الكلمة الاخيرة من الشعر

الشعر

الشعر او من فواصل الكلام المنثور فان ذلك ملحق باللزوم ويكون التصغير عوضا
عن تساوي الحروف التي قبل روي الابيات الشعرية والحروف التي قبل الفاصلة
من النثر فمن ذلك قول بعضهم

عز على ليلى بذي سدير سوء مبيتي ليلة الغمير
مقبضا نفسي في طمير تنتهز الرعدة في ظهيري
يهفو الى الزور من صديري ظمآن في ريح وفي مطير
وازور قر ليس بالقرير من لدما ظهر الى سحير
حتى بدت لي جبهة القمير لاربع خلون من شهير

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه واحسن منه ما ورد عن ابي نواس
وعن عنان جارية الناطفي وله معها حكايات كثيرة غير هذه فقال ابو نواس

أما ترثي لصب يكفيه منك نظره فقالت عنان
أباي تعني بهذا عليك فاطلب غميره فقال ابو نواس
أخاف إن مت هما على يدي منك غيره

فالبيت الاول والثاني من هذا الباب والثالث جاء ضمنا وتبعا
وقد ورد في القرآن الكريم شيء من اللزوم الا انه يسير جدا فمن ذلك قوله تعالى
اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق وقوله تعالى والطور وكتاب مسطور وكذلك
قوله في هذه السورة فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ام يقولون شاعر

نتربص به ريب المنون وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فادخل فيه ما ليس منه
كقوله تعالى ان المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما اتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب
الجحيم وهذا لا يدخل في باب اللزوم لان الاصل فيه من نحو الياء التي من حروف
المد واللين فلا نعتد بها ها هنا ومن هذا الباب قوله تعالى واصحاب اليمين ما اصحاب
اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وكذلك قوله تعالى قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم
النصير وعلى هذا الاسلوب جا قوله تعالى في قصة ابرهيم عليه السلام يا ابت اني
اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال اراغب انت عن الهتي يا
ابرهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا وعلى نحو من هذا جا قوله تعالى قال
قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان في ضلال بعيد قال لا تختصموا لدي وقد قدمت
اليكم بالوعيد ولا تجد امثال ذلك في القران الا قليلا

النوع الخامس في الموازنة

وهي ان تكون الفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن وان يكون صدر
البيت الشعري وعجزه متساويي الالفاظ وزنا وللكلام بذلك طلاوة ورونق
وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشيا واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة
وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مرا فيه لوضوحه وهذا النوع من
الكلام هو اخو السجع في المعادلة دون المماثلة لان في السجع اعتدالا وزيادة

على الاعتدال وهي تماثل اجزا الفواصل لورودها على حرف واحد واما الموازنة
ففيها الاعتدال الموجود في السجع ولا تماثل في فواصلها فيقال اذن كل سجع موازنة
وليس كل موازنة سجعا وعلى هذا فان السجع اخص من الموازنة فمما جا منها قوله تعالى
واتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم فالمستبين والمستقيم على وزن
واحد وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام واتخذوا من دون الله الهة
ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا الم تر انا ارسلنا
الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا وكذلك قوله تعالى في
سورة طه من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيمة وزرا خالدين فيه وسا لهم يوم القيمة
حملا وكذلك ورد قوله تعالى في سورة حم عسق والذين يحاجون في الله من بعد ما
استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذي
انزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون
بها والذين امنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال
بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشا وهو القوي العزيز من كان يريد حرث الاخرة
نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الاخرة من نصيب ام
لهم شركا شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وان الظالمين
لهم عذاب اليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين امنوا وعملوا
الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير

وهذه الآيات جميعها على وزن واحد فإن شديد وقريب وبعيد وعزيز ونصيب
واليم وكبير كل ذلك على وزن فعيل وإن اختلفت حروف المقاطع التي هي فواصلها وأمثال
هذا في القرآن كثيرة بل معظم آياته جارية على هذا النهج حتى إنه لا يخلو منه سورة
من السور ولقد تصفحته فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة وأما ما
جاء من هذا النوع شعرا فقول ربيعة بن ذؤابة

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحرث بن شهاب
بأشدهم بأسا على أعدائه وأعزهم فقدا على الأصحاب

والبيت الثاني هو المختص بالموازنة

النوع السادس في اختلاف صيغ الألفاظ

وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ومكانة شريفة وجل الأسرار اللفظية منوط
به وقد لقيت جماعة ممن يدعي فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني
فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغي وقد استخرجت فيه أشياء لم
أسبق إليها وسيأتي ذكرها ها هنا أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من
هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة
أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل ومن صيغة الفعل إلى صيغة الاسم
أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي أو من الواحد إلى التثنية
أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا وحسنها صار

قبحا فمن ذلك لفظة خود فإنها عبارة عن المرأة الناعمة وإذا نقلت إلى صيغة الفعل
قيل خوّد على وزن فعّل بتشديد العين ومعناها أسرع يقال خوّد البعير إذا أسرع
فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة وقد وردت في النظم والنثر كثيرا وإذا جاءت
على صيغة الفعل لم تكن حسنة كقول أبي تمام

وإلى بني عبد الكريم تواهقت رتك النعام رأى الطريق فخوّدا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره إلا أن هذه اللفظة التي هي خوّد قد نقلت عن
الحقيقة إلى المجاز فخفف عنها ذلك القبح كقول بعض شعراء الحماسة

أقول لنفسي حين خوّد رألها رويدك لما تشفقي حين مشفق
رويدك حتى تنظري عم تنجلي غيابة هذا البارق المتألق

والرأل النعام والمراد به ها هنا أن نفسه فرت وفزعت وشبه ذلك بإسراع النعام
في فراره ومع هذا فلما أورده على حكم المجاز خف بعض القبح الذي على لفظة خوّد وهذا
يدرك بالذوق الصحيح ولا خفاء بما بين هذه اللفظة في إيرادها ها هنا وإيرادها في بيت
أبي تمام فإنها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة وقد وردت ها هنا بين بين
ومن هذا النوع لفظة ودع وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها على اللسان ومع هذا
فلا تستعمل على صيغتها الماضية إلا أتت غير مستحسنة ولكنها تستعمل مستقبلة وعلى
صيغة الأمر فتجيء حسنة أما الأمر فكقوله تعالى دعهم يخوضوا ويلعبوا ولم يأت في
القرآن إلا على هذه الصيغة وأما كونها مستقبلة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم

وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم فقال لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا
يدع له المتعمقون تعمقهم وقال ابو الطيب المتنبي

تشقكم بفتاها كل سلهبة ... والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

واما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل الا شاذا ولا حسن له كقول ابي العتاهية

أثروا فلم يدخلوا قبورهم ... شيئا من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لانفسهم ... اعظم نفعا من الذي ودعوا

وهذا غير حسن في الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شيء وهذه لفظة واحدة فلم يتغير
من حالها شيء سوى انها نقلت من الماضي الى المستقبل لا غير وكذلك لفظة وذر فانها
لا تستعمل ماضية وتستعمل على صيغة الامر كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا وتستعمل
مستقبلة ايضا كقوله تعالى سأصليه سقر وما ادراك ما سقر لا تبقي ولا تذر فهي لم
ترد في القرآن الا على هاتين الصيغتين وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن واما اذا جاءت
على صيغة الماضي فانها لا تستعمل وهي اقبح من لفظة ودع لان لفظة ودع قد استعملت
ماضية وهذه لم تستعمل وهاهنا فليتبع الخائضون في هذا الفن طرقهم وليعلموا ان
في الزوايا خبايا واذا امعنوا الفكر في اسرار الالفاظ عند الاستعمال واغرقوا في
الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب ومن هذا النوع لفظة الاخدع فانها
وردت في بيتين من الشعر وهي في احدهما حسنة رائقة وفي الآخر ثقيلة مستكرهة
كقول الصمة بن عبد الله من شعر الحماسة

تلفت

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

وكقول ابي تمام

يا دهر قوّم من اخدعيك فقد ... اضججت هذا الانام من خرقك

الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من الثقل على السمع والكراهة على النفس
اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والايناس والبهجة
وليس سبب ذلك الا انها جاءت موحدة في احدهما مثناة في الآخر فكانت حسنة في
حالة الافراد مستكرهة في حالة التثنية والا فاللفظة واحدة وانما اختلاف
صيغتها فعل بها ما ترى ومن هذا النوع الفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل
يقوم على العدول عنها ولا يستفتى في ذلك الا الذوق السليم وهذا موضع عجيب
لا يعلم كنه سره فمن ذلك لفظة اللب الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر
فانها لا تحسن في الاستعمال الا مجموعة ولذلك قد وردت في القرآن الكريم في مواضع
كثيرة وهي مجموعة ولم ترد مفردة كقوله تعالى وليتذكر اولوا الالباب وان في ذلك
لذكرى لاولي الالباب واشباه ذلك وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق
ومخارجها بعيدة وليست بمستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط ان تكون
مضافة او مضافا اليها اما كونها مضافا اليها فكقولنا لا يعلم ذلك الا ذو لب وان في
ذلك لعبرة لذي لب وعليه ورد قول جرير

ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

بصر عن ذا اللب حتى لا يراك به وهل أضعف خلق الله أركانا

وأما كونها مضافة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من إحداكن يا معشر النساء فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع والإضافة فإنها لا تأتي حسنة ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد كلفظة كوب فإنها وردت في القرآن مجموعة ولم ترد مفردة وهي وإن لم تكن مستقبحة في حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسنا لبس لها وذلك كقولي في جملة أبيات أصف فيها الخمر وما يجري معها من الآنية فقلت

ثلاثة تعطي الفرح كأس وكوب وقدح

ما ذبح الزق بها إلا وللهم ذبح

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الأسلوب حسنها وكأنه جلاها في غير لباسها الذي كان لها إذا جاءت بمفردها وكذلك وردت لفظة رجا بالقصر والرجا الجانب فإنها لم تستعمل موحدة وإنما استعملت مجموعة كقوله تعالى والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوبا من الحسن لم يكن لها في حال كونها موحدة وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة كقولنا رجا البئر ولربما أخطأ بعض الناس في هذا الموضع وقاس

عليه

عليه ما ليس بقياس وذلك أنه يقف على ما ذكرته هاهنا ويقف فيقال وكذلك قد وردت لفظة الصوف في القرآن الكريم ولم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين وهذه بخلاف ما وردت عليه في شعر أبي تمام

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

وهذا البيت الذي أشرت إليه لأن لفظة الصوف حسنة مفردة ومجموعة وإنما أزرى بها في قول أبي تمام جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان وعلى هذا النهج وردت لفظة حبر وأحبار فإن هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ولم ترد في القرآن إلا مجموعة وفي ضد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفردا ولم يرد مجموعا كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ومن الأرض مثلهن ومما ورد من الألفاظ مفردا وكان أحسن ما يرد مجموعا لفظة البقعة قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا بقاع الأرض أو ما جرى مجراه وكذلك لفظة طيف في ذكر طيف الخيال فإنها لم تستعمل إلا مفردة لأن جمعها جمع قبيح فإذا قيل طيوف كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع

ضيف

وبالله العجب من هذه اللفظة ومن أخفها عليه وزنا وهي لفظة ضيف فإنها تستعمل
مفردة ومجموعة وكلاهما في الاستعمال حسن رائق وهذا مما لا يعلم السر فيه والذوق
السليم هو الحاكم في الفرق بينهما بين اللفظتين وما يجري مجراهما وأما جمع المصادر
فإنه لا يجيء حسنا والإفراد فيه هو الحسن ومما جاء من المصادر مجموعا قول عنترة

فقود

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفقود

فقوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد يفقد فقدا واستعمال مثل هذه اللفظة غير
سائغ ولا لذيذ وإن كان جائزا ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن
لا مع الجواز وهذا كله يرجع إلى الحاكم الذوق السليم فإن صاحب هذه الصناعة يصرف
الألفاظ بضروب التصريف فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه ألا ترى

أمة

أنه يقال الأمة بالضم عبارة عن الجمع الكثير من الناس ويقال الإمة بالكسر وهي
النعمة فإن الأمة بالضم لفظة حسنة وبالكسر ليست حسنة ولو استعملها قبح ورأيت
صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة فيا ليت شعري
ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها وكذلك قد اختار ألفاظا أخر ليست بفصيحة
ولا لوم عليه لأن قصده ورسم ذلك الكتاب عند كثير وأسرار الفصاحة لا تؤخذ
من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية وتصريفية أو نقل كلمة لغوية أو ما جرى
هذا المجرى وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها وإذا شذ عن صاحب
كتاب الفصيح ألفاظ متعددة ليست بفصيحة في جملة كثير ذكره في الفصيح فإن

هذا

هذا منه كثير ومما يذكر في هذا الباب أنه يقال سهم صائب فإذا جمع الجمع الحسن الذي
يعذب في الفم قيل سهام صوائب وصائبات وصيب وإذا جمع الجمع الذي يقبح قيل سهام

صيب

صيب على وزن كتب قال أبو نواس

ما أحل الله ما صنعت عينه تلك العشية بي

قتلتني إنسانها تبدي بسهام الردى صيب

فقوله سهام صيب من اللفظ الذي ينبو عنه السمع ويحيد عنه اللسان ومثله ورد
قول عويف القوافي من أبيات الحماسة

ذهب الرقاد فما يحس رقاد مما شجاك ونامت العواد

أقياد

لما أتاني من عيينة أنه أمست عليه تظاهر الأقياد

فقوله الأقياد في جمع قيد مما لا يحسن استعماله بل الحسن أن يقال في جمعه قيود وكذلك
قول مرة بن محكان التميمي من أبيات الحماسة وذلك من جملة الأبيات المشهورة
التي أولها يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا
فقال فيها

قبب

ماذا ترين أندنيهم لأرحلنا في جانب البيت أم نبني لهم قببا

فإنه جمع قبة على قبب وذلك من المستبشع الكريه والأحسن المستعمل هو قباب لا قبب
وكذلك يجري الأمر في غير هذا ومن المجموع ما يختلف استعماله وإن كان متفقا في

عين

لفظه وأخذه كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم فإن العين الناظرة تجمع

على عيون وعين الناس تجمع على أعيان وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان لا إلى جائز
الوضع اللغوي وقد شذ هذا الموضع عن أبي الطيب المتنبي في قوله

والقوم في أعيانهم خزر والخيل في أعيانها قبل

فجمع العين الناظرة على أعيان وكان الذوق يأبى ذلك ولا نجد له على اللسان حلاوة وكان
جائزا ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة ولكشفت عن
رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطي هذا الفن لكن في الذي أشرت إليه منبهة لأهل
الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره وأعجب من ذلك كله أنك ترى
وزنا واحدا من الألفاظ فتارة تجد مفرده حسنا وتارة تجد جمعه حسنا وتارة تجدهما
حسنين فالأول نحو جؤذر وهو فرخ الحبارى فإن هذه اللفظة تحسن مفردة
لا مجموعة لأن جمعها على جآذر وكذلك طنبور وطنابير وعرقوب وعراقيب
وأما الثاني نحو بهلول وبهاليل وبلعوم وبلاعيم وهذا ضد الأول وأما الثالث
نحو جمهور وجماهير وعرجون وعراجين فانظر إلى الوزن الواحد كيف يختلف
في أحواله مفردا ومجموعا وهذا من عجيب ما يجيء في هذا الباب وهكذا قد جاءت
ألفاظ على وزن واحد وهي ثلاثية مسكنة الوسط وجميعها حسن في الاستعمال
وإذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شيء دون شيء فمن ذلك لفظة الثلث
والربع إلى العشر فإن الجميع على وزن واحد وإذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثلث وربع
وخمس وكذلك إلى عشر فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثلث والسدس

والباقي وهو الربع والسبع والثمن والتسع والعشر ليس كالأول في حسنه هذا
والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة والجميع حسن في الاستعمال قبل أن يثقل
وسطه ولما ثقل صار بعضه حسنا وبعضه غير حسن وكذلك نجد الأمر في أسماء
الفاعلين كالثلاثي منها نحو فَعَل بفتح الفاء والعين وفَعِل بفتح الفاء وكسر العين وفَعُل
بفتح الفاء وضم العين فإن هذه الأوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين وأما فعل بفتح الفاء
والعين فليس له إلا اسم واحد أيضا وهو فاعل ولا يقع فيه اختلاف وأما
فَعِل بفتح الفاء وكسر العين يقع في اسم فاعله الاختلاف استحسانا واستقباحا
لأن له ثلاثة أوزان نحو فاعل وفعِل وفعلان تقول منه حمِد فهو حامد وحمِد وحمدان
وقد جاء على وزنه فرح تقول منه فرح زيد فهو فرح وهو الأحسن ولا يحسن أن
يقال فارح ولا فرحان وإن كان جائزا لكن فرحان أحسن من فارح وقد وردت هذه
اللفظة في القرآن الكريم فلم تستعمل إلا على فرِح لا غير كقوله تعالى كل حزب بما
لديهم فرحون وكقوله تعالى إن الله لا يحب الفرحين وقد جاءت هذه اللفظة في
شعر بعض شعراء الحماسة في باب المراثي

فما أنا من حزن وإن جل جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

وهذا غير حسن وإن جاز استعماله وعلى نحو منه يقال غضب فهو غضبان ولا
يقال غاضب وإن كان جائزا وقد تقدم القول أنا في تأليف الكلام بصدد استعمال
الحسن والأحسن لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز وقد أجري هذا المجرى قولنا

نفعل وافتعل فإن لفظة نفعل لها موضع تستعمل فيه ولفظة افتعل لها موضع تستعمل فيه
الأخرى ألا ترى أنك تقول قعدت إلى فلان أحدثه ولا تقول اقتعدت إليه وكذلك تقول اقتعدت
غارب الجمل ولا تقول قعدت على غارب الجمل وإن جاز ذلك لكن الأول أحسن وهذا لا يحكم
فيه غير الذوق السليم فإنه لا يمكن أن يقام عليه دليل وأما افعل وافعوعل فإنا نقول
أعشب المكان فإذا كثر عشبه قلنا اعشوشب فلفظة افعوعل للتكثير على أني
استقريت هذه اللفظة في كثير من الألفاظ فوجدتها عذبة طيبة على تكرار حروفها كقولنا
اخشوشن المكان واغرورقت العين واحلولى الطعم وأشباهها وأما فعلة نحو همزة
ولمزة وجثمة ونومة ولكنة ولحنة وأشباه ذلك فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة
وهذا أخذته بالاستقراء وفي اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها فانظر
إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ وعليك أن تتفقد أمثال هذه المواضع لتعلم كيف
تضع يدك في استعمالها فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها ومؤلف الكلام
من كاتب وشاعر إذا مرت به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح فما يجد الحسن منها
موحدا وحده وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ

النوع السابع في المعاظلة اللفظية

والمعاظلة معاظلتان لفظية ومعنوية أما المعنوية فسيأتي ذكرها في باب التقديم
والتأخير من المقالة الثانية فليؤخذ من هناك وأما المعاظلة اللفظية فهي المخصوصة
بالذكر هاهنا في بابها عند الألفاظ وحقيقتها مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان

إذا ركبت إحداهما الأخرى فسمي الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه المعاظلة مأخوذا
من ذلك وهو اسم لائق بمسماه ووصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى
فقال كان لا يعاظل بين الكلام وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة فقال
قدامة بن جعفر الكاتب المعاظلة في الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه
ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة كقول أوس بن حجر

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبي تولبا والتولب ولد الحمار هذا ما ذكره قدامة بن جعفر وهو خطأ إذ لو
كان ما ذهب إليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه
وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدم ذكره وهو التراكب من قولهم تعاظلت
الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تراكب في ألفاظه
ولا في معانيه وأما غير قدامة فإنه خالفه فيما ذهب إليه إلا أنه لم يقسم المعاظلة إلى
لفظية ومعنوية ولكنه ضرب لها مثالا كقول الفرزدق

وما مثله في الناس إلا مملكا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه

وهذا من القسم المعنوي لا من اللفظي ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب
تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه لأن الأصل في معناه وما مثله في الناس
حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه وسيجيء شرح ذلك مستوفى في بابه من المقالة الثانية
إن شاء الله وإذ حققت القول في بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فإني أتبع ذلك

تقسيم القسم اللفظي منها الذي انا بصدد ذكره ها هنا فاقول اني تاملته
بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقته نفسها فوجدته ينقسم
الى خمسة اقسام الاول منها يختص بادوات الكلام نحو من والى وعن وعلى واشباهها
فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع اخوانه ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على
اللسان ولكل موضع يخصه من السبك فمما جاء منه قول ابي تمام
الى خالد راحت بنا ارحبية مرافقها من عن كراكرها نكب
فقوله من عن كراكرها من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على انه قد وردت
ها تان اللفظتان وهما من وعن في موضع اخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل من
عن يمين الطريق والسبب في ذلك انهما وردتا في بيت ابي تمام مضافتين الى اللفظة المتواكزة
فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة
فكانتا خفيفتين كقوله
ولقد اراني للرماح دريئة من عن يميني مرة وامامي
والاصل في ذلك راجع الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان وما جرى مجراهما
مع الفاظ يسهل منهما ما لم يكن بهما من ثقل كما جاءا في بيت قطري واذا سبكتا مع الفاظ
تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت ابي تمام ومن هذا القسم قول ابي تمام ايضا
كانه في اجتماع الروح فيه له في كل جارحة من جسمه روح
فقوله فيه له فيه لكنه ما لا يحسن وروده وكذلك ورد قول

ابي الطيب المتنبي
وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
فقوله لها منها عليها من الثقيل النقيل البغيض وكذلك قوله
تبيت وفودهم تسري اليه وجدواه التي سالوا اغتفار
فخلفهم برد البيض عنهم وهامهم له معهم معار
فقوله وهامهم له معهم مما يثقل النطق به ويتعثر اللسان فيه لكنه اقربها الامر الاول
ومن الحسن في هذا الموضع قول ابي تمام
دار اجل الهوى عن ان الم بها في الركب الا وعيني من منايحها
فقوله عن ان في هذا الموضع من الخفيف الحسن الذي لا باس به القسم الثاني من
المعاظلة اللفظية يختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الالفاظ ولا بتكرير
المعاني مما ياتي ذكره في باب التكرير من المقالة الثانية وانما هو تكرير حرف واحد
او حرفين في كل لفظة من الفاظ الكلام المنثور او المنظوم فيثقل حينئذ النطق به فمن ذلك
قول بعضهم وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
فهذه القافات والراآت كانها في تتابعها سلسلة ولا خفاء بما في ذلك من الثقل وهكذا
ورد قول الحريري في مقاماته فقال
وازور من كان له زائرا وعاف عافي العرف عرفانه
فقوله وعاف عافي العرف عرفانه من التكرير المشار اليه وكذلك ورد قوله ايضا في

رسالتيه اللتين صاغهما على حرفي السين والشين فإنه أتى في إحداهما بالسين في كل
لفظة من ألفاظها وأتى في الأخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها فجاءتا كأنهما في
العقارب أو خذروف الغرائب وما أعلم كيف خفي ما فيهما من القبح على مثل الحريري مع
معرفته بالجيد والرديء من الكلام ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده
حتى خنا وحنا حنان الحبيب فصاح رجل من الحاضرين في المجلس وما دونغاشي فقال
له من كان إلى جانبه ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا فقال سمعت جيما في جيم في جيم
فضحك وعد ذلك من أقبح عيوب الألفاظ ومما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته
التي مطلعها أتراها لكثرة العشاق فقال

كيف ترثي التي ترى كل جفن راءها غير جفنها غير راق

وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الأيام ومن هذا
القسم قول الشاعر المعروف بكشاجم في قصيدته التي مطلعها
دار حاري بكأس خمر فقال

والزهر والقطر في رباها ما بين نظم وبين نثر
حدائق كفت كل زهر حل بها خيط كل قطر

وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى ترداد ضغطه في شدقه حتى يتبرأه وعلى هذا الأسلوب
ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذي يتذاكره الناس

ملكت مطال مولود مفند مليم مانع مني مرادي

وهذه

وهذه الأبيات كأنها عقود متصلة بعضها ببعض وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا
هذا يستعمل هذا القسم من المعاظلة كثيرا في كلامه نثرا ونظما وذلك لعدم معرفته
بسلوك الطريق وأنا أذكر نبذة من ذلك كقوله في وصف رجل سخي أنت المرتجى كبد
الريح والمليح أن يحصر المليح بالتكليح عند سائل بالوجه بل يفوق إذ يروق مرأى بوجه با
مغبوق كأس الحمد بالمصبوح ضاق عن ذلك اللوح وسالك المنتوح سنيح وريح
دو السريح ونوقه الطليح فانظر إلى حرف الحاء كيف تردد في كل لفظة من هذه
الألفاظ فجاء كما تراه من الثقل والغثاثة واعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه
اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم وذلك أنه إذا تكرر الحرف
عندهم أدغموه استحسانا فقالوا في جعل لك جعلك وفي يضربني يضربني وكذلك
قالوا استعد فلان للأمر إذا تأهب له والأصل فيه استعدد واستتب الأمر إذا
تهيأ والأصل فيه استتبب وأشباه هذا كثيرة في كلامهم حتى إنهم لشدة كراهتهم
لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا أمليت الكتاب
والأصل فيه أمللت فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل وإذا كان يفعل
ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا فمنها
ما يختلف بين ماض ومستقبل ومنها ما لا يختلف فالأول كقول القاضي الأر
جاني
في أبيات يصف فيها الشمعة ومنها معنى قوله مبتدعا ولم يسبق من غيره وذلك
أنه قال عن لسان الشمع أنه إلف العسل وهو أخوه الذي دي معه في بيت واحد

وأن النار فرقت بينه وبينه وأنه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضا من ألم الفراق
إلا أنه أساء العبارة فقال

بالنار فرقت الحوادث بيننا وبها نذرت أعود أقتل روحي

فقوله نذرت أعود أقتل من المعاظلة المشار إليها وأما ما يرد على نهج واحد
من الصيغة الفعلية فكقول أبي الطيب المتنبي

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل

فهذه الألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي صيغة الأمر كأنه قال افعل افعل
افعل هكذا إلى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة وإن لم يكن تكريرا للحروف إلا أنه
أخوه ولا أقول إن جميع هذه الألفاظ متراكبة متداخلة ولو عطفها بالواو لكانت
أقرب حالا كما قال عبد السلام بن رغبان

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيف وإلا فمت شديد الهزال
احل وامرر وضر وانفع ولن واخشن ورش وابر وانتدب للمعالي

ألا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الألفاظ كتراكبها في بيت أبي الطيب المتقدم
ذكره فإن قيل إنك جعلت ما كان واردا على صيغة واحدة على سبيل التكرار معاظلة
وقد ورد ذلك في القرآن الكريم كقوله تعالى فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين
حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ولو كان معاظلة لما
ورد في القرآن مثله الجواب عن ذلك أني أقول هذه الآية ليست كالذي أنكرته

قال

فإن هذا الموضع ينظر فيه إلى التكثير والتقليل فإذا كثر كان معاظلا لتراكبه
وثقله على النطق وقد عرفتك أنها تفصل بين صيغة بواو العطف يكون أقل إلا ما لم
يفصل والذي أنكرته من ذلك هو إتيان ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عقد
متصلة يجتنب بثقل النطق بها وتكره موقعها من السمع كبيت أبي الطيب المتنبي وأما
هذه الآية المشار إليها فإنها خارجة عن الحكم ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على
صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف ثم يرد التكرير فيها إلا في اثنين وهما خذوهم
واحصروهم وأما الصيغة الأولى فإنه أضيف إليها كلام آخر فقيل اقتلوا المشركين
حيث وجدتموهم ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف
إليها كلام آخر أيضا فقيل واقعدوا لهم كل مرصد لا جرم إنه لما جاءت غير ثقيلة
على النطق مع تواتر صيغة الأمر فيها أربع مرار وهذه رموز ينبغي أن يتنبه لها
في استعمال الألفاظ إذا جاءت هكذا القسم الرابع من المعاظلة وهو الذي يتضمن
مضافات كثيرة متتابعة كقولهم سرج فرس غلام زيد وإن زيد على ذلك قيل لبد سرج
فرس غلام زيد وهذا أشد قبحا وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر
في مفتتح قصيدة له فقال

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

القسم الخامس من المعاظلة أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبي تمام في
قصيدته التي مطلعها ما لكثيب الحمى إلى عقده فقال يصف جملة

هذا صح

كقول صح

ساخرق الخرق بابن خرقاء كالهيق إذا ما استحر من نجده

مقابل في الجديل صلب القرا لوحل من عجبه إلى كتده

تامكه نهد مداخله ململمه محزئله أجلده

فالبيت الثالث من المعاظلة التي تقلع الأسنان دون إيرادها وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحا

ومريحفوذ وأناه على أسمر متن يوم الوغى جسده

مارنه لدنه مثقفه عراصه في الأكف مطرده

وهذا كالأول في قبحه وثقله فقاتله الله ما أمتن شعره وما أسخفه في بعض الأحوال وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضا فقال يصف الممدوح

البلق عن سبل عارض خضل الشؤبوب آبي الحمام من نصده

مسقه ثره مسحسحه وابله مستهله برده

ولو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لحطت من قدره وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي

دان بعيد محب مبغض بهج أغر حلو ممر لين شرس

ندي أبي غر واف أخي ثقة جعد سري نه ندب رضي ندس

وعندنا أنه سلسلة بلا شك وقليلا ما يوجد في أشعار الشعراء ولم أجده كثيرا إلا في شعر الفرزدق وتلك معاظلة معنوية وسيأتي بيانها في بابها وهذه معاظلة

لفظية

لفظية وهي يوجد في شعر أبي الطيب كثيرا

النوع الثامن في المنافرة بين الألفاظ في السبك

وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه وغاية ما يقال إنه ينبغي أن لا تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها ثم يكتفى بهذا القول من غير بيان ولا تفصيل حتى إنه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة وكل منهما نوع منفرد برأسه له حقيقة تخصه إلا أنهما قد اشتبها على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم وقد بينت هذا النوع وفصلته عن المعاظلة وضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها وما يجري مجراها وجملة الأمر أنه ما يسلك الألفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرهما من تلك الأنواع المذكورة لأن هذين النوعين أصلا سبك الألفاظ وما عداهما فروع عليهما وإذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفا بهما فإن مقاله ينبذ ويشنأ وحقيقة هذا النوع الذي هو المنافرة أن يذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هي التراكب والتداخل إما في الألفاظ أو في المعاني على ما أشرت إليه وهذا النوع لا تراكب فيه وإنما هو إيراد ألفاظ غير لايقة بموضعها الذي ترد فيه وهو ينقسم قسمين أحدهما يوجد في اللفظة الواحدة والآخر في الألفاظ المتعددة فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فإنه إذا ورد في الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو في معناه سواء كان ذلك الكلام نثرا أو نظما وأما الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر بل يمكن ذلك في النثر

خاصة لأنه يغتفر في الشعر من أجل الوزن فمما جاء من القسم الأول
قول أبي الطيب المتنبي

فلا يبرم الأمر الذي هو حالل ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم

فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوض
لفظة ناقض فقال

فلا يبرم الأمر الذي هو ناقض ولا ينقض الأمر الذي هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة في مكانها غير قلقة ولا نافرة وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعري
أنه كان يتعصب لأبي الطيب حتى أنه كان يسميه الشاعر ويسمي غيره من الشعراء
باسمه وكان يقول ليس في شعره لفظة يمكن أن يعوض عنها ما هو في معناها فيجيء حسنا
مثلها فيا ليت شعري أما وقف على هذا البيت المشار إليه لكن الهوى كما يقال أعمى وقد
كان أبو العلاء أعمى خلقة وأعمى عصبية فاجتمع له العمى من جهتين وهذه اللفظة التي
هي حالل وما يجري مجراها قبيحة الاستعمال وهي فك الإدغام في الفعل الثلاثي
ونقله إلى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال بل الثوب فهو بالل ولا سل
السيف فهو سالل ولا أن يقال هم بالأمر فهو هامم ولا خط الكتاب فهو خاطط
ولا حن إلى كذا فهو حانن وهذا لو عرض على من لا ذوق له أدركه ونبه فكيف من له
ذوق صحيح كأبي الطيب لكن لا بد لكل جواد من كبوة وأنشدني بعض الأدباء
بيتا لدعبل وهو

شفيعك

صح الى

تعصب أبي العلا الأجل المتنبي ... ولا الأجل ... في الفهم ...

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له عجز البيت حسن وأما صدره فقبيح لأن سبكه قلق نافر وتلك الفاء التي
في قوله شفيعك فاشكر كأنها ركبة البعير وهي في زيادتها كزيادة الكرش فقال
لهذه الفاء في كتاب الله أشباه كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر
وثيابك فطهر فقلت له بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا
وبالذوق ثانيا أما العلم فإن الفاء في وربك فكبر وثيابك فطهر هي الفاء العاطفة
فإنها واردة بعد قم فأنذر وهي مثل قولك امش فأسرع وقل فأبلغ وليست الفاء
التي في شفيعك فاشكر هذه الفاء لأن تلك زائدة لا موضع لها ولو جاءت في السورة
كما جاءت في قول دعبل وحاش لله من ذلك لابتدئ الكلام فقيل ربك فكبر وثيابك
فطهر لكنها لما جاءت بعد قم فأنذر حسن ذكرها فيما يأتي بعدها من ربك فكبر
وثيابك فطهر وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل ويستثقلها
ولا يجد ذلك في الفاء الواردة في السورة فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم
ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراسخ في علم الفصاحة
والبلاغة ومن هذا القسم وصل همزة القطع وهو محسوب من جائزات الشعر
التي لا تجوز في الكلام المنثور وكذلك قطع همزة الوصل لكن وصل همزة القطع أقبح
لأنه أثقل على اللسان فمما ورد من ذلك قول أبي تمام

قرابي الهي والود حتى كأنما أفاد الغنى من نائلي وفوائدي

هذا صح

فاصبح يلقاني الزمان من اجله باعظام مولود ورأفة والد

فقوله من اجله وصل الهمزة القطع وعليه ورد قول ابي الطيب المتنبي

توسطه المفاوز كل يوم طلاب الطالبين لا الانتظار

فقوله لا الانتظار كلام نافر عن موضعه ومن هذا القسم ان يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحتري

حلفت لها بالله يوم التفرق وبالوجد من قلبي بها المتعلق

تقديره من قلبي المتعلق بها فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي هي المتعلق بالضمير الذي هو بها قبح ذلك ولو قال من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة ومن هذا القسم ايضا ان تزاد الالف واللام في اسم الفاعل ويقام الضمير فيه مقام المفعول كقول ابي تمام

فلو عاينتهم والزائريهم لما ميزت البعيد من الحميم

فقوله الزائريهم اسم فاعل وقوله هم الذي هو الضمير في موضع المفعول تقديره الزائرين ارضهم او دارهم والزائرين اياهم فاستعمال هذا مع الالف واللام قبيح جدا واذا حذفنا زال ذلك القبح وقد استعملها الشعراء المفلقون كثيرا ومما جاء من هذا القسم الثاني الذي يوجد في الالفاظ المتعددة قول ابي الطيب ايضا

لا خلق اكرم منك الا عارف بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

فان عجز هذا البيت بجملته نافر عن مواضعه وامثال هذا في الاشعار كثير

المقالة الثانية في الصناعة المعنوية وهي تنقسم قسمين

الاول منها في الكلام على المعاني مجملا والثاني في الكلام عليها مفصلا

وقبل الكلام على ذلك فلا بد من توطئة تكون شاملة لما نحن بصدد ذكره هاهنا فاقول اعلم ان المعاني الخطابية قد حصرت اصولها واول من تكلم في ذلك حكماء اليونان غير ان ذلك الحصر كلي لا جزئي ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع اليه من التفر التي لا نهاية لها لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يمر شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال ان قال شعرا او نظم نثرا فان قيل ان ذلك البدوي كان له ذلك طبعا وخليقة والله فطره عليه كما فطر ضروب نوع الادمي على فطر مختلفة علمهم في اصل الخلقة فان فطر الترك على الاحسان في الرمي والاصابة فيه من غير تعليم وكذلك فطر اهل الصين على الاحسان في صنعة البديع بما يباشرونه من مصوغ او خشب او فخار او غير ذلك وكذلك فطر اهل المغرب على الشجاعة وهذا لا نزاع فيه فانه مشاهد الجواب عن ذلك اني اقول ان سلمت اليك ان الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب محضر وسكنوا البلاد ولم يروا البادية ولا خلقوا بها وقد اجادوا في تأليف النظم والنثر وجاءوا بمعان كثيرة ما جاءت في

بلغ مقابلة بالمنقول منه

من هنا دخل في علم المعاني

بعبارات

لا

بلغ مطالعة ومراجعة

شعر العرب ولا نطقوا بها فان قلت انهم ما وقفوا على ما ذكره حكما اليونان
وتعلموا منه قلت لك في الجواب هذا شي لم يكن ولا علم ابو نواس شيا منه ولا مسلم
بن الوليد ولا ابو تمام ولا البحتري ولا ابو الطيب المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى
الحكم في اهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد والصابي وغيرهم فان ادعيت ان
هاولا تعلموا ذلك من كتب حكما اليونان قلت لك في الجواب هذا باطل بي انا فاني
لم اعلم شيا مما ذكره حكما اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر الى كلامي فقد اوردت
لك نبذا منه في هذا الكتاب واذا وقفت على رسايلي ومكاتباتي وهي عدة
مجلدات وعرفت اني لم اعرض لشي مما ذكره حكما اليونان في حصر كله وانه لا
يحتاج اليه ابدا وفي كتابي هذا ما يغنيك وهو كاف ولقد فاوضني بعض
المتفلسفين في هذا وانساق الكلام الى شي ذكره لابي علي بن سينا في الخطابة والشعر
وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا وقام فاحضر كتاب الشفا
لابي علي ووقفني على ما ذكره فلما وقفت عليه استجهلته فانه طول فيه وعرض كانه
يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي
شيا ثم مع هذا جميعه فان معول القوم فيما يذكرونه من الكلام الخطابي ان يورد
على مقدمتين ونتيجة وها انا لم اخطر لابي علي بن سينا ببالي فيما صاغه من شعر او كلام
مسجوع فان له شيا من ذلك في كلامه وعندما اشرع في صوغ ما اصوغه منه لم اخطر
المقدمتين والنتيجة له ببال ولو انه فكر اولا في المقدمتين والنتيجة ثم اتى

بنظم او نثر بعد ذلك لما اتى بشي ينتفع به ولطال الخطب عليه بل انا اقول شيا اخر
وهو ان اليونان انفسهم لما نظموا ما نظموه من اشعارهم لم ينظموه في وقت نظمه وعند
فكرته في مقدمتين ولا في نتيجة وانما هذه اوضاع توضع وتطول بها مصنفات
كتبهم في الخطابة والشعر وهي كما يقال

فقاقع ليس لها طايل كانها شعر الابيوردي

وحيث اوردت هذه المقدمة قبل الخوض في تقسيم المعاني فاني ارجع الى شرح ما
اجملته فاقول اما القسم الاول فان المعاني فيه على ضربين احدهما يبتدعه
مولف الكلام من غير ان يقتدي فيه بمن سبقه وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند
الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور الطارية ولنشر في هذا الموضع الى نبذة
من ذلك ليكون مثالا للمترشح لهذه الصناعة فمن ذلك ما ورد في شعر ابي تمام
في وصف مصلوبين وهو

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرحون ومن راهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة والخاطر في مثل هذا المقام
ينساق الى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة وكذلك قال
في هذه القصيدة في صفة من احرق بالنار

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الواري

نار يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق إزار
طارت لها شعل يهدم لفحها أركانه هدماً بغير غبار
فصلن منه كل مجمع مفصل وفعلن فاقرة بكل فقار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الكفار

وهذا ما يعين على استخراج المعاني فيه شاهد الحال وقد دل البحتري على ما ذكره أبو تمام في وصف المصلبين فقال

كم عزيز أباده فغدا يركب عوداً أمرّها في عود
أسلمته إلى الرقاد رجال لم يكونوا عن وترهم برقود
تحسد الطير فيه ضبع البوادي وهو في غير حاله المحسود
غاب عن صحبه فلا هو موجود لديهم وليس بالمفقود
فكأن امتداد كفيه فوق الجذع في محفل الردى المشهود
طائر مد مستريحاً جناحيه استراحات متعب مكدود
أخطب الناس راكباً فإذا رجلاً جاءت منه عيّ البليد

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود إلا أن فيها معنى مأخوذاً من شعر مسلم بن الوليد الأنصاري وهو قوله

نصبته حيث ترتاب الرياح به وتحسد الطير فيه أضبع البيد

لكن

لكن البحتري زاد في ذلك زيادة حسنة وهي قوله   وهو في غير حاله المحسود

ومن هذا الضرب ما جاء في شعر أبي الطيب المتنبي في وصف الحمى

وزائرتي كأن بها حياءً فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

وقد شرح أبو الطيب بهذه الأبيات حاله مع الحمى ومن بديع ما أتى به في هذا الموضع أن سيف الدولة بن حمدان كان مخيماً بأرض بابركر على مدينة ميافارقين فعصفت الريح بخيمته فتطير الناس لذلك وقالوا فيه أقوالاً فامتدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها

أينفع في الخيمة العذل

فمنها ما أحسن فيه كل الإحسان وهو قوله

تضيق بشخصك أرجاؤها ويركض في الواحد الجحفل
وتقصر ما كنت في جوفها ويركز فيها القنا الذبل
وكيف تقوم على راحة كأن البحار لها أنمل
فليت وقارك فرقته وحملت أرضك ما تحمل
فصار الأنام به سادة وسدتهم بالذي يفضل
رأت لون نورك في لونها كلون الغزالة لا يغسل

وانّ لها شرفًا باذخًا وانّ الخيام بها تخجلُ

فلا تنكرنّ لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتلُ

ولو بلغ النّاس ما بلغتُ لخانتهم حولك الارجلُ

ولمّا امرت بتطنيبها اشيع بانك لا ترحلُ

فما اعتمد الله تقويضها ولكن اشار بما تفعلُ

وعرّف انّك من همّه وانك في نصره ترفلُ

فما العاندون وما اثّلوا وما الحاسدون وما قوّلوا

هم يطلبون فمن ادركوا وهم يكذبون فمن يقبلُ

وهم يتمنّون ما يشتهون ومن دونه جدّك المقبلُ

وهذه الابيات قد اشتملت على معانٍ بديعة ولغى المتنبي فضلًا أن يأتي بمثلها وهذا مقام يظهر في مثله براعة النّاظم والناثر وقرأتُ في كتاب الروضة لأبي العبّاس المبرّد وهو كتاب جمعه واختار فيه اشعار شعراء بدأ فيهم بأبي نواس ثم من كان في زمانه واسحب على ذيله فقال فيما اورده من شعره وله معنى لم يُسبق اليه بإجماع وهو قوله

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارسُ

قرارتها كسرى وفي جنباتها مهًا تدّريها بالقسيّ الفوارسُ

فللراح ما زرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانسُ

وقد اكثر العلماء في وصف هذا المعنى وقولهم فيه انه معنى مبتدع ويحكى عن الجاحظ انه قال ما زال الشعراء يتناقلون المعاني قديمًا وحديثًا الا هذا المعنى فان ابا نواس انفرد بابداعه وما اعلم انا ما اقول لها ولا سوى أن اقول قد تجاوزتم حدّ الاكثار ومن الامثال السايرة بدون هذا يباع الحمار وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى فانه لا كبير كلفة فيه لأنّ ابا نواس رأى كأسًا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره والذي عندي في هذا انه من المعاني المشاهدة فان هذه الخمور تحمل الّا ما يسيرًا وكانت تستغرق صور هذه الكاس الى مكان جيوبها وكان الماء فيها قليلًا بمقدار القلانس التي على رؤوسها وهذه حكاية حال مشاهدة بالبصر وكذلك ورد قوله في الخمر ايضا

يا شقيق النفس من حكمٍ نمت عن ليلي ولم انم

فاسقني الخمر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحم

وهذا معنى مخترع لم يسبق اليه وهو دقيق يكاد لدقته ان يلحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصوّرة وبلغني انه اختلف في هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله فقيل انه يريد بخمار الشيب في الرحم ان الخمر تكون في جوانبها ذات زبد ابيض على وجهها فقال الاصمعي ان ابا نواس الطف خاطرا من هذا وابعد غرضا فاسئلوه عمّا اراد فاحضر وسئل فقال ان الكرم اوّل ما يجري فيه الماء تخرج شبيها بالقطنة وهي اصل العنقود فقال الاصمعي الم اقل لكم ان الرجل الطف خاطرا وابعد غرضا وقد

وقد جاء لابن حمديس الصقلي في الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره وهو من الحسن
واللطافة في الغاية القصوى وذلك قوله

كأنما أدهم الإظلام حين نجا من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر إلا أنه أبدع في التشبيه وأمثال هذا كثيرة في
أقوال المجيدين من الشعراء وجملة الأمر في ذلك أن الشاعر أو الكاتب ينظر
الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني كما فعل النابغة في مدح النعمان
وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يوفدهم فلما وفدهم جعل عطاء ذلك
الميت على قبره حتى جاء أهله وأخذوه فقال النابغة في ذلك

حباً شقيق فوق أحجار قبره وما كان يحيى قبله قبر وافد

وهذا بيت من جملة أبيات فانظر كيف فعل النابغة في هذا المعنى وكذلك ورد
قول أخت جساس زوجة كليب فإنه لما قتل جساس كليباً اجتمع النساء
إليها ونذبنه فتحدث بعضهن إلى بعض وقلن هذه ليست ثاكلة وإنما هي شامتة
فإن أخاها هو القاتل فنمي ذلك إليها فقالت

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ ليمت على شفق منها عليه فافعلي
جل عندي فعل جساس فواحسرتا عما انجلت أو تنجلي

فعل جساس على وجدي به قاطع ظهري ومدن أجلي
لو بعين فقئت عيني سوى أختها فانفقأت لم أحفل
يا قتيلاً قوض الدهر به سقف بيتي جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الأول
يشتفي المدرك بالثأر وفي دركي ثأري ثكل المثكل
إنني قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لي

وهذه الأبيات لو نطق بها بعض الفحول المعدودين من الشعراء لاستعظمت
فكيف امرأة وهي غريبة في شرح تلك الحال المشار إليها واعلم أنه قد يستخرج
من المعنى الذي ليس بمبتدع معنى مبتدع فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن
السراج في الفهد

تنافس الليل فيه والنهار معاً فقمصاه بجلباب من المقل

وليس هذا من المعاني الغريبة ولكنه تشبيه حسن واقع في موقعه وقد جاء
من بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريباً فقال

ونقطته حباً كي يسالمها على المنايا نعاج الرمل بالحدق

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله في مقصده الذي قصد من أجله وقلما يقع هذا
في الكلام المنظوم والمنثور وهو موضع ينبغي أن توضع اليد عليه وينبه
له وكذلك فليكن سياقه ما جرى هذا المجرى وقد جاء شيء من ذلك في الكلام المنثور

فمنه ما ذكرته في وصف نساء حسان وهو أقبلت ربائب الكناس في مخضر اللباس
فقيل إنما تخترن الخضرة من الألوان ليصح تشبيههن بالأغصان وهذا معنى غريب
وربما يكون قد سبقت إليه إلا أنه لم يبلغني بل ابتدعته ابتداعا ومن ذلك ما ذكرته
في فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد فذكرت القتال بالمجنيق وهو قولنا ثم رأى منه وسيع
فاستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع ونصبت المجنيقات فأنشأت سحبا صعبة
القياد مختصة بالإرعاد دون الإيهاد فلم تزل تقذف جلامد السور وتنال من جلودها إنجاده
برعودها قبل بروقها وبروق السحب قبل رعودها حتى غادرت الحزن منه سهلا
والعامر بالقفا مخلا وفي هذا معنيان غريبان أحدهما أن هذه السحب تختص بالإرعاد دون
الإيهاد والآخر أن رعودها قبل بروقها وكل ذلك يفطن له بالمشاهدة ومن
ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب فقلت إذا الخلق المرتخلق البائر والندى لم يخف
عرضه دنسا كان كالماء إذا بلغ قلتين لم يحمل خبثا وهذا المعنى مبتدع وهو مستخرج
من الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا ومن
ذلك ما ذكرته في وصف مفازة فقلت مفازة لا توطأ بأجفان ساهر ولا تقتل
بأفحاص خابر ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت بمثال الجائر ومن ذلك ما
ذكرته في كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكنوي عنه وكان
ذلك في زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصورا فقلت وقد عاجله
فناك البروق قبل البوارق وأحاط به الثلج فصار خنادق تحول بينه وبين الخنادق

والسنا

والسنا قد لقي عسكره من البرد بعسكره والسنا قد قابلته بأغبر وجهها إلا أخضر
والأرض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره والمعنى المخترع من هذا الكلام
في قولي والأرض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره وهو مستخرج من
الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة
النقي يريد الخبزة البيضاء ولما كان الثلج على الأرض مماثلا لذلك ومشابها له استنبطت
أنا له هذا المعنى المخترع فجاء كما تراه وهو من المعاني التي يدل عليها شاهد الحال
وأحسن من هذا كله ما كتبته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد فقلت
ودولته هي الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس وهي خير دولة أخرجت للزمن
كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا
بأنها لا تهرم وأنها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يبلى والوصل
الذي لا يصرم وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لم تخطه
الأقلام في خطها ولا أجالته الخواطر في أفكارها وغرابة هذا المعنى ظاهرة ولم يأت
بها أحد قبلي ومما بلغني من المعاني المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب
المسجد الأقصى بالبيت المقدس وبنى الحجاج بن يوسف بابا إلى جانبه فجاءت صاعقة
فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك فتطير لذلك وشق عليه فبلغ ذلك الحجاج
فكتب إليه كتابا يقول بلغني كذا وكذا فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه وما مثلي
ومثله إلا كابني آدم إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر فلما وقف

عبد الملك على كتابه يسرى عنه وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن
الكريم وهو من المعاني المناسبة لما ذكرت فيه ويكفي الحجاج من فطانة الفكرة
أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك وأما المعاني التي تستخرج من غير
شاهد حال متصورة فإنها أصعب منالاً مما يستخرج بشاهد الحال ولأمر ما كان
لأبكارها سر لا يهجم على مظانه إلا آحاد الشعراء ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق
فهمه حتى جل عن دقة الفهم وللهجوم على عذارى المعاني المحجبة تحجب السواتر أسرع
الهجوم على عذارى المعاني المحجبة تحجب الخواطر وما ذاك مما يلقيه إليك الأستاذ وليس
يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ وإن الذي ينشئ المعاني يحسن فيها الإنشاء ويبرز
منها صوراً يركبها كيف شاء ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر وأخذ فيه بالعين
دون الأثر علم أنه مقام تزلق معارف الأفهام فكيف مواقف الأقدام وليست المعاني
فيه إلا كالأرواح ولا الألفاظ إلا كالأجسام فمن شاء أن يخلق خلقاً من الكلم فليأت
به على صورة الأناسي لا على صورة النعم فإن من القول الغاية التي هي أحسن من العابه
ومنه النهمه التي لا تسبه إلا بالسائبة ومما جاء من هذا الباب قول أبي نواس وهو

شرابك في السراب إذا عطشنا وخبزك عند منقطع التراب
وما روحتنا لتذب عنا ولكن خفت مرزئة الذباب

والبيت الثاني من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع ويحكى عن الرشيد
هرون رحمه الله أنه قال لم يهج حاضر ولا باد بمثل هذا الهجاء ومن هذا

الباب قول مسلم بن الوليد

ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

ومن هذا الباب قول علي بن جبلة

تكفل ساكن الدنيا حميد فقد أضحت له الدنيا عيالا
كأن أباه آدم كان أوصى إليه أن يعولهم فعالا

وهذا معنى دندن حوله الشعراء وفاز علي بن جبلة بالإفصاح عنه وقيل إن أبا تمام
أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما
يزيد على عشرين معنى وأهل هذه الصناعة يكثرون ذلك وما هذا من مثل أبي تمام
بكثير فإني أنا عددت معاني المبتدعة التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه
العدة وهي مما لا أنازع فيه ولا أدافع عنه فأما ما ورد لأبي تمام من ذلك قوله

يا أيها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب

وكذلك قوله

راسنا الجود فيك وما عرضنا لسحل منه بعد ولا ذنوب
ولكن دارة القمر استتمت فدلتنا على مطر قريب

وكذلك قوله في الهجاء

وأنت تدير قطب رحا عليا ولم تر للرحا العليا قطبا

ترى ظفرا بكل صراع قرن اذا ما كنت اسفل منه جنبا
ولذلك قوله
واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ولذلك قوله
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنفسه مثلا من المشكاة والنبراس
ولذلك قوله
لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي
ولذلك قوله في الشيب
شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلا صميما
تستثير الهموم ما اكتن منها صعدا وهي تستثير الهموما
والبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تفقه فيه فجعله مسئلة من مسائل الدور
وهذا من اغراب ابي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا لم
نستقصها هاهنا ومن هذا الباب قول ابن الرومي
كل امرئ مدح امرأ لنواله واطال فيه فقد اساء هجاءه
لو لم يقدر ثم بعد المستقى عند الورود لما اطال رشاءه

ولذلك

ولذلك قوله
عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه يكون من الطعام او الشراب
ولذلك قوله
لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها لاوسع مما كان فيه وارغد
اذا ابصر الدنيا استهل كانه بما هو لاق من اذاها يهدد
ولذلك قوله
رددت على مدحي بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيري ومن ذا يقبل المدح الرديدا
وهل للحي في اكفان ميت لبوس بعدما امتلأ صديدا
وقد ورد لابي الطيب المتنبي شيء من ذلك كقوله
اجزني اذا انشدت مدحا فانما بشعري اتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت بعد صوتي فانني انا الصائح المحكي والاخر الصدى
فالبيت الاول قد تواردا على معناه الشعراء قديما وحديثا لكن البيت الثاني في التمثيل
الذي مثله ليس لاحد الا له   ولذلك قوله
يحير سيوفك اغمادها تمنى الطلى ان يكون الغمودا

الى الهام يصدر عن مثله ترى صدرا عن ورده ورودا

وكذلك قوله في بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض فقال

قصدت من شرقها ومغربها حتى اشتكتك الركاب والسبل
لم تبق الا قليل عافيةٍ قد وفدت تجتديكها العلل

وقد وقفت على ما شاء الله من اشعار الفحول من الشعراء قديما وحديثا فلم اجد لاحدٍ منهم في ذكر المرض ما يعد معنى مخترعا لا بل لم اجد من اقوالهم شيئا مرضيا ما عدا المتنبي فانه ذكر المرض في عدة مواضع من شعره فاجاد وهذا البيت الثاني من هذين البيتين معنى مخترع له وقد احسن فيه كل الاحسان ومما ابدعه باجماع قوله في مدح عضد الدولة في قصيدته النونية التي مطلعها

مغاني الشعب طيبا في المغاني — فقال عند ذكر ولديه

فعاشا عيشة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادي ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدوٍّ كاثراه له يائي حروف انيسيان

اي جعل الله ابني عدوٍّ كاثراه يعني ابني عضد الدولة كيائي حروف انيسيان فان ذلك زيادة في العدد وهو نقص في المقدار الا ان سبك هذا البيت قد شوهه واذهب طلاوة المعنى المندرج تحته — ومن معانيه المبتدعة قوله

فان تفق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزال

واحسن

واحسن من ذلك كله قوله

صدمتهم بخميس انت غرته وسمهريته في وجهه غمم
فكان اثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والارواح تنهزم

وهذا من اعاجيب ابي الطيب التي برز فيها على الشعراء ومن الاحسان في هذا الباب قول بعضهم

وقد اشق الحجاب الصعب ما دونه دوني واي ولو جانبوا ان طرقا
كالطيف يابى دخول الجفن منفتحا وليس يدخله الا اذا انطبقا

ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب كتاب التذكرة قد اورد هذين البيتين في كتابه وقال قد اغرب هذا الشاعر ولكنه غلط وجرى على عادة الشعراء لان الطيف لا يدخل الجفن وانما يتخيل الى النفس وهذا كلام من لم يطعم من ثمرة الفصاحة والبلاغة وليس مثله عندي الا ما يحكى عن ملك الروم اذ انشد عنده بيت المتنبي الذي هو

كان العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

فسال عن المعنى ففسر له فقال ما سمعت باكذب من هذا الشاعر انه اناخ الجمال على عينه لا باركه — ومن محاسن هذا القسم قول بعضهم

تخيره الله من آدم فما زال مختدرا يرتقي

وكذلك قول الاخر

باي غزال غازلته مقلتي بين الغوير وبين شطي بارق

عاطيته والليل يسحب ذيله صهبا كالمسك العتيق لناشق
وضممته ضم الكمي لسيفه وذؤاباته حمائل في عاتقي
حتى اذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيا وكان معانقي
ابعدته عن اضلع تشتاقه كيلا ينام على وساد خافق

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الاقصى ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع وبه وبامثاله اقرت الابصار بفضل الاسماع ومن هذا الضرب قول بعض المصريين يهجو انسانا يقال له ابن طليل احرقت داره فقال

انظر الى الايام كيف تسوقنا طوعا الى الاقرار بالاقدار
ما اوقد ابن طليل قط بداره نارا وكان هلاكها بالنار

وكذلك ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر

زد رفعة ان قيل انقص واخفض ان قيل اثرا
كالغصن يدنو ما اكتسى ثمرا وينأى ما تعرى

وهذا من المعاني الرقيقة ومن هذا الاسلوب قول الشاعر المعروف بالحافظ في تشبيه النهار وهو

عيون نرجس كانها سرقت سواد احداقها من الغسق
فان دجا ليلها بظلمته ضمن من خوفها على السرق

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله وهو من اللطافة على ما لا اخفا به ومن هذا القسم قول بعض المتأخرين من اهل زماننا

لا تضع من عظيم قدر وان كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا بالتعدي على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتنجيسها وبالتحريم

ومن غريب ما سمعته في هذا الباب قول بعض الشعراء المغاربة يرثي قتيلا

غدرت به زرق الاسنة بعد ما قد كن طوع يمينه وشماله
فليحذر البدر المنير نجومه اذ بان غدر مثالها بمثاله

وكذلك جا قول بعض المغاربة في الخمر وكاسها وهو

ثقلت زجاجات اتتنا فرغا حتى اذا مليت بصرف الراح
خفت فكادت ان تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالارواح

وهذا معنى مبتدع اشهد انه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ويرق كما رقت لطفا ويفوح كما فاحت نشرا وكذلك ورد قول ابن حمديس الصقلي

يا سالبا قمر السماء جماله البستني للحزن ثوب سمائه
اضرمت قلبي فارتمى بشرارة وقعت بخدك فانطفت في مائه

وهذا المعنى دقيق جدا وقد سمعت في الخال ما شاء الله ان اسمع فلم اجد مثل هذا وقد جاني في الكلام المنثور من هذا الضرب شي وسانا ذكر هاهنا منه نبذة

ومن ذلك ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت ألبس من الحسن أنضر
لباس وخلق من طينة غير طينة الناس وكما ازداد حسنا فكذلك ازداد طيبا وانتقت
فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيبا فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه أو مر على
زهر البنفسج ليلا لتفتحت أحداقه والمعنى الغريب هاهنا أن الشمس إذا طلعت على
البنفسج تفتح وإذا غربت عنه انضم ثم إني سمعت هذا في شعر الفرس لبعض شعرائهم
فحصل عندي منه تعجب ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت الشيب
إعدام لا إيسار وظلام لا أنوار وهو الموت الأول الذي يصلى نارا من الهم أشد وقودا
من النار ولئن قال قوم إنه جلال له فإنهم ذووه ما جلوه وأفتوا في وصفه بغير علم
فضلوا وأضلوا وما أراه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا ومن
عجيب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بعده والخلق الذي يكره نزع برده ولما فقد
الشباب كان عوضا ولا عوض عنه في فقده والمعنى المخترع هاهنا في قولي وما
أراه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا وهو مستنبط من الحديث
النبوي وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى آلة حرث فقال ما دخلت هذه
دار قوم إلا ذلوا فأخذت أنا هذا ونقلته إلى الشيب كما تراه في أعلى درجات
الحسن وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة لأن الشيب يفعل في
البدن ما يفعله المحراث في الأرض وإذا نزل بالإنسان أحدث عنده ذلا ومن
هذا الباب ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الناس أعتب به [illegible] أو أداكسه

مثالبة

مثالبة في كتاب أجمع عليه بنات وردان وحرم على أن أبدأ فيه بالبسملة لأنها من
القرآن وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة وهو مخترع لي وكذلك كتبت إلى بعض
الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت في فصل منه ما أذكره وهو وينبغي
له أن يشكرني على وسمه بعجائبي دون امتداحي فإني لم أسمه إلا بحوم به الأضحية
في يوم الأضاحي ولا شك أن سيدنا معدود في جملة الأنعام غير أنه من ذوات
القرون والقرون عدة عند الخصام وهذا معنى أبدعته ابتداعا ولم أسمعه
لأحد قبلي ومن ذلك ما ذكرته في كتاب يتضمن هزيمة الكفار وذلك فصل منه
فقلت وكانت الوقعة يوم الأحد منتصف شهر كذا وهذا هو اليوم الذي تخيره
الكفار من أيام الأسبوع ونصبوه موسما لشرع كفرهم المشروع فحصل تبابهم
به إذ تضمن للإسلام مزيدا وقالوا هذا يوم فيه أسلم فلا نجعله لنا عيدا وقد أفصح
لهم لسانه لو كانوا يعلمون بأن الدين عند الله هو الإسلام وأن أولياءه هم المسلمون
وهذا معنى انفردت بابتداعه ولم يأت به أحد ممن تقدمني ومن ذلك
ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد وهو في وصف القلم فقلت
وقلم الديوان العزيز هو الذي يخفض ويرفع ويعطي ويمنع وهو المطاع المجدع
أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع ومن أحسن صفاته
أن شعاره من شعار مولاه فهو يخلع على عبيده من الكرامة ما يخلع في هذه
الأوصاف معان حسنة لطيفة ومنها معنى غريب لم أسبق إليه وهو قولي

انه المطاع لجدع انفه واسواد لباسه وقد ورد الامر بطاعة الحبشي الاجدع
فان هذا مما استكرته وهو مستخرج من الحديث النبوي في ذكر الطاعة والجماعة
فقال صلى الله عليه وسلم أطع ولو عبدا حبشيا مجدعا ما أقام عليك كتاب الله
فاستخرجت انا للقلم معنى من ذلك وهو ان القلم مجدع ويقمص لباس السواد فصار
حبشيا اجدع وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في قصيدته السينية
فانه استخرج المعنى المخترع من القرآن وانا استخرجت المعنى المخترع من الخبر
النبوي كما اريتك وهذا المعنى المشار اليه في وصف القلم اوردته بعبارة اخرى
على وجه آخر ونبهت عليه في كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم وهذا كتاب
الفته في صناعة حل الشعر وغيره وبعد هذا فسأقول لك في هذا الموضع قولا
لم يقله أحد غيري وهو ان المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر
والمقابلة فكما انك اذا وردت عليك مسألة من المجهولات تاخذها وتقلبها ظهرا
لبطن وتنظر الى اوائلها واواخرها وتعتبر اوساطها واطرافها وعند ذلك تخرج
بك الفكرة الى المعلوم وكذلك اذا ورد عليك معنى من المعاني فينبغي لك ان تنظر
فيه كنظرك في المجهولات الحسابية الا ان هذا لا يقع في كل معنى فان اكثر المعاني
قد طرق وسبق اليه والابداع انما يقع في معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك الا في
امر غريب يأتي مثله وحينئذ اذا كتب فيه كتاب او نظم فيه شعر فان الكاتب والشاعر
يعثران على مظنة الابداع فيه وقد لابست ذلك في مواضع كثيرة وسأورد منها فيما

ما تجدي حذوه لمن استطاع اليه سبيلا فمن ذلك كتاب كتبته عن نفسي الى بعض
ملوك الشام واهديت اليه رطبا وهو   خلد الله دولة مولانا وعمر لها مجدا
وحبا واخولها السعادة عطاء حسابا وانشأ الليالي لخدمتها عربا اترابا وابقى شبيبتها
بقاء لا تستحدث معه خضابا ولا جعل لها في محاسن الدول ما تساويها أشباها ولا اضرابا
والقى الباس بين اعدائها وحسادها حتى يبعثهم في الارض غرابا اذا اراد العبد ان
يهدوا اليهم قصرت بهم يد وجدهم وعلموا ان كل ما عندهم من عندهم لكن في الاشياء المستطرفة
ما يهدى وان كان قدره خفيفا ولولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شيء من الاشياء
طريفا وقد اهدى المملوك من الرطب ما يوجد بحلي بصبغة الوارس وبزهي بحسنه
حتى كانه لم يدنس بيد لامس وما سمي رطبا الا لاشتقاقه من الرطب الذي هو ضد اليابس
وقد اثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما وفضل شجرته على الشجر بان سماها
اما ولئن عدم عرفا لا ندا فانه لم يعدم منظرا لا بدا ولا طعما ولها اوصاف اخرى
هي لفضله مرتبة الشهود منها انه اول غذاء يفطر عليه الصائم واول غذاء يدخل
بطن المولود واحسن من ذلك انه معدود من الحلو وان كان من ذوات الغراس
ولا فرق بينهما سوى انه من خلق الله وذلك من خلق الناس واذا انصف واصفه قال
ما من ثمرة الا وهي عنه قاصرة ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لقامت ارض
العراق به فاخرة وها قد سار الى باب مولانا وهو مجتنى النابت سار الى مجتنى الكريم
وملك الفاكهة وفد على ملك البشر ولما استقلت به الطريق انشأ الحسد لغيره من

الفواكه أربا وما منها الا من قال يا ليتني كنت رطبا ولئن كان من الثمرات التي تختلف
في الصور والاسما ويفضل بعضها على بعض وتسقى بشرب واحد من الماء فكذلك تلك
الشيم العريقة تجد في عنصرها وهي مختلفة الوتيرة ومن أفضلها شيمة السماح
التي تقبل القليل من عبيدها وتسمح لهم بالعطايا الكثيرة وقد ضرب لها المملوك مثلا
فقال هي كجنة بربوة بل ضرب لها ما ضرب للمثل النبوي وهو نخلة بكبوة ولا يختم
كتابه بأحسن من هذا القول الذي طاب سمعا وزكى أصلا وفرعا وتصرف في أساليب
البلاغة فجاء بها وترا وشفعا والسلام وهذا كتاب غريب في معناه وقد اشتمل على
معان كثيرة فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذي هو ضد اليابس ومن جملتها ان
النبي صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أما فقال أكرموا النخلة ومن جملتها انه كان النبي
صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات فان لم يجد فتمرات ومن جملتها انه كان يلوك
التمرة ويحنك بها المولود عند ميلاده ولما ولد عبد الله بن الزبير جاءت به أمه اسما
بنت أبي بكر رضي الله عنه ووضعته في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاك
تمرة ووضعها في فيه ومن جملتها انه والحلو شيء واحد الا انه من خلق الله وذلك
من خلق الناس ومن جملتها ان العباس رضي الله عنه قال يا رسول الله ان قريشا
تذاكرت أحسابها فضربوا لك مثلا نخلة بكبوة وكل هذه المعاني حسنة واردة
في مواضعها ومن كتب كتابا في معنى من المعاني فليكتبه هكذا والا فليدع ومن
ذلك رقعة كتبتها الى حجاب السلطان في حاجة عرضت لي وأرسلت معها

هدية

هدية من ثياب ودراهم وهي

ما من صديق وان صحت صداقته يوما بأنجح في الحاجات من طبق

اذا تلثم بالمنديل منطلقا لم يخش نبوة بواب ولا غلق

الهدية مشتقة من الهدى غير أنها تزف الى القلب لا الى الندى وصهارتها انفع من
الصهارة وكلما ترددت كانت بكرا فهي لا تنفك عن البكارة ومن خصايصها أنها
تمسك بمعروف أو تسريح وإذا رمت فتح باب لا تفتقر في علاجه الى مفتاح
وقد قيل انها الحسنا المتأنقة في عمارة بيتها التي توصف بالمناديل توضي زينتها
وقد أرسلتها الى المولى وهي تتهادى في اعجابها وتدل بكثرة دراهمها وثيابها وتقول
انا الكريمة في قومها الشريفة في انسابها وأحسن ما فيها أنها جاءت سرا لم تعلم بها
اليد اليمنى من اليسرى فخذها يا مولاي واكشف نقابها وأمط عنها جلبابها وقد
كانت منك حرة وهي الان حيز المملكة ومن السنة في مثلها ان يوخذ بالناصية ويدعى
بالبركة والساير بها فلان وهو في الجهل بها حامل أسفار وناقل لها من دار الى دار
ولربما نطق لسان حالها الذي هو أفصح من نطق اللسان واذكرت بحاجة مرسلها
وحاشى فطانة الكريم من النسيان وليس المطلوب الا فضلة من الجاه تسفر بين
السايل والمسؤول وتنقل البعيد الى درجة القريب والممنوع الى درجة المبذول فاذا
فعل ذلك كان له منه الشفاعة ومنه الانعام وان سمع بان شفيعا واحدا فاز بشكرين
اثنين ففي هذا المقام ومن الناس من يقول ليس على حاجب السلطان ثقل في صنعه وحل

في ص

هاهنا الا كنايات يقال والكلام ماعون لا رخصة في منعه ولم يدر ان ملاطفة
الخطاب ضرب من الاحتيال وان ثقل الخطوات فيه اثقل من نقل الجبال وان صاحب
الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى مرارة السؤال وهذا يقوله الخادم انجابا
لاحسان المولى الذي هو احسان شامل ولا يعلمه الا عالم بفضله ولا يجهله الا جاهل
والله يجعل الحاجات معذوقة ببابه حتى لا ينفك في الدنيا من امداد شكره
وفي الاخرة من امداد ثوابه والسلام   فتأمل ايها الناظر في كلامي هذا الى ما اشتملت
عليه هذه الرقعة من المعاني حتى تعلم كيف تضع يدك فيما تكتبه   ومن ذلك
رقعة اخرى كتبتها في هذا المعنى المقدم ذكره وارسلت معها هدية من المسك
وهي   الهدية رسول يخاطب عن مرسله بغير لسان ويدخل على القلوب من غير
استيذان وقد قيل انها اخت السحر في لطافة قصدها غير انها لا تحتاج الى نفثها
ولا الى عقدها وما من قلب الا وصورتها تجلى عليه في سرقة ولولا شرف مكانها
لما حللت للنبي مع تحريم الصدقة ولها صفات غير هذه كريمة الاخطار حسنة
لدى الاسماع والابصار ومن احسنها انها تستجد ودا وتجعل قريبا ما كان بعيدا
وتقول لنار الاحنة يا نار كوني بردا ولهذا قيل تهادوا تحابوا ولا شك انها صلة
بين المودات فاذا تواصل الناس تقاربوا وقد ارسل الخادم منها شيئا اذا كتمه ذاع واذا
خزنه ضاع وقد شبه به الجليس الصالح في تعدد اسباب الانتفاع ومما زاده مرتبة
على مرتبته انه ونسيم المولى توأمان غير ان نسبته تسمى الى الكرم محتدها وتلك تنمى الى

سرر الغزلان فاذا ورد على مجلسه قيل هذا عطر ورد على جونة عطار وعرف
له حق المشاركة فان ادنى الشرك في الشيم جوار وقد نطق الخبر النبوي بانه احد الثلاثة
التي لا ترد على من اهداها واذا نظر الى محصول ثوابها وفايدتها وجد طولها عمرا
واجداها وهذا الحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم في ارساله واذا سال غيره
في قبول هديته كفاه نص الخبر مؤونة سؤاله والسلام   وهذه الرقعة احسن من
التي قبلها في ما اشتملت عليه من المعاني قولي وما من قلب الا وصورتها تجلى عليه في
سرقة ولولا شرف مكانها لما حللت للنبي مع تحريم الصدقة وهذان المعنيان مستخرجان
من خبرين نبويين احدهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال جاني جبريل عليه السلام
ومعه سرقة من حرير يعني حريرة بيضا وفيها صورة عايشة وقال هذه زوجتك
في الدنيا والاخرة والخبر الاخر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال حرمت علي الصدقة
واحلت لي الهدية   ومما اشتملت عليه ايضا قولي وقد ارسل الخادم منها شيا اذا كتمه
ذاع واذا خزنه ضاع وهذه مغالطة حسنة لان المسك اذا كتم ذاعت رايحته
واذا خزن ضاع اي فاح ويقال ضاع الشي اذا ذهب والمغالطة هاهنا في الجمع بين
الضدين وكذلك قولي وقد شبه به الجليس الصالح وهذا مستخرج من الخبر النبوي
ايضا وذاك انه قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح مثل حامل المسك اما ان
يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه عرفا طيبا ومثل الجليس السو مثل نافخ
الكير اما ان يحرق ثوبك واما ان تجد منه ريحا كريهة ومما اشتملت عليه من المعاني

ايضا قولي انه احد الثلاثة التي لا ترد على من اهداها وهذا مستخرج من الخبر النبوي
ايضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد على مرسلها الطيب والريحان والدهن
ومن ذلك رقعة كتبني بعض اصدقائي املاها عليه وهي رقعة من عاشق الى
معشوق وهي

واذا قيل من تحب تخطاك لساني وانت في القلب ذاكا

يا من لا اسميه ولا اكنيه واذكر غيره وهو الذي اعنيه لا تكن ممن اوتي ملك
الملاحة فلم ينظر في زواله وعرف مكانه من القلوب فجار في ادلاله ولا تغتر بقول
من راى الحسن للاساءة ماحيا واعلم ان اللاحي يقول هي بالدلال لاحيا وكسرا ما يزول
العشق بجنايات الصدود والزيادة في الحد نقصان في المحدود وقد قيل ان الحسن
عليه زكاة كزكاة المال وليست زكاته عند علماء المحبة الا عبارة عن الوصال
وهذه صدقة تقسم على اربابها ولا ينتظر ان يحول الحول في ايجابها فهي مستمرة على
تجدد الايام والمستحقون لها قسم واحد ولا يقال انهم ثمانية اقسام وها ولا
هم المخصوصون بفك الرقاب ورقبة العشق اشد اسرا من رقبة تحرر بالكتاب
فاخرج يا مولاي عن هذا الحق الواجب والافات لطالب مني ومطالب ولا تقل
هذا غريم اكثر عدد الليالي في مطله واعده والمواعيد زاد لمثله فهذه سلعة
قد عاملتني بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ومن لا قول السائرة ان الغنى تجعله
التجربة ماهرا ولعمري ان ممارسة الحب تجد لصاحبه علما وتبصرة وان كان

كما يقال اعمى وقد كذب القائل

عرضن للذي تحب ثم دعه يروضه ابليس

فان كانت الرياضة كما قيل لابليس فما اراه صنعا في الذي صنع واراك استعصيت عليه
استعصاء الفارح واستخدع ولا شك انك تهدم ما يشيده من البناء وانك مستثنى
في جملة من دخل في حكم الاستثناء وانا الان له عاتب وعليه عاتب فاين مكانه التي هي
اخدع من الحبائل واين قوله لابنيهم عن الايمان والشمائل واين جنوده المسترقة ما
في السماء التي تجري من بني ادم مجرى الدماء وكل هذا قد بطل عندي خبره كما بطل عندي
اثره فان ادركته النخوة باني استهزات بتصديق افعاله فليحل المعقول حاجبي هذه
حتى اعلم انه قادر على حل عقاله والا فليحف راسه ولحيه وسواسه وان كان له عرش
على البحر فليقوض من عرشه وليعلم ان السحر ليس في عقده ونفثه ولكنه في الاصفر
ونفسه وها انا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا والود مبذولا وما اقول الا
اني بعثت معشوقا الى معشوق وكلاهما محله القلب بل القلب منهما مخلوق وما
اكرمه وهو وسيلة الى مثله وحسنه من حسنه وان لم يكن شكله من شكله وما
وصفه واصف الا كان ما راه منه فوق ما رواه وما اغرب اوصافه واحسنها
انه لم يرد وجهين وجيها سواه لا جرم انه اذا سفر في امر تلطف في فتح ابوابه
وباول وعره فيذلله [illegible] بعده فيذلله باقترابه ولو بعثت غيره لخفت ان
لا يكون في سفارته صادقا [illegible] كان يمضي رسولا ويعود عاشقا فليس على الحسن

امانة وفي مثله تعذر الخيانة ولا لوم على العقول اذا نسيت هناك عزيمة
رشدها ورأت ما لا تحتمله داهل جهدها ومن الذي يقوى درعه على تلك السهام
او يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام وهذا الذي منعني ان ارسل الا كيسا
او كتابا فاحدهما يكون في السفارة محسنا والآخر على السر حجابا والسلام وفي
هذه الرقعة من المعاني الغريبة ما اذكره فالاول ما ذكرته في قسم الصدقات
وفك الرقاب والثاني ما ذكرته في وصف الدينار وهو انه وجيه وهو ذو وجهين
وقال النبي صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون وجيها وهذا معنى لم يسبقني
احد اليه وقد وصف الحريري الدينار في مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا
المعنى ولا جاء من الاوصاف التي ذكرها بمثله والثالث قولي اني بعثت معشوقا
الى معشوق . وكان توفي زوجة بعض الملوك وتوفي معها ولد لها ابن و
طفل صغير وكان بينهما يومان وتلك المراة بنت ملك من الملوك ايضا فكتب اليه
من الاطراف المجاورة يعزونه وحضر عندي بعض الادباء ممن يحب ان يكون كاتبا
وعرض علي نسخة ما كوتب به ذلك الملك في التعزية بزوجته وولدها فوجدتها
كتابا اورده عنه لا تعرب عن الحادثة بل بينها وبينها بعد المشرقين ومن شرط
الكاتب ان يكون الكتاب مضمنا نص المعنى المقصود والتعازي تختلف لا محالة
فتعازي النساء غير تعازي الرجال وهي من مستصعبات فن الكتابة والشعر
وتعازي الرجال ايضا تختلف فلا يعزى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا

ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق وهكذا تجري الحكم في المعاني جميعها وهذا شيء
لا يتنبه له الا الراسخون في هذا الفن من ارباب النثر والنظوم وسألني ذلك الرجل عن
هذه التعزية المشار اليها في المراة وولدها الصغير وقال احب ان اعلم كيف يكون املته
مطلب عليه فلانه كتب كل كتاب يتضمن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر فمما جاء منها كتاب
انا ذاكره ها هنا وهو اشجى التعازي ما اتبع فيه المفقود بمفقود لا سيما اذا جمع
بين سعد الاخبية وسعد السعود وكل منهما يعظم حزنا كما يعظم مكانا فهذا حسر
عن الوجوه خمرا وهذا يلقي عن الرؤوس تيجانا ولم يوفهما حقهما من بكى ولا من ندب
ولا من شعر ولا من كتب وليت نزوي احدهما بصاحبه فعاش من رزئها المعنى بالذهب

ولو كان خطبا واحدا خف حمله ولكنه خطب اعيد على خطب

وقد اصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه ان يخرج في ثوب من الحداد وان تعثر في اذيال
كلمه والكتاب عنوان الفؤاد وغاية ما عنده ان يقول احسن الله عزاء المجلس السامي
الملكي الاجلي السيدي على ان هذا الدعاء قد شهدت الحال بحجبه فكيف يملك قلبه عزاء
اد وقد اوثقه الهم في سجنه وصار له ولدا دون وليده وحزنا دون حزنه لكن يدعو له بامتداد
البقاء وان تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الابقاء ثم يتبع ذلك بطلب الجنة
لمن نقلته المنايا عن ارائك الخدور وجعلته في بطون القبور ولمن فاجأت الايام
غصنه فقصفته ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته فواها لهما وقد نزلا بين اعينهم
الايناس وان كان ما هو لا بالكرى الناس فهو الغريب دارا البعيد مزارا الذي يجب من

الياس بامنع حجاب ووهب عز الوجوه المنعمة لذل التراب فمن كان مسعد المجلس
فليأخذ بقوله الجزع لا بعزيمة الاصطبار وليقل هذا حادث بان بعينه حامل الاقدار
وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الابصار فالاسوة الابنة
مفقودة من الاحسان والسلوة الا عنه داخلة في حيز الامكان والخادم اولى
من لقي المجلس فيه بالاسعاد وقام بما يجب من قضاء حق الوداد وفعل ما يفعله
القريب الحاضر وان كان على شقة من البعاد وقد ارسل من ينوب عنه في التعزية
وان لم يكف فيها المناب وكما رخص العذر في قصر الصلاة فلذلك رخص في الاقتصار
على الرسول والكتاب وقد ود لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحابا
وعفر عنده ركابا ويسأل الله له مغفرة وثوابا والسلام   وفي هذا الكتاب معنى
غريب وهو قولي سعد الاخبية كناية عن المراة وسعد السعود كناية عن والدها
لان سعد الاخبية اسم منزل من منازل القمر والاخبية جمع خباء ومن شان المراة
ان تحتجب في الاخبية فنبه سعدها وهذا من المعاني الغريبة في مثل هذا المقصد
وقد اتفق سعد الاخبية وسعد السعود معا وهذا ايضا غريب ومن ذلك
اني كتبت كتابا عن الملك الافضل علي بن يوسف بن ايوب الى اخيه الملك الظاهر غازي
بن يوسف صاحب حلب في امر شخص كان ابوه صاحب تكريت وهذه تكريت كان
يتولاها الامير ابو جد الملك الافضل والملك الظاهر وولد بها والد صلاح
الدين يوسف ابيهما وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لامر

لمعنا

طرا

طرا لهم وجاؤوا الى الموصل ثم الى الشام وهناك سعدوا وكانت السعادة على يد صلاح
الدين يوسف فلما اردت ان اكتب هذا الكتاب علمت انه مظنة المعاني المبتدعة لان
الامر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله فحينئذ كتبت هذا الكتاب وهو
رفع الله شان مولانا الملك الظاهر ولا زال الدهر فاخرا باثر سلطانه ناظما
مناقبه في جيده ومحامده في لسانه ناسخا بمساعي دولته ما تقدم من مساعي آل
بويه وآل حمدانه كان الخادم هذا وارد من بيت الامير شمس الدين بن صاحب
تكريت وهي اول ارض مس جلده ترابها ورقمت السعادة على جبينه كتابها
ومنها اظهر نور البيت الايوبي مشرقا واشام اذ خرج مغربا وكفاه بذلك وسيلة
يكتنفها الاحسان والارعاء ويلقى صاحبها ان يقول لا اسعى حتى يصدر الرعاء
وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التي توجب لقاصدها ذماما ويقول له سلاما
اذا قال سلاما ثم ثلثها بابن الوسيلتين بكتاب الخادم اخذا بالسنة النبوية في الدعاء
وعدده وتفاؤلا بتثليث النجوم فيما تقصده المرء من سعادة مقصده ولا قدح في
كرم الكريم اذا استكثر طالبه من الاسباب فان الله على كرمه قد استكثر
اليه من اعمال الثواب وكتاب الخادم على انفراده كاف لحامله ومكثر من حقوق
وسائله وقد صدر محافظا عن نجوى ضميره فانما يحق السفارة اذا اعقد كل طالب
سعي سفيره وهو مع ذلك خفيفة صفحته وخصره لمحته واذا وجد لدى مولانا
معولا فليس عليه ان يرد مطولا اذ التعويل على نجح مصدره لا على كثرة اسطره ناظر

أيها المتأمل إلى هذا الكتاب وأعطه حقه من التأمل حتى ترى ما اشتمل عليه من
المعاني وانظر كيف ذكرت المعنى الأول ثم الثاني ثم الثالث أما المعنى الأول
فإنه يختص بذكر سعادة البيت الأيوبي ومنشأها وأنها ولدت بتكريت وهذا
الرجل ينبغي أن يرعى بسببها إذ كان أبوه صاحبها وأما المعنى الثاني فإنه قصد
الخدمة الظاهرية وهذا وسيلة بانية توجب له ذماما وأما المعنى الثالث
فإنه حرمة الكتاب الصادر على يده ثم إني مثلت ذلك بالدعاء النبوي وبتثليث النجوم
بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا دعا ثلاثا وإنما مثلت ذلك بالدعاء لأمرين
أحدهما أنه موضع سؤال وضراعة والآخر أن الكتاب وسيلة بالثناء والدعاء
ثلاث مرار وأما تثليث النجوم فإن التثليث سعد والتربيع نحس وأحسن المعاني الثلاثة
التي تضمنها هذا الكتاب هو الأول والثالث وأما الثاني فإنه متداول فتأمل ما أشرت
إليه وإذا شئت أن تكتب كتابا فافعل كما فعلت في هذا الكتاب إن كان الأمر الذي
تكتب فيه غريب الوقوع • واعلم أنه قد يقع المعنى المبتدع في غير أمر غريب الوقوع
وذلك يكون قليلا بالنسبة إلى الوقائع الغريبة التي هي مظنة المعاني المبتدعة
ومن هذا الباب ما أوردته من جملة رسالة طردية في وصف قسي
البندق وحامليها وهو فإذا أتانا ولوها في أيديهم قيل أهلة طالعة من أكف
أقمار وإذا امتثل غناها وغناؤهم قيل منايا مسوقة بأيدي أقدار وتلك قسي وضعت
للسبق لا للنضال ولردى الأطيار لا لردى الرجال وإذا نعتها ناعت قال إنها

جمعت

جمعت بين وصفي اللين والصلابة وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة
فهي مركبة من حيوان ونبات مؤلفة منهما على بعد الشتات فهذا من سكان البحر
وسواحله وهذا من سكان البر ومجاهله ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلا حين
تشد ولا تنطلق في شأنها إلا حين تعطف وترد ولها بنات أحكم تصويرها وصحح
تدويرها فهي في لونها صندلية الإهاب وكأنما صبغت لقوتها من حجر لا من
تراب فإذا قذفتها إلى الأطيار قيل ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد
ولا ترى حينئذ إلا قتيلا ولكن بالمثقل الذي لا يجب في مثله قود فهي كافلة من تلك
الأطيار بقبض نفوسها منزلة لها من جو السماء على أم رؤوسها وهذا الفصل يشتمل
على معان غريبة منها قولي إنها لا تتمكن من البطش إلا حين تشد ولا تنطلق في
شأنها إلا حين تعطف وترد ومنها قولي ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد
وكل هذا من المعاني التي تبتدع بالنظر إلى المقصود المكتوب فيه فإن الكاتب إذا
أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادرا على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين
مقصده جاء هكذا كما تراه إلا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه فما كل خاطر
حكيم ولا كل من أوحي إليه بكليم وفي الأقلام هاشمي ناواه ومنها هشيم وسأ
في هذا الموضع على طريق يسلك إلى شيء من المعاني المخترعة فهو ما استخرجته
وانفردت باستخراجه دون غيري فإن المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد
بالإشارة إلى طريق يسلك فيها لأن ذلك مما لا يمكن ومن ها هنا أضرب عنها

تنبيه

البارز عنه ولم يتطرقوا فيه كما تطرقوا في غيره وكيف تقيد المعاني المخترعة بقيد او يوضع
ومنهج البها طريق وهي ياتي من بعض الناس بغير تعليم ولهذا اختص بها بعض الناثرين بسبك صح
والناظمين دون بعض والذي يختص بها يكون فذا واحدا يوجد في الزمن المتطاول
ولما مارست انا هذا الفن اعني فن الكتابة وقلبته ظهرا لبطن وفتشت عن دفاينه
وخباياه واكثرت من تحصيل مواده والاسباب الموصلة الى الغاية منه سنح
لي في شي من المعاني المخترعة طريق سلكته وهو مستخرج من كتاب الله تعالى واخبار نبيه
نبيه صلوات الله عليه وقد تقدم لي امثلة منه في هذا الكتاب وذاك انه
ترد الاية من كتاب الله او الحديث النبوي والمراد بهما معنى من المعاني فاخذ
انا ذلك وانقله الى معنى آخر فيصير مخترعا لي وساوردها هاهنا نبذة يسيرة
يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك اليها في الطريق التي سلكته فمن ذلك قصة
اصحاب الكهف والرقيم فاني اخذت ذلك ونقلته الى الاحسان والشكر
الا ترى ان الاحسان يستعار له كهف وكنف وظل واشباه ذلك والشكر قد
يقال في التنويه بذكر المحسن واحسانه والرقيم هو الكتاب المكتوب فهو والشكر
مثلان والذي اتيت به قد اوردته وهو فصل من كتاب الى بعض المنعمين الخادم
يشكر احسان المولى الذي ظل عنده مقيما وغدا بمطالبه زعيما واصبح بنواله
مغرما كما اصبح له غريما ولما تمثل في الاشتمال عليه كهفا صار شكره فيه
رقيما فانظر كيف فعلت في هذا الموضع ليعلم اني قد فتحت لك فيه طريقا تسلكه

واما

واما الحديث النبوي فاني اخذت قصة قتلى بدر كابي جهل وعتبة وشيبة وامية
بن خلف وغيرهم ونقلتها الى القلم وذاك ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على
القليب الذي القاهم فيه وناداهم باسمايهم فقال يا عتبة يا شيبة يا ابا جهل يا
فلان يا فلان والحديث مشهور لا حاجة الى استقصايه والذي اتيت به في وصف
القلم هو اني قلت ولقد مرح القلم في يدي وحق له ان يمرح وابدع فيما اتى به
وكل اناء بما فيه ينضح ومن فضله انه استعلى على اعواد المنبر فلم ينبه من خطبته
الى فصلها ووقف على القليب الا انه لم يناد من المعاني اباجهلها فالدواة قليب والقلم
يقف عليه والمعاني التي يشبها من باب العلم لا من باب الجهل فتامل هذه الكلمات التي
ذكرتها هاهنا فانها لطيفة جدا وهي مخترعة لي وهذا القدر كاف في طريق
التعليم ليحتذى حذوه ان امكن والله الموفق للصواب

واما الضرب الآخر من المعاني وهو الذي يحتذى فيه على مثال سابق
ومنهج مطروق فذلك جل ما استعمله ارباب هذه الصناعة لذلك قال عنترة

هل غادر الشعراء من متردم

الا انه لا ينبغي ان يرسخ هذا
القول في الاذهان لئلا يوئس من الترقي الى درجة الاختراع بل يعول على القول
المطمع في ذلك وهو قول ابي تمام

لا زلت من شكري في حلة ... لابسها ذو سلب فاخر
يقول من تقرع اسماعه ... كم ترك الاول للآخر

وعلى الحقيقة فإن في زوايا الأفكار خبايا وفي أبكار الخواطر سبايا لكن قد تقاصرت
الهمم ونكصت العزائم وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول وليته تبعه ولم يقصر
عنه تقصيراً فاحشاً وقد وقفت على كتاب يقال له مقدمة ابن أفلح البغدادي قد قصرها على
تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها
ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشوراً لا لب تحتها الآن غاية ما عند الرجل أن يقول
وأما الفصاحة فإنها كقول النابغة مثلاً أو كقول الأعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتاً من
الشعر أو أبياتاً وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى إذا وردت في كلام عرفنا
أنه فصيح بما عرفناه من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول في غير الفصاحة ومن
أعجب ما وجدت في كتابه أنه قال أما المعاني المبتدعة فليس للعرب منها شيء وإنما
اختص بها المحدثون ثم ذكر للمحدثين معاني وقال هذا المعنى لفلان وهو غريب وهذا
القول لفلان وهو غريب وتلك الأقوال التي خص قائليها بأنهم ابتدعوها قد سبقوا
إليها فإما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب وإما أنه لم يقف على أقوال الناظمين
والناثرين ولا تبحر فيها حتى عرف ما قاله المتقدم مما قاله المتأخر وأما قوله إنه ليس
للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين فيا ليت شعري من السابق إلى المعاني من تقدم
زمانه أم من تأخر زمانه وأنا أورد هنا شيئاً يستدل به على إبطال ما ذكره وذاك
أنه قد ورد من المعاني أن صور المنازل تمثلت في القلوب فإذا عفت آثارها لم يعف
صورها من القلوب وأول من أتى بذلك العربي فقال الحرث بن خلد من أبيات الحماسة

اني وما نحروا غداة منى عند الجمار تؤودها العقل

لو بدلت أعلى مساكنها سفلاً وأصبح سفلها يعلو

لعرفت مغناها بما ضمنت مني الضلوع لأهلها قبل

ثم جاء المحدثون من بعده فانسحبوا على ذيله وحذوا حذوه فقال أبو تمام

وقفت وأحشائي منازل للأسى به وهو قفر قد تعفت منازله

وقال البحتري

عفت الرسوم وما عفت أحشاؤه من عهد شوق ما يحول فيذهب

وقال المتنبي

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء حتى إنه ما من شاعر إلا ويأتي به في شعره وكذلك
ورد لبعضهم من شعراء الحماسة

أناخ اللؤم وسط بني رياح مطيته وأقسم لا يريم

كذلك كل ذي سفر إذا ما تناهى عند غايته يقيم

وهذا المثال من أبيات المعاني المبتدعة وعلى أثرها مشى الشعراء وكذلك ورد
لبعضهم من شعراء الحماسة

تركت ضأني تود الذئب راعيها وأنها لا تراني آخر الأبد

الذئب يطرقها في الدهر واحدة وكل يوم تراني مدية بيدي

ولذلك ورد قول الاخر

قوم اذا ما جني جانيهم امنوا للوم احسابهم ان يغلبوا قودا

وكم للعرب من هذه المعاني التي سبقوا اليها ومن ادل الدليل على فساد ما ذهب اليه
من ان المحدثين هم المخصوصون بابتداء المعاني ان اول من بكى على الديار في شعره رجل يقال
له بن خذام فكان هو المبتدي لهذا المعنى اولا وقد ذكره امرؤ القيس في شعره فقال

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى بن خذام

وقد اجمع نقلة الاشعار ان لامرئ القيس في صفات الفرس اشيا كثيرة لم يسبق اليها
وكذلك النابغة وان له في الاعتذارات اشيا لم يسبق اليها ولا قيلت من قبله وبلغني
من هذا الطه ما قدمت القول فيه وهو ان العرب هم السابقون بالشعر وزمانهم هم
الاول فكيف يقال ان المتاخرين هم السابقون الى المعاني وفي هذه الامثلة التي اوردتها
كفاية في نقض ما ذكره ولو قال ان المحدثين اكثر ابتداعا للمعاني والطف اخذا وادق
نظرا لكان قوله صوابا لان المحدثين عظم الملك الاسلامي في زمانهم ورا وما لم يره
المتقدمون وقد قيل ان اللهى يفتح اللها وهو كذلك فان نفاق السوق جلاب وقد رايت
جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الاسجاع التي لا حاصل
وراها ولا كبير معنى تحتها واذا اتى احدهم بلفظ مسجوع على اي وجه كان من الغثاثة
والبرد يعتقد انه قد اتى بامر عظيم ولا يشك في انه قد صار كاتبا مفلقا واذا نظر
الى كتاب زمانه وجد وكذلك فقاتل الله القلم الذي يمشي بيد الجهال الاغمار ولا يعلم

صوابه
ابن خذام بالخا المعجمة والزاي وعليه قول المسي
وكان كل سحابة وقفت بها
تبكي بعيني عروة بن خزام
قال الامام الواحدي في شرح
البيت عروة بن خزام يضرب
به المثل فانه اول من بكى
في الاطلال ووقف على
ديار الاحبة ثم اقتدى
به ساير الشعرا انتهى كلام
الواحدي وصوابه هو هذا
لا خذام حرره
محمد بن ...

انه كجواد يمشي تحت حمار ولو انه لا يتطاول اليه الا اهله لبان الفاضل من الناقص
على انه كالرمح الذي اذا اعتقله حامله بين الصفين بان به المقدم من الناكص وقد اصبح
اليوم في يد قوم هم احوج من صبيان المكاتب الى التعليم وقد قيل ان الجهل دا
لا يشفى منه الا بسقم السقيم وهولاء لا ذنب لهم لانهم لولم يستخدموا في الدول ويستكتبوا
والا ما ظهرت نجاساتهم وفي امثال العوام لا تعر الاحمق شيئا فيطنه له وكذلك يجري
الامر مع هولاء فانهم استكتبوا في الدول فظنوا ان الكتابة قد صارت لهم بحق واجب
ومن اعجب الاشياء اني لا ارى الا طامعا في هذا الفن مدعيا له على خلوه عن تحصيل
الاته واسبابه ولا ارى احدا يطمع في فن من الفنون غيره ولا يدعيه هذا وهو
بحر لا ساحل له يحتاج صاحبه الى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهي اليه ويحوي عليه
فسبحان الله هلا يدعي بعضها ولا يراه فقيها او طبيبا او حاسبا او غير ذلك من
غير ان يحصل الات ذلك العلم ويتقن معرفتها فاذا كان العلم الواحد من هذه
العلوم التي يمكن تحصيله في سنة او سنتين من الزمان لا يدعيه احد منها ولا على
جهله به فكيف يجيء الى فن الكتابة وهو مما لا تحصل معرفته الا في سنين كثيرة وبتعب
وهو جاهل به ومما رايته من المدعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور
ونصروا معرفتهم به على الالفاظ المسجوعة الغثة التي لا حاصل وراها بهم
اذا انكرت عليهم هذه الحال وقيل لهم ان الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطئ
الفقر على حرف واحد فقط اذ لو كان عبارة عن هذا وحده لامكن اكثر الناس

ان يأتوه من غير كلفة وانما هو امر وراء هذا وله شروط متعددة فاذا اسمعوا
ذلك انكروه لخلوهم عن معرفته ثم ولو عرفوه واتوا به على الوجه الحسن من
اختيار الالفاظ لاحتاجوا الى شرط آخر قد نبهت عليه في باب السجع واذا انكر
عليهم الاقتصار على الالفاظ المسجوعة وهذه الطريق للمعاني يقولون لنا اسوة
بالعرب الذين هم ارباب الفصاحة فانهم انما اعتنوا بالالفاظ ولم يعتنوا بالمعاني
اعتنائهم بها فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادعوا الاسوة بالعرب فيه فصارت
جهالتهم جهالتين ولنذكر هاهنا في الرد عليهم ما اذا تامله الناظر في كتابنا عرف
منه ما يوثقه ويذهب به في الاستحسان كل مذهب فنقول اعلم ان العرب
كما كانت تعتني بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعاني اقوى عندها واكرم
عليها واشرف قدرا في نفوسها فاول ذلك عنايتها بالفاظها لانها لما كانت
عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها اصلحوها وزينوها وبالغوا في
تحسينها ليكون ذلك اوقع لها في النفس واذهب بها في الدلالة على القصد
الا ترى ان الكلام اذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه واذا لم يكن مسجوعا لم
يانس به انسه في حالة السجع فاذا رايت العرب قد اصلحوا الفاظهم وحسنوها
ورققوا حواشيها وصقلوا اطرافها فلا تظن ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ
فقط بل هي خدمة منهم للمعاني ونظير ذلك ابراز صورة الحسناء في الحلل الموشية
والاثواب المحبرة فانا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة

لفظه

لفظه وسوء العبارة عنه فان قيل انا نرى من الفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه
ولسنا نرى تحته مع ذلك معنى شريفا فمما جاء منه قول بعضهم

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالاركان من هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا ... وسالت باعناق المطي الاباطح

الا ترى الى حسن هذا اللفظ وصقالته وتدبيج اجزائه ومعناه مع ذلك ليس
مدانيا له ولا مقاربا فانه انما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا
على ظهور الابل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الالفاظ مشروفة المعاني والجواب
عن ذلك انا نقول هذا الموضع قد سبق الى التشبث به من لم يمعن النظر فيه ولا
راى ما اراه القوم وانما ذلك لجفاء طبع الناظر وعدم معرفته وذلك ان في قول
هذا الشاعر كل حاجة ما يستفيد منه اهل النسيب والرقة والاهواء والمقة
ما لا يستفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم الا ترى ان حوائج منى اشياء كثيرة
فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي للاجتماع الى غير ذلك مما هو تال له ومعقود
الكون به فكان الشاعر صانع عن هذا الموضع الذي اومى اليه وعقد غرضه
عليه بقوله في آخر البيت ومسح بالاركان من هو ماسح اي انما كانت حوائجنا التي
قضيناها واربنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الاركان وما هو لاحق
به وجار في القربة من الله مجراه اي لم يتعد هذا القدر المذكور الى ما يحتمله اول
البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح واما البيت الثاني فان فيه اخذنا باطراف

سبحان الله عز وعلا كل موضع [illegible] الكتب [illegible] الا [illegible] النبح فيه [illegible] جعل [illegible] ماله [illegible]

الأحاديث بيننا وفي هذا ما نذكره لنتعجب به ونعجب منه ومن وضع من معناه وذاك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا ونحو ذلك لكان فيه ما ينكره أهل النسيب فإنه قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين والجدل بجمع شمل المتواصلين ألا ترى إلى قول بعضهم

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقول الآخر

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز

وإذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا فإن في ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وإذا كان الأمر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشد تقدما في نفوسهم من لفظهما وإن عذب موقعه ولذ مستمعه نعم وفي قول الشاعر

وسالت بأعناق المطي الأباطح

من لطافة المعنى وحسنه ما لا خفاء به ولنبينه على ذلك فأقول إنهما لما أرادوا القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من يشتد ويغلبه السهو في أمر من الأمور وبما كان

الأمر كذلك وارتخت الأزمة عن الأيدي أسرعت المطايا في المسير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض في سرعته وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه والذي لا يمعن نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى فالعرب إنما تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالألفاظ إذن خدم للمعاني والمخدوم لا شك أشرف من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه

النوع الأول في الاستعارة

ولنقدم قبل الكلام في هذا الموضع قولا جامعا فنقول اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة وأوصافا عامة فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ وكا[illegible] فيما يرجع إلى المعنى وهذا الموضع الذي نحن بصدد ذكره وهو الاستعارة كثير الإشكال غامض الخفاء [illegible] وفيه [illegible] ذا ما استخرجته ولم أسمع فيه قولا لغيري وكنت قدمت القول في الف[illegible] التاسع من مقدمة الكتاب في ما يختص بأيان المجاز وإن[illegible] ذهب إلى أن الكلام [illegible] المجاز فيه وأقمت الدليل على ذلك ولا حاجة إلى إعادته [illegible] بل الذي أذكره هاهنا يختص بالاستعارة التي هي جزء من المجاز ولم سميت بهذا الاسم وكشفت عن حقيقتها وميزتها على التشبيه المضمر الأداة والكلام في هذا يحتاج إلى إعادة ذكر المجاز وإن تطال فيه القول [illegible] والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم إلى قسمين توسع في الكلام وتشبيه والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف

بلغ المقابلة بالأصل المنقول منه

التشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه
دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع له للفرق بينه وبين التشبيه التام
وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة
لاشتراكهما في المعنى وأما التوسع فإنه يذكر للتصرف في اللغة لا لفائدة أخرى
وإن شئت قلت إن المجاز ينقسم إلى توسع في الكلام وتشبيه واستعارة ولا يخرج
عن أحد هذه الأقسام الثلاثة فأيها وجد كان مجازا وإن قيل إن التوسع شامل
لهذه الأقسام الثلاثة لأن الخروج من الحقيقة إلى المجاز اتساع في الاستعمال
قلت في الجواب إن التوسع في التشبيه والاستعارة جاء ضمنا وتبعا ولم
يكن هو السبب الموجب لاستعمالها وأما القسم الآخر الذي هو لا تشبيه ولا
استعارة فإن السبب في استعماله هو طلب التوسع لا غير وبيان ذلك أنه قد ثبت
أن المجاز فرع على الحقيقة فإن الحقيقة هي الأصل وإنما يعدل عن الأصل إلى الفرع
لسبب اقتضاه وذلك السبب الذي يعدل به عن الحقيقة إما [illegible]كون لمشاركة
بين المنقول والمنقول إليه في وصف من الأوصاف وإما أن يكون لغير مشاركة
فإن كان لمشاركة فإما أن يذكر المنقول والمنقول إليه معا وإما أن يذكر المنقول
دون المنقول إليه فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معا كان ذلك تشبيها والتشبيه
تشبيهان تشبيه مظهر الأداة كقولنا زيد كالأسد وتشبيه مضمر الأداة
كقولنا زيد أسد وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خلطه بالاستعارة ولم

مرحوا

يفرق بينهما وذلك خطأ محض وسأوضح وجه الخطأ فيه وأحقق القول في
الفرق بينهما تحقيقا جليا فأقول أما التشبيه المظهر الأداة فلا
حاجة لنا إلى ذكره هاهنا لأنه معلوم لا خلاف فيه لكن نذكر التشبيه المضمر
الأداة الذي وقع فيه الخلاف فنقول إذا ذكر المنقول والمنقول إليه
على أنه تشبيه مضمر الأداة قيل فيه زيد أسد أي كالأسد فأداة التشبيه فيه
مضمرة مقدرة وإذا أظهرت حسن ظهورها ولم يقدح في الكلام الذي أظهرت
فيه ولا يزيل عنه فصاحة ولا بلاغة وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول دون
المنقول إليه فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه ومتى أظهرت زال عن
ذلك الكلام ما كان متصفا به من حسن وفصاحة وبلاغة وهذا هو الاستعارة وضرب
له مثلا أبو صخرة فنقول قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيه فلا يقال عجل كالقضيب وأبطأ
كالدعص والفرق إذن بين التشبيه المضمر الأداة وبين الاستعارة أن التشبيه
المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن ذلك
فيها وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذي هو
المنقول إليه ويكتفى بذكر المستعار الذي هو المنقول فإن قيل لا نسلم أن الفرق بين
التشبيه وبين الاستعارة ما ذهبت إليه بل الفرق ثم إن التشبيه إما يكون

بأداته كالكاف وكأن وما جرى مجراهما فلم يظهر فيه أداة التشبيه لا يكون
تشبيهًا وإنما يكون استعارة فإذا قلنا زيد أسد كان ذلك استعارة وإذا قلنا زيد
كالأسد كان ذلك تشبيهًا قلت في الجواب عن ذلك إذا لم يجعل قولنا زيد أسد
تشبيهًا مضمر الأداة وإلا استحال المعنى لأن زيدًا ليس أسدًا وإنما هو كالأسد في
شجاعته فأداة التشبيه تقدّرها ههنا ضرورة لكيلا يستحيل المعنى بأن يقال
وكذلك أيضًا إن لم تقدّر أداة التشبيه في الاستعارة وإلا استحال المعنى
لأنا إذا قلنا عجل القضيب وأبطا الدعص فلم يقدّر فيه أداة التشبيه وإلا
استحال معناه قلت في الجواب عن ذلك تقدير أداة التشبيه لا بد منه
في الموضعين لكن يحسن إظهارها في التشبيه دون الاستعارة وجملة الأمر
أنا نرى أداة التشبيه يحسن إظهارها في موضع دون موضع فعلمنا أن
الموضع الذي يحسن إظهارها فيه غير الموضع الذي لا يحسن إظهارها فسمّينا
الذي يحسن إظهارها فيه تشبيهًا مضمر الأداة والذي لا يحسن إظهارها فيه
استعارة وإنما فعلنا ذلك لأن نسمّيه ما يحسن إظهار أداة التشبيه فيه
بالتشبيه البتة ونسميه ما لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة البتة
فإذا قلنا زيد أسد يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بأن نقول زيد كالأسد وإذا
قلنا كما قال الشاعر

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطا الدعص

لا

لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه على ما تقدم من ذكر ذلك أولًا فإن قيل إذا
أخرت إضمار أداة التشبيه وقدرت إظهارها في قولك زيد أسد أي كالأسد
فنحن نضمر أيضًا المستعار له ونقدر إظهاره فإنه لما قال الشاعر

عجل القضيب وأبطا الدعص

أضمر المستعار له وهو القد والردف
وإذا أظهر فقيل عجل قده كالقضيب وأبطا ردفه كالدعص ولا فرق بين الإضمارين
فكما يسعك إضمار أداة التشبيه في قولك زيد أسد فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار
له في قول الشاعر الجواب عن ذلك أني أقول نحن في هذا المقام وأقول
مع الاستحسان لا مع الجواز ولو تأملت ما أوردته في أول كلامي بالعين الصحيحة
لما أوردت على هذا الاعتراض ههنا فإني قلت التشبيه المضمر الأداة يحسن
إظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها
ولو قلت يجوز أو لا يجوز لورد علي هذا الاعتراض الذي ذكرته وقد علم وتحقق
أن من الواجب في حكم الفصاحة والبلاغة ألا يظهر المستعار له وإذا أظهر
ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق ألا ترى أنا إذا أوردنا هذا البيت
الذي هو

فأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت وردًا وعضت على العناب بالبرد

وجد عليه من الحسن والرونق ما لا خفاء به وهو من باب الاستعارة فإذا أظهرنا
المستعار له صرنا إلى كلام غث وذاك أن نقول فأمطرت دمعًا كاللؤلؤ من عين

كالنرجس وسقت خدا كالورد وعضت على انامل مخضوبة كالعناب باسنان
كالبرد وفرق بين هذين الكلامين للمتامل واسع وهكذا يجري الحكم في البيت
المقدم ذكره وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها عجل القضيب وابطا الدعص

فان هذا البيت لا خفا بما عليه من الحسن واذا اظهر فيه المستعار له زال
ذلك الحسن عنه لا بل تبدل بضده وليس كذلك التشبيه المضمر الاداة فانا اذا
اظهرنا اداة التشبيه او اضمرناها كان ذلك سوا اذ لا فرق بين قولنا زيد اسد
وبين قولنا زيد كالاسد وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة فضلا عن
عالم والمعول عليه في تاليف الكلام من المنثور والمنظوم انما هو حسنه وطلاوته فاذا
ذهب ذلك عنه فليس بشي وبين في الذي نورده في هذا الكتاب وانفق من الحسن
لا مع الجواز ثم ولو نزلنا معك ايها المعترض عن درجة الحسن الى درجة الجواز
لما استقام لك ما ذكرته وذاك ان اضمار اداة التشبيه ظاهر في قولنا زيد اسد
اي كالاسد وهو مضمر واحد واما قول الشاعر

فرعاء ان نهضت لحاجتها

فانه لا يضمر فيه اداة التشبيه الا بعد ان يظهر
المستعار له وحينئذ يكون فيه اضماران احدهما المستعار له والاخر اداة التشبيه
واضمار واحد ايسر من اضمارين احدهما معلق على الاخر واذا كان الامر كذلك
فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من ان الاستعارة

لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فتامل ما اشرت اليه وتدبره حتى تعلم اني ذكرت
ما لم يذكره احد غيري على هذا الوجه وانما سمي هذا القسم من الكلام استعارة لان
الاصل في الاستعارة المجازية ماخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة
وهي ان يستعير بعض الناس من بعض شيا من الاشيا ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما
سبب معرفة ما يقتضي استعارة احدهما من الاخر واذا لم يكن بينهما سبب معرفة
بوجه من الوجوه فلا يستعير احدهما من الاخر شيا اذ لا يعرفه حتى يستعير منه
وهذا الحكم جار في استعارة الالفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين في نقل
المعنى من احدهما الى الاخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشي المستعار من احدهما
الى الاخر واعلم انه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر
الاداة معا باختلاف القرينة وذاك ان يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره
فينقل من ذلك الى غيره ويرتجل ارتجالا فمما جا منه قول البحتري

اذا سفرت اضاءت شمس دجن ومالت في التعطف غصن بان

فلما قال اضاءت شمس دجن بنصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير في قوله اضاءت كانه
قال اضاءت هي وهذا تشبيه لان المشبه مذكور وهو الضمير في هي الذي نابت عنه التا
ويجوز حمله على الاستعارة بان يقال اضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير
حينئذ الى من تقدم ذكره وانما يكون الكلام مرتجلا ويكون البيت

اذا سفرت اضاءت شمس دجن ومالت في التعطف غصن بان

وهذا الموضع فيه دقة وغموض وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني وأما القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام وهو سبب صالح إذ التوسع في الكلام مطلوب وهو ضربان أحدهما يرد على وجه الإضافة واستعماله قبيح لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه وذاك لأنه يلحق بالتشبيه المضمر الأداة وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن كقول أبي نواس

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فقوله بح صوت المال من الكلام النازل المرذول ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى

تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاما

وكذلك ورد قول أبي نواس أيضا

ما لرجل المال أضحت تشتكي منك الكلالا

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت ومن هذا الضرب قول أبي تمام

وكم أحرزت منكم على قبح قدها صروف النوى من مرهف حسن القد

فإضافة القد إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد وإنما أوقعه فيه الملائمة بين القد والقد وهذا دأب الرجل في تتبع الملائمة تارة والتجنيس أخرى حتى إنه ليخرج إلى ما يعاب به أقبح عيب وأفحشه ولذلك قوله

بلوناك أما كعب عرضك في العلى فعال وأما خد مالك أسفل

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل إلا أنه عبر عنه أقبح تعبير وأبو تمام يقع في مثل ذلك كثيرا وأما الضرب الآخر من التوسع فإنه يرد على غير وجه الإضافة وهو حسن لا عيب فيه وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنهما جماد والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد ولا مشاركة هاهنا بين المنقول والمنقول إليه وكذلك قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والأرض وعليه ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم فإنه نظر إلى أحد يوما فقال هذا جبل يحبنا ونحبه فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع إذ لا مشاركة بينها وبين الجبل الذي هو جماد وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ومساءلة الأحجار كقول أبي تمام

أميدان لهوي من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

وكقول أبي الطيب المتنبي

أثلث فإنا أيها الطلل نبكي وترزم تحتنا الإبل

هذا الذي نقله الشيخ رحمه الله هو مذهب أهل السنة والجماعة وأما الفلاسفة فإنهم قبحهم الله يقولون بأن للسموات حياة واختيارا إلى غير ذلك مما هو معروف من مذهبهم في كتبهم فائدة ما السنة في قولهم أهل السنة والجماعة والجواب أنها السنة التي يكفر تاركها وهي الدين أي الإيمان وما يتبعه من قوله تعالى هذه سبيلي فهي السنة المذكورة في قوله سبيلي وهي دين الإسلام

فابو تمام يسايل ربوعا عافية واطلالا دارسة ولا وجه هاهنا للمسايلة الا على ما الذي
ورد في قوله تعالى واسئل القرية اي اهل القرية وكل هذا توسع في الكلام اذ لا مشاركة
بين رسوم الديار وبين فهم السوال والجواب وكذلك قال ابو الطيب المتنبي في امره الطلل
بان يكون ثالثهما اي للركب والابل وهذا واضح لا نزاع فيه واذا تحقق وتبين ما اشرت
اليه في هذا الموضع فالمجاز اذن لا يخرج عن هذه الاقسام الثلاثة اما توسع او تشبيه
او استعارة فاذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما امرا قياسيا في حمل
فرع على اصل لمناسبة بينهما وان كانا يفترقان بحديهما وحقيقتيهما فاما حد الاستعارة
فقد قيل انه نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وهذا الحد فاسد لان التشبيه
يشارك الاستعارة فيه الا ترى انا اذا قلنا زيد اسد كان ذلك تشبيها مضمر الاداة لان
معناه زيد كالاسد او كانه اسد وهذا نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما
لانا نقلنا حقيقة الاسد الى زيد فصار مجازا وانما نقلناها للمشاركة التي بين زيد وبين
الاسد في وصف الشجاعة والذي عندي في ذلك ان يقال حد الاستعارة نقل المعنى
من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه لانه اذا احترز فيه هذا
الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدا لها دون التشبيه وطريقه انك تريد تشبيه
الشي بالشي فتدع ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وتجي الى اسم المشبه فتعيره المشبه به
وتجريه عليه مثال ذلك ان تقول رايت رجلا كالاسد في شجاعته وقوة بطشه
سوا فتدع ذلك وتقول رايت اسدا وهذا كالبيت الشعري المقدم ذكره وهو

فرعا ان نهضت لحاجها عجل القضيب وابطا الدعص

فان هذا الشاعر اراد تشبيه القد بالقضيب والردف بالدعص الذي هو كثيب الرمل
فترك ذكر التشبيه مضمرا ومظهرا وجا الى المشبه الذي هو القد والردف فاعاره
المشبه به وهو القضيب والدعص واجراه عليه الا ان هذا الموضع لا بد له من
قرينة تفهم من فحوى اللفظ لانه اذا قال القايل رايت اسدا وهو يريد رجلا شجاعا
فان هذا القول لا يفهم منه ما اراد وانما يفهم منه انه اراد الحيوان المعروف بالاسد
لكن اذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على انه اراد رجلا شجاعا اختص الكلام بما اراد الا
ترى الى قول الشاعر   عجل القضيب وابطا الدعص   فانه دل على نفس البيت
لان قوله فرعا ان نهضت لحاجها دليل على ان المراد هو القد والردف لان القضيب
والدعص لا يكونان لامراة فرعا ان نهضت لحاجتها ولذلك كلما يجي على هذا الاسلوب
لان المستعار له وهو المنقول اليه مطوي الذكر وكنت تصفحت كتاب الخصايص لابي الفتح
عثمن بن جني رحمه الله فوجدته قد ذكر في المجاز شيا استطرق اليه النظر وذاك انه
قال لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا لمعان ثلاثة هي الاتساع والتشبيه والتوكيد
فان عدمت هذه الثلاثة كانت الحقيقة البتة فمن ذلك قوله تعالى وادخلناه في رحمتنا
فهذا مجاز وفيه المعاني الثلاثة المذكورة اما الاتساع فلانه زاد في اسما الجهات
والمحال اسما هو الرحمة   واما التشبيه فلانه شبه الرحمة وان لم يصح دخولها
بما يصح دخوله واما التوكيد فلانه اخبر عما لا يدرك بالحاسة بما يدرك بالحاسة

الرحمة لا على الاستعارة [illegible]

صوابه العبارة اذا اقترن بقوله هذا فهذا قرينة الا ان يقال ان هذا الكتاب كانه يظن ان فهذا الشاذ [illegible] ناسخ [illegible] ولكنه مما يقع هذا من النساخ [illegible] ان بعضهم وجد في الصحف [illegible] فكتبه [illegible] وقد افسد

تعاليا بالمخبر عنه وتفخيما له اذا اصير الى منزلة ما يشاهد ويعاين هذا مجموع قول
ابي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص والنظر يتطرق اليه من ثلاثة اوجه **الاول**
انه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز وعدمها سببا لعدمه وذلك
خطا لانه ليس وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز بل وجود واحد منها سبب
لوجوده الا ترى انه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا واذا وجد الاتساع وحده
كان ذلك مجازا ثم ولو كان وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز لكان عدم واحد
منها سببا لعدمه الا ترى انا اذا قلنا لا يوجد الانسان الا ان يكون حيوانا ناطقا فالحيوانية
والنطق سبب لوجود الانسان واذا عدم واحد منهما بطل ان يكون انسانا وكذلك كل
صفات تكون مقومة لوجود شي من الاشيا فان وجودها يوجب وجود ذلك
الشي وعدم واحد يوجب عدمه واما الوجه الثاني فانه ذكر التشبيه والتوكيد وكلاهما
شي واحد في الوجه الذي ذكره لانه لما شبهت الرحمة وهي معنى لا يدرك بالبصر بمكان
يدخل وهو صورة تدرك بالبصر دخل تحته التوكيد الذي هو اخبار عما لا يدرك بالحاسة
بما يدرك بالحاسة على ان التوكيد ها هنا لا اعلم ما اراد به لانه لا يوتى به في اللغة
العربية الا لمعنيين احدهما انه يرد بالفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله وغير
ذلك مما هو مذكور في كتب النحاة الاخر انه يرد على وجه التكرير نحو قام زيد قام زيد
ليرد اللفظ في ذلك تحقيقا للمعنى المقصود اي توكيدا له فالذي ذكره ابو الفتح رحمه الله
لا يدل على ان المراد به احد هذين المعنيين المشار اليهما ولا شك انه اراد به

المبالغة

المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم الى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك
بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره واذا اراد بذلك فهو والتشبيه سوا على ما ذكره
ع ولا حاجة الى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه واما الوجه الثالث فانه قال واما الاتساع
فانه زاد في اسما الجهات والمحال كذا وكذا وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب
لانه ينبغي على قياسه ان يكون جناح الذل في قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل
زيادة في اسما الطيور وذاك انه زاد في اسما الطيور اسما هو الذل وهكذا يجري
الحكم في الاقوال الشعرية كقول ابي تمام

لبست سواه اقواما فكانوا كما اغنى التيمم بالصعيد

فزاد في اسما اللباس اسما هو الادمي او الانسان وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله
من الخطل والاتساع في المجاز لا يقال فيه كذا وانما يقال هو ان تجري صفة من
الصفات على موصوف ليس اهلا لان تجري عليه لبعد ما بينه وبينها
كقول ابي الطيب المتنبي

اثلث فانا ايها الطلل نبكي وترزم تحتنا الابل

فانه اجرى على الجماد صفة الخطاب التي هي لمن يعقل وتلك صفة لا مناسبة بينها
وبين الموصوف وقد تقدم الكلام على ذلك وانما يستعمل طلبا للاتساع في اساليب
الكلام لا للمناسبة بين الصفة والموصوف اذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا
وانما كان ضربا من القياس في حمل الشي على ما يناسبه ويشاكله وحينيذ يكون

ذلك تشبيها او استعارة على ما اشرت اليه من قبل وكنت اطلعت في كتاب المستصفى
لابي حامد الغزالي رحمه الله الذي الفه في اصول الفقه ووجدته قد ذكر الحقيقة
والمجاز وقسم المجاز الى اربعة عشر قسما وتلك الاربعة عشر ترجع الى الثلاثة التي
اشرت اليها وهي التوسع والتشبيه والاستعارة ولا تخرج عنها والتقسيم لا يصح
في شيء من الاشياء الا اذا اختص كل قسم من الاقسام بصفة لا يختص بها غيره
والا كان التقسيم لغوا لا فائدة فيه وساورد ما ذكره وابين فساده فالقسم
الاول من الاقسام التي ذكرها هو ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصية كقولهم
للشجاع اسد وللبليد حمار وهذا القسم داخل في الاستعارة ان ذكر المنقول
اليه وحده مثل ان يقول القايل رايت اسدا ومراده رجلا شجاعا او رايت حمارا
ومراده رجلا بليدا وداخل في التشبيه المضمر الاداة ان ذكر المنقول والمنقول
اليه معا كقول القايل زيد اسد اي كالاسد او حمار اي كالحمار القسم الثاني تسميته
الشيء باسم ما يؤول اليه كقوله تعالى اني اراني اعصر خمرا وانما كان يعصر عنبا وهذا
القسم داخل في القسم الاول لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول اليه وهو
من باب الاستعارة لا بل اوغل في المشابهة من ذلك لان الخمر من العنب وليس
الاسد من الرجل ولا الرجل من الاسد القسم الثالث تسمية الشيء باسم
فرعه كقول الشاعر

وما العيش الا نومة وتشرق وتمر على راس النخيل وماء

مطلب تقسيم ... الامام ابي حامد الغزالي قدس سره

لان كلا منهما من من مطبوخ ما الكرمة بالشمس لان ماء العنب من ما الكرمة بطبخ الشمس الا ان يحلو وما العصير من ما الكرمة بطبخ الشمس الا ان يشتد

نسي

نسمي الرطب تمرا وهذا القسم والقسم الذي قبله سواء لان هناك سمي العنب خمرا
وهنا سمي الرطب تمرا فالعنب اصل والخمر فرع وكذلك الرطب اصل والتمر فرع
وكلا هذين القسمين داخل في القسم الاول وهنا ان الغزالي لم يحقق امر المجاز
وانقسامه الى تلك الاقسام الثلثة التي اشرت اليها الم ينظر الى هذين القسمين
اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم انهما شيء واحد لا فرق بينهما القسم
الرابع تسمية الشيء باسم اصله كقولهم للادمي مضغة وهذا ضد القسم الذي قبله
لان ذلك جعل الاصل فيه فرعا وهذا جعل الفرع فيه اصلا وهو داخل في القسم
الاول ايضا القسم الخامس تسمية الشيء بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد قولا نحو
قولهم هذا يقول بقول الشافعي اي يعتقد اعتقاده وهذا القسم داخل في القسم الاول
لان بين القول والاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر
القسم السادس تسمية الشيء باسم مكانه كقولهم للمطر سما لانه ينزل منها وهذا
القسم داخل في الاول لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول اليه وهو النزول من
عال وكلما علاك فاظلك فهو سما على ان الاغلب على ظني ان هذا القسم من الاسما المشتركة
وتسمية المطر بالسما حقيقة فيه وليس من المجاز في شيء القسم السابع تسمية
الشيء باسم مجاوره كقولهم للمزادة راوية وانما الراوية الجمل الذي يحملها وهذا القسم
من باب التوسع لا من باب التشبيه ولا من باب الاستعارة لانه على قياسه ينبغي ان
يسمى الحبل زاملة لانه يحملها القسم الثامن تسمية الشيء باسم جزءه كقولهم للزنجي اسود

أبعد الله وجهه عني وإنما تريد سائر جثته وهذا القسم داخل في القسم الأول
وهو شبيه بتسمية الشيء باسم فرعه القسم التاسع تسمية الشيء باسم ضده
كقولهم للأسود والأبيض جون وهذا القسم ليس من المجاز في شيء البتة وإنما هو
حقيقة في هذين المسميين معًا لأنه من الأسماء المشتركة كقولهم شمت السيف إذا
سللته وشمته إذا غمدته فدل الشيم على الضدين معًا بالوضع الحقيقي وفي
اللغة من هذا شيء كثير فكيف يجعل هذا القسم من المجاز ولا شك أن الغزالي نظر
إلى أن الضدين لا يجتمعان في محل واحد فقاس الاسم على الذات وظن أن اللذين لا
يجتمعان في اسم واحد كما أنهما لا يجتمعان في محل واحد فإن قيل لا نسلم أن اللفظ
المشترك حقيقة بالوضع في المعنيين معًا لأن ذلك يخل بفائدة الوضع الذي هو البيان
وإنما هو حقيقة في أحد معنييه مجاز في الآخر الجواب عن ذلك أن هذا الموضع
قد تقدم الكلام عليه في الفصل الثاني من مقدمة الكتاب وهو الفصل الذي يشتمل
على آلات علم البيان وأدواته فليؤخذ من هناك فإني قد أشبعت الكلام فيه إشباعًا
لا مزيد عليه القسم العاشر تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكرًا وهذا
القسم داخل في القسم الأول وأي مشاركة أقرب من هذه المشاركة فإن الإسكار
صفة لازمة للخمر وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد لأنه يمكن أن يكون زيد
ولا شجاعة ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار ألا ترى أنها لم تسم خمرًا إلا لإسكارها
فإنها خمر العقل أي تسكره القسم الحادي عشر تسمية الشيء بكليه

كأنه رضي الله عنه ينكر أن الأضداد اللغوية لا تكون من الحقائق والحقيقة أحدهما لا كلاهما والله أعلم

كقولك

كقولك في جواب ما فعل زيد القيام والقيام جنس يتناول جميع أنواعه وهذا القسم
لا ينبغي أن يوصل بأقسام المجاز لأن القيام لم يرد حقيقة فإن قيل إن القيام يشمل جميع
أنواع القيام من الماضي والحاضر والمستقبل قلت وهذا من أقرب أقسام المجاز
مناسبة لأنه إقامة للمصدر مقام الفعل الماضي والمصدر أصل الفعل وعلى هذا
فإن هذا القسم داخل في القسم الأول القسم الثاني عشر الزيادة في الكلام لغير
فائدة كقوله تعالى فبما رحمة الله لنت لهم فما ههنا زائدة لا معنى لها أي فبرحمة من
الله لنت لهم وهذا القول لا أراه صوابًا وفيه نظر من وجهين أحدهما أن هذا القسم
ليس من المجاز لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة وهذا
غير موجود في الآية وإنما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة
الوجه الآخر أني لو سلمت أن ذلك من المجاز لا أنكر أن لفظة ما زائدة لا معنى لها
ولكنها وردت تفخيمًا لأمر النعمة التي لان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وهي
محض الفصاحة ولو عري الكلام منها لما كان له تلك الفخامة وقد ورد مثلها في
كلام العرب كالذي يحكى عن الزباء وذاك أن الوضاح الذي هو جذيمة الأبرش
تزوجها والحكاية في ذلك مشهورة فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت
الشعر من فوقه ضفيرتين وقالت أذات عروس ترى أما إنه ليس ذلك من عوز
المواسي ولا من قلة الأواسي ولكنه شيمة ما أناس يعني الكلام ولكنه شيمة أناس
وإنما جاءت لفظة ما ههنا تفخيمًا لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيمًا لأمره

ولو اسقطت لما كان للكلام هذه الفخامة والجزالة ولا يعرف ذلك الا اهله من
علماء الفصاحة والبلاغة واما الغزالي رحمه الله فانه معذور عندي في ان لا
يعرف ذلك لانه ليس فنه ومن ذهب الى ان في القرآن لفظا زايدا لا معنى له فاما ان
يكون جاهلا بهذا القول واما ان يكون متسمحا في دينه واعتقاده وقول النحاة ان
ما في هذه الاية زايدة فانما يعنون به انها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها في
موضع اخر كافة اي انها تكف الحرف العامل عن عمله كقولك انما زيد قايم فما قد كفت
ان عن العمل في زيد وفي الاية لم تمتنع عن العمل الا ترى انها لم تمنع الباء عن العمل في
خفض الرحمة القسم الثالث عشر تسمية الشي بحكمه كقوله تعالى وامراة
مومنة ان وهبت نفسها للنبي ان اراد النبي ان يستنكحها فسمى النكاح هبة
وهذا القسم داخل في القسم الاول لان النكاح هو تمكين الزوج من الوطي على
عوض على هية مخصوصة والهبة تمكينه من الشي الموهوب على غير عوض
فتشاركت الهبة النكاح في نفس التمكين من الوطي وان اختلفا في الصورة القسم
الرابع عشر النقصان الذي لا يبطل به المعنى كحذف الموصوف واقامة الصفة
مقامه قال الله تعالى ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريا اي شخصا بريا
وكحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه قال الله تعالى واسال القرية اي اهل القرية
وهذا القسم داخل في القسم الاول اما حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه
فلان الصفة لازمة للموصوف واما حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه

ولانه

صوابه ان يقال ومن ذهب الى ان في القرآن لفظا زايدا لا معنى له ...

ولانه دل بالمسكون على الساكن وتلك مقارنة قريبة فهذه اقسام المجاز التي
ذكرها الغزالي رحمه الله وقد بينت فساد التقسيم فيها وانها ترجع الى ثلثة
اقسام هي التوسع والتشبيه والاستعارة وحيث انتهى بي الكلام الى هاهنا وفرغت
مما اردت تحقيقه وبينت ما اردت بيانه فاني اتبع ذلك بضرب الامثلة للاستعارة
التي يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة فمما جاء من ذلك في القرآن
الكريم قوله تعالى في اول سورة ابرهيم صلوات الله عليه فقال الر كتاب انزلناه اليك
لتخرج الناس من الظلمات الى النور فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان او
الضلال والهدى والمستعار له مطوي الذكر كانه قال لتخرج الناس من الكفر الذي
هو كالظلمة الى الايمان الذي هو كالنور وكذلك ورد قوله في هذه السورة ايضا
وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال والقراة
برفع لتزول ليست من باب الاستعارة ولكنها في نصب تزول واللام لام كي
والجبال هاهنا استعارة طوي فيها ذكر المستعار له وهو امر رسول الله صلى الله
عليه وسلم وما جاء به من الايات والمعجزات اي انهم مكروا مكرهم لكي تزول
منه هذه الايات والمعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال وعلى هذا
ورد قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم
يقولون ما لا يفعلون فاستعار الاودية للفنون والاغراض من المعاني الشعرية
التي يقصدونها وانما خص الاودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك

أو ما جرى مجراها لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية والفكرة والروية
فيهما خفاء وغموض فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق والاستعارة في القرآن
قليلة لكن التشبيه المضمر الأداة كثير وكذلك هي في فصيح الكلام من الرسائل
والخطب والأشعار لأن طي المستعار له لا يتيسر في كل كلام وأما التشبيه المضمر
الأداة فكثير سهل لمكان إظهار المشبه والمشبه به معا وما ورد من الاستعا
في الأخبار النبوية قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تستضيئوا بنار المشركين
فاستعار النار للرأي والمشورة أي لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم
وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوما مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون
فقال أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى وهادم اللذات أراد
به الموت وهو مطوي الذكر وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم لعثمن بن
عفان رضي الله عنه فإنه قال له إن الله مقمصك قميصا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه تخلعه
والقميص استعارة للولاية والمستعار له مطوي الذكر وبلغني عن العرب أنهم
يقولون عند رؤية الهلال لا مرحبا بالجين مقرب أجل ومحل دين وهذا من
باب الاستعارة في طي ذكر المستعار له وكذلك بلغني عن الحجاج بن يوسف أنه خطب
خطبة عند قدومه العراق في أول ولايته إياه والخطبة مشهورة فمن جملتها
أنه قال إن أمير المؤمنين نثل كنانته وعجمها عودا عودا فرآني أصلبها نجارا وأنفذها
نصلا فقوله نثل كنانته وعجمها عودا عودا يريد أنه عرض رجاله واختبرهم واحدا

بعد

بعد واحد فرآني أشدهم وأمضاهم وهذا من باب الاستعارة الحسنة الفائقة
وقد جاءني من الاستعارة في رسائلي ما أذكر شيئا منه ولو مثالا واحدا وذلك أنه
سألني بعض الأصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما وكان أحدهما لبس
قباء أحمر والآخر قباء أسود فقلت إذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسره أظهر
مطلب وأصبحت أمراضه خطرا لها ولا يقال في أحدهما هذا أخطر ومن هو بدرين
على غصنين ولا طاقة لقلب بهوى واحد فكيف إذا حمل هوى اثنين ومما شجاني
أنهما يتلونان في أصباغ الثياب كما يتلونان في فنون التجرم والعتاب وقد استجدا
الآن زيا لا مزيد على حسنيهما في حسنه فهذا يخرج في ثوب من حمرة خده وهذا
في ثوب من سواد جفنه وما أدري من دلهما على هذا الزي العجيب غير أنه ليس على
فتنة المحب أمضى من حبيب وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه
وأما ما ورد من ذلك شعرا فقول مسكين الدارمي من شعراء الحماسة

لحافي لحاف الضيف والبرد برده ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

فالغزال المقنع استعارة للمرأة الحسناء وهكذا ورد قول رجل من بني
يسار في كتاب الحماسة أيضا

أقول لنفسي حين خود رألها رويدك لما تشفقي حين مشفق
رويدك حتى تنظري عم تنجلي غيابة هذا البارق المتألق

فالبارق المتالق استعارة للحرب او للامر الذي اظل بمكروهه كالبارق المتالق

ويحكى ان امراة وقفت لمصعب بن الزبير رضي الله عنهما وهو سائر الى قتال عبد الملك بن مروان فقالت يا امير المومنين فقال رويدك حتى تنظري عم تنجلي وانشد البيت • ومن هذا الباب قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن

لما نظرت الي عن حدق المها وبسمت عن متفتح النوار

وعقدت بين قضيب بان اهيف وكثيب رمل عقدة الزنار

عفرت خدي في الثرى لك طايعا وعزمت فيك على دخول النار

وهذه الابيات لا تجد لها في الحسن شريكا ولئن يسمى قايلها شحرورا اولى من ان يسمى ديكا وكذلك ورد قوله

لا ومكان الصليب في النحر منك ومجرى الزنار في الخصر

والخال في الخد اذ اشبهه وردة مسك على ثرى تبر

وحاجب متخطه قلم الحسن بحبر البهاء لا الحبر

واقحوان بفيك منتظم على شبيه الغدير من خمر

ما صبر الشوق لي فاصبر يا من حسنت فيه قلة الصبر

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة والمستعار له وهو الثغر والريق مطوي الذكر ومما ورد لابي تمام في هذا الباب قوله

لما غدا مظلم الاحشاء من اشر اسكنتها نجيبة كوكبا يقد

فالكوكب استعارة لسنان الرمح وكذلك ورد قوله في الاعتذار

اتيتني طريدا للحيا من التي زعمو ولبس لرهمة بطريد

وعدا بين ما اراه سا حتى لو قد نقضت تهايمي ونجودي

فالتهايم والنجود هما استعارة عن باطن امره وظاهره وكذلك ورد قوله

كم احرزت قضب الهندي مصلتة تهتز من قضب تهتز في كثب

فالقضب والكثب استعارة لقدود السبايا وارادفهن وكذلك ورد قوله في هذه القصيدة ايضا عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عمورية فقال

ان يعد من حرها عدو الظليم فقد اوسعت جاحمها من كثرة الحطب

فالحطب استعارة القتلى ومعنى ذلك انه ان هرب من حر المعركة فقد اوسعت جاحمها من كثرة القتلى وقبل هذا البيت ما يدل عليه لانه قال

احذى قرابينه صرف الردى ومضى يحث انجا مطاياه من الهرب

مولا يبقاع الارض يشرفه من خفة الخوف لا من خفة الطرب

ان يعد من حرها عدو الظليم البيت واحسن من هذا كله قوله

تظل الطلول الدمع في كل منزل وتمثل بالصبر الديار المواثل

دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولا مر في اغفالها وهو غافل

تعفين من زاد العفاة اذا انتحى على الحي صرف الازمة المتحامل

فقوله زاد العفاة استعارة طوي فيها ذكر المستعار له وهو اهل الديار كانه قال

تعصبن من قوم هم زاد العفاة   وله في الغزل من الاستعارة ما بلغ به غاية
اللطافة والرقة وذلك في قصيدته التي اولها   ان عهدا لو تعلمان ذميما
فقال

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبكينا طلولها والرسوما
وسالنا ربوعها فانصرفنا بشقاء وما سالنا حكيما
كنت ارعى البدور حتى اذا ما فارقوني امسيت ارعى النجوما

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة وعلى هذا المنهاج ورد قول البحتري

واغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على اغر محجل

فالاغر المحجل هو الممدوح والاغر المحجل الاخر هو الفرس الذي اعطاه اياه
وكذلك ورد قوله

وصاعقة في كفه تنكفي بها على ارؤس الاعداء خمس سحائب

وهذا من النمط العالي الذي شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر
الى استعارته والمراد بالسحائب الخمس هي الاصابع وكذلك ورد قوله في ابيات
يصف فيها السيف فقال

حملت حمائله القديمة بقلة من عهد عاد غضة لم تذبل

وهذا من الحسن على ما يشهد لنفسه كانه قال حملت حمائله سيفا احضر
الحديدة كالبقلة   وعلى هذا الاسلوب ورد قول ابي الطيب

ق

في الخد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا
وكذلك ورد قوله

يمد يديه في المفاضة ضيغم وعينيه من تحت التريكة ارقم

واحسن من هذا كله قوله في قصيدته التي مطلعها
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم   فقال

واصبحت بقرى هنزيط جائلة ترعى الظبى في خصيب نبته اللمم
فما تركن بها خلدا له بصر تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم

وهذا من المليح النادر والخلد استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفا والباز استعارة
لمن طار هاربا والهزبر والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا
ومن هذا الباب قوله

كل جريح ترجى سلامته الا جريحا دهته عيناها
تبل خدي كلما ابتسمت من مط[illegible] اياها

والبيت الثاني من الابيات الحسان التي تتواصف وقد حسن الاستعارة التي فيه
انه جاء ذكر المطر مع البرق   وبلغني عن ابي الفتح بن جني رحمه الله انه شرح
ذلك في كتابه الموسوم بالفسر الذي الفه في شرح شعر ابي الطيب فقال انما
كانت تبرق في وجهه وظن ان ابا الطيب اراد انها كانت تبسم فيخرج الريق من فيها

المشبه به المحذوف
في الاستعارة التي
هو لفظ تبل [illegible]
تقتضي الشيء

ويقع على وجهه وشبهه بالمطر وما كنت اظن ان احدا من الناس يذهب وهمه
وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره واذا كان هذا قول امام
من ائمة العربية تشد اليه الرحال فما ذا يقال في غيره لكن فن الفصاحة والبلاغة
غير فن النحو والاعراب ولذلك ورد قول الشريف الرضي

اذا انت افنيت العرانين والذرى رمتك الليالي من يد الخامل الغمر
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن لبد ترميك من حيث لا تدري

فالعرانين والذرى ها هنا عظماء الناس واشرافهم كانه قال اذا افنيت عظماء الناس رميت
من الخامل واذ قد ثبت ان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فانها لا تجيء
الا لملايمة مناسبة ولا يوجد فيهما ملايمة ولا تباعد لانها لا تذكر مطوية الا لبيان مناسبة
المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين
المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ولم يبن المراد منها **ورأيت** ابا محمد عبد الله بن
سنان الخفاجي رحمه الله قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الاداة ولم يفرق بينهما
وتاسى في ذلك بغيره من علماء البيان كابي هلال العسكري والغانمي وابي القسم الحسن
بن بشر الامدي على ان ابا القسم بن بشر الامدي كان اثبت القوم قدما في فن الفصاحة
والبلاغة وكتابه المسمى بالموازنة بين الطائيين يشهد له بذلك وما اعلم كيف خفي
عنه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة **ومما** اورده ابن سنان في كتابه
الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازا وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الاداة لان المستعار له مذكور وهو الليل وعلى الخطاء
في خلطه بالاستعارة **فان** ابن سنان اخطا في الرد على الامدي ولم يوفق للصواب **وانا**
اتكلم على ما ذكره ولا اصانعه في الاستعارة والتشبيه بل ابرز معه على ما اراه من انه
استعارة ثم ابين فساد ما ذهب اليه وذاك ان الامدي قال في كتاب الموازنة ان امرء
القيس وصف احوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره وترادف
اعجازه فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا واعجازا رادفة لوسطه استعار
له اسم الصلب وجعله متمطيا من اجل امتداده واسم الكلكل وجعله نائيا للتثاقل
واسم العجز من اجل نهوضه فقال ابن سنان الخفاجي معترضا عليه ان هذا الذي ذكره
الامدي ليس بمرضي عند الرضي وان بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا
الرديئة بل هو وسط فان الامدي قد افصح بان امرء القيس لما جعل لليل وسطا ممتدا
استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من اجل امتداده وحيث جعل له اخرا واولا
استعار له عجزا وكلكلا وهذا كله انما يحسن بعضه مع بعض فذكر الصلب انما يحسن
من اجل العجز والوسط والتمطي من اجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك وهذه استعارة
مبنية على استعارة اخرى هذه حكاية كلامه في الاعتراض على الامدي وفيه نظر
من وجهين الاول انه قال هذا البيت من الاستعارة الوسطى التي ليست بجيدة ولا
رديئة ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة اخرى وعنده ان الاستعارة المبنية

على الاستعارة من ابعد الاستعارات وذلك انه قسم الاستعارة الى قسمين قريب
مختار وبعيد مطرح فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي
وشبه واضح والبعيد المطرح اما ان يكون لبعده مما استعير له في الاصل او لانه
استعارة مبنية على استعارة اخرى فيضعف لذلك هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجي
في تقسيم الاستعارة واذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة اخرى عنده بعيدة
مطرحة فكيف جعلها وسطا هذا تناقض في القول الوجه الثاني انه لم ياخذ على
الآمدي في موضع الاخذ لانه لم يختر الا ما حسن اختياره وذلك ان حد الاستعارة
على ما رآه الآمدي وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما
وان كان المذهب الصحيح في حد الاستعارة غير ذلك على ما تقدم الكلام عليه ولكني
في هذا الموضع انزل معهما على ما راياه حتى يتوجه الكلام على الحكم بينهما في بيت امرئ
القيس واذا حددنا الاستعارة بهذا الحد فيه نفرق على راي ابن سنان بين الاستعارة
المرضية والاستعارة المطرحة واذا وجدنا استعارة في كلام ما عرضناها على
هذا الحد فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول اليه حكمنا له بالجودة
وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة وبيت امرئ القيس من الاستعارات
المرضية لانه لو لم يكن لليل صدر اعني اولا ولم يكن له وسط واخر لما حسنت
هذه الاستعارة ولما كان الامر كذلك استعار لوسطه صلبا وجعله متمطيا
واستعار لصدره المتثاقل اعني اوله كلكلا وجعله نائيا واستعار لاخره عجزا

وجعله

وجعله رادفا لوسطه وكل ذلك من الاستعارات المناسبة واما قول بن سنان
الخفاجي ان الاستعارة المبنية على استعارة اخرى بعيدة مطرحة فان في هذا
القول نظرا وذلك انه قد ثبت لنا اصل نقيس عليه في الفرق بين الاستعارة المرضية
والمطرحة كما اريناك ولا يمنع ذلك من ان تجي استعارة مبنية على استعارة اخرى
ويوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة المرضية فانه قد ورد في القرآن
الكريم ما هو من هذا الجنس وهو قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة
مطمئنة ياتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس
الجوع والخوف فهذه ثلاث استعارات ينبني بعضها على بعض فالاولى استعارة
القرية للاهل والثانية استعارة الذوق للباس والثالثة استعارة اللباس للجوع
والخوف وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على ما لا خفاء به فكيف يذم
بن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية على استعارة اخرى وما اقول ان ذلك شذ عنه
الا لانه لم ينظر الى الاصل المقيس عليه وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول
اليه بل نظر الى التقسيم الذي قسمه في القرب والبعد وراى ان الاستعارة
المبنية على استعارة اخرى تكون بعيدة فحكم عليها بالاطراح واذا كان الاصل
انما هو التناسب فلا فرق بين ان يوجد في استعارة واحدة او في استعارة مبنية
على استعارة ولهذا اشباه ونظائر في غير الاستعارة الا ترى ان المنطقي يقول
في المقدمة والنتيجة كل انسان حيوان وكل حيوان نام فكل انسان نام وكذلك يقول

المهندس في بعض الاشكال الهندسية اذا كان خط آب مثل خط بج وخط بج
مثل خط جد فخط آب مثل خط جد وهكذا اقول انا في الاستعارة اذا كانت
الاستعارة الاولى مناسبة ثم بني عليها استعارة ثانية وكانت ايضا مناسبة
فالجميع متناسب وهذا امر برهاني لا يتصور انكاره وهذا الكلام الذي اوردته
ها هنا هو اعتراض على ما ذكره ابن سنان الخفاجي في الاستعارة فلا تظن انني موافقه
في الاصل وانما وافقته قصدا لتبيين وجه الخطأ في كلامه وكيف يسوغ لي موافقته
وقد ثبت عندي بالدليل ان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له وفيما
قدمته من الكلام على ذلك كفاية

النوع الثاني في التشبيه

وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا بابا مفردا ولهذا
بابا مفردا وهما شيء واحد لا فرق بينهما في اصل الوضع يقال شبهت هذا الشيء
بهذا الشيء كما يقال مثلته به وما اعلم كيف خفي ذلك على اولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه
وكنت قدمت القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ولا حاجة
الى اعادته ها هنا مرة ثانية والتشبيه ينقسم قسمين مظهرا ومضمرا وفي المضمر
اشكال في تقدير اداة التشبيه فيه في بعض المواضع وهو ينقسم اقساما خمسة
فالاول يقع موقع المبتدا والخبر مفردين والثاني يقع موقع المبتدا المفرد
وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف اليه والثالث يقع موقع المبتدا والخبر

ممثلين والرابع يرد على وجه الفعل والفاعل والخامس يرد على وجه المثل
المضروب وهذان القسمان الاخران هما اشكل الاقسام الخمسة في تقدير اداة
التشبيه اما الاول فكقولنا زيد اسد فهذا مبتدا وخبر واذا قدرت اداة التشبيه
فيه كان ذلك سديد النظر على الفور فقيل زيد كالاسد واما القسم الثاني والثالث
فانهما متوسطان في تقدير اداة التشبيه فيهما فالثاني كقول النبي صلى الله عليه وسلم
الكماة جدري الارض وهذا يسوغ نوعين فاذا كان المضاف اليه معرفة كهذا الخبر
النبوي لا يحتاج في تقدير اداة التشبيه فيه الى تقديم المضاف اليه بل ان شئنا قدمناه
وان شئنا اخرناه فقلنا الكماة للارض كالجدري او الكماة كالجدري للارض واذا كان
المضاف اليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير اداة التشبيه فيه فمن
ذلك قول البحتري

غمام سماح لا يغب له حيا ومسعر حرب لا يضيع له وتر

واذا قدرنا اداة التشبيه ها هنا قلنا سماح كالغمام ولا يقدر الا هكذا والمبتدا
في هذا البيت محذوف وهو الاشارة الى الممدوح كانه قال هو غمام سماح ومن هذا
النوع ما يشكل تقدير اداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن كقول ابي تمام

اي مرعى عين ووادي نسيب لحبته الايام في ملحوب

ومراد ابي تمام ان يصف هذا المكان بانه كان حسنا ثم زال حسنه عنه فقال بان
العين كانت تلتذ بالنظر اليه كالتذاذ السائمة بالمرعى وانه كان يشبب به في الاشعار

حسنه وطيبه واذا قدرنا اداة التشبيه ههنا قلنا كانه كان للعين مرعى في النسيب
منزلا ومألفا واذا جاء شيء من الابيات الشعرية على هذا الاسلوب او ما يجري
مجراه فانه يحتاج العارف بوضع اداة التشبيه فيه واما الثالث فكقول النبي
صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصايد السنتهم
كانه قال كلام الالسنة كحصايد المناجل وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكورا
فيه بل تذكر صفته وهي الحصد وكلما يجي من هذا القسم فانه لا يرد الا كذلك
واما القسم الرابع والخامس اللذين هما اشكل الاقسام المذكورة في تقدير اداة
التشبيه فيهما فلانهما لا يتفطن لهما انهما تشبيه فمما جاء من القسم الرابع قوله تعالى والذين
تبوأوا الدار والايمان من قبلهم وتقدير اداة التشبيه في هذا الموضع ان يقال هم
في ايمانهم كالمتبوأ دارا اي انهم قد اتخذوا الايمان مسكنا يسكنونه بصفة بذلك
تمكنهم منه وعلى هذا ورد قول ابي تمام

نطقت مقلة الفتى الملهوف فتشكت بفيض دمع ذروف

واذا اردنا ان نقدر اداة التشبيه ههنا قلنا دمع العين كنطق اللسان او قلنا العين
الباكية كانما نطقت بما في الضمير واما ما جاء من القسم الخامس فكقول
الفرزدق يهجو جريرا

ما ضر تغلب وايل اهجوتها ام بلت حيث تناطح البحران

فشبه هجاء جرير تغلب وايل ببوله في مجمع البحرين بكان البول في مجمع البحرين

لا يؤثر شيئا فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا وهذا البيت من الابيات التي
اقرها الناس بالحسن وكذلك ورد قوله ايضا

قوارض تاتيني فتحتقرونها وقد يملأ القطر الاناء فيفعم

وانه شبه القوارض التي تاتيه محتقرة ما القطر الذي يملأ الاناء على صغر مقداره
يشير بذلك الى ان الكثرة تجعل الصغير من الامر كبيرا وهذا الموضع يشكل على كثير
من علماء البيان ويخلطونه بالاستعارة كقول البحتري في التعزية بولد فقال

تعز فان السيف يمضي وان وهت حمايله عنه وخلاه قايمه

وهذا ليس من التشبيه وانما هو استعارة لان المستعار له مطوي الذكر وهو المعزى
كانه قال تعز فانك كالسيف الذي يمضي وان وهت حمايله وخلاه قايمه فان قيل
انك قدمت القول في باب الاستعارة بان التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير
اداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن تقدير اداة التشبيه فيها وجعلت ذلك
هو الفرق بين التشبيه المضمر الاداة وبين الاستعارة وقررت ذلك تقريرا طويلا
عويصا ثم انك قد نقضته ههنا بقولك ان من التشبيه المضمر الاداة ما يشكل
تقدير اداة التشبيه فيه وان يحتاج في تقديرها فيه الى نظر كهذين البيتين المذكورين
للفرزدق وما جرى مجراهما الجواب عن ذلك اني اقول هذا الذي ذكرته
لا ينقض علي شيئا مما قدمت القول فيه في باب الاستعارة لاني قلت ان التشبيه المضمر
الاداة حسن تقدير الاداة فيه اي لا يتعذر تقديرها فيه عن صفته التي اتصف بها

من فصاحة وبلاغة وليس كذلك الاستعارة فانها اذا قدرت اداة التشبيه فيها
تغيرت عن صفتها التي تتصف بها من فصاحة وبلاغة واما الذي ورد ههنا من بيتي
الفرزدق وما يجري مجراهما من التشبيه المضمر الاداة فان اداة التشبيه لا تقدر فيه
وهو على حالته من النظم حتى ينظر هل تغيرت صفته التي اتصف بها من فصاحة وبلاغة
ام لا وانما تقدر اداة التشبيه فيه على وجه اخر وهذا لا ينقض ما اشرت اليه في باب
الاستعارة واذ بينت هذه الاقسام الاربعة فاقول ان التشبيه المضمر الاداة
ابلغ من التشبيه المظهر واوجز اما كونه ابلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير
واسطة اداة فيكون هو اياه فانك اذا قلت زيد اسد كنت قد جعلته اسدا من غير اظهار
اداة التشبيه واما كونه اوجز فلحذف اداة التشبيه منه وعلى هذا فان القسمين من
المظهر والمضمر كليهما في فضيلة البيان سواء فان الغرض المقصود من قولنا زيد
اسد ان يتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الاقدام وغير
ذلك مما يجري مجراه الا انا لم نجد شيئا ندل به عليه سوى ان جعلناه شبيها بالاسد
حيث كانت هذه الصفات مختصة به فصار ما قصدناه من هذا القول اكشف
وابين من ان لو قلنا زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان واشباه ذلك لما قد
عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به اعني الاسد واما زيد الذي
هو المشبه فليس معروفا بها وان كانت موجودة فيه وكلا هذين القسمين ايضا
مختص بفضيلة الايجاز وان كان المضمر اوجز من المظهر لان قولنا زيد اسد او

كالاسد

كالاسد يسبك مسبك قولنا زيد من حاله كيت وكيت وهو من الشجاعة والشدة على
كذا وكذا مما يطول ذكره فالتشبيه اذن يجمع صفات ثلثا هي المبالغة والبيان والايجاز
كما اريتك الا انه من بين انواع علم البيان مستوعر المذهب وهو مقتل من مقاتل
البلاغة وسبب ذلك ان حمل الشيء على الشيء بالمماثلة اما صورة واما معنى يعز
صوابه وتعسر الاجادة فيه وقلما اكثر منه احد الا عثر كما فعل ابن المعتز في
ادبار العراق وابن وكيع من ادباء مصر فانهما اكثرا من ذلك لا سيما في وصف
الرياض والاشجار والازهار والثمار لا جرم انهما اتيا بالغث البارد الذي لا
ينبت على محك الصواب فعليك ان تتوقى ما اشرت اليه واما فائدة التشبيه من
الكلام فهي انك اذا مثلت الشيء بالشيء فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة
المشبه به او بمعناه وذلك اوكد في طرفي الترغيب فيه او التنفير عنه الا ترى
انك اذا شبهت صورة بصورة هي احسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا
يدعو الى الترغيب فيها وكذلك اذا شبهتها بصورة هي اقبح منها كان ذلك مثبتا
في النفس خيالا قبيحا يدعو الى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه ولنضرب له مثالا
يوضحه فنقول قد ورد عن ابن الرومي في مدح العسل وذمه بيت من شعره وهو

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان تعب قلت ذا قيء الزنابير

الا ترى كيف مدح الشيء الواحد بتصريف التشبيه المجازي المضمر الاداة
الذي يخيل به الى السامع خيالا يحسن الشيء عنده تارة ويقبحه اخرى ولولا

التوصل بطريق التشبيه المجازي على هذا الوجه لما امكنه ذلك وهذا المثال كاف
فيما اردناه واعلم ان محاسن التشبيه ان يجي مصدريا كقولنا اقدم اقدام الاسد وقبض
قبض البحر وهو احسن ما استعمل في باب التشبيه كقول ابي نواس في وصف الخمر

واذا ما مزجوها وثبت وثب الجراد

واذا ما شربوها اخذت اخذ الرقاد

وقد قيل انه من شرط بلاغة التشبيه ان يشبه الشي بما هو اكبر منه واعظم ومن
ههنا غلط بعض الكتاب من اهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبها
له فقال هامة عليها من الغمامة عمامة وانملة خضبها الاصيل كان الهلال
منها قلامة وهذا الكاتب حفظ شيا وغابت عنه اشيا فانه اخطا في قوله انملة
واي مقدار للانملة بالنسبة الى تشبيه حصن على راس جبل واصاب في المناسبة بين
ذكر الانملة والقلامة وتشبيهها بالهلال فان قيل ان هذا الكاتب تأسى فيما
ذكره بكلام الله تعالى حيث قال الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة
فيها مصباح فمثل نوره بطاقة فيها ذبالة وقال الله تعالى والقمر قدرناه منازل
حتى عاد كالعرجون القديم فمثل الهلال باصل عذق النخلة الجواب
عن ذلك اني اقول اما تمثيل نور الله بمشكاة فيها مصباح فان هذا مثال
ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه انه قال توقد من شجرة مباركة
زيتونة لا شرقية ولا غربية واذا نظرت الى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا

عجيبا وذاك ان قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما القي فيه من النور وما هو عليه
من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كانها كوكب لصفائها واضاءتها واما الشجرة
المباركة التي لا شرقية ولا غربية فانها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم
لانه من ارض الحجاز التي لا تميل الى المشرق ولا الى المغرب واما زيت هذه الزجاجة حو
فانه مضي من غير ان تمسه نار والمراد بذلك ان فطرته فطرة صافية من الاكدار
منيرة من قبل مصافحة الانوار فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه
الاية واما الاية الاخرى فانه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم وذلك في
هيئته تحوله واستدارته لا في مقداره فان مقدار الهلال عظيم ولا نسبة للعرجون
لكنه في مراى النظر كالعرجون هيئة لا مقدارا واما هذا الكاتب فان تشبيهه
ليس على هذا النسق لانه شبه صورة الحصن بانملة في المقدار لا في الهيئة والشكل
وهذا غير حسن ولا مناسب وانما الفاه فيه انه قصد الهلال والقلامة مع
ذكر الانملة فاخطا من جهة واصاب من جهة لكن خطاه غطى على صوابه والقول
السديد في بلاغة التشبيه هو ما اذكره وهو ان اطلاق من اطلق قوله في ان من
شرط بلاغة التشبيه ان يشبه الاصغر بالاكبر فان هذا قول غير حاصر للغرض
المقصود لان التشبيه ياتي تارة في معرض المدح وتارة في معرض الذم وتارة في
غير معرض مدح ولا ذم وانما ياتي قصد الابانة والايضاح ولا يكون تشبيه اصغر
باكبر كما ذهب اليه من ذهب بل القول الجامع في ذلك ان يقال ان التشبيه لا يعد

اليه الا لضرب من المبالغة فاما ان يكون حمدا او ذما او بيانا او ايضاحا ولا يخرج
عن هذه المعاني الثلاثة واذا كان الامر كذلك فلا بد فيه من تقدير لفظة افعل وان
لم تقدر فيه لفظة افعل فليس بتشبيه بليغ الا ترى انا نقول في التشبيه المضمر الاداة
زيد اسد فقد شبهنا زيدا بالاسد الذي هو اشجع منه فان لم يكن المشبه به
في هذا المقام اشجع من زيد الذي هو المشبه والا كان التشبيه ناقصا اذ لا مبالغة
فيه واما التشبيه المظهر الاداة فكقوله تعالى وله الجواري المنشآت في
البحر كالاعلام وهذا تشبيه كبير بما هو اكبر منه لان خلق السفن البحرية كبير
وخلق الجبال اكبر منه وكذلك اذا شبه شي حسن بحسن فانه اذا لم يشبه
بما هو احسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة وان شبه قبيح بقبيح فكذا ينبغي
ان يكون المشبه به اقبح وان قصد البيان فالاصل ينبغي ان يكون المشبه به
ابين واوضح فتقدير لفظة افعل لا بد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه والا كان
التشبيه ناقصا فاعلم ذلك وقس عليه واعلم انه لا يخلو تشبيه الشيئين احدهما
بالاخر من اربعة اقسام اما تشبيه معنى بمعنى كالذي تقدم ذكره من قولنا زيد
كالاسد واما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى وعندهم قاصرات الطرف
عين كانهن بيض مكنون واما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى والذين كفروا اعمالهم
كسراب بقيعة وهذا القسم ابلغ الاقسام الاربعة لتمثيله تعالى الموهوم
بالصور المرئية واما تشبيه صورة بمعنى فكقول ابي تمام

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدى فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدى وذلك صورة مرئية بفتك الصبابة وهو فتك
معنوي وهذا القسم الطف الاقسام الاربعة لانه نقل صورة الى غير صورة وكل
واحد من هذه الاقسام الاربعة المشار اليها لا يخلو التشبيه فيه من اربعة
اقسام ايضا اما تشبيه مفرد بمفرد واما مفرد بمركب والمراد بقولنا مفرد ومركب
ان المفرد يكون تشبيه شي واحد بشي واحد والمركب يكون تشبيه شيئين بشيئين
اثنين وكذلك المفرد بالمركب والمركب بالمفرد فان احدهما يكون تشبيه شي واحد بشيئين
والاخر يكون تشبيه شيئين بشي واحد ولست اعني بقولي تشبيه شيئين بشيئين انه لا
يكون الا الى ذلك بل اردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما كقول بعضهم في الخمر

وكانها وكان حامل كاسها اذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

فشبه ثلاثة اشيا بثلاثة اشيا فانه شبه الساقي بالبدر وشبه الخمر بالشمس وشبه
الحبب الذي فوقها بالكواكب واذ ثبت ان التشبيه ينقسم الى تلك الاقسام
الاربعة فاني اقول اما التشبيه المضمر الاداة فقد قدمت القول في انه ينقسم الى
خمسة اقسام فالقسم الاول لا يرد الا في تشبيه مفرد بمفرد والقسم الثاني لا يرد
الا في تشبيه مفرد بمركب والقسم الثالث لا يرد الا في تشبيه مركب بمركب والقسم
الرابع والخامس لا يرد ان الا تشبيه مركب بمركب الا ترى انا اذا قلنا في القسم

الأول زيدٌ أسدٌ كان ذلك تشبيه مفردٍ بمفردٍ وإذا قلنا في القسم الثاني ما مثّلنا به
من الخبر النبوي وهو الكمأة جُدَريّ الأرض كان ذلك تشبيه مفردٍ بمركّب وكذلك بيت
البحتري وبيتا أبي تمام المشار إليهما فيما تقدّم وإذا قلنا في القسم الثالث ما أشرنا
إليه من الخبر النبوي أيضاً الذي هو وهل يكبّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد
ألسنتهم كان ذلك تشبيه مركّبٍ بمركّب وإذا قلنا في القسم الرابع والخامس ما مثّلنا به
من بيتي الفرزدق والبحتري كان ذلك تشبيه مركّبٍ بمركّب وإذا كان الأمر كذلك
وجاءك شيء من التشبيه المضمر الأداة وهو من القسم الأول فاعلم أنه تشبيه مفردٍ بمفرد
وإذا جاءك شيء من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركّبٍ بمركّب وكذلك إذا جاءك شيء
من القسم الرابع والخامس فإنهما من باب تشبيه المركّب بالمركّب ولنرجع إلى ذكر ما
أشرنا إليه أولاً من تقسيم التشبيه إلى الأربعة الأقسام الأخرى التي هي تشبيه
مفردٍ بمفردٍ وتشبيه مركّبٍ بمركّب وتشبيه مفردٍ بمركّب وتشبيه مركّبٍ
بمفردٍ فالقسم الأول منها كقوله تعالى في المضمر الأداة وجعلنا الليل لباساً شبّه
الليل باللباس وذلك أنه يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هرباً من عدوٍّ أو بياتاً
لعدوٍّ أو إخفاء ما لا يحبّ الاطلاع عليه من أمره وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها
إلا القرآن الكريم فإن تشبيه الليل باللباس مما اختصّ به دون غيره من الكلام
المنثور والمنظوم وكذلك قوله تعالى هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ فشبّه المرأة باللباس
للرجل وشبّه الرجل باللباس للمرأة ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى نساؤكم حرث لكم

وهذا

وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة والحرث هو الأرض التي تحرث
للزرع وكذلك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعاً كما يزدرع البذر في الأرض ومن هذا
الأسلوب قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فشبّه تبرّي الليل من النهار بانسلاخ
الجلد عن الجسم المسلوخ وذاك أنه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز
الليل أُجري عليهما اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن لو قيل يخرج لأن السلخ أدلّ على
الالتحام من الإخراج وهذا تشبيه في غاية المناسبة وكذلك ورد قوله تعالى
واشتعل الرأس شيباً فشبّه انتشار الشيب باشتعال النار ولما كان الشيب يأخذ
في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي
تشتعل في الجسم وتسري فيه حتى تحيله إلى غير حاله الأول وأحسن من هذا
أن يقال إنه شبّه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه وتعذّر تلافيه
وفي عظم الألم في القلب به وأنه لم يبق بعده إلا الخمود فهذه أوصاف أربعة جامعة
بين المشبّه والمشبّه به وذلك في الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم وقد ورد
في الأمثال الليل جُنّة الهارب وهذا تشبيه حسن وكل ذلك من التشبيه المضمر الأداة
ومما ورد منه شعراً قول أبي الطيب المتنبي

وإذا اهتزّ للندى كان بحراً وإذا اهتزّ للوغى كان نصلا
وإذا الأرض أظلمت كان شمساً وإذا الأرض أمحلت كان وبلا

فحرف التشبيه هاهنا مضمر وتقديره كأنه بحر وكأنه نصل وكذلك

مطلب

يقال في البيت الثاني كأنه شمس وكأنه كأنه ويل وهذا تشبيه صورة بصورة وهو حسن في معناه وكذلك ورد قول ابي نواس في تشبيه الحبب وهو

وإذا ما اعترضته العين من حيث استدارا
حلته في جنبات الكأس واوات صغارا

وهذا تشبيه صورة بصورة ايضا وقد ابرز هذا المعنى في لباس آخر فقال

وإذا علاها الماء البسها حببا شبيه جلاجل الحجل
حتى إذا سكنت جوانحها كتبت بمثل اكارع النمل

ومن هذا الباب قول البحتري

تبسم وقطوب في ندى ووغى كالرعد والبرق تحت العارض البرد

وهذا من احسن التشبيه واقربه الا ان فيه اخلالا من جهة الصنعة وهي ترتيب التفسير فان الاولى ان كان قدم تفسير التبسم على تفسير القطوب بان كان قال كالبرق والرعد فانظر ايها المتأمل الى هذا الفن كيف ذهب على البحتري مثل هذا الموضع على قربه مع تقدمه في صناعة الشعر وليس في ذلك كبير امر سوى ان كان قدم ما أخر لا غير وانما يعذر الشاعر في مثل هذا المقام اذا حكم عليه الوزن والقافية واضطراه الى ترك ما يجب عليه واما اذا كانت الحال كالذي ذكرها البحتري فحينئذ لا عذر له وسيأتي لذلك باب مفرد في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله وهو باب ترتيب التفسير وكذلك ورد قول البحتري

لا يخفى أن أوفق في الفخامة من ذكر الرعد مقترنا بلفظ الوغى من وجهين أحدهما أنه لف ونشر غير مرتب والثاني أن ذكر الرعد أنسب بالفخامة من ذكر الوغى فالبحتري أخطأ هذا وعلم أنه لو قال كما أشار إليه المؤلف لانحطت نكتته إلى دون مرتبته

[illegible]

١٧

في معرك ضنك تخال به القنا بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول ابي الطيب المتنبي

خرجن من النقع في عارض ومن عرق الركض في وابل
فلما نشفن لقين السياط بمثل صفا البلد الماحل

وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ واما القسم الثاني وهو تشبيه المركب بالمركب فمما جاء منه مضمر الاداة ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو حديث طويل يشتمل على فضائل اعمال متعددة ولا حاجة الى ايراده ها هنا على نصه بل نذكر الغرض وهو انه قال له النبي صلى الله عليه وسلم امسك عليك هذا واشار الى لسانه فقال معاذ او نحن مؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك امك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد السنتهم فقوله حصائد السنتهم من تشبيه المركب بالمركب فانه شبه الالسنة وما يمضي فيه من الاحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الارض وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع الا من النبي صلى الله عليه وسلم ومما ورد منه شعرا قول ابي تمام

معشر اصبحوا حصون المعالي ودروع الاحساب والاعراض

فقوله حصون المعالي من التشبيه المركب وذاك انه شبههم في منعهم المعالي ان ينالها احد سواهم بالحصون في منعها من بها وحمايته ولذلك قوله دروع

[illegible]

الاحساب ــــ واما المظهر الاداة فمما جاء منه قوله تعالى انما مثل الحياة
الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس والانعام حتى
اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او
نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس فشبهت حال الدنيا بسرعة زوالها
وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعد
ما التف وتكاثف وزين الارض وذاك تشبيه صورة بصورة وهو من ابدع ما جاء
في بابه ومن ذلك ايضا قوله تعالى في وصف حال المنافقين مثلهم كمثل الذي استوقد نارا
فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون تقديره ان مثل هؤلاء
المنافقين كمثل رجل اوقد نارا في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى ما
خاف وامن فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره فبقي مظلما خائفا وكذلك المنافق اذا اظهر
كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وامن على نفسه وماله وولده فاذا مات عاد
الى الخوف وبقي في العذاب والنقمة ومما ورد منه في الاخبار النبوية قول النبي صلى
الله عليه وسلم مثل المؤمن الذي يقرأ القران كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها
طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القران كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل
المنافق الذي يقرأ القران كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل المنافق
الذي لا يقرأ القران كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر وهذا من باب تشبيه
المركب بالمركب الا ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو

باب التشبيه بالكلام

متصف بوصفين هما الايمان والقراءة بالاترجة وهي ذات وصفين هما الطعم والريح
وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ وفي المنافق القارئ والمنافق غير القارئ
وقد جاءني شيء من ذلك اوردته في فصل من كتاب اصف فيه البر والمسير فقلت

مطلب

ولم ازل اصل الزميل بالزميل والف الضحى بالاصيل والارض كالبحر في سعة
صدره والمطايا كالجواري راكدة على ظهره فكان الركب منها كمثارهم من الكواكب
ومسيرهم فيها على كره لا تستقر بها حركة الادوار واما ما ورد من ذلك شعرا

فقول ــــ البحتري

خلق منهم تردد فيهم وليته عصابة عن عصابه
كالحسام الجراز يبقى على الدهر ويفنى في كل حين قرابه

وكذلك ورد قول ــــ ابن الرومي

ادرك ثقاتك انهم وقعوا في نرجس معه ابنة العنب
فهم بحال لو بصرت به سبحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

وهذا التشبيه صنيع الا ان تشبيه البحتري اصنع وذاك ان هذا التشبيه صادر
عن صورة مشاهدة وتشبيه البحتري صادر عن غير صورة مشاهدة وانما
استنبطه استنباطا من خاطره واذا شئت ان تفرق بين صناعتي التشبيه فانظر
الى ما اشرت اليه هاهنا فان كان احد التشبيهين عن صورة مشاهدة والاخر

عن غير صورة مشاهدة الذي عن صورة غير مشاهدة أصنع ولعمري إن التشبيهين
كليهما لابد فيهما من صورة تحكى لكن أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت والآخر
استنبطت له صورة لم تشاهد في تلك الحال وإنما الفكر استنبطها ألا ترى
أن ابن الرومي نظر إلى الزرجون وإلى الخمر فشبه وأما البحتري فإنه مدح قوما
بأن خلق السماح باق فيهم ينتقل عن الأول إلى الآخر ثم استنبط لذلك تشبيها فأداه
فكره إلى السيف وفرنده التي تفنى في كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ومن أجل
ذلك كان البحتري أصنع في تشبيهه وسأورد ها هنا نبذة يسيرة من كلامي فمن ذلك ما
كتبته من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عكا
في سنة خمس وثمانين وخمسمائة فقلت وأحاط به العدو إحاطة الشفاه بالثغور
ونزل عليه نزول الظلمة على النور وهذا من التشبيهات المناسبة ثم لما جئت إلى
ذكر قتال المسلمين إياه وإزالته عن جانب الثغر قلت ولقد اصطدم من الإسلام
والكفر جبل وجبل والتقى من عجاجيهما طفل وطفل وعند ذلك أخذ العدو في
التحيز إلى جانب وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب وإذا تزعزع البناء
فقد هوى وإذا قبض من طرف البساط فقد انطوى وهذا التشبيه في مناسبته
كالأول بل أحسن ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان
فقلت وما شبهت كآبته في وروده وانقباضه إلا بنظر الحبيب في إقباله
وإعراضه وكلا الأمرين كالسهم في ألم وقعه وألم نزعه والمشوق من

استوت

استوت صبابته في حالتي وصله وقطعه وما أزال على وجل من إرسال كتبه وإحجامها
واشتباه لمها بآلامها ومما جاء من هذا القسم في الشعر قول بكر بن النطاح

تراهم ينظرون إلى المعالي كما نظرت إلى الشيب الملاح
يحدون العيون إلى شزرا كأني في عيونهم السماح

وهذا بديع في حسنه بليغ في تشبيهه وعلى هذا النهج ورد قول أبي تمام

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتي في هذا الباب وقد تغالت شيعة أبي تمام في وصف هذا
البيت وهو لعمري كذلك ومن هذا القسم أيضا قوله

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأطمار

وكذلك قوله

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عني وعاوده ظني فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه لج في الطلب

وعلى هذا الأسلوب ورد قول علي بن جبلة

وإذا ما تردى لأمة الحرب أرعدت حشا الأرض واستدمى الرماح الشوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه صباح مشا في ظلمة الليل ساطع

وقد أحسن علي بن جبلة في تشبيهه هذا كل الإحسان وكذلك في الحسن أيضا

قوله في تشبيه الحبب فوق الخمر

ترى فوقها نمشًا للمزاج تباذير لا تستطيل اتصالا

كوجه العروس اذا خططت على كل ناحية منه خالا

ومن هذا القسم قول مسلم بن الوليد

يلقى المنية في امثال عدتها كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

وعلى هذا الاسلوب ورد قول العباس بن الاحنف

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لساني

نم دمعي فليس يكتم شيئا ووجدت اللسان ذا كتمان

كنت مثل الكتاب اخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

وهذا من اللطيف البديع ويروى عن ابي نواس لما دخل مصر مادحا للخصيب جلس يوما في رهط من الادباء وتذاكروا منازه بغداد فانشد ارتجالا

ذكر الكرخ نازح الاوطان فصبا صبوة ولات اوان

ثم اتم ذلك قصيدا مدح به الخصيب فلما عاد الى بغداد دخل عليه العباس بن الاحنف وقال انشدني شيئا من شعرك بمصر فانشده ذكر الكرخ نازح الاوطان فلما استتم الابيات قال لقد ظلمك من ناواك وتخلف عنك من جاراك وحرام على احد ان يتعوه بقول الشعر بعدك فقال له ابو نواس وانت ايضا يا ابا الفضل تقول مثل هذا انسيت القائل لا جزى الله دمع عيني خيرا

وانشد

وانشد الابيات ثم قال ومن الذي يحسن ان يقول مثل هذا ومن تشبيه المركب بالمركب قول البحتري

حلق يذود النحل عن اطرافها كالبحر يمنع ملحه عن مائه

وهذا من محاسن التشبيهات وكذلك ورد قوله

وتراه في ظلم الوغا فتخاله قمرا يكر على الرجال بكوكب

وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة اشياء بثلاثة اشياء فانه شبه العجاج بالظلم والممدوح بالقمر والسنان بالكوكب وهذا من الحسن النادر وكذلك ورد قوله

يمشون في زغف كان متونها في كل معركة متون نهاء

بيض تسيل على الكماة فضولها سيل السراب بقفرة بيداء

فاذا الاسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء

فالبيتان الاخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب وانما جينا بالبيت الاول سياقة الى معناها وهو من التشبيه الذي احسن فيه البحتري واغرب ومن هذا الباب ما ورد لبعض الشعراء في وصف الخمر فقال

كانت سراج اناس يهتدون بها في سالف الدهر قبل النار والنور

تهتز في الكاس من ضعف ومن هرم كانها قبس في كف مقرور

وقد يبدر للناظم او الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التي لا امد فوقها وهذا البيتان من هذا القبيل ومن اغرب ما سمعته في الباب قول الحسين بن مطير في معنى زاية

بالظلم

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وأما القسم الثالث في تشبيه المفرد بالمركب فمما ورد منه قوله تعالى الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية وكذلك قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن استنجادا فقلت وهو إذا استصرخ أصرخ بعزيمة كالشهاب في زخمة وهمّ كالقوس الممتلي نزع سهمه أو يرى أن صريخه لم يجب وأنه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب فهو معري جواده وحسامه ومسمع العدو صرير رمحه قبل قعقعة لجامه وكذلك أيضا ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان أذم الفراق فقلت والفراق شيء لا كالأشياء وصاحبه ميت لا كالأموات وحي لا كالأحياء وما أراه إلا كالنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة وما تجعل صاحبها في ضحضاح منها إلا تواتر الكتب التي تفيد بعض الوفاء وتقوم له وإن لم تسبق مقام اللقاء وأما ما ورد منه في الشعر فكقول أبي نواس

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وكقول أبي تمام يصف قصيدة له

خذها مثقفة القوافي ربها لسوابغ النعماء غير كنود

كالدر والمرجان ألف نظمها بالشذر في عنق الفتاة الرود

وكذلك ورد قول البحتري وهو من جملة قصيدته المشهورة التي وصف فيها الفرس والسيف وأولها

أهلا بذلكم الخيال المقبل

فقال فيها من أبيات تضمنت وصف السيف بيتا أجاد في تشبيهه

وكأنما سود النمال وحمرها دبت بأيد في قراه وأرجل

فشبه فرند السيف بدبيب النمل سودها وحمرها وذلك من التشبيه الحسن وأما ما ورد منه مضمر الأداة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفي وهذا تشبيه بليغ والوأد ما كانت العرب تفعله من دفن البنات أحياء فجعل العزل في الجماع كالوأد إلا أنه خفي وذاك أنهم كانوا يفعلون ذلك هربا منهن وهكذا من يعزل في الجماع فإنما يفعل ذلك هربا من الولد وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم هو الموؤودة الصغرى وهذا من الحسن على غاية تغض لها العيون طرفها ولا ينتهي الوصف إليها فيكون ترك وصفها كوصفها ومما جاء من فصل من كتاب ضمنته وصف القلم فقلت جدع أنفه فصار في الكيد قصيرا وأرهف صدره فصار في المضاء عصا شبيبا وقمص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ونكس رأسه وهي صورة الإذلال فاختال في مشيته من الإعجاب وأوحي إليه نجوى الخواطر وهو الأصم فأفضى بما سمعه إلى الكتاب وهذه الأوصاف المذكورة غريبة جدا ومن أغربها ذكر قصير جدع الأنف وأما القسم الرابع وهو تشبيه المركب بالمفرد فإنه قليل الاستعمال بالنسبة إلى الأقسام الثلاثة وليس

ذلك الا لعموم النظير بين المشبه والمشبه به وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم اجد
ما امثل به هذا القسم الا مثالا واحدا وهو قول ابي تمام في وصف الربيع

يا صاحبي تقصيا نظريكما ترايا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكانما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الابيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع في
موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة ولربما اعترض في هذا الموضع معترض
وقال انك اوردت هذا القسم من التشبيه وذكرت انه قليل وليس كذلك فان
تشبيه شيئين بشيء واحد كثير كقول ابي الطيب المتنبي

تشرق اعراضهم واوجههم كانها في نفوسهم شيم

فشبه اشراق الاعراض والوجوه باشراق الشيم الجواب عن ذلك اني اقول
هذا البيت المعترض به على ما ذكرته ليس كالذي ذكرته انا فاني اردت ان تشبه شيئان
هما كشيء واحد في الاشتراك بشيء واحد الا ترى ان نور الشمس مع بياض الزهر وهما
شيئان مشتركان قد شبها بضوء القمر واما هذا البيت الذي لابي الطيب المتنبي فانه
تشبيه شيئين كل واحد منهما منفرد براسه بشيء واحد لانه شبه اشراق الاعراض
واشراق الوجوه باشراق الشيم وهذا غير ما اردته انا لكن ينبغي ان يعلم ان تشبيه
المركب بالمفرد ينقسم قسمين احدهما تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد كالذي
اوردته لابي تمام وهو قليل الاستعمال والاخر تشبيه شيئين منفردين بشيء

واحد

واحد كالذي ذكرته لابي الطيب وهو كثير الاستعمال واذ ذكرنا اقسام التشبيه
وبينا المحمود منها الذي ينبغي اقتفاء اثره واتباع مذهبه فلنتبعه بضد ما ينبغي
اجتنابه والاضراب عنه على انه قد قدمنا القول بان حد التشبيه هو ان يثبت
للمشبه حكم من احكام المشبه به فاذا لم يكن بهذه الصفة او كان بين المشبه والمشبه
به بعد فذلك الذي يطرح ولا يستعمل والذي يرد منه مضمر الاداة لا يكون الا في
القسم الواحد من اقسام المجاز وهو التوسع وقد قدمت القول في ذلك في اول باب
الاستعارة وضربت لك امثلة منها قول ابي نواس

ما لرجل المال امست تشتكي منك الكلالا

فانه جعل للمال رجلا وذلك تشبيه بعيد ولا حاجة الى اعادة ذلك الكلام هاهنا
بجملته لكن قد اشرت اليه اشارة خفيفة ومن اقبح ما سمعته من ذلك قول ابي تمام

وتقاسم الناس السخاء مجزا وذهبت انت براسه وسنامه
وتركت للناس الاهاب وما بقي من فرثه وعروقه وعظامه

والقبح الفاحش في البيت الثاني فكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول
معنى ليس بطائل فان غرضه ان يقول ذهبت بالاعلى وتركت للناس الادنى او ذهبت
بالجيد وتركت للناس الردي وقد عيب عليه قوله

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكاي

وقيل انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد وما بهذا التشبيه عندي من باس

بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم وهو قريب من وجه بعيد من وجه اما سبب قربه فهو ان الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جناه وذلك مختص بالسمع فنقله ابو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق كانه قال لا تذقني الملام ولو تاتى له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا لكنه جا بذكر الماء فحط من درجته شيا ولما كان السمع يتجرع الملام اولا اولا كتجرع الحلق الماء صار كانه شبيه به وهو تشبيه معنى بصورة واما سبب بعد هذا التشبيه فهو ان الماء مستلذ والملام مستكره فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه فهذا التشبيه ان بعد من وجه فقد قرب من وجه فيغتفر هذا لهذا ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم وقد روى في رواية ضعيفة ان بعض اهل المجانة ارسل الى ابي تمام قارورة وقال ابعث لي في هذه شيا من ما الملام فارسل اليه ابو تمام وقال اذا بعثت الي ريشة من جناح الذل بعثت اليك شيا من ما الملام وما كان ابو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين فانه ليس جعل الذل للجناح كجعل الماء للملام فان الجناح للذل مناسب وذاك ان الطاير اذا وهن او تعب بسط جناحه وخفضه والقى نفسه على الارض وللانسان ايضا جناح فان يديه جناحاه واذا خضع واستكان طاطا من راسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الذل للجناح وصار تشبيها مناسبا واما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه واما التشبيه المظهر الاداة من هذا الباب فقد وردت

كلام عند كل عاقل ... والغم طريق لايصال اللذات وكذلك ما يسمع فان السمع طريق لذه يسمع الى القلب والقلب يذوق ما يسمع وما يشرب وما يشم ذواق لذة لا ذواق صفة وكانه قال قلبي يستلذ بما الدمع الذي لا اشربه ولا يلتذ بماء الملام الذي ايضا لا يصل بشرب فكان ... لا يصل الى القلب بشربه وكذلك ما الملام لا يصل بشرب فهذا مناسبة التشبيه وجه له على جعل ماء للملام ذكر

له امثلة يستدل بها على اشباهه وامثاله فان لذكر المثال فايدة لا تكون للاقتصار على ذكر الحد وحده فمن ذلك قول بعضهم

ملا حاجبيك الشيب حتى كانه ظبا جرت منها سنيح وبارح

وكذلك ورد قول الاخر يصف السهام

كساها رطيب الريش فاعتدلت لها قداح كاعناق الظباء الفوارق

فانه شبه السهام باعناق الظباء وذلك من ابعد التشبيهات وعلى نحو منه جاء قول الفرزدق

يمشون في حلق الحديد كما مشت جرب الجمال بها الكحيل المشعل

فشبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب وهذا من التشبيه البعيد لانه ان اراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون لان لون الحديد ابيض ومن اجل ذلك سميت السيوف بالبيض ومع كون هذا التشبيه بعيدا فانه تشبيه سخيف ومن التشبيهات الباردة قول ابي الطيب المتنبي

وجرى على الورق النجيع القاني فكانه النارنج في الاغصان

وهذا تشبيه ينكره اهل التقسيم واذا قسمت التشبيهات من البعد والبرد جاز لي في ذلك التقسيم وابشع من هذا التشبيه قول ابو نواس في الخمر

كان بوابنا واكدحولها وزرق سنا نيرتر عبونها

والعجب انه يقول مثل هذا العبث الذي لا ملايمة بينه وبين ما شبه به ونفرته

بالبديع النادر الذي أحسن فيه وأبدع وهو

كأنا خلول بين أكناف روضة ... إذا ما سلبناها مع الليل طيبها

فانظر كيف قرن بين وردة وسعدانة لا بل بين نعرة ومرجانة وقد أكثر في تشبيه الخمر فأحسن في موضع وأساء في موضع ومن إساءته قوله أيضا في أبيات لامية فقال

وإذا ما الماء واقعها ... أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها ... كانحدار الذر من جبل

فشبه الحبب في انحداره بنمل صغار تنحدر من جبل وهذا من البعيد على أنه لا يحتاج إلى بيان وإيضاح واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس وهو أن يجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول ولا تجد شيئا من ذلك إلا والغرض به المبالغة فمما جاء من ذلك قول ذي الرمة

ورمل كأرداف العذارى قطعته ... إذا ألبسته المظلمات الحنادس

ألا ترى إلى ذي الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وذاك أن العادة والعرف في هذا أن يشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء وهو مطرد في بابه فعكس ذو الرمة القضية في ذلك فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء وإنما فعل ذلك مبالغة في تبيين هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء وعلى نحو من هذا جاء قول البحتري

في طلعة البدر شيء من محاسنها ... وللقضيب نصيب من تثنيها

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها

سقى

سقى المطيرة ذات الظل والشجر

فقال ... في تشبيه الهلال

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدت من الظفر

ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الأصل وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص وأورده هكذا مهملا ولما نظرت أنا في ذلك وأنعمت النظر فيه تبين لي ما أذكره وهو أنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفعل أي يشبه بما هو أبين منه وأوضح أو بما هو أحسن منه أو أقبح وكذلك يشبه الأقل بالأكثر والأدنى بالأعلى وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة لأن الذي قدمنا ذكره مطرد في بابه وعليه مدار الاستعمال وهذا غير مطرد وإنما يحسن في عكس المعنى المتعارف وذاك أن يجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به ولا يحسن في غير ذلك مما ليس بمتعارف ألا ترى أن من العادة والعرف أن تشبه الأعجاز بالكثبان فلما عكس ذو الرمة هذه القضية في شعره جاء حسنا لائقا وكذلك فعل البحتري فإن من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقد الحسن بالقضيب فلما عكس البحتري القضية في ذلك جاء أيضا حسنا لائقا ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الأعجاز لما حسن ذلك وهكذا لو شبه البحتري طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدها لما حسن ذلك أيضا وهكذا

صوابه
انعتت

القول في تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقلامة لان من العادة ان تشبه القلامة بالهلال فلما صار ذلك مشهورا متعارفا حسن عكس التشبيه فيه

والحمد لله رب العالمين

تم الجزو الاول من كتاب المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ويتلوه في المجلد الثاني

النوع الثالث في التجريد وكان الفراغ

منه يوم الاربعا رابع شهر رجب المبارك

سنة تسع وسبعين وستماية

قوبل هذا المجلد من اوله الى آخره بالاصل

المنقول منه فصح حسب الطاقة والامكان

وحسبنا الله ونعم الوكيل

انهاه مطالعة ومراجعة

فقير عفو ربه الملك المعين

لعمر شاهين الشافعي

سنة خمس وثلثين

بعد الالف

انهاه السقا [illegible]
[illegible]

في نوبة العبد الفقير الى الله الصمد
سليمان بن ابراهيم بن سليمان
بن احمد ... ه
الحنفي لطف الله به بلطفه
الخفي ه

الجزو الثاني

من المثل السابر ه

تاليف الامام العالم ضيا الدين

ابو الفتح بن عبد الكريم المعروف

بابن الاثير رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم رب اتمم بعونك

النوع الثالث في التجريد

وهذا اسم كنت سمعته

فقال القايل التجريد في الكلام حسن ثم سكت فسألته عن حقيقته فقال كذا سمعت
ولم يزد فاعملت حينئذ نظري في هذا النوع من الكلام فالقي في روعي انه ينبغي ان يكون كذا وكذا
وكان الذي وقع لي صوابا ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل الي ما ذكره ابو علي الفارسي
رحمه الله وقد اوردته ها هنا وذكرت ما اتيت به من ذات خاطري من زيادة لم يذكرها
ويستقيل بها المتامل على كلامه وكلامي فاما حد التجريد فانه اخلاص الخطاب لغيرك
وانت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه لان اصله في وضع اللغة من قولهم جردت
السيف اذا نزعته من غمده وجردت فلانا اذا نزعت عنه ثيابه ومن ها هنا قال النبي
صلى الله عليه وسلم لا مد ولا تجريد وذلك في النهي عند اقامة الحدان يمد صاحبه على
الارض وان يجرد عنه ثيابه وقد نقل هذا المعنى الى نوع من انواع علم البيان وقد تاملته
فوجدت له فايدتين احداهما ابلغ من الاخرى فالاولى طلب التوسع في الكلام فانه اذا كان
ظاهره خطابا لغيرك وباطنه خطابا لنفسك فان ذلك من باب التوسع واظن انه شي
اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات والفايدة الثانية وهي الابلغ وذاك
ان يتمكن المخاطب من اجرا الاوصاف المقصودة من مدح او غيره على نفسه اذ يكون
مخاطبا بها غيره ليكون اعذر وابرا من العهدة في يقوله غير محجور عليه وعلى هذا فان
التجريد ينقسم قسمين احدهما تجريد محض والاخر تجريد غير محض فالاول وهو المحض

ان

200

ان تاتي بكلام وهو خطاب لغيرك وانت تخاطب به نفسك على ما تقدم القول فيه فتكون
قد جردت الخطاب عن نفسك وجعلته لغيرك وانت تريد به نفسك وذلك كقول بعض
المتاخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص في مطلع قصيدة له فقال

الام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كتمت نصيب الشعر علما وحكمة ببعضهما ينقاد صعب المفاخر
اما وابيك الخير انك فارس المقال ومحيي الدارسات الغوابر
وانك اعييت المسامع والنهى بقولك عما في بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد الا ترى انه اجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كي يتمكن
من ذكر ما ذكره من الصفات الفايقة وعد ما عدده من الفضايل النابهة وكل ما يجي من هذا
القبيل فهو التجريد المحض واما ما قصد به التوسع خاصة فكقول الصمة بن عبد
الله من شعر الحماسة

حننت الى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن ان تاتي الامر طايعا وتجزع ان داعي الصبابة اسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على ان المراد بالتجريد يعني التوسع لانه قال

واذكر ايام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية ان تصدعا
بنفسي تلك الارض ما اطيب الربا وما احسن المصطاف والمتربعا

فانتقل عن الخطاب التجريدي الى خطاب النفس ولو استمر على الحالة الاولى لما قضي عليه

[illegible]

ريا صح

صح

بالتوسّع وانّما كان يقضي عليه بالتجريد البليغ الذي هو الطرف الآخر ويتأول له بأن
غرضه من خطاب غيره ان ينفي عن نفسه سمعة الهوى ومعرّة العشق لما في ذلك من
الشهرة والفضاضة لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد اوّلًا الى خطاب النفس
وعلى هذا الأسلوب ورد قول ابي الطيب المتنبي

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحال
واجز الامير الذي نعماه فاجئة بغير قول ونعمى القوم اقوال

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الاخشيدي بمصر وكان وصله بصلة
سنية من نفقة وكسوة وطيب قبل ان يمدحه ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهي
من غرر شعره وقد بني مطلعها على المعنى المشار اليه من ابتدار فاتك اياه بالصلة قبل
المدح وليس في التجريد المذكور في هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تزكيتها
بالمدح كما ورد في الابيات الرابعة المقدم ذكرها وانما هو توسّع لا غير واما القسم
الثاني وهو غير المحض فانه خطاب لنفسك لا لغيرك ولئن كان بين النفس والبدن فرق
الا انهما كأنهما شيء واحد لعلاقة احدهما بالآخر وبين هذا القسم والذي قبله فرق
ظاهر وذاك اولى بان يسمّى تجريدًا لأن التجريد لائق به وهذا هو نصف تجريد لانك
لم تجرد به عن نفسك شيئًا وانما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهي منك فمما
جاء منه قول عمرو بن الاطنابة

اقول لها وقد جشأت وجاشت رويدك تحمدي او تستريحي

وكذا

وكذلك قول الآخر

اقول للنفس تاساءً وتعزيةً احدى يديّ اصابتني ولم ترد

وليس في هذا ما يصلح ان يكون خطابًا لغيرك كالأول وانّما المخاطب هو المخاطب بعينه
وليس ثمّ شيء خارج عنه واما الذي ذكره ابو علي الفارسي رحمه الله فانه قال ان
العرب تعتقد انّ في الانسان معنى كامنًا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى
الى الفاظها مجردًا من الانسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلانًا لتلقين
به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر وهو عينه الاسد وهو البحر لا ان هناك شيئًا
منفصلًا عنه او متميزًا منه ثم قال وعلى هذا النمط كون الانسان يخاطب نفسه حتى كأنه
يقاول غيره كما قال الاعشى   وهل تطيق وداعًا ايها الرجل
وهو الرجل نفسه لا غيره هذا خلاصة ما ذكره ابو علي رحمه الله والذي عندي فيه انه
اصاب في الثاني ولم يصب في الاوّل لان الثاني هو التجريد الا ترى ان الاعشى جرّد الخطاب
عن نفسه وهو يريدها واما الاول وهو قوله لئن لقيت فلانًا لتلقين به الاسد ولئن
سألته لتسألن منه البحر فان هذا تشبيه مضمر الاداة يحسن تقدير اداة التشبيه
فيه وبيان ذلك انك تقول لئن لقيت فلانًا لتلقين منه كالاسد ولئن سألته لتسألن منه
كالبحر وليس هذا بتجريد لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه وانما هو تشبيه
مضمر الاداة الا ترى ان المذكور هو كالاسد وهو كالبحر وليس ثمّ شيء مجرّد عنه
كما تقدم في الابيات الشعرية وسقط على ابي علي قوله ايضًا من وجه آخر وذاك

مطلب

انه قال إن العرب تعتقد أن في الانسان معنًى كامنًا كأنه حقيقته ومحصوله فتخرجه
الى الفاظها مجردًا من الانسان كأنه غيره وهو هو كالمثال الذي مثله في تشبيهه بالأسد
وتشبيهه بالبحر وهذا ينتقض بقولنا لئن رأيت الأسد لتزن منه هضبة ولئن لقيته لتلقين
منه الموت فان الصورة التي اوردها في الانسان وزعم ان العرب تعتقد ان ذلك معنًى
كامن فيه قد اوردنا مثلها في الأسد فتخصيصه ذلك بالانسان باطل وكلا الصورتين
ليس بتجريد وانما هو تشبيه مضمر الاداة وقد سبق القول بأن التجريد هو ان تطلق
الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد وانما المراد نفسك وهذا لا يوجد في هذا
التشبيه المضمر الاداة بل المخاطب هو هو لا غيره فلا يطلق اذًا اسم التجريد لأنه
خارج عن حقيقته ومنافٍ لموضوعه فاذا قال القائل لئن لقيته لتلقين به كالأسد
ولئن سألته لتسألن منه كالبحر لم يجرد عن المنقول عنه شيئًا وانما شبهه تارة بالاسد في
شجاعته وتارة بالبحر في سخائه وما اعلم كيف ذهب هذا على مثل ابي علي رحمه الله حتى
خلطه بالتجريد واجراه مجراه واما قوله ان العرب تعتقد ان في الانسان معنًى
كامنًا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فاقول وغير العرب ايضًا تعتقد ذلك فان عنى
بالمعنى الكامن معنى الانسانية الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع فما هذا من الشيء
الغريب الخفي الذي علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه ابو علي رحمه الله وان
عنى بالمعنى الكامن ما فيه من الاخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى
تشبه بالأسد تارة وبالبحر اخرى فليس الانسان مختصًا بهذا المعنى الكامن دون

غيره من الحيوانات بل الأسد فيه من معنى الشجاعة ما ليس في الانسان ولهذا
اذا بولغ في وصف الانسان بالشجاعة شبه بالأسد وكذلك في بعض الحيوانات
من السخاء ما ليس في الانسان ومن الامثال اكرم من ديك لأنه اذا ظفر بحبة
من الحنطة اخذها في منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها في منقار واحدة
منهن فالاخلاق اذن مشتركة بين الانسان وغيره من الحيوانات غير ان الانسان
تجتمع فيه ما تفرق في كثير منها وما اعلم ما اراد ابو علي رحمه الله بقوله ان في
الانسان معنًى كامنًا هو حقيقته ومحصوله الا ان يكون احد هذين القسمين اللذين
اشرت اليهما على ان القسم الواحد الذي هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الاخلاق
ليس عبارة عن حقيقة الانسان اذ لا يقال في حده حيوان شجاع ولا سخي بل يقال
حيوان ناطق فالنطق الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الانسان
فبطل اذن قول ابي علي رحمه الله في تمثيله حقيقة الانسان بالشجاعة والسخاء
فالخطأ توجه في كلامه من وجهين احدهما انه جعل حقيقة الانسان عبارة عن
خلقه والآخر انه ادخل في التجريد ما ليس منه وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع فليتأمل

النوع الرابع في الالتفات

وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن واليها تستند
البلاغة وعنها يعنعن وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله فهو
يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل

فيه عن صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب او من خطاب غائب
الى حاضر او من فعل ماض الى مستقبل او من مستقبل الى ماض او غير ذلك
مما يأتي ذكره مفصلا ويسمى ايضا شجاعة العربية وانما سمي بذلك لان الشجاعة
هي الاقدام وذاك ان الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا
يتورده سواه وكذلك هذا الالتفات في الكلام فان اللغة العربية تختص به دون
غيرها من اللغات وهو ينقسم الى ثلاثة اقسام

القسم الاول

في الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة اعلم ان جماعة المنتمين
الى هذا الفن اذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة الى الخطاب او عن الخطاب الى الغيبة
قالوا كذلك كانت عادة العرب في اساليب كلامها وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال
ونحن انما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من اجله وقال الزمخشري رحمه
الله ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من اسلوب
الى اسلوب تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه فان ذلك دليل على ان
السامع يمل من اسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح
في الكلام لا وصف له لانه لو كان حسنا لما مل ثم ولو سلمنا الى الزمخشري ما ذهب
اليه لكان انما يوجد ذلك في الكلام المطول ونحن نرى الامر بخلاف ذلك لانه قد
ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة في مواضع كثيرة
من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا لا يبلغ عشرة الفاظ او اقل من ذلك

ومفهوم

ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من اسلوب الى اسلوب انما يستعمل قصدا
للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصدا لاستعمال الاحسن وعلى هذا فاذا
وجدنا كلاما قد استعمل فيه جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه او استعمل فيه جميعه
الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا في موقعه قلنا هذا ليس بحسن
اذ لم ينتقل فيه من اسلوب الى اسلوب وهذا قول فيه ما فيه وما اعلم كيف ذهب على
مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة والذي عندي في ذلك
ان الانتقال من الخطاب الى الغيبة او من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته
وتلك الفائدة امر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب غير انها لا تحد بحد ولا
تضبط بضابط لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها فانا قد رأينا الانتقال
من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه قد استعمل
في الانتقال من الخطاب الى الغيبة وهو ضد الاول فعلمنا حينئذ ان الغرض الموجب
لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة وانما هو مقصور على
العناية بالمعنى المقصود وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر وانما يؤتى
بها على حسب الموضع الذي ترد فيه وسأوضح ذلك في ضرب الامثلة الآتي ذكرها
فاما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة الحمد لله
رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا
الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم هذا

رجوع من الغيبة الى الخطاب ومما يختص به هذا الكلام من الفوايد قوله اياك
نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله رب العالمين فانه انما عدل فيه من الغيبة
الى الخطاب لان الحمد دون العبادة الا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كانت الحال
كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال الحمد لله ولم يقل الحمد
لك ولما صار الى العبادة التي هي اقصى الطاعات قال اياك نعبد فخاطب بالعبادة
اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدود منها وعلى نحو من ذلك
جا اخر السورة فقال صراط الذين انعمت عليهم فاصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم
قال غير المغضوب عليهم ولم يقل غير الذين غضبت عليهم عطفا على الاول لان الاول
موضع التقرب من الله بذكر نعمه فلما صار الى ذكر الغضب جا باللفظ منحرفا عن
ذكر الغاضب فاسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا
فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الافهام تكاد تطاولها
والاوهام مع قربها صافحة عنها وهذه السورة قد انتقل في اخرها من الخطاب
الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهي تعظيم شان المخاطب ايضا لان مخاطبة الرب
تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه فينبغي ان يكون صاحب هذا
الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع انواعه في مواضعها على اشتباهها
ومن هذا الضرب قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيا ادا وانما
قيل لقد جئتم وهو خطاب للحاضر بعد قوله وقالوا وهو خطاب للغايب لفايدة

حسنة

حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراة على الله والتعرض لسخطه وتنبيه
لهم على عظيم ما قالوه وما جاء فيه الالتفات مرارا على قصر متنه وتقارب طرفيه
قوله تعالى في اول سورة بني اسراييل سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد
الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو السميع البصير
فقال اولا سبحان الذي اسرى بلفظ الواحد ثم قال الذي باركنا بلفظ الجمع
ثم قال انه هو السميع البصير وهو خطاب غايب ولو جا الكلام على مساق
الاول لكان سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى
الذي بارك حوله ليريه من اياته انه هو السميع البصير وهذا جميعه يكون
معطوفا على اسرى فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من
صيغة الى صيغة كان ذلك اتساعا وتفننا في اساليب الكلام ولمقصد اخر معنوي
هو اعلى وابلغ وسأذكر ما سنح لي فيه فاقول لما بدا الكلام سبحان الذي اسرى ردفه بقوله
الذي اسرى ... يجوز ان يقال الذي اسرينا فلما جا بلفظ الواحد والله تعالى
اعظم العظماء وهو اولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع استدرك
الاول بالثاني فقال باركنا ثم قال انه هو عطفا على اسرى وذلك موضع متوسط
الصفة لان السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره وتلك حال متوسطة
تخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه الى خطاب غايب فانظر الى هذه الالتفاتات
المترادفة في هذه الاية الواحدة التي جات لمعان اختصت بها يعرفها من يعرفها

وجعلها من جملتها ومما ينخرط في هذا السلك الرجوع من الغيبة الى خطاب النفس
كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا
او كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء
امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وهذا
رجوع من الغيبة الى خطاب النفس فانه قال وزينا بعد قوله ثم استوى وقوله
فقضاهن واوحى والفائدة في ذلك ان طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون
ان النجوم ليست في سماء الدنيا وانها ليست حفظا ولا رجوما فلما صار الكلام
الى هاهنا عدل به عن خطاب الغائب الى خطاب النفس لانه مهم من مهمات
الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة به المعتقدة بطلانه ومن خلاف
هذا الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الغيبة ومما ينخرط في هذا السلك
ايضا الرجوع من خطاب النفس الى الخطاب الجماعة كقوله تعالى ومالي لا
اعبد الذي فطرني واليه ترجعون وانما صرف الكلام عن خطاب نفسه الى
خطابهم لانه ابرز الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم
ليتلطف بهم ويداريهم لان ذلك ادخل في امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما
يريد لنفسه وقد وضع قوله تعالى ومالي لا اعبد الذي فطرني مكان قوله
وما لكم لا تعبدون الذي فطركم الا ترى الى قوله واليه ترجعون ولولا
انه قصد ذلك لقال الذي واليه ارجع وقد ساقه ذلك المساق الى ان

قال امنت بربكم فاسمعون فانظر ايها المتامل الى هذه النكت الدقيقة التي
تمر عليها في ايات القران الكريم وانت تظن انك فهمت فحواها واستنبطت
رموزها وعلى هذا الاسلوب يجري الحكم في الرجوع من خطاب النفس الى الخطاب
الواحد كقوله تعالى حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين
رحمة من ربك انه هو السميع العليم والفائدة هاهنا في الرجوع من خطاب
النفس الى خطاب الواحد تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر والاشارة
بان انزال الكتاب انما هو اليه وان لم يكن ذلك صريحا لكن مفهوم الكلام يدل
عليه واذا تاملت مطاوي القران الكريم وجدت فيه من هذا وامثاله اشيا
كثيرة وانما اقتصرنا على هذه الامثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجري على اسلوبها
وقد ورد في فصيح الشعر شي من ذلك كقول ابي تمام

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد اكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها اشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق اذا آبه هم عذيق مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر وبالعرمس الوجناء غرة آيب
كان به ضغنا على كل جانب من الارض او شوقا الى كل جانب
اذا العيس لاقت بي ابا دلف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب
هنالك تلقى الجود حيث تقطعت تمائمه والمجد مرخى الذوائب

الا ترى انه قال الاول يصرف مسرا انما مخاطبة للغايب ثم قال بعد ذلك اذا
العيس لاقت بي ابا المسك مخاطبا نفسه وفي هذا من الفايدة انه لما صار الى مشافهة الممدوح
والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشرا لها بالبعد عن المكروه والقرب
من المحبوب ثم جا بالبيت الذي يليه معدولا به عن خطاب نفسه الى خطاب غيره وهو
ايضا خطاب الحاضر فقال هنالك تلقى الجود والفايدة بذلك انه يخبر غيره بما
شاهده كانه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه اشادة بذكره وتنويها باسمه
وحملا لغيره على قصده وفي صفته لجود الممدوح بتلك الصفة البليغة وهي قوله
في حيث قطعت تمايمه ما يقتضي له الرجوع الى الخطاب الحاضر والمراد بذلك ان
محل الممدوح هو مالف الجود ومنشاه ووطنه وقد يراد به معنى اخر وهو ان هذا
الجود قد امن عليه الافات العارضة لغيره من المن والمطل والاعتذار وغير
ذلك اذ التمايم لا تقطع الا عمن امنت عليه المخاوف وعلى هذا النهج ورد قول
ابي الطيب المتنبي في قصيد يمدح بها ابن العميد في النوروز ومن عادة الفرس في
ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال في اخر القصيد

كثر الفكر كيف نهدي كما اهدت الى ربها الرييس عباده
والذي عندنا من المال والخيل فمنه هباته وقياده
فبعثنا باربعين مهارا كل مهر ميدانه انشاده
عددا عشته يرى الجسم فيه اربا لا يراه فيما يزاده

فارتبطها

فارتبطها فان قلبا نماها مربط تسبق الجياد جياده

وهذا من احسان ابي الطيب المعروف وهو رجوع عن خطاب الغايب الى الحاضر
واحتج ابو الطيب عن تخصيص ابياته بالاربعين دون غيرها من العدد بحجة
غريبة وهي انه جعلها كعدد السنين التي يرى الانسان فيها من القوة والشباب
وقضاء الاوطار ما لا يراه في الزيادة عليها فاعتذر بالطف اعتذار في تسلم بزد
القصيد على هذه العدة وهذا حسن غريب واما الرجوع من الخطاب الى الغيبة
فكقوله تعالى هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم
بريح طيبة وفرحوا بها جاتها ريح عاصف وجاهم الموج من كل مكان وظنوا انهم
احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لين انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين
فانه انما صرف الكلام ها هنا من الخطاب الى الغيبة لفايدة وهي انه ذكر لغيرهم
حالهم لتعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الانكار عليهم ولو قال حتى اذا كنتم
في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها وساق الخطاب معهم الى اخر الاية
لذهبت تلك الفايدة التي تنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام
ومما ينخرط في هذا السلك قوله تعالى ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون
وتقطعوا امرهم بينهم كل الينا راجعون الاصل في تقطعوا تقطعتم عطفا على
الاول الا انه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات كانه
ينعى عليهم ما افسدوه الى قوم اخرين ويقبح عندهم ما فعلوه ويقول الا ترون

إلى عظيم ما ارتكبوه ولأن في دين الله فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا وذلك
تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة
إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوه ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى
يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض
لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله
وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون فقوله إني رسول الله إليكم لكي تجري على
الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو
هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا
أو غيري إظهارًا للنصفة وبعدًا من التعصب لنفسه فقرر أولًا في صدر
الآية إني رسول الله إلى الناس ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة
لغرضين الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه والثاني الخروج من تهمة التعصب
لنفسه

فإنه إنما قال فآمنوا بالله ورسوله ولم يقل فآمنوا بالله وبي عطفًا على

القسم الثاني

في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر
وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا
للتوسع في أساليب الكلام فقط بل لأمر وراء ذلك وإنما يقصد إليه تعظيمًا لحال
من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيمًا لأمره وبالضد من ذلك فيمن أجري
عليه فعل الأمر فمما جاء منه قوله تعالى يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن

تاركي

بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا
بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون فإنه إنما قال أشهد
الله واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازيًا له ومعناه لأن إشهاده الله على
البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على
قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به
على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد علي أني أحبك
تهكمًا به واستهانة بحاله ولذلك ترجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر
إلا أنه ليس كالأول بل إنما يفعل ذلك توكيدًا لما أجري عليه فعل الأمر لمكان
العناية بتحقيقه كقوله تعالى قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل
مسجد وادعوه مخلصين له الدين الآية وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط
وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده
في نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص
الذي هو عمل القلب إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قال النبي
صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان
أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية
اقتضت ذلك وهذا لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة
الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها ولا تجد ذلك في كل كلام فإنه من

القسم الثالث

في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي

اشرف ضروب علم البيان وادقها فهمًا واغمضها طريقًا ا
في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي واعلم ان الفعل
اذا اتي به في حالة الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك ابلغ من الاخبار بالفعل
الماضي وذاك لان الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك
الصورة حتى كان السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي وربما ادخل
في هذا الموضع ما ليس منه جهلًا بمكانه فانه ليس كل فعل مستقبل يعطف على
ماض بجار هذا المجرى وسابين ذلك فاقول عطف المستقبل على الماضي ينقسم
الي ضربين احدهما بلاغي وهو اخبار عن ماض بمستقبل وهو الذي انا بصدد
ذكره في كتابي هذا الذي هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة
والاخر غير بلاغي وليس اخبارا بمستقبل عن ماض وانما هو مستقبل دل على
معنى مستقبل غير ماض ويراد به ان ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض فالضرب
الاول كقوله تعالى والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت
فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور فانه انما قال فتثير مستقبلا
وما قبله وبعده ماض لذلك المعنى الذي اشرنا اليه وهو حكاية الحال التي يقع
فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة
الباهرة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية لحال تستغرب او تهم
المخاطب او غير ذلك وعلى هذا الاسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام

رضي

رضي الله عنه في غزوة بدر فانه قال لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو
على فرس وعليه لامة كاملة لا يرى منه الا عيناه وهو يقول انا ابو ذات
الكرش وفي يدي عنزة فاطعن بها في عينه فوقع واطا برجلي على خده حتى خرجت
العنزة متعقفة فقوله فاطعن بها في عينه واطا برجلي معدول به عن لفظ
الماضي الى المستقبل ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الاقدام والجراة
على قتل ذلك الفارس المستلئم الا ترى انه قال اولا لقيت عبيدة بلفظ الماضي ثم
قال بعد ذلك فاطعن بها في عينه ولو عطف كلامه على اوله لقال فطعنت بها
في عينه وعلى هذا ورد قول تابط شرا

بانى قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان
فاضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران

فانه قصد ان يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كانه يبصرهم
اياها مشاهدة للتعجب من جراته على ذلك الهول ولو قال فضربتها عطفا على الاول
لزالت هذه الفايدة المذكورة فان قيل ان الفعل الماضي ايضا يتخيل منه السامع
ما يتخيله من المستقبل قلت في الجواب ان التخيل يقع في الفعلين معا لكنه في احدهما
وهو المستقبل اوكد واشد تخيلا لانه صورة الفعل حتى كان السامع ينظر الى
فاعلها في حال وجود الفعل منه الا ترى انه لما قال تابط شرا فاضربها تخيل
السامع انه مباشر للفعل وانه قايم بازاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها وهذا

لا يوجد في الفعل الماضي لأنه لا يتخيل السامع منه الا فعلاً قد مضى من غير احضار
للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه وهذا الاختلاف فيه وهكذا يجري الحكم
في جميع الآيات المذكورة وفي الاثر المنقول عن الزبير رضي الله عنه وفي الابيات
الشعرية وعليه ورد قوله تعالى ايضاً وهو ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو
خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان
واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر
من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق فقال اولاً خر من
السماء بلفظ الماضي ثم عطف عليه المستقبل الذي هو فتخطفه وتهوي وانما
عدل في ذلك الى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير اياه وهوي الريح
به والفائدة في ذلك هي ما اشرت اليه فيما تقدم وكثيراً ما يراعى امثال هذا
في القرآن الكريم واما الضرب الثاني الذي هو مستقبل دال على معنى مستقبل
فكقوله تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله فانه انما عطف المستقبل على
الماضي لان كفرهم كان ووجد ولم يستجدوا بعده كفراً ثانياً وصدهم متجدد على الايام
لم يمض كونه وانما هو مستمر يستأنف في كل حين وكذلك ورد قوله تعالى الم تر ان
الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير الا ترى كيف عدل عن
لفظ الماضي هاهنا الى المستقبل فقال فتصبح الارض مخضرة ولم يقل فاصبحت عطفاً
على انزل وذلك لافادة بقاء اثر المطر زماناً بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده

واخضرار

واخضرار الارض باق لم يمض وهذا كما تقول انعم علي فلان فاروح واغدو شاكراً له
ولو قلت فرحت وغدوت شاكراً له لم يقع ذلك الموقع لانه يدل على ماض قد كان
وانقضى وهذا موضع حسن ينبغي ان يتأمل واما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل
فهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته ان الفعل الماضي اذا اخبر به عن الفعل المستقبل
الذي لم يوجد بعد كان ذلك ابلغ واكد في تحقيق الفعل وايجاده لان الفعل الماضي
يعطي من المعنى انه قد كان ووجد وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المستقبل من الاشياء
العظيمة التي يستعظم وجودها والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن
الماضي ان الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كانه
يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على ايجاد الفعل الذي لم يوجد بعد فمن امثلة
الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في
السموات ومن في الارض فانه انما قال ففزع بلفظ الماضي بعد قوله ينفخ وهو
مستقبل للاشعار بتحقيق الفزع وانه كائن لا محالة لان الفعل الماضي يدل على وجود
الفعل وكونه مقطوعاً به وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى
الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً وانما قيل وحشرناهم ماضياً
بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير والبروز ليشا هدوا
تلك الاهوال كانه قال وحشرناهم قبل ذلك ومما يجري هذا المجرى الاخبار
باسم المفعول عن الفعل المستقبل وانما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي

وقد سبق الكلام عليه فمن ذلك قوله تعالى ان في ذلك لاية لمن خاف عذاب الاخرة
ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود فانه انما اثر اسم المفعول الذي هو مجموع
على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم
وانه الموصوف بهذه الصفة وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى يوم يجمعكم
ليوم الجمع فانك تعثر على صحة ما قلت

النوع الخامس في توكيد الضميرين

وربما قيل في هذا الموضع ان الضماير مذكورة في كتب النحو فاي حاجة الى ذكرها هاهنا
ولم يعلم ان النحاة لا يذكرون ما ذكرته لان هذا يختص بفصاحة وبلاغة واولئك
لا يتعرضون له وانما يذكرون تعداد الضماير وان المنفصل منها كذا والمتصل كذا
ولا يتجاوزون ذلك واما انا فاني اوردت في هذا النوع امرا خارجا عن الامر النحوي
واعني بقولي توكيد الضميرين ان يوكد المتصل بالمنفصل كقوله انك انت او يوكد المنفصل
بمنفصل مثله كقوله انت انت او يوكد المتصل بمتصل مثله كقوله انك انك لعالم او
انك انك لجواد وانما يوتى بمثل هذه الاقوال في معرض المبالغة وهو من اسرار
علم البيان ولنقدم في ذلك قولا يحصره ويجمع اطرافه فنقول اذا كان المعنى
المقصود معلوما ثابتا في النفوس فانت بالخيار في توكيد احد الضميرين فيه
بالاخر واذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى حينئذ ان يوكد احد
الضميرين بالاخر في الدلالة عليه ليتقرره ويثبته فمما جاء من ذلك قوله تعالى قالوا يا

موسى اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين فان ارادة السحرة للالقاء قبل موسى لم
تكن معلومة عنده لانهم لم يصرحوا بما في انفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة
خطابهم موسى بمثله الى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن علم انهم
يريدون التقدم عليه والالقاء قبله لان من شان مقابلة خطابهم موسى بمثله ان
كان قالوا اما ان تلقي واما ان نلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن انفسهم واما
ان نكون نحن الملقين استدل بهذا القول على رغبتهم في الالقاء قبله واما توكيد
المتصل بالمتصل فكقوله تعالى في سورة الكهف فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله
قال اقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال الم اقل لك انك لن تستطيع
معي صبرا وهذا بخلاف قصة السفينة فانه قال فيها الم اقل انك لن تستطيع معي
صبرا والفرق بين الصورتين انه اكد الضمير في الثانية دون الاولى فقال في الاولى
الم اقل انك وقال في الثانية الم اقل لك انك وانما جي بذلك للزيادة في مكافحة
العتاب على رفض الوصية مرة على مرة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو اتى الانسان
ما نهيته عنه فلمته وعنفته ثم اتى ذلك مرة ثانية اليس انك تزيد في لومه وتعنيفه
وكذلك تفعل هاهنا فانه قيل في الملامة اولا الم اقل انك ثم قيل ثانيا الم اقل لك انك
وهذا موضع يدق عن العثور عليه ببادرة النظر ما لم يعط التامل فيه حقه واما
توكيد المنفصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى فاوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف
انك انت الاعلى فتوكيد الضميرين هاهنا في قوله انك انت الاعلى انفى للخوف من

قلب موسى واثبت في نفسه الغلبة والقهر ولو قال لا تخف انك الاعلى او وانت
الاعلى لم يكن له من التقرير والاثبات لنفي الخوف ما لقوله انك انت الاعلى وفي هذه
الكلمات الثلاث وهي قوله انك انت الاعلى ست فوايد الاولى ان المشددة التي من
شانها الاثبات لما ياتي بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول ان زيدا قائم ففي قولك ان
زيدا قائم من الاثبات لقيام زيد ما ليس في قولك زيد قائم الثانية تكرير الضمير في
قوله انك انت ولو اقتصر على احد الضميرين لما كان بهذه المكانة من التقرير لغلبة
موسى والاثبات لقهره الثالثة لام التعريف في قوله الاعلى ولم يقل اعلا ولا عال
لانه لو قال ذلك لكان قد نكره وكان صالحا لكل واحد من جنسه كقولك رجل
فانه يصلح ان يقع على كل واحد من الرجال فاذا قلت الرجل فقد خصصته من
بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم وكذلك جا قوله انك انت الاعلا دون
غيرك الرابعة لفظ افعل الذي من شانه التفضيل ولم يقل العالي الخامسة اثبات
الغلبة له من العلو لان الغرض من قوله الاعلا اي الاغلب الا ان في الاعلا
زيادة وهي الغلبة من عال السادسة الاستيناف وهو قوله لا تخف انك انت
الاعلى ولم يقل لانك انت الاعلى لانه لم يجعل علة انتفا الخوف عنه لكونه عاليا وانما
نفى الخوف عنه اولا بقوله لا تخف ثم استانف الكلام فقال انك انت الاعلا
فكان ذلك ابلغ في ايقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلا واثبت لذلك
في نفسه وربما وقع لبعض الاغمار ان يعترض على ما ذكرناه في توكيد احد الضميرين

بالاخر فنقول لو كان توكيدهما ابلغ من الاقتصار على احدهما لورد ذلك عند
ذكر الله تعالى نفسه حيث هو اولى بما هو ابلغ واوكد من القول وقد راينا في القران
مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها احد الضميرين دون الاخر كقوله عز
اسمه قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشا وتنزع الملك ممن تشا وتعز من تشا
وتذل من تشا بيدك الخير انك على كل شي قدير ولم يقل انك انت على كل شي قدير فما
الموجب لذلك ان كان احد الضميرين بالاخر ابلغ من الاقتصار على احدهما الجواب
عن ذلك انا نقول قد قدمنا القول في اول هذا النوع انه اذا كان المقصود
معلوما ثابتا فصاحب الكلام مخير في توكيد احد الضميرين بالاخر فان اكد فقد اتى
بفضل بيان وان لم يوكد فلان ذلك المعنى ثابت لا يفتقر في تقريره الى زيادة تاكيد
كهذه الاية المشار اليها وهي قوله تعالى قل اللهم مالك الملك فان العلم بان الله
على كل شي قدير لا يفتقر الى تاكيد بتقريره وقد ورد ما يجري مجرى هذه الاية موكدا
كقوله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين
من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد
علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب فوكد في هذه
الاية ولم يوكد في الاية الاخرى وقد عرفتك الطريق في ذلك واما اذا كان
المعنى المقصود غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى ان يوكد بالضميرين في
الدلالة عليه كقوله تعالى قلنا لا تخف انك انت الاعلى فان موسى لم يكن متيقنا انه

غالب للتحيرة فلذلك وكد خطابه بالضميرين ليكون ابلغ في تقرير ذلك في نفسه واما
توكيد المنفصل بالمتصل مثله فكقول ابي الطيب المتنبي

فقيل انت انت وانت منهم وجدك بشر الملك الهمام

فقوله انت انت من توكيد الضميرين المشار اليهما وفايدته المبالغة في مدحه
ولو مدحه بما شاء الله من المدايح لما سد مسد قوله انت انت اي انك المشار اليه
بالفضل دون غيرك واما قوله وانت منهم فخارج عن هذا الباب وهو كلام مستانف
لا يتعلق بتوكيد الضميرين كانه قال انت الموصوف بكذا وكذا وانت من هذا القبيل
يريد بذلك مدح قبيله به وهذا البيت لم امثل به اختيارا له واستجادة وانما مثلت
به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل والا فالبيت ليس من الرضي لان سبكه سبك
عار من الحسن وفيه تقديم وتاخير وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه

النوع السادس في عطف المظهر على

ضميره والافصاح فيه بعده وهذا انما يعمد اليه لفايدة وهي تعظيم شان
الامر الذي اظهر عنده الاسم المضمر اولا ومثال ذلك قول القايل ولما التقينا
وبنو تميم اقبلوا نحونا يركضون فرايناا سودا تكاد تسابق الاسنة الى الورود
ولا ترتد على اعقابها اذا ارتدت امثالها من الاسود وتناجد بنو تميم علينا حملة
فلذنا بالفرار وتسنفنا الى تولية الادبار فانه انما قيل وتناجد بنو تميم مصرحا
باسمهم ولم يقل وتناجد وكما قيل اقبلوا للدلالة على التعجب من اقدامهم عند الحملة

وساهم

وساهم عند الصدمة لا سيما وقد اردف ذلك بقوله لذنا بالفرار واستبقنا الى
تولية الادبار كانه قال وتناجد اولئك الفرسان المشاهير والكماة المناكير
وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين ومما جاء من ذلك قوله تعالى
اولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا في الارض فانظروا
كيف بدا الخلق ثم الله ينشئ النشاة الاخرة الا ترى كيف صرح باسمه تعالى في
قوله ثم الله ينشئ النشاة الاخرة مع ايقاعه مبتدا في قوله كيف بدا الخلق
وقد كان القياس ان يقول كيف بدا الخلق ثم ينشئ النشاة الاخرة والفايدة في
ذلك انه لما كانت الاعادة عندهم من الامور العظيمة وكان صدر الكلام
واقعا معهم في الابداء وقررهم ان ذلك من الله احتج عليهم بان الاعادة انشا
مثل الابداء واذا كان الله الذي لا يعجزه شي هو الذي لا يعجزه الابدا فوجب
ان لا تعجزه الاعادة فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الامر الذي هو الاعادة
ابرز اسمه تعالى واوقعه مبتدا ثانيا وعلى هذا ورد قوله تعالى ويوم حنين
اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيا وضاقت عليكم الارض بما رحبت
ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المومنين وانزل جنودا لم تروها
وعذب الذين كفروا وذلك جزا الكافرين الا ترى انه قال اولا ويوم حنين اذ اعجبتكم
كثرتكم فذكر مضمرا تقدم الكلام فيه ثم عطف المظهر الذي هو له وهو قوله ثم انزل الله
سكينته على رسوله وعلى المومنين وكان العطف لو اضمر كما اضمر الاول لقيل ثم انزل الله

علي

سكينته عليكم وأنزل جنودا لم تروها وفائدة الإظهار هاهنا المعطوف بعد إضماره أولا
التنويه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المؤمنين ولأن الأمر عظيم وهو
الانتصار بعد الفرار فأي الأمرين قدر كان لإظهار المعطوف مناسبا وهكذا يكون عطف
المظهر على مضمره فإنه يستدل فائدته ثم ذكرها فإن لم يكن هناك مثل هذه الفائدة
وإلا فلا يحسن الإظهار بعد الإضمار وكذلك جاء قوله تعالى وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات
قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى
وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين فإنه إنما قال وقال الذين كفروا
ولم يقل وقالوا كالذي قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب
من كفرهم بليغ لا سيما وقد أضاف إليه قوله تعالى وقالوا للحق لما جاءهم وما فيه من
الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما في ذلك من المبادهة كأنه قال وقال أولئك
الكفرة المتمردون بجرأتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المبين قبل أن يتدبروه إن
هذا إلا سحر مبين وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى ص والقرآن ذي الذكر بل الذين
كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وعجبوا
أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وكان القياس أن يقال وقالوا
هذا ساحر كذاب عطفا على عجبوا وإنما أتى باسم الكافرين مظهرا بعد إضماره للإشعار
بتعظيم ما اجترؤوا عليه من القول في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولأن القول
كان أهم عندهم وأرسخ في نفوسهم فصرح باسم قائليه دلالة على ما كان في أنفسهم منه

النوع

النوع السابع في التفسير بعد الإبهام

اعلم أن هذا النوع لا يعمد إلى استعماله إلا لضرب من المبالغة فإذا جيء به في كلام
فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم وإعظامه لأنه هو الذي يطرق السمع أولا فيذهب
بالسامع كل مذهب كقوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع
مصبحين ففسر ذلك الأمر بقوله أن دابر هؤلاء مقطوع وفي إبهامه أولا وتفسيره
بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء
مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة فإن الإبهام أولا يوقع السامع في حيرة
وتفكر واستعظام لما قرع سمعه وتشوف إلى معرفته والاطلاع على كنهه فعلى
نحو من هذا جاء قوله تعالى قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة
أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ففسر
ما يوحى بقوله أن اقذفيه في التابوت وهذا كالأول في إبهامه أولا وتفسيره ثانيا
ومثل ذلك ورد قوله تعالى في سورة أم الكتاب اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين
أنعمت عليهم غير فإنه إنما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما في
الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين فدل عليه
أبلغ وجه كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ثم تقول فلان فيكون ذلك
أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل لأنك
ثنيت ذكره مجملا ومفصلا فجعلته علما في الكرم والفضل كأنك قلت من أراد

رجلا جامعا للخصلتين جميعا فعليه يتقلان فان قيل ما الفرق بين عطف المظهر على
ضميره وبين التفسير بعد الابهام فان المضمر كالمبهم الجواب عن ذلك انا نقول
ان كان سؤالك عن فايدتهما فانهما في الفايدة سوا وذلك انما يرد للتعظيم الحال والاعلام
بفخامة شانهما وان كان سؤالك عن الفرق بينهما في العبارة فانا نقول ان المضمر يأتي
بعد مظهر تقدم ذكره اولا ثم يعطف المظهر على ضميره اي على ضمير نفسه كالمثال
الذي ضربناه في بني تميم واما التفسير بعد الابهام فان المبهم يتقدم اولا وهو ان يذكر
شي يقع على محتملات كثيرة ثم يفسر بايقاعه على واحد منها وليس كذلك عطف المظهر
على ضميره ومما جا من التفسير بعد الابهام قوله تعالى وقال الذي آمن يا قوم
اتبعون اهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار
القرار من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن
فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب الا ترى كيف قال اهدكم سبيل
الرشاد فابهم الرشاد ولم يبين اي سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا
وتصغير شانها ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ثم ثلث بذكر الاعمال
سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف فكانه قال
سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة والامتناع من الاعمال
السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة الى الاعمال الصالحة رجا المجازاة عليها
وكذلك ورد قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت فانه انما قال

القواعد

القواعد من البيت ولم يقل قواعد البيت لما في ابهام القواعد اولا وتبيينها بعد ذلك
من تفخيم حال المبين ما ليس في الاضافة ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى وقال
فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله
موسى فانه لما اراد تفخيم ما امل فرعون من بلوغه من اسباب السموات ابهمها اولا
ثم فسرها ثانيا ولانه لما كان بلوغها امرا عجيبا اراد ان يورده على نفس متشوفة
ليعطيه السامع حقه من التعجب فابهمه ليشوف اليه نفس هامان ثم اوضحه
بعد ذلك وعلى هذا الاسلوب ورد قوله تعالى قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا
لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب
شديد فانه قال اولا انما اعظكم بواحدة فابهم الواحدة ثم فسرها بقوله ان
تقوموا لله مثنى وفرادى وان تتفكروا وهذا في القرآن الكريم كثير الاستعمال واما
الابهام من غير تفسير فكثير شايع في القرآن الكريم ايضا كقوله تعالى وفعلت فعلتك
التي فعلت وكذلك ورد قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم اي الطريقة
او الحالة او الملة التي هي اقومها واسدها واي ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح
ذوق البلاغة الذي تجده مع الابهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب
وايقاعه على محتملات كثيرة وهذا كقول القايل لو رايت عليا بين الصفين فانه
لو وصفه مهما وصف من حركة وشجاعة وثبات واقدام واطال القول في
ذلك لم يكن بمثابة ما تراى اليه الوهم مع الابهام وهذا لا يخفى على العارف

برموز هذه الصناعة وأسرارها. وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأبلغ من ذلك قوله تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فإنه قال في تلك الآية فغشيهم من اليم ما غشيهم فذكر اليم وهو البحر فصار الذي غشيهم إنما هو منه خاصة، وقال في هذه الآية فغشاها ما غشى فأبهم الأمر الذي غشاها وجعله عاما وذلك أبلغ لأن الإنسان يذهب وهمه فيه كل مذهب. وأما ما جاء من ذلك شعرا فقول البحتري

بعيد مقيل الصدر لا يتقبل التي يحاولها منه الأريب المخادع

فقوله التي يحاولها من الإبهام المقدم ذكره في الآية. ومما ينتظم بذلك قول الشاعر في أبيات الحماسة

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

فقوله صبا ما صبا من الإبهام الذي لو قدرت ما قدرت في تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام. وعليه ورد قول الآخر في وصف الخمر

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذي قبله. ومثله ورد قول بعض المتأخرين

فؤاد فيه ما فيه

وعلى هذا ورد قولي في فصل من تقليد لبعض الوزراء فقلت وأنت موهل لواحدة تخلو لها غرر الجياد وتنادبها العليا بالسان الآحاد تجرى بها سمر الأقلام على سمر الصعاد فابسط بذكرها لأخبركا بها

واسع

واسع لطيب ذكرها بعد سبيلك في طلابها. واعلم أن الخطاب بها كثير لكنها صدت بك عن خطابها، ولقد مضى عليها زمن وهي نفور حتى استعادها الآن بأنسك ولم تسبق الأقدار باسمك إلا لتكون سليمانها وهي بلقيسك. وهذا الوزير كان اسمه سليمان فسقت المعنى إليه كما تراه من الحسن واللطافة. وأما قولي وأنت موهل لواحدة فإنه من الإبهام من غير تفسير وذلك بخلاف ما ورد في الآية المقدم ذكرها الآن بل من التفسير بعد الإبهام. ومما ينتظم في هذا السلك الاستثناء العددي وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد من العدد فيكبر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرناه من الإبهام أولا ثم التفسير بعده ثانيا. وذلك كقول القائل أعطيته مائة إلا عشرة أو أعطيته ألفا إلا مائة فإن ذلك أبلغ من أن لو قال أعطيته تسعين أو تسعمائة. وعليه ورد قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما. الفائدة حسنة وهي ذكر ما ابتلي به نوح من أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته وتثبيتا له فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه

النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

اعلم انه اذا كان الشيان احدهما خاصا والآخر عاما فان استعمال العام في حالة
النفي ابلغ من استعماله في حالة الاثبات وكذلك استعمال الخاص في حالة الاثبات
ابلغ من استعماله في حالة النفي مثال ذلك الانسانية والحيوانية فان
اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية وكذلك
نفي الحيوانية يوجب نفي الانسانية ولا يوجب اثباتها اثبات الانسانية ومما
ينتظم بذلك الاسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يكون بينها وبين واحدها
تاء التانيث فانه متى اريد النفي كان استعمال واحدها ابلغ ومتى اريد الاثبات كان
استعمالها ابلغ وكذلك يتصل بهذا النوع الصفتان الواردتان على شيء واحد فانه
اذا لزم من وجود احديهما وجود الاخرى اكتفي بها في الذكر ولم يحتج الى ذكر الاخرى
لانه يجيء ضمنا وتبعا وان بدي بها في الذكر اولا ثم تجيء الاخرى بعدها واما الصفات
المتعددة فانه ينبغي ان يبدا في الذكر بالادنى مرتبة ثم بعدها بما هو اعلى منها الى
ان ينتهي الى آخرها هذا في مقام المدح فان كان في مقام الذم عكست القضية فالاول
وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما
حوله ذهب الله بنورهم ولم يقل ذهب بضوئهم موازنا لقوله فلما اضاءت لان ذكر
النور في حالة النفي ابلغ من ان الضوء فيه دلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب
الله بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نورا لان الاضاءة
هي فرط الانارة قال الله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا فالضوء

نور وليس كل نور ضوءا فالغرض من قوله ذهب الله بنورهم انما هو ازالة النور
عنهم اصلا فهو اذا ازاله فقد ازال الضوء وكذلك ايضا قوله تعالى ذهب الله بنورهم
ولم يقل اذهب نورهم لان كل من ذهب بشيء فقد اذهبه وليس كل من اذهب شيئا فقد
ذهب به لان الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به وفي ذلك نوع اخبار بالاخذ
به وامساك له عن الرجوع الى حالته والعود الى مكانه وليس كذلك الاذهاب للشيء
لزوال المعنى الاخباري عنه ومما يحمل على ذلك الاوصاف الخاصة اذا وقعت على شيئين
وكان يلزم من وصف احدهما وصف الآخر ولا يلزم عكس ذلك ومثاله قوله تعالى سارعوا
الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض فانه انما خص العرض بالذكر
دون الطول للمعنى الذي اشرنا اليه والمراد بذلك انه اذا كان هذا عرضها فكيف
يكون طولها وهذا في حالة الاثبات ولو اريد النفي لكان له اسلوب غير ما ذكرناه وهو
ان كان يختص به الطول دون العرض واما الاسماء المفردة الواقعة على الجنس فنحو
قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين
قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين فانه انما قال ليس بي ضلالة
ولم يقل ليس بي ضلال كما قالوا لان الضلالة ابلغ في نفي الضلال عنه كما لو قيل الك
تمر فقلت في الجواب ما لي تمرة وذلك انفى للتمر ولو قلت ما لي تمر لما كان يؤدي من
المعنى ما اداه القول الاول وفي هذا الموضع دقة تحتاج الى فضل تامل فينبغي لصاحب
هذه الصناعة مراعاته والعناية به فان قيل لا فرق بين الضلالة والضلال وكلاهما

مصدرٌ لقولنا ضلَّ يضِلُّ ضلالًا أو ضلَّ يضلُّ ضلًّا لهُ كما يقال الذّي بلغني لذاذه فالجواب
عن ذلك أنَّ الضلال لا تكون مصدرًا كما قلت وتكون عبارة عن المرّة الواحدة تقول
ضلَّ يضلُّ ضلالةً أي مرّةً كما تقول ضرب يضرب ضربةً وقام يقوم قومةً وأكل يأكل
أكلةً والمراد بالضلالة في هذه الآية إنّما هو عبارة عن المرّة الواحدة لا عن المصدر
وإذا نفى نوحٌ عليه السلام عن نفسه المرّة الواحدة من الضلال فقد نفى ما فوقها
من المرّتين والمرار الكثيرة وأمّا الصفتان الواردتان على شيءٍ واحدٍ فكقول
الأشتر النخعي

حلقتُ وفري وانحرفتُ عن العلى ولقيتُ أضيافي بوجهِ عبوسِ
إن لم أشُنّ على ابن حربٍ غارةً لم تخلُ يومًا من نهاب نفوسِ
خيلًا كأمثال السعالي شزّبًا تعدو ببيضٍ في الكريهة شوسِ
حمي الحديد عليهم فكأنّه ومضان برقٍ أو شعاع شموسِ

ألا ترى أنّه رقى في التشبيه من الأدنى إلى الأعلى فقال لمعان برقٍ أو شعاع شموسٍ لأنّ
لمعان البرق دون شعاع الشموس وممّا ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى ما لهذا
الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها فإنّ وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم
منه وجود المؤاخذة على الكبيرة وعلى القياس المشار إليه أوّلًا ينبغي أن يكون لا يغادر
كبيرةً ولا صغيرةً لأنّه إذا لم يغادر صغيرةً فمن الأولى أن لا يغادر كبيرةً وأمّا إذا لم يغادر
كبيرةً فإنّه يجوز أن يغادر صغيرةً لأنّه إذا لم يعف عن الصغيرة اقتضى القياس أنّه

لا يعفو عن الكبيرة وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة غير أنّ
القرآن الكريم أحقّ أن يتّبع وأجدر بأن يقاس عليه لا على غيره والذي ورد فيه من
هذه الآية ناقض لما تقدّم ذكره وكذلك ورد قوله تعالى فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما
لأنّ النهي عن التأفيف أدنى درجةً وقد تقدّم قولي في أوّل هذا النوع أنّه إذا جاء بصفتان
يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يُكتفى بذكرهما دون الأخرى لأنّ الأخرى
تجيء ضمنًا وتبعًا أو أن يبدأ بها في الذكر ثمّ تجيء الأخرى بعدها وعلى هذا فيقال ولا
تنهرهما ولا تقل لهما أفٍّ لكن إذا لم يقل لهما أفٍّ امتنع أن ينهرهما وقد كان هذا هو المذهب
عندي حتّى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه وحينئذٍ عدت كما كنت أراه
وأقول به وأمّا الصفات المتعدّدة الواردة على شيءٍ واحدٍ فكقول أبي عبادة
البحتري في وصف نحول الركاب

يترقرقن كالسراب وقد خضن غمارًا من السراب الجاري
كالقسيّ المعطّفات بل الأسهم مبريّةً بل الأوتار

ألا ترى أنّه رقي في تشبيه نحولها من الأدنى إلى الأعلى فشبّهها أوّلًا بالقسيّ
ثمّ بالأسهم المبريّة وتلك أبلغ في النحول ثمّ بالأوتار وهي أبلغ في النحول من الأسهم
وكذلك ينبغي أن يكون الاستعمال في مثل هذا الباب وقد أغفل كثيرٌ من الشعراء
ذلك فمن جملتهم أبو الطيّب المتنبّي في قوله

يا بدر يا بحر يا غمامة يا ليث الشرى يا حمام يا رجل

اشتمال التحذير عنه وأنّها لو كانت مساوية للصغيرة لا كتفى بها فعلم أنّها أبلغ وآكد في المؤاخذة فكان الزجر عنها أبلغ من الزجر عن الصغيرة لأنّها ذكرت مرّة بالإبهام ومرّة بالذكر بعد الإبهام وكذلك قوله ولا تنهرهما فإنّه المقصود بالذات النهي عنه وإنّما الأوّل تمهيد للمبالغة حتّى تأكّد الزجر عن النهر لهما ولا يمكن هذا المعنى باجتماع من هذه العبارة المذكورة في القرآن ولا بالطف والمجزة

وينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتقي من محل إلى محل
أعلى منه وإذا خالفه كان كالمنحط من محل إلى محل أدنى منه فأما قوله يا بدر فإنه
اسم الممدوح والابتداء به أولى ثم بعده يجب أن يقول يا رجل يا ليث يا غمامة يا بحر
يا حمام لأن الليث أعظم من الرجل والغمامة أعظم من الليث والبحر أعظم من الغمامة
والحمام أعظم من البحر وهذا مقام مدح فيجب أن يرتقي فيه من منزلة إلى منزلة حتى
ينتهي إلى المنزلة العليا آخرا ولو كان مقام ذم لعكس القضية وعلى مثله ورد قول
أبي تمام يفتخر

سمي لأوس في الفخار وحاتم ... وزيد القنا والأثرمان ورافع

نجوم طوالع جبال فوارع ... غيوث هوامع سيول دوافع

فإن السيول دون الغيوث والجبال دون النجوم ولو قدم ما أخره لما أخل النظم
بأن قال

سيول دوافع غيوث هوامع ... جبال فوارع نجوم طوالع

وهو عندي أشد ملامة من المتنبي لأن المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها
وأبو تمام متمكن من ذلك وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع
معرفته بالمعاني

النوع التاسع في التقديم والتأخير

وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته ومنها ما

وجدته

وجدته في أقوال علماء البيان وسأورد ذلك مبينا وهو ضربان الأول يختص
بدلالة الألفاظ على المعاني ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى والثاني
يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغير
المعنى فأما الضرب الأول فإنه ينقسم إلى قسمين أحدهما يكون التقديم فيه هو
الأبلغ والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ فأما القسم الذي يكون التقديم
فيه هو الأبلغ فكتقديم المفعول على الفعل وتقديم الخبر على المبتدأ وتقديم
الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك
زيدا ضربت وضربت زيدا فإن في قولك زيدا ضربت تخصيصا له بالضرب دون
غيره وذلك بخلاف قولك ضربت زيدا لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في
إيقاعه على أي مفعول شئت بأن تقول ضربت خالدا أو بكرا أو غيرهما فإذا
أخرته لزم الاختصاص للمفعول وكذلك تقديم خبر المبتدأ عليه كقولك
زيد قائم وقائم زيد فقولك قائم زيد قد أثبت له القيام دون غيره وقولك زيد
قائم أنت بالخيار في إثبات القيام له بأن تقول ضارب أو جالس أو غير ذلك وهكذا
يجري الحكم في تقديم الظرف كقولك إن إلي مصير هذا الأمر وقولك إن مصير
هذا الأمر إلي فإن تقديم الظرف دل على أن مصير الأمر ليس إلا إليك وذلك بخلاف
قولك إن مصير هذا الأمر إلي إذ يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك فيقال
إلى زيد أو عمرو أو غيرهما وكذلك يجري الأمر في الحال والاستثناء وقال علماء البيان

ومنهم الزمخشري رحمه الله ان تقديم هذه الصور المذكورة انما يكون للاختصاص
وليس كذلك والذي عندي فيه انه يستعمل على وجهين احدهما الاختصاص والآخر
مراعاة نظم الكلام وذاك ان يكون نظمه لا يحسن الا بالتقديم فاذا اخر المقدم ذهب
ذلك الحسن وهذا الوجه ابلغ واوكد من الاختصاص فاما الاول الذي هو الاختصاص
فنحو قوله تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد اوحي اليك والى الذين
من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين
ولم يقل بل الله لانه اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ولو قال بل
اعبد لجاز ايقاع الفعل على اي مفعول شاء والوجه الثاني الذي يختص بنظم الكلام فنحو
قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ان التقديم
في هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على
الفعل للاختصاص وانما قدم لمكان نظم الكلام لانه لو قال نعبدك ونستعينك
لم يكن له من الحسن ما لقوله اياك نعبد واياك نستعين الا ترى انه تقدم قوله تعالى
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فجاء بعد ذلك اياك نعبد واياك
نستعين وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ولو قال نعبدك
ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن وهذا غير خاف على احد
من الناس فضلا عن ارباب علم البيان وعلى نحو منه ورد قوله تعالى فاوجس في
نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك انت الاعلى وتقدير الكلام فاوجس موسى

في نفسه خيفة وانما قدم المفعول على الفعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول
وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التاخير من باب
الاختصاص فبطل اذن ما ذهب اليه الزمخشري وغيره ومما ورد من هذا الباب
قوله تعالى خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه فان تقديم الجحيم على التصلية وان كان
فيه تقديم المفعول على الفعل الا انه لم يكن هاهنا للاختصاص وانما هو للفضيلة
السجعية ولا مراء في ان هذا النظم على هذه الصورة احسن من ان لو قيل خذوه
فغلوه ثم صلوه الجحيم فان قيل انما قدمت الجحيم للاختصاص لانها نار عظيمة ولو اخرت
لجاز وقوع الفعل على غيرها كما يقال ضربت زيدا وزيدا ضربت وقد تقدم الكلام على ذلك
فالجواب ان الدرك الاسفل اعظم من الجحيم فكان ينبغي ان يخص بالذكر دون
الجحيم على ما ذهب اليه لانه اعظم وهذا لا يذهب اليه الا من هو بنجوة عن رموز
الفصاحة والبلاغة ولفظة الجحيم هاهنا في هذه الآية اولى بالاستعمال من غيرها
لانها جاءت ملائمة لنظم الكلام الا ترى ان من اسماء النار السعير ولظى وجهنم ولو
وضع بعض هذه الاسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم والمقصود
بذكر الجحيم انما هو النار اي صلوه النار وهكذا يقال في سلسلة ذرعها سبعون
ذراعا فاسلكوه فانه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص وانما قدمت
لمكان نظم الكلام ولا شك ان هذا النظم احسن من ان لو قيل ثم اسلكوه في
سلسلة ذرعها سبعون ذراعا والكلام على هذا كالكلام على الذي قبله وله في

القرآن نظاير كثيرة ألا ترى إلى قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم
مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل
حتى عاد كالعرجون القديم فقوله والقمر قدرناه منازل ليس تقديم المفعول فيه
على الفعل من باب الاختصاص وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام فإنه قال والليل
نسلخ منه ثم قال والشمس تجري فاقتضى حسن النظم أن يقول والقمر قدرناه ليكون
الجميع على نسق واحد في النظم ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في
الحسن وعليه ورد قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السايل فلا تنهر تقديره ولا
تقهر اليتيم ولا تنهر السايل وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعي وأما تقديم
خبر المبتدا عليه فقد تقدمت صورته كقولك زيد قايم وقايم زيد فمما ورد منه
في القرآن الكريم قوله تعالى فظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فإنه إنما قال ذلك
ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لأن في تقديم الخبر الذي هو مانعتهم
على المبتدا الذي هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها وزيادة وثوقهم
بمنعها إياهم وفي تصويب ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم
في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع لا يبالي معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض
وليس شي من ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم مانعتهم ومن تقديم خبر المبتدا
قوله تعالى قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبرهيم فإنه إنما قدم خبر المبتدا عليه في
قوله أراغب أنت ولم يقل أنت راغب لأنه كان أهم عنده وهو به شديد

العناية

العناية وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة ابرهيم عن آلهته فإن آلهته
لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو قال أنت راغب عن آلهتي ومن غامض هذا
الموضع قوله تعالى واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا فإنه
إنما قال ذلك ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين أحدهما تخصيص
الأبصار بالشخوص دون غيره والآخر تخصيص الكفار بالشخوص دون غيرهم
أما الأول فلو قال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع
شاخصة غيره فيقول حايرة أو مطموسة أو غير ذلك فلما قدم الضمير اختص
الشخوص بالأبصار دون غيرها وأما الثاني فإنه لما أراد أن الشخوص خاص بهم
دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولا ثم بصاحبه ثانيا كأنه قال فإذا هم
شاخصون دون غيرهم ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال فإذا
أبصار الذين كفروا شاخصة لأنه أخصر بحذف الضمير من الكلام ومن هذا
النوع قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سيل عن ماء البحر فقال هو الطهور
ماؤه الحل ميتته وتقدير الكلام هو الذي ماؤه طهور وميتته حلال لأن
الألف واللام ههنا بمعنى الذي وأما تقديم الظرف فإنه إذا كان الكلام
مقصودا به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره وفايدته إسناد الكلام
الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره فإذا أريد بالكلام النفي فيحسن
فيه تقديم الظرف وتأخيره وكلا هذين الأمرين له موضع يختص به فأما تقديمه

في النفي فإنه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره وأما تأخيره فإنه يقصد به النفي
أصلاً من غير تفضيل فأما الأول وهو تقديم الظرف في الإثبات فكقولك في
الصورة المتقدمة إن إلي مصير هذا الأمر ولو أخرت الظرف فقلت إن مصير
هذا الأمر إلي لم يعط من المعنى ما أعطاه الأول وذلك أن الأول دل على أن مصير
الأمر ليس إلا إليك وذلك بخلاف الثاني إذ يحتمل أن يوقع الكلام بعد الظرف على
غيرك فيقال إلى زيد أو عمرو أو غيرهما وعلى نحو منه جاء قوله تعالى إن إلينا إيابهم
ثم إن علينا حسابهم وكذلك جاء قوله تعالى يسبح لله ما في السموات وما في الأرض
له الملك وله الحمد فإنه إنما قدم الظرفان هاهنا في قوله له الملك وله الحمد ليدل
بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره وقد يستعمل تقديم الظرف
في القرآن كثيراً كقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة أي تنظر إلى
ربها دون غيره فتقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص وإنما هو كالذي أشرت
إليه في تقديم المفعول وأنه لم يقدم للاختصاص وإنما قدم من أجل نظم الكلام
لأن قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة أحسن من أن لو قيل وجوه
يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها والفرق بين النظمين ظاهر وكذلك قوله والتفت
الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فإن هذا روعي فيه حسن النظم لا الاختصاص
في تقديم الظرف وفي القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف
بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك

منها

منها قوله تعالى إلى ربك يومئذ المستقر وإلى ربك تصير الأمور وإليه ترجعون
وعليه توكلت وإليه أنيب فإن هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص وإنما
قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام فاعرف ذلك وأما الثاني وهو تأخير الظرف
وتقديمه في النفي فنحو قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله لا فيها غول
ولا هم عنها ينزفون فإنه إنما أخر الظرف في الأول لأن القصد في إيلاء حرف
النفي الريب نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون
يدعونه ولو أولاه الظرف لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله
لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون فتأخير الظرف يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل
وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا أي
ليس فيها ما في غيرها من الغول وهذا مثل قولنا لا عيب في الدار وقولنا لا فيها
عيب فالأول نفي العيب عن الدار فقط والثاني تفضيلها على غيرها أي ليس فيها
ما في غيرها من العيب فاعرف ذلك فإنه من دقائق هذا الباب وأما تقديم الحال
فكقولك جاء راكباً زيد وهذا بخلاف قولك جاء زيد راكباً إذ يحتمل أن يكون ضاحكاً أو
ماشياً أو غير ذلك وأما الاستثناء فجار هذا المجرى نحو قولك ما قام إلا زيداً
أحد وما قام أحد إلا زيداً والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق وأما القسم الثاني
فهو أن يقدم ما الأولى به التأخير لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب وهذا هو
المعاظلة المعنوية وقد قدمنا القول في المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية

بان المعاظلة تنقسم الى قسمين احدهما لفظي والاخر معنوي اما اللفظي فذكرناه في بابه واما المعنوي فهذا بابه وموضعه وهو كتقديم الصفة او ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك مما يرد بيانه فمن هذا القسم قول بعضهم

فقد والشك بين لي عناء بوشك فراقهم صرد يصيح

حسبه بيا ... وله في صفه لصرد وقدمت على صرد

فانه قدم قوله بوشك فراقهم وهو معمول يصيح ويصيح صفة لصرد على صرد وذلك قبيح الا ترى انه لا يجوز ان يقال هذا رجل ورد اليوم من موضع كذا وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها ومن هذا النحو قول الاخر

فاصبحت بعد خط بهجتها كان قفرا رسومها قلما

فانه قدم خبر كان عليها وهو قوله خط وهذا وامثاله مما لا يجوز قياس عليه والاصل في هذا البيت فاصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها الا انه على تلك الحال الاولى في الشعر مختل مضطرب والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح وهذا البيت المشار اليه من اقبحها لان معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا ومما جرى هذا المجرى قول الفرزدق

الى ملك ما امه من محارب ابوه ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد الى ملك ابوه ما امه من محارب اي ما ام ابيه من محارب وهذا اقبح من الاول

واكثر

واكثر اختلالا ولذلك جا قوله ايضا

وليست خراسان التي كان خالد بها اسد اذ كان سيفا اميرها

وحديث هذا البيت طريف وذاك انه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسري ويهجو اسدا وكان اسد وليها بعد خالد فكانه قال وليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفا اذ كان اسد اميرها وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشان والحديث والجملة بعدها خبر عنها وقد قدم بعض ما اذ مضافة اليه وهو اسد عليها وفي تقديم المضاف اليه او شي منه على المضاف من القبح ما لا خفا به وايضا فان اسدا احد جزي الجملة المفسرة للضمير والضمير لا يكون تفسيره الا من بعده ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق ايضا

وما مثله في الناس الا مملكا ابو امه حي ابوه يقاربه

ومعنى هذا البيت وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا ابو امه ابوه وعلى هذا المثال المصوغ في الشعر قد جا مشوها كما تراه وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا فانه كان يقصد ذلك ويتعمده لان مثله لا يجي الا متكلفا مقصودا والا فاذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شي من هذا التعقيد الا ترى ان المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المشار اليه اذ المقصود من الكلام انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى فاذا ذهب

هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ولا فرق عند ذلك بينه وبين
غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما واعلم أن هذا الضرب من الكلام
هو ضد الفصاحة لأن الفصاحة هي الظهور والبيان وهذا عار عن هذا الوصف
الضرب الثاني الذي يختص بدرجة المقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك
فإنه مما لا يحصره حد ولا ينتهي إليه شرح وقد أشرنا إلى نبذة في هذا الكتاب ليستدل
بها على أشباهها ونظائرها فمن ذلك تقديم السبب على المسبب كقوله تعالى إياك
نعبد وإياك نستعين فإنه إنما قدم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القربة والوسيلة
قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب وأسرع لوقوع الإجابة ولو قال إياك نستعين وإياك
نعبد لكان جائزا إلا أنه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع وهذا لا يخفى على
المنصف من أرباب هذه الصناعة وعلى نحو منه جاء قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء
طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا فقدم حياة الأرض
وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس وإن كانوا أشرف محلا لأن حياة الأرض هي سبب
لحياة الأنعام والناس فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر ولما كانت
الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس لأن حياة
الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقي ما هو سبب حياتهم ومعاشهم على سقيهم
ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل كقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا
من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وإنما قدم

الظالم

الظالم لنفسه للإيذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى بعده بالمقتصدين لأنهم قليل
بالإضافة إليه ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل أعني من المقتصدين فقدم الأكثر
ثم بعده الأوسط ثم ذكر الأقل آخرا ولو عكست القضية لكان المعنى أيضا واقعا في
موقعه لأنه يكون قد روعي فيه تقديم الأفضل فالأفضل وأوضح لك في هذا
وأمثاله طريقا تقيس عليه فنقول اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختصا
بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر كهذه الآية فإن السابق بالخيرات
مختص بصفة الفضل والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة فقس على هذا ما يأتيك
من أشباهه وأمثاله ومن هذا الجنس قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء
فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع فإنه إنما
قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين إذ هو ماش بغير
الآلة المخلوقة للمشي ثم ذكر الماشي على رجلين وقدمه على الماشي على أربع لأنه أدل
على القدرة أيضا حيث كثرت آلات المشي في الأربع وهذا من باب تقديم الأعجب
فالأعجب فإن قيل قد ورد في القرآن في مواضع منه ما يخالف هذا الذي ذكرته كقوله
تعالى في سورة هود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا
بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار ثم قال وأما الذين سعدوا
ففي الجنة فقدم أهل النار في الذكر على أهل الجنة وهذا مخالف للأصل الذي
أصلته في هذا الموضع الجواب عن ذلك أن هذا الذي أشرت إليه في

سورة هود وما أشبهه له أسرار تحتاج إلى فضل تأمل وإمعان نظر حتى تفهم أما هذا
الموضع فإنه لما كان الكلام مسوقا في ذكر التخويف والتحذير وجاء على عقب قصص الأولين
وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى
وهو ذكر أهل النار فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة وإذا رأيت في القرآن شيئا
من هذا القبيل وما يجري مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب
منه واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما
أفضل من الآخر وكان معنى المفضول مناسبا لمطلع الكلام فأنت بالخيار في تقديم أيهما
شئت لأنك إن قدمت الأفضل فهو في موضعه من التقديم وإن قدمت المفضول فلأن
مطلع الكلام يناسبه وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضا وارد في موضعه فمن ذلك قوله
تعالى وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن
الإنسان كفور لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير فإنه إنما قدم
الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان
بنسيانه الرحمة السابقة عنده ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد
فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر
الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاء الإنسان ولا يختاره أهم والأهم واجب التقديم
وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ولما أخر ذكر الذكور وهم أحقاء

بالتقديم

بالتقديم تدارك ذلك بتعريفه إياهم لأن التعريف تنويه بالذكر كأنه قال ويهب
لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم أعطى بعد ذلك كلا
الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن ولكن
لمقتضى آخر فقال ذكرانا وإناثا وهذه دقائق لطيفة قل ما يتنبه لها أو يعثر على
رموزها ومن هذا الباب قوله تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون
من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض
ولا في السماء فإنه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء ومن حقها التأخير لأنه لما ذكر
شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله لا يعزب عنه لاءم
بينهما ليلي المعنى المعنى فإن قيل قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع
كثيرة من القرآن قلنا إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه
إن خفي ذلك السبب وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض

النوع العاشر في الحروف العاطفة والجارة

وهذا موضع لطيف المأخذ دقيق المغزى وما رأيت أحدا من علماء هذه الصناعة
تعرض إليه ولا ذكره وما أقول إنهم لم يعرفوه فإن هذا النوع من الكلام أشهر من
أن يخفى لأنه مذكور في كتب العربية جميعها ولسنا نعني بإيراده هاهنا ما يذكره
النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه في الإعراب ولا أن
الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمرا وراء ذلك وإن كان المرجع فيه إلى

الأصل النحوي فأقول إن أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها
فيجعلون ما ينبغي أن يعطف بالواو معطوفا بالفاء وما ينبغي أن يعطف بالفاء معطوفا
بثم وكذلك يجعلون ما ينبغي أن يكون بعلى بفي في حروف الجر وفي هذه الأشياء دقائق
أذكرها لك أما حروف العطف فنحو قوله تعالى الذي هو يطعمني ويسقيني وإذا مرضت
فهو يشفيني والذي يميتني ثم يحييني فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع وتقديم
الإطعام على الإسقاء أو الإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم
عطف بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ثم عطف الثالث بثم لأن
الإحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي ولو قال
قائل في موضع هذه الآية الذي يطعمني ويسقيني ويمرضني ويشفيني ويميتني ويحييني
لكان للكلام معنى تام إلا أنه لا يكون كمعنى الآية إذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه
ويقع موقع السداد منه ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى قتل الإنسان ما أكفره
من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء
أنشره ألا ترى أنه لما قال من نطفة كيف قال فقدره ولم يقل ثم قدره لأن التقدير
لما كان تابعا للخلقة وملازما لها عطفه عليها بالفاء وذلك بخلاف قوله ثم السبيل
يسره لأن بين خلقته وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة
وزمانا فلذلك عطفه بثم وعلى هذا جاء قوله تعالى ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره
لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخيا وفسحة وكذلك بين موته ونشوره

أيضا ولذلك عطفها بثم ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه
بالفاء وهذا موضع من علم البيان شريف وقل ما يتفطن لاستعماله كما ينبغي ومما جاء
من ذلك قوله تعالى في قصة مريم وعيسى عليهما السلام فحملته فانتبذت به مكانا
قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا وفي
هذه الآية دليل على أن حملها به ووضعها إياه كانا متقاربين لأنه عطف الحمل والانتباذ
إلى المكان الذي مضت إليه والمخاض الذي هو الطلق بالفاء وهي للفور ولو كانت
كغيرها من النساء لعطف بثم التي هي للتراخي والمهلة ألا ترى أنه قد جاء في الآية الأخرى
قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره
فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه منه مدة متراخية عطف ذلك بثم وهذا
بخلاف قصة مريم عليها السلام فإنها عطفت بالفاء وقد اختلف الناس في مدة
حملها فقيل إنه كان كحمل غيرها من النساء وقيل إنه كان مدة ثلاثة أيام وقيل أقل
وقيل أكثر وهذه الآية مزيلة للخلاف لأنها دلت صريحا على أن الحمل والوضع كانا
متقاربين على الفور من غير مهلة وربما كان ذلك في يوم واحد وأقل الأخلا بما دلت
عليه الآية ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى ولقد خلقنا الإنسان من سلالة
من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة
فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ففي الآية المقدم ذكرها
قال من نطفة خلقه فقدره فعطف التقدير على الخلق بالفاء لأنه تابع له ولم

بذكر تفاصيل حال المخلوق وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقله فبدأ بالخلق
الأول وهو خلق آدم من طين ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق النسل
عطفه بثم لما بينهما من التراخي وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضا
من غير تراخ عطفه بالفاء ولما انتهى إلى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه
بثم فإن قيل إنه قد عطف المضغة على العلقة في هذه الآية بالفاء وفي أخرى بثم
وهي قوله تعالى يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من
نطفة ثم من علقة ثم من مضغة الجواب عن ذلك
اعلم أن في حروف العطف موضعا يلتبس فيه الفاء بالواو وهو موضع يحتاج فيه
إلى فضل تأمل وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه إلا بالفاء دون الواو وقد
يجيء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو ولا بالفاء كقوله تعالى
ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فقوله أغفلنا قلبه هاهنا بمعنى
صادفناه غافلا وليس منقولا عن غفل حتى يكون معناه صددناه لأنه لو كان كذلك
لكان معطوفا عليه بالفاء وقيل فاتبع هواه وذلك أنه يكون مطاوعا وفعل المطاوعة
لا يعطف عليه إلا بالفاء كقولك أعطيته فأخذ ودعوته فأجاب ولا تقول أعطيته
وأخذ ولا دعوته وأجاب كما لا تقول كسرته وانكسر وكذلك لو كان معنى أغفلنا
في الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفا عليه بالفاء وكان يقال ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه بالواو قطعنا

هذا البياض أشار إلى أنه في أصل نسخة المؤلف بياض للجواب ولم يجب بشيء وقوله اعلم كلام جديد لا تعلق له بالسؤال والله أعلم

أنه لما قال أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أن يكون معناه وجدناه غافلا وإذا وجد
غافلا فقد غفل لا محالة فكأنه قال ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه
أي لا تطع من فعل كذا وكذا فعدد أفعاله التي توجب تركك طاعته فاعرف ذلك وأما
حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها في مواضعها وقد علم أن في للوعاء وعلى
للاستعلاء كقولهم زيد في الدار وعمرو على الفرس لكن إذا أريد استعمال ذلك في
غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى مما ورد منه قوله
تعالى قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال
مبين ألا ترى إلى بلاغة هذا المعنى المقصود بمخالفة حرفي الجر هاهنا فإنه إنما
خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس
جواد يركض به حيث شاء وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه
لا يدري أين يتوجه وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله في الكلام وكثيرا ما سمعت
إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور فيقول له أنت على
ضلالك القديم كما أعهدك فيأتي بعلى في موضع في وإن كان هذا جائزا إلا أن استعمال
في هاهنا أولى بما أشرنا إليه ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة يوسف قالوا تالله
إنك لفي ضلالك القديم ومن هذا النوع قوله تعالى إنما الصدقات للفقراء
والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل
الله وابن السبيل فإنه إنما عدل عن اللام إلى في في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم

أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لأن في الموغار فنبه على أنهم
أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء وأن يجعلوا مظنة لها ودلالة
لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص وتكرير في في قوله تعالى وفي سبيل الله دليل
على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين وسياق الكلام أن يقال وفي الرقاب والغارمين
وسبيل الله وابن السبيل فلما جيء بفي مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل
الله علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه وهذه لطائف ودقائق لا
توجد إلا في هذا الكلام الشريف فاعرفها وقس عليها

النوع الحادي عشر في الخطاب بالجملة

الفعلية وبالجملة الاسمية والفرق بينهما ولم أذكر هذا الموضع لأن
يجري الأمر فيه على ما يجري مجراه فقط بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما يماثله
ويشابهه ولو كان شبها بعيدا وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من
التأكيد والمبالغة فمن ذلك قولنا قام زيد وإن زيدا قائم فقولنا قام زيد معناه
الإخبار عن زيد بالقيام وقولنا إن زيدا قائم معناه الإخبار عن زيد بالقيام
أيضا إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول وهي توكيده بإن المشددة التي
من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وإذا زيد في خبرها اللام فقيل إن زيدا لقائم
كان ذلك أكثر توكيدا في الإخبار بقيامه وهذا مثال يبنى عليه أمثلة كثيرة من
غير هذا النوع فمما جاء من ذلك قوله تعالى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا

الى

إلى شياطينهم قالوا إنا معكم فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم
بالجملة الاسمية المحققة بإن المشددة لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن
أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة
ووفور نشاط وكان ذلك متقبلا منهم ورائجا عند إخوانهم فأما الذي خاطبوا به
المؤمنين فإنما قالوه تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو
قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجا ظاهرا لا باطنا لأنهم
ليس لهم من عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به
إخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين آمنا وفي خطاب إخوانهم
إنا معكم وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة
ومما يجري هذا المجرى ورود لام التأكيد في الكلام ولا يجيء ذلك إلا لضرب من
المبالغة وفائدته أنه إذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جيء باللام
تحقيقا لذلك فمما جاء منه قوله تعالى في أول سورة المنافقين إذا جاءك المنافقون
قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون
فانظر إلى هذه الآيات الثلاث الواردة في خبر إن فالأولى وردت في قول المنافقين
وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي صلى الله عليه
وسلم وتملقوه وبالغوا في التملق وفي باطنهم خلافه وأما ما ورد في الثانية والثالثة
تصحيح لرسالته واللام في الثانية لتصديق رسالته وفي الثالثة لتكذيب

المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه وكذلك ورد قوله
تعالى في سورة يوسف عليه السلام قالوا يا ابانا ما لك لا تامنا على يوسف وانا له
لناصحون ارسله معنا غدا نرتع ونلعب وانا له لحافظون فانه انما جي باللام ههنا
لزيادة التوكيد في اظهار المحبة ليوسف عليه السلام والاشفاق عليه ليبلغوا الغرض
من ابيهم في السماحة بارساله معهم ومن هذا الباب قوله تعالى افرايتم ما تحرثون
ءانتم تزرعونه ام نحن الزارعون لو نشا لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ثم قال افرايتم
الما الذي تشربون ءانتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشا جعلناه اجاجا فلولا تشكرون
الا ترى كيف ادخلت اللام في اية المطعوم دون اية المشروب وانما جات كذلك لان
جعل الما العذب ملحا اسهل امكانا في العرف والموجود من الما الملح اكثر من الما العذب
وكثيرا ما اذا جرت المياه العذبة على الاراضي المتغيرة التربة احالها الى الملوحة
فلم تحتج في جعل الما ملحا الى زيادة تاكيد فلذلك لم يدخل عليه لام التاكيد المفيدة زيادة
التحقيق واما المطعوم فان جعله حطاما من الاشيا الخارجة عن المعتاد واذا وقع
فلا يكون الا عن سخط من الله شديد فلذلك قرن بلام التاكيد زيادة في تحقيق امره
وتقرير ايجاده ومما يتصل بذلك قوله تعالى وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون
فاللام في لنحن هي اللام المشار اليها وكذلك ورد قوله تعالى وعد الله الذين امنوا منكم
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم
الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا فان هذه اللام في قوله ليستخلفنهم

وليمكنن

وليمكنن وليبدلنهم انما جات لتحقيق الامر واثباته في نفوس المومنين وانه كاين لا محالة .
ومما يجري هذا المجرى في التوكيد بلام الابتدا المحققة لما ياتي بعدها كقوله تعالى اذ قالوا
ليوسف واخوه احب الى ابينا منا فاللام في ليوسف لام الابتدا وفايدتها تحقيق مضمون
الجملة الواردة بعدها اي زيادة ان حبهما امر ثابت لا مرا فيه ومن هذا النوع قول بعضهم

والشيب ان يظهر فان وراه عمرا يكون خلاله متنفس
لم ينتقص مني المشيب قلامة ولما بقي مني الب واكيس

فقوله ولما بقي مني تقديره وما بقي مني وانما ادخل على ما هذه اللام قصد التاكيد
المعنى لانه موضع يحتاج الى التاكيد الا ترى ان قوة العمر في الشباب ولما اراد هذا
الشاعر ان يصف المشيب وليس مما يوصف وانما يذم اتى اللام ليوكد ما قصده من الصفة
وكذلك ورد قول الشاعر من ابيات الحماسة

انا لنصفح عن مجاهل قومنا ونقيم سالفة العدو الاصيد
ومتى نجد يوما فساد عشيرة نصلح وان نر صالحا لا نفسد

وهذا كثير شايع في الكلام الا انه لا ياتي الا لمكان العناية بما يعبر عنه الا ترى الى
قول هذا الشاعر انا لنصفح عن مجاهل قومنا فانه لما كان الصفح مما يشق على النفس
فعله لانه مقابلة الشر بالخير والاساة بالاحسان اكده باللام تحقيقا له فلهذا
عري الموضع الذي يوتى فيه بهذه اللام من هذه الامور المشار اليها وما يجري
مجراها فان ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه واكثر ما تستعمل هذه اللام في جواب

القسم لتحقيق الأمر المقسم عليه وذلك في الإيجاب دون النفي لأنها لا تستعمل في النفي
ألا ترى أنه لا يقال والله لا تقومن وإنما يقال والله لا تقوم لكن في الإيجاب تستعمل ويكون
استعمالها حسناً كقولك والله لأقوم فإن أضيف إليها النونان الثقيلة والخفيفة
كان ذلك أبلغ في التأكيد كقولك والله لأقومن وعلى ذلك وردت الآية المقدم ذكرها
وهي قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات وإن لم يكن جواباً لقسم
فالنون الواردة بعد اللام زيادة في التأكيد وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر
وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فإذا استعملت في موضع فإنما
يقصد بها التأكيد فمما جاء منها قول البحتري في معاتبة الفتح بن خاقان

هل تجلبن إلى عطفك موقف ثبت لديك أقول فيه وتسمع
ما زال لي من حسن رأيك موئل آوي إليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق وأقبلت نحوي جنات الكاشحين تطلع
وأقام يطمع في تهضم جانبي من لم يكن من قبل فيه يطمع
ألا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب فعفوك أوسع

وهذه أبيات حسنة مليحة في بابها يحيي بها حر الصدور ويستمال بها صعر الخدود
وإنما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها والبيت الأول هو المراد ألا ترى أنه قال هل تجلبن
إلى عطفك موقف فالنون جاءت قصداً للتأكيد وهو في هذا المقام متمن فأحب أن
يؤكد هذه الأمنية وكأنما يجيء من هذا الباب فإنه واقع هذا الموقع وإذا استعمل عنها

لغير فائدة تقتضيه فإنه لا يكون استعماله إلا من جاهل بأسرار المعنوية وأما ما
يمثل به النحاة في قول القائل والله لا تقومن فإنه مثال نحوي يضرب للجواز وإلا فإذا
قال القائل والله لأقومن وأكده كان ذلك لغواً لأنه ليس في قيامه من الأمر الغريب
ولا من الأمر العسير ما يحتاج معه إلى التأكيد بل لو قال والله لأقومن إليك مهدداً
له كان ذلك واقعاً في موقعه فافهم ذلك وقس عليه

النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص إلا أنه لم يورده كما أوردته
أنا ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي
وكلامه فأقول اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر
أكثر منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً لأن الألفاظ أدلة على المعاني
وأمثلة للإبانة عنها فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا
لا نزاع فيه لبيانه وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة فمن ذلك قولهم خشن
واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو
نحو فعل وافعوعل وكذلك قولهم أعشب المكان فإذا رأوا كثرة العشب قالوا اعشوشب
ومما ينتظم بهذا السلك قدر واقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى
فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر فمقتدر ههنا أبلغ من قادر وإنما عدل إليه للدلالة
على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب أو للدلالة على

بسطه القدرة فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر وذلك أن مقتدرا اسم فاعل من
اقتدر وقادرا اسم فاعل من قدر ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل وعلى هذا ورد قول
أبي نواس فعفوت عني عفو مقتدر حلت له نقم فألغاها

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يرده شيء عن إمضاء قدرته وأمثال هذا
كثيرة وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم إنه
كان غفارا فإن غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لأن فعالا لا يدل على كثرة صدور الفعل
وفاعلا لا يدل على الكثرة وعليه ورد قوله تعالى إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين
فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة على مرة وهو فعال وذلك أبلغ من التائب
الذي هو فاعل والتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب أي صدرت منه التوبة مرة
واحدة فإذا قيل تواب كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة وهذا وما يجري مجراه
إنما يعمد إليه لضرب من التوكيد ولا يوجد ذلك إلا فيما فيه معنى الفعلية كاسم
الفاعل والمفعول وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى فكبكبوا فيها هم والغاوون فإن
معنى كبكبوا من الكب وهو القلب إلا أنه مكرر المعنى وإنما استعمل في الآية دلالة
على شدة العقاب لأنه موضع يقتضي ذلك ولربما نظر بعض الجهال في هذا
فقاس عليه زيادة التصغير وقال إنها زيادة ولكنها زيادة نقص لأنه يزاد في
اللفظ حرف كقولهم في الثلاثي في رجل رجيل وفي الرباعي قنديل قنيديل فالزيادة
وردت هاهنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين وهذا ليس من الباب الذي نحن

بصدد

بصدده ذكره لأنه عار عن معنى الفعلية والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة
في المعنى إلا إذا تضمنت معنى الفعلية لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت
استحال معناها ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عذب وهي ثلاثية إلى الرباعي فقلنا عذيب
على وزن جعفر لاستحال معناها ولم يكن لها معنى وكذلك لو نقلنا لفظة عسجد
وهي رباعية إلى الخماسي فقلنا عسجدد على وزن جحمرش لاستحال معناها وهذا
بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر فإن قادرا اسم فاعل قدر وهو
ثلاثي ومقتدرا اسم فاعل اقتدر وهو رباعي فلذلك كان معنى القدرة في اقتدر
أشد من معنى القدرة في قدر وهذا لا نزاع فيه وهذا الباب بجملته لا يقصد به
إلا المبالغة في إيراد المعاني وقد يستعمل في مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه إلى
ضده كما جاء لأبي كرام التميمي من شعراء الحماسة وهو قوله

لله تيم أي رمح طراد لاقى الحمام وأي نصل جلاد
ومحش حرب مقدم متعرض للموت غير معرد حياد

فلفظة حياد قد وردت هاهنا وإنما أوردها هذا الشاعر وقصده بها المبالغة
في وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذي قصده لأن حيادا من
حيد فهو حياد أي وجدت منه الحيدودة مرارا كما يقال قتل فهو قتال أي وجد
منه القتل مرارا وإذا كان هذا الرجل غير حياد كان حايدا أي وجدت منه الحيدودة
مرة واحدة وإذا وجدت منه مرة واحدة كان ذلك جبنا ولم يكن شجاعة والأولى

ان كان قال غير مكذب بجايد وينبغي ان تعلم انه اذا وردت لفظة من الالفاظ ويجوز
استعمالها على التضعيف الذي هو طريق المبالغة وحملها على غيره ان ينظر فيها فان
اقتضى المعنى حملها على المبالغة فهو الوجه فمن ذلك قول البحتري في قصيدته التي
مطلعها   منى النفس في اسماء لو تستطيعها
وهي قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله وذكر فيها حديث الصلح بين بني
تغلب فمما جاء فيها قوله

رفعت بضبعي تغلب ابنة وائل وقد يئست ان يستقل صريعها
فكنت امين الله مولى حياتها ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها
تالفهم من بعد ما شردت بهم حفائظ اخلاق بطيء رجوعها
فابصر غاويها المحجة فاهتدى واقصر غاليها ودانى شسوعها

فقوله تالفهم من بعد ما شردت بهم يجوز ان يخفف لفظة شردت ويجوز ان
تثقل والتثقيل هو الوجه لانه في مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت
قلوبهم وآراؤهم وكلما يجيء من الالفاظ على هذا النحو فينبغي ان يجرى هذا المجرى ومما هنا
نكتة لا بد من التنبيه عليها وذلك ان قوة اللفظ لقوة المعنى لا يستقيم الا في نقل
صيغة الى صيغة اكثر منها كنقل الثلاثي الى الرباعي والا فاذا كانت صيغة الرباعي
مثلا موضوعة لمعنى فانه لا يراد به ما اريد به من نقل الثلاثي الى مثل تلك الصيغة
الا ترى انه اذا قيل في الثلاثي قتل ثم نقل ذلك الى الرباعي فقيل قتّل بتشديد التاء

فان الفايدة من هذا النقل هي التكثير اي ان القتل وجد منه كثيرا وهذه الصيغة
الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى وكلّم الله
موسى تكليما فان كلّم على وزن قتّل ولم يرد به التكثير بل اريد به انه خاطبه سواء
كان خطابه اياه طويلا او قصيرا قليلا او كثيرا وهذه اللفظة رباعية وليس لها
ثلاثي ورباعي وكان الرباعي الرباعي لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثي ورباعي فكان
الرباعي اكثر واقوى في ما دل عليه من المعنى وذلك ان يكون كلّم من جرّح اي
جرّح ولها ثلاثي وهو كلم مخففا اي جرح فاذا وردت مخففة دلت على الجراحة
مرة واحدة واذا وردت مثقلة دلت على التكثير وكذلك ورد قوله تعالى ورتل
القرآن ترتيلا فان لفظة رتّل على وزن لفظة قتّل ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة
وانما المراد بها ان تكون القراءة على هيئة التاني والتدبر وسبب ذلك ان هذه اللفظة
لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه الى رباعي وانما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة
من القراءة وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى الا بالنقل من
وزن الى وزن اعلى منه فاعرف ذلك ومن ههنا شذ الصواب عمن شذ عنه في
عالم وعليم فان جمهور علماء العربية يذهبون الى ان عليما ابلغ في معنى العلم من عالم
وقد تاملت ذلك وانعمت نظري فيه فحصل عندي شك في الذي ذهبوا اليه
والذي اوجب ذلك الشك هو ان عالما وعليما على عدة واحدة اذ كل منهما اربعة
احرف وليس بينهما زيادة ينقل فيها الادنى الى الاعلى والذي يوجبه النظر ان

يكون الامر على عكس ما ذكروه وذاك ان كون عالما ابلغ من عليم وسبب ذلك ان عالما اسم
فاعل من علم وهو متعد وان عليما اسم فاعل من علم ايضا الا انه اشبه وزن الفعل القاصر
نحو شرف فهو شريف وكرم فهو كريم وعظم فهو عظيم فهذا الوزن لا يكون الا في
الفعل القاصر فلما اشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذي هو متعد الا ترى ان فعل
بفتح الفاء وكسر العين يكون متعديا نحو علم وحمد ويكون قاصرا غير متعد نحو
غضب وشبع واما فعل بفتح الفاء وضم العين فانه لا يكون الا قاصرا غير متعد
ولما كان فعل بفتح الفاء وكسر العين مترددا بين المتعدي والقاصر وكان فعل بفتح
الفاء وضم العين قاصرا غير متعد صار القاصر اضعف مما يتردد بين المتعدي
والقاصر وحيث كان الامر كذلك واشبه وزن المتعدي وزن القاصر حط ذلك من
درجته وجعله في الرتبة دون المتعدي الذي ليس بقاصر هذا هو الذي اوجب لي
التشكك فيما ذهب اليه غيري من علماء العربية ولربما كان ما ذهبوا اليه لامر
خفي عني ولم اطلع عليه

النوع الثالث عشر في عكس الظاهر

وهو من مستطرفات علم البيان وذلك انك تذكر كلاما يدل ظاهره انه نفي
لصفة موصوف وهو نفي للموصوف اصلا فمما جاء منه قول علي بن ابي طالب صلوات
الله عليه في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تنثى فلتاته
اي لا تذاع سقطاته فظاهر هذا اللفظ انه كان ثم فلتات غير انها لا تذاع وليس

المراد

المراد ذلك بل المراد انه لم يكن ثم فلتات فتنثى وهذا من اغرب ما توسعت فيه
اللغة العربية وقد ورد في الشعر كقول بعضهم

ولا ترى الضب بها ينجحر

فان ظاهر المعنى من هذا البيت انه كان
هناك ضب ولكنه غير منجحر وليس كذلك بل المعنى انه لم يكن هناك ضب اصلا
وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال وسبب ذلك ان الفهم يكاد يأباه ولا يقبله
الا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه وما كان عاريا عن قرينة فانه لا يفهم
منه ما اراد قائله وسأوضح ذلك فاقول اما قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم لا تنثى فلتاته فان مفهوم هذا اللفظ انه كان هناك فلتات الا انها
تطوى ولا تنشر وتكتم ولا تذاع ولا يفهم منه انه لم يكن هناك فلتات اصلا الا بقرينة
خارجة عن اللفظ وهي انه قد ثبت في النفوس وتقرر عند العقول ان مجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم منزه عن فلتات تكون به وهو اكرم من ذلك واوقر فلما
قيل انه لا تنثى فلتاته فهمنا منه انه لم يكن هناك فلتات اصلا واما قول القايل

ولا ترى الضب بها ينجحر

فانه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه ما فهم
من الاول بل المفهوم منه انه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر ولقد مكثت
زمانا اطوف على اقوال الشعراء قصدا للظفر بامثاله من الشعر جارية هذا
المجرى فلم اجد الا بيتا ~~واحدا وهو~~ لامرى القيس وهو على لاحب لا يهتدى بمناره اذا سافه
العود النباطي جرجرا فقوله لا يهتدى بمناره [illegible] [illegible] [illegible]
ادنين جلباب الحياء فلن يرى لذيولهن على الطريق غبار

وظاهر هذا الكلام انها ولاء النساء يمشين هونا الجبابهن ولا يظهر لذيولهن غبار في
الطريق وليس المراد ذلك بل المراد انهن لا يمشين على الطريق اصلا اي انهن مخبآت
لا يخرجن من بيوتهن فلا يكون اذن لذيولهن على الطريق غبار وهذا احسن ابيت وهو
اظرف بابا من قولهم   ولا ترى الضب بها ينجحر   ثم ان استعمل هذا النوع من
الكلام فليستعمله هكذا والا فليدع على ان الاكثار من استعماله عسير لانه لا يظهر
المعنى فيه

النوع الرابع عشر في الاستدراج

وهذا الباب انا استخرجته من كتاب الله تعالى وهو مخادعات الاقوال التي تقوم
مقام مخادعات الافعال والكلام فيه وان تضمن بلاغة فليس الغرض ها هنا ذكر
بلاغته فقط بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم
الى الاذعان والتسليم واذا حقق النظر فيه علم ان مدار البلاغة كلها عليه لانه
لا انتفاع بايراد الالفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون
ان تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها والكلام في مثل هذا ينبغي ان يكون
قصيرا في خلابه لا قصيرا في خطابه واذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم الى
القاء يده والا فليس بكاتب ولا شبيه له الا صاحب الجدل وكما ان ذاك يتصرف
في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية وقد ذكرت
في النوع ما يتعلم منه سلوك الطريق فمن ذلك قوله تعالى وقال رجل من آل فرعون

مؤمن

يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك
كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من
هو مسرف كذاب الا ترى ما احسن ماخذ هذا الكلام والطفه فانه اخذهم بالاحتجاج
على طريقة التقسيم فقال لا يخلو هذا الرجل من ان يكون كاذبا فكذبه يعود عليه
ولا يتعداه او يكون صادقا فيصيبكم بعض الذي يعدكم ان تعرضتم له وفي هذا
الكلام من حسن الادب والانصاف ما اذكره لك فاقول انما قال يصبكم
بعض الذي يعدكم وقد علم انه نبي صادق وان كل ما يعدهم به لا بد ان يصيبهم
لا بعضه لانه احتاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام ان يسلك معهم طريق
الانصاف والملاطفة في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون ادعى الى
سكونهم اليه فجاءهم بما علم انه اقرب الى تسليمهم لقوله وادخل في تصديقهم اياه فقال
وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط وذ[لك]
انه حين فرضه صادقا فقد اثبت انه صادق في جميع ما يعد به لكنه اردف بقوله
يصبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم انه ليس بكلام من
اعطاه حقه وافيا فضلا من ان يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق من هذا
القبيل كأنه برطلهم في صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه وكذلك قوله
في آخر الآية ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب اي هو على الهدى ولو كان
مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ولا عضده بالبينات وفي هذا الكلام من خداع

الخصم واستدراجه ما لا خفاء به وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما اذا تأملته حق
التأمل اعطيته حقه من الوصف ومما جرى على هذا الاسلوب قوله تعالى واذكر
في الكتاب ابرهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا
يبصر ولا يغني عنك شيئا يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا
سويا يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا ابت اني اخاف ان
يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا هذا كلام يهز اعطاف السامعين
وفيه من الفوائد ما اذكره وهو انه لما اراد ابرهيم عليه السلام ان ينصح اباه
ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطا العظيم الذي به امر العقل رتب
الكلام معه في احسن نظام مع استعمال المجاملة واللطف والادب الجميل والخلق
الحسن مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه وذاك انه طلب منه اولا العلة في خطيئته
طلب منبه على تماديه موقظ من غفلته لان المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا
مقتدرا على الثواب والعقاب الا انه بعض الخلق لاستخف عقل من اهله للعبادة
ووصفه بالربوبية ولو كان اشرف الخلق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود
جمادا لا يسمع ولا يبصر يعني به الصنم ثم ثنى ذلك بدعوته الى الحق مترفقا به فلم
يسم اباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معي لطائفة من
العلم وشيئا منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب اني
واياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطريق دونك فاتبعني انجك من ان

تضل

تضل ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال ان الشيطان الذي استعصى
على ربك وهو عدوك وعدو ابيك ادم هو الذي ورطك في هذه الورطة والقاك
في هذه الضلالة وانما الغى ابرهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان ادم وذريته
في نصيحته اباه لانه لامعانه في الاخلاص لم يذكر من جنايتي الشيطان الا التي تختص
بالله وهي عصيانه واستكباره ولم يلتفت الى ذكر معاداته ادم وذريته ثم ربع
ذلك بتخويف اباه سوء العاقبة فلم يصرح بان العقاب لاحق به ولكنه قال اني اخاف
ان يمسك عذاب فنكر العذاب ملاطفة لابيه وصدر كل نصيحة من هذه النصائح
بقوله يا ابت توسلا اليه واستعطافا وهذا بخلاف ما اجابه ابوه فانه قال اراغب
انت عن الهتي يا ابرهيم فاقبل عليه بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ولم
يقابل قوله يا ابت بيا بني وقدم الخبر على المبتدا في قوله اراغب انت لانه كان اهم
عنده وفيه نوع من التعجب والانكار لرغبة ابرهيم عن الهته وفي القران الكريم
مواضع كثيرة من هذا الجنس لا سيما في مخاطبة الانبيا صلوات الله عليهم للكفار
والرد عليهم وفي هذين المثالين المذكورين ها هنا كفاية ومقنع وبلغني حديث
تفاوض فيه الحسين بن علي صلوات الله عليهما ومعوية ابن ابي سفيان في
امر ولده يزيد وذلك ان معوية قال للحسين اما امك فاطمة فانها خير من امه
وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امراة من كلب واما حبي يزيد
فاني لو اعطيت به مثلك ملء الغوطة لما رضيت واما ابوك وابوه فانهما تحاكما

الى الله فحكم لابيه على ابيك وهذا كلام من معوية كلما امر به بفكري عجبت من سداده فضلا عن بلاغته وفصاحته فان معوية علم ما لعلي صلوات الله عليه من السبق الى الاسلام والاثر فيه وما عنده من فضيلة العلم فلم يعرض في المنافرة الى شي من ذلك كله ولم يقل ايضا ان الله اعطاني الدنيا ونزعها منكم لان هذا لا فضل فيه اذ الدنيا ينالها البر والفاجر وانما صانع عن ذلك كله بقوله ان اباك واباه تحاكما الى الله فحكم لابيه على ابيك وهذا قول ايهامي يوهم شبهة من الحق واذا سا من شا ان ينافر خصمه ويستدرجه الى الصمت عن الجواب فليقل هكذا

النوع الخامس عشر في الايجاز

وهو حذف زيادات الالفاظ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به الا فرسان البلاغة ممن سبق الى غايتها وما صلى وضرب في اعلا درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر امكانه والنظر فيه انما هو الى المعاني لا الى الالفاظ ولست اعني بذلك ان تهمل الالفاظ بحيث تعدى عن اوصافها الحسنة بل اعني ان مدار النظر في هذا النوع انما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة فمن ينظر الى طول الالفاظ يوثر الدراهم لكثرتها ومن ينظر الى شرف المعاني يوثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحة ام الكتاب واذا نظرنا الى مجموعها وجدناه يسيرا وليست من الكثرة الى غاية

تكون بها ام البقرة وال عمران وغيرهما من السور الطوال فعلمنا حينئذ ان ذلك لامر يرجع الى معانيها والكلام في هذا الموضع يخرج بنا الى غير ما نحن بصدده لانه يحتاج فيه الى ذكر المراد بالقران وما تشتمل عليه سوره واياته والى حصر اقسام معانيه لكنا نشير في ذلك اشارة خفيفة فنقول المراد بالقران هو دعوة العباد الى الله تعالى ولذلك انحصرت سوره واياته في ستة اقسام ثلثة منها هي الاصول وثلثة هي الفروع اما الاصول فالاول منها تعريف المدعو اليه وهو الله تعالى ويشتمل هذا الاصل على ذكر ذاته وصفاته وافعاله والاصل الثاني تعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك الى الله تعالى ويشتمل هذا الاصل على التبتل لعبادة الله بافعال القلب وافعال الجوارح والاصل الثالث تعريف الحال بعد الوصول الى الله تعالى اعني بعد الموت ويشتمل هذا الاصل على تفصيل احوال الدار الاخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب واشباه ذلك فهذه الاصول ثلاثة واما الفروع فالاول منها تعريف احوال المجيبين للدعوة ولطايف صنع الله بهم من النصرة والاذالة وتعريف احوال المخالفين للدعوة والمحادين لها وكيفية صنع الله في التدمير عليهم والتنكيل بهم والفرع الثاني ذكر مجادلة الخصوم ومحاجتهم وحملهم بالمجادلة والمحاجة على طريق الحق وهاولاء هم اليهود والنصارى ومن يجري مجراهم من ارباب الشرايع والفلاسفة والملحدة من غير ارباب الشرايع والفرع الثالث تعريف عمارة منازل

الطريق وكيفية اخذ الزاد والاهبة للاستعداد وذلك هو قوانين الشريعة
وسنن الحكمة في اوامرها التي تتعلق بافعال اهل التكليف فهذه الاقسام الستة
المشار اليها هي التي تدور معاني القران عليها ولا تتعداها وما هنا تقسيم اخر يطول
الخطب فيه ولا حاجة الى ذكره واذا نظرنا الى سورة الفاتحة وتاملنا ما فيها من
المعاني وجدناها مشتملة على اربعة اقسام من الستة المذكورة ولذلك سماها
النبي صلى الله عليه وسلم ام الكتاب كما انه قال ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القران
واذا نظرنا الى الاقسام الستة وجدنا سورة الاخلاص بمنزلة ثلث القران وكذلك
قال صلى الله عليه وسلم اية الكرسي سيدة اي القران ويروى انه سال ابي بن كعب
رضي الله عنه فقال اي اية معك في كتاب الله اعظم فقال الله لا اله الا هو الحي القيوم
فضرب في صدره وقال ليهنك العلم ابا المنذر وكل هذا يرجع الى المعاني لا الى
الالفاظ فاعرف ذلك وتنبه لرموزه واسراره واعلم ان جماعة من مدعي علم البيان
ذهبوا الى ان الكلام ينقسم قسمين فمنه ما يحسن فيه الايجاز كالاشعار والمكاتبات
ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرا في ملا من
الناس عوام لان الكلام اذا طال في مثل ذلك اثر عندهم وافهمهم ولو اقتصر فيه على الايجاز
والاشارة لم يقع لاكثرهم حتى في ذكر الحرب التقى الجمعان وتطاعن الفريقان واشتد
القتال وحمي النصال وما جرى هذا المجرى والمذهب عندي في ذلك ما اذكره وهو
ان فهم العامة ليس شرطا معتبرا في اختيار الكلام لانه لو كان شرطا لوجب على قياسه

ان

ان يستعمل في الكلام الالفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك اقرب الى فهمهم لان
العلة في اختيار تطويل الكلام اذا كانت فهم العامة اياه فلذلك تجعل تلك العلة بعينها
في اختيار المبتذل من الكلام فانه لا خلاف في ان العامة الى فهمه اقرب من فهم ما يقل
ابتذالهم اياه وهذا شيء مدفوع وانما الذي يجب توخيه واعتماده هو ان يسلك المذهب
القويم في تركيب الالفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الايضاح والابانة
وليس مستعمل ذلك ان يفهم العامة كلامه فان نور الشمس اذا لم يره الاعمى لا يكون
ذلك نقصا في استنارته وانما النقص في بصر الاعمى حيث لم يستطع النظر اليه

على نحت القوافي من مقاطعها وما علي لهم ان تفهم البقر

وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع فلنرجع الى ما هو غرضنا ومهمنا من الكلام
على الايجاز وحده واقسامه ونوضح ذلك ايضاحا جليا والله الموفق للصواب
فنقول حد الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير ان يزيد عليه والتطويل هو
ضد ذلك وهو ان يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه كقول
الحجير السلولي من ابيات الحماسة

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق الى غاية من يبتدرها يقدم

فصدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة اليه وعجزه من محاسن الكلام المتواصف
وموضع التطويل من صدره انه قال طلوع الثنايا بالمطايا فان لفظة المطايا او
الثنايا فضلة لا حاجة اليها وتبيان ذلك انه لا يخلو الامر فيها من وجهين اما ان

يريد انه سامي الهم الى معالي الامور كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق انا
ابن جلا وطلاع الثنايا اي انا الرجل المشهور السامي الهم الى معالي الامور لان ابن جلا
هو الرجل المشهور وطلاع الثنايا هو السامي الى معالي الامور فان اراد البحتري بقوله
طلوع الثنايا ما اشرت اليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى لان معالي الامور لا يرتقى
اليها بالمطايا وان اراد الوجه الاخر وهو انه كثير الاسفار فاختصاصه الثنايا
بالذكر دون الارض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه وعلى هذين الوجهين فان ذكر
المطايا فضلة لا حاجة اليه وهو تطويل بارد غث فقس على هذا المثال ما
يجري مجراه من التطويلات التي اذا اسقطت من الكلام بقي على حاله لم يتغير منه
شيء وكذلك يجري الامر في الفاظ يوصل بها الكلام فتارة تجي لفائدة وذلك قليل
وتارة تجي لغير فائدة وذلك كثير واكثر ما يرد في الاشعار ليتوزن بها الابيات الشعرية
وذلك نحو قولهم لعمري ولعمرك ونحو اصبح وامسى وظل واضحى وبات واشبا وذلك
ونحو يا صاحبي ويا خليلي وما يجري هذا المجرى فمما جاء منه قول ابي تمام

اقر لعمري بحكم السيوف وكانت احق بفصل القضاء

فان قوله لعمري زيادة لا حاجة للمعنى اليها وهي حشو في هذا البيت لا فائدة
فيه الا اصلاح الوزن لا غير الا ترى انها من باب القسم وانما يرد القسم في موضع
يؤكد به المعنى المراد اما انه مما يشك فيه او مما يعز وجوده او ما جرى هذا
المجرى وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه الى توكيد قسمي اذ لا شك في ان

السيوف

السيوف حاكمة وان كل احد يقر بحكمها ويذعن لطاعتها ولذلك قوله ايضا

اذا انا لم الم عثرات دهر يليث به الغداة فمن الوم

فقوله الغداة زيادة لا حاجة للمعنى اليها لانه يتم بدونها لان عثرات الدهر لم
تنله الغداة ولا العشي وانما نالته ونيلها اياه لا بد ان يقع في زمن من الازمنة كائنا
ما كان ولا حاجة الى تعيينه بالذكر وعلى هذا ورد قول البحتري

ما احسن الايام الا انها يا صاحبي اذا مضت لم ترجع

فقوله يا صاحبي زيادة لا حاجة بالمعنى اليها الا انها وردت لتصحيح الوزن لا غير
وهذه الالفاظ التي ترد في الابيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيب فيها لانا لو عبنا كها
على الشعراء لتحجرنا عليهم وضيقنا والوزن يضطر في بعض الاحوال الى مثل ذلك لكن
اذا وردت في الكلام المنثور فانها ان وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيبا وقد
ترد في الابيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الاحسن كقول البحتري

قوم اهانوا الوفر حتى اصبحوا اولى الانام بكل عرض وافر

فقوله اصبحوا يعني صاروا اي انهم صاروا اولى بالاعراض الوافرة وهذه اللفظة
لم ترد في هذا البيت حشوا كما وردت في بيتي ابي تمام المقدم ذكرهما وسانبه في هذا
الموضع بابا بمثال اضربه للتطويل حتى يستدل به على امثاله واشباهه والمثال
الذي اضربه هو حكاية اوردت بحضرتي وذاك انه جلس الي في بعض الايام جماعة
من الاخوان واخذوا في مفاوضة الاحاديث وانسانا ذلك الى ذكر غرائب

الوقايع التي تقع في العالم فذكر كل من الجماعة شيا فقال شخص منهم اني كنت بالجزيرة
العمرية في زمن الملك فلان وكنت اذ ذاك صبيا صغيرا فاجتمعت انا ونفر من
الصبيان في الحارة الفلانية وصعدنا الى سطح طاحون لبني فلان واخذنا نلعب على
السطح فوقع صبي منا الى الارض التي للطاحون فوطيه بغل من بغال الطاحون فخشينا
ان يكون اذاه فاسرعنا النزول اليه فوجدناه قد وطيه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة
لا يستطيع الصانع الحاذق ان يفعل خيرا منها فقال له شخص من الحاضرين والله
ان هذا عي فاحش وتطويل كثير لا حاجة اليه فانك بصدد ان تذكر انك كنت صبيا
تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبي منكم الى ارض الطاحون فوطيه بغل
من بغال الطاحون فختنه ولم يوذه ولا فرق بين ان تكون هذه الواقعة في بلد
نعرفه او في بلد لا نعرفه ولو كانت باقصى الشرق او باقصى الغرب لم يكن ذلك
قدحا في غرابتها واما ان تذكر انها كانت بالجزيرة العمرية في الحارة الفلانية في
طاحون بني فلان وكانت في زمن الملك فلان فان هذا كله تطويل لا حاجة اليه والمعنى
المقصود يفهم بدونه واعلم ايها الناظر في كتابي هذا ان التطويل هو زيادات الالفاظ
في الدلالة على المعاني ومهما امكنك حذف شي من اللفظ في الدلالة على معنى من المعاني
فان ذلك اللفظ هو التطويل بعينه واما الايجاز فقد عرفتك انه دلالة اللفظ
على المعنى من غير ان تزيد عليه وهو ينقسم قسمين احدهما الايجاز بالحذف وهو
ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون الا فيما

زاد

زاد معناه على لفظه والقسم الاخر ما لا يحذف منه شي وهو ضربان احدهما
ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير والاخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر
واعلم ان القسم الاول الذي هو الايجاز بالحذف يتنبه له من غير كلفة في استخراجه
لمكان المحذوف منه واما القسم الثاني فان التنبه له عسر لانه يحتاج الى فضل تامل
وطول فكرة لخفاء ما يستدل به عليه ولا يستنبط ذلك الا من رسخت قدمه في
ممارسة علم البيان وصار له خليقة وملكة ولم اجد احدا اعلم هذين القسمين بعلامة
ولا قيدهما بقيد وقد اشرت الى ذلك فيما ياتي من هذا الباب عند تفصيل امثلتهما
فليوخذ من هناك فان قيل ان هذا التقسيم الذي قسمته في المحذوف وغير المحذوف
ليس بصحيح لان المعاني ليست اجساما كالالفاظ حتى يصح التقدير بينهما ثم ولو سلمت
جواز التقدير في المساواة لم اسلم جواز الزيادة فليس لقايل ان يقول هذا المعنى زايد
على هذا اللفظ لانه ان قال ذلك قيل له من اين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ
وقد علم ان الالفاظ انما وضعت للدلالة على افهام المعاني فان قال انما فهمتها من شي
خارج عن اللفظ قيل له فتلك الزيادة بازا ذلك الشي الخارج عن اللفظ والباقي
مساو للفظ وان قال انما فهمتها من اللفظ قيل فكيف تفهم منه وهي زايدة عليه فان
قال انما فهمت من تركيبه لان التركيب امر زايد على اللفظ قيل الالفاظ تدل بانفرادها
على معنى وبتركيبها على معنى اخر فاللفظ المركب يدل على معنى مركب واللفظ المفرد
يدل على معنى مفرد وتلك الزيادة ان اريد بها زيادة معنى المركب على المركب

ولا تخلو اما ان تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها او من
دلالة شيء خارج عنه فان كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه اذ لو
كانت زائدة عليه لما دل عليها وان كانت مفهومة من دلالة الشيء الخارج عنه
وهي بازاء ذلك الشيء الخارج والباقي مساو للباقي والجواب عن ذلك ان نقول
هذا الذي ذكره كلام شبيه بالسفسطة وهو باطل من وجهين احدهما ان المعاني
اذا كانت لا تزيد على الالفاظ فيلزم من ذلك ان الالفاظ لا تزيد ايضا على المعاني لانهما
متلازمان على قياسك ونحن نرى معنى قد دل عليه بالفاظ فاذا اسقط من تلك الالفاظ
شيء لا ينقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله الوجه الاخر ان الايجاز بالحذف اقوى
دليلا على زيادة المعاني على الالفاظ لانا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك
المعنى ضروري لا بد منه فعلمنا حينئذ ان ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من
دلالته عليه فان قيل ان المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لا بد له من تقدير لفظ اخر
يدل عليه وتلك الزيادة بازاء ذلك اللفظ المقدر قلت في الجواب عن ذلك
هذا لا ينقض ما ذهبنا اليه من زيادة المعنى على اللفظ لان المعنى الزائد ظاهر
واللفظ الدال عليه مضمر واذا كان مضمرا او لا ينطق به واذا لم ينطق به فكانه
لم يكن وحينئذ يبقى المعنى موجودا واللفظ الدال عليه غير موجود وكذلك كل ما
يعلم من المعاني بمفهوم الخطاب الا ترى انك اذا قلت لمن دخل عليك اهلا وسهلا
علم ان الاهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وجدت اهلا ولقيت سهلا

الا ان لفظتي وجدت ولقيت محذوفتان والمعنى الذي دلا عليه باق فصار المعنى
حينئذ مفهوما مع حذفهما فهو اذن زائد لا محالة ولذلك جميع المحذوفات على
اختلافها وتشعب مقاصدها وهذا الاتساع فيه لبيانه ووضوحه وقد سنح
لي في زيادة المعنى على اللفظ في غير المحذوفات دليل انا ذاكره وهو انا نجد من الكلام
ما يدل على معنيين وثلاثة فاللفظ فيه واحد والمعاني التي تحته متعددة فاما
الذي يدل على معنيين فالكنايات جميعها كالذي ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم وعن اصحابه رضي الله عنهم انهم كانوا اذا خرجوا من عنده لا يتفرقون الا
عن ذواق وهذا يدل على معنيين احدهما اطعام الطعام اي انهم لا يخرجون
من عنده حتى يطعمون الاخر انهم لا يتفرقون الا عن استفادة علم وادب يقوم
لانفسهم مقام الطعام لاجسامهم واما الذي يدل على ثلاثة معان فكقول
ابي الطيب المتنبي

واظلم اهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان الاول انه يحسد من انعم عليه الثاني ضد الاول الثالث
انه يحسد كل رب نعمة كائنا من كان اي يحسد من بات في نعماء نفسه يتقلب
وهذا وامثاله من ادل الدليل على زيادة المعنى على اللفظ وهو شيء استخرجته ولم
يكن لاحد فيه قول سابق وحيث فرغنا من الكلام على هذا الموضع فلنتبعه بذكر
اقسام الايجاز المشار اليها اولا وما يتصرف اليه فنقول اما الايجاز بالحذف

فإنه عجيب الأمر شبيه بالسحر وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون مبينا إذا لم تبن وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن وقد يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا أهلا وسهلا فإن نصب الأهل والسهل يدل على ناصب محذوف وليس هذا من الحسن ما للذي لا يظهر وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى كقولنا فلان يحل ويعقد فإن ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالإعراب وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى أي أنه يحل الأمور ويعقدها والذي يظهر بالإعراب يقع في المفردات من المحذوفات كثيرا والذي لا يظهر بالإعراب يقع في الجمل من المحذوفات كثيرا وسأذكر في كتابي هذا ما وصل إلى علمه وهو ينقسم قسمين أحدهما حذف الجمل والآخر حذف المفردات وقد يرد كلام في بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين معا فأما القسم الأول وهو الذي يحذف منه الجمل فإنه ينقسم إلى قسمين أيضا أحدهما حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاما وهذا أحسن المحذوفات جميعها وأدلها على الاختصار ولا يكاد تجده إلا في كتاب الله تعالى والقسم الآخر حذف

الجمل

الجمل غير المفيدة وقد وردا هاهنا مختلطين وجملتها أربعة أضرب الضرب الأول حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف ويأتي على وجهين الوجه الأول إعادة الأسماء والصفات وهذا يجيء تارة بإعادة اسم من تقدم الحديث عنه كقولك أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان وتارة يجيء بإعادة صفته كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك وهو أحسن من الأول وأبلغ لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه فمما ورد من ذلك قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون فالاستئناف واقع في هذا الكلام على أولئك لأنه لما قال الم ذلك الكتاب إلى قوله وبالآخرة هم يوقنون اتجه لسائل أن يقول ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا الوجه الثاني الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات وذلك كقوله تعالى إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين فخرج هذا القول مخرج الاستئناف لأن ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأن قائلا قال

وما الاعتناء الذي خص به [illegible]

كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي لوجهه
بروحه فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض الى المقول
لا الى المقول له مع كونه معلوما وكذلك قوله تعالى يا ليت قومي يعلمون مرتب على
تقدير سؤال سايل عما وجد ومن هذا النحو قوله تعالى يا قوم اعملوا على مكانتكم
اني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب فارتقبوا اني معكم رقيب
والفرق بين اثبات الفاء في سوف لقوله تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل
فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم وبين حذف الفاء
هاهنا في هذه الاية ان اثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وحذفها
وصل خفي تقديري بالاستيناف الذي هو جواب لسوال مقدر كانهم قالوا فاذا
يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت انت فقال سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء
وتارة بالاستيناف للتفنن في البلاغة واقوى الوصلين وابلغهما الاستيناف
وهو قسم من اقسام علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه ان شا الله الضرب
الثاني الاكتفا بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب فاما الاكتفا بالسبب عن
المسبب فكقوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت
من الشاهدين ولكنا انشانا قرونا فتطاول عليهم العمر كانه قال وما كنت شاهدا
لموسى وما جرى له وعليه ولكنا اوحيناه اليك فذكر سبب الوحي الذي هو اطالة
الفترة ودل به على المسبب الذي هو الوحي على عادة اختصارات القران لان

تقدير الكلام ولكنا انشانا بعد عهد الوحي الى موسى الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول
على اخرهم وهو القرن الذي انت فيهم العمر اي امد انقطاع الوحي فاندرست العلوم
فوجب ارسالك اليهم فارسلناك وعرفناك العلم بقصص الانبيا وقصة موسى
فالمحذوف اذن جملة مفيدة وهي جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب وكذلك
ورد قوله تعالى عقيب هذه الاية ايضا وهو وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن
رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون فان في هذا الكلام
محذوفا ولولاه لما فهم لانه قال وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من
ربك وهذا لا بد له من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام وتقديره ولكن عرفناك ذلك
واوحيناه اليك رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك فذكر
الرحمة التي هي سبب ارساله الى الناس ودل بها على المسبب الذي هو الارسال واما
حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها
السلام قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا قال كذلك قال ربك
هو علي هين ولنجعله اية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا فقوله ولنجعله اية
للناس تعليل معلله محذوف اي وانما فعلنا ذلك لنجعله اية للناس فذكر السبب
الذي صدر الفعل من اجله وهو جعله اية للناس ودل به على المسبب الذي هو
الفعل ومما ورد من ذلك في الاخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه
والرجل الانصاري الذي خاصمه في شراج الحرة التي يسقي منها النخل فلما حضرا

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير اسق ثم ارسل الماء الى جارك
فغضب الانصاري وقال يا رسول الله ان كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر وفي هذا الكلام
محذوف تقديره ان كان ابن عمتك حكمت له او قضيت له او ما جرى هذا المجرى
فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته ودل به على المسبب الذي هو الحكم او القضاء
لدلالة الكلام عليه واما الاكتفا بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى فاذا قرات
القران فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم اي اذا اردت قراءة القران فاكتفى بالمسبب
الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الارادة والدليل على ذلك ان الاستعاذة قبل
القراءة والذي دلت عليه انها بعد القراءة كقول القائل اذا ضربت زيدا فاجلس
فان الجلوس انما يكون بعد الضرب لا قبله وهذا اولى من تاول من ذهب الى انه اراد
فاذا تعوذت فاقرا لان في ذلك قلبا لا ضرورة تدعو اليه وايضا فليس كل مستعيذ
واجبة عليه القراءة وعلى هذا ورد قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم
والوضوء انما يكون قبل الصلاة لا عند القيام اليها لان القيام اليها هو مباشرة
افعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك وهذا انما يكون بعد الوضوء
وتاويل الاية اذا اردت القيام الى الصلاة فاغسل فاكتفى بالمسبب عن السبب وكذلك
ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى الصلاة فليتوضا اي اذا
اراد القيام الى الصلاة وانما يعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لان الفعل مسبب

عن

عن الارادة وهو مع القصد اليه موجود وكان منه بسبب وملابسة ظاهرة ومن
ذلك قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا اي
فضرب فانفجرت منه فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار عن السبب الذي هو الضرب
الضرب ـــــ الثالث وهو الاضمار على شريطة التفسير وهو ان يحذف من صدر
الكلام ما يوتى به في اخره فيكون الاخر دليلا على الاول وهو ينقسم الى ثلاثة اوجه
الاول ان يات على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الاولى دون الثانية كقوله تعالى افمن
شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر
الله اولئك في ضلال مبين تقدير الاية افمن شرح الله صدره للاسلام كمن اقسى
قلبه ويدل على المحذوف قوله فويل للقاسية قلوبهم الوجه الثاني يرد على حد النفي
والاثبات كقوله تعالى لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة
من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا تقديره لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل
ومن انفق من بعده وقاتل ويدل على المحذوف قوله اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا
من بعد وقاتلوا الوجه الثالث يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاما
ولا نفيا واثباتا وذلك كقول ابي تمام

تجنب الاثام ثم تخافها فكانما حسناته اثام

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه في اثباته فمنها ما يجي فيه

تجنب الاثام خيفة عقبها فكانما حسناته اثام

ولبس بشيء لان المعنى لا يصح به وكنت سئلت عن معناه وقيل لي ينطبق عجز البيت على
صدره واذا اجتنب الاثام وجانبها فكيف تكون حسناته اثاما فافكرت فيه وانعمت نظري
فسنح لي في القرآن الكريم آية مثله وهي قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة
وفي صدر البيت اضمار مفسر في عجزه وتقديره انه تجتنب الاثام فيكون قد اتى بحسنة
ثم يخاف تلك الحسنة فكانما حسناته اثام وهو على طباق الآية سواء ومن الاضمار
على شريطة التفسير قول ابي نواس

سنة العشاق واحدة فاذا احببت فاستكن

فحذف لفظ الاستكانة من الاول وذكره في الثاني اي سنة العشاق واحدة وهي
الاستكانة فاذا احببت فاستكن ومن الناس من يقول فاذا احببت فاستبن
وهذا لا معنى له لانه اذا لم يبين سنة العشاق ما هي فباي شيء يستبن المستن منها
لكنه ذكر السنة في صدر البيت من غير بيان ثم بينها في عجزه الضرب
الرابع ما ليس بسبب ولا مسبب ولا اضمار على شريطة التفسير ولا استئناف
فاما ما حذف فيه من اجل المعنى فكقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام
قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تحصنون
ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتوني
به وقد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها فرجع الرسول اليهم واخبرهم
بمقالة يوسف فعجبوا لها او فصدقوه عليها وقال الملك ائتوني به والمحذوف اذا

كان

كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة لانه اذا بقيت حاشيتا الكلام وحذف
وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه وكذلك ورد قوله تعالى في هذه
السورة ايضا فلما ان جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا قال الم اقل لكم اني اعلم
من الله ما لا تعلمون قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر
لكم ربي انه هو الغفور الرحيم فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر
ان شاء الله آمنين فقد حذف ايضا من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها ثم انهم
تجهزوا وساروا الى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقد ورد مثل هذا الضرب
في القرآن كثيرا كقوله تعالى في سورة القصص وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت
هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى امه كي تقر عينها
ففي هذا محذوف وهو جواب الاستفهام لانها لما قالت هل ادلكم على اهل بيت
يكفلونه لكم احتاج الى جواب لينتظم بما بعده من رده الى امه والجواب فقالوا نعم
فدلتهم على امراة فجيء بها وهي امه ولم يعلموا بمكانها فارضعته وهذه الجملة الثانية
اعني قوله تعالى فرددناه الى امه تدل على المحذوف لان رده الى امه لم يكن الا بعد
رد الجواب على اخته ودلالتها اياهم على امراة ترضعه وينبغي هذا الموضع وجملته
لمن ينظر في مواقع المحذوفات وكيفيتها ومما يجري على هذا النهج قوله تعالى
في قصة سليمن عليه السلام وقصة الهدهد في رسالته بالكتاب الى بلقيس قال
سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول

عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم وفي هذا
محذوف تقديره فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا
أيها الملأ وأما ما ورد من هذا الضرب في حذف الجمل التي ليست بمفيدة فنحو قوله
تعالى يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون
لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو علي هين
وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس
ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يا يحيى
خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها
صدره وهو البشرى بالغلام وتقديرها ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا يا
يحيى خذ الكتاب بقوة فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة وعلى هذا النهج ورد
قوله تعالى قال لهم هرون يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا
أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال يا هرون ما منعك
إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي
إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي وقد حذف من هذا
الكلام جملة إلا أنها غير مفيدة وتقديرها فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال من
عبادة العجل قال لأخيه هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني وكذلك ورد
قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل قال أيكم يأتيني بعرشها

قبل

قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني
عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك
فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر
لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من
الذين لا يهتدون وفي هذا محذوف تقديره فلما جاءته قال نكروا لها عرشها لأن
تنكيره لم يكن إلا بعد أن جيء به إليه وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره فكان
ذلك دليلا عليه ومما ورد على ذلك شعرا قول أبي الطيب المتنبي

لا أبغض العيس لكني وقيت بها قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره لا أبغض العيس لإنضائي إياها في الأسفار ولكني
وقيت بها كذا وكذا فالثاني دليل على حذف الأول وهذا موضع يحتاج في استخراجه
واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر ومما يتصل بهذا الضرب حذف ما يجيء بعد
أفعل كقولنا الله أكبر فإن هذا يحتاج إلى تمام أي أكبر من كل كبير أو أكبر من كل شيء
يتوهم كبيرا أو جرى هذا المجرى ومثله يرد قولهم زيد أحسن وجها أو أكرم خلقا
تقديره أحسن وجها من غيره وأكرم خلقا من غيره أو ما يشبه هذا المستمر من الكلام
وعليه ورد قول البحتري

الله أعطاك المحبة في الورى وحباك بالفضل الذي لا ينكر
ولأنت أملأ في العيون لديهم وأجل قدرا في الصدور وأكبر

أي أنت أملأ في العيون من غيرك **وأما القسم** الثاني المشتمل على حذف المفردات
فإنه يتصرف على أربعة عشر ضربا الأول حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه
بذكر الفعل كقول العرب أرسلت وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء ومنه
قول حاتم

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يريد النفس ولم يجر لها ذكر وعلى هذا ورد قوله تعالى كلا إذا بلغت التراقي وقيل من
راق والضمير في بلغت للنفس ولم يجر لها ذكر وقد نص عثمان بن جني رحمه الله على عدم
الجواز في حذف الفاعل وهذه الآية وهذا البيت الشعري وهذه الكلمة الواردة
عن العرب على خلاف ما ذهب إليه إلا أن حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق بل
يجوز فيما هذا سبيله وذاك أنه لا يكون إلا فيما دل الكلام عليه ألا ترى أن التي
تبلغ التراقي إنما هي النفس وذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة وإن
وإن كان الكلام خاليا عن ذكرها وكذلك قول حاتم حشرجت فإن الحشرجة إنما
تكون عند الموت وأما قول العرب أرسلت وهم يريدون أرسلت السماء فإن هذا
يقولونه نظرا إلى الحال وقد ساغ فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجيء المطر ولم
ترد في شيء من أشعارهم ولا في كلامهم المنثور وإنما يقولها بعضهم لبعض إذا جاء
المطر فالفرق بينها وبين حشرجت وبين بلغت التراقي ظاهر وذلك أن حشرجت
وبلغت التراقي يفهم منهما أن النفس هي التي حشرجت وبلغت التراقي وأما أرسلت

فلولا شاهد الحال وإلا لم يجز أن تكون دالة على مجيء المطر ولو قيل في معرض الاستسقاء
إنا خرجنا نسأل الله فلم نزل حتى أرسلت لفهم من ذلك أن التي أرسلت هي السماء ولا بد
في الكلام من دليل على المحذوف وإلا كان لغوا لا يلتفت إليه الضرب الثاني في
حذف الفعل وجوابه اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين أحدهما يظهر بدلالة
المفعول عليه كقولهم في المثل أهلك والليل فنصب أهلك والليل يدل على محذوف ناصب
تقديره الحق أهلك وبادر الليل وهذا مثل يضرب في التحذير وعليه ورد قوله تعالى
فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ومما ورد منه في الأخبار النبوية أن جابرا
تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تزوجت قال ثيبا فقال له فهلا
جارية تلاعبها وتلاعبك يريد فهلا تزوجت جارية فحذف الفعل لدلالة الكلام
عليه ومما ورد منه شعرا قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الكافية التي يمدح بها
عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ومطلعها   فدى لك من يقصر عن مداكا
وسأذكر الموضع الذي حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض وهي من
محاسن ما أتى به في معنى الوداع ولم يأت لغيره مثلها وهي

إذا التوديع قال قلبي عليك الصمت لا صاحبت فاكا
ولولا أن أكثر ما تمنى معاوده لقلت ولا مناكا
قد استشفيت من داء بداء وأقتل ما أعلك ما شفاكا
وأكتم منك نجوانا وأخفي هموما قد أطلت لها العراكا

إذا غاضبتها كانت شدادا وإن طاوعتها كانت ركاكا
وكم دون الثوية من مشوق يقول له فدومي ذا ابتدا كا
ومن عذب الرضاب اذا انخنا نقبل رحل تروك والوركا
حرام ان يمس الطيب بعدي وقد علق العبير به وصاكا
حدث معلنيه النوم عني وليت النوم حدث عن نداكا
وما ارضى لمعلنيه بحلم اذا انتبهت توهمه ابتشاكا
ولا الاباز تصعى واحكى ولبنك لا تشبه هوا كا

فقوله ولا منا كا فيه محذوف تقديره ولا صاحبت منا كا وكذلك قوله ولا الاباز تصعى واحكى واما القسم الاخر فانه لا يظهر فيه حذف الفعل ولا يكون هناك منصوب يدل عليه وانما يظهر بالنظر الى ملائمة الكلام فمما جاء منه قوله تعالى وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة فقوله لقد جئتمونا يحتاج الى اضمار فعل اي فقيل لهم لقد جئتمونا او فقلنا لهم وقد استعمل هذا في القرآن الكريم في غير موضع كقوله تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فقوله اذهبتم طيباتكم في حياتكم يحتاج الى تقدير الفعل المضمر وكذلك قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله وان جاهداك لا بد له من اضمار القول اي وقلنا له ان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ومن

هذا الضرب ايقاع الفعل على شيئين وهو لاحدهما كقوله تعالى فاجمعوا امركم وشركاكم وهو لامركم وحده وانما المراد اجمعوا امركم وادعوا شركاكم لان معنى اجمعوا من اجمع الامر اذا نواه وعزم عليه وقد قرا ابي رضي الله عنه فاجمعوا امركم وادعوا شركاكم وهذا دليل على ما اشرنا اليه وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومن حذف الفعل باب يسمى اقامة المصدر مقام الفعل وانما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب فقوله فضرب الرقاب اصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل واقيم المصدر مقامه وفي ذلك اختصار مع اعطاء معنى التوكيد المصدري واما حذف جواب الفعل فانه لا يكون في الامر المجزوم كقوله تعالى ذرهم يخوضوا ويلعبوا فجزم يخوضوا ويلعبوا لانهما جواب امر ذرهم وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الايجاز لانا اذا قلنا ذرهم اي اتركهم لا يحتاج ذلك الى جواب وكذلك ما جرى مجراه وانما يكون الجواب بالفاء في ماض كقولنا قلت له اذهب فذهب وحينئذ يظهر الجواب المحذوف كقوله تعالى ولقد اتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا باياتنا فدمرناهم تدميرا الا ترى كيف حذف جواب الامر في هذه الآية فان تقديره فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا باياتنا فذهبا اليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا فذكر حاشيتي القصة اولها واخرها لانهما المقصود من القصة بطولها اعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم ومن هذا الضرب ايضا قوله تعالى

يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا نرتع ونلعب وإنا له لحافظون قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ففي جواب الأمر من هذا الكلام محذوف تقديره فأرسله معهم ويدلنا على ذلك ما جاء بعده من قوله فلما ذهبوا به كما حذف أيضا في قوله عز وجل وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان الآية فجواب الأمر في هذا الموضع محذوف وتقديره فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال له يوسف أيها الصديق وكذلك قوله تعالى وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه الآية ففي هذا الكلام حذف واختصار استغني عنه بدلالة الحال عليه وتقديره فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف فدعا الملك بالنسوة وقال لهن ما خطبكن وهكذا ورد قوله تعالى وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين وقد حذف جواب الأمر ههنا وتقديره فأتوه فلما كلمه وفي سورة يوسف محذوفات كثيرة من أولها إلى آخرها فانظر أيها المتأمل إلى هذه المحذوفات المذكورة ههنا التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه ودلالة الحال عليه وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون محذوفات الكلام الضرب

الثالث حذف المفعول به وذلك مما نحن بصدده أخص وإن اللطائف فيه أكثر وأعجب كقولنا فلان يحل ويعقد ويبرم وينقض ويضر وينفع والأصل في ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى هذا جاء قوله تعالى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ومن بديع ذلك قوله عز وجل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير فإن في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن إذ المعنى وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم وامرأتين تذودان مواشيهما وقالتا لا نسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي ومن المرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي وأما كون المسقي غنما أو إبلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض وقد ورد في الشعر من هذا النوع قول البعيث بن حريث من أبيات الحماسة

دعاني يزيد بعد ما ساء ظنه وعبس وقد كانا على حد منكب
وقد علما أن العشيرة كلها سوى محضري من حاضرين وغيب

فالمفعول الثاني من علما محذوف لأن قوله أن العشيرة في موضع مفعولي علما الأول وتقدير الكلام قد علما أن العشيرة سوى محضري من حاضرين وغيب لا غناء عندهم أو سواء حضورهم وغيبتهم أو ما جرى هذا المجرى ومن هذا الضرب أيضا حذف

المفعول الوارد بعد المشية والإرادة كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فمفعول شاء ها هنا محذوف وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ومما جاء على مثال ذلك شعرا قول البحتري

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد

الأصل في ذلك لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه في الثاني وتقدم أن من الواجب في حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ ولو أظهرته لصرت إلى كلام غث ومجيء المشية بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شيء كثير شائع بين البلغاء ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كقوله تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فلو كان على حد قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى لوجب أن يقول لو شئت لبكيت دما ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنها أليق في هذا الموضع وسبب ذلك أنه كان بدعا عجيبا أن يشاء الإنسان أن يبكي دما فلما كان مفعول المشية مما يستعظم ويستغرب كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر الضرب الرابع وهو حذف المضاف والمضاف إليه وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر وذلك باب عريض طويل شائع في كلام العرب وإن كان

ابو

أبو الحسن الأخفش رحمه الله لا يرى القياس عليه وأما حذف المضاف فكقوله تعالى حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فحذف إلى يأجوج ومأجوج وهو سدهما وحذف المضاف إلى القرية في قوله تعالى واسأل القرية أي أهل القرية ومن ذلك أيضا قوله عز وجل ولكن البر من اتقى أي بر من اتقى وإن شئت كان تقديره ولكن ذا البر من اتقى والأول أولى لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع والخبر أولى بذلك من المبتدأ لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور وقد حذف المضاف مكررا في قوله تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من تراب حافر الرسول وهذا الضرب أكثر اتساعا من غيره ومما جاء منه شعرا قول بعضهم من شعراء الحماسة

إذا لاقيت قومي فاسألهم كفى قوما بصاحبهم خبيرا

هل أعفو عن أصول الحق فيهم إذا عسرت وأقطع الصدورا

أراد أنه يقطع ما في الصدور من الضغائن والأوغام أي يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وأما حذف المضاف إليه فإنه قليل الاستعمال فمما جاء منه قوله تعالى من قبل ومن بعد أي من قبل ذلك ومن بعده وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه كقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقيل أراد ظهر الأرض فحذف المضاف إليه وليس كذلك فإن ها والألف قائمة مقام الأرض ألا ترى أن قوله ها يريد به الأرض لأنه ضمير راجع إليها وكذلك ورد قول جرير

إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من أين تسرح

وهذا لا يسمى ايجازا وانما هو تعويض الضمير عن المضمر الضرب الخامس وهو
حذف الموصوف والصفة واقامة كل واحد منهما مقام الاخر ولا يمكن اطراده في كل
موضع واكثره يجي في الشعر وانما كانت كثرته في الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس
في اطراده فمما جا منه في الشعر قول البحتري من ابيات في صفة ايوان كسرى فقال في
ذكر التصاوير التي في الايوان وذاك ان الفرس كانت تحارب الروم فصور صورة مدينة
انطاكية في الايوان وحرب الروم والفرس عليها فمما ذكره في ذلك قوله

واذا ما رايت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وانوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس

فقوله على اصفر اي على فرس اصفر وهذا مفهوم من قرينة الحال لانه لما قال على اصفر
علم بذلك انه اراد فرسا اصفر والصفة تاتي في الكلام على ضربين اما للتاكيد والتخصيص
واما للمدح والذم وكلاهما من مقامات الاسهاب والتطويل لا من مقامات الايجاز والاختصار
واذا كان الامر كذلك لم يلق الحذف به هذا مع ما ينضاف اليه من الالتباس وضد البيان
الا ترى انك اذا قلت مررت بطويل لم يبن من هذا اللفظ الممرور به انسان هو ام رمح ام ثوب
ام غير ذلك واذا كان الامر على هذا فحذف الموصوف انما هو شي قام الدليل عليه او
شهدت به الحال واذا استبهم كان حذفه غير لايق ومما يؤكد عندك ضعف حذفه
انك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه وذلك ان تكون الصفة جملة نحو مررت

رجلا

برجل قام ابوه ولقيت غلاما وجهه حسن الا تراك لو قلت مررت بقام ابوه ولقيت وجهه
حسن لم يجز وقد ورد حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه في غير موضع من
القران الكريم كقوله تعالى واتينا ثمود الناقة مبصرة فانه لم يرد ان الناقة كانت مبصرة
ولم تكن عميا وانما يريد اية مبصرة فحذف الموصوف واقام الصفة مقامه ولقد تاملت
حذف الموصوف في مواضع كثيرة فوجدت اكثر وقوعه في النداء وفي المصدر اما النداء
فكقولهم يا ايها الظريف تقديره يا ايها الرجل الظريف وعليه ورد قوله تعالى يا ايها
الساحر تقديره يا ايها الرجل الساحر وكذلك قوله تعالى يا ايها المومنون تقديره يا ايها
القوم المومنون واما المصدر فكقوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا
تقديره ومن تاب وعمل عملا صالحا وقد اقيمت الصفة الجملة مقام الموصوف المبتدا في
قوله تعالى وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك اي قوم دون ذلك واما حذف الصفة
واقامة الموصوف مقامها فانه اقل وجودا من حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه
ولا يكاد يقع في الكلام الا نادرا لمكان استبهامه فمن ذلك ما حكاه سيبويه رحمه الله
من قولهم سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل وانما حذفت الصفة في هذا الموضع
لما دل من الحال عليه وذاك انه يحس في كلام القايل كذلك من التطريح والتطريب والتفخيم
والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل وانت تحس هذا من نفسك اذا تاملته وهو ان تكون في
مدح انسان والثنا عليه فتقول كان والله رجلا اي رجلا فاضلا او شجاعا او كريما
او ما جرى هذا المجرى من الصفات وكذلك تقول سالناه فوجدناه انسانا اي انسانا

سمحًا أو جوادًا أو ما أشبهه فعلى هذا ونحوه يحذف الصفة فأما إن عري عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شيء خارج عنها أما الصفة التي تقدمها ما يدل عليها فقوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا فحذف الصفة أي كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبًا ويدل على المحذوف قوله فأردت أن أعيبها فإن عيبه إياها لم يخرجها عن كونها سفينة وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب فحذفت الصفة هاهنا لأنه تقدمها ما يدل عليها وأما التي تأخر عنها ما يدل عليها فقول بعض شعراء الحماسة

كل امرئ ستئيم منه العرس أو منها يئيم

فإنه أراد كل امرئ متزوج إذ دل عليه ما بعده من قوله ستئيم منه أو يئيم منها إذ الأيم الأمر زوج ولا يئيم هو الأمن زوجة فجاء بعد الموصوف ما دل عليه ولولا ذلك لما صح معنى البيت إذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا يئيم منه عرس إلا إذا كان متزوجًا وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شيء خارج عن الكلام فقول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فإنه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال وهذا شيء لم يعلم من نفس اللفظ وإنما علم من شيء خارج عنه الضرب السادس وهو حذف الشرط وجوابه فأما حذف الشرط فنحو قوله تعالى يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي

واسعة

١٢٣٥٠

واسعة فإياي فاعبدون فالفاء في قوله فاعبدون جواب شرط محذوف لأن المعنى أن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص ومن هذا الضرب قوله تعالى فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية أي فحلق فعليه فدية وكذلك قولهم الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر أي إن فعل المرء خيرًا جزي خيرًا وإن فعل شرًا جزي شرًا وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ومن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر تقديره ذلك فأفطر فعدة من أيام أخر ولهذا ذهب داود الظاهري إلى الأخذ بظاهر الآية ولم ينظر إلى حذف الشرط فأوجب القضاء على المريض والمسافر سواء أفطرا أو لم يفطرا ومن حذف الشرط قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون اعلم أن هذه الفاء هي التي في قول الشاعر فقد جئنا خراسانا وحقيقتها أنها جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام كأنه قال إن صح ما قلتم إن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك هذه الآية تقول إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي قد تبين بطلان قولكم وأما حذف جواب الشرط فكقوله تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين فإن جواب الشرط هاهنا محذوف تقديره إن كان

القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ويدل على المحذوف قوله تعالى إن الله لا
يهدي القوم الظالمين الضرب السابع وهو حذف القسم وجوابه فأما حذف
القسم فنحو قولك لأفعلن أي والله لأفعلن أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها وأما
حذف جوابه فكقوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر
هل في ذلك قسم لذي حجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد
فجواب القسم هاهنا محذوف تقديره لتعذبن أو نحوه ويدل على ذلك ما بعده من قوله
ألم تر كيف فعل ربك بعاد إلى قوله سوط عذاب ومما ينتظم في هذا السلك قوله تعالى ق
والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب فإن معناه ق
والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله أئذا متنا
وكنا ترابا ذلك رجع بعيد وقد ورد هذا الضرب في القرآن كثيرا كقوله تعالى في سورة
النازعات فقال والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات
سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة فجواب القسم هاهنا محذوف
تقديره لتبعثن أو لتحشرن ويدل على ذلك ما أتى بعده من ذكر القيامة في قوله
يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وكذلك إلى آخر السورة الضرب
الثامن وهو حذف لو وجوابها وذلك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها فأما حذف
لو فكقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق
ولعلا بعضهم على بعض تقديره ذلك إذن لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق وكذلك

ورد قوله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون
تقديره إذن لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون وهذا من أحسن المحذوفات ومما جاء من
ذلك شعرا قول بعضهم في صدر الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

فلو في البيت الثاني محذوفة لأنها في البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله لم تستبح
إبلي ثم حذفها في الثاني وتقدير حذفها إذا لو كنت منهم لقام بنصري معشر خشن أو إذا
لو كانوا قومي لقام بنصري معشر خشن وأما حذف جواب لو فإنه كثير شائع وذلك كقولك
لو زرتنا أو لو أتيتنا ومعناه لأحسنا إليك أو لأكرمناك أو ما جرى هذا المجرى ومما
ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان
قريب فإن جواب لو هاهنا محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة أو غير
ذلك مما جرى مجراه ومما جاء على نحو من هذا قوله عز وجل ويقولون متى هذا الوعد
إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم
ولا هم ينصرون تقديره لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه وهو وقت صعب شديد
تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها من أنفسهم ولا يجدون
ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن
جهلهم به هو الذي هونه عليهم ومما يجري على هذا النهج قوله تعالى قال لو أن لي

بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فجواب لو في هذا الموضع محذوف كما حذف في قوله
تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أي لو أن لي بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم أو ما أشبهه
وكذلك قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال لكان هذا القرآن وهذا الضرب من المحذوفات
أظهر الضروب المذكورة وأوضحها للعلم المخاطب به لأن قوله تعالى حكاية عن لوط
عليه السلام لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد يسارع الفهم إلى أن الكلام يحتاج إلى الجواب
ومما جاء منه شعرا قول أبي تمام في قصيدته التي يمدح بها المعتصم عند فتحه
مدينة عمورية فقال

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له العواقب بين السمر والقضب

فإن هذا محذوف الجواب تقديره لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أهبة الحذار أو غير ذلك واعلم
أن حذف هذا الجواب لا يسوغ في أي موضع كان من الكلام وإنما يحذف فيما دل عليه
مكان المحذوف ألا ترى أنه قد ورد في القرآن غير محذوف كقوله تعالى ولو فتحنا عليهم
بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون
وهذا ليس كالذي تقدم من الآيات لأن تلك علم مكان المحذوف منها وهذه الآية لو
حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه لأنه يحتمل وجوها منها أن يقال لما آمنوا ولطلبوا
ما وراء ذلك وقد تقدم القول في أول باب الإيجاز أنه لا بد من دلالة الكلام على
المحذوف الضرب التاسع وهو حذف جواب لولا فمن ذلك قوله تعالى
والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات

بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرأ عنها
العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله
عليها إن كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب رحيم
فجواب لولا ها هنا محذوف تقديره لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر
عليكم هذه الفاحشة بسببه وكذلك ورد قوله تعالى إن الذين يحبون أن تشيع
الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون
ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم تقديره ولولا فضل الله عليكم
ورحمته لعجل لكم العذاب أو فعل بكم كذا وكذا الضرب العاشر وهو حذف جواب
لما وجواب أما فأما حذف جواب لما فكقوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن
يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين فإن جواب لما ها هنا محذوف
وتقديره فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان
مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما
أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه
المحنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة وقوله إنا كذلك نجزي المحسنين تعليل لتخويل
ما خولهما من الفرج والسرور بعد تلك الشدة العظيمة وأما حذف جواب أما فنحو
قوله تعالى فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم أي فيقال لهم أكفرتم
بعد إيمانكم الضرب الحادي عشر وهو حذف جواب إذا فمما جاء منه قوله تعالى

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ألا ترى كيف حذف الجواب عن إذا في هذا الكلام وهو مدلول عليه بقوله إلا كانوا عنها معرضين كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ثم قال ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة الضرب الثاني عشر حذف المبتدأ والخبر أما حذف المبتدأ فلا يكون إلا مفردًا والأحسن فهو حذف الخبر لأن منه ما يأتي جملة كقوله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن وههنا قد حذف خبر المبتدأ وهو جملة مبتدأ وخبر وتقديرها واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر ومما ورد منه شعرًا قول أبي عبادة البحتري

كل عذر من كل ذنب ولكن أعوز العذر من بياض العذار

فهذا قد حذف منه خبر المبتدأ إلا أنه مفرد غير جملة وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع أو ما جرى هذا المجرى الضرب الثالث عشر وهو حذف لا من الكلام وهي مرادة وذلك كقوله تعالى قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف يريد تالله لا تفتأ أي لا تزال فحذفت لا من الكلام وهي مرادة وعلى هذا جاء قول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدًا فحذفت لا في هذا الموضع وهي مرادة ومما جاء منه قول أبي محجن الثقفي لما نهاه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن شرب الخمر وهو إذ ذاك في قتال

العرس بالقادسية

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تهلك الرجل الحليما

فلا والله أشربها حياتي ولا أسقي بها أبدًا نديما

يريد لا أشربها فحذف لا من الكلام وهي مفهومة منه الضرب الرابع عشر وهو حذف الواو من الكلام وإثباتها وأحسن حذفها في المعطوف عليه وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وإيجازًا كقول أنس بن مالك رضي الله عنه كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون ولا يتوضؤون أو قال ثم يصلون لا يتوضؤون فقوله لا يتوضؤون بحذف الواو أبلغ في نفي عدم الوضوء من قوله ولا يتوضؤون بإثباتها كأنه جعل ذلك حالة لازمة أي إنها داخلة في الجملة وليست جملة خارجة عن الأولى لأن واو العطف يؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه وإذا حذفت في مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة وقد جاء مثل ذلك في القرآن الكريم وذلك أن يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ثم تسرد سردًا بغير عاطف كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر تقدير الكلام لا يألونكم خبالًا وودوا ما عنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم ولما حذفت الواو جاء الكلام أوجز وأحسن طلاوة وأبلغ تأليفًا ونظمًا وأمثاله في القرآن كثيرة واعلم أنه قد حذفت الواو وأثبتت في مواضع فأما إثباتها فنحو قوله

تعالى وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم واما حذفها فنحو قوله تعالى وما اهلكنا
من قرية الا لها منذرون وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو واثباتها في كل موضع انما
يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين ولنبين لك في ذلك رسما تتبعه فنقول
اعلم ان كل اسم نكرة جاء خبره بعد الا يجوز اثبات الواو في خبره وحذفها كقولك
ما رأيت رجلا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب بغير واو فان كان الذي
يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو نحو قولك ما اظن درهما الا هو كافيك
ولا يجوز الا وهو كافيك بالواو لان الظن يحتاج الى شيئين ولا يعترض فيه بالواو لانه
كالمكني من الافعال باسم واحد وكذلك جواب ظننت وكان واشباههما فخطأ ان تقول
ان رجلا وهو قائم ونحو ذلك ويجوز هذا في ليس خاصة تقول ليس احد الا وهو قائم
لان الكلام يتم قبل تمامه بليس وحرف نكرة الا ترى انك تقول ليس احد وما من احد
فجاز فيها اثبات الواو ولم يجز في اظن لانك لا تقول ما اظن احدا فاما اصبح وامسى ورأيت
فان الواو فيهن اسهل لانهن توام في حال وكان واظن ونحوهما سبن على النقص الا اذا
كانت تامة وكذلك لا في التبرية وغيرها نحو لا رجل وما من رجل فيجوز اثبات الواو فيها
وحذفها واعلم ان العرب قد حذفت من اصل الالفاظ شيئا لا يجوز القياس
عليه كقول بعضهم

كأن ابريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم

فقوله بسبا الكتان يريد بسبائب الكتان وكذلك جاء قول الآخر

مدبر

مدبر بن جندل جابر لجنوبها فكانما تذكي سنابكها الحبا

قصدا وامثاله مما يقبح ولا يحسن وان كان العرب قد استعملته فانه لا يجوز لنا ان نستعمله
واما القسم الثاني من الايجاز فهو ما لا يحذف منه شيء وذلك ضربان احدهما ما
ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى الايجاز
بالقصر فاما الايجاز بالتقدير فانه الذي يمكن التعبير عن معناه بمثل الفاظه
وفي عدتها واما الايجاز بالقصر فانه ينقسم قسمين احدهما ما دل لفظه على
محتملات متعددة وهذا يمكن التعبير عنه بمثل الفاظه وفي عدتها والآخر ما لم يدل
لفظه على محتملات متعددة ولا يمكن التعبير عنه بمثل الفاظه وفي عدتها لا بل يستحيل
ذلك ولنورد الآن الضرب الاول الذي هو الايجاز بالتقدير فمما جاء منه قوله تعالى
قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم
اماته فأقبره ثم اذا شاء انشره كلا لما يقض ما امره فقوله قتل الانسان دعاء عليه وقوله
ما اكفره تعجب من افراطه في كفران نعمة الله عليه ولا ترى اسلوبا اغلظ من هذا الدعاء
والتعجب ولا اخشن مسا ولا ادل على تسخط مع تقارب طرفيه ولا اجمع للائمة على قصر
متنه ثم انه اخذ في صفة حاله من ابتداء حدوثه الى منتهى زمانه فقال من اي شيء
خلقه ثم بين الشيء الذي خلق منه بقوله من نطفة خلقه فقدره اي هيأه لما يصلح له
ثم السبيل يسره اي سهل سبيله وهو مخرجه من بطن امه او السبيل الذي يختار سلوكه
من طريقي الخير والشر والاول اولى لانه بالخلقة وتقديره ثم بعد ذلك يكون

تيسير سبيله لما اختاره من طريقي الخير والشر ثم اماته فاقبره اي جعله ذا قبر يواري
فيه ثم اذا شاء انشره اي احياه كلا ردع للانسان عما هو عليه لما يقض ما امره اي لم
يقض مع تطاول زمانه لما امره الله به يعني ان انسانا لم يخل من تقصير قط الا ترى
الى هذا الكلام الذي لو اردت ان تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك لانك
كنت تذهب بجزء من معناه والايجاز هو ان لا يمكنك ان تسقط شيئا من الفاظه والايات
الواردة من هذا الضرب كثيرة **كقوله** تعالى **فمن** جاءه موعظة من ربه فانتهى فله
ما سلف فقوله فله ما سلف من جوامع الكلم ومعناه ان خطاياه الماضية قد غفرت
له وتاب الله عليه فيها الا ان قوله فله ما سلف ابلغ اي ان السالف من ذنوبه لا يكون
عليه وانما هو له **وكذلك** ورد قوله تعالى من كفر فعليه كفره فعليه كفره كلمة جامعة
تغني عن ذكر ضروب من العذاب لان من احاط به كفره فقد احاطت به كل خطيئة **وعلى**
نحو من هذا جا قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون فهذه الاية من جوامع
الايات الواردة في القران الكريم **وروي** ان النبي صلى الله عليه وسلم قراها على
الوليد بن المغيرة فقال له يا ابن اخ اعد فاعاد النبي صلى الله عليه وسلم قراتها
عليه فقال ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق
وما هو بقول البشر **ومن** هذا النحو قوله تعالى **ولقد** خلقنا الانسان ونعلم ما
توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين

وعن

وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت
بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها
سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد
وهذه الايات من قوارع القران المجيد التي دلت على تخويف وارهاب يرق له القلوب
وتقشعر منه الجلود وهي مشتملة مع قصرها على حال الانسان منذ خلقه الى حين حشره
وحشر غيره من الناس وتصوير ذلك الامر الفظيع في اسهل لفظ واقربه وما مررت
عليها الا جددت لي موعظة واحدثت عندي ايقاظا **ومن** هذا الضرب ما **ورد** عن
النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لابي سلمة عند موته فقال اللهم ارفع درجته في
المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين **وهذا** دعاء
جامع بين الايجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها فاوله مختص بالمهم الذي يفتقر
اليه المدعو له في تلك الحال وهو رفع درجته في الاخرة وثانيه مردف بالمهم
الذي يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا وثالثه مختتم بالجمع
بين الداعي والمدعو له وهذا من الايجاز البليغ الذي هو طباق ما قصد له **وكلام**
النبي صلى الله عليه وسلم كله هكذا كما قال اوتيت جوامع الكلم **وكذلك ورد** قوله
صلى الله عليه وسلم يوم فانه قال هذا يوم له ما بعده وهو شبيه بقوله تعالى
فله ما سلف **ولما** جرح عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجراحة التي مات بها
اجتمع الناس فجاء شاب من الانصار وقال ابشر يا امير المؤمنين ببشرى الله لك

من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما علمت ووليت فعدلت
ثم شهادة وهذا كلام سديد قد حوى المعنى المقصود وأتى به في أوجز لفظ وأحسنه
ومع ما فيه من الايجاز فإنه مستغرب وسبب استغرابه انه جعل المساءة بشرى
واخرجها مخرج المسرة وتلطف في ذلك فأبلغ ولو أراد الكاتب البليغ او الخطيب
المصقع ان يأتي بذلك على هذا الوجه لأعوزه ومن هذا النمط ما كتبه طاهر بن
الحسين الى المأمون عند لقائه بعيسى بن ماهان وهزمه اياه وقتله فكتب اليه
كتابي الى امير المؤمنين وراس عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في يدي وعسكره
مصرف تحت امري والسلام وهذا من الكتب المختصرة التي حوت الغرض المطول
وما يكتب في مثل هذا المقام مثله ولما أرسل المهلب بن ابي صفرة أبا الحسن المدايني
الى الحجاج بن يوسف يخبره اخبار الازارقة كلمه كلاما موجزا كالذي نحن بصدد ذكره
ها هنا وذاك أن الحجاج سأله فقال كيف تركت المهلب فقال ادرك ما امل وامن
مما خاف فقال كيف هو لجنده قال والد رؤوف قال فكيف جنده له قال اولاد بررة
قال كيف رضاهم عنه قال وسعهم بفضله واغناهم بعدله قال كيف يصنعون
اذا لقيتم العدو قال نلقاهم بجدنا ويلقونا بجدهم قال كذلك الجد اذا لقي الجد قال
فأخبرني عن بني المهلب قال هم احلاس القتال بالليل حماة السرح بالنهار قال ايهم
افضل قال كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها فقال الحجاج لجلسائه هذا والله
هو الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع وقد ورد من هذا الضرب في الاخبار النبوية

شيء كثير وسأورد منه أمثلة يسيرة فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم الحلال
بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات فهذا الحديث من اجمع الاحاديث للمعاني
الكثيرة وذاك انه يشتمل على جل الاحكام الشرعية فإن الحلال والحرام اما ان يكون
الحكم فيهما بينا لا اختلاف فيه بين العلماء واما ان يكون خافيا يتجاذبه وجوه التأويلات
فكل منهم يذهب فيه مذهبا وكذلك جاء قوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات
وانما لامرئ ما نوى فإن هذا الحديث ايضا من جوامع الاحاديث للاحكام الشرعية
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الضعيف أمير الركب وقد ورد أخو هذا الحديث
بلفظ آخر فقال صلى الله عليه وسلم سيروا بسير أضعفكم الا ان الاول احسن لانه
ابلغ معنى فإن الامير واجب الحكم فهو متبع واذا كان الضعيف امير الركب كان المتبوع
له في سيرهم ونزولهم وهذا المعنى لا يوجد في قوله سيروا بسير أضعفكم وأحسن
من هذا كله ما ورد عنه صلوات الله عليه في حديث مطول يتضمن سؤال جبريل
عليه السلام فقال من جملته ما الاحسان قال ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه
يراك فقوله تعبد الله كأنك تراه من جوامع الكلم لأنه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال
تعبد الله مخلصا في نيتك وواقفا عند ادب الطاعة من الخضوع والخشوع آخذا أهبة الحذر
وأشباه ذلك لأن العبد اذا خدم مولاه ناظرا اليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد
اليه السبيل وما ينتهي اليه الطوق ومما أطربني من ذلك حديث الحديبية وهو انه
جاء بديل بن ورقاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اني تركت كعب بن لؤي وعامر

بن لوي معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم ان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاؤا ماددناهم مدة ويدعوني وبين الناس
فان اظهر عليهم واحبوا ان يدخلوا فيما دخل فيه الناس والا كانوا قد جموا وان ابوا فو الذي
نفسي بيده لاقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه ولينفذن الله امره وهذا
الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة الى غاية لا ينتهي اليها وصف الواصف
واما ما ورد من ذلك شعرا فقول النابغة

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتاى عنك واسع

وكذلك قوله

ولست بمستبق اخا لا تلمه على شعث اي الرجال المهذب

وعلى هذا الاسلوب ورد قول الاعشى في اعتذاره الى اوس بن لام عن هجائه
اياه فقال

واني على ما كان مني لنادم واني الى اوس بن لام لتائب
واني الى اوس ليقبل عذري ويصفح عني ما حييت لراغب
فهب لي حياتي فالحياة لقائم بسرك فيها خير ما انت واهب
سامحو بمدح فيك اذ انا صادق كتاب هجاء سار اذ انا كاذب

وهذا من المعاني الشريفة في الالفاظ الخفيفة وهو من حسنات الاعشى المشهورة وعلى
نحو منه جاء قول الفرزدق

صحاحم الشعث الجياد كانما قطا هيجته يوم ريح اجادله
الى كل حي قد خطبنا بناتهم بارعن جرار كثير صواهله
اذا ما التقينا انكحتنا رماحنا من القوم ابكارا كراما عقايله
وانا المناعون نحن لو ابنا حماتنا اذا ما عاذ بالسيف حامله

وهذا من محاسن ما جاء في هذا الباب ومما يجري هذا المجرى قول جرير

تمنى رجال من تميم منيتي وما ذاد عن احسابهم ذائد مثلي
فلو شاء قومي كان حلمي فيهم وكان على جهال اعدائهم جهلي

وكذلك ورد قوله متغزلا وهو من محاسن اقواله

سرت الهموم فبتن غير نيام واخو الهموم يروم كل مرام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد اولئك الاقوام
ولقد اراك وانت جامعة الهوى اثني بعهدك خير دار مقام
طرقتك صائدة القلوب فليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على اغر كانه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك فكان غير رمام
ولقد اراني والجديد الى بلى في موكب طرف الحديث كرام
لولا مراقبة العيون اريننا حدق المها وسوالف الارام
اذا صرفن عيونهن بنظرة بعدت نوافذها بغير سهام

هل نفعنك أن قتلن مرقشا او ما فعلن بعروة بن حزام

وحلاوة هذا الكلام أحسن من ايجازه ولقد أعوز غيره أن يأتي بمثله حتى اقر باعوازه ومن
باب الايجاز الذي يسمى التقدير قول علي بن جبلة

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو حملته في السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدي بمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

فهذا هو الكلام الذي ألفاظه وفاق معانيه فإنه قد اشتمل على مدح رجل بشمول ملكه وعموم
سلطانه وانه لا مهرب عنه لمن يحاوله وان صعد السماء ثم ذكر جميع المهارب في المشارق والمغارب
وأشار الى انه يبلغ الظلام والضياء وذلك ما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ولا قصرت
عنه ومن هذا الضرب قول ابي نواس وهو مما يأتي في هذا الموضع

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها اثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى واضغاث ريحان جني ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم واني على امثال تلك لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

ومما انتهى الي من اخبار ابن المزرع قال سمعت الجاحظ يقول لا أعرف شعرا يفضل هذه
الأبيات التي لابي نواس ولقد انشدتها ابا شعيب القلال فقال والله يا ابا عثمان ان

هذا

هذا هو الشعر ولو نقر لطن فقلت له ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف ولعمري
ان الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذي ذكره هو الحق وعلى هذا الاسلوب جاء
قول ابي تمام

ان القوافي والمساعي لم تزل مثل النظام اذا اصاب فريدا
هي جوهر نثر فان الفته بالشعر صار قلائدا وعقودا
في كل معترك وكل مقامة يأخذن منه ذمة وعقودا
فاذا القصائد لم تكن خفراءها لم يرض منها مشهد مشهودا
من اجل ذلك كانت العرب الالى يدعون هذا سؤددا مجدودا
وتند عندهم العلى الا على جعلت لها مرر القريض قيودا

وأما الضرب الثاني وهو الايجاز بالقصر فان القرآن ملآن منه وقد
تقدم القول انه قسمان احدهما ما يدل على محتملات متعددة فمن ذلك قوله تعالى ولقد
أوحينا الى موسى ان أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا
ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما
هدى فقوله فغشيهم من اليم ما غشيهم من جوامع الكلم التي تستقل على قلتها بالمعاني
الكثيرة اي غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه الا الله ولا
في ص يحيط به غيره ومن هذا الضرب قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين فجمع في الآية جميع مكارم الاخلاق لان الامر بالمعروف فيه صلة الرحم ومنع

اللسان عن الغيبة وعن الكذب وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك وفي الاعراض
عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما **وقال** بعض الاعراب في دعائه اللهم هب لي حقك
وارض عني خلقك فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو البلاغة **ومن** ذلك قوله
عز وجل اولئك لهم الامن فانه دخل تحت الامن جميع المحبوبات وذاك انه نفي به ان
يخافوا شيئا من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وغير ذلك من اصناف
المكاره واشباه هذا في القرآن الكريم كثيرة وهو كثير في بعض السور وقيل في بعض
قال النبي صلى الله عليه وسلم من شا ان يرتع في الرياض الانيقة فعليه بال حم **ومن**
ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم الخراج بالضمان وذاك ان رجلا اشترى عبدا
فاقام عنده مدة ثم وجد به عيبا فخاصمه الى النبي صلى الله عليه وسلم ورده عليه
فقال يا رسول الله انه استغل غلامي فقال الخراج بالضمان ومعنى قوله الخراج
بالضمان ان الرجل اذا اشترى عبدا فاستغله ثم وجد به عيبا دلسه عليه البايع فله
ان يرده ويسترجع الثمن جميعه ولو مات العبد او ابق او سرقه سارق كان في
مال المشتري وضمانه عليه واذا كان ضمانه عليه فخراجه له اي له ما يحصل من
اجرة عمله **واما ما ورد** من ذلك شعرا فقول السموال بن عاديا الغساني من جملة
ابياته اللامية المشهورة وذلك قوله منها

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثنا سبيل

فان هذا البيت قد اشتمل على مكارم الاخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع

وحلم

هذا من ملذات العقول واللطائف المطربة من المنقول

معنى قول الرسول الخراج بالضمان

وحلم وصبر وغير ذلك فان هذه الاخلاق كلها من ضيم النفس لانها تجد بحملها
ضيما اي مشقة وعنا **وقد** تقدم القول ان الايجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات
كثيرة وهذا البيت من ذلك القبيل وما اعلم ان شاعرا قديما ولا حديثا اتى بمثله وقد اخذه
ابو تمام فاحسن في اخذه وهو

وظلمت نفسك طالبا انصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم

فقابل في بيته هذا بالمقابلة بين الضدين في الظلم والانصاف ثم قال فعجبت من مظلومة
لم تظلم وهذا احسن من الاول ومعنى قوله ظلمت نفسك طالبا انصافها اي انك
اكرهتها على مشاق الامور واذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ثم انك مع ظلمك اياها قد انصفتها
لانك جلبت اليها اشيا حسنة تكسبها ذكرا جميلا ومجدا موثلا فانت منصف لها في
صورة ظالم وكذلك قوله فعجبت من مظلومة لم تظلم اي انك ظلمتها وما ظلمتها لان
ظلمك اياها الى ما هو جميل حسن وهذا القدر من الامثلة كاف في هذا الباب القسم
الاخر من الضرب الثاني في الايجاز بالقصر وهو الذي لا يمكن التعبير عن الفاظه بالفاظ
اخرى مثلها وفي عدتها وهو اعلى طبقات الايجاز مكانا واعوزها امكانا واذا وجد
في كلام بعض البلغاء فانما يوجد شاذا نادرا فمن ذلك ما ورد في القرآن الكريم كقوله
تعالى ولكم في القصاص حياة فان قوله القصاص حياة لا يمكن التعبير عنه الا بالفاظ
كثيرة لان معناه انه اذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل فاوجب ذلك الحياة للناس
ولا يلتفت الى ما ورد عن العرب من قولهم القتل انفى للقتل فان من لا يعلم يظن ان

القسم

هذا على وزن الآية وليس كذلك بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه الأول أن القصاص حياة
لفظتان والقتل أنفى للقتل ثلاث لفظات الوجه الثاني أن في قولهم القتل أنفى للقتل تكريرا
ليس في الآية الوجه الثالث أنه ليس كل قتل نافيا للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص وقد
صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بعض بيت من شعره فقال

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغتر يحرسه الدم

فقوله إن الدم المغتر يحرسه الدم أحسن مما ورد عن العرب من قولهم القتل أنفى للقتل
ويروى عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفر المنصور فقال له أيما أحب إليك دولتنا
أو دولة بني أمية فقال ذاك إليك فقوله ذاك إليك من الإيجاز بالقصر الذي لا يمكن التعبير
عنه إلا بألفاظ كثيرة لأن معنى قوله ذاك إليك وهو لفظتان أنه إن زاد إحسانكم على
إحسان بني أمية فأنتم أحب إلي وهذه عشرة ألفاظ فإن قيل كيف لا يمكن التعبير عن
ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها وفي المترادف من الألفاظ ما هو دليل على
خلاف ذلك فإنه إذا قيل راح ثم قيل مدامة أو سلافة كان ذلك سواء وقامت هذه
اللفظة مقام هذه قلت في الجواب ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض
ألا ترى أن لفظة القصاص لا يمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ولما عبر بالقتل في قول عنهما
العرب القتل أنفى للقتل ظهر الفرق بين ذلك وبين الآية في قوله تعالى ولكم في
القصاص حياة فالذي أردته إنما هو الكلام الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ
أخرى مثلها وفي عدتها فإن كان كذلك وإلا فليس داخلا في هذا القسم المشار إليه

النوع

النوع السادس عشر في الإطناب

هذا النوع من الكلام أمعنت نظري فيه وفي التكرير والتطويل فملكتني حيرة
الشبه بينهما طويلا وكنت في ذلك كعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الكلالة حيث قال
قد أعياني أمر الكلالة وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيرا
حتى ضرب في صدري وقال ألا تكفيك آية الصيف وبعد أن أنعمت نظري في هذا
النوع الذي هو الإطناب وجدته ضربا من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصدا
للمبالغة إلا أنه ضرب مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره لأن من التأكيد
ما يتعلق بالتقديم والتأخير كتقديم المفعول على الفاعل وتقديم خبر المبتدإ وأشباه
ذلك مما تقدم ذكره ومن التأكيد ما يتعلق بالاعتراض كالاعتراض بين القسم وجوابه
وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك وسيأتي الكلام عليه في بابه وهذا
الضرب الذي هو الإطناب ليس كذلك ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه فمنهم من ألحقه
بالتطويل الذي هو ضد الإيجاز وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدري كأبي
هلال العسكري والغانمي حتى إنه قيل إن كتب الفتوح وما جرى مجراها مما تقرأ على
عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبا فيها وهذا القول فاسد لأنه إن عني بذلك
أن تكون ذات معان متعددة قد استقصي فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره
فذلك مسلم وإن عني بذلك أنها تكون مكررة المعاني مطولة الألفاظ قصدا
لإفهام العامة فهذا غير مسلم وهو مما لا يذهب إليه من عنده أدنى معرفة

بعلم الفصاحة والبلاغة ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى فانه لم يجعل لخواص
الناس فقط وانما جعل لعوامهم وخواصهم والكثرة لا بل جميعه مفهوم الالفاظ للعوام
الا كلمات معدودة وهي التي تسمى غريب القرآن وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة
الاولى المختصة بالالفاظ وعلى هذا فينبغي ان تكون الكتب جميعها مما تقرا على عوام الناس
وخواصهم ذات الفاظ سهلة مفهومة وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير
ذلك فانه بمعزل عن الحق وعلى هذا فان الاطناب لا يختص به عوام الناس وانما هو
للخواص كما هو للعوام وسابين حقيقته في كتابي هذا واحقق القول فيه بحيث تزول
الشبهة التي خبط ارباب علم البيان من اجلها وقالوا انه لا تعرب عن فائدة والذي
عندي فيه انه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسماه
وهو في اصل اللغة ماخوذ من اطنب في الشي اذا بالغ فيه ويقال اطنبت الريح اذا
اشتدت في هبوبها واطنب في السير اذا اشتد فيه وعلى هذا فان حملناه على مقتضى
مسماه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني وهذا لا يختص بنوع واحد من انواع علم
البيان وانما يوجد في جميعها اذ ما من نوع منها الا ويمكن المبالغة فيه واذا كان
الامر كذلك فينبغي ان يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الا بذكر حده الدال
على حقيقته والذي يحد به ان يقال هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حده
الذي يميزه عن التطويل اذ التطويل هو زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة واما التكرير
فانه دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه اسرع اسرع فان المعنى

مردد

مردد واللفظ واحد وسابين ذلك مفصلا في بابه بعد باب الاطناب لاني
ذكرت الايجاز ثم الاطناب ثم التكرير وهي ابواب يتبع بعضها بعضا واذا كان
التكرير هو ايراد المعنى مرددا فمنه ما ياتي لفائدة ومنه ما ياتي لغير فائدة فاما الذي
ياتي لفائدة فانه جزء من الاطناب وهو اخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير ياتي لفائدة
فهو اطناب وليس كل اطناب تكريرا ياتي لفائدة واما الذي ياتي من التكرير لغير فائدة
فانه جزء من التطويل وهو اخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير ياتي لغير فائدة تطويل
وليس كل تطويل تكريرا ياتي لغير فائدة وكنت قدمت القول في باب الايجاز فهو دلالة
اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه واذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار اليها
فان مثال الايجاز والاطناب والتطويل مثال مقصد يسلك اليه من ثلاث طرق
فالايجاز هو اقرب الطرق الثلاث اليه والاطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان
في البعد اليه الا ان طريق الاطناب يشتمل على منزه من المنازه لا يوجد في طريق
التطويل وسياتي بيان ذلك بضرب الامثلة التي يسهل من معرفته والاطناب
يوجد تارة في الجملة الواحدة من الكلام ويوجد تارة في الجمل المتعددة والذي يوجد
في الجمل المتعددة ابلغ لاتساع المجال في ايراده وعلى هذا فانه بجملته ينقسم قسمين
القسم الاول الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام وهو يرد حقيقة ومجازا اما
الحقيقة فمثل قولهم رايته بعيني وقبضته بيدي ووطئته بقدمي وذقته بفمي وكل
هذا يظن الظان انه زيادة لا حاجة اليها ويقول ان الرؤية لا تكون الا بالعين والقبض

باب الايجاز

لا يكون إلا باليد والوطي لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم وليس الأمر
كذلك بل هذا انفعال في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول إليه فيؤكد الأمر فيه على هذا
الوجه دلالة على نيله والحصول عليه كقول أبي عبادة البحتري

تأمل من خلال السجف وانظر بعينك ما شربت ومن سقاني
تجد شمس الضحى تدنو بشمس إلي من الرحيق الخسرواني

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعز وجوده وكان الساقي فيه على هذه الصفة من
الحسن قال انظر بعينك وعلى هذا ورد قوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم فإن هذا القول
لما كان فيه افترا عظمه الله تعالى على قائليه ألا ترى إلى قوله تعالى في قصة الإفك إذ
تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند
الله عظيم فصرح في هذه الآية بما أشرت إليه من تعظيم الأمر المقول وفي مساق
الآية الأولى المشار إليها آنفا قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل
أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم
بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ألا ترى أن مساق الكلام أن الإنسان
يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي ويقول لمملوكه يا ابني فضرب الله لذلك مثالا
فقال كيف تكون الزوجة أما وكيف يكون المملوك ابنا والجمع بين الزوجية والأمومة
وبين العبودية والبنوة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف وهذا تعظيم
لما قالوه وإنكار له ولما كان الكلام في حال الإنكار والتعظيم أتى بذكر الجوف

ولا

وإلا فقد علم أن القلب لا يكون إلا في الجوف والتمثيل يصح بقوله ما جعل الله لرجل من
قلبين وهو تام لكن في ذكر الجوف فائدة وهي ما أشرت إليها وفيها أيضا زيادة تصوير
للمعنى المقصود لأنه إذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان
ذلك أسرع إلى إنكاره وعليه ورد قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم فكما أن القلب
لا يكون إلا في الجوف فكذلك السقف لا يكون إلا من فوق وهذا مقام ترهيب وتخويف
كما أن ذاك مقام إنكار وتعظيم ألا ترى إلى هذه الآية بكمالها وهي قوله تعالى قد مكر
الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب
من حيث لا يشعرون ولذكر لفظة فوقهم فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام
وأنت تحس هذا من نفسك فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيل إليك أن سقفا خر على
أولئك من فوقهم وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة
وفي القرآن الكريم من هذا النوع كثير كقوله تعالى فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة
وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة وقوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة
الثالثة الأخرى وكل هذه الآيات إنما أطنب فيها بالتأكيد لمعان اقتضتها فإن
النفخ في الصور الذي يقوم به الأموات من القبور مهول عظيم دال على القدرة
الباهرة وكذلك حمل الأرض والجبال فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما نفخة واحدة
أي أن هذا الأمر المهول العظيم سهل يسير على الله تعالى يفعل ويمضي الأمر به
بنفخة واحدة ودكة واحدة ولا يحتاج فيه إلى طول مدة ولا كلفة مشقة تجي

بذكر الواحدة لتأكيد الإعلام بأن ذلك مما سهل على عظمه وهذه المواضع وأمثالها
ترد في القرآن الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها وليس الأمر
كذلك فإن هذه الأسرار البلاغية لا يتنبه لها إلا العارفون بها وهكذا يرد ما يرد
منها في كلام العرب وههنا نكتة لا بد من الإشارة إليها وذاك أني نظرت في قوله
تعالى نفخة واحدة ودكة واحدة وفي قوله تعالى ومناة الثالثة الأخرى فوجدت
ذلك غير مقتبس على ما تقدم وسأبينه ببيان شاف فأقول إن قوله تعالى ومناة
الثالثة الأخرى إنما جيء به لتوازن الفقر التي نظمت السورة كلها عليه وهي
والنجم إذا هوى ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة ولم يقل الثالثة الأخرى
لكان الكلام عاريا عن الطلاوة والحسن وكذلك لو قيل ومناة الأخرى من غير أن
يقال الثالثة لأنه تقصر الفقرة الثانية عن الأولى وذلك قبيح وقد تقدم الكلام
عليه في باب السجع لكن التأكيد في هذه الآية جاء ضمنا للتوازن الفقر وتبعا وأما
نفخة واحدة ودكة واحدة فإنما جيء بلفظة الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هي
واحدة والدكة هي واحدة لمكان نظم الكلام لأن السورة التي هي الحاقة جارية على
هذا المنهاج في توازنها السجعي ولو قيل نفخة من غير واحدة ودكة من غير
واحدة ثم قيل بعدهما فيومئذ وقعت الواقعة لكان الكلام منثورا محتاجا إلى التمام
لكن التأكيد جاء ضمنا وتبعا وإذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات
وبين قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ظاهر وذاك أن نفخة هي واحدة

فيهما

السابع العشر

ومناة هي الثالثة وأما القلب فإنه غير الجوف وأما الذي جاء منه على سبيل المجاز
فقوله تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ففائدة ذكر
الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن
تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب تشبيه ومثل فلما أريد إثبات ما
هو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج
هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار
وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة
لمكان زيادة التصوير في إثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي وأما القسم
الثاني المختص بالجمل فإنه يشتمل على ضروب أربعة الأول منها أن يذكر الشيء فيؤتى
فيه بمعان متداخلة إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر وذاك كقول
أبي تمام

قطعت إلي الزابيين هباته التاث مأمول السحاب المسبل
من منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل

فقوله منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل قد تداخلت معانيه
إذ المنة والصنيعة والإحسان متقارب بعضه من بعض وليس ذلك بتكرير لأنه لو
اقتصر على قوله منة وصنيعة وإحسان لجاز أن يكون تكريرا ولكنه وصف كل واحدة
من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير فقال منة مشهورة فوصفها

بالاستهار لعظم شأنها وصنيعة بكر فوصفها بالبكارة اي انها لم يوت بمثلها من قبل
واحسان اغر محجل فوصفه بالغرة والتحجيل اي هو ذو محاسن متعددة فلما وصف
هذه المعاني المتداخلة التي تدل على شي واحد باوصاف متباينة صار ذلك اطنابا
ولم يكن تكريرا ولم اجد في ضروب الاطناب احسن من هذا الموضع ولا الطف وقد
استعمله ابو تمام في شعره كثيرا بخلاف غيره من الشعراء كقوله

رَكِّي سجاياه تضيف ضيوفه ويُرجى مرجيه ويسال سايله

فان غرضه من هذا القول انما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء الا انه
وصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف وراجيه يرجى وسايله يسال
وليس هذا تكريرا لانه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف ان يكون راجيه مرجوا ولا ان
يكون سايله مسولا لان ضيفه يستصحب ضيفا طمعا في كرم مضيفه وسايله يسال
ان يعطي السايل عطا كثيرا يصير به معطيا وراجيه يرجى اي انه اذا تعلق به رجا راج
فقد ايقن بالفلح والنجاح فهو حقيق بان يرجى لمكان رجايه اياه وهذا ابلغ الاوصاف
الثلثة الضرب الثاني يسمى النفي والاثبات وهو ان يذكر الشي على سبيل الاثبات
او بالعكس ولا بد ان يكون في احدهما زيادة ليست في الاخر والا كان تكريرا والغرض
به تاكيد ذلك المعنى المقصود فمما جاء منه قوله تعالى لا يستاذنك الذين يومنون بالله
واليوم الاخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين وقوله تعالى انما يستاذنك
الذين لا يومنون بالله واليوم الاخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون واعلم ان

لهذا

لهذا الضرب من الاطناب فايدة كبيرة وهو من اوكد وجوهه الا ترى انه قال لا
يستاذنك الذين يومنون بالله واليوم الاخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم ثم قال انما
يستاذنك الذين لا يومنون بالله واليوم الاخر والمعنى في ذلك سوا الا انه زاد في الاية
الثانية قوله وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين
الايتين حكم التكرير وهذا الموضع ينبغي ان يتامل وينعم النظر فيه وعليه ورد قوله
تعالى الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر
من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله ينصر من يشا وهو العزيز الرحيم
وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم
عن الاخرة هم غافلون فقوله يعلمون بعد قوله لا يعلمون من الباب الذي نحن بصدد ذكره
الا ترى انه نفى العلم عن الناس بما خفي عنهم من تحقيق وعده ثم اثبت لهم العلم بظاهر
الحياة الدنيا فكانهم علموا وما علموا اذ العلم بظاهر الامور ليس بعلم وانما العلم هو ما كان
بالباطن من الامور الضرب الثالث هو ان يذكر المعنى الواحد تاما
لا يحتاج الى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه كقول ابي عبادة البحتري

ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصابت مزيدا

فهي كالشمس بهجة والقضيب اللدن قدا والريم طرفا وجيدا

الا ترى ان الاول كاف في بلوغ الغاية في الحسن لانه لما قال لو استزادت لما اصابت مزيدا
دخل تحته كل شي من الاشياء الحسنة الا ان للتشبيه مزية اخرى تفيد السامع ضوبا

وتخييلا لا يحصل له من الاول وهذا الضرب من احسن ما يجي في باب الاطناب وكذلك ورد قوله

تردد في خلقي سودد سماحا مرجا وباسا مهيبا

فكالسيف ان جئته صارخا وكالبحر ان جئته مستثيبا

فالبيت الثاني يدل على معنى الاول لان البحر للسماح والسيف للباس المهيب الا ان في الثاني زيادة التشبيه التي تفيد تخييلا وتصويرا الضرب الرابع ان تستوفي معاني الغرض المقصود من كتاب او خطبة او قصيدة وهذا اصعب الضروب الاربعة طريقا واضيقها بابا لانه يتفرع الى اساليب كثيرة من المعاني وارباب النظم والنثر يتفاوتون فيه وليس الخاطر الذي يقذف بالدرر في مثله الا معدوم الوجود ومثال ومثال الايجاز مثال مجمل ومفصل وقد تقدم القول بان الايجاز والاطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك اليه من ثلاثة طرق وقد اوردت ها هنا امثلة لهذه الاساليب الثلاثة وجعلتها على هيئة المقصد الذي يسلك اليه الطرق الثلاثة فمن ذلك ما ذكرته في وصف بستان ذي فواكه متعددة فاذا اريد وصفه على حكم الايجاز قيل فيه من كل فاكهة زوجان وهذا كلام الله تعالى قد جمع جميع انواع الفواكه باحسن لفظ واخصره واذا اريد وصف ذلك البستان على حكم الاطناب قيل فيه ما ذكرته وهو فصل من كتاب انشاته وهو جنة علت ارضها ان تمسك ماء وغنيت بينبوعها ان تستجدي سماء وهي ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ففيها

المشمش الذي يسبق غيره بقدومه ويقذف بين الجانبين بنجومه فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار وله زمن الربيع وهو اعدل الازمان وقد شبه ببس الصبي في الاسنان وفيها التفاح الذي في جلده وعظم لذته وتورد خده وطابت انفاسه فلا بان الوادي ولا رنده واذا نظر اليه وجد من خط الشم والنظر نسبته الى سور الغزلان اولى من نسبته الى منابت الشجر وفيها العنب الذي هو اكرم الثمار طينة واكثرها الوان زينة واول غرس اغترسه نوح عند خروجه من السفينة فقطفه يميل بكف قاطفه ويغري بالوصف لسان واصفه وفيها الرمان الذي هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب ومن فضيلته انه لا نوى له فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه وفيها التين الذي اقسم الله به تنويها بذكره واستتر ادم بورقه اذ كشفت المعصية من ستره وخص بطول الاعناق فما يرى بها من ميل فذلك من نشوة سكره وقد وصف بانه راق جسما وهو كيف ملي عسلا وفيها من ثمرات النخل ما يزهى بلونه وشكله ويشغل بلذة منظره عن لذة اكله وهو الذي فضل ذوات الافنان بفروعه ولا تماثل بينه وبين الحلوا فيقال هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه وفيها غير ذلك من اشكال الفاكهة واصنافها وكلها معدود من اوساطها لا من اطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسنا ولم الم صاحبها على قوله لن تبيد هذه ابدا فهذا الوصف على هذه الصورة يسمى اطنابا لانه لم يخرج عن فائدة وذاك الاول هو الايجاز لانه اشتمل باختصاره على جميع اصناف الفاكهة واما

التطويل نحو أن تعد الأصناف المذكورة تعداداً من غير وصف لطيف ولا نعت رائق
فيقال فيها مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل وكذا وكذا فانظر أيها المتأمل إلى ما أشرت
إليه من هذه الأقسام الثلاثة في الإيجاز والتطويل والإطناب وقس عليها ما يأتي
منها وسأزيد ذلك بياناً بمثال آخر فأقول قد ورد في باب الإيجاز كتاب كتبه طاهر بن
الحسين إلى المأمون رحمه الله يخبره بهزيمة عيسى بن ماهان وهو كتابي إلى أمير المؤمنين
ورأس عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في يدي وعسكره مصرف تحت أمري والسلام
فهذا كتاب جامع للمعنى شديد الاختصار وإذا كتب ما هو في معناه على وجه الإطناب
قيل فيه ما أذكره وهو ما أنشأته مثالاً في هذا الموضع ليعلم به الفرق بين الإيجاز والإطناب
وهو أصدرنا به هذا وقد نصر الله الفئة القليلة على الفئة الكثيرة وأغلب باليد
الملأ والعين القريرة وكان انتصاره بجد أمير المؤمنين لا بحد نصله والجد أغنى من
الجيش وإن كثرت أمداد خيله ورجله وجيء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسد غير
جسده وليس له قدم فيقال إنه يسعى بقدمه ولا يد فيقال إنه يبطش بيده والقد طالما طوله
مؤذن بنقص شأنه وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على
مكانه وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان الأمر يجري على نقش أسطره وكان يرجو
أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورد المنية دون مصدره وكذلك البغي مرتعه وبيل
ومصرعه جليل وسيفه وإن مضى فإنه عند الضرب كليل وقد نطق الفأل بأن الخاتم
والرأس مبشران بالحصول على خاتم الملك ورأسه وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه

ولا

ولا يستقر البناء إلا على أساسه والعساكر التي كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت
له سلماً وأعطته البيعة علماً بفضله وليس من بايع تقليداً كمن بايع علماً وهم الآن
مصرفون تحت الأوامر محتفون بكشف السرائر مطيفون باللواء الذي خصه الله بأسماء
المعالي واستنطاق المنابر وكما سرت خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس فكذلك سرت
طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس وليس في البلاد ما يغلق بمشيئة الله باباً ولا
يحبس نقاباً وعلى الله إتمام النعمة التي افتتحها وإجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته
التي اقترحها والسلام ○ وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن
الحسين من المعنى إلا أنه فصل ذلك الإجمال ولو كتب على وجه التطويل الذي لا فائدة
فيه لقيل أصدرنا كتابنا في يوم كذا من شهر كذا والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه
الباغي وتزاحف الجمعان وتطاعن الفريقان وحمي القتال واشتد النزال وترادفت
الكتائب وتلاحقت المقانب وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه ونزع الخاتم من
يده وخلع وترك جسده طعاماً للطيور والسباع والذباب والضباع وانجلت
الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره وخذلان عدوه وقهره والسلام فهذا
الكتاب يشتمل على تطويل لا فائدة فيه لأنه كرر فيه معاني يتم الغرض بدونها وذكر
ما لا حاجة إليه في الإعلام بالواقعة فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة وتأملها
كما تأملت التي تقدمها وبعد ذلك فإني أورد لك كتاباً وتقليداً أوضح بهما لك فائدة
الإطناب أما الكتاب فإنه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن

أيوب رحمه الله الى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من
ايدي الكفار وذلك في معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني عنه وكان
الفتح في السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلث وثمانين وخمسمائة خلد
الله سلطان الديوان العزيز النبوي وجعل ايام دولته اترابا ومناقب مجدها
هضابا وزادها على مرور الايام شبابا واوسعها توشيبة وإذهابا اذا اوسع
غيرها تلاشيا وذهابا ومنحها في الدنيا والاخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا
ومثل جدودها في عيون الاعداء شبا عجابا واراهم منها في اليقظة ارهابا وارابا
وفي المنام ابلا صعابا تقود خيلا عرابا لو جمعت العصور في صعيد واحد لكان
هذا العصر عليها فاخرا وفار بسبق اوايلها وان جا اخرا وليس ذلك الا لحظوته
بالدولة الناصرية التي كسته حبرا وقلدته دررا وورثت له من المحامد سيرا
وجعلت في كل ناحية من وجهه شمسا وقمرا وقيض الله لها من الخادم وليا بوصل
يومها في طاعتها بامسه ولا يرى الا ومن نفسه في خدمتها رقيبا على نفسه وطالما
سعى بين يديها بمساع بعض اخبارها محافل القوم ويقال له فيها ما اضرك ما اصنعت
بعد اليوم وقد سلفت منها ايات بماثل في اشباهها واضرابها واستونف منها
الان واحدة تدعى بام كتابها وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له ابواب السماء
وكثرت باحاديث مجده كواكب الظلام واسترد حق الاسلام وطالما سعت الهمم
في طلبه بالزاد والماء ومن احسن ما اتي به انه انس قبلته الثانية بقبلته الاولى

واطال منه كلما قصرته يد الكفر وكانت هي الطولى وبه صح لهذا البيت معنى اسمه
وانتقل الى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه ولم يغزه الخادم حتى طوى ما
حوله من البلاد المنجدة والغايرة وكان مركز الدايرة فغادره وهو طرف من
اطراف الدايرة ولما شارفه نظر منه الى ظلمه من الظلل وراى بلدا قد استقر على متن
الجبل بمثل الجبل ويطيف به واد تستهزي عصمته بنوب الدهر وقد انعطف على
جوانبه انعطاف الحيوة على الظهر والمسالك اليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج
وهي ضيقة مستوعرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج فلما راه
قال هذا امنية لمن يرى وعلم حينئذ ان كل الصيد في جوف الفرا الا ان لسان حاله
خاطبه وهو افصح الخطاب وقال امدد يدك فليس دونها من حجاب وكان قد برز من
السلاح في لباس رايع من المنعة واخرج من السواد الاعظم ما خدع العيون والحرب
خدعه وما تمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا تحمى بعوالي الاسوار بل بعوالي الصعاد
وفي يوم كذا وكذا خيم المسلمون في عقر داره ونزلوا منه نزول الجار الى جنب جاره
ثم ارتادوا موقفا للقتال وان لم يكن هنالك موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله واتفق
الراي على ان لسان المنجنيق في خطبه عقيلته ابلغ خطابا وادنى من المطلوب طلابا
وانه اذا ضرب بعصاه الحجر ما او العزايم تنظر الى هذا الراي نظر المستجهل وتصد
عنه صد دد المستعجل وتقول ما بارتياد السهل تملك الصعاب و ... اسا السيف
صرحا لم ينا عنه بلوغ الاسباب والحديد لا يفلح الا بالحديد والركن الشديد لا

بصدم الا بركن شديد فعندها صمم الخادم أن يلقى البلد موا ثبا لا موا ربا وان يجعل
للزحف جانبا وللمنجنيق جانبا ونوى ان يبدي صفحته وجهه أمام الناس وتاسى برسول
الله صلى الله عليه وسلم في الاتقاء به اذا اشتد الباس ولا شك ان قلوب الجيوش
بمنزلة قلوبها وان لنفاذ لاسنة الرماح لا لكعوبها ولا يشتفي من الوغا الا من كان
طرفه أمام طرفه ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزايمها من خلفه ولما وقع الزحف
صورع البلد صراعا بعد ان توزع قراعا ثم هزهزه سطوته بيمينها ونشرته بشمالها
واذاقته العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من نكالها وبدون ذلك يكون عرك
اديمه وعطف شكيمه ولم يكن قتاله بالسهام التي غايتها ان تصف اجنحتها للطارد
وينال بكلوبها من فوق الاسوار بل بالسيوف التي اذا جالدت بلدا اخذت بكظمه
وتوغلت في مجمه واغنت بسرعة خطواتها اليه عن المنجنيق وابطاء هدمه والسيف
ليس بمرتو من النفس التي تظل طايشة عند لقايها جايشة عند استغنايها فان القلب
يوصف بانها تجيش اذا كانت اعداد او النفوس لا تجيش الا اذا كانت ثمادا وما
تستوي وجوه الاقران في اقدامها واحجامها فمنها المظلم اذا ذانها الروع باشراقها
ومنها المسرق اذا شانها الروع باظلامها وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام
احظى بلباس الاشراق واتم ابدارا والبدور لا يكون تمامها في المحاق فما منهم الا من
عرض نفسه ليوم العرض ومشى الى جنة عرضها السموات والارض
حتى اتسع المكر وضاق باعداء الله المفر وخرقت اوغار الخنادق وصار
الرجال

ما احسن هذا الكلام

الرجال لمنطقة السور كالمناطق ولم يستشهد منهم الا عدد يسير لا يدخله لام التعريف
وكانت اجنحة الملايكة مطيفة بهم فاكرم بالمطاف فيه وبالمطيف وقد اسعد الله اوليك
بالشهادة التي هي الفوز الاكبر وقربها بادنا مضاجعهم من الارض المقدسة التي هي
ارض المحشر فيا يسرهم ان يعودوا الى الدنيا الا لاستزادة من ثواب الجهاد وايسر ذلك
ان ارواحهم في حواصل طير تعلق من ثمار الجنة الى يوم المعاد ولما راى الكفار ان
صليبهم قد صار خوارا وان راسهم قد استقلت خوارا اذعنت ايديهم باستسلامها وصانعت
بالمال عن الرقاب واسترقاقها وبالبلد عن النفوس وحمامها فابا السيف ان يترك
رقابا تعدي باكلها ونحل من عشقها على امد او مدة وصلها واذكر الخادم ان سلفها ولا
انتزع هذا البلد قسرا وفتك بمن كان فيه من المسلمين غدرا وذلك ثار يدخره الله
لكي يحظى في الاخرة بثوابه ويتجمل في الدنيا بزينة اثوابه والمسلم اخو المسلم يأخذ
بدمه وان تطاولت امداد السنين على قدمه فيا بعد عهد هذا الثار من ثايره وياطيب
خبره عند سامعه وحسن اثره عند ناظره ولما خفق العزم على ذلك اشار ذوو
الراي بقبول الفدية المبذولة والا يحمل العدو على ما ايست نفسه عليه محموله فان
النقد اذا احرج صار ذا انياب واظفار واستضرى حتى يلحق بالسباع الضواري وهاولاء
اذا راوا عين القتل تجردوا للقتال وركبوا الاهوال للنجاة من الاهوال ومن يدع الى
خطة رشد فليقبلها ومن انشطت له عقل الامور ولا يعقلها وعلى كل حال فان الفدية
للمسلمين رغب واموال يتقوى بها على العدو وخير من دماء تذهب هدرا وبالبلد من اسارى

المسلمين من حياة احدهم حياة كل نفس وحرمته عند الله خير مما طلعت عليه
الشمس ولا يوارى فتحه عنوة ان يتعدى اليهم اضراره ولا شك انهم يعاجلوا بالقتل
قبل ان تدخل اقطاره فراى الخادم عند ذلك ان الراى مشترك وان له معتركا كما
ان السيف له معترك وتقرر تسليم البلد ودموع اهله قد خضبت احداقها واقرحت
اماقها ولم تطب انفسهم بفراق قمامة حتى كادت الهام تفارق اعناقها فعلى جنب ذلك
التراب تقوم قيامتهم وتشتبل نعامتهم ولطالما ابتهلوا عنده ايام الحصار واستنصروه
فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار وكيف يرجى النصر من معبود يقر شيعته بقتله ام
كيف يدفع عن غيره ما كان هو مبتلى بمثله وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها
واخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار زايد
العمر على عمر ابويه من الليل والنهار واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك
للكفار وزاده فخرا الى فخره انه وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوي الذي كان في
تلك الارض موعده ومن صخرتها مصعده وذلك هو الاسرا الذي ركب النبي ظهر
البراق واستفتحت فيه ابواب السبع الطباق واوتي فيه الانبيا على اختلاف درجاتهم
فظفر خير ملتقى بخير لاق بركة ذلك اليوم سرت الى هذا فاطالت من شهرته وضمنته
نصرة الدين الحنيف الذي لله عناية بنصرته وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما ارخ النبي
بدار هجرته واذا انصف واصفه قال انه اخ لليوم البدري في اعراب النسب وانه
العجيبة التي لم يجعل عنها الايام في صفر وانما احفلت عنها في رجب فما اكبر الفاتح

فيه والمغبون والمشهور والمحروز من جد راكب وجد راجل وعز قادم وذل راحل
ولطالما جد الخادم في السعي له وابصار الاعداء تزلقه والسنتهم تسلقه وما منهم
الا من كثر التشاغب بان ذلك السعي للاستكثار من البلاد والله يعلم انه لم يكن الا للاستكثار
من مواد الجهاد لا جرم ان صدق النية كان له عقبى الدار وتلك الاقوال الكاذبة
كان لها عقبى البوار ويوم هذا الفتح بمصر قبله الى ايام تجلو بياضه عن سوادها وبلغ
له بطون المساعي حتى يكون هو نتيجه ميلادها ولما ظفر به الخادم لم يكن لاهل الجامع
فيه قول يرد كذابه ولا يقبل صوابه والشهب الطالعة على ذوات السروج اصدق
نبا من الشهب الطالعة من ذات البروج على انهما وان افترقا فانهما يختلفان علما
فعلم هذه يسال عنه نحر الاعناق وعلم هذه يسال عنه بطون الاوراق ولما دخل
البلد وجد به امم لولا ان ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة وغالبوا السيوف
مصابرة وهم طوايف مختلفوا الالسنة والالوان وان قيل انهم اناسي فان صورهم
صور الجان ومنهم طايفة استشعرت جنس نفوسها ونحصت الشعر عن اوساط
رووسها وتوحشت بالرهبانية حتى ازاغت العيون من اشكالها ولبوسها ولما راد
طلعة الاسلام داخله عليهم اعلنوا بالخوار واصطرخوا جميعا كما يصطرخون
غدا في النار وزادهم غيظا الى غيظهم انهم راوا الصلاة قايمة وقد صار الناقوس
اذانا وكلمة الكفر ايمانا واقيمت الجمعة وهي اول جمعة خطبت الاقصى بمشهدها
وحضرها الامة الاسلامية باحمرها واسودها فمن باك بدمعه سروره البارده ومن

يجيل نظره في نعمة الله الواردة ومن شاكر للرحمن الذي ابقاه الى يومه هذا
الذي كل الايام له حاسده

من كان مولده تقدم قبله او بعده فكانه لم يولد

وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان وهو الشهر الذي جعله الله طليعة لشهر الصيام
وليلة نصفه هي الليلة المعروفة باحيا قيامها الحسن وفاة تحض الظلام والتي يغفر
فيها لاكثر من شعر غنم كلب من ذوي الذنوب والاثام وجي باللوا الاسود فركز
من المنبر في اعلاه ونطق لسان حاله فقال من كان رسول الله مولاه فانا مولاه ولم يكن
لسان الخطيب افصح بيانا من لسانه غير ان هذا يرهي ببلاغ موعظته وهذا يرهي
بعزة سلطانه ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة اتبعها الناس بالدعا الذي لا
المسجد تحيته وسبق الكرام الكاتبين بدمله الى السما ورو سجده وكان اليوم فصلا والموقف
حفلا وذلك الدعا فرضا لا نفلا ولا ينتهي الوصف الى ما شوهد بالبلد من الاثار
العجيبة التي تسلبت العجلان وتستجلب الاذهان وتستنطق الالسنة بالتسبيح لله
الذي فطر الانسان ومن جملة ذلك ما شوهد في حسنه من البيع والصوامع ذوات
الابنية الروابع التي ذهبت بالزخارف تربص الازهار ورفعت معاقدها حتى
كادت النجوم ترجى اليها بالاسرار وما منها الا ما يقال انه ارم ذات العماد التي لم
يخلق مثلها في البلاد ولقد الان الله لهم الحجارة حتى يجروا في توشيعها بضروب
الاخبار وجعلوها اعاجيب الاسماع والابصار وقيل فيها هذه روضات جنان

لا افنيه ديار هذا الى غيره ما وجد من معبودات القوم الموصوفة بانها الهة الصلب
اللاتي من ذوات النصب واكثر ذلك وجد في المسجد موضوعا وعلى قبته مرفوعا
فانزل على قرونها واستن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في طعن عيونها واستوطن
المومن مكان الكفور وبدلت الظلمات بالنور وقالت الصخرة الان حج بيتي وبين الحجر
الاسود لخاطب الاسلام واجمع بين الاختين في مثل هذا الامر من الحلال لا من الحرام
وقال الاقصى سبحان الذي اسرى الى بجنده كما اسرى بعبده واعاد في عهد الفتح الاول
بهذا الفتح الذي اتى من بعده وعود الذاهب احب لدوام احتفاء به وخلود الانسان
لا يكون الا فيما ابه وهذا هو الخطب الذي جدد للاسلام عهود خطابه الان
مستعذ الطريقة اولى بها من صاحبها ولين غصبتها يد عادية فقد جا الله باليد
التي غصبتها من غاصبها هذا ولم يستنقذها الخادم الا بانضا سلاح الفتنة الوقعة
الاولى التي استاصلت حماة البلاد واستباحت اغيالها بقتل الاساد فكانت لهذا
الفتح عنوانا ولتفويق اصوله بنيانا ولم ينج بها من طواغيت الكفر الا طاغية طرابلس
فان السيوف اسارته وبغوادره فلو من وجالها وفي عينه دهش من هوالها
وقد قرن الله هذا الفتح ببشرى موته وكفى المسلمين مونة الاهتمام لفوته فقر من
الوقعة ولم ينج بذلك الفرار واعتصم بذات جداره فقتله الخوف من ورا الجدار
ولا فرق بين قتيل خوف الشفار وبين قتيل الشفار لقد فر من المكروه الى مثله
لكنه انتقل من ميتة عزة الى ميتة ذلة وكذلك اثار الخادم في اعدا الله فهم هلكى

بسيفه في مواقف الطراد فان غزو ومحونه على جيوب الوساد وبعد هذه فهل
يمرون في ازدماهم قد استجابت لمراده وان سوالديه من امكن منها في دنوه ومن
امتنع منها في بعاده وكل ذلك مستمد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التي
من شانها ان تجعل الرؤيا حقا واحاديث الامال صدقا وتقرب بعيد الامور حتى
تجعل الشرق غربا والغرب شرقا فهذا الفتح منسوب اليها وان كان الخادم هو الساعي
في تسهيله والمجاهد بنفسه وماله في سبيله فعلى عطف دولتها ترقم اعلامه وفي
ايامها تورخ ايامه ولو ابيح للقلم الجولان في مقام المقال كما ابيح لصاحبه في مقام القتال
لاخال انه مشبته في هذا الكتاب ولقال واسهب فليس الاكثار ههنا من الاسهاب
لكن منعه عن ذلك ان يكون ممن فخر بعمله فابطله وارسل خطابه الى الديوان العزيز ولم
يقبضه بالادب حين ارسله وقد اراد من يبلغ عنه مشارح هذه الوقايع التي اختصرها
ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من المشاهد كريما كمكانها
وهو عرابس المساعي فاحسن الناس بانا موهل لابداع حسانها والسابق بها فلان
وهو راوي اخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجال وعوالي اسنادها ماخوذة من
طرق العوالي والايام والليالي لهذه رواة فما الظن بروايته الايام والليالي وسلو
هذه الاخبار الصادقة هنية اسعد اخبار صادقة وما دامت السيوف ناطقة
في يد الخادم فالالسنة عنها ناطقة والاراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى
واما التقليد فانه تقليد انشانه لمنصب الحسبة وهو ○ اما بعد فقد

جعل الله جزاء التمكين في ارضه ان تقام حدود فرضه ونحن نساله التوفيق لهذا
الامر لثقل حمله وعدم اهله فقد جئنا في زمن اصبح الناس فيه سدى وعاد الاسلام فيه
غريبا كما بدا وهو الزمن الذي كثرت فيه اشراط اليوم الاخير وغربلت فيه الامة حتى
لم يبق الا حثالة كحثالة التمر والشعير ومن اهم ما يتدارك بناه ويعدم عناه ويصلح
به الزمن وابناؤه ان تمضي احكام الشريعة المطهرة على ما قررته في تعريف ما عرفته
وتنكير ما انكرته ومدار ذلك على النظر في امر الحسبة التي تنزل منه منزلة السلك
من العقد والكف من الزند وقد اخلصنا النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها
ويصطفي لها ولا يصطفيها وهو انت ايها الشيخ الاجل ولان احسن الله لك الاثر
وصدق فيك النظر فتولها غير موكول اليها بل معانا عليها واعلم ان الناس قد
اماتوا سننا واحيوا بدعا وتفرقوا فيما احدثوه من المحدثات شيعا والظلم منهم
من اقرهم على امرهم ولم ياخذهم بقوارع زجرهم فان السكوت عن البدعة رضى كانها
وترك النهي عنها كالامر باتيانها ولم يات بنا الله الا لنعبد الدين قائما على اصوله
صادعا بحكم الله فيه وحكم رسوله ونحن نامرك ان تتصفح احوال الناس في امر دينهم
الذي هو عصمة مالهم وامر معايشهم الذي يميزه حرامهم من حلالهم فابدا اولا
بالنظر في العقايد واهد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد
وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا موطن الحق فاقاموا وقالوا ربنا الله ثم
استقاموا ومن عداهم شعب ذاتوا ذيانا وعبدوا من الاهوا اوثانا واتبعوا ما لم

ينزل به الله سلطانا ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن
القول والله يعلم أعمالكم فمن انتمى من هؤلاء إلى الفلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ولا
تقبل منه صرفا ولا عدلا وليكن قتله على رؤوس الأشهاد ما بين حاضر وباد فما تكدرت
الشرايع بمثل مقالته ولا اندرست علومها بمثل أثر جهالته والمنتمي إليها يعرف
بنكره ويستدل عليه بظلمة كفره وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار وتظهر
زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار وما نجده منه كتبها التي هي
سموم ناقعة لا علوم نافعة وأقاويل ملفقة لا أقوال مؤلفة فاستأصل شأفتها
بالتمزيق وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ولا يقنعك ذلك حتى
تجتهد في تتبع آثارها والكشف عن مكامن أسرارها فمن وجدت في بيته فليؤخذ
جهارا وليشكل به إشهارا وليقل هذا جزاء من أسكر استكبارا ولم يرج لله
وقارا وأما من تحدث في القدر وقال فيه بخلاف نص الخبر فليس في شيء من
ربقة الإسلام وإن تنسك بمداومة الصلاة والصيام قال النبي صلى الله عليه
وسلم القدرية مجوس هذه الأمة والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين الله والعبد
والضياء والظلمة فعلاج هذه الطائفة أن تجزي بأن تخزي وتقابل جمعها
بالتكسير واسمها بالتصغير وتنقل إلى ثقل الحدود عن خفة التعزير ومن كان
منها ذا مكانة نابهة فلتهبط أو شهادة عادلة فلتسقط وكذلك تجري الحكم فيمن
قال بالتشبيه والتجسيم أو قال بحدوث القرآن القديم ومن ملحدي القرآن

فرقة فرقت بين المعنى والخط وقالت فيه بالشكل والنقط وكل هؤلاء قوم خبثت
سرائرهم وعميت بصائرهم وعظمت عند الله جرائرهم فخذهم بالتوبة التي تطهر
أصلها وتجب ما قبلها وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان والقلب في قبضة
النسيان بل هي عبارة عن الندم على ما فات والاستئناف لإخلاص فيما هو آت وقد
جعل الله التائب من أحبابه ووصفه في مواضع كثيرة من كتابه ومن فضله أن الملائكة
يستغفرون لذنبه ويشفعون له إلى ربه فإن تابت هذه الطوائف لا إصرارا ولم
يزدهم دعاؤك إلا فرارا فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعا وألحقهم بالذين كانت
أعينهم في غطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعا فخذهم عند ذلك بحد الجلد
فإن لم ينجع بحد ذوات الحد فإن هذه أمراض عمي لا يرجى لها الإفاقة ولا يبرئ
إلا الدماء المراقة وأما الفرقة المدعوة بالرافضة التي هي لما رفعه الله خافضة
فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ولا من الإسلام إلا رسمه وإذا نقب عن حجهم
وجد على العصبية موضوعا ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعا ذبوا عن علي
فأسلموه وأخروه إذ قدموه وهاولا وضعوا أحاديث فنقلوها وأولوها على
ما أولوها فتبع الآخر منهم الأول على عمه وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وهاهنا
غير ما ذكرناه من عقائد مخلولة ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة وبالهدي سنن
طريق الضلال وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ولا عقيدة إلا عقيدة السنة
والكتاب ولا دين إلا دين الخابر الماء والحراب وإذ فرغنا من الوصية بالأصول

التي هي للدين ملاك فلنتبعها بالفروع التي هي له مسالك واول ذلك الصلاة وهي
في مباني الاسلام الخمس اوكد خمسه واخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم
عند مفارقة نفسه ومن فضلها انها العمل الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ولا عذر
في تركه لاحد من الناس فيقال انه يعذر فاجمع الناس لها واحملهم عليها ودرهم
بالاجتماع لها في المساجد وناد بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد وراقبهم
عند اوقات الاذان في الاسواق التي هي معركة الشيطان فمن شغل عنها بتثمير
مكسبه ولهى عنها بالاقبال على لهوه ولعبه فخذه بالآلة العمرية التي تضع من
قدره وتذيقه وبال امره ولا يمنعك عن ذي هيبة هيبته ولا عن ذي شيبة
شيبته فانما اهلك قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق
فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذي هو في الايام
بمنزلة الاعياد في الاعوام وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب التي ما
صادفها عبد الا ظفر بالطلاب ثم الناس بابتداره في البواكر والفوز فيه بقربان
البدنات الاخاير فانه اليوم الذي لم تطلع الشمس على مثله وبه فضل هذا الدين على
اهل الكتاب من قبله فهو واسطة عقد الايام السبعة ولاشتماله على مجموع فضلها
سمي يوم الجمعة وفي الاعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح في شهر رمضان
والرغائب في اول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان فلتملا المساجد في هذه
المواسم التي يكثر فيها شهادات الاقلام في كتب الطاعات ومحو الآثام ومن حضرها

ولبس

ولبس همته الا ان يمر بها طروقا ويواعد اليها اخدانه وقتا وفسوقا فهاد آثارهم الخلف
الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فابعث عليهم قوما يسلبونهم سلبا ويوجعونهم
ضربا ونيلا وتملأ عيونهم مهابة وقلوبهم رعبا فبيوت الله مطهرة من هذه الادناس
ولم تعمر لشياطين الانس وانما عمرت للناس فلا يحضرها الا راكع وساجد وذاكر وحامد
وههنا عظيمة عصبيه وفاحشة نفقة لها من لبست نفسه بنقيصة وهي
الربا فانه قد كثر اكله وتظاهر به فاعله وقال فساق الفقهاء بتاويله وتوصلوا الى
شبهة في تحليله ولا يتسارع الى ذلك الا من اعمى الله قلبه ومحق كسبه قال النبي صلى
الله عليه وسلم لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها واكلوا
اثمانها ونحن نامرك ان تشمر في الامر تشميرا يرهبه الناس ولا تدع ربا حتى تضعه
واول ربا تضعه ربا العباس فتاديب الكبير قاض بتهذيب الصغير والاسوة
بالرفيع خلاف الاسوة بالنظير وجل معاملة الربا يجري في سوق الصرف الذي يختلف
به النقود ويقترض فيه العقود ويخاض في نار معايبه النار ذات الوقود وبه قوم
اوسعوا عيون الموازين غمزا والسنتها همزا ولمزا واصبح الدرهم والدينار عندهم
بمنزلة الصنمين اللات والعزى ولا يرى منهم الا من الحرص مفاض على ثيابه
وقد جمع بين معرفة الحرام والهجوم على ارتكابه فعدل مثالها ولا نعد بها
وتحولهم على مرور الايام تحويلا واعلم انك قد وليت من الكيل والميزان امرين هلكت
فيهما الامم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختبار والاختيار ولا تنقل امرهما

عثيرة فان الاقالة لا تنهى عن العثار وكل هؤلاء من سواد الناس ممن لم يترك
عرسه ولا تنهنهت نفسه وليس همته الا فرجه او ضرسه فخذهم بالقول الغزير التي
هي نزاعة للشوى تدعو من ادبر وتولى ومن آثارها انها تروح ارض الراس رجا وتخرج
سماه فرجا وتسلك بصاحبه هدنا وفجا وقد كثر في الاسواق الخلابة والنجش
وتلقي الركبان وبيع الحاضر للبادي وتنفيق السلعة باليمين الكاذبة وكل هذه
من المحظورات التي وردت الاخبار النبوية ببيانها والنهي عن تورد مكانها فمن قارف
شيا جاهلا بتحريمه فقومه بالتعليم واهده الى الصراط المستقيم ومن عرف
ما اقترف فاذقه حر التاديب قبل ان يذوق غدا حر التعذيب واعلمه ان الارزاق
بيد الله لا ينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح وقد ينقلب الجاهد فيها
بصفقة الخاسر والوادع بصفقة الرابح من سنه ان يبتغي الحلال وان كان يسيرا
ويمحق الحرام وان كان كثيرا ومن الناس من اتاه الله مالا اثبت في الاسواق جنود
ذهبه وورقه واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله وسعة الكيل من ذوات وسقه
فاصبح تمرا بلده في ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق فليمنع هؤلاء ان يجعل رزق
الله محتكرا ومعاش عباده محتجرا وليؤمر بان يتراحموا ولا يتزاحموا وان ياخذ
الغني منهم بقدر الكفاف ويترك للفقير ما يعينه على الاستعفاف قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لا حكرة في سوقنا لا يعمد رجال بايديهم فضول من اذهاب الى رزق
من ارزاق الله ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ولكن ايما جالب جلب على عمود كبده في

الشتا

الشتاء والصيف فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله واما
التسعير فانه وان اثره افلاطون وحكم به الفاسطون وقيل ان ذلك لمصلحة الفقير
في تيسير العسير فليس لاحد ان يكون يد الله في خفض او رفع وبذل ما منع فقد استحدث
او ترك حكم الحق ودع ما يعن لك من مصلحة الخلق ولا تكن ممن يتبع الراي والنظر وترك
الاية والخبر فحكمة الله مطوية فيما يامر به على السنة رسله وليست مما يستنبطه
ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافا كثيرا ومما نامرك به ان تمحو الكبيرة فان لمم الذنوب كالقطر يصير مجتمعه
سيلا متدفقا وكان اوله قطرا متفرقا وقد استمر في الناس عوايد تهاونوا باستمرارها
ولم ينظروا الى ثقل اوزارها فمن ذلك لبس الذهب والحرير الذي لم يلبسه الا من عدم
عند الله خلاقا وان قيل انه شعار للغني فلم يزد صاحبه من الحسنات الا املاقا
وللبس عباءة مع التقوى احسن في العيون شعارا واعظم في الصدور وقارا وقد يلتحق
بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنية يمنع منها حق الصدقات وهو حق
يقاتل مانعه ويعصي في استعمالها امر الله وهو حد من حدوده يعاقب عاصيه
ويثاب طايعه وكذلك يجري الحكم في الصور المرقومة في البيوت والثياب وعلى
الستور المعلقة على الابواب واخراجها في ضروب اشكال الحيوان الملاعبة الصبيان
وذلك مماثلة لخلق الله في التقدير ولهذا يومر صانعه بنفخ الروح فيما صوره من
التصوير ومما يغلظ نكيره اطالة الذيول للاختيال والمباهاة بما فيها من عجرفية

النيه والاستكبار ولن يشق صاحبها الارض باعجابه ولا يبلغ طول الجبال باطالة ثيابه
قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر يوم القيمة الى من جر ثوبه خيلاء وما
هو اشد نكيرا المئزر الحمامات فان الناس قد اصروا بها على الاجهار وترك الاستتار والتهاون
بامر العورات التي لصاحبها اللعنة وله سوء الدار والنسا في هذا المقام اشد نهالكا
من الرجال وقد ابتذلن انفسهن حتى افرطن في فاحشة الابتذال ولهن محدثات من
المنكر احدثها كثرة الارفاه الاتراف واهمل انكارها حتى سرت في الارسال والاطراف
وقد احدثن الان من الملابس ما لم يخطر للشيطان في حساب وتلك من لباس الشهرة الذي
لا يستر منه اسبال مرط ولا ادنا جلباب ومن جملتها انهن يعتصبن عصايب كامثال
الاسنمة ويخرجن من جهارة اشتالها في الصور المعلمة وقد اخبر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بها فيما ورد عنه من الاخبار وجعل صاحبها معدودا من زمرة اصحاب
النار ومما حيد فيه عن السنن قراة القران بضروب الالحان وتلك قراة يخرج
حروفها من غير مخرج رشده ومعوجه وهو قران عربي غير ذي عوج وقد امر الله
بترتيله وايراده على هيئة تنزيله فمن قراه بالترجيع والترديد وزلزل حروفه
بالتمطيط والتمديد فقد الحقه بدرجات الاغاني وذهب بما فيه من طلاوة نظم
الالفاظ والمعاني قال النبي صلى الله عليه وسلم اقرأوا القران بلحون العرب
واصواتها واياكم ولحون اهل الفسق ولحون اهل الكتابين وسيجي بعدي قوم يرجعون
بالقران ترجيع الغنا والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين

يحجبهم

يحجبهم شانهم ويلتحق بذلك افتنا القينات المغنيات اللاتي يلعبن بالعقول لعبهن
بالاسماع ويعتبن الشيطان بغنائهن عن بث الجنود والاشياع وقيا النفس الامارة
في ذلك ان تقول ها ولا اما يحل نغمة سماعهن كما يحل ما تحت قناعهن وقد علم ان لكل
شي نماما وقد ينقلب الحلال فيصير حراما ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه قال
النبي صلى الله عليه وسلم لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير
في تجارة فيهن وثمنهن حرام وفي مثل هذا انزلت ومن الناس من يشتري لهو الحديث وكذلك
يجري الحكم في المواشط اللاتي يجعلن الحسن موفورا والقبح مستورا ويخدعن نظر الناظر
حتى يجعلنه مسحورا فهن يبدين صدقا من كذب وجدا من لعب وفعلهن هذا من الغش
الذي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقال انه ليس منه وقد لعن الواصلة
والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ومن غش المنكرات
ايضا خضاب الشيب الذي يخالف فيه بين الظاهر والباطن ويتخلق صاحبه بخلق
الكاذب الخاين وهب انه اخفى لون شعره فهل يخفي اخلاق لباسه واذا استشن
اديم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد راسه وقد جعل الله الشيب نعمة
مبشرة بطول الاعمار وسماه نورا للونه وهدايته ولا تستوي الظلمات والانوار قال
النبي صلى الله عليه وسلم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رايحة الجنة
والاولى بصاحب الشيب ان يشتغل بتغيير صبغة الكتاب ويداب في محو سواد
العقاب ببياض الثواب في بقية عمره مدة وحة لادخار ما يجد ذخره وتبدل

ماتقدم شطره ومما خولفت فيه السنة عقد مجالس التعازي لحضور الناس
واظهار شعار الاسود والازرق من اللباس والتشبه بالجاهلية في النوح والندب
ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب الى الاعلان باسخاط الرب وقد تواطى النسا على ضرب
الخيام على القبور وجعل الاعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور وصارت الماتم بينهم
والايام والمنادب عندهم مادب وربما نشا من ذلك ما يغض طرفا ويجدع انفا ويوجب
حدا وقذفا وهكذا اهمل امر الاسلام في تشبه اهل الذمة باهله وما داموا يشابهوه في
زي عزته ويخالفوه في سلوك سبله ولا بد من الغيار بان يشد النصراني عقده زناره
ويصبغ اليهودي اعلا ازاره وليمنعوا من التظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة ويومر
بالوقوف عند ما حكم عليهم من الاحكام واخذوا فيه بالاحتفاء والاكتتام فخمورهم
تستر وشعاير دينهم لا تظهر وموتاهم تقبر بالخمول قبل ان يقبر ولا يوقد خلفهم
مصباح ولا يتبع بندب ولا صياح ومما عرف الناس منكره اثارة التحريش بين
الحيوانات وهي ذوات اكباد رطبة واخلاق صعبة وما منها الا ما حل اذاه ولا حل
قتله كالكبش والعجل والديك والسمانا واشباهها وقد اكثر الناس من اقتنائها والمواظبة
على اضرام شحنائها وربما نشا من ذلك فتنة تؤول الى ضراب وشق ثياب واحداث
شجاج واثارة عجاج وتحزب الى احزاب كثيرة وافواج ويتصل بهذه المنكرات
المذكورة اشيا اخرى تجري مجراها في التقديم وتتنزل منزلها في التحريم فاحكم فيها
بحكمك وانظر في شبهاتها بدليل علمك ونبه عنا في التذكير والتحذير والتعريف والتكر

حتى تتقوم الاود وتتضح الرشد ويمكث في الارض ما ينفع ويذهب الزبد ولكن عملك
لله الذي يسمع ويرى وله ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى
واعلم ان الامر بالمعروف عبادة يتعدى صاحبها الى غيره ويستضيف خير المامور بها
الى اجره وهي الجهاد الاكبر يقاتل فيه عواصي النفوس ويضرب به رؤس الشهوات
التي هي امنع من معاقد الرؤس فقتيله يحيى بقتله وجريحه يؤسى بجراحة نصله ومثل
هذا الجهاد يستمد امداد النعم مضعفة كما يستمد امداد النصر مردفة
فقدم عليه ذا عزم باتر وطرف ساهر وقدم ثابت صابر حتى تظل لمعاقل الشيطان ناقبا
وتكون ممن دعا الى الله وعمل صالحا واعلم انك في صبيحة كل يوم ستدركك الملك والشيطان
وكل منهما يقول يا ايها الانسان ان اجبت ندا الملك كتبك في زمرة من قصد جنته
وخاف مقام ربه وعرج بعملك الى الله طيبا نشره مضاعفا اجره وان اجبت
ندا الشيطان كتبك في زمرة من اغواه وقرنك بمن اغفل قلبه واتبع هواه ثم نزل
به الى الارض خبيثا مخبثا واقبل به على اخوانه من الشياطين محدثا وهذه اخر
ما عهدناه اليك من العهد الذي طوقتك اليوم كتابه وستناقش غدا على حسابه
وكلما جعلناه لك في الدنيا ذكرا فاجعله لك في الاخرة ذخرا والسلام ان شا الله تعالى
وهذا الذي ذكرته في هذين من الكتاب والتقليد يتضمن الثنا بما سنو في الاقسام ولولا
خوف الاطالة التي لا حاجة اليها لاوردت فصلا من الشعر ايضا حتى لا يخلو
الموضع من ضروب امثلته في المنظوم والمنثور لكن في الذي ذكرته كفاية لمن تامله

على أشباهه ونظايره فإن قيل إن الإطناب في الكلام قد وضعتموه اسمًا على غير مسمّى فإن الكلام لا يخلو من حالين إمّا أن لا يزيد لفظه على معناه وهو الإيجاز أو يزيد لفظه على معناه وهو التطويل وليس هاهنا قسم ثالث فالإطناب إذن لغو قلت في الجواب اعلم أن الإيجاز هو ضد التطويل كما أن السواد هو ضد البياض غير أن بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضدادًا فالإطناب لا إيجاز هو ولا تطويل كما أن الحمرة والخضرة ليست بياضًا ولا سوادًا وقد قدّمنا القول بأن الإطناب يأتي في الكلام مؤكدًا كالذي يأتي بزيادة التصوير للمعنى المقصود إمّا حقيقة وإمّا مجازًا والتطويل ليس كذلك فإنه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك المعنى بدونه فإذا حذفت تلك الزيادة بقي المعنى المعبّر عنه على حاله لم يتغيّر منه شيء وهذا بخلاف الإطناب فإنه إذا حذفت منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغيّر ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع ما لم يكن الإيجاز ألا ترى إلى قوله تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وهذا لا يسمّى إيجازًا فإنه أتى فيه بزيادة لفظ وهو ذكر الصدور وقد علم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور ولا يسمّى تطويلًا لأن التطويل لا فائدة فيه أصلًا وهذا فيه فائدة وهي ما أشرنا إليه وكذلك باقي أقسام الإطناب

الخضرة عند العرب سواد وكذا في اللغة

النوع السابع عشر في التكرير

وقد تقدم الكلام في صدر كتابي هذا على تكرار الحروف وما ذلك مما

يختلط

يختلط بهذا النوع الذي هو تكرار المعاني والألفاظ واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان وهو دقيق المأخذ وحدّه هو دلالة اللفظ على المعنى مردّدًا وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة وبالتطويل أخرى وقد تقدّم الكلام على الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة في باب الإطناب فلا حاجة إلى إعادته هاهنا وأمّا التكرير فقد عرّفتك أنه ينقسم قسمين أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ فأمّا الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع ومنه قول أبي الطيب المتنبي

ولم أر مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام

والذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك أطعني ولا تعصني فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية وكلّ من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير مفيد ولا أعني بالمفيد هاهنا ما تعنيه النحاة فإن عندهم عبارة عن اللفظ المركّب إمّا مع الاسم بشرط أن يكون للأول بالثاني علاقة معنى يسع مكلّفًا جهله وأمّا الاسم مع الفعل التام المتصرّف على هذا الشرط أيضًا وأمّا حرف النداء مع الاسم فهذا هو المفيد عند النحاة وأنا لم أقصد ذلك هاهنا بل مقصودي من المفيد أن يأتي لمعنى وغير المفيد أن يأتي لغير معنى واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدًا له وتشييدًا من أمره وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرّرت فيه كلامك إمّا مبالغة في مدحه أو في ذمّه أو غير ذلك ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر

والوسط عار منه لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم
أو غيرهما والوسط ليس من شرطه المبالغة وغير المفيد لا يأتي في الكلام
إلا عيا وخطلا من غير حاجة إليه فأما الأول وهو الذي يوجد
في اللفظ والمعنى فإنه ينقسم إلى ضربين مفيد وغير مفيد فالأول
المفيد وهو فرع عن الأول إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل
على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى وإذ يعدكم الله
إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله
أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره
المجرمون هذا تكرير في اللفظ والمعنى وهو قوله يحق الحق وليحق
الحق وإنما جيء به هاهنا لاختلاف المراد وذاك أن الأول تمييز بين
الإرادتين والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على
غيرها وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض ومن هذا
الباب قوله تعالى قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن
أكون أول المسلمين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل
الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه فكرر قوله قل إني أمرت
أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله قل الله أعبد مخلصا له ديني والمراد به غرضان الله
مختلفان وذاك أن الأول إخبار أنه مأمور من جهة الله بالعبادة له

والاخلاص

والإخلاص في دينه والثاني أنه إخبار بأنه خص الله وحده دون غيره بعبادته
مخلصا له دينه ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة في الآخر وأخره
في الأول لأن الكلام أولا واقع في الفعل نفسه وإيجاده وثانيا فيمن يفعل الفعل من
أجله ولذلك رتب عليه فاعبدوا ما شئتم من دونه وعليه ورد قوله تعالى
إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا
حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وظاهر
الأول والثاني أنهما سواء في المعنى وليس كذلك لأن الثاني فيه تخصيص غير موجود
في الأول ألا ترى أنا إذا قلنا زيد الأفضل وقلنا الأفضل زيد كان في الثاني تخصيص
له بالفضل وهذا التخصيص لا يوجد في القول الأول الذي هو زيد الأفضل لأنه
يجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها فيقال زيد الأجمل أو زيد
الأنقص وإذا قلنا الأفضل زيد وجب تخصيصه بالفضل ولم يمكن تغييره عنه
وكذلك يجري الحكم في هذه الآية فإن الله تعالى قال إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ثم قال لم يذهبوا حتى يستأذنوه فوصفهم بالامتناع عن الذهاب إلا
بإذنه وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات كما قال الله تعالى في موضع
آخر إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فجاء بصفة غير تلك الصفة
ولما قال إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وجب تخصيصهم
بذلك الوصف دون غيره وهذا موضع حسن في تكرير المعاني وما يعد من هذا الباب

قوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا
ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين وقد ظن قوم
أن في هذه الآية تكريرا لا فائدة فيه وليس الأمر كذلك فإن معنى قوله لا أعبد
يعني في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم
من عبادة إلهي ولا أنا عابد ما عبدتم أي وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه يعني
أنه لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما فكيف يرجى ذلك مني في الإسلام ولا أنتم
عابدون في الماضي في وقت ما ما أنا على عبادته الآن ومما يجري هذا المجرى قوله
تعالى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فكرر
الرحمن الرحيم مرتين والفائدة في ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا والثاني يتعلق بأمر
الآخرة فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه خلق كلا منهم على
أكمل صفته وأعطاه جميع ما يحتاج إليه حتى البقة والذبابة وقد يرجع إلى غير الخلق
كإدرار الأرزاق وغيرها وأما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية
في يوم القيمة الذي هو يوم الدين وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة
في تكريره فإن رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه وانظر
إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة منه ومما ورد في القرآن مكررا قوله
تعالى كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين
فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

لعله في المستقبل
ويلاحظ في النفي على (?) الدوام والتأبيد لا يدخل فيه الماضي والمستقبل

فاتقوا

فاتقوا الله وأطيعون فإنه إنما كرر قوله فاتقوا الله وأطيعون ليؤكده عندهم ويقرره
في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة فجعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم وجعل علة
الثاني حسم طمعه عنهم وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه ومن هذا النحو قوله تعالى
كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة
أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب وإنما كرر تكذيبهم هاهنا لأنه لم يأت
على أسلوب واحد بل تنوع فيه بضروب من الصنعة فذكره أولا في الجملة الخبرية على وجه
الإبهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل
لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد
إبهامه والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولا وبالاستثنائية ثانيا وما في الاستثناء
من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق
أشد العذاب وأبلغه وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض وبه تعرف
مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره فافهمه إن شاء الله النوع الثاني من
الضرب الأول إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به
غرض واحد كقوله تعالى فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر فالتكرير دلالة على التعجب
من تقديره وإصابته الغرض وهذا كما يقال قتله الله ما أشجعه أو ما أشعره
وعليه ورد قول الشاعر

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي

وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة وكل هذا انما أتى به لتقرير المعنى المراد واثباته وعليه ورد الحديث النبوي وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان بني هشام بن المغيرة استاذنوني ان ينكحوا ابنتهم عليا ولا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا ان يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فقوله لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن من التكرير الذي هو اشد موقعا من الايجاز لانصباب العناية الى تاكيد القول في منع علي صلوات الله عليه من التزويج بابنة ابي جهل بن هشام وهذا مثل قوله تعالى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ومن اجل ذلك نقول لا اله الا الله وحده لا شريك له لان قولنا لا اله الا الله مثل قولنا وحده لا شريك له وهما في المعنى سوا وانما كررنا القول فيهما لتقرير المعنى واثباته وذلك لان من الناس من يخالف فيه كالنصارى والثنوية فالتكرير في هذا المقام ابلغ من الايجاز واحسن واشد موقعا ومما جاء في مثل هذا قوله تعالى والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين فقوله من قبله بعد قوله من قبل فيه دلالة على ان عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول فاستحكم ياسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك وعلى ذلك ورد قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق فقوله لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يقوم مقام قوله ولا يدينون دين الحق لان من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر

ولا

ولا يدين دين الحق وانما كررها هنا للحث على المامور بقتالهم والتسجيل عليهم بالذم ورجمهم بالعظايم ليكون ذلك ادعى لوجوب قتالهم وحربهم وقد قلنا ان التكرير انما ياتي لما اهم من الامر الذي تصرف العناية اليه حتى يثبت ويتقرر وكذلك ورد قوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في اعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون فتكرير لفظة أولئك من هذا الباب الذي اشرنا اليه لمكان شدة النكير واغلاظ العقاب بسبب انكارهم البعث وعلى هذا ورد قوله تعالى أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الاخسرون فانه انما تكررت لفظة هم للايذان بتحقيق الخسار والاصل فيها وهم في الآخرة الاخسرون لكن لما اريد تاكيد ذلك جي بتكرير هذه اللفظة المشار اليها وكذلك قوله تعالى فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها وامثال هذا في القرآن كثيرة واعلم ان من هذا النوع قسما يكون المعنى فيه مضافا الى نفسه مع اختلاف اللفظ وذلك يأتي في الالفاظ المترادفة وقد ورد في القرآن الكريم واستعمل في فصيح الكلام فمنه قوله تعالى والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم والرجز هو العذاب وعليه ورد قول ابي تمام

نهوض بثقل العب مضطلع به وان عظمت فيه الخطوب وجلت

والثقل هو العب والعب هو الثقل وكذلك ورد قول البحتري

ويوم تثنت للوداع وسلمت بعينين موصول بلحظهما السحر

توهمها الوى باجفانها الكرى كرى النوم او مالت باعطافها الخمر

فان الكرى هو النوم وربما اشكل هذا الموضع على كثير من متعاطي هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه وليس كذلك بل الفائدة فيه هي التاكيد للمعنى المقصود والمبالغة انما الاية فالمراد بقوله تعالى عذاب من رجز اليم اي عذاب مضاعف ومعناه عذاب من عذاب واما بيت ابي تمام فانه تضمن المبالغة في وصف الممدوح بحمله الاثقال وكذلك بيت البحتري فانه اراد ان يشبه طرفها الفتور بالنايم فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه تاكيدا له وزيادة في بيانه وهذا الموضع لم ينبه عليه احد سواي ولربما ادخل في التكرير من هذا النوع ما ليس منه وهو موضع لم ينبه عليه ايضا احد سواي فمنه قوله تعالى ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم وتقديره ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا لغفور رحيم فلما تكرر ان ربك مرتين علم ان ذلك ادل على المغفرة وكذلك قوله تعالى ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ومثل هذا قوله تعالى ولا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهذه الايات يظن انها من باب التكرير وليست كذلك وقد انعمت نظري فيها فرايتها خارجة عن حكم التكرير وذاك انه اذا طال الفصل من الكلام وكان اوله يفتقر الى تمام لا يفهم الا به فالاولى في باب الفصاحة ان يعاد لفظ الاول

مره

مرة ثانية ليكون مقارنا للتمام الفصل كيلا يجي الكلام منثورا لا سيما في ان واخواتها فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فاعادة ان احسن في حكم البلاغة والفصاحة كالذي تقدم من هذه الايات وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

أسخنا وقدا واشتياقا وغربة ونأي حبيب ان ذا لعظيم

وان امرا دامت مواثيق عهده على مثل هذا انه لكريم

فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها اعيدت ان مرة ثانية لان تقدير الكلام وان امرا دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم لكن بين الاسم والخبر مدى طويل فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يات على الكلام بهجة ولا رونق وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحا اما طبعا واما علما وكذلك يجري الامر اذا كان خبر ان عاملا في معمول يطول ذكره فان اعادة الخبر ثانية هو الاحسن وعلى هذا جا قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام اذ قال يوسف لابيه يا ابت اني رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لي ساجدين فلما قال اني رايت ثم طال الفصل كان الاحسن ان يعيد لفظ الروية فيقول رايتهم لي ساجدين وكذلك جات الاية المذكورة ها هنا قبل هذه وهي قوله تعالى ولا يحسبن الذين يفرحون بما اتوا فانه لما طال الفصل اعاد قوله فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب فاعلم ذلك وضع يدك عليه وكذلك الاية التي قبلها وهي قوله تعالى ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة وكذلك الاية الاخرى وهي ثم ان ربك للذين

هاجروا من بعد ما فتنوا ومن باب التكرير في اللفظ والمعنى الدال على معنى واحد
قوله عز وجل وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه
الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار فإنه إنما كرر نداء قومه ها هنا لزيادة
التنبيه لهم والإيقاظ من سنة الغفلة ولأنهم قومه وعشيرته فيما يوبقهم من الضلال
وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي
بذلك أن لا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وأن ينزلوا على نصيحته لهم وهذا من
التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشد موقعا من الاختصار فاعرفه إن شاء الله
وعلى نحو منه جاء قوله تعالى في سورة القمر فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن
للذكر فهل من مدكر فإنه قد تكرر ذلك في السورة كثيرا وفائدته أن يجددوا عند استماع
كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث
على ذلك والبعث إليه وأن تقرع لهم العصا مرات لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة
وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن فبأي آلاء ربكما تكذبان وذلك
عند ذكر كل نعمة عددها على عباده وأمثال هذا في القرآن الكريم كثير ومما ورد
من هذا النوع شعرا قول ـــ من شعر الحماسة

إلى معدن العز المؤثل والندى هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز لأنه في معرض مدح فهو يقرر
في نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الأوصاف المذكورة مشيرا إليها كأنه قال أدلكم على

معدن

معدن كذا وكذا ومقره ومعانه وكذلك ورد قول ـــ المساور بن هند

جزى الله عنا غالبا من عشيرة إذا حدثان الدهر نابت نوائبه
فكم دافعوا من كربة وتلاحمت علي وموج قد علتني غواربه

فصدر البيت الثاني وعجزه يدلان على معنى واحد لأن تلاحم الكرب عليه كتعالي
الموج من فوقه وإنما سوغ ذلك لأنه مقام مدح وإطراء ألا ترى أنه يصف إحسان
هؤلاء القوم عنده حدثان دهره في التكرير وبالغ فيه لو كان القائل هاجيا كان
الهجاء في هذا كالمدح والتكرير إنما يحسن في كلا الطرفين لا في الوسط واعلم أنه
إذا وردت إن المكسورة المخففة بعد ما كانت معناها سواء ألا ترى إلى قوله تعالى
إن هم إلا كالأنعام فإن وما بمعنى واحد وإذا وردت بعد ما كانت من باب التكرير كقولنا
ما إن يكون كذا وكذا أي ما ما يكون كذا وكذا وإذا وردت في الكلام فإنما ترد في مثل ما
أشرنا إليه من التكرير فإن استعملت في غير ما يكون بها لا لفائدة يحسنها تكريرها
كان استعمالها لغوا لا فائدة فيه وقد زعم قوم من مدعي هذه الصناعة أن أبا الطيب
المتنبي أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه وهو قوله

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وليس في هذا البيت من تكرير فإنه كقولك الموصوف بكذا ابن الموصوف بكذا أي أنه
عريق النسب في هذا الوصف وقد ورد في الحديث النبوي مثل ذلك كقول
النبي صلى الله عليه وسلم في وصف يوسف الصديق عليه السلام فقال الكريم

من صح

بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابرهيم صلوات الله عليهم
اجمعين ولقد فاوضني في هذا البيت المشار اليه بعض علماء الادب واخذ يطعن فيه
من جهة تكراره فوقفته على موضع الصواب منه وعرفته انه كالخبر النبوي من
جهة المعنى سوآ بسوآ لكن لفظه ليس بمرضي على هذا الوجه الذي قد استعمل فيه فان
الالفاظ اذا كانت حسانا في حال انفرادها فان استعمالها في حال التركيب يزيدها حسنا
على حسنها او يذهب ذلك الحسن عنها وتقدم الكلام على ذلك في المقالة الاولى من الصناعة
اللفظية ولو تهيأ لابي الطيب ان يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب او ما يجري مجراها
لكان احسن وكذلك لفظة الهتن فانها ليست بمرضية في هذا الموضع على هذا الوجه
ولفظة العارض وان كانت قد وردت في القرآن الكريم وهي لفظة حسنة فالفرق
بين ورودها في القرآن الكريم وورودها في هذا البيت الشعري ظاهر وقد
تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لابي الطيب ايضا وهو في المقالة اللفظية عند الكلام
على الالفاظ المفردة فليؤخذ من هناك وكثيرا ما يقع الجهال في مثل هذا الموضع وهم
الذين قيل فيهم

وكذا كل اخي حذلقة ما مشى في يابس الا زلق

فترى احدهم قد جمع نفسه وظن على جهله انه عالم فيشرع في وصف كلام بالايجاز
وكلام بالتطويل او بالتكرير واذا طولب بان يبدي سببا لما ذكره لا يوجد عنده من القول
الا تحكما محضا صادرا عن جهل محض الضرب الثاني من التكرير

في اللفظ والمعنى وهو غير المفيد فمن ذلك قول مروان الاصغر

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على الناي والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلي ارى نجدا وهيهات من نجد

وهذا من العي الضعيف فانه كرر ذكر نجد في البيت الاول ثلاثا وفي الثاني ثلاثا ومراده
في البيت الاول الثناء على نجد وفي الثاني انه تلفت اليها ناظرا من بغداد وذلك مرمى بعيد
وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير اما البيت الاول فيحمل على الجائز من التكرير لانه مقام
تشوق وتحرق وموجدة بفراق نجد ولما كان الامر كذلك اجيز فيه التكرير على انه قد
كان يمكنه ان يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معا من غير ان ياتي بهذا التكرير المتتابع
ست مرات وعلى هذا الاسلوب ورد قول ابي نواس

اقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس

ومراده بذلك انهم اقاموا بها اربعة ايام ويا عجبا له كيف ياتي بمثل هذا البيت السخيف
الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الابيات العجيبة الحسن التي تقدم ذكرها في
باب الايجاز وهي ودار ندامى عطلوها وادلجوا

ومن هذا الباب ايضا ما اوردناه في صدر هذا النوع وهو قول ابي الطيب المتنبي

ولم ار مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام

فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصا الا ترى انه يقول لم ار مثل جيراني
في سوء الجوار ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم الا انه قد كرر هذا المعنى في البيت

مرتين وعلى نحو من ذلك جاء قوله ايضا

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

واما القسم الثاني من التكرير وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ وذلك
ضربان مفيد وغير مفيد الضرب الاول المفيد وهو فرعان الاول اذا كان التكرير في
المعنى يدل على معنيين مختلفين وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم انه
تكرير يدل على معنى واحد ومما جاء منه حديث حاطب بن ابي بلتعه في غزوة الفتح وذلك
ان النبي صلى الله عليه وسلم امر علي بن ابي طالب والزبير والمقداد فقال اذهبوا الى روضة
خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فاتوني به قال علي فخرجنا تعادى بنا خيلنا حتى اتينا
الروضة واذا فيها الظعينة فاخذنا الكتاب من عقاصها واتينا به رسول الله صلى
الله عليه وسلم واذا هو من حاطب بن ابي بلتعه الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض
شان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما هذا يا حاطب فقال يا رسول الله
لا تعجل علي اني كنت امرا ملصقا في قريش ولم اكن من انفسهم وكان من معك من المهاجرين
لهم قرابة يحمون بها اموالهم واهليهم بمكة فاحببت اذ فاتني ذلك من النسب ان اتخذ
عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر
بعد الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد صدقكم فقوله ما فعلت ذلك
كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الاسلام من التكرير الحسن وبعض الجهال
يظنه تكريرا لا فائدة فيه فان الكفر والارتداد عن الدين سوا وكذلك الرضى

بالكفر

بالكفر بعد الاسلام وليس كذلك والذي يدل عليه اللفظ هو اني لم افعل ذلك وانا
كافر اي باق على الكفر ولا مرتدا اي اني كفرت بعد اسلامي ولا رضى بالكفر بعد الاسلام
اي ولا ايثارا لجانب الكفار على جانب المسلمين وهذا حسن في مكانه واقع في موقعه وقد
يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذي نحن بصدد ذكره هاهنا وهو الذي يكون
التكرير فيه يدل على معنى واحد وسياتي بيانه في الفرع الثاني الذي يلي هذا الفرع
الاول والذي يجوزه ان هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصل عما رمي به من تلك القارعة
العظيمة التي هي نفاق وكفر فكرر المعنى في اعتذاره قصدا للتاكيد والتقرير لما
نفى عنه مما رمي به ومما ينتظم بهذا السلك انه اذا كان التكرير في المعنى يدل على
معنيين احدهما خاص والاخر عام كقوله تعالى ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون
بالمعروف وينهون عن المنكر فان الامر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير لان
الامر بالمعروف خاص والخير عام فكل امر بالمعروف خير وليس كل خير امرا بالمعروف
وذاك ان الخير انواع كثيرة من جملتها الامر بالمعروف ففائدة التكرير هاهنا انه
ذكر الخاص بعد ذكر العام للتنبيه على فضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة
الوسطى وكقوله تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان وكقوله تعالى انا عرضنا الامانة على
السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها فان الجبال داخلة في جملة الارض لكن
لفظ الارض عام والجبال خاص وفائدته هاهنا تعظيم شان هذه الامانة المشار
اليها وتفخيم امرها وقد ورد هذا في القران كثيرا ومما ورد منه شعرا قول

المقنع الكندي من أبيات الحماسة

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا

فهذا من الخاص والعام فإن كل لحم يؤكل للإنسان فهو تضييع لغيبه وليس كل تضييع لغيبه أكلا للحمه ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب وأما تضييع الغيب فإن منه الاغتياب ومنه التخلي عن النصرة والإعانة ومنه إهمال السعي في كل ما يعود بالنفع كائنا ما كان وعلى هذا فإن هذين البيتين من الخاص والعام المشار إليه في الآية المقدم ذكرها وهو موضع يرد في الكلام البليغ ويظن أنه لا فائدة فيه الفرع الثاني إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنى واحد لا غير وقد سبق مثال ذلك في أول هذا الباب كقولك أطعني ولا تعصني فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب والكلام في هذا الموضع كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان الغرض به شيئا واحدا ولا تجد شيئا من ذلك يأتي في الكلام إلا لتأكيد الغرض المقصود به كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم فإنه إنما كرر العفو والصفح والمغفرة والجميع بمعنى واحد للزيادة في تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته وهذا وأمثاله ينظر فيه إلى

الغرض المقصود به وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من المحذوف الإيجاز وأولى بالاستعمال وقد ورد في القرآن الكريم كثيرا كقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون فإن البث والحزن بمعنى واحد وإنما كرره هاهنا لشدة الخطب النازل به وتكاثر سهامه النافذة في قلبه وهذا المعنى كالذي قبله وكذلك ورد قوله تعالى فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة فقوله تعالى تلك عشرة كاملة بعد ثلاثة وسبعة ينوب مناب قوله ثلاثة وسبعة ثلاثة وسبعة مرتين لأن عشرة هي ثلاثة وسبعة ثم قال كاملة وذلك توكيد ثالث والمراد به إيجاب صوم الأيام السبعة عند الرجوع في الطريق على الفور لا عند الوصول إلى البلد كما ذهب إليه بعض الفقهاء وبيانه أني أقول إذا صدر الأمر من الآمر إلى المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه عن وضعه ولم يكن موقتا بوقت معين كان ذلك حثا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام قم قم قم فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة فإن قلت إن الغرض بتكرير الأمر أن يتقرر في نفس المأمور أنه مراد منه وليس الغرض الحث على المبادرة إلى امتثال الأمر قلت في الجواب إن المرة الواحدة كافية في معرفة المأمور أن الذي أمر به مراد منه والزيادة على المرة الواحدة لا تخلو إما أن تكون دالة على ما دلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم يكن في المرة الواحدة فإن كانت دالة على ما

دلت عليه المرة الواحدة كان ذلك تطويلا في الكلام لا حاجة اليه وقد ورد في
مثله في القرآن الكريم كهذه الآية المشار اليها وغيرها من الآيات والتطويل في
الكلام عبث فاحش عند البلغاء والفصحاء والقرآن معجز ببلاغته وفصاحته فكيف
يكون فيه تطويل لا حاجة اليه فينبغي حينئذ ان تكون تلك الزيادة دالة على معنى زايد
على ما دلت عليه المرة الواحدة واذا ثبت هذا فتلك الزيادة هي الحث على المبادرة الى
امتثال الامر فان سلمت الى ذلك والا فبين معنى تلك الزيادة ببيان غير ما ذكرته انا ولا
اراك تستطيع ذلك فان قلت ان الواو في قوله تعالى وسبعة اذا رجعتم لولا ان تؤكد
بقوله تلك عشرة لظن انها وردت بمعنى او اي فثلثة ايام في الحج او سبعة اذا رجعتم
فلما قيل تلك عشرة زال هذا الظن وتحققت الواو انها عاطفة وليست بمعنى او
قلت في الجواب هذا باطل من اربعة اوجه الاول ان الواو العاطفة لا تجعل
بمعنى او اين وردت من الكلام وانما تجعل بمعنى او في حال ضرورة يرجح جانبها على جانب
جعلها عاطفة لان الاصل فيها ان تكون عاطفة فاذا عدل بها عن اصلها احتاج الى
ترجيح ولا ترجيح ها هنا الوجه الثاني بلاغي وذاك ان القرآن منتهى البلاغة والفصا حة
لمكان اعجازه فلو كان معنى الواو في هذه الآية بمعنى او لقيل فثلثة ايام في الحج او
سبعة اذا رجعتم ولم يحتج الى هذا التطويل في قوله فثلثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم
تلك عشرة كاملة الوجه الثالث ان هذا الصوم حكم من احكام العبادات والعبادات
يجب فيها الاحتياط ان تؤدى على اكمل صورة لئلا يدخلها النقص واذا كان الامر على ذلك فكيف

يظن

١٣٢٨٦

يظن ان الواو في هذه الآية بمعنى او الوجه الرابع ان السبعة ليست مماثلة للثلاثة حتى
تجعل في مقابلتها لان معنى الآية اذا كانت الواو فيها بمعنى او اما ان تصوموا ثلاثة ايام في
الحج او سبعة اذا رجعتم فان قلت هذا تعبد لا يعقل معناه كغيره التعبدات التي لا يعقل من
معناها قلت في الجواب ان لنا من التعبدات ما لا يعقل معناه كعدد ركعات الصلوات
وعدد الطواف والسعي واشباه ذلك ولنا ما يعقل معناه كهذه الآية فانا نعقل التفاوت
بين الصوم في الحضر والسفر ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعدد القليل وعلى
هذا فلا يخلو اما ان يكون صوم الايام السبعة عند الرجوع في الطريق او عند الوصول
الى البلد فان كان في الطريق فانه اشق من الصوم بمكة لان الصوم في السفر اشق من الصوم
في الحضر فكيف يجعل صوم سبعة ايام في السفر في مقابلة صوم ثلثة ايام في المقام بمكة
وان كان الصوم عند الوصول الى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول
الى البلد لان كليهما صوم في المقام ببلد من البلاد ولا تفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة
في مقابلة سبعة ايام هذا غير مماثل ولا مساو فعلى كلا التقديرين لا يجوز ان تكون الواو
في سبعة ايام اذا رجعتم بمعنى او فتحقق اذًا انها للعطف خاصة واذا كانت للعطف
خاصة فتاكيدها بعشرة كاملة دليل على ان المراد وجوب صوم الايام السبعة في
الطريق قبل الوصول الى البلد فان قلت ان الصوم بمكة اشق من الصوم في الطريق
لان الواجب عليه الصوم بمكة يكون في نصب وتعب يتصل به زمانه في السعي
والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك قلت في الجواب هذا لا يلزم اذ الواجب

عليه سعي واحد وطواف واحد لا غير وما عدا ذلك نافلة لا يلزم ونحن في هذا المقام ناظرون
الى ما يجب لا الى النافلة والذي يجب اداؤه بمكة يفرغ منه في ساعة واحدة فكيف تجعل الزيادة
على ذلك دليلا يورد في هذا المقام هذا غير وارد وهكذا ورد قوله تعالى فاذا نقر في
الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير فقوله غير يسير بعد قوله عسير من
هذا النوع المشار اليه والا فقد علم ان العسير لا يكون يسيرا وانما ذكرها هنا على هذا الوجه
لتعظيم شان ذلك اليوم في عسره وشدته على الكافرين وكذلك ورد قوله تعالى قد كانت لكم
اسوة حسنة في ابرهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا
بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده فان البغضاء والعداوة
بمعنى واحد وانما حسن ايرادهما معا في معرض واحد لتاكيد البراءة من ابرهيم صلوات
الله عليه والذين امنوا به وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده وللمبالغة في
اظهار القطيعة والمصارمة وورد مثل ذلك في مثل هذا الموضع كالايجاز في موضعه
ولن ترى شيئا يرد في القرآن من هذا القبيل الا وهو لامر اقتضاه وان خفي عنك موضع
السر فيه فاسال عنه اهله العارفين به ومما ورد منه شعرا قول بعضهم في ابيات الحماسة

نزلت على آل المهلب شاتيا بعيدا عن الاوطان في زمن المحل

فما زال بي اكرامهم وافتقادهم واحسانهم حتى حسبتهم اهلي

فان الاكرام والافتقاد داخلان تحت الاحسان وانما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع
والامتنان بحقه وعلى هذا ورد قول الاعشى في قصيدته المشهورة التي يمدح بها النبي

صلى الله عليه وسلم فقال منها

فآليت لا ارثي لها من كلالة ولا من وجى حتى تلاقي محمدا — صلى الله عليه وسلم

فان الوجا والكلال معناهما سواء وانما حسن تكريره ههنا للاشعار ببعد المسافة الضرب
الثاني من القسم الثاني تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد فمن ذلك قول ابي تمام

قسم الزمان ربوعها بين الصبا وقبولها ودبورها اثلاثا

فان الصبا هي القبول وليس ذلك مثل التكرير في قوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى
فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير في قوله تعالى ولتكن منكم امة يدعون
الى الخير ويامرون بالمعروف فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ وقول ابي تمام الصبا
والقبول لا يشتمل الا على معنى واحد لا غير وهذا التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطا
كثيرا والاكثر منهم اجازه وقالوا اذا كانت الالفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحدا
فليس استعمال ذلك بمعيب وهذا القول فيه نظر والذي عندي فيه ان الناثر يعاب
على استعماله مطلقا اذا اتى لغير فائدة واما الناظم فانه يعاب عليه في موضع دون
موضع اما الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صدور الابيات الشعرية وما والاها
واما الموضع الذي لا يعاب استعماله فيه فهو الاعجاز من الابيات لمكان القافية
وانما جاز ذلك ولم يكن عيبا لانه قافية والشاعر مضطر اليها والمضطر يحل له ما
حرم على غيره كقول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي مطلعها

الا انعم صباحا ايها الطلل البالي فقال

وهل ينعمن الا سعيد مخلد قليل الهموم لا يبيت باوجال

واذا كان قليل الهموم فانه لا يبيت باوجال وهكذا تكرير للمعنى الا انه ليس معيبا لانه قافية وكذلك ورد قول الحطيئة

قالت امامة لا تجزع فقلت لها ان العزاء وان الصبر قد غلبا

هلا التمست لنا ان كنت صادقة مالا نعيش به في الناس او نشبا

فالبيت الاول معيب لانه كرر العزاء والصبر اذ معناهما واحد ولم يرد القافية لان القافية هي البا واما البيت الثاني فليس بمعيب لان التكرير جاء في النشب وهو قافية ومما يجري هذا المجرى قول المنخل اليشكري

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

فان الدمقس والحرير سواء وقد ورد قافية فلا باس به من اجل ذلك فان قيل ان الحرير هو الابريسم المنسوج بدليل قوله تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا فانه لم يرد خيوط ابريسم وانما اراد ثوبا من الابريسم واما الدمقس فانه خيوط الابريسم محلولة بدليل قول امرء القيس وشحم كهداب الدمقس المفتل

فانه لم يرد ابريسما منسوجا وانما اراد خيوط الابريسم الجواب عن ذلك انه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه لان المراة لا ترفل في خيوط من الابريسم وانما ترفل في الاثواب منه واما قول امرء القيس كهداب الدمقس فانه لو كان

الدمقس هو الخيوط المحلولة من الابريسم لما احتاج ان يقول كهداب فان الهداب جمع هدب ثم قال المفتل فدل بذلك على ان الدمقس يطلق على الابريسم سواء كان منسوجا او غير منسوج وكذلك الحرير ايضا وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة الا ترى انه لما قال المنخل ترفل في الدمقس وفي الحرير فهم من ذلك انه اراد ثوبا من الدمقس ومن الحرير لان المرء لا يكون في خيوط من الابريسم وانما يكون في اثوابه ومما يجري على هذا النهج قول الاخر من شعراء الحماسة

اني وان كان ابن عمي غايبا لمقاذف من خلفه وورائه

فان خلفا ووراء بمعنى واحد وانما جاز تكرارهما لانهما قافية وعلى هذا ورد قول ابي تمام

دمن كان البين اصبح طالبا دمنا لدى ارامها وحقودا

فان الدمنة هي الحقد وكذلك ورد قول ابي الطيب المتنبي

خر يعود ان يذم لاهله من دهره وطوارق الحدثان

فتركته واذا اذم من الورى راعاك واستثنى بني حمدان

فان الدهر وطوارق الحدثان سواء وانما جاز استعمال ذلك لانه قافية واما ما ورد في اثناء الابيات الشعرية فكقول عنترة

حييت من طلل تقادم عهده اقوى واقفر بعد ام الهيثم

فقوله اقوى واقفر من المعيب لانهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة اد

الضرورة لا تكون إلا في القافية كما أريتك وأما ما ورد في صدور الأبيات فكقول
البحتري في مطلع قصيدته العينية فقال

ألمّ وهل إلمامها بك نافع وزارت خيالا والعيون هواجع

فإن قوله ألمّ وقوله زارت خيالا سواء ولا فرق بين صدر البيت وعجزه فإن قيل
إنه إذا أراد بالإلمام زيارة اليقظة ثم قال وزارت خيالا فالجواب عن ذلك أنه
لم يرد إلا زيارة المنام في الحالتين لأنه قال ألمّ وهل إلمامها بك نافع فإنه لا نفع
أنفع من زيارة المحبوب في اليقظة وهذا غير خاف فلا يحتاج إلى السؤال عنه
فإن قيل لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر قلت في الجواب أما الناثر فإنه
إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتي به مزدوجا على فقرتين وإذا جاء شيء من التكرير هذا ح
لغير فائدة في فقرتين من الفقر أمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما ليسلم منه وأما
الشاعر فإنه يصوغ قصيدا ذا أبيات متعددة على قافية من القوافي فإذا تكرر لديه
شيء من الكلام في آخر بيت من الأبيات تعسر عليه إبداله من أجل القافية وهذا
غير خاف والسؤال عنه غير وارد وهذا الذي ذكرته إذا ورد في غير القافية
سمي إخلالا ويقال إن البحتري كان يخل كثيرا في شعره وهو لعمري كذلك إلا أن
حسن سبكه ورونق ديباجته يغفر له ذلك ويروى عنه أنه كان
إذا امتثل بين يدي الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحا له اختال بين يديه معجبا
بنفسه فيتقدم خطوات ثم يتأخر وقال أي شيء تسمعون ينقم عليه ذلك بعض

حسدته

حسدته وحمل الفتح بن خاقان عليه فقال له الفتح لو رمانا بالحجارة لكان ذلك
مغفورا له في جنب ما يقوله

النوع الثامن عشر في الاعتراض

وحده كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقي الأول على حاله مثال
ذلك أن تقول زيد قائم فهذا كلام مفيد وهو مبتدأ وخبر فإذا أدخلنا فيه لفظا
مفردا قلنا زيد والله قائم ولو أزلنا القسم منه لبقي الأول على حاله وإذا أدخلنا
في هذا الكلام لفظا مركبا قلنا زيد على ما به من المرض فهذا هو الاعتراض وعلى حده
واعلم أن الجائز منه وغير الجائز إنما يوجد في كتب العربية فإنه يكون مستقصى فيها
كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين الصفة والموصوف وبين المعطوف والمعطوف
عليه وأشباه ذلك مما يحسن استعماله وكالاعتراض بين المضاف والمضاف إليه وبين
إن واسمها وبين حرف الجر ومجروره وأمثال ذلك مما يقبح استعماله وليس هذا
مكانه لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره مما أشرنا إليه في
صدر الكتاب وليس المراد هاهنا من الاعتراض إلا ما يفرق به بين الجيد والرديء
لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز لأن كتابنا هذا موضوع لذكر ما تضمنه الكلام على
اختلاف أنواعه من وصفي الفصاحة والبلاغة فالذي أذكره في باب الاعتراض إنما
هو ما اشتمل على شيء من هذين الوصفين المشار إليهما واعلم أن الاعتراض ينقسم
قسمين أحدهما لا يأتي في الكلام إلا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد والآخر أن يأتي

في الكلام لغير فايدة فاما ان يكون دخوله فيه كخروجه منه واما ان يوثر في تأليفه
نقصا وفي معناه فسادا فالقسم الاول وهو الذي يأتي في الكلام لفايدة كقوله
تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم في كتاب
مكنون ففي هذا الكلام اعتراضان احدهما قوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك
اعتراض بين القسم الذي هو فلا اقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذي هو انه لقرآن
كريم وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو قسم وبين
صفته التي هي عظيم وهو قوله لو تعلمون فذانك اعتراضان كما ترى وفايدة هذا
الاعتراض بين القسم وجوابه انما هي تعظيم لشان المقسم به في نفس السامع الا ترى
الى قوله لو تعلمون اعتراضا بين الموصوف والصفة وذلك اوقع في النفس لتعظيم المقسم
به اي انه من عظم الشان وفخامة الامر بحيث لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم وهذا
مثل قولنا ان هذا الامر لعظيم بحيث لو نعلم يا فلان عظمه لقدرته حق قدره فان ذلك
يكبر في نفس المخاطب ويظل متطلعا الى معرفة عظمه وكذلك ورد قوله تعالى
ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وتقديره ويجعلون لله البنات ولهم ما
يشتهون فاعترض بين المفعولين بسبحانه وهو مصدر يدل على التبرية فكانه قال
ويجعلون لله البنات وهو منزه عن ذلك ولهم ما يشتهون وفايدة هذا الاعتراض ههنا
ظاهرة وكذلك ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قالوا نفقد صواع الملك
ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما

كما

كما سارقين فقوله لقد علمتم اعتراض بين القسم وجوابه وفايدته تقرير اثبات
البراءة من الفساد والتزاهة من تهمة السرقة اي انكم قد علمتم هذا منا ونحن مع
علمكم نقسم بالله على صدقه وقد ورد الاعتراض في القرآن كثيرا وذلك في كل موضع
يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى المقصود ومن هذا القسم قوله تعالى
واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون
وهذا الاعتراض بين اذا وجوابها لان تقدير الكلام واذا بدلنا آية مكان
آية قالوا انما انت مفتر فاعترض بينهما بقوله تعالى والله اعلم بما ينزل وهو مبتدا
وخبر فايدته اعلام القايلين انه مفتر ان ذلك من لبس منه والله اعلم بذلك منهم ومن
هذا الباب قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله
في عامين ان اشكر لي ولوالديك الا ترى الى هذا الاعتراض الذي يتطبق مفصل
البلاغة وفايدته لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الام من المشاق في حمل الولد
وفصاله ايجابا للوصية بها وتذكيرا لحقها وانما خصها بالذكر دون الاب لانها
تتكلف من امر الولد ما لا يتكلفه ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن
قال له من ابر فقال امك ثم امك ثم امك ثم اباك ومما جاء على هذا الاسلوب قوله
عز وجل واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها
كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون فقوله والله مخرج ما كنتم
تكتمون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وفايدته ان يقرر في نفوس

الخاطبين وقلوب السامعين ان تدارؤ بني اسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعا
لهم في اخفائه وكتمانه لان الله تعالى مظهر لذلك ولو جاء الكلام غير معترض فيه
لكان واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها فلا يخفى على البليغ
الفرق بين ذلك وبين كونه معترضا فيه ومما ورد من ذلك شعرا قول
امرىء القيس

ولو انما اسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

تقديره كفاني قليل من المال فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله ولم اطلب وفائدته
تحقير امر المعيشة وانها تحصل بغير طلب ولا عناء وانما الذي يحتاج الى الطلب
هو المجد المؤثل وكذلك قول جرير

ولقد اراني والجديد الى بلى في موكب طرف الحديث كرام

تقديره ولقد اراني في موكب طرف الحديث فاعترض بين المفعولين وانما جاء بهذا
الاعتراض تعزيا عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذي فاز به بين عشيرة واولياء
الاحباب اي ولقد اعهدني في كذا وكذا من اللذة وذلك قد مضى وسلف وبلي جديده
وكذلك كل جديد فانه الى بلى والاعتراض اذا كان هكذا اكسب الكلام لطفا ان كان
غزلا وكساه ابهة وجلالا ان كان مديحا او ما يجري مجراه من اساليب الكلام وان كان
هجا كساه تاكيدا واثباتا كقول كثير

لو

لو ان الباخلين وانت منهم راوك تعلموا منك المطالا

فقوله وانت منهم من محمود الاعتراض ونادره وفائدته ههنا التصريح بما هو
المراد وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض لو ان الباخلين راوك فاعترض بين اسم
ان وهو الباخلين وبين خبرها وهو راوك بالمبتدا والخبر الذي هو وانت منهم ومن
محاسن ما جاء في هذا الباب قول المضرب السعدي

فلو سالت سراة الحي سلمى على ان قد تلون بي زماني
لخبرها ذوو احساب قومي واعدائي فكل قد بلاني

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من ابلغ الاعتراض ونادره وتقديره فلو
سالت سراة الحي سلمى لخبرها ذوو احساب قومي واعدائي وفائدة قوله على ان قد
تلون بي زماني اي انهم يخبرون عني على تلون الزمان بي يريد تنقل حالاته من خير
وشر وليس من عجمه الزمان وابان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا ابان عنه ومن
ذلك قول ابي تمام

وان الغنى لي ان لحظت مطالبي من الشعر الا في مديحك اطوع

فهذا البيت فيه اعتراضان الاول بين اسم ان وخبرها تقديره وان الغنى اطوع
من الشعر فاعترض بين الاسم والخبر بقوله ان لحظت مطالبي واما الاعتراض
الثاني فقوله الا في مديحك فان الجملة الاستثنائية معترضة وموضعها التاخير
فاعترض بها بين الجملة التي هي خبر ان وتقدير البيت بجملته وان الغنى اطوع لي من

الشعر ان خطت مطالبي الا في مدحك وفايدته قوله الا في مدحك من الاعتراض الذي اكتسب به الكلام فايدة حسنة والمراد به وصف جود الممدوح بالاسراع في وصف خاطر شعره بالاسراع اذا كان في مدحه خاصة دون غيره فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معا وهو من محاسن ما يجي في هذا الموضع وكذلك ورد قوله

ردت رونق وجهي في صحيفته رد الصقال بها الصارم الخذم

وما ابالي وخير القول اصدقه حقنت لي ماء وجهي ام حقنت دمي

فقوله وخير القول اصدقه اعتراض بين المفعول والفعل لان موضع حقنت نصب اذ هو مفعول ابالي وفايدته اثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم اي ان هذا القول صدق ليس بكذب واما القسم الثاني وهو الذي ياتي في الكلام لغير فايدة وهو ضربان الضرب الاول يكون دخوله في الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسنا ولا قبحا فمن ذلك قول النابغة

يقول رجال يجهلون خليقتي لعل زيادا لا ابا لك غافل

فقوله لا ابا لك من الاعتراض الذي لا فايدة فيه وليس مؤثرا في هذا البيت حسنا ولا قبحا ومثله جا قول زهير

سيمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا ابا لك يسيم

وقد وردت هذه اللفظة وهي لا ابا لك في موضع اخر فكان للاعتراض بها فايدة حسنة كقول ابي تمام

عتابك عني لا ابا لك واقصدي

فانه لما كره عتابها اعترض بين الامر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم الضرب الثاني وهو الذي يؤثر في الكلام نقصا وفي المعنى فسادا وقد تقدم ذكر امثاله وانظاره في باب التقديم والتاخير وانما جي بذكره هاهنا مكررا لاتمام التقسيم الاعتراضي فيما افاد وفيما لا يفيد وقد ذكرت من ذلك مثالا واحدا ومثالين مما ورد منه قول بعضهم

فقد والشك بين لي عناء بوشك فراقهم صرد يصيح

فان في البيت من ردي الاعتراض ما اذكره لك وهو الفصل بين قد والفعل الذي هو بين وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الافعال الا ترى انها تعتد مع الفعل كالجزء منه ولذلك ادخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك وقوله تعالى ولقد علموا لمن اشتراه وقول الشاعر

ولقد اجمع رجلي بها حذر الموت واني لفرور

الا انه اذا انفصل بين قد والفعل بالقسم فان ذلك لا باس به نحو قولك قد والله كان ذاك وقد فصل في هذا البيت ايضا بين المبتدا الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله بين وفصل بين الفعل الذي هو بين وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدا الذي هو عناء فجاء معنى البيت كما تراه كانه صورة مشوهة قد نقلت اعضاؤها بعضها الى مكان بعض ومن هذا الضرب قول الاخر ها

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله الى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصي ظله الى الغرب حتى عقل الشمس اي جاذاها وعلى
هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدا الذي هو شخصي وبين خبره الجملة وهو
قوله ظله الى الغرب واغلظ من ذلك انه فصل بين الفعل وفاعله بالاجنبي وهذا وامثاله
مما تفسد المعاني وتورثها اختلالا واعلم ان الناثر في استعمال ذلك اكثر ملامة من
الناظم وذاك ان الناظم مضطر الى اقامة ميزان الشعر وربما كان مجال الكلام عليه ضيقا
فيلقيه طلب الوزن في مثل هذه الورطات واما الناثر فلا يضطر الى اقامة الميزان
الشعري بل يكون مجال الكلام عليه واسعا ولهذا اذا اعترض في كلامه اعتراض
يفسده توجه عليه الانكار وحق عليه الذم

النوع التاسع عشر في الكناية والتعريض

وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا وقد تكلم علما البيان فيه
فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما بحد
ينفصل عن صاحبه بل اوردوا لهما امثلة من النظم والنثر وادخلوا احدهما في الآخر
فذكروا للكناية امثلة من التعريض وللتعريض امثلة من الكناية فممن فعل ذلك
الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري فاما ابن سنان الخفاجي فانه ذكر في كتابه
قول امرء القيس وهو

فصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة اي اذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثال للتعريض ووجدت في كتاب

التذكرة

نظر

التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان مشارا اليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما
في الكتابة فوجدت في كتابه ذلك بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض
وما قيل فيهما نظما ونثرا وهو محشو بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما وقد
اورد ايضا في بعضه امثلة غثة باردة وسأذكر ما عندي في الفرق بينهما وامير
احدهما عن الآخر ليعرف كل منهما على انفراده فاقول اما الكناية فانها حدت
بحد فقيل هي اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية
والمكنى عنه كاللمس والجماع فان الجماع اسم موضوع حقيقي واللمس كناية عنه وبينهما
الوصف الجامع اذ الجماع لمس وزيادة فكان دالا عليه بالوضع المجازي وهذا
الحد فاسد لانه يجوز ان يكون حدا للتشبيه فان التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع
الحقيقي الجامع بين المشبه والمشبه به في صفة من الاوصاف الا ترى انا اذا قلنا زيد
اسد كان ذلك لفظا دالا على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين زيد والاسد وذلك
الوصف هو الشجاعة ومن ههنا وقع الغلط لمن اشرت اليه في الذي ذكره في حد
الكناية واما علما اصول الفقه فانهم قالوا في حد الكناية انها هي اللفظ المحتمل يريدون
بذلك انها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه وهذا فاسد ايضا فانه
ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية يدل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم
اذا لم تستحي فاصنع ما شئت فان هذا اللفظ يدل على معنى وعلى خلافه وبيان ذلك انه
يقول في احد معنييه انك اذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ما شئت واما

الكناية

حد

وأما

معناه الآخر فإنه يقول اذا لم تفعل فعلاً تستحي منه فافعل ما شئت وهذا ليس من الكناية في شيء فبطل هذا الحد ومثال الفقيه في قوله الكناية هي اللفظ المحتمل مثال من اراد ان يحد الانسان فأتى بحد الحيوان فعبّر بالاعم عن الاخص فانه يقال كل انسان حيوان وليس كل حيوان انساناً وكذلك يقال هاهنا فان كل كناية لفظ محتمل وليس كل لفظ محتمل كناية والذي عندي في ذلك ان الكناية اذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معاً الا ترى ان اللمس في قوله تعالى او لامستم النساء يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل ولهذا ذهب الشافعي رحمه الله الى ان اللمس هو مصافحة الجسد الجسد فاوجب الوضوء على الرجل اذا لمس المرأة وذلك هو الحقيقة في اللمس وذهب غيره الى ان المراد باللمس الجماع وذلك مجاز فيه وهو الكناية وكل موضع ترد فيه الكناية فانه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله على كليهما معاً واما التشبيه فليس كذلك ولا غيره من اقسام المجاز لانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى الا ترى انا اذا قلنا زيد اسد لا يصح حمله الا على جانب المجاز خاصة وذلك انا اذا شبهنا زيداً بالاسد في شجاعته ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيداً ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر والانياب والمخالب واذا كان الامر كذلك فحد الكناية الجامع لها هو انها كل لفظ دل على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز والدليل على ما ذكرته ان الكناية في اصل الوضع ان

تتكلم بشيء وتريد غيره يقال كنيت بكذا عن كذا فهي تدل على ما تكلمت به وعلى ما اردته من غيره وعلى هذا فلا يخلو اما ان يكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز او في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة او في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز وليس لنا قسم رابع ولا يصح ان يكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة لان ذلك هو اللفظ المشترك واذا اطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهما غير مفهوم واذا اضيفت اليه القرينة صار مختصاً بشيء بعينه والكناية هي ان تتكلم بشيء وتريد غيره وذلك مخالف للفظ المشترك اذا اضيفت اليه القرينة لانه يختص بشيء واحد بعينه لا يتعداه الى غيره وكذلك لا يصح ان تكون الكناية في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز لان المجاز المستعمل في معنى من المعاني لا يدل الا على ذلك المعنى خاصة لانه فرع على حقيقة نقل عنها واذا كان فرعاً على حقيقة نقل عنها فانه لا يدل الا على تلك الصورة المنقولة بعينها وحيث بطل ان تكون الكناية في احد هذين القسمين فتحقق اذاً ان تكون في القسم الآخر الذي تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز فتطلق بالحقيقة ويكون المراد بها جانب المجاز وهذا الكلام في اقامة الدليل على امر الكناية لم يكن لاحد [illegible] قبل سابق واعلم ان الكناية مشتقة من الستر يقال كنيت الشيء اذا سترته واجري هذا الحكم في الالفاظ التي يستتر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معاً الا ترى الى قوله تعالى او لامستم النساء فانه ان حمل على الجماع كان كناية لانه ستر الجماع بلفظ اللمس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد وان حمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان

الكنا سلم الى لامحد
واجري هذا

حقيقة ولم يكن كناية وكلاهما يتم به المعنى وقد تأولت الكناية غير هذا وهي
انها ماخوذة من الكنية التي يقال فيها ابو فلان وانا اذا نادينا رجلا اسمه
عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا يا ابا محمد كان ذلك مثل قولنا يا عبد الله فان
شئنا ناديناه بهذا وان شئنا ناديناه بهذا وكلاهما واقع عليه وكذلك يجري
الحكم في الكناية فانا اذا شئنا حملناها على جانب المجاز واذا شئنا حملناها على الحقيقة
الا انه لا بد من الوصف الجامع بينهما الا يلحق بالكناية ما ليس منها الا ترى الى
قوله تعالى ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فكنى بذلك عن
النساء والوصف الجامع بينهما هو التانيث ولولا ذلك لقيل في مثل هذا الموضع
ان هذا اخي له تسعة وتسعون كبشا ولي كبش واحد وقيل هذه كناية عن النساء
ومن اجل ذلك لم يلتفت الى باول من تاول قوله تعالى وثيابك فطهر انه اراد بالثياب
القلب على حكم الكناية لانه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع اذ لو كان
بينهما وصف جامع لكان التاويل صحيحا فان قيل فما الدليل على اشتقاق الكناية
من كنيت الشيء اذا سترته ومن اي جهة قلت في الجواب اما اشتقاقها من كنيت الشيء
اذا سترته فان المستور فيها هو المجاز لان الحقيقة تفهم اولا ويتسارع الفهم اليها
قبل المجاز لان دلالة الحقيقة عليها دلالة وضعية واما المجاز فانه يفهم منها
بعد فهم الحقيقة وانما يفهم بالنظر والفكرة ولهذا يحتاج الى دليل لانه عدول
عن ظاهر اللفظ فالحقيقة اظهر والمجاز اخفى وهو مستور بالحقيقة الا ترى الى قوله

ولقائل أن
يقول
المجاز ليس بسابق
حتى انه يستتر بالحقيقة
وانما ستر الحقيقة
باستعمال اللفظ
في المجاز فصارت
الحقيقة مستورة
بالترك رفع الله
ستر الغفلة عن
قلوب اهل التحقيق
وجعلنا منهم
بمحمد وآله

تعالى

تعالى او لامستم النساء فان الفهم يتسارع فيه الى الحقيقة التي هي مصافحة الجسد
الجسد واما المجاز الذي هو الجماع فانه يفهم بالنظر والفكرة ويحتاج الذاهب اليه
الى دليل لانه عدول عن حقيقة اللفظ واما اشتقاقها من الكنية فلان محمدا في هذه
الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل اي الاسم الموضوع بازائه اولا واما ابو
عبد الله فانه طار عليه بعد محمد لانه لم يكن له الا بعد ان صار له ولد اسمه عبد
الله وكذلك الكناية فان الحقيقة لها هي الاسم الموضوع بازائها اولا في اصل الوضع
واما المجاز فانه طار عليها بعد ذلك لانه فرع والفرع انما يكون بعد الاصل وانما بعد
الى ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الاصل على ما تقدم الكلام فيه وهذا
القدر كاف في الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار اليهما فان قيل
انك ذكرت اقسام المجاز في باب الاستعارة الذي تقدمت ذكره في كتابك هذا
وحصرتها في اقسام ثلاثة هي التوسع في الكلام والاستعارة والتشبيه وتراك قد
ذكرت الكناية من المجاز ايضا فهل هي قسم رابع لتلك الاقسام الثلاثة ام هي من جملتها
فان كانت قسما رابعا فذلك نقض للحصر الذي حصرته وان كانت من جملتها فقد اعدت ذكرها
هاهنا مرة ثانية وهذا تكرار لا حاجة اليه الجواب عن ذلك اني اقول اما
الحصر الذي حصرته في باب الاستعارة فصواب ولا زيادة عليه واما الكناية فانها
جزء من الاستعارة ولا تاتي الا على حكم الاستعارة خاصة لان الاستعارة لا تكون
الا حيث يطوى ذكر المستعار له وكذلك الكناية فانها لا تكون الا حيث يطوى

ذكر المكني عنه ونسبتها الى الاستعارة نسبة خاص الى عام فيقال كل كناية استعارة
وليس كل استعارة كناية ويفرق بينهما من وجه آخر وهو ان الاستعارة لفظها صريح
والصريح هو ما دل عليه ظاهر لفظه والكناية ضد الصريح لانها عدول عن ظاهر اللفظ
وهذه ثلاثة فروق احدها الخصوص والعموم والآخر الصريح والآخر الحمل على جانب
الحقيقة والمجاز وقد تقدم القول في باب الاستعارة انها جزء من المجاز وعلى ذلك
فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص وكان ينبغي ان تذكر الكناية
عند ذكر الاستعارة في النوع الاول من هذه الانواع المذكورة في المقالة الثانية وانما
افردتها بالذكر هنا من اجل التعريض لان من العادة ان يذكرا جميعا في مكان واحد
وقد ياتي من الكلام ما يجوز ان يكون كناية ويجوز ان يكون استعارة وذلك يختلف باختلاف
النظر اليه بمفرده والنظر الى ما بعده كقول نصر بن سيار في ابياته المشهورة التي
حرض بها بني امية عند خروج ابي مسلم فقال

ارى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالزندين توري ... وان الحرب اولها كلام
اقول من التعجب ليت شعري ... ايقاظ امية ام نيام
فان هبوا فذاك بقاء ملك ... وان رقدوا فاني لا الام

والبيت الاول لو ورد بمفرده كان كناية لانه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على
جانب المجاز اما الحقيقة فانه اخبر انه راى وميض جمر في خلل الرماد وانه سيضطرم

واما المجاز فانه اراد ان هناك ابتداء شر كامن ومثله بوميض جمر من خلل الرماد واذا
نظرنا الى الابيات بجملتها اختص البيت الاول منها بالاستعارة دون الكناية وكثيرا ما
يرد امثال ذلك ويشكل التجاذب به بين الكناية والاستعارة على انه لا يشكل الا على غير
العارف به واما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع
الحقيقي ولا المجازي فانك اذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب والله
اني لمحتاج وليس في يدي شيء وانا عريان والبرد قد آذاني فان هذا واشباهه تعريض
بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا انما دل عليه
من طريق المفهوم بخلاف دلالة اللمس على الجماع وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح
كقولك للمراة انك لجميلة او انك لخلية واني لعزب فان هذا وامثاله لا يدل على طلب
النكاح حقيقة ولا مجازا والتعريض اخفى من الكناية لان دلالة الكناية لفظية وضعية
من جهة المجاز ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي
وانما سمي التعريض تعريضا لان المعنى فيه يفهم من عرضه اي من جانبه وعرض
كل شيء جانبه واعلم ان الكناية تشتمل اللفظ المفرد والمركب معا فتاتي على هذا تارة
وعلى هذا اخرى واما التعريض فانه يختص باللفظ المركب ولا ياتي في اللفظ المفرد
البتة والدليل على ذلك انه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز
وانما يفهم من جهة التلويح والاشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه
يحتاج في الدلالة عليه الى اللفظ المركب وعلى هذا فان بيت امرئ القيس الذي ذكره

ابن سنان مثالا للكناية هو مثال للتعريض فان غرض امرئ القيس من ذلك ان يذكر
الجماع غير انه لم يذكره بل ذكر كلاما اخر يفهم الجماع من عرضه لان المصير الى الحسنى
ورقة الكلام لا يفهم منهما ما اراده امرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازا وهذا
لا خفاء به فاعرفه وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا احدهما عن الاخر
فلنفصلها ونذكر اقسامها ولنبدا اولا بالكناية فنقول اعلم ان الكناية تنقسم قسمين
احدهما ما يحسن استعماله والاخر ما لا يحسن استعماله وهو عيب في الكلام فاحش
وقد ذهب قوم الى ان الكناية تنقسم اقساما ثلثة تمثيلا وارداقا ومجاورة فاما التمثيل
فهو ان تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى اخر ويكون ذلك مثالا للمعنى
الذي اريدت الاشارة اليه كقولهم فلان نقي الثوب اي منزه من العيوب واما
الارداف فهو ان تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى اخر ويكون ذلك ردفا
للمعنى الذي اريدت الاشارة اليه ولازما له كقولهم فلان طويل النجاد اي طويل
القامة فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له بخلاف نقاء الثوب في
الكناية عن النزاهة من العيوب لان نقاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب
كما يلزم من طول النجاد طول القامة واما المجاورة فهو ان تريد ذكر الشيء فتتركه
الى ما جاوره كقول عنترة

بزجاجة صفراء ذات اسرة ... قرنت بازهر في الشمال مفدم

يريد بالزجاجة الخمر فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر لانها مجاورة

لها

لها وهذا التقسيم غير صحيح لان من شرط التقسيم ان يكون كل قسم منه مختصا بصفة
خاصة تفصله عن عموم الاصل كقولنا الحيوان ينقسم اقساما منها الانسان وحقيقته
كذا وكذا ومنها الاسد وحقيقته كذا وكذا ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا
ومنها غير ذلك وها هنا لم يكن التقسيم كذلك فان التمثيل على ما ذكر هو عبارة عن
مجموع الكناية لان الكناية انما هي ان تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى
اخر ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذي اريدت الاشارة اليه الا ترى الى قوله
تعالى ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فانه اراد الاشارة
الى النساء فوضع لفظا لمعنى اخر وهو النعاج ثم مثل به النساء وهكذا يجري الحكم في
جميع ما ياتي من الكنايات لكن منها ما يتضح التمثيل فيه ويكون الشبه بين الكناية
والمكنى عنه شديد المناسبة ومنها ما يكون دون ذلك في الشبه وقد تاملت
ذلك وحققت النظر فيه فوجدت الكناية اذا وردت على طريق اللفظ المركب
كانت شديدة المناسبة واضحة الشبه واذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم
تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة الا ترى الى قولهم فلان نقي الثوب
وقولهم اللمس كناية عن الجماع فان نقاء الثوب اشد مناسبة واوضح شبها لانا اذا قلنا
نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة
بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملايمة واذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة
في قوة المشابهة وهذا الذي ذكرته من ان من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سايغ ولا

وارد بل الكناية كلها هي ذاك والذي تقدمته من القول فيها هو الخاص بها ولم
يأت به احد غيري كذلك واما الارداف فانه ضرب من اللفظ المركب الا انه
اختص بصفة تخصه وهي ان تكون الكناية دليلا على المكني عنه وملازمة له
بخلاف غيرها من الكنايات الا ترى ان طول النجاد دليل على طول القامة ولازم
لها وكذلك يقال فلان عظيم الرماد اي كثير اطعام الطعام وعليه ورد قول الاعرابية
في حديث ام زرع فقالت في وصف زوجها له ابل قليلات المسارح كثيرات المبارك
اذا سمعن صوت المزهر ايقن انهن هوالك وغرض الاعرابية من هذا القول ان
تصف زوجها بالجود والكرم الا انها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح وانما ذكرته من
طريق الكناية على وجه الارداف الذي هو لازم له وكذلك ورد في الاخبار النبوية
ايضا وذاك ان امراة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فسالته عن غسلها من
الحيض فامرها كيف تغتسل ثم قال خذي فرصة من مسك فتطهري بها قالت كيف
اتطهر بها فقال تطهري بها قالت كيف اتطهر بها قال سبحان الله تطهري بها
فاجتذبتها عايشة اليها وقالت تتبعي بها اثر الدم فقولها اثر الدم كناية عن
الفرج على طريق الارداف لان اثر الدم في الحيض لا يكون الا في الفرج فهو ردف
له ولازم له ومما ورد من ذلك شعرا قول عمر بن ابي ربيعة

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل ابوها واما عبد شمس وهاشم

فان بعد مهوى القرط دليل على طول العنق ومن لطيف هذا الموضع وحسنه

ما اتى بلفظة مثل كقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح مثلي لا يفعل هذا اي انا لا افعله فنفى ذلك عن مثله
وهو يريد نفيه عن نفسه لانه اذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة اذ هو بنفي ذلك
عنه اجدر وكذلك تقول مثلك اذا سئل اعطى اي انت اذا سئلت اعطيت وسبب ورود هذه اللفظة
في هذا الموضع انه يجعل من جماعة هذه اوصافهم تثبيتا للامر وتوكيدا ولو كان فيه وحده لقلق منه
موضعه ولم ترس فيه قدمه وهذا مثل قول القائل اذا كان في مدح انسان انت من القوم الكرام اي
لك في هذا الفعل سابقة وانت حقيق به ولست دخيلا فيه وقد ورد مثل في القران الكريم كقوله تعالى
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير والفرق بين قوله ليس كمثله شيء وبين قوله ليس كالله شيء ما اشرت
اليه وان كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل وانما ذكر ذلك على طريق المجاز قصدا للمبالغة
وقد اتى هذا الموضع بغير لفظة مثل وهي مقصودة كقولك للعربي العرب لا تخفر الذمم اي انت لا
تخفر الذمم وهذا ابلغ من قولك انت لا تخفر الذمم لما اشرت اليه وعلى نحو من هذا جاء قول
ابي الطيب المتنبي

الست من القوم الذي من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

واذا فرغت من ذكر الاصول التي تقدمت ذكرها فاني اتبعها بضرب الامثلة نثرا ونظما حتى يزداد ما
ذكرته وضوحا فمن ذلك ما ورد في القران الكريم نحو قوله تعالى ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فانه كنى
عن الغيبة باكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ثم جعل ما هو في الغاية
من الكراهة موصولا بالمحبة فهذه اربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت
من اجله فاما جعل الغيبة كاكل الانسان لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا لان الغيبة انما هي
ذكر مثالب الناس وتمزيق اعراضهم وتمزيق العرض مماثل لاكل الانسان لحم من يغتابه لان اكل اللحم تمزيق

على الحقيقة وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة لأن العقل والشرع مجمعان على استكراهها
آمران بتركها والبعد عنها ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهيته ومن المعلوم أن لحم الإنسان
مستكره عند إنسان آخر مثله إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه وهذا القول مبالغة في استكراه
الغيبة وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها وأما جعله ما هو في
الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم
بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة
من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له وكذلك ورد قوله تعالى
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها فالأرض التي لم يطؤوها كناية عن مناكح النساء
وذلك من حسن الكناية ونادرها وكذلك ورد قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها
فاحتمل السيل زبدا رابيا فكنى بالماء عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال وهذه الآية
قد ذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الموسوم بإحياء علوم الدين وفي كتابه الموسوم بالجواهر
والأربعين وأشار بها إلى أن للقرآن إشارات وإيماءات لا تنكشف إلا بعد الموت وهذا يدل على أن الغزالي
رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز وقد رأيت
جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية فإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز وليس الأمر كذلك
وإنما هي ما أشرت إليه وهي كل لفظ يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز وبينهما وصف جامع كهذه
الآية وما جرى مجراها فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكذلك يجوز حمل
الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السيول وعلى الضلال وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حمله على

الطرفين

الطرفين معا سوى الكناية وبلغني عن الفراء النحوي أنه ذكر في تفسيره آية وزعم أنها كناية وهي قوله
تعالى وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فقال إن الجبال كناية عن أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات وهذه الآية من باب الاستعارة لا من باب الكناية
لأن الكناية لا تكون إلا فيما جاز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز والجبال ها هنا لا يصح بها المعنى إلا إذا
حملت على جانب المجاز خاصة لأن مكرهم لم يكن لتزول منه جبال الأرض فإن ذلك محال وأما ما ورد
منها في الأخبار النبوية فقول النبي صلى الله عليه وسلم أنه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم
يحبها فراودها على نفسها فامتنعت عليه حتى إذا أصابتها سنة جاءت إليه تسأله فراودها فمكنته
من نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فقام وتركها
وهذه كناية واقعة في موقعها ومن ذلك أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم رويدك
سوقك بالقوارير يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير وذاك أنه كان في بعض أسفاره وغلام أسود
اسمه أنجشة يحدو فقال له ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير وهذه كناية لطيفة وكذلك
ورد حديث الحديبية وذاك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركية جاءه بديل بن ورقاء
الخزاعي في نفر من قومه من أهل تهامة فقال تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي على أعداد مياه الحديبية
معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وهذه كناية عن النساء والصبيان والعوذ
جمع عائذ وهي الناقة التي وضعت وقوي ولدها والمطافيل جمع مطفل وهي الناقة التي معها ولدها
وهذا يجوز حمله على طريق الحقيقة كما جاز حمله على طريق المجاز أي معهم الأموال من الإبل وهي كانت
جل أموال العرب أي أنهم قد حشدوا أموالهم ليقاتلوا دونها ولما جاز حمل العوذ المطافيل على

النساء والصبيان وعلى الاموال كانت من باب الكناية ومن ذلك ما ورد في اقامة الحد على الزاني وهو
ان يشهد عليه برؤية الميل في المكحلة وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج ومن لطيف الكناية ان امراة
جاءت الى عايشة رضي الله عنها فقالت لها اقيد جملي فقالت عايشة لا ارادت المراة انها تصنع لزوجها
شيا يمنعه عن غيرها اي تربطه ان ياتي غيرها فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل وباطنه ما ارادته
المراة وفهمته عايشة منها وكذلك ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذاك انه جا الى النبي صلى
الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال وما اهلكك قال حولت رحلي البارحة فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم قبل وادبر واتق الدبر والحيضة ويروى ان عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي
الله عنه فمكثت المراة عنده ثلاث ليال لم يدن منها وانما كان ملتفتا الى صلاته فدخل عليها عمرو بعد ثلاث
فقال كيف ترين بعلك فقالت نعم البعل الا انه لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا فقولها لم يفتش لنا كنفا
من الكناية البرة الظاهرة ومن الطف ما بلغني في هذا قول عبد الله بن سلام فانه راى على رجل يوما
معصفرا فقال لو ان ثوبك في تنور اهلك او تحت قدرهم لكان خيرا فذهب الرجل فاحرقه نظرا الى
حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه وانما اراد المجاز منه وهو انك لو صرفت ثمنه الى دقيق
تخبزه او حطب تطبخ به كان خيرا والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين والرجل فهم منه الظاهر الحقيقي
نصا فاحرق ثوبه ومراد عبد الله غيره ومن هذا القسم ما ورد في امثال العرب كقولهم اياك وعقيلة
الملح وذاك كناية عن المراة الحسناء في منبت السوء فان عقيلة الملح هي اللولوة تكون في البحر فهي حسنة
وموضعها ملح وكذلك قولهم لبس له جلد النمر كناية عن العداوة وقد يقاس على هذا ان يقال لبس له جلد
الاسد ولبس له جلد الذيب ولبس له جلد الارقم لان هذا كله مثل قولهم لبس له جلد النمر اذا العداوة

لعله اقبل ادبر

قوله في تنور اهلك اي خبزا ياكلونه وقوله تحت قدرهم اي حطب تقدونه تحت الطعام الذي يطبخ

محملة

محملة في الجميع وكذلك قولهم قلب له ظهر المجن كناية عن تغير المودة ومما ورد في ذلك شعرا قول
ابي نواس   لا اذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
وهذا له حكاية وهو انه كان لابي نواس صديقة تغشاه فقيل له انها تختلف الى اخر من اهل الريب
فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الايام فراها تدخل الى منزل ذلك الرجل ثم ان ذلك الرجل جاءه وكان
صديقا له فكلمه فصرف وجهه عنه ثم نظم قصيدته المشهورة التي مطلعها ايها المنتاب عن عفره
وهذا البيت من جملة ابياتها وكذلك ورد قوله ايضا

وناظرة الي من النقاب تلاحظني بطرف مستراب
كشفت قناعها فاذا عجوز مموهة المفارق بالخضاب
فما زالت تجشمني طويلا وتاخذ في احاديث التصابي
تحاول ان تقوم ابو زياد ودون قيامه شيب الغراب
اتت بجرابها تكتال فيه وعادت وهي فارغة الجراب

فقوله اتت بجرابها تكتال فيه من باب الكناية اذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكذلك الكيل ايضا
ومما جاء من هذا الباب قول ابي تمام في قصيدته التي يستعطف بها مالك بن طوق على قومه ومطلعها
ارض مصردة وارض تثجم   فقال

مالي رايت ترابكم يبس الثرى مالي ارى اطوادكم تتهدم

فيبس الثرى كناية عن تكدر ذات البين يقول يبس الثرى بيني وبين فلان اذا انكر الود الذي بينك وبينه
وكذلك تهدم الاطواد فانه كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول ومن الكناية الحسنة قول ابي

الطيب

لابي الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان ومطلعها

واحرّ قلباه ممّن قلبه شبم   فقال

وشرّ ما قنصته راحتي قنص   شهب البزاة سواء فيه والرخم

يشير بذلك الى ان سيف الدولة يستوي في المثال منه هو وغيره نحو البازي وغيره الرخمة وان حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزا وعلى هذا ورد قول الاقيشر الاسدي وكان عنينا لا ياتي النسا وكان كثيرا ما يصف ذلك من نفسه فجلس اليه يوما رجل من قيس فانشده الاقيشر

ولقد اروح بمشرف ذي ميعة   عسر المكرة ماؤه يتفصّد

مرح يطير من المراح لعابه   ويكاد جلد اهابه يتقدّد

ثم قال له اتبصر الشعر قال نعم قال فما وصفت قال فرسا قال افكنت تركبه لو رايته قال اي والله واثني عطفه فكشف له عن ايره وقال هذا وصفت فقم فاركبه فوثب الرجل عن مكانه وقال قبحك الله من جليس سائر اليوم وكذلك يحكى ايضا انه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك وكان جميل الوجه فاختلف الى عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب الوليد بن يزيد فاراده على نفسه فوثب من عنده ودخل على هشام مغضبا وهو يقول

انه والله لولا انت لم   ينج مني سالما عبد الصمد

فقال هشام ولم ذاك قال

انه قد رام مني خطة   لم يرمها قبله مني احد

قال وما هي قال   رام جهلا بي وجهلا باي   يدخل الافعى على خيس الاسد

قال فضحك هشام وقال لو فعلت به شيئا لم انكره عليك ومن الطف ما سمعته في هذا الباب قول ابي نواس في الهجاء وهو

اذا ما كنت جار ابي حسين   فنم ويداك في طرف السلاح

فان له نساء سارقات   اذا ما بتن اطراف الرماح

سرقت وقد نزلت عليه ايري   فلم اظفر به حتى الصباح

فجاء وقد تخدش جانباه   يئن الي من الم الجراح

فتعبيره عن العضو المشار اليه باطراف الرماح تعبير في غاية اللطافة والحسن وقد ادخل في باب الكناية ما ليس منه كقول نصيب

فعاجوا فاثنوا بالذي انت اهله   ولو سكتوا اثنت عليك الحقايب

وهذا روي عن الجاحظ وما اعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة فان الكناية هي ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز وها هنا لا يصح ذلك ولا يستقيم لان الثنا للحقايب لا يكون الا مجازا وهذا من باب التشبيه المضمر الاداة الخارج عن الكناية والمراد به ان الحقايب من عطايالك ما نعرب عن الثناء لو سكت اصحابها عنه واما القسم المحتش مما يفرد ذكره من الكناية فانه لا يحسن استعماله لانه عيب في الكلام فاحش وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه فمما جاء منه قول الشريف الرضي يرثي امراة   ان لم تكن نصلا فغمد نصال

وفي هذا من سوء الكناية ما لا خفاء به فان الوهم يسبق في هذا الموضع الى ما يقبح ذكره وهذا المعنى اخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوه صورته فان الفرزدق رثى امراته فقال

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو ان المنايا أمهلته لياليا

وهذا حسن بديع في معناه ومما كني عن امرأة ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية ولا أفخم شأنًا لجأ الشريف الرضي فأخذ معناها وفعل به ما ترى وليس كل من تصرف في المعاني أحسن في تصرفه فيها وأتى هذه الرموز في أبينها وقد عكس هذه القضية مع أبي الطيب المتنبي فأحسن فيما أساء فيه أبو الطيب طريق الكناية وأخطأ حيث قال

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

وهذه كناية عن النزاهة والعفة إلا أن الفجور أحسن منها وقد أخذ الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة حيث قال

أحن إلى ما تضمن الخمر والحلي وأصدف عما في ضمان المآزر

وأمثال هذا كثيرة وفيما ذكرناه من هذين المثالين مقنع **وأما التعريض** فقد سبق الإعلام وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية فمما جاء منه قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابرهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون وغرض ابرهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم لأنه قال واسألوهم إن كانوا ينطقون وذلك على سبيل الاستهزاء بهم وهذا من رموز الكلام والقول فيه أن قصد ابرهيم عليه السلام لم يكن نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم وقد يقال في هذا غير ما أشرت إليه وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها

وعرض

وغرض ابرهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه فإن من دونه مخلوق من مخلوقاته فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراده ومن هذا القسم أيضًا قوله تعالى قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فقوله ما نراك إلا بشرا مثلنا تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا هب أنك واحد من الملأ وموازيهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ألا ترى إلى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل وكان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قبل معوية فعزله فلما قدم عليه قال له عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبت عزلك إحداهن أني أمرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه والثانية كراهتك أمر زياد والثالثة أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان فلم تعدها فقال له مروان أما عبد الله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه وأما كراهيتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه وأما استعداء رملة على عمرو بن عثمان فوالله إنه لتأتي علي سنة وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يريد بذلك أن رملة بنت معوية إنما استعدت لطلب الجماع فقال له معوية يا ابن الوزغ لست هناك فقال له مروان هو ذاك وهذا من التعريضات اللطيفة ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة فدخل عثمن بن عفان فقال عمر أية ساعة هذه فقال عثمن يا أمير المؤمنين انقلبت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت فقال عمر والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل فقوله أية ساعة هذه تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك

ط
قوله لست هناك ... يريد انه ... عمرها ... بقوله هو ذاك اي ان كان ثم غير هذا فبينه لا علم موجب عرني ده

السبق اليها وهو من التعريض المعرب عن حسن الادب وقد وقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية
حسنة الموقع وهي ان امراة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة فقالت اشكو اليك قلة الفار في بيتي
فقال لها احسن ما ورّت عن حاجتها املوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما ومن خفي التعريض وغامضه ما
ورد في الحديث النبوي وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضن احد ابني ابنته وهو يقول
والله انكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله وان اخر وطأة وطئها الله بوج اعلم ان وج واد
بالطايف والمراد به غزاة حنين وحنين واد قبل وج لان غزاة حنين اخر غزاة اوقع بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع المشركين واما غزوتا الطايف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة
اي قتال وانما كانتا مجرد خروج الى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ووجه عطف هذا الكلام
وهو قوله صلى الله عليه وسلم وان اخر وطأة وطئها الله بوج على ما قبله من الحديث هو التاسف
على مفارقة اولاده لقرب وفاته لان غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ووفاته كانت في ربيع
الاول سنة احدى عشرة وبينهما سنتان ونصف فكانه قال وانكم لمن ريحان الله اي من رزقه وانا
مفارقكم عن قريب الا انه صانع عن قوله وانا مفارقكم عن قريب بقوله وان اخر وطأة وطئها الله بوج
وكان ذلك تعريضا بما اراده وقصده من قرب وفاته ومما ورد من هذا الباب شعرا قول الشميذر
الحارثي

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وليس قصده هاهنا الشعر بل قصده ما جرى لهم بهذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة الا انه لم
يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضا بما قصده اي لا تفخروا بعد تلك الوقعة التي جرت لكم ولنا
بذلك المكان ومن احسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب الى المامون في امر بعض اصحابه

وهو

وهو اما بعد فقد استشفع بي فلان الى امير المومنين ليتطول في الحاقه بنظرايه من الخاصة فاعلمته
ان امير المومنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدايه بذلك تعدي طاعته فوقع المامون في ظهر
كتابه قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك واجبناك اليهما واعلم ان هذين القسمين من الكناية والتعريض
قد وردا في غير اللغة العربية ووجدتهما كثيرا في اللغة السريانية فان الانجيل الذي في ايدي النصارى
قد اتى منهما بالكثير ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس انه كان رجل من اساورة كسرى وخواصه
فقيل له ان الملك يختلف الى امراتك فهجرها لذلك وترك فراشها فاخبرت كسرى فدعاه وقال قد
بلغني ان لك عينا عذبة وانك لا تشرب منها فما سبب ذلك فقال ايها الملك بلغني ان الاسد يردها فخفته
فاستحسن كسرى منه هذا الكلام واسنى عطاه

النوع العشرون في المغالطات المعنوية

وهذا النوع من احلى ما استعمل من الكلام والطفه لما فيه من التورية وحقيقته ان يذكر معنى من
المعاني له مثل في شيء اخر او نقيض في شيء اخر والنقيض احسن موقعا والطف ماخذا فالاول الذي
يكون له مثل يقع في الالفاظ المشتركة فمن ذلك قول ابي الطيب المتنبي

يشلهم بكل اقب نهد لفارسه على الخيل الخيار
وكل اصم يعسل جانباه على الكعبين دم ممار
يغادر كل ملتفت اليه ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب ايضا هو طرف سنان الرمح فلما
اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار في طرف السنان وهذا نقل المعنى من مثل الى مثل

وعليه ورد قول المتنبي ايضا

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

فان شبيبا الخارجي الذي خرج على كافور الاخشيدي وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ولم يزل بين قيس واليمن عداوات وحروب واخبار ذلك مشهورة والسيف يقال له يماني في نسبته الى اليمن ومراد المتنبي ان شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه انت يماني وصاحبك قيسي ولهذا جانبه السيف وفارقه وهذه مغالطة حسنة وهي كالاولى الا انها ادق واغمض وكذلك ورد قول بعضهم من ابيات يهجو بها شاعرا فقال من جملتها قوله

وخلطتم بعض القرآن ببعضه فجعلتم الشعرا في الانعام

ومعنى ذلك ان الشعرا اسم سورة من القرآن والانعام اسم سورة ايضا والشعرا اسم شاعر والانعام ما كان من الابل والبقر وكذلك ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب احمد بن حنبل رضي الله عنه ثم انتقل الى مذهب ابي حنيفة رضي الله عنه ثم صار الى مذهب الشافعي رضي الله عنه

من مبلغ عني الوجيه رسالة وان كان لا تجدي لديه الرسائل

تمذهبت للنعمن بعد ابن حنبل وفارقته اذ اعوزتك المآكل

وما اخترت رأي الشافعي تدينا ولكنما تهوى الذي منه حاصل

وعما قليل انت لا شك صاير الى مالك فافطن لما انا قائل

ومالك هو مالك بن انس صاحب المذهب رضي الله عنه ومالك هو خازن النار وهذه ايضا مغالطة

لطيفة

لطيفة ومن احسن ما سمعته في هذا الباب قول ابي العلا بن سليمان في الابل

صلب العصا بالضرب قد دماها تود ان الله قد افناها

اذا ارادت رشدا اغواها تخاله من رقة اباها

والضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا وعلى الضرب في الارض وهو المسير فيها وكذلك دماها فانه لفظ مشترك يطلق على شيئين احدهما يقال دماه اذا اسال دمه ودماه اذا جعله كالدمية وهي الصورة وهكذا لفظ افنا فانه يطلق على عنب الثعلب وعلى اذهاب الشي اذا لم يبق منه بقية يقال افناه اذا اذهبه وافناه اذا اطعمه الفنا وهو عنب الثعلب والرشد والغوي نبتان يقال اغواه اذا اضله واغواه اذا اطعمه الغوا ويقال طلب رشدا اذا طلب ذلك النبت وطلب رشدا اذا طلب الهداية وبعض الناس يظن هذه الابيات من باب اللغز وليس كذلك لانها تشتمل على الفاظ مشتركة وذلك معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه واللغز هو الذي يستخرج من طريق الحزر والحدس لا من دلالة اللفظ عليه وسأوضح ذلك ايضاحا جليا في النوع الحادي والعشرين وهو الذي يلي هذا النوع فليؤخذ من هناك ويروى في الاخبار الواردة في غزاة بدر ان النبي صلى

حكاية

الله عليه وسلم كان سايرا باصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فاخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء لينظر اي بطون العرب يقال له ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم لوجهته وكان قصده ان يكتم امره وهذا من المغالطة المليحة لانه يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ويجوز ان يكون المراد انا خلقنا من ماء وقد جاء في شي من ذلك في الكلام المنثور فمنه ما كتبته في فصل من كتاب عند دخولي الى بلاد الروم اصف فيه البرد

والثلج فقلت ومن صفات هذا البرد انه يعقد الدر في حلقه والدمع في طرفه ولربما تعدى الى قلب
الخاطر فاجمده ان يجري بوصفه فالشمس مأسورة والنار مقرورة والارض شهبا غير انها حولية
لم ترض ومسيلات الجبال انهار غير انها جامدة لم تخض ومكان المغالطة من هذا الكلام في قولي والارض
شهبا غير انها حولية لم ترض فان الشهبا من الخيل يقال فيها حولية اي لها حول ويقال لها مروضة
اي قد ذللت للركوب وهذه الارض مضى الثلج عليها حول فهي شهبا حولية وقولي لم ترض اعلم انه لم تسلك
بعد ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم فقلت ولقد نزلت منه بمهلبي الصنع احنفي الاخلاق ولقيته
فكاني لم ادع من احبه بلوعة الفراق ولا كرامه للاهل والوطن حتى اقول اني قد استبدلت به اهلا
ووطنا وعهدي بالايام وهي من الاحسان فاطمه فاستولدتها حوار من حسنا وهذه تورية لطيفة
فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن عليه السلام ولدها وفاطمة هي اسم فاعلة
من الفطام يقال فطمت فهي فاطمة كما يقال فطم فهو فاطم والحسن هو الشي الحسن ومن هذا الاسلوب
ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وعهده بعلي وهو نحلا من اللسان باسمايه ونبرز
انوار المعاني من طيابه وقد اصبحت في منه وعي حمالة الحطب واصبح خاطري ابا جهل بعد ان كان
ابا لهب وهذا احسن من الاول واخلب عبارة فانظر ايها المتامل الى ما فيه من التورية اللطيفة
الا ترى ان الخاطر الذي يحمد بوصف بانه وقاد وملتهب يذم بوصف بانه بليد وجاهل وابو
لهب وابو جهل هما الرجلان المعروفان وكذلك حمالة الحطب هي المراة المعروفة واذا ذم القلم
قيل انه حطب وان صاحبه حاطب فلما تقلت انا هذا المعنى الذي قصدته جئت به على حكم المغالطة
ووريت فيه تورية والمسلك الى مثل هذه المعاني وتصحيح المقصد فيها عسر جدا لا جرم ان

الاجاده

الاجاده فيها قليلة ومما يجري هذا المجرى ما ذكرته في وصف شخص بمعالي الامور وهو ومن
اثر مساعيه انه حاز قفل المكرمات ومفتاحها فاذا سيل منقبة كان مناعها واذا سيل موهبة
كان مناحها واحسن اثر من ذلك انه اخذ باعنة الصعاب والانجاح فاذا شهد حومة حرب كان
منصورها واذا لقي مهمة خطب كان سفاحها والمغالطة في هذا الكلام في ذكر المنصور والسفاح فانهما
لقبا خليفتين من بني العباس فالسفاح اول خلفايهم والمنصور اخوه الذي ولي الخلافة من بعده وهما ايضا
من النصر في حومة الوغا والسفح الذي هو الاراقة والمهجة دم القلب فكاني قلت هو منصور في حومة
الحرب ومريق لدم الخطوب وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والمنصور والسفاح والسفاح وهذا
من المغالطات المثلية لا من النقيضية ولا خفا بما فيها من الحسن ومن ذلك ما كتبته في كتاب الى بعض
الاخوان فقلت ولقد علمت ان ذلك الانس بقربه يعقب ايحاشا وان تلك المهلة من لقايه يجعل الاكباد عطاشا
فان من شيمة الدهر ان يبدل الصفو كدرا ويوسع ايام عقوبته طولا وايام بره قصرا وما اقول الا
انه شعر بتلك المسرة المسروقة فاقام عليها حد القطع وراى العيش فيها خفضا فازاله بعامل
الرفع والمغالطة في هذا الكلام هي في ذكر الخفض والرفع فان الخفض هو سعة العيش والخفض
هو احد العوامل النحوية والرفع هو من قولنا رفعت الشي اذا ازلته والرفع هو احد العوامل
النحوية ايضا وهذا من المغالطات الخفية ومن ذلك ما ذكرته ايضا في فصل من كتاب اصف فيه
الحمى وكنت اذ ذاك بحصن سميساط وهو بلد من بلاد الارمن فقلت ومما اذكره من حال الحمى بهذه
الارض ان الحمى جبنت بها فاستقرت ولم تقنع باهلها حتى سرت الى تربتها فشربت وقد اخذتها الناس
فاقشعرت ولم يشكل امرها الا انها حمى ارمنية مستعجمة اللسان وقد تشبه الامراض واهل

بلادها في الأديان واذا كانت الحمى كارهة لم تزل للمسلم حربا وشكاتها الا تشتكي شكاة وانما تشتكي بعضا
وصبا ولهذا صارت الادوية في علاجها ليست بادوية واصبحت ايام بحرها في الناس غير مسبوقة بايام
تروية وليس موسمها في فصل معلوم بل كل فصول العام من مواسمها ولو كانت نصيبين اوميافارقين
بكتاب ترجمته بعيدها وخادمها والمغالطة هنا في قولي واصبحت ايام بحرها في الناس غير مسبوقة
بايام تروية والمراد بذلك انها تقبل بغتة من غير تروّ اي من غير تلبث ويوم النحر هو يوم عيد
الاضحى وقبله يوم يسمى يوم التروية فالمغالطة حصلت من بحر الحمى الناس وبحر الضحايا الا ان يوم النحر
مبتدا بيوم تروية ولا خفا بما في هذه المغالطة من الحسن واللطافة واما القسم الاخر وهو النقيض
فانه اقل استعمالا من القسم الذي قبله لانه لا تنهيا استعماله كثيرا فمن جملته ما ورد شعرا
لبعضهم   وما اشيا نشريها بمال   فان نفقت فاكسد ما تكون

يقال نفقت السلعة اذا راجت وكان لها سوق ونفقت الدابة اذا ماتت وموضع المناقضة هاهنا
في قوله اذا نفقت كسدت فنفا الشي ونقيضه وجعل هذا سببا لهذا وذلك من المغالطة الحسنة ومن
ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب الى الديوان الخلافة يتضمن ذكر فتوح بلد من بلاد الكفار فقلت في اخر
الكتاب وقد ازداد الخادم من يبلغ عنه مشارح هذه الوقايع التي اختصرها وتمثل صورها المغاب
عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من النباهة كرما كاتبا وهي عرايس المساعي فاحسن الناس
بيانا من هو للابلاغ حسابها والسابر بها ولا ان وهو راوي اخبار نصرها التي صححها في جرح الرجال
وعوالي اسنادها ماخوذة من طرق العوالي والليالي والايام لها رواة مما اطن برواية الايام
والليالي في هذا الفصل مغالطة نقيضة ومغالطة مثلية اما المغالطة المثلية فهي في قولي

وعوالي اسنادها ماخوذة من طرق العوالي وقد تقدم الكلام على هذا وما يجرى مجراه في القسم
الاول واما المغالطة النقيضة فهي في قولي وهو راوي اخبار نصرها التي صححها في جرح الرجال
وموضع المغالطة منه انه يقال في رواة الاخبار فلان عدل صحيح الرواية وفلان مجروح اي سقيم
الرواية غير موثوق به فاتيت بهذا المعنى على وجه النقيض فقلت صححه من الجرح ما لا خفا به وقد
اوردت من هذه الامثلة ما فيه كفاية ومقنع فان قيل ان الضرب الاول من هذا النوع هو التجنيس
الذي لفظه واحد ومعناه مختلف كالمثال الذي مثلته في قول ابي الطيب المتنبي ثعلب وجار بان
الثعلب هو الحيوان المعروف وهو ايضا طرف السنان وكذلك ايضا باقي الامثلة قلت في الجواب
ان الفرق بين هذين النوعين ظاهر وذاك ان التجنيس يذكر في اللفظ الواحد مرتين فهو يستوي في الصورة
ويختلف في المعنى كقول ابي تمام

بكل فتى ضرب يعرض للقنا   محيا محلاه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب هو الضرب بالسيف في القتال فاللفظ لا بد من ذكره مرتين والمعنى فيه
مختلف والمغالطة ليست كذلك بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ويدل به على مثله وليس بمذكور

النوع الحادي والعشرون في الاحاجي

وهو الاغاليط من الكلام ويسمى الالغاز جمع لغز وهو الطريق الذي يلتوي ويشكل على سالكه
وقيل جمع لغز بفتح اللام وهو ميلك بالشي عن وجهه وقد يسمى هذا النوع ايضا المعمى وهو تشبيه بالكلمة
تارة وبالتعريض اخرى وتشبيه ايضا بالمغالطات المعنوية ووقع في ذلك عامة ارباب هذا الفن
فمن ذلك ان ابا الفرج الاصفهاني ذكر بيتي الافيشر الاسدي في جملة الالغاز وهما

ولقد أروح بمشرف ذي متعة عسر المكره ماؤه يتفصد

مرح يطير من المراح لعابه ويكاد جلد إهابه يتقدد

وهذان البيتان من باب الكناية لأنهما يحملان على الفرس وعلى العضو المخصوص وإذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الألغاز وكذلك فعل الحريري في مقاماته ذكر في الأحاجي التي خطها على حكم الفتاوى كناية ومغالطة معنوية وظن أنها من الأحاجي الملغزة كقوله أيحل للصائم أن يأكل نهارًا والنهار في الأسماء المشتركة من النهار الذي هو ضد الليل وبين فرخ الحبارى فإنه يسمى نهارًا وإذا كان من الأسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية لا من باب الأحاجي الملغزة إذ الأحاجي والألغاز شيء منفصل عن ذلك بجملته ولو كان من جملته لما قيل لغز وأحجية وإنما قيل كناية أو تعريض ومغالطة ولكن يجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ومنه ما يطلق عليه التعريض ومنه ما يطلق عليه المغالطة ومعه شيء آخر خارج عن ذلك يجعل لغزًا أو أحجية وكنت قدمت القول بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز فهو يحمل عليهما معًا وأن التعريض هو ما يفهم من عرض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازًا وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئان أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازًا ولا يفهم من عرضه لأن قول القائل في الضرس

وصاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

ما إن رأيته شخصًا قد وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الأبد

لا يدل على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز ولا طريق المفهوم وإنما هو شيء يحدس ويحزر والخواطر تختلف في الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه فإن قيل إن اللغز يعلم من طريق المفهوم وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم قلت في الجواب إن الذي يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض كقول القائل إني لفقير وإني لمحتاج فإن هذا القول لا يدل على المسألة والطلب لا حقيقة ولا مجازًا وإنما يفهم منه أن صاحبه متعرض للطلب وهذان البيتان ليسا كذلك فإنهما لا يشتملان على ما يفهم منه شيء إلا بالحدس والحزر لا غير وكذلك كل لغز من الألغاز وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذي هو اللغز والأحجية والمعمى يتنوع أنواعًا فمنه المصحف ومنه المعكوس ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية كقول القائل

إسمي إذا صحفته بالفارسية آخر

وهذا اسم تركي وهو دنكز بالدال المهملة والنون وآخر بالفارسية دنكز بالدال المهملة والياء المعجمة بثنتين من تحت وإذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكز بالنون فانقلبت الياء نونًا بالتصحيف وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض وإنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن والسلوك في معارج خفية من الفكر وقد استعملته العرب في أشعارها قليلًا ثم جاء المحدثون فأكثروا منه وربما أتى منه بما يكون حسنًا وعليه مسحة من البلاغة وذلك عندي بين بين ولا أعده من الأحاجي ولا أعده من فصيح الكلام فمما جاء منه قول بعضهم

قد سقيت آبالهم بالنار والنار قد تشفي من الأوار

ومعنى ذلك أن هذه الإبل للقوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم ولهم وسم معلوم فلما

وددت بهم المعروف بذلك الوسم فأفهج الناس حتى شربت وقد استوفيه أنه أتى في هذا البيت بالشيء
وضده وجعل أحدهما سببا للآخر فصار غريبا عجيبا وذاك أنه قال سقيت بالنار وقال إن النار
شيء من الأدواء وهو العطش وهذا من محاسن ما يأتي في هذا الباب ومما يجري على هذا النهج قول
أبي نواس في شجر الكرم

لنا هجمة لا يدري الذئب سخلها ولا راعها عض الحبالة والخطر
إذا امتحنت ألوانها مال صبغها إلى الجون إلا أن أوبارها خضر

ومن هذا القبيل قول بعضهم

سبع رواحل ما ينخن من الونا شيم تساق بسبعة زهر
متواصلات لا الدؤوب يملها باقي تعاقبها على الدهر

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه وهي الأسبوع فإن الزمان عبارة عنه وذلك
من الألغاز الواقعة على هذا الأسلوب وورد قول أبي الطيب المتنبي في السفن من جملة قصيدته
التي يمدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات وهي
الرأي قبل شجاعة الشجعان فقال

وحشاه عادية بغير قوائم عقم البطون حوالك الألوان
يأتي بما سبت الخيول كأنها تحت الحسان مرابض الغزلان

وهذا أحسن في بابه ومن ذلك قول بعضهم في حجر الحك

ومدرج من صبغة الليل برده يفوق طورا بالنضار ويطلس

اذا

إذا سألوه عن عويص بين أشكلا أجاب بلا عيا الورى وهو أخرس

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا فأجاب عنه ببيتين
على وزنه وقافيته وهما ٥ سؤالك جلمود من الصخر أسود خفيف لطيف ناعم الجسم أملس ٥
أقيم بسوق الصرف حتى كأنه من الزنج قاض بالحلوق مطيلس ٥

وقد رأيت هذا الشاعر وهو حائك بجزيرة ابن عمر وليس عنده من أسباب الأدب شيء سوى أنه قد
أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير وهو مع ذلك يقول الشعر طبعا وكان يجيد في الكثير
منه ومن الألغاز ما يرد على حكم المسائل الفقهية كالذي أورده الحريري في مقاماته وكنت سئلت
عن مسئلة منه وهي

ولي خالة وأنا خالها ولي عمة وأنا عمها
فأما التي أنا عم لها فإن أبي أمه أمها
أبوها أخي وأخوها أبي ولي خالة هكذا حكمها
فأين الفقيه الذي عنده فنون الديانة أو علمها
فلسنا مجوسا ولا مشركين بشرعة أحمد نأتمها

وهذه المسئلة كنت إلى أن تأملتها تأمل غير ملح في الفكر ولم ألبث أن انكشف لي خبؤها من اللغز وهو
أن الخالة التي الرجل خالها تصور على هذه الصورة وذاك أن رجلا تزوج امرأتين اسم إحديهما عائشة
واسم الأخرى فاطمة فأولد عائشة بنتا وأولد فاطمة ابنا ثم زوج بنته من أبي امرأته فاطمة فجاءت
ببنت فتلك البنت هي خالة ابنه وهو خالها لأنه أخو أمها وأما العمة التي هو عمها فصورتها أن
رجلا له ولد ولولده أخ من أمه فزوج أخاه من أمه أم أبيه فجاءت ببنت فتلك التي عمته لأنها أخت

اسمه وهو عمها لانه اخو ابيها واما قولي خالة فهكذا حكمها نصوان تكون امها اخته واختها امه كما
قال ابوها اخي واخوها ابي وصورتها ان رجلا له ولد ولوالده اخت من امه فتزوجها من اي لمه جات
بنت فاختها امه وامها اخته واحسن من ذلك كله والطف واحلا قول بعضهم في الخلخال

ومضروب بلا جرم مليح اللون معشوق
له قد الهلال على مليح القد ممشوق
واكثر ما يرى ابدا على الامشاط في السوق

وبلغني ان بعض الناس سمع هذه الابيات فقال قد دخلت السوق فما رايت على الامشاط شيا وظن
انها الامشاط التي يرجل بها الشعر وان السوق سوق البيع والشرا واعلم انه قد ياتي من هذا النوع ما هو
صعب والوان فيه الحسن الذي اوردت شيا منه كما تراه ومنه المتوسط الذي يجود ويعد في الدرجة
ولا يوصف بحسن ولا قبح كقول بعضهم

راحت ركابهم وفي اكوارها المثقال من عم الابل الواعد
ما ان رايت ولا سمعت براكب حملت حدايق كالظلام الراكد

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فاعطاهم نخلا فكتب لهم بها كتابا والابل الموضع الذي كتب
لهم البيه والنعم العظام الرووس من النخل والواعد الاما من الحمل فاحملوا الكتب فكانهم حملوا النخل وهذا
من متوسط الالغاز وقد جاء من ذلك ما هو سمج بارد ولا يستخرج الا من باب الجبر والمقابلة او بخطوط
الرمل من القبض الداخل والقبض الخارج والبياض والحمرة وغيرها ولئن كان معناه دقيقا فهو دال على نوط
الذكاء فاني لا اعده من اللغة العربية فضلا عن ان يوصف بصفات الكلام المحمود ولا فرق بينه وبين

لغة الفرس والروم وغيرها من اللغات في عدم الفهم واما ما ورد من الالغاز شعرا فقد الغز الحريري
في مقاماته الغازا احسنها ذكر الابرة والمرود وكالي هذا وقد ورد من الالغاز شي في كلام العرب
المنثور غير انه قليل بالنسبة الى ما ورد في اشعارها وقد تاملت القران الكريم فلم اجد فيه شيا مما
لا ينبغي ان يتضمن منها شيا لانه لا يستنبط بالحدس والحزر كما تستنبط الالغاز واما ما ورد للعرب
العرب فيروى عن امرئ القيس وزوجته عدة من الالغاز وذلك انه سالها قبل ان يتزوجها فقال ما اثنان
واربعة وثمانية فقالت اما الاثنان فثديا المراة واما الاربعة فاخلاف الناقة واما الثمانية فاطباء
الكلبة ثم انه تزوجها وارسل اليها هدية على يد عبد له وهي حلة من عصب اليمن ونحي من عسل ونحي من سمن
فنزل العبد ببعض المياه ولبس الحلة فتعلق طرفها بسمرة فانشق وفتح النحيين واطعم اهل الماء منهما ثم قدم على المراة
واهلها خلوف فسال عن ابيها وامها واخيها ودفع اليها الهدية فقالت له اعلم مولاك ان ابي ذهب يقرب
بعيدا ويبعد قريبا وان امي ذهبت تشق النفس نفسين وان اخي يرقب الشمس واخبره ان سماءكم انشقت وان
وعاييكما نضبا فعاد العبد الى امرئ القيس فاخبره بما قالته له فقال اما ابوها فانه ذهب يحالف قوما على
قومه واما امها فانها ذهبت تقبل امراة واما اخوها فانه في سرح يرعاه الى ان تغرب الشمس واما قولها
ان سماءكم انشقت فان الحلة انشقت واما قولها ان وعاييكما نضبا فان النحيين نضبا ثم قال للعبد اصدقني
فقال اني نزلت بماء من مياه العرب وفعلت كذا وكذا فهذا وامثاله قد ورد عنهم الا انه يسير وكذلك
يروى عن شن ابن افصى وكان الزم نفسه الا يتزوج الا امراة تلايمه فصاحبه رجل في بعض اسفاره
فلما اخذ بهما السير قال له شن اتحملني ام احملك فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل الراكب راكبا
فامسك عنه وسارا حتى اتيا على زرع فقال شن اترى هذا الزرع قد اكل فقال له يا جاهل ما تراه

في سبيله فأمسك عنه ثم سارا فاستقبلتهما جنازة فقال الشيخ أترى صاحبها حياً فقال الرجل ما رأيت أجهل منك تراهم حملوه إلى القبر حياً ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل فصار به إلى بيته وكان له بنت فأخذ يطرفها بحديث رفيقه فقالت ما نطق إلا بالصواب ولا استفهم إلا عما يستفهم عن مثله أما قوله أتحملني أم أحملك فإنه أراد أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث وأما قوله أترى هذا الزرع قد أكل فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه أم لا وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنه أراد هل خلف له عقباً يحيي ذكره أم لا فلما سمع كلام ابنته خرج إلى الشيخ وحدثه تأويلها فخطبها فزوجه إياها وأدق من هذا وألطف

ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب حصن شيزر وهو أولهم الذي استنقذه من أيدي الروم بالمكر والخديعة ولذلك قصة طريفة ليس هذا موضع ذكرها وكان قبل ملكه إياها في خدمة محمود بن صالح صاحب حلب وكان إذ ذاك يلقب بسديد الملك فنابه مكانه وحدث له حادثة أوجبت له أن هرب ومضى إلى مدينة طرابلس في زمن بني عمار أصحاب البلد فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود إليه فخافه ولم يعد فألحّ ابن صالح رجلاً من أهل حلب صديقاً لابن منقذ وبينه وبينه لحمة مودة أكيدة فأجلسه بين يديه وأمره أن يكتب إليه كتاباً عن نفسه يوثقه من جهة ابن صالح ليعود فما وسعه إلا أن يكتب وهو يعلم أن الأمر في ذلك خلاف ظاهره وأنه متى عاد ابن منقذ إلى حلب هلك فأفكر وهو يكتب الكتاب في إشارة عمياء لا يفهمها ليضعها فيه يحذره بها ابن منقذ فأداه فكره أن كتب في آخر الكتاب عند إنهائه إن شاء الله تعالى وشدد إنّ وكسرها وضبطها يعلم منه الفطن الذكي أنه ليس عن سهو ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح فوقف عليه وأرسله إلى ابن منقذ فلما صار في يده وعلم ما فيه قال هذا دأب صديقي وما يغشني ولولا أن يعلم صفاء قلب ابن صالح لي وإلا ما كتب إلي ولا ثم عزم على العود وكان عنده ولده فأخذ الكتاب وكرر نظره فيه ثم قال

يا أبه مكانك فإن صديقك قد حذرك وقال لا تعد فقال وكيف ذاك قال إنه قد كتب إن شاء الله في آخر الكتاب وشدد إنّ وكسرها وضبطها ضبطاً صحيحاً لا يصدر مثله عن سهو ومعنى ذلك أنه يقول إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وإن شككت في ذلك فأرسل إلى صديقك واسأله فأرسل إليه وسأله فقال هو ما قال ولذلك فأقام ولم يعد إلى حلب وهذا من أعجب ما يغني من جودة الذهن وفطانة الخاطر ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة والأمانة لما فطن لمثل ذلك أبداً لأنه ضرب من علم الغيب وإنما الخوف دله على استنباط ما استنبطه ووجدت لبعض الأدباء لغزاً في حمام فمنه ما أجاد فيه وقد أطلتها سماء ذات نجوم لا استراق لها ولا رجوم دجى بهن في فلك صحت استدارته وسكنت إدارته

أعجبهما من أنجم عند الصباح ظاهرة

لكنها إذا بدا نجم الظلام غائرة

فهي على الفيافي جنة نعيم مبنية على نار جحيم لا خلود فيها ولا مقام ولا يزاد دين أهلها والإسلام أنهارها مندفعة ومياهها مترقرقة والأكواب بها موضوعة والنمارق عنها منزوعة

يطيع بها المولى أوامر عبده ويصبح طوعاً في يديه مقالده

ويرفع عنه التاج عند دخوله ويسلب من بعد الجلوس غلائله

النعيم بها معدوم والخادم فيها مخدوم ينكر بها اليسير من البرد ويكره حرها إذا جاوز الحد هذا اللغز من فصيح الألغاز ولا يقال إن صاحبه في العمى ضايع العكاز وإذا نظر غيره بلمعة من الوشي فهذا له طراز ومما سمعته من الألغاز الحسان التي تجري في المحاورات ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري وذاك أن عمر بن هبيرة كان سايراً على برذون له وإلى جانبه شريك

النميري على بغلة وتقدمه شريك في المسير فصاح به عمر اغضض من لجامها فقال اصلح الله الامير انها مكتوبة فتبسم عمر ثم قال ويحك لم ارد هذا فقال له شريك ولا انا اردته وكان اراد عمر قول جرير

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فاجابه شريك بقول الآخر

لا تأمنن فزاريا نزلت به على قلوصك واكتبها باسيار

وهذا من الالغاز اللطيفة وتفطن كل من هذين الرجلين لمثله الطف واحسن ومما يجري هذا المجرى ان رجلا من بني تميم قال لشريك النميري ما في الجوارح احب الي من البازي فقال له شريك اذا كان يصيد القطا وكان التميمي اراد قول جرير

انا البازي المطل على نمير اتيح من السماء لها انصبابا

واراد شريك قول الطرماح

تميم بطرق اللوم اهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلت

واعلم ان خواطر الناس تتفاضل لتفاضل الاشخاص ومن ها هنا قيل سبحان خالق موسى وعمرو بن العاص

النوع الثاني والعشرون في المبادي والافتتا

هذا النوع هو احد الاركان الخمسة البلاغية المشار اليها في الفصل التاسع من مقدمة الكتاب وحقيقة هذا النوع ان يجعل مطلع الكلام من الشعر او الرسايل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان كان فتحا ففتحا او كان هنا فهنا او كان عزا فعزا وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني وفايدته ان يعرف من مبدا الكلام ما المراد به ولم هذا النوع والقاعدة التي يبنى عليها اساسه انه يجب على

الشاعر

الشاعر اذا نظم قصيدا ان ينظر وان كانت مجاصرة لا لحصر حادثة من الحوادث فهو مخير بين ان يفتتحها بغزل او لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من اولها كقول القايل

ان حارت الالباب كيف تقول في ذا المقام فعذرها مقبول

سامح بفضلك مادحيك فما لهم ابدا الى ما تستحق سبيل

ان كان لا يرضيك الا محسن فالمحسنون اذا لديك قليل

وان هذا الشاعر ارتجل المديح من اول القصيد فاتى به كما ترى حسنا لايقا واما اذا كانت القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل او هزيمة جيش او غير ذلك فانه لا ينبغي ان يبدا فيها بغزل وان فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية او على جهله بوضع الكلام في مواضعه فان قيل انك قد عبت على الشاعر كذا وكذا فلم ذاك قلت في الجواب ان الغزل رقة محضة والالفاظ التي تنظم في الحوادث المشار اليها من فحل الكلام ومتين القول وهي ضد الغزل وايضا فان الاسماع تكون متطلعة الى ما يقال في تلك الحوادث والابتداء بالخوض في ذكرها اولى من الابتداء بالغزل ومن ادب هذا النوع الا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدته بالمديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى ادب النفس لا الى ادب الدرس فينبغي ان يحترز منه في مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفا وغير ذلك من تشتت الالاف وذم الزمان لا سيما اذا كان في التهاني فانه يكون اشد قبحا وانما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة والنوا ب الحادثة ومتى كان الكلام في المديح مفتتحا بشيء من ذلك تطير منه سامعه وانما خصت الابتداءات بالاختيار لانها اول ما يطرق السمع من الكلام فاذا كان الابتداء لايقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي لاستماعه ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم كالتحميدات المفتتح بها اوايل

السور وكذلك الابتدا بالندا كقوله تعالى في مفتتح سورة النساء يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم
من نفس واحدة وكقوله تعالى في اول سورة الحج يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شي عظيم فان مثل
هذا الابتدا يوقظ السامعين للاصغاء اليه وكذلك الابتداات بالحروف كقوله تعالى الم وطسم
وحم ونحو ذلك فان هذا ايضا مما يبعث على الاستماع اليه لانه يقرع السمع شي غريب ليس له بمثله عادة
فيكون ذلك سببا للتطلع نحوه والاصغاء اليه ومن قبيح الابتداآت قول ذي الرمة

ما بال عينك منها الما ينسكب — لان مقابلة الممدوح بهذا الخطاب لا تخفا قبحه وكراهته

ولما انشد الاخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التي اولها — خف القطين فراحوا منك او بكروا
قال له عبد الملك لا بل منك وتطير من قوله فغيرها ذو الرمة فقال — خف القطين فراحوا اليوم او بكروا
ومن شان ان يذكر الديار والاطلال في شعره فلينادب باداب النظامي على خفا طبعه وبعده عن
فطانة الآداب فانه قال — انا محيوك فاسلم ايها الطلل — فبدا قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعا
له بالسلامة وقد قيل ان امرا القيس كان يجيد الابتدا كقوله — الا انعم صباحا ايها الطلل البالي
وكقوله — قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — ومما يستكره من الابتداآت قول ابي تمام

تجرع اسى قد اقفر الجرع الفرد — وانما القى ابا تمام في مثل هذا المكروه تتبعه التجنيس بين
تجرع والجرع وهذا داب الرجل فانه كثيرا ما يقع في مثل ذلك وكذلك يقبح قول البحتري

فؤاد ملاه الحزن حتى تصدعا — فان ابتدا المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع وهو اجدر
بان يكون ابتدا مرثية لا مديح وما اعلم كيف يخفى هذا على مثل البحتري وهو من مفلقي الشعرا ويحكى
انه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع اهله واصحابه وامرهم ان يخرجوا في زينتهم

صوا على جفا طبعه بالجيم

اللفظ اعلم ان حسن اذا اعتمد وقبح المعنى اذا انقلب فوقعا في السمع وذهب حسن اللفظ بخبث قبح المعنى وهذا لا يفطن له الا الافراد فاما من يتبع الالفاظ ولا يعبا بحسن المعاني فمن فقط الاعتبار

فما راى الناس احسن من ذلك اليوم فاستاذنه اسحق بن ابرهيم الموصلي في الانشاد فاذن له فانشده
شعرا حسنا اجاد فيه الا انه استفتحه بذكر الديار وعفايها فقال

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي ابلاك

فتطير المعتصم من ذلك وتغامز الناس على اسحق بن ابرهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه
وطول خدمته للملوك ثم اقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس وخرج المعتصم الى سر
من راى وخرب القصر فاذا اراد الشاعر ان يذكر دارا فليذكرها كما ذكرها اشجع السلمي حيث قال

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الايام

وما اجدر هذا البيت بمفتتح شعر اسحق بن ابرهيم الذي انشده المعتصم فانه لو ذكر هذا وما جرى مجراه
لكان حسنا لايقا وسيل بعضهم عن احذق الشعرا فقال من اجاد الابتدا والمطلع الاترى الى قصيدة
ابي نواس التي اولها — يا دار ما فعلت بك الايام لم تبق فيك بشاشة تستام
فانها من اشرف شعره واعلاه منزلة وهي مع ذلك مستكرهة الابتدا لانها في مدح الخليفة الامين
وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه لا سيما في مشافهة الخلفاء والملوك ولهذا يختار
في ذكر الاماكن والمنازل ما رق لفظه وحسن النطق به كالعذيب والغوير ورامة وبارق والعقيق واشباه
ذلك ويختار ايضا اسما النسا في الغزل نحو سعاد واميمة ونوار وما جرى هذا المجرى وقد عيب على الاخطل
في تغزله بقذور وهو اسم امراة فانه مستقبح في الذكر وقد عيب على غيره التغزل باسم تماضر فانه
وان لم يكن مستقبحا في معناه فانه يثقل على اللسان كما قال البحتري

ان للبين منة لا تودى ويدا في تماضر بيضا

فتغزّله بهذا الاسم ما تشوّه رقّة الغزل وتثقل من خفته وامثال هذه الاشيآء تجب مراعاتها والتجوّز
منها وقد يستثني من ذلك ما كان من اسم موضع تقضّى وقعة من الوقايع فان ذكره لا يكره وان كان في اسمه
كراهة كما ذكر ابو تمّام في شعره مواضع مكروهة الاسماء لحسن وقع الوقايع التي كانت بها كذكر الخشاك
وعقوقس وامثالها وكذلك ذكر ابو الطيب المتنبي هنزيط وسميساط وما جرى مجراها وهذا لا عيب
في ذكره لمكان الضرورة التي تدعو اليه وهكذا يسامح الشاعر والكاتب ايضًا في ذكر ما لا بدّ من ذكره وان
قبح ومهما امكنت التورية في هذا المقام فليسلكها وما لا فانه معذور فيه واعلم انه ليس من شرط الابتدآء
ان لا يكون ما لا يتطير منه فقط فان من الابتدآءات ما يستقبح وان لم يتطير منه كقول ابي تمام

تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي وكقوله قدك اتئب اربيت في الغلوآء وكقول ابي الطيب

كفى اراني ويك لومك الوما وكقوله اقل فعالي بله اكثره مجد والعجب

من هذين الشاعرين المفلقين كيف يبتديان بمثل ذلك وهما من الابتدآءات الحسنة ما ذكره ابو تمام فانه
افتتح قصيدته التي مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية فقال

السيف اصدق انبآء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفايح لا سود الصحايف في متونهن جلاء الشك والريب

وهذه الابيات لها قصة وذاك انه لما حصر المعتصم مدينة عمورية زعم اهل النجامة انها لا تفتح في
ذلك الوقت وافاضوا في هذا حتى شاع وصار احدوثة بين الناس فلما فتحت بنا ابو تمام مطلع قصيدته
على هذا المعنى وجعل السيف اصدق من الكتب التي خبرت بامتناع المدينة واعتصامها ولذلك
قال فيها والعلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

اين الرواية ام اين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصًا واحاديثًا ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

وهذا من احسن ما ياتي في هذا الباب وكذلك قوله في اول قصيدة يمدحه بها ايضًا ويذكر فيها
بابك الخرمي عليه وظفره به وهي من امهات شعره فقال

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

وكذلك قوله متغزلًا عسى وطن يدنو بهم ولعلما وان تعتب الايام فيهم فربما

وهذا من الاغزال الحلوة الرائقة وهو من محاسن ابي تمام المعروفة وكذلك قوله في اول مرثية

اصم بك الناعي وان كان اسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

واما ابو الطيب المتنبي فانه اكثر من الابتدآءات الحسنة في شعره كقوله في قصيدة يمدح بها كافورا
وكان جرت بينه وبين ابن سيده نزغة فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود فقال

حسم الصلح ما اشتهته الاعادي واذاعته السن الحساد

وهذا من بديع الابتدآء ونادره وكذلك قوله في سيف الدولة وكان ابن الشمشقيق حلف لباعسة
كما حاف الفيام يطوق ذلك وولى هاربًا فافتتح ابو الطيب قصيدته بنحوى الامر فقال

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وفي اليمين على ما انت واعده ما دل انك في الميعاد متهم

وكذلك قوله وقد فارق سيف الدولة وسار الى مصر يجمع بين ذكر فراقه اياه ولقاءه كافور في
اول بيت من القصيد فقال

فراقٌ ومن فارقتُ غيرُ مذمّمٍ وأمٌّ ومن يمّمتُ خيرُ ميمّمِ

ومن البديع النادر في هذا الباب قوله متغزلًا في مطلع قصيدته القافية وهي

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقةً في المآقي

وله مواضع أخرى كثيرة لا حاجة إلى ذكرها ومن محاسن الابتداآت التي دلّت على المعنى من أول بيت في
القصيدة ما قرأته في كتاب الروضة لأبي العباس المبرد فإنه ذكر غزوة غزاها الرشيد هرون رحمه
الله في بلاد الروم وأن نقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط
الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد لمكان هيبته في صدور الناس وبذل يحيى بن خالد
للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعارًا في إعلامه فكلّهم أشفق من لقائه بمثل ذلك إلا شاعرًا من أهل
جدة يكنى أبا محمد وكان شاعرًا مفلقًا فنظم قصيدًا وأنشدها الرشيد أولها

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير

نقفور إنك حين تغدر أن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت هبلتك أمك ما ظننت غرور

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد أوقد فعل ثم غزاه في بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة وقرأت في
كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ما رواه من شعر سديف في تحريض الخليفة السفاح رحمه الله
على بني أمية فقال قدم سديف من مكة إلى الحيرة والسفاح بها ووافق قدومه جلوس السفاح للناس
وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسي مكرمة لهم فلما دخل عليه سديف حسر لثامه وأنشده أبياتًا

من

من الشعر فالتفت رجل من أولاد سليمن بن عبد الملك وقال لآخر إلى جانبه قتلنا والله العبد فلما
أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأخرجوا من بين يديه وقتلوا عن آخرهم وكتب إلى عماله بالبلاد بأمرهم بقتل
من وجدوه منهم ومن الأبيات

أصبح الدين ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس

أنت مهدي هاشم وهداها كم أناسٍ رجوك بعد أناس

لا تقيلن عبد شمس عثارًا واقطعن كل رقلة وغراس

أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس

خوفهم أظهر التودد منهم وبهم منكم كحز المواسي

أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس

واذكرن مصرع الحسين وزيد وقتيلًا بجانب المهراس

ولقد ساءني وساء سوائي قربهم من نمارق وكراسي

وهذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحًا وابتداءً ونحن نضيف إليها ولو وصفناها من الأوصاف
بما شاء الله وشئنا الإسهاب والإطناب لما بلغنا مقدار ما لها من الحسن ومن لطيف الابتداآت ما ذكره

مهيار أما وهواها عذرةً وتنصّلا لقد نقل الواشي إليها فأمحلا

سعى جهده لكن تجاوز حدّه وكثّر فارتابت ولو شاء قلّلا

فإنه أبرز الاعتذار في هيئة الغزل وأخرجه في معرض النسيب وكان وشي به إلى الممدوح فافتتح قصيده
بهذا المعنى بأحسن وما جاء على نحو من ذلك قول بعض المتأخرين من العراقيين

وراك أقوال الوشاة الفواجر ودونك أحوال الغرام المخامر

ولولا ولوع منك بالصد ما سعوا ولولا الهوى لم أنتدب للمعاذر

فسلك في هذا القول مسلك مهيار إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة وهي المعاتبة على الإصغاء إلى
أقوال الوشاة والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى ومن الحذاقة في هذا الباب أن
تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب وإنما خصصت الكتب السلطانية
دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر في غيرها فإنها تكون قد تضمنت أمورًا آنقة بالتحميد كفتح
معقل أو هزيمة جيش أو ما جرى هذا المجرى وقد وجدت أبا إسحق الصابي على تقدمه في فن
الكتابة قد أخل بهذا الركن الذي هو من أوكد أركان الكتابة فإذا أتى بتحميدة في كتاب من هذه الكتب
لا تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب وإنما تكون في وادٍ والكتاب في وادٍ إلا ما قل من كتبه فمما خالف
فيه مطلع الكتاب معناه أنه كتب كتابًا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها وكان ذلك فتحًا عظيمًا
فابتدأ بالتحميد فقال الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الوحيد الفريد العلي المجيد الذي لا يوصف إلا
بسلب الصفات ولا ينعت إلا برفع النعوت الأزلي بلا ابتداء الأبدي بلا انتهاء القديم لا منذ أمد محدود
الدائم لا إلى أجل معدود الفاعل لا من مادة استمدها الصانع لا بآلة استعملها الذي لا تدركه الأعين
بلحاظها ولا تحده الألسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها
ولا تضارعه الأجسام بأقطارها ولا تجانسه الصور بأعراضها ولا تجاريه أقدام النظراء والأشكال
ولا تزاحمه مناكب الأضداد والأمثال بل هو الصمد الذي لا كفء له والفذ الذي لا توأم معه والحي الذي
لا تخترمه المنون والقيوم الذي لا تشغله الشؤون والقدير الذي لا تؤوده المعضلات والخبير الذي

لا تعييه المشكلات وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها ولكنها تصلح أن توضع في صدر مصنف
من مصنفات أصول الدين ككتاب الشامل للجويني أو كتاب الاقتصاد للغزالي وما جرى مجراهما وأما أن
توضع في صدر كتاب فتح فلا وهو وإن أساء في هذا الموضع فقد أحسن في موضع آخر غيره وذاك أنه كتب
كتابًا عن الخليفة الطائع رحمه الله إلى الأطراف عند عوده إلى كرسي ملكه وزوال ما نزل به وناب
المطيع رحمه الله من ناحية الأتراك فقال الحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد بتاته
وجابر الوهن إذا ألم وكاشف الخطب إذا أظلم والقاضي للمسلمين بما يضم شملهم ويشد أزرهم ويصلح ذات
بينهم ويحفظ الألفة عليهم وإن شابت ذلك في الأحيان شوائب من الحدثان فلن تتجاوز بهم الحد الذي
يوقظ غافلهم وينبه ذاهلهم ثم إنهم عائدون إلى أفضل ما أولاهم الله وعوّدهم ووثقهم ووعدهم
من إبانة سربهم وإعذاب شربهم وإعزاز جانبهم وإذلال مجانبهم وإظهار دينهم على الدين كله ولو كره
المشركون وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب وإن كانت المعاني فيها مكررة كالذي أنكرته عليه
وعلى غيره من الكتاب وقد تقدم القول فيه في باب السجع فليؤخذ من هناك ومن المبادئ التي قد خلقت
وصارت مرذولة أن يقال في أوائل التقليدات إن أحق الخدم بأن يرعى خدمه كذا وكذا وإن أحق من قلد
الأعمال من اجتمع فيه كذا وكذا فإن هذا ليس من المبادئ المستحسنة ومن استعمله أولًا فقد ضعفت
فكرته عن ابداع ما يحسن استعماله من المبادئ والذي تبعه في ذلك إما مقلد ليس عنده قوة على أن
يختار لنفسه وإما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والرديء وأهل زماننا هذا من الكتاب
قد قصروا المبادئ تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها وإن أتوا بتحميدة من التحاميد كانت منافية
لمعنى التقليد الذي وضعت في صدره وكذلك قد كان الكتاب يستعملون في التقليدات مبدأ واحدًا

لابتهاجا وزوته الى غيره وهو هذا ما عهد فلان الى فلان والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب
الفتوح وما جرى مجراها وقد انكرت ذلك على مستعمليه في مفتتح تقليد انشاته بولاية قاص فقلت كانت
التقليدات تفتتح بكلام ليس بذي شان ولا توضع في ميزان ولا يجتنى من افنان وغاية ما يقال هذا ما
عهد فلان الى فلان وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الايام ولا حسنة النظم فتضاهي بمثلها
بالزيادة في النعم ثم تبرتها من تضليه بالاعادة وهو الذي يلوح سامر ما ارب الدنيا منتهى الارادة وسلم
الينا مقادة الملك فذلك لنا بها كل مقاده ورسد الامر منا الى اهله فاستوطات الرعايا منه الى وساده
ونرجوان يجمع لنا بين سعادة الاولى والاخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة ثم نصلي على
نبيه محمد الذي ميزه على الانبياء بشرف السيادة وجعل انشقاق القمر له من ايات النبوة وانشقاق
الايوان من ايات الولادة وعلى اله واصحابه الذين شادوا الدين من بعده فاحسنوا في الاشادة وبسطت
عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يحولوا عن خلق الزهادة   اما بعد كذا وكذا ثم انتهيت التقليد
الى اخره ومن الحذاقة في هذا الباب ان يجعل الدعاء في اول الكتاب من السلطانيات والاخوانيات
وغيرهما مضمنا من المعنى ما بني عليه ذلك الكتاب وهذا شي انفردت بابتداعه وبراه كثيرا فيما
انشاته من المكاتبات فاني توخيته فيها وقصدته فمن ذلك ما كتبته في الهناء بفتح وهو هذا
الكتاب مشافه بخدمه الهناء للمجلس السامي الفلاني جدد الله له في كل يوم فتحا وبدل عرش كل ذي
سلطان لديه صرحا وجعل كل ذي موقف من مواقف جوده وباسه يوم فطر ويوم اضحى وكتب له على لسان
الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا واسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظما فيها ولا يضحى احدث
بعد ذلك في انشاء الكتاب المتضمن ما تقتضيه معاني ذلك الفتح ومن ذلك ما ذكرته في الهناء بمولود

وهو

وهو جدد الله مسرات المجلس السامي الفلاني ووصل صبوح هنائه بغبوقه وامتعه بساليله
المبشر بطيه وفيه وابقاه حتى يستضيء برايه ويرمي عن فوقه ويشد به اركان المعالي حتى خلق اعطافها
بحلوقه وجعله كزرع اخرج شطاه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه ثم اخذت في تمام الكتاب
بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى فتامل ما اوردته هاهنا من هذين المثالين وانسج
على منوالهما فيما تقصده من المعاني التي تبني عليها كتبك فان ذلك من دقائق هذه الصناعة واما
فواتح الكتب التي انشاتها فمنها ما اخترعته اختراعا ولم اسبق اليه وهي عدة كثيرة قد اوردت
هاهنا بعضها فمن ذلك مفتتح كتاب الى ديوان الخلافة وهو نشات سحابة من سماء الديوان العزيز
النبوي جعل الله الخلود لدولته اوطانا والجدود لها اركانا ونصب ايام مصافي ايام الدهر اعيانا
وصورها في وجهه عينا وفي عينه انسانا وسلطها على الناس عدلا واحسانا وجمع الامم على دين
طاعتها وان تفرقوا اديانا واراها من معجزات سلطانه ما لم ينزل به لغيرها سلطانا فاذ ناح الخادم
لالقائها وبسط يده لاستسقائها وقال هذه رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ولا تخلف وعودها
ومن شانها ان ترى بعض الصنائع التي تبغي اثارها لا المخايل التي تذوي ازهارها وقد تعبر عن الكتاب
ونائله بالسحاب ووابله فان صدر عن يد كيد الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب
وصدق حينئذ قول القائل ان البحر غيض السحاب لكن فرق بين ما يجود بمائه وما يجود بنعمائه وبين
ما يبسم الارض الماحلة وما يبسم الاقدار الخاملة وما زالت كتب الديوان العزيز تضرب لها الامثال
وتصرف نحوها الامال وترى الحسد فيها حسنا وان عد في غيرها من سيئ الاعمال وهذا فصل من
اول الكتاب   ومن جملة الكتب المشار اليها مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وارسلته اليه من الموصل

الى ارض الشمال من بلاد الروم وهو طلع كوكب من افق المجلس السامي لا خلت سيادته من عدو
وحاسد ولا شك بسوى خروجهما عن حكم الواحد ولا عدمت صحته الجدود المتيقظة في الزمن الراقد
ولا اوحشت الدنيا من ذكره الخالد الذي هو عمر ما للدولة الا مرفوعا الى المحل الذي يعلم به ان الدهر
للناس ناقد والكواكب تختلف في مطالعها في الشمال والجنوب فمنها ما يطلع دايما في احدهما وهو في
الاخر دايم الغروب وكان المجلس كوكب لم ير بهذه الارض مطلعه وان علم من السما اين موضعه
ولما ظهر الان للخادم سبح له حامدا وخر له ساجدا وقال قد عبدت الكواكب من قبلي فلا عجب ان اكون
لهذا الكوكب عابدا وها انا قد اصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة
الكاتب لا ابن كبشة الشعرى وهذا مطلع غريب والسابقة التالية لطالعه اغرب ومن اغرب
ما فيها قولي وها انا قد اصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكاتب
لا ابن ابي كبشة الشعرى والمراد من ذلك ان ابن كبشة كان رجلا في الجاهلية يعبد الشعرى فخالف
بذلك دين قومه ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قالت قريش هذا قد خالف ديننا وسموه ابن ابي كبشة
اي انه قد خالفنا كما خالفنا ابن كبشة قومه في عبادة الشعرى واخذت انا هذا المعنى واودعته
كما ترى هذا المجا فجاء مبتدعا غريبا ومن جملة الكتب المشار اليها مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان
بالشام وهو طلعت من الغرب شمس فضل قد دنت اشراط الساعة بالاقتراب ولم يعلم ان تلك
الانوار انما هي انوار كتاب لم تالف الابصار من قبل ان يطلع الشمس من المغرب
وليس ذلك الا كتاب المجلس السامي لا سلبه الله مزية هذا الوصف الكريم واماه من الفضل ما يقال
معه وفوق كل ذي علم عليم واحيا النفوس من كلمه بروح وكلمه كما شفا عليلها من ثلامه سقيا الطم

ولما ورد على الخادم صار ليله نهارا واصبح الناس في الحديث به اطوارا والمنصف منهم يقول تعجبت
الشمس الى مستقرها والشمس لا تجد قرارا وهذا الكتاب في الحسن والغرابة كالذي قبله ومن جملة الكتب
المشار اليها مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو ناوب نور من جانب المجلس السامي ادنى الله داره
وجعل كالانه الناس جاره واشهد افعال التقوى ليله وافعال المكارم نهاره ووهبه من اعوام
العمر طواله ومن اعوام العيش قصاره ولا اقدر السابقين الى المعالي ان يجروا معه ولا ان يشقوا غباره
وليس ذلك النور الا سطورا في قرطاس ولا فرق بين الكتاب وبين مرسله في ملاطفة الايناس والله
لا يصغر ممشى هذا الزاير ويقر عيني برؤيته حتى لا ازال به قرير الناظر ومع هذا فاني عاتب لما اخره
وها هنا مظنة العتاب ومن ياخر عنه كتاب صديقه فلا بد ان يخطر له خاطر الارتياب والضنين
بالمودة لا يرى الا ظنينا وقد قيل انها وديعة وقليلا ما تجد على الودايع اميناً وهذا فصل من اول
الكتاب ومن جملة الكتب المشار اليها مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو سنحت روضة من
جانب المجلس السامي جعل الله المعالي له رداء ونبات المساعي له ابدا وفداء ممن يعصي عن درجته
حتى يكون الا كارم له فداء وهدى المحامد لافعاله واهدى الثنا لايامه حتى يجتمع له الامران هدى واهداء
وراه من السيادة ما جعل اعداه اصادق ومن السعادة ما جعل اصادقه اعدا فاستنشق
الخادم رياها وتلقى بالتحية محياها واستمتع بازهارها التي انبتتها سقيا الاقلام لا سقيا الغمام
وقال هذه ربيع الارواح لا ربيع الاجسام ولو رام الاحاطة بوصفها الكاتب لا تى القول المطولة
فيها مختصرة لكنه اكتفى بان رفعها على راسه حتى تمثل ان الجنة في نحره ومن اوصافها انها
جات زاينة ومن شان الروض ان يرى دوحات محاسنها التي هي في غيرها من حظ البصر وفيها

من حط السمع والبصر والفؤاد ولما سرح الخادم فيها ناظره وجد شوقه حمامة تغرد في اكنافها وتردد
الشجا البعيد اليها اذا ردد نوح الحمايم لقرب الالف وهذا قول له عند اخوان الصفا علامة واذا تمثل
كتاب الحبيب ووضعه فهل تمثل شوق محبه الا حمامة واي فرق بين هذه واخواتها من ذوات الاطواق
لولا انها على شجوها على صفحات القلوب وتلك مطبوعة على عذبات الاوراق وهذا فصل من الكتاب وهو
غريب عجيب وفيه معنيان مبتدعان ومن جملة الكتب المشار اليها فتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو
تضوعت نفحة من لقاء المجلس السامي رعى الله عهده وسقاه وصان وده ووقاه وبسوى الفا العصا
بملقاه فعطرت الطريق التي سايرتها والريح التي جاورتها وابتغا فرشتها حذي وضممت عليها ودي
وجعلتها ردعا للحسن ولطيمة لودي وسخا بالعقد وعلمت انها ليست نفحة طيب ولكنها كانت جيب فان
مناشق الارواح غير مناسق الاجسام ولا يستوي عرف الطيب وعرف الاقلام ثم مددت يدي الى الكتاب
بعد ان صافحت بموصله كما صافحت عقد منديله وقلت اهلا بمن ادنى من الحبيب مزارا واهدى لعيني
قرة ولقلبي قرارا وهذا في الغرابة كاخواته التي تقدمت ولم استقص ما اخبر عنه في هذا الباب من مطالع
الكتب واما ما اتى فيه بالحسن من المعاني ولكنه غير مخترع فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين
ارسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الملك الافضل علي بن يوسف تتضمن تعزية وتهنئة اما التعزية
فبوفاة اخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر واما التهنئة فبوراثه الملك من بعده وهو لا يعلم القلم
اينطق بلسان التعزية ام بلسان التهنئة لكنه جمعهما جميعا فاتى بهما على حكم النسبة وفي مثل هذا الخطب
يظل العلم حائرا وقد وقف موقف السخط والرضى فسخط اولا ثم رضي اخرا وهذا البيت الكريم الناصري
يتداول درجات العلى فما يغيب منها غائب الا واخر يطلع والناس ان يجعوا منه بماجد ردفوا من بعده

ماجد

ماجد وان قيل ان الماضي كان واحدا قيل بل الاتي هو الواحد وهذا فصل من اول الكتاب ثم كتب في هذا
المعنى كتابين اخرين وفي الذي اوردته من هذا الفصل مقنع ومن هذا الاسلوب ما كتبته الى بعض
الاخوان جوابا عن كتابه وكانت الكتب انقطعت بيني وبينه زمانا وهو لما انتسب الاحباب كلفا الاحبات
ومن احسنها كتاب المجلس السامي الفلاني جعل الله الليالي له صحبا والمعالي له عقبا ورفع مجده فوق
كل ماجد حتى تكون حسناته لذي حسناته ذنبا ولا زال اسمه في الافواه عذبا وذكره في الالسنة رطبا
ووده لكل انسان ولكل قلب قلبا ثم انتهيت الى اخر الكتاب على هذا النسق وانما ذكرت هنا مبداه لانه
الغرض المقصود في هذا الموضع ومن ذلك ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وهو
البشرى يعطي الكتاب كما يعطي لمرسله وكل منهما يوفي حق قدره وينزل في منزلته ولكن الكتاب فعل الخادم كتاب
المجلس السامي الفلاني لا زال محله انيسا وذكره للفرقدين جليسا وسعيه على المكارم حبيسا ومجده
جديد الملابس اذا كان المجد لبيسا وها هنا ذكرت من هذا الكتاب كما ذكرته من الذي قبله فاني لم اذكر
الا مبداه الذي هو الغرض ومما ينتظم بهذا السلك ما كتبته في صدر كتاب يتضمن تعزية وهو لو لم
يلبس قلبي ثوب الحداد لهجر مداده ونضا عنه سواده وبعد عن قرنه وعاد الى طينته وحرم على نفسه
ان ينطق بيانا او يجري الى مدى لكنه احد فذت وبكى فسكت وسطر هذا الكتاب من دموعه وضمنه احملة
احناء ضلوعه وانما استعار ذلك من صاحبه الذي اعلاه وابدى اليه من حزنه ما ابداه وهو نايب عنه
في تعزية سيدنا احسن صبره ويسر امره وارضى عنه دهره ثم انهيت الكتاب الى اخره ومن محاسن
هذا الباب ان يفتتح الكتاب باية من القران او بخبر من الاخبار النبوية او ببيت من الشعر ثم ينبني
الكتاب عليه فمن ذلك ما كتبته في ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح وهو

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتحه البيض الخفاف الصوارم

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم وجعلنا السيف وسيلة الى استفتاح الملك العقيم وانّ المجد
لا تنتصب الا على النصب والراحة الكبرى لا تنال الا على جسر من التعب وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة
فلان وهي المملكة التي تمسي الآمال دونها صرعى واذا قيس البقاع غيرها من الممالك كانت اصلا وكان غيرها
فرعا وهذا فصل من اول الكتاب ومن ذلك ـــــ ما كتبته في معنى تقليد بالحسبة وهو ولتكن منكم
امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون هذا امر يشتمل على معنى
الخصوص دون العموم ولا يختص به الا ذوو الاوامر المطاعة او ذوو العلوم وقد جمع الله لنا
هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المستخلفين عليهما فلنبدأ اولا لأجله الذي هو سبب المرتبة للناحفي
القيام بامره الذي كل نفس منه رقيب عتيد ولا ريب ان اصلاح العباد يسري الى الارض حتى يزكو طوبها
وتنام عيونها ويشترك في بركات السماء ساكنها ومسكونها والامر بذلك محلل ان لم يتوزعه الا الف ثقل على
الرقاب واذا انتشرت اطراف البلاد فانها تفتقر الى مساعدة من مستنيب ومستناب وقد اخترنا بالمحتسب
فلانا لانه رجل لم يأل في اختياره جهدا وقدمنا فيه خيرة الله التي اذا صدقت نيتها صادفت رشدا وهو انت
ايها الشيخ فلان فابسط يدك بقوة الى اخذ الكتاب وكن حسنة من حسناتنا التي يرجح بها ميزان الثواب وخف
نظرنا فيك فانه من نور الله الذي ليس دونه من حجاب فتأمل كيف فعلت في هذه الآية التي بنيت التقليد
عليها وهو من محاسن المبادي والافتتاحات وكذلك قلت في موضع آخر وهو مفتتح كتاب كتبته الى بعض
كلفته السفارة الى مخدومه في حاجة عرضت وهو ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين
آمنوا الا ان هذا القول يتبع آماله ويحمل عليه انظاره واولى الناس بسيدنا من شاركه في لحمة ادبه وان لم

يشاركه في لحمة نسبه فان المناسب اقارب والمآثر اواصر

وليس يعرف فضلي ولا ادبي الا امرؤ كان ذا فضل وذا ادب

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف افضاله واستهداء صنيعة جاهه التي هي اكرم من
صنيعة ماله ولا تجارة اربح من هذه التجارة والساعي فيها شريك في الكسب بري من الخسارة واما الاخبار
النبوية فيسلك بها هذا المسلك بان تذكر الخبر في صدر الكتاب ثم يبنى عليه ولنذكر منها ولو مثالا واحدا
وهو توقيع كتبته لولد رجل من اصحاب السلطان توفي ابوه ونقل ما كان باسمه اليه قال النبي صلى الله عليه
وسلم انا اولى بالمؤمنين من انفسهم فمن مات وترك مالا فلورثته ومن ترك دينا او كلا او ضياعا فعلي والي
وهذا خلق من الاخلاق النبوية لا مزيد على حسنه واساليب المكارم باسرها موضوعة في ضمنه ونحن
نرجوا ان نمشي على اثره فننزل منزلة رديفه وان نتشبه به فنبلغ مبلغ مده او نصيفه وقد رأينا الله ذلك
في قوم صحبونا فالمام مساعي الانعام واحدنا بهم صحبة الليالي والايام وكفلنا ابناءهم من بعدهم حتى
وذا اهل القرآن يكونوا اولئك الايتام وان والد عبدنا رحمه الله ممن كان له في خدمة الدولة قدم صدق وولية
سبق وحفظ كتاب الله المحافظة عليها فقيل له في تلاوته اقرأ وارق ثم انهيت التوقيع الى آخره فتأمل مفتتح التوقيع
فانه تضمن نص الخبر من غير تغيير وقد ضمنته بعض خبر آخر من الاخبار النبوية وهو اقرأ وارق فان
النبي صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند
آخر آية تقرؤها وقد مثلت لك هاهنا امثالا تقتدي بها فاحذ حذوها وامض نهجها والله الموفق

النوع الثالث والعشرون في التخلص والاقتضاب

وهذا النوع ايضا كالذي قبله في انه احد الاركان الخمسة التي تقدمت الاشارة اليها في الفصل التاسع

من مقدمة الكتاب وينبغي لك أيها المترشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جل همك فإنه مهم عظيم من مهمات البلاغة أما التخلص فهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببًا إليه فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلامًا آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغًا وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعًا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر وأما الاقتضاب وهو ضد التخلص وذاك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلامًا آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وأما المحدثون فإنهم تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة فمن ذلك قول أبي تمام

يقول في قومس صحبي وقد أخذت منا السرى وخطى المهرية القود
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وهذا البيتان من بديع ما يأتي في هذا الباب ونادره وكذلك قوله أيضًا في وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الأوصاف فقال

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الإمام وهديه المتيسر
في الأرض من عدل الإمام وجوده ومن النبات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض جوده أبدًا على مر الليالي يذكر

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها وكذلك قوله في قصيدته الفائية التي أولها

١٨١

٣٢٠

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا

فقال فيها

عند أحاد وإلى الحسن سنتها فصاغها بيديه روضة أنفا
بصحبي العذول على بانيه كلفًا بعذر من كان مشغوفًا بها كلفا
ودع فؤادك توديع الفراق فما أراه من سفر التوديع منصرفا
يجاهد الشوق طورًا ثم يجذبه جهاده للقوافي في أبي دلفا

وهذا أحسن من الذي قبله وأدخل في باب الصنعة وكذلك قوله

زعمت هواك عفى الغداة كما عفت منها طلول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى أجل وأن أبا الحسين كريم
ما حلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسي على إلف سواك تحوم

وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه ومن البديع في هذا الباب قول أبي نواس من جملة قصيدته المشهورة التي أولها

أجارة بيتينا أبوك غيور

فقال عند الخروج إلى ذكر الممدوح

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الدالية التي أولها

عواذل ذات الخال في حواسد

وأوردُ نفسي والمهندُ في يدي موارد لا يُصدرن من لا يجالدُ

ولكن اذا لم يحمل القلب كفَّه على حالةٍ لم يحمل الكفَّ ساعدُ

خليليَّ ما لي لا أرى غير شاعرٍ فكم منهم الدعوى ومني القصائدُ

فلا تعجبا ان السيوف كثيرةٌ ولكن سيف الدولة اليوم واحدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح في هذه الابيات كأنه أفرغ في قالبٍ واحدٍ ثم ان ابا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيتٍ واحدٍ وهو من ابياته المشهورة وكذلك قوله ايضا وهو من احسن ما اتى به من التخلصات وهو في قصيدته النائية التي اولها

سرب محاسنه حرمت ذواتها

ومطالبٍ فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها

ومقانبٍ بمقانبٍ غادرتها أقوات وحشٍ كنّ من أقواتها

أقبلتها غرر الجياد كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

الثابتين فروسةً كجلودها في ظهرها والطعن في لباتها

وكأنها نتجت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

تلك النفوس الغالبات على العلى والمجد يغلبها على شهواتها

سقيت منابتها التي سقت الورى بيدي أبي أيوب خير نباتها

فانظر الى هذين التخلصين البديعين فالاول خرج به الى مدح قوم الممدوح والثاني خرج به الى نفس الممدوح وكلاهما قد اغرب فيه كل الاغراب وعلى هذا جاء قوله

اذا صلت لم أترك مصالا لفاتكٍ وان قلت لم أترك مقالا لعالمِ

والا فخانتني القوافي وعاقني عن ابن عبيد الله ضعف العزائمِ

والشعراء المتقدمون في هذا الباب وقد تقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالاجادة في ابراز الالفاظ واحسان المعاني كالبحتري فان مكانه من الشعر لا يجهل وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الاطراب وعنقاؤهم في الاغراب ومع هذا فانه لم يوفق في التخلص من الغزل الى المدح بل اقتضبه اقتضابا ولقد حفظت شعره فلم اجد له من ذلك شيئا مرضيا الا اليسير كقوله في قافية الباء من قصيدة

وكفاني اذا الحوادث ألممن شهابا بغرة بن شهاب

وكقوله في قافية الدال من قصيدة

قصدت بحران العراق ركابنا مطالب ارجحها محلة ماجد

الى آل سليمان حدا صاعدا في مطلع حتى تناخ بصاعد

وكقوله في قصيدته التي اولها   حلفت لها بالله يوم التفرق

فانه تشوق فيها الى العراق من الشام ووصف العراق ومنازله ورياضه فاحسن في ذلك كله ثم خرج الى مدح الفتح بن خاقان بأبيات أخذ بعضها برقاب بعض فقال

رباع من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم او فكاكا لموثق

ثم أخذ في مدحه بعد ذلك بضروب من المعاني وكذلك ورد قوله في قصيدته التي اولها

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها   فانه وصف البركة فابدع في اوصافها ثم خرج منها الى مدح الخليفة

المتوكل فقال كأنها حين لجّت في تدفقها يد الخليفة لمّا سال واديها

وأحسن ما وجدته له وهو مما لطف فيه كل اللطف قوله في قصيدته التي يمدح بها ابن بسطام ومطلعها

نصيب عينك من دمع وتسجام فقال عند تخلصه إلى المديح

هل الشباب ملمّ بي فراجعةٌ أيامه لي في أعقاب أيامي

لو أنه نائل عمر تجاد به إذن تطلبته عند ابن بسطام

وهذا من البديع في هذا الباب وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره وقال أبو العلا محمد بن غانم المعروف بالغانمي إن كتاب الله خالٍ من التخلص وهذا القول فاسد لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه وفي القرآن مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم إلى متشابه ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل إلى ذم لشيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها برقاب بعض فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل

لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين هذا كلام يسكر العقول ويسحر الألباب وفيه كفاية لطالب البلاغة فإنه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن ألا ترى ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ثم انحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذي لا تجب العبادة إلا له ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله فإنهم عدو لي على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله في يده وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه ليكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله وأبعث على الاستماع منه ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى وأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ليعلم بذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة وواجب على الخلق الخضوع له والاستكانة لعظمته ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين لأن الطالب من مولاه إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة وأنجح لحصول الطلبة ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله من آمن به واتقاه بالجنة ومن

ضل عن عبادته بالنار ليرجع اليه ويرغب في طاعته ويرهب من معصيته ثم سال المشركين عما كانوا يعبدون
سؤال الزام عند معاينة الجزاء وهو سؤال موبخ لهم مستهزئ بهم وذكر ما يدعون اليه عند ذلك من
الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني العودة ليؤمنوا فانظر ايها المتامل الى هذا الكلام
الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني يتخلص من كل واحد منها الى الآخر
بلطيفة ملائمة حتى كانه افرغ في قالب واحد فخرج من ذكر الاصنام وتقرير ابيه وقومه عن عبادتهم
اياها مع ما هي عليه من التعري عن صفات الالهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع الى ذكر الله
تعالى فوصفه بصفات الالهية فعظم شانه وعدد نعمه ليعلم بذلك ان العبادة لا تصح الا له ثم خرج
من هذا الى دعائه اياه وخضوعه له ثم خرج منه الى ذكر يوم القيمة وثواب الله وعقابه فقد بهر
هذه التخلصات اللطيفة المودعة في اثناء هذا الكلام وفي القرآن مواضع كثيرة من التخلصات كالذي
ورد في سورة الاعراف فانه ذكر فيها قصص الانبياء والامم الخالية من آدم الى نوح عليهما السلام
وكذلك قصة موسى عليه السلام حتى انتهى الى آخرها الذي هو واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا
فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل
بها من تشاء وتهدي من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
وفي الآخرة انا هدنا اليك قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون
ويؤتون الزكاة والذين هم باياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في
التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع
عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه

اولئك هم المفلحون هذا تخلص من التخلصات الحسان فان الله تعالى ذكر الانبياء والقرون الماضية الى
عهد موسى عليه السلام فلما اراد ذكر نبينا صلوات الله عليه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض لا
انه قال موسى عليه السلام واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة فاجيب بقوله تعالى عذابي اصيب به
من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين من حالهم كذا وكذا ومن صفتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون
الرسول النبي الامي ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته الى آخر الكلام وبالله العجب كيف يزعم الغانمي
ان القرآن خال من التخلص الم تكفه سورة يوسف عليه السلام فانها قصة برأسها وهي متضمنة شرح
حاله مع اخوته من اول امره الى آخره وفيما عداه تخلصات في الخروج من معنى الى معنى وكذلك الى آخرها
ولو اخذت في ذكر ما ورد في القرآن من هذا النوع لاطلت ومن انعم نظره فيه وجد من ذلك اشيا كثيرة
وقد جاني من التخلصات في الكلام المنثور اشيا كثيرة وسأذكر هاهنا نبذة يسيرة منها فمن ذلك
ما اوردته في كتاب الى بعض الاخوان اصف فيه الربيع ثم خرجت من ذلك الى ذكر الاشواق فقلت وكما
ان هذه الاوصاف في شانها بديعة فكذلك الشوق في شانه بديع غير انه اخو فصل مصيف وهذا
فصل ربيع فانا اميل الى احاديثه العجيبة على النوى وقد عرفت حديث من قبله الشوق فلا استقصي حديث
من قبله الهوى ومن هذا الاسلوب ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان ايضا وارسلته اليه من بلاد
الروم وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ثم خرجت من ذلك الى ذكر الاشواق فقلت
وما اشكوه من بردها ان الفرو لا يلبس بها الا في شهر ناجر وهو قائم مقام الظل الذي يستتر به
من لفح الهواجر ولفرط شدته لم اجد ما خففه فضلا عما يذهبه فان النار المعدة له تنطفي من
الدفء بعضا ما الطلبه لكن وجدت نار اشواقي اشد حرا فاصطليت بجمرها التي لا تذكى بزناد ولا توول

الى رماد ولا يدفع البرد الوارد على الجسد باشد من حر الفؤاد غير اني كنت في ذلك كمن سد تحت
حله واستشفى من علة بعلة   وافعل ما اعلك ما اشفاه   فالطفك من يطفي نار الاشواق
وقد منع من لحيته بالاوراق ممن عليه بالاوراق ومما انتظم في هذا العقد ما ذكرته في مفتتح كتاب يتضمن
عناية بعض المتطلبين فاستطردت فيه المعنى الى ذكر المكتوب اليه وهو هذا يا المكارم انفس من حلى ا
الاموال وابقى على تعاقب الايام والليالي وقد حل هذا الجانب منها هدية تورث حمدا وتكسب مجدا
ومع جني ثوابا وخير مردا ولا يسوقها الا نجبة طبعت على الكرم وخلقت من عنصر الديم كسجية مولانا
اعلاه الله علوا تفخر به الارض على السماء وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء ولا زالت اياديه مخجلة
صوب الغمام معدية على نوب الايام مغنية بشرف فضلها عن شرف الاخوال والاعمام وتلك الحديثة
هي تجديد الشفاعة في امر فلان ومن اثمان البر سعيه في حاجة اخيه وان لم يمسسه شي من اسباب
اواخيه فان المؤمنين اخوة وان تباينت مناسبهم وتفاوتت مراتبهم ومن صفتهم ان يسعى بذمتهم ادناهم
وخيرهم من عناه من الامر ما عناهم ثم مضيت على هذا النهج الى اخر الكتاب ومن ذلك ما كتبته من
كتاب الى صديق استحدثت مودته وهو من اهل العراق وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سار عني
فكتبت اليه استهديه رطبا فقلت هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي برت كلمه رقة الاوراق
وسجع سجع ذوات الاطواق وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق وابرح الشوق
ما كان فراق غير بعيد وود استجدت خلته واللذة مقترنة بكل شي جديد وارجو ان لا تبلي قدم
الايام لهذه الجدة لباسا وان يعاذ من نظر الجن والانس حتى لا تخشى جنة ولا ناسا وقد قيل ان
للمودات لعا ما ان لها وسما وان ذا اللب الصادق نفسا نفيل ان تصادق جسما واني لاجد لمودة سيدنا

حلاوه

حلاوة يستلذ دوامها ولا تمل استطعامها وقد اذكرتني الان بحلاوة الرطب الذي هو من ارضها وهي
عجيب لمناسبة الاشياء ان يذكر بعضها ببعض الا ان هذه الحلاوة تنال بالافواه وتلك تنال بالاسرار
وفرق بين ما تغترس في الارض وما تغترس بالقلب في شرف الثمار فلا اسطر سيدنا على في هذا التمثيل
ولربما كان ذلك تعريضا بنوب مناب التطفيل وهذا من التخلصات البديعة فانظر ايها المتامل كيف
سيقت الكلام الى استهداء الرطب وجعلت بعضه اخذا برقاب بعض حتى كانه افرغ في قالب واحد وكذلك
فليكن التخلص من معنى الى معنى وهذا القدر من الامثلة كاف للمتعلم ومما استطرف من هذا النوع في
الشعر قول ابن الزمكدم الموصلي

وليل كوجه البرقعيدي مظلم وبرد اغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه
على اولق فيه التفات كانه ابو جابر في خبطه وجنونه
الى ان بدا وجه الصباح كانه سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وهذه الابيات لها حكاية وذاك ان هذا الممدوح هو شرف الدولة قرواش ملك العرب وكان صاحب
الموصل فاتفق انه كان جالسا مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر
وكان البرقعيدي مغنيا وسليمان بن فهد وزيرا وابو جابر حاجبا فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر ان
يهجو هؤلاء المذكورين ويمدحه فانشده هذه الابيات ارتجالا وهي غريبة في بابها لم يسمع بمثلها
ولم يرض قائلها بصناعة التخلص حتى ادرجها في معانيه المقصودة الى اعلى منزلة فابتدأ البيت الاول
بهجو البرقعيدي فجاء متضمنا مراده ذكر اوصاف ليل الشتاء جميعها وهي الظلمة والبرد والطول

جانب

ثم ان بهذه الاوصاف الثلاثة ملايمة لما شبهت به مطابقة له وكذلك البيت الثاني والثالث ثم خروج المليح بالطف وجه وادق صنعة وهذا يسمى الاستطراد وما سمعت في هذا الباب باحسن من هذه الابيات ومما يجري على هذا الاسلوب ما ورد لابن الحجاج البغدادي وهي ابيات لطيفة جدا فقال

ألا يا ماء دجلة لست تدري بأني حاسد لك طول عمري

ولو أني استطعت سكرت سكرا عليك فلم تكن يا ماء تجري

فقال الماء هذا عجيب مما استوحيته يا ليت شعري

فقلت له لانك كل يوم تمر على ابي الحسن بن بشر

تراه ولا اراه وذاك شي يضيق عن احتمالك فيه صبري

وما علمت معنى في هذا المقصد الطف ولا ارق ولا اعذب ولا احلا من هذا اللفظ ويكفي ابن الحجاج من الفضيلة ان يكون له مثل هذه الابيات ولا يظن ان هذا شي انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة وفات من تقدمهم من العرب لما عندهم من تشقف العيش وغلظ الطبع بل قد سبق اوليك الى هذا الاسلوب وان اقلوا منه واكثر منه المحدثون واي حسن من محاسن البلاغة والفصاحة لم يسبقوا اليه وكانوا هم اهله ومنهم علم وعنهم اخذ فمن ذلك ما جا للفرزدق

وركب كان الريح تطلب عندهم لها تره من جذبها بالعصايب

سروا يخبطون الليل وهي تلفهم الى شعب الاكوار من كل جانب

اذا انسوا نارا يقولون ليتها وقد خصرت ايديهم نار غالب

فانظر الى هذا الاستطراد ما الطفه واحسنه واعلم انه قد يقصد الشاعر التخلص فياتي به قبيحا كما فعل ابو الطيب

في قصيدته التي اولها ملث القطر اعطشها ربوعا فقال عند الخروج من الغزل الى المديح

غدا لك كل حلو منك ماء واصبح كل مستور خليعا

احبك او يقولوا جر نمل ثبيرا وابن ابرهيم ريعا

فهذا التخلص كما تراه بارد ليس عليه من مسحة الجمال شي وها هنا يكون الاقتضاب احسن من التخلص فينبغي لسالك هذه الطريق ان ينظر الى ما يصوغه فان واتاه التخلص حسنا كما ينبغي والا فليدعه ولا يستكرهه حتى ياتي هكذا كما فعل ابو الطيب ولهذا نظاير واشباه وقد استعمل ذلك في موضع اخر في قصيدته التي اولها احيا وايسر ما لاقيت ما قتلا فقال

عل الامير يرى ذلي فيشفع لي الى التي تركتني في الهوى مثلا

والاضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره وما الفاه في هذه الهوة الا ابو نواس فانه قال

ساشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا

على ان ابا نواس اخذ ذلك من قيس بن ذريح لكنه افسده ولم ياتِ به كما اتى به قيس ولذلك حكاية وهو انه لما هام بلبنى في كل واد وجن بها رق له الناس ورحموه فسعى له ابن ابي عتيق الى ان طلقها من زوجها واعاد

ها

الى قيس فزوجها اياه فقال عند ذلك

جزى الرحمن افضل ما يجازي على الاحسان خيرا من صديق

وقد جربت اخواني جميعا فما الفيت كابن ابي عتيق

سعى في جمع شملي بعد صدع ورأي حرت فيه عن طريقي

واطفا لوعة كانت بقلبي اغصتني حرارتها بريقي

وبين هذا الكلام وبين كلام أبي نواس بون بعيد وقد حكي عن ابن أبي عتيق أنه قال يا حبيبي أمسك عن هذا المديح فما سمعه أحد إلا ظنني مواداً وأما الاقتضاب فهو الذي أشرنا إليه في صدر هذا النوع وهو وهو قطع الكلام واستينافاً في كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه فمن ذلك ما يقرب من التخلص وهو فصل الخطاب والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعد لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شان بذكر الله وتحميده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أما بعد ومن الفصل الذي أحسن من الوصل لفظة هذا وهي علاقة كيدة بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره كقوله تعالى واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ألا ترى إلى ما ذكر قبل هذا ذكر من ذكر الأنبياء عليهم السلام وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها فقال هذا ذكر ثم قال وإن للمتقين لحسن مآب ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وإن للطاغين لشر مآب وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعاً من التخلص وقد وردت لفظة هذا في الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور فمن ذلك قول الشاعر المعروف بالخباز البلدي من قصيدة أولها   العيش غض والزمان غرير

لعله علاقة اكيدة

إني ليعجبني الزمان بحرة ويروق لي بالحاشرتين زبير

وأكاد من فرح السرور إذا بدا ضوء الصباح من السرور أطير

وإذا رأيت الجو في فضة للغيم في جنباتها تكسير

منقوشة صدر البزاة كأنه فيه وزرج قد زانه بلور

نادت

نادت بي اللذات ويحك فانتهز فرص المنى يا أيها المغرور

مل بي إلى الجور السقاة فإنني أهوى سقاة الكاس حين تجور

هذا وكم لي بالجنينة سكرة أنا من بقايا شربها مخمور

باكرتها وغصونها مغرورة والماء بين مروجها مذعور

في فتية أنا والنديم وقينة والكاس والمزمار والطنبور

وهذه الأبيات حسنة وخروجها من شدو هذا الرجل الخباز عجب ولو جاءت في شعر أبي نواس لزانت ديوانه والاقتضاب الوارد في الشعر كثير لا يحصى والتخلص بالنسبة إليه قطرة من بحر ولا يكاد يوجد التخلص في شعر الشاعر المجيد إلا قليلاً بالنسبة إلى المقتضب من شعره فمن الاقتضاب قول أبي نواس في قصيدته النونية التي أولها   يا كثير النوح في الدمن   وهذه القصيدة هي عين شعره والملاحة للعيون وهي تنزل منه منزلة الألف لا منزلة النون إلا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضاباً كأنبياً هو يصف الخمر فقال

فاسقني كأساً على عذل كرهت مسموعه أذني

من كميت اللون صافية خير ما سلسلت في بدني

ما استقرت في فؤاد فتى فدري ما لوعة الحزن   حتى قال

تضحك الدنيا إلى ملك قام بالآثار والسنن

سن للناس الندى فندوا فكأن البخل لم يكن

وأكثر مدائح أبي نواس مقتضبة هكذا والتخلص عنه ممكن في كل الأحوال وهو من مستصعبات علم

البيان ومن هذا الباب الذي نحن بصدد ذكره قول البحتري في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح
بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأسد وقتله اياه وأولها   أجدك ما ينفك يسري لزينبا   وهي من
أمهات شعره ومع هذا فلم يوفق فيها التخلص من الغزل الى المديح فانه بينما هو في غزله وهو يقول

عهدتك إن منيت منيت موعدا ... جهاما وإن أبرقت أبرقت خلبا

وكنت أرى أن الصدود الذي مضى ... دلال فما إن كان إلا تجنبا

فوا أسفا حتام أسأل مانعا ... وآمن خوانا وأعتب مذنبا   حتى قال اثر ذلك

أقول لركب معتفين تدرعوا ... على عجل قطعا من الليل غيهبا

ردوا نائل الفتح بن خاقان انه ... أعم ندى فيكم وأيسر مطلبا

فخرج الى المديح بغير وصلة ولا سبب وكذلك قوله في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح
بن خاقان أيضا وذكر نجاته عند انخساف الجسر به وقد أغرب فيها كل الإغراب وأحسن كل الإحسان وأولها

متى لاح برق أو بدا طلل قفر   فبينا هو في غزلها حتى قال

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدا ... اذا بقي الفتح بن خاقان والقطر

فخرج الى المديح مقتضبا له لا متعلقا به وأمثال هذا في شعره كثيرة

النوع الرابع والعشرون في التناسب بين المعاني

الى ثلثة اقسام

القسم الأول في المطابقة وهذا النوع يسمى البديع أيضا وهو في المعاني ضد التجنيس في الألفاظ
لأن التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين وقد أجمع أرباب

هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده كالسواد والبياض
والليل والنهار وخالفهم في ذلك قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة إيراد لفظين متساويين في البناء
والصيغة مختلفين في المعنى وهذا الذي ذكره هو التجنيس بعينه غير أن الأسماء لا مشاحة فيها إلا إذا
كانت مشتقة ولنظر نحن في ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة في وضع اللغة وقد وجدنا المطابق
في اللغة من قولهم طابق البعير في سيره إذا وضع رجله موضع يده وهذا يؤيد ما ذكره قدامة لأن اليد غير
الرجل لا ضدها والموضع الذي يقعان فيه واحد وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما
واحد فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سمي به وذلك مناسب وواقع
في موقعه إلا أنه جعل للتجنيس اسما آخر وهو المطابقة ولا بأس به إلا إن كان مثله بالضدين كالسواد
والبياض فإنه يكون قد خالف الأصل الذي أصله بالمثال الذي مثله وأما غيره من أرباب هذه الصناعة
فكأنهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقا لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه هذا الظاهر
لنا من هذا القول إلا أن يكون قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن ولنرجع الى ذكر هذا القسم
من التأليف وإيضاح حقيقته فنقول الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة لأنه لا يخلو
فيه من وجهين إما أن يقابل الشيء ضده أو يقابل ما ليس بضده وليس لنا وجه ثالث فأما الأول وهو
مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فإنه ينقسم قسمين أحدهما مقابلة في اللفظ
والمعنى والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ أما المقابلة في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى فليضحكوا
قليلا وليبكوا كثيرا فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير وكذلك قوله تعالى لكيلا تأسوا
على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم خير المال عين ساهرة لعين نائمة ومن الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف قول علي صلوات
الله عليه لعثمان رضي الله عنه إن الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء وأنت رجل إن صدقت سخطت
وإن كذبت رضيت فقابل الحق بالباطل والثقيل المريء بالخفيف الوبي والصدق بالكذب والسخط بالرضى
وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار وكذلك ورد قوله صلوات الله عليه لما قال الخوارج لا حكم
إلا لله فقال هذه كلمة حق أريد بها باطل وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله
عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله فقال له ما اسمك فقال سعيد بن جبير قال بل أنت شقي بن كسير
وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين وفي كلامه هذا مطابقة حسنة فإنه نقل الاسمين إلى ضدهما فقال
في سعيد شقي وفي جبير كسير وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات
ومما وجدته في لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره حركنا بسكونه ولكتاب الفصول
لأبقراط في الطب قوله العمر قصير والصناعة طويلة وهذا الكتاب على لغة اليونان ومن كلامي في هذا
الباب ما كتبته في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان وهو صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر
وصبر ملم وجزع غادر وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان
أيضا فقلت صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه وطرف مستوحش لفراقه فهذا مودع بكآبة ظلامه
وهذا ممتع ببهجة إشراقه غير أن لقاء القلوب لقاء غيب تتلقه خواطر الأفكار وتتناجى به من وراء الأستار
وذلك أخو الطيف الملم في المنام الذي يموه بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام ومن هذا النوع ما ذكرته
في كتاب أصف فيه المسير من دمشق إلى الموصل على طريق المناظر فقلت من جملته ثم نزلنا أرض الخابور
فعرتنا الأرواح وشرقت الجسوم وحصل الإعدام من المسار والإثراء من الهموم فطالبتني النفس

بالعود

بالعود والقدرة مفلسة وأوت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب إلى
بعض الإخوان وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب فقلت وهم مسؤولون أن لا ينسوني في نادي
فضلهم الذي هو منبع الأمالي وملتقط اللآلي فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدي الأقلام المسودة وقلت معانيه
مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة والواغل إليه يسكر من خمرته التي تنبه العقول من إغفائها ولا تشربها
أحد غير أكفائها وهذه الفصول المذكورة لا خفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة ومما ورد من هذا
النوع شعرا قول جرير وأعور من نبهان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصير
وهكذا ورد قول الفرزدق

قبح الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

فقابل بين الغدر والوفاء وبين التيقظ والنوم وفي البيت الأول معنى يسأل عنه وكذلك ورد قول بعضهم

ولا الجود يفني المال والجد مقبل ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

وقد أكثر أبو تمام من هذا في شعره فأحسن في موضع وأساء في موضع فمن إحسانه قوله

ما إن ترى الأحساب بيضا وضحا إلا بحيث ترى المنايا سودا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا

شرف على أولى الزمان وإنما خلق المناسب ما يكون جديدا

وعلى هذا النهج ورد قوله إذا كانت النعمى سلوبا من امرئ غدت من خليج الكف وهي منبع
فإن نهبت بيض الليالي وسودها بوحدته ألفيتها وهي مجمع

ويوم يظل العز يحفظ وسطه بسمر العوالي والنفوس تضيع
مصيف من الهيجا ومن جاحم الوغى ولكنه من وابل الدم مربع

ومن هذا الاسلوب قوله ايضا

تقرب الشعد القصوى اذا اخذت بسلاحها وهو الارقال والرمل
اذا طلبت من ارض وصلت بها كانت هي العز الا انها ذلل
المرضياتك ما ارغمت آنفها والهادياتك وهي الشرد الضلل
ويا ضمرة الصبح حين اسكرت طالع المرط والدرع البدي
تشكى الاين من نصف سريع اذا قامت ومن ضعف بطي

وعلى هذا النحو ورد قوله وقد جا لابي [illegible] شي من ذلك فقال

اقلني قد ندمت على الذنوب وبالاقرار عذت من الجحود
انا استوهبت عفوك من قريب كما استعفيت سخطك من بعيد

فقابل بين الاضداد من الجحود والاقرار والعفو والسخط والقرب والبعد وعلى نحو من ذلك ورد قول علي بن جبلة في ابي دلف العجلي وهو

مبذل الوفر مصون الحرم — تجري يداه بالنوال والدم
وان عدا في المارق العرمرم — ضمن اطراف القنا المقوم
ام المصير ونكاح الايم — يوماك يوم البوس والانعم
وجمع مجد وندى منقسم

وكذلك قوله ايضا

هو الامل المبسوط والاجل الذي يمر على ايامه الدهر او يحلو

ولا تحسن الايام تفعل فعله وان كان في تصريفها النقص والفضل
بعيش واحد اما الثرى فمسلم مباح واما الجار فهو حمى بسل

ومما جا من هذا القسم قول البحتري

احسن ثوابك عن ثغر مضايع اخشنت نحوه البلا
كان مستضعفا فعز ومحروما فاجدى ومظلما فاضا

ومن حسن ما ورد له في هذا الباب قوله

اشكو اليك اناملا ما تطوي بخلا واخلاقا نقصتها البدد
ارضيهم قولا ولا يرضونني فعلا وتلك قضية لا تنعقد
فاذم منهم ما ابذم وربما سامحتهم فحمدت ما لا يحمد

وعلى هذا النهج ورد قوله ايضا

ويتوقعي منك الاساة جاهدا والعدل ان تتوقع الاحسانا
وكما يسرك لين مسي راضيا فكذاك فاخش خشونتي غضبانا

واما ابو الطيب المتنبي فانه استعمل هذا النوع قليلا في شعره فمن ذلك قوله

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا

وكذلك قوله الى رب مال كلما شت شمله تجمع في تشتيته للعلى شمل

ومما استغربته من قوله في هذا الباب

كان سهاد الليل يعشق مقلتي فبينهما في كل هجر لنا وصل

ومما جاء من هذا القسم قول بعضهم

لما اعتنقنا للوداع وأعربت عبراتنا عنا بدمع ناطق

فرّقن بين محاجر ومحاجر وجمعن بين بنفسج وشقائق

وهذا الجنس معنى يسأل عنه غير المقابلة وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة لأن من العادة أن يشبه العارض بالبنفسج وهذا قول غير سائغ لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره فإذا طرّ وظهرت خضرته في ابتداء سن الشباب شبه بالبنفسج لأنه يكون بين الأخضر والأسود وليس في الشعر ما يدل على أن المودع كان شابا قد طر عارضه والذي يقتضيه المعنى أن المرأة لما قامت للوداع نزعت خمارها ولطمت خدها فجمعت بين أثر اللطم وهو شبيه بالبنفسج وبين لون الخد وهو شبيه بالشقائق وفرقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق وهي موجدة على الوداع هذا هو معنى البيت لا ما ذهب إليه هذا الرجل وأما المقابلة في المعنى دون اللفظ في الأضداد فمما جاء منه قول المقنع الكندي من شعر الحماسة

لهم جل مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا

فقوله تتابع لي غنى معنى وقوله قل مالي فهو إذا مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هي في المفردات من الألفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر فإن القيام ضد القعود والحل ضد العقد والقليل ضد الكثير فإذا ترك المفرد من الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ كقول هذا الشاعر تتابع لي غنى معنى كثر مالي فصار مقابلة معنوية لا لفظية فاعرف ذلك وأما مقابلة الشيء بما ليس بضده فهو ضربان

احدهما

أحدهما أن لا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين الأول ما كان بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقارب كقول قريط بن أنيف

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فقابل الظلم بالمغفرة وليس ضدا لها وإنما هو العدل إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وعلى هذا جاء قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم فإن الرحمة ليست ضد الشدة وإنما ضد الشدة اللين إلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة وكذلك ورد قوله تعالى إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل فإن المصيبة سيئة لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص الفرع الثاني ما كان بين المقابل والمقابل بعد وذلك مما لا يحسن استعماله كقول أم النحيف وهو سعد بن قرط وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمها فيها

تربص بها الأيام علّ صروفها سترمي بها في جاحم متسعر

فكم من كريم قد مناه إلهه بمذمومة الأخلاق واسعة الحر

فقولها بمذمومة الأخلاق واسعة من المقابلة البعيدة بل الأولى أن كانت قالت بضيقة الأخلاق واسعة الحر حتى تصح المقابلة وهذا مما يدل على أن العربي غير مهتد إلى استعمال ذلك بصنعة وإنما يجيء له منه ما يجيء بطبعه لا بتكلفه وإذا أخطأ فإنه لا يعلم الخطأ ولا يشعر به والدليل على ذلك أنه لو أبدل لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة وإنما يعذر من يعذر في ترك المقابلة في مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه وأما المحدثون من الشعراء فإنهم أعنوا بذلك

اما باعتبار الشرع والدين فكل سيئة [illegible] مصيبة وليس كل مصيبة سيئة

خلاف ما كانت العرب عليه لا جرم انهم اشد ملامة من العرب فمن ذلك قول ابي الطيب المتنبي

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها سرور محب او مساءة مجرم

متوسطة ايضا حتى تقرب الحال فيها وانما هي بعيدة فانه ليس كل من اجرم اليك كان مبغضا لك ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى المواخاة من المعاني والمواخاة بين المباني وكان ينبغي ان يعقد له بابا مفردا لكنا رايناه ينظر الى التقابل من وجه فوصلناه به اما المواخاة بين المعاني فهو ان يذكر المعنى مع اخيه لا مع الاجنبي منه مثاله ان تذكر وصفا من الاوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وان كان جائزا فمن ذلك قول الكميت

ام هل ظعاين بالعلياء رافعة وان تكامل فيها الدل والشنب

فان الدل يذكر مع الغنج وما اشبهه والشنب يذكر مع اللعس وما اشبهه وهذا موضع يغلط فيه ارباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط لانه يحتاج الى ثاقب فكرة وصدق ذكاء بحيث توضع المعاني مع اخواتها لا مع الاجنبي منها وقرات في كتاب الاغاني لابي الفرج انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فانشد الكميت ام هل ظعاين البيت فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصي قال خطاك فانك تباعدت في القول اين الدل من الشنب الا قلت كما قال ذو الرمة

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي انيابها شنب

ورايت ابا نواس يقع في ذلك كثيرا كقوله في وصف الديك

له اعتدال وانتصاب قد وجلده تشبه وشي البرد

كانما الهداب في الفرند محدودب الظهر كريم الجد

فانه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد وهذا لا يناسب هذا لان الظهر من خلق الخلق والجد من النسب وكان ينبغي ان يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه كالصدر والعنق وما جرى مجراهما وكذلك يذكر مع الجد ما يقرب منه ويواخيه ايضا وكذلك اخطا ابو نواس في قوله

وقد حلفت يمينا مبرورة لا تكذب

برب زمزم والحوض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب وانما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراهما واما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما جرى مجراهما وعلى هذا الاسلوب ورد قوله ايضا

احسن من منزل بذي قار منزل خمارة بحمار

وشم ريحانة ونرجسة احسن من اينق باكوار

فالبيت الثاني لا مقاربة بين صدره وعجزه وانما شم الريحان من الاينق بالاكوار كان ينبغي له ان يقول شم الريحان احسن من شم الشيح والقيصوم وركوب القناة الرود احسن من ركوب الاينق بالاكوار وكل هذا لا يتفطن لوضعه في مواضعه في كل الاوقات وقد كان يغلب علي السهو في بعض الاحوال حتى اسلك هذه الطريق في وضع المعاني مع غير اشباهها واقاربها ثم اني كنت اتامل ما صنعته من ذلك بعد حين فاصلح ما سهوت عنه واما المواخاة بين المباني فانه يتعلق بمثاني الالفاظ فمن ذلك قول ابي تمام في وصف الرماح

مثقفات سلبن العرب سمرتها والروم زرقتها والعاشق القضفا

وهذا البيت من ابيات ابي تمام الافراد غير ان فيه نظرا وهو قوله العرب والروم ثم قال العاشق

ولو وضع له ان يقول العشاق لكان احسن اذ كانت الاوصاف تجري على نهج واحد وكذلك قوله سمرتها
وزرقتها ثم قال القضفا وكان ينبغي ان يقول قضفها او دقتها وعلى هذا ورد قول مسلم بن الوليد

نقضت بك الاحلاس نقض اقامة واسترجعت نزاعها الامصار
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة اثنى عليها السهل والاوعار

والاحسن ان يقال السهل والوعر او السهول والاوعار لتكون اللفظتان واردتين
على صيغة الجمع والا يكون احدهما مجموعا والاخر مفردا وكذلك ورد قول ابي نواس في وصف الخمر

صفراء مجدها مرازبها جلت عن النظراء والمثل

فجمع وافرد في معنى واحد وهو انه قال النظراء مجموعا ثم قال المثل مفردا وكان الاحسن ان يقول
النظير والمثل او النظراء والامثال وعلى ذلك ورد قوله ايضا والانكار متوجه فيه اكثر من الاول وهو

الا يا ابن الذين فنوا وماتوا اما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها مقام اذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الانكار هاهنا انه قال آجالا ورزقا وكان ينبغي ان يقول ارزاقا او ان يقول اجلا ورزقا وقد
زاده انكارا انه جمع الاجل فقال آجالا والانسان ليس له الا اجل واحد ولو قال اجلا وارزاقا لما عيب
لان الاجل واحد والارزاق كثيرة لاختلاف ضروبها واجناسها واذا انصفنا في هذا الموضع وجدنا
الناثر مطالبا به دون الناظم لمكان اضطراره من الشعر وقد كنت ارى هذا الضرب من الكلام
واجبا في الاستعمال فانه لا يحسن الحيد عنه حتى مر بي في القرآن ما خالفه كقوله تعالى في سورة
النحل ألم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون

فافرد

فافرد وجمع في قوله اليمين والشمائل ولو كان الاحسن في لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين
كما جمع الشمائل او افرد الشمال كما افرد اليمين وكذلك ورد قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم
وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون فجمع القلوب والابصار وافرد السمع وكذلك ورد قوله
تعالى حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم فذكر السمع بلفظ الافراد وذكر
الابصار والجلود بلفظ الجمع وفي القرآن الكريم مواضع هكذا ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال
لورد في كلام الله تعالى الذي هو افصح من كل كلام والاخذ في مقام الفصاحة والبلاغة انما يكون
منه والمعول عليه ومما ينبغي ان يقاس على هذا قوله تعالى وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما
بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين وربما قيل ان هذه الآية اشتملت على
تثنية وجمع وافراد وظن انها من هذا الباب وليس كذلك لانها مشتملة على خطاب موسى وهارون عليهما
السلام اولا في اتخاذ المساجد لقومهما ثم ثنى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ثم افرد موسى عليه السلام
ببشارة المؤمنين لانه صاحب الرسالة الضرب الثاني في مقابلة الشيء بمثله وهو يتفرع الى فرعين
احدهما مقابلة المفرد بالمفرد والاخر مقابلة الجملة بالجملة الفرع الاول كقوله تعالى نسوا الله فنسيهم
وكقوله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وقد روعي هذا الموضع في القرآن الكريم كثيرا حتى انه ورد في
عدة آية من الآيات ما يحتاج الى الجواب كان جوابه مماثلا له كقوله تعالى من كفر فعليه كفره وكقوله
تعالى جزاء سيئة سيئة مثلها وهذا هو الاحسن ما ورد في كتاب الله تعالى وعليه مدار الاستعمال
وهذا الحكم يجري في النظم والنثر من الاسجاع والابيات الشعرية فاما ان كان ذلك بغير جواب فانه لا يلزم
فيه هذه المراعاة اللفظية الا ترى انه قد تقوبلت الكلمة بكلمة في معناها وان لم تكن مساوية لها

[illegible]

في اللفظ وهذا يقع في الالفاظ المترادفة وانما يستعمل ذلك في الموضع الذي ترد فيه الكلمة في جواب
لما جاء منه قوله تعالى ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون ولو كان لا تورد الكلمة الا مثلا
لقيل وهو اعلم بما يعملون وكذلك ورد قوله تعالى وهل اتاك نبا الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا
على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فقال لا تخف بعد قوله ففزع ولما كان
هذا في معنى هذا قوبل احدهما بالاخر ولم يقابل اللفظ بنفسه وكذلك جا قوله تعالى ولئن سالتهم
ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل ابالله واياته ورسوله كنتم تستهزءون فذكر الاستهزا الذي هو في
معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال ابالله
واياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون فان قيل انك قد امتحنت القران الكريم فيما ذكرته ونرى قد
ورد في القران ما ينقضه كقوله تعالى والذين كسبوا السيات جزا سيئة بمثلها ولم يقل سيئة مثلها
الجواب عن ذلك اني اقول اردت ان تنقض علي ما ذكرته فلم تنقضه ولكن شيدته والذي
ذكرته دليل لي لا لك الا ترى انه لا فرق بين قوله تعالى جزا سيئة بمثلها وبين قوله جزا سيئة سيئة
مثلها اذ المعنى واحد لا يختلف ولو جا عوضا عن السيئة لفظة اخرى في معناها كالاذى والشر
وما جرى مجراها لتم لك ما ذهبت اليه وقد ذهب بعض المتصدرين في علم البيان انه اذا ذكرت
اللفظة في اول الكلام يحتاج الى تمام وان لم يكن جوابا كالذي تقدم فينبغي ان تعاد بعينها في اخره ومتى
عدل عن ذلك كان معيبا ثم مثل ذلك بقول ابي تمام وقول ابي الطيب المتنبي فقال ان ابا تمام اخطا
في قوله   بسط الرجا لنا برغم نوائب كثرت بهن مصارع الامال
حيث ذكر الرجا في صدر البيت فكان ينبغي ان يعيد ذكره ايضا في عجزه او كان يذكر الامال في صدر

البيت وعجزه وكذلك اخطا ابو الطيب المتنبي في قوله
اني لاعلم واللبيب خبير ان الحياة وان حرصت غرور
فانه قال اني لاعلم واللبيب خبير وكان ينبغي ان يقول واللبيب عليم ليكون ذلك تقابلا صحيحا وهذا الذي
ذهب اليه هذا الرجل ليس بشي بل المعتمد عليه في هذا الباب انه اذا كانت اللفظة في معنى اختها جاز استعمالها
في المقابلة بينهما والدليل على ذلك ما قدمناه من ايات القران الكريم وكفى به دليلا وهذه الرموز
التي هي اسرار الكلام لا تنفطن لاستعمالها الا احد رجلين اما فقيه في علم البيان قد مارسه ودارسه
واما مشغوف اللسان بدخلق عارفا لطائفها مستغنيا عن مطالعة صحائفها وهذا لا يكون الا عن
الفطرة يقول ما يقوله طبعا على انه لا يستمر في جميع اقواله ما لم تكن معرفته الفطرية ممزوجة
بمعرفته العرفية الفرع الثاني في مقابلة الجملة بالجملة اعلم انه اذا كانت الجملة من الكلام
مستقبلة قوبلت بمستقبلة وان كانت ماضية قوبلت بماضية وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة والمستقبلة
بالماضية اذا كانت احداهما في معنى الاخرى فمن ذلك قوله تعالى قل ان ضللت فانما اضل على نفسي وان
اهتديت فبما يوحي الي ربي فان هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وان
اهتديت فانما اهتدي لها وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو ان النفس كل ما عليها فهو بها
اعني ان كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسو وكل ما هو لها مما
ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها وهذا حكم عام لكل مكلف وانما امر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان يسند ذلك الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره
اولى به ومن هذا الضرب قوله تعالى الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا انه لم يراع

التقابل في قوله لتسكنوا فيه ومبصرا لان القياس يقتضي ان يكون والنهار لتبصروا فيه وانما هو مراعى من جهة
المعنى لا من جهة اللفظ وهذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرق التقلب في
الحاجات واعلم ان في تقابل المعاني بابا عجيبا لامر يحتاج الى فضل تامل وزيادة نظر وهو يختص بالفواصل
من الكلام المنثور وبالاعجاز من الابيات الشعرية فمما جاء من ذلك قوله تعالى في ذم المنافقين واذا قيل لهم
لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وقوله تعالى واذا قيل
لهم امنوا كما امن الناس قالوا انؤمن كما امن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون الا ترى كيف فصل
الاية الاخرة بيعلمون والاية التي قبلها بيشعرون وانما فعل ذلك لان امر الديانة والوقوف على ان المؤمنين
على الحق وهو على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك واما النفاق
وما فيه من البغي المؤدي الى الفتنة والفساد في الارض فامر دنيوي مبني على العادات معلوم عند
الناس خصوصا عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال
فيه يشعرون وايضا فانه لما ذكر السفه في الاية الاخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه احسن طباقا
فقال لا يعلمون وايات القران جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض
مخضرة ان الله لطيف خبير وكقوله له ما في السموات وما في الارض ان الله هو الغني الحميد وكقوله الم تر
ان الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بامره ويمسك السما ان تقع على الارض الا باذنه ان الله
بالناس لرءوف رحيم فانه انما فصلت الاية الاولى بلطيف خبير لان ذلك في موضع الرحمة لخلقه بانزال
الغيث وغيره واما الاية الثانية فانما فصلت بغني حميد لانه قال له ما في السموات وما في
الارض يعرف الناس بان جميع ما في السموات والارض له لا لحاجة بل هو غني عنها جواد بها

لعله لان ليس كل غني جوادا

لان ليس كل غني فاستحق عليه الحمد فذكر الحميد ليدل على انه الغني النافع بغناه خلقه واما الاية الثالثة
فانها فصلت برءوف رحيم لانه لما عدد للناس ما انعم به عليهم من تسخير ما في الارض لهم واجرا الفلك في
البحر بهم وتسييرهم في ذلك الهول العظيم وخلقه السما فوقهم وامساكه اياها على الوقوع حسن ان يفصل
ذلك بقوله رءوف رحيم اي ان هذا الفعل فعل رءوف بكم رحيم واعلم ايها المتامل لكتابنا هذا انه قل ما
توجد هذه الملاومة والمناسبة في كلام ناظم او ناثر ومن الايات ما تشكل فاصلته فتحتاج الى فكر في
وتامل كقوله تعالى والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهدا الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات
بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرا عنها ان تشهد اربع
شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله
عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم وانه قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع تواب رحيم ويظن الظان
ان هذا كذلك ويقول ان التوبة مع الرحمة لا مع الحكمة وليس الامر كما يظن بل الفاصلة ها هنا تواب حكيم
اولى من تواب رحيم لان الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التي امر بها واراد بذلك ستر هذه
الفاحشة على عباده وذلك حكمة منه ففصلت الاية الواردة في اخر الايات بتواب حكيم فجمع فيها
بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية وبين الحكمة في سترها على تلك الصورة وهذا الباب ليس في علم
البيان اكثر نفعا منه ولا اعظم فائدة ومما جاء من هذا الباب في الشعر قول ابي الطيب

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كانك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقد اخذ عليه ذلك وقيل لو جعل اخر البيت الاول وكذلك اخر البيت الثاني واخر البيت الثاني اخرا

لعله عن

العزاب ح

على قدر

للبيت الأول لكان أولى وكذلك حكاية وهي أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها
على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... فلما بلغ إلى هذين البيتين قال قد انتقدتهما عليك كما
انتُقِد على امرئ القيس قوله

كأني لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد إجفال

لعله سطراها

فبيتاه لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكان ينبغي له أن يقول كأني لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلي ولم أسبأ الزق الروي ولم أتبطن وكذلك كان ينبغي أن تقول

وقفت وما في الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت
أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله
وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة
الأعداء وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما
ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوسا وعينه باكية قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد
في المعنى فأعجب سيف الدولة كلامه القسم الثاني في صحة التقسيم وفساده ولسنا نريد
بذلك هاهنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب إليه المتكلمون فإن ذلك يقتضي أشياء مستحيلة كقولهم
الجواهر لا يخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معا أو

بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام
جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده وإنما نريد بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى
مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد وإذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره
فتارة يكون التقسيم بلفظة إما وتارة بلفظة بين كقولنا فمن بين كذا وكذا وتارة بلفظة منهم كقولنا منهم
كذا ومنهم كذا وتارة بالعدد بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم كقولنا وانشعب القوم شعبا أربعة
فشعبة ذهبت يمينا وشعبة ذهبت شمالا وشعبة وقفت بمكانها وشعبة رجعت إلى ورائها فمما جاء
من هذا القسم قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد
ومنهم سابق بالخيرات وهذه قسمة صحيحة فإنه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة فإما ظالم
لنفسه وإما مطيع مبادر إلى الخيرات وإما مقتصد بينهما ومن ذلك أيضا قوله تعالى وكنتم أزواجا
ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون
فهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التي قبلها فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم وأصحاب الميمنة
هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى وهو الذي يريكم
البرق خوفا وطمعا فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع وليس لنا قسم ثالث فإن قيل إن
استيفاء الأقسام ليس شرطا وترك بعض الأقسام لا يقدح في الكلام وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى
لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار
الجواب عن ذلك أني أقول إن هذا لا ينقض علي ما ذكرته فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم
الإجمال فيه ألا ترى إلى قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم فإنه حيث قال فمنهم

لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ولو انقصر على قسمين منها لم يجز وأما هذه الآية التي هي لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فإنه إنما خص أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا ما لأصحاب الجنة وكذلك كل ما يجري هذا المجرى فإنه إنما ينظر فيه إلى المشتبه وغير المشتبه فاعرفه وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الأعراب ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قوله النعم ثلاثة نعمة في حال كونها ونعمة ترجى مستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة فأبقى الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترتجيه وتفضل عليك بما لم تحتسبه وهذا القول فاسد فإن في أقسام النعم التي قسمها نقصا لا بد منه وزيادة لا حاجة إليها فأما النقص فإغفال النعم الماضية وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة لأن النعمة التي تأتي غير محتسبة داخلة في قسم المستقبلة وذاك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين أحدهما ترجى والآخر لا تحتسب فقوله ونعمة تأتي غير محتسبة توهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل فيه وعلى هذا فكان ينبغي له أن يقول النعم ثلاث نعمة ماضية ونعمة حال كونها ونعمة تأتي مستقبلة فأحسن الله آثار النعم الماضية وأبقى عليك النعم التي أنت فيها ووفر حظك من النعم التي تستقبلها ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى في قوله

جمعت لنا فرق الأماني منكم بأبر من روح الحياة وأوصل
فصنيعة في يومها وصنيعة قد أحولت وصنيعة لم تحول
كالمزن من ماضي الرباب ومقبل متنظر ومخيم متهلل

ووقف أعرابي على مجلس الحسن البصري رضي الله عنه فقال رحم الله عبدا أعطى من سعة أو واسى من

كفاف

كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصري ما ترك لأحد عذرا وقد عاب أبو هلال العسكري على جميل قوله

لو كان في قلبي كقدر قلامة حبا وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال أبو هلال إن إتيان الرسائل داخل في جملة الوصل وليس الأمر كما وقع له فإن جميلا إنما أراد بقوله وصلتك أي أتيتك زائرا أو قاصدا أو كنت راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين إما زيارة وإما رسالة ومن العجب ما وجدته في هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الأحنف

وصالكم هجر وحبكم قلى وعطفكم صد وسلمكم حرب

ثم قال الغانمي هذا والله أصح من تقسيمات أقليدس ويا لله العجب من القسم من هذا البيت هذا والله في واد والتقسيم في واد ألا ترى أنه لم يذكر شيئا يخص القسمة وإنما ذم أحبابه في سوء صنيعهم به فذكر بعض أحوالهم معه ولو قال أيضا

ولينكم عنف وقربكم نوى وإعطاؤكم منع وودكم كذب

لكان هذا جائزا وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة والأولى أن يضاف هذا البيت الذي ذكره الغانمي إلى باب المقابلة فإنه أولى به لأنه قابل الوصل بالهجر والعطف بالصد والسلم بالحرب ومن فساد التقسيم قول البحتري في قصيدته التي مطلعها ذاك وادي الأراك فاحبس قليلا فقال

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا أو معينا أو عاذرا أو عذولا

المسعد

فإن المشوق يكون حزينا والمسعد يكون معينا وكذلك يكون عاذرا وكثيرا ما يقع البحتري في مثل ذلك وهكذا ورد قول أبي الطيب المتنبي وهو

فافخر فإن الناس فيك ثلاثة مستعظم أو حاسد أو جاهل

فان المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما ومن شرط التقسيم ان لا يتداخل اقسامه بعضها في بعض
ومن هذا الاسلوب ما ورد في ابيات الحماسة وهو

وكنت امرءا اما ايتمنتك خاليا فخنت واما قلت قولا بلا علم

فانت من الامر الذي قد ابنته بمنزلة بين الخيانة والاثم

فان الخيانة من الاثم وهذا تقسيم فاسد ومما جا من ذلك نثرا قول بعضهم في ذكر منهزمين فمن قائل بين جريح مضرج بدمائه وهارب لا يلتفت الى ورائه فان الجريح قد يكون هاربا والهارب قد يكون جريحا ولو قال فمن بين قتيل ومأسور وناج لصح له التقسيم او قال فمن قتيل ومأسور لصح له التقسيم ايضا لعدم الناجي بينهما
وقد احسن البحتري في هذا المعنى حيث قال

غادرتهم ايدي المنية صبحا بالقنا بين ركع وسجود

فهم فرقتان بين قتيل قنصت نفسه بحد الحديد

او اسير غدا له السجن لحدا فهو حي في حالة الملحود

فرقة للسيوف ينفذ فيها الحكم قصدا وفرقة للقيود

ومن فساد التقسيم قول ابي تمام

وموقف بين حكم الذل منقطع صاليه او بحبال الموت متصل

فانه جعل صالي هذا الموقف اما ذليلا عنه او هالكا فيه وها هنا قسم ثالث وهو ان لا يكون ذليلا ولا هالكا بل يكون مقدما فيه ناجيا وفي هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه فان ابا تمام قصد الغلو في وصف هذا الموقف فقال ان الناس فيه احد رجلين اما ذليل عن ورده واما هالك فيه اي انه لا ينجو منه احد توردة

وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه **القسم الثالث** في ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد اعلم
ان محجة الترتيب في ذلك ان يذكر في الكلام معان مختلفة فاذا اعيد اليها بالذكر لمفسر قدم المقدم واخر المؤخر
وهو الاحسن الا انه قد ورد في القران الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يرع فيه تقديم المقدم ولا تا خير
المؤخر كقوله تعالى افلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشا نخسف بهم الارض
او نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لاية لكل عبد منيب ولو قدر تفسير المقدم في هذه الاية واخر
تفسير المؤخر لقيل ان نشا نسقط عليهم كسفا من السماء او نخسف بهم الارض وكذلك ورد قوله تعالى يوم
تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون
واما الذين ابيضت وجوههم فقدم المؤخر واخر المقدم والقسمان قد وردا جميعا في القران مما روعي
فيه تقديم المقدم وتاخير المؤخر قوله تعالى وما نؤخره الا لاجل معدود يوم يات لا تكلم نفس الا باذنه
فمنهم شقي وسعيد فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض
الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض
الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ومن ذلك قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار ايتين فمحونا اية الليل وجعلنا
اية النهار مبصرة وكذلك قوله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من
فضله فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون على سبب النهار وهو التعيش
ومن ذلك ما ذكرته في كتاب تعزية وهو فصل منه فقلت ولقد اوحشت منه المعالي كما اوحشت
المنازل وامت المكارم كما امت الحلايل وعمت لوعة خطبه فما يشتكي ثكل الا الي ثاكل وما اقول الا ان بكت
منه الارض حياها والحامد محياها ولو نطق الجماد بلسان او تصور المعنى اجسادا لاعربت الكعبة عما

صعيدها وبرزت هذه مجاسره حول قصيدها ومن ذلك ما كتبته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان فقلت وما زالت أيادي سيدنا متنوعة في إبارة جودها وكأنها فضائله متطولة بزينه وردها وعذبه أخذه بسنة أعمالها وأحسن ما في الأولى أنها تأتي متحلية بفواضل الإكثار وفي الثانية أنها تأتي متحلية بفضائل الاختصار فاختصار هذه في فوائد أقلامها كتطويل تلك في عوائد أنعامها وقد أصبحت خواطري مستعرية بإنشاء القول المسكر في شكر الفضل المطول وجواب اللسان المختصر وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقل بأداء حقوق يثقل على الرقاب ومقابلة لإنعام يثقل على الألباب ومما جاء من ذلك شعراً قول إبراهيم بن العباس

لنا إبل كوم يضيق بها الفضا ويفتر عنها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا ومن دوننا أن تستباح دماؤها

حمى وقرى فالموت دون مرامها وأيسر خطب يوم حق فناؤها

وهذه الأبيات من نادر ما يجيء في هذا الباب معنى وترتيب تفسير ومما جاء منه أيضاً قول أبي تمام

وما هو إلا الوحي أو حد مرهف تميل ظباه أخدعي كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم وهذا دواء الداء من كل جاهل

وكذلك قوله أيضاً

وكان لهم غيثاً وعلماً لمعدم يسائله أو باحث يسائله

وهذا من بديع ما يأتي في هذا الباب ومما ورد منه قول علي بن جبلة

فتى وقف الأيام بالسخط والرضى على بذل معروف أو على حد منصل

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نواس

ترجو وتخشى حالتيك الورى كأنك الجنة والنار

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين وهو القاضي الأرجاني

يوم المنية ويجول كلما تتعاف الفضلان فيه دالب

ما بين جرح أو دم أو ممرع ان حز صاف وإن بكى وجد نسبي

ومما أخذ على الفرزدق في هذا الباب قوله

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم

لألفيت منهم معطياً أو مطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم

لأنه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الأول ثانياً في البيت الثاني والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتباً فيفسر ما هو أول في البيت الأول بما هو ثان في البيت الثاني ولعل أن الناظم لا ينكر عليه هذا مثل ما ينكر على الناثر لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى وأما فساد التفسير فإنه أقبح من فساد ترتيبه وذلك أن يؤتى بكلام ثم يفسر بتفسير لا يناسبه وهو عيب لا يباح فيه حال وذلك كقول بعضهم

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى ومن خاف أن يلقاه بغي من العدى

تعال إليه تلق من نور وجهه ضياء ومن كفيه بحراً من الندى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بإزاء بغي العدا ما يناسبه من النصرة والإعانة أو ما يجري مجراها ليكون ذلك تفسيراً له كما جعل بإزاء الظلمة الضياء وفسرها به فأما أن جعل بإزائه بحراً من الندى فإن ذلك

النوع الخامس والعشرون في الاقتصاد

والتفريط والافراط إعلم ان هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والافراط توجد في كل
شي من علم وصناعة وخلق ولا بد لنا من ذكر حقيقتها في اصل اللغة حتى يتبين نقلها الى هذا النوع من الكلام
فاما الاقتصاد في الشي فهو من القصد الذي هو التوسط بين الطرفين الذي لا يميل الى احد الطرفين قال
الله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالاسراف والاقتار طرفان والقوام
وسط بينهما وقال الشاعر

عليك بالقصد فيما انت فاعله ان التخلق ياتي دونه الخلق

واما التفريط فهو التقصير والتضييع ولهذا قال الله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شي اي ما اهملنا ولا ضيعنا
واما الافراط فهو الاسراف وتجاوز الحد يقال افرط في الشي اذا اسرف وتجاوز الحد فالتفريط والافراط
هما الطرفان البعيدان والاقتصاد هو الوسط المعتدل وقد نقلت هذه المعاني الثلاثة الى هذا النوع من
علم البيان فاما الاقتصاد فهو ان يكون المعنى المضمن في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته
واما التفريط والافراط فهما ضدان احدهما ان يكون المعنى المضمن في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر
عنه والآخر ان يكون المعنى فوق منزلته والتفريط في ايراد المعاني الخطابية مما لا يجوز استعماله بوجه
من الوجوه والافراط يجوز استعماله فمنه الحسن ومنه دون ذلك فمما جاء من التفريط قول الاعشى

وما مزبد من خليج الفرات جون غواربه تلتطم

باجود منه بماعونه اذا ما سماؤهم لم تغم

فانه مدح ملكا بالجود بماعونه والماعون كل ما يستعان به ويستعار من قدوم او قصعة او قدر او ما
اشبه ذلك وليس للملوك في ذلك مدح ولا لاوساط الناس ايضا وفي مدح السوقة به قولان ومدح الملوك

به عيب وذم فاحش وهذا من اقبح التفريط ومما يجري هذا المجرى قول الفرزدق

الا ليتنا كنا بعيرين لا نرد على حاضر الا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافه على الناس مطلي المشاعر اخشف

هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين فان مراده منهما التغزل بمحبوبه وقد تمنى له على ان
يكون هو ومحبوبه كبعيرين اجربين لا يقربهما احد ولا يقربان احدا الا طردهما وهذا من الاماني السخيفة
ولقد في غير هذه الامنية مندوحات كثيرة وما اشبه هذا بقول القائل

يا رب ان عدونه لمقبل غيري فالمسواك والاكوس

واذا حكمت لنا بعض مراقب في الدهر فلتكن عيون النحس

فانظر كم بين هاتين الامنيتين ومما اخذ على ابي نواس في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بها الامين
محمد بن الرشيد وهو قوله

اصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر املا لعقد حباله استحكام

فان ذكر ام الخليفة في هذا الموضع قبيح وكذلك قوله في موضع آخر

وليس كجدتيه ام موسى اذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا النوع من الحديث لا فائدة فيه فان شرف الانسان انما هو الى الرجال لا الى النساء وياليت شعري
اما سمع ابو نواس قول قتيلة بنت النضر في النبي صلى الله عليه وسلم

امحمد ولانت نجل كريمة من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

فانها ذكرت الام بغير اسم الام وابرزت هذا الكلام في هذا اللباس الانيق وكذلك فعل المادح اذا مدح
وابو نواس مع لطافة طبعه وذكائه وما كان يوصف به من الفطنة قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع
ظهوره وليس لقائل ان يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى واخيه هرون عليهما السلام قال
يا ابن ام لا تاخذ بلحيتي ولا براسي فان الفرق بين الموضعين ظاهر لان المنكور على ابي نواس انما هو التلفظ
باسم الام وهي زبيدة وكذلك اسم الجدة وهي الخيزران وليس كذلك ما ورد في الاية فان قيل قد ورد في
القران ما يسوغ لابي نواس مقالته وهو قوله تعالى اذ قال الله يا عيسى بن مريم ءانت قلت للناس
اتخذوني وامي الهين من دون الله فناداه باسم امه قلت في الجواب عن ذلك من وجهين احدهما ان
عيسى عليه السلام لم يكن له اب فنودي باسم امه ضرورة اذ لو كان له اب لنودي باسم ابيه الوجه الاخر
ان هذا النداء انما هو من الاعلى الى الادنى اذ الله سبحانه وتعالى هو الرب وعيسى عليه السلام عبده
وهذا لا يكون تفريطا لانه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته على ان ابا نواس لم يوقعه في هذه العثرة الا ما
سمعه عن جرير في مدح عمر بن عبد العزيز بقوله

وتبني المجد يا عمر بن ليلى وتكفي الممحل السنة الجمادا

وكذلك قال غيره كثير عزة ايضا وليس العيب من هذا بخاف فان العرب قد كان يعير بعضها بعضا بنسبته
الى امه دون ابيه الا ترى ان عمر بن الخطاب كان يقال له ابن حنتمة وانما كان يقول ذلك من يغض منه
واما قول النبي صلى الله عليه وسلم للزبير ابن صفية لقوله بشر قاتل ابن صفية بالنار
فان صفية كانت عمة النبي صلى الله عليه وسلم وانما نسبه اليها رفعا لقدره في قرب نسبه منه وانه
ابن عمته وليس هذا كالاول في الغض من عمر في نسبته الى امه وقد عاب بعض من تتم نقده المعرفه

لعله على ما ذكرته

قوله

قول ابي نواس في قصيدته السينية التي اولها نبه نديمك قد نعس فقال من جملتها

ورث الخلافة خامسا وبخير سادسهم سدس

قال وفي ذكر السادس نظر ويا عجبا له مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه هذا الموضع اما قرا
سورة الكهف يريد قوله تعالى ويقولون خمسة سادسهم كلبهم وهذا ليس بشيء لانه قد ورد في القران
الكريم ما ينقضه وهو قوله تعالى الم تعلم ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة
الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ومما عيب على البحتري قوله في مدح الفتح بن خاقان في
قصيدته المشهورة عند لقائه الاسد التي مطلعها اجدك ما ينفك يسري لزينبا فقال

شهدت لقد انصفته حين تنبري له مصلتا عضبا من البيض مقضبا

فلم ار ضرغامين اصدق منكما عراكا اذا الهيابة النكس كذبا

فقوله الهيابة النكس تفريط في المدح بل كان الاولى ان يقول اذا البطل كذب والاقدام في اقدام
المقدم في الموضع الذي يفر منه الجبان والا كما قال ابو تمام

فتى جاء ارتاد السماح من الوغى مغرا عداه المازق اعتاد مضيها

وعلى اسلوب البحتري ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

واني لقوال لعافي مرحبا وللطالب المعروف انك واجده

واني لبسط الكف بالذي اذا شحت كف البخيل وساعده

وهذا معيب من جهة انه لا فضل في بسط يده عند قبض يد البخيل وانما الفضيلة في بسطها عند قبض
الكرام ايديهم ومن هذا الباب قول ابي تمام

قال

نفيا وهو اكثر الناس اعتفاء على بابل له مسروق

فانه اراد ان يمدح فذم وما هو اقبح من ذلك قوله ايضا

تثني الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجيم

وقد استعمل هذا في شعره حتى افحش كقوله

انت دلو وذو السماح ابو موسى قليب وانت دلو القليب

ومراده من ذلك انه جعله سببا للعطاء المشار اليه كما ان الدلو سبب في امتياح الماء من القليب ولم يبلغ هذا المعنى من الاعراب الجيد بل دندن ابو تمام حوله هذه الدندنة وبقيه في هذا المثال السخيف على انه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة في شعره بل اوردها في مواضع اخرى منه فمن ذلك قوله

ما زال يهذي بالمكارم والعلى حتى ظننا انه محموم

فانه اراد ان يبالغ في ذكر الممدوح اللهج بالمكارم والعلى فقال ما زال يهذي وما اعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين

وتلحقه عند المكارم هزة كما انتفض المحموم من ام ملدم

وهذا وامثاله لا يجوز استعماله وان كان المعنى المقصود حسنا فكم ممن اراد معنى كريما فاساء في التعبير عنه حتى صار مذموما لهذا وامثاله ومن احسن ما قيل في مثل هذا الموضع قول ابن الرومي

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالي المران

كانوا اذا امتدحوا رأوا ما فيهم فالاريحية منهم بمكان

ومن شاء ان يمدح فليمدح هكذا والا فليسكت ووجدت ابا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي قد نعا على

حسان بن ثابت قوله لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال انه جمع الجفنات والاسياف جمع قلة وهو في مقام فخر وهذا مما يحط من المعنى ويضع منه وقد ذهب الى هذا غيره ايضا وليس بشيء لان الغرض انما هو الجمع فسواء كان جمع قلة او جمع كثرة ويدل على ذلك قوله تعالى ان ابرهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم افترى نعم الله كانت قليلة على ابرهيم صلوات الله عليه وكذلك ورد قوله تعالى في سورة النمل وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين فقال واستيقنتها انفسهم فجمع النفس جمع قلة وما كان قوم فرعون القليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة بل كانوا مئين الوف وهذا ايضا مما يبطل قول الصولي وغيره في مثل هذا الموضع وكذلك ورد قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها والنفوس المتوفاة لا تنتهي الى كثرتها كثرة لانها نفوس كل من في العالم واعلم ان للمدح الفاظا تخصه وللذم الفاظا تخصه وقد تعمق قوم في ذلك حتى قالوا من الادب ان لا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب وهذا غلط بارد فان الله الذي هو مالك الملوك قد خوطب بالكاف في اول كتابه العزيز فقيل اياك نعبد واياك نستعين وقد ورد امثال هذا في القرآن غير محصورة الا اني قد راجعت نظري في ذلك فرأيت الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم والعوايد لها حكم ولا شك ان العادة اوجبت للناس مثل هذا التعمق في ترك الخطاب بالكاف لكني تأملت اداب الشعراء والكتاب في هذا الموضع فوجدت الخطاب بالكاف لا يعاب في الشعر ويعاب في الكتابة اذا كان المخاطب دون المخاطب واما ان يوقفه ولا عيب في خطابه اياه بالكاف لانه

ليس من التقرب في شيء لمن خاطب بالكاف قول النابغة

فإنك كالليل الذي هو مدركي / وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وكذلك قوله حلفت فلم أترك لنفسك ريبة / وليس وراء الله للمرء مذهب

وعليه جاء قول المتأخرين أيضاً فقال أبو نواس

إليك أبا المنصور عديت ناقتي / زيارة حق وامتحان كريم

لأعلم ما آتي وإن كنت عالماً / بأنك مهما يأت غير ملوم

وكذلك ورد قول السلامي

إليك طوى عرض البسيطة جاعل / قصارى المطايا أن يلوح لها القصر

وبشرت آمالي بملك هو الورى / ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وعليه ورد قول البحتري

ولقد أتيتك طالباً متبسطاً / من أملي والطلب جود كفك مطلبي

وجل خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف وذلك محظور على الكاتب فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب لا مخاطبة الحاضر على أن هذا الباب بجملته يوكل النظر فيه إلى فطانة الخطيب والشاعر وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة ومن ألطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن يترك الخطاب بالأمر بأن تقول افعل كذا وكذا وتخرجه مخرج الاستفهام وهذا الأسلوب حسن جداً وعليه مسحة من جمال لا بل الجمال كله ومما جاء منه قول البحتري في قصيدة أولها

ودي لو يهوى العذول ويعشق — فقال منها

فلأنت يا ابن الراشدين محتمي / بأبوة يبهى علي وتشرق

وهذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفة فإنه لم يخاطبه بأن قال احتمي بأبوته على سبيل الأمر إنما جعله على سبيل الاستفهام وقد أعجبني هذا المذهب وحسن عندي وقد حذا حذو البحتري شاعر من شعراء عصرنا فقال في مدح الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد من قصيدة له على قافية الدال فقال من أبيات يصف بها قصيدة

أمقبولة يا ابن الخلائف من فتى / لديك يوضع مادة الشعر وده

فقوله مقبولة من الأدب الحسن الذي نسج على منوال البحتري وهذا باب مفرد وهو باب الاستفهام في الخطاب وإذا كان الشاعر فطناً عالماً بما يصنعه من الألفاظ والمعاني تصرف في هذا الباب بضروب التصرفات واستخرج من كتاب نفسه شيئاً لم يسبقه إليه أحد واعلم أن من المعاني ما يعبر عنه بالألفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحداً فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ومنها ما يليق استعماله بالذم ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء في الاستعمال وإنما يرجع في ذلك إلى العرف دون الأصل ونضرب لذلك مثالاً فنقول هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له وحق دماغك فيا سائلي وحق رأسك وهذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس والهامة والطهر وما جرى هذا المجرى وإذا أراد أن يهجو ذكر الدماغ والقفا والقذال وما جرى هذا المجرى وإن كانت معاني الجميع متقاربة ومن أجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح ومن أحسن ما بلغني من أدب النفس في الخطاب أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل قباث بن أشيم فقال له أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله أكبر مني وأنا أقدم

منه في الميلاد فانظر الى أدب هذا العربي الذي من شأنه وشأن أمثاله جفا الاخلاق والبعد عن لطائف الآداب، وأما الافراط فقد ذمه قوم من اهل هذه الصناعة وحمده آخرون والمذهب على استعماله فان احسن الشعر اكذبه بل اصدقه اكذبه لكنه يتفاوت درجاته فمنه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى لانه مهما ذكرته من المغالاة في صفاته فانه دون ما يستحقه وما ورد من ذلك في الشعر قول عنترة

وانا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

وقد يروى بالياء وكلا المعنيين حسن الا ان الياء اكثر غلوا ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما

ومنه ما استهجن كقول النابغة الذبياني

اذا ارتعثت خاف الجبان رعاثها ومن يتعلق حيث علق يفرق

وهذا يصف طول قامتها لكنه من الاوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن حد الاستحسان وكذلك ورد قول ابي نواس وهو

واخفت اهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا اشد افراطا من قول النابغة ويروى ان العتابي لقي ابا نواس فقال له اما استحييت الله حيث تقول وانشد البيت فقال له وانت ما راقبت الله حيث قلت

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عني وسيع الرأي من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي اجلي

فقال له العتابي قد علم الله وعلمت ان هذا ليس مثل قولك ولكنك قد اعددت لكل ناصح جوابا وقد ادار ابو نواس هذا المعنى في قالب آخر فقال

كرت فادمه الديار سيوفه فلذاك ما احتازها الاجفان

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وما يجري في هذا الباب ما يجري هذا المجرى وقد استعمل ابو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيرا فاحسن في مواضع منه فمن ذلك قوله

عجاج يعثر العقبان فيه كأن الجو وعث او خبار

ثم اعاد هذا في موضع آخر فقال

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغي عنقا عليه لامكنا

وهذا اكثر مغالاة من الاول ومن ذلك ايضا قوله

كأنما يتلقاهم لتسلكهم فالطعن يفتح في الاجواف ما تسع

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم

ملكت بها كفي فانهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

لكن ابو الطيب اكثر غلوا في هذا المعنى وقيس بن الخطيم احسن لانه قريب من الممكن فان الطعنة تنفذ حتى يبين منها الضوء واما ان يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال ابو الطيب فان ذلك مستحيل ولا يقال فيه بعد وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين والامثلة به كثيرة لا تحصى اذ كلما خرج عن الطرفين من الافراط والتفريط فهو اقتصاد ومن احسنه ان يجعل الافراط مثلا ثم يستثنى فيه بلو او بكاد او ما يجري مجراهما فمن ذلك قوله تعالى يكاد البرق يخطف ابصارهم وكذلك قوله تعالى وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا

يكونون عليه لبدا وقد ورد هذا في القرآن كثيرا ومما ورد منه قول الفرزدق

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وكذلك ورد قول البحتري   ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبر

وهذا هو المذهب المتوسط

النوع السادس والعشرون في الاشتقاق

اعلم ان جماعة من علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس وليس الامر كذلك بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام وذاك ان التجنيس في اصل الوضع من قولهم جانس الشيء الشيء اذا ماثله وشابهه ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الالفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبنائه علمنا ان ذلك يطلق عليه اسم التجنيس والتجنيس اذن ينقسم قسمين احدهما تجنيس في اللفظ والآخر تجنيس في المعنى فاما الذي يتعلق باللفظ فانه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه وقد تقدم ذكره في باب الصناعة اللفظية واما الذي يتعلق بالمعنى فانه نقل عن بابه في التجنيس وسمي الاشتقاق اي ان احد المعنيين مشتق من الآخر وهو على ضربين صغير وكبير فالصغير ان تأخذ اصلا من الاصول فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فانك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة والاصل في ذلك ان يضع واضع اللغة اسما اولا لمسمى اول ثم يجد معنى آخر ومسميات شبيهة بالمسمى الاول فيضع لها اسما كالاسم الاول كقولهم ضرير اسم للاعمى والضر ضد النفع والضراء الشدة من الامر والضر بالضم الهلاك وسوء الحال والضرر الضيق والضرة احدى الزوجتين فان هذه المسميات كلها تدل على الأذى والشر واسماؤها

الاشتقاق الصغير

الأذى

متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء الا انا الآن لا نعلم ما هو الاول منها حتى نحكم انه مشتق منه لكن نعلم في السليم اللديغ انه مشتق من السلامة لانه ضدها قيل من اجل التفاؤل بالسلامة وعلى هذا جاء غيره من الاصول كقولنا هشمك هاشم وحاربك محارب وسالمك سالم واصاب الارض صيب فهذه الالفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد اما هاشم فلم يسم بهذا الاسم الا لانه هشم الثريد في عام محل فسمي بذلك واما محارب فهو اسم فاعل من حارب فهو محارب واما سالم فهو من السلامة وهو اسم فاعل من سلم واما الصيب فهو المطر الذي يشتد صوبه اي وقعه على الارض ولا التباس في ذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم اسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله فان اسلم وغفار وعصية اسماء قبائل ولم يسم اسلم من المسالمة ولا غفار من المغفرة ولا عصية من تصغير عصا وهذا هو التجنيس وليس بالاشتقاق والنظر في مثل هذا يحتاج الى فكرة وتدبر لكيلا يختلط التجنيس بالاشتقاق ومما جاء من ذلك شعرا قول البحتري   اخلني سلمى بكاظمة اسلما

وكذلك قول الاخر

وما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوسا عن الخير حابس

وربما ظن ان هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس حيث قيل فيه معقول وعقال ومحبوس وحابس وليس الامر كذلك وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يتقن معرفته وقد تقدم القول ان حقيقة التجنيس هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللفظ فيهما واحد والمعنى ايضا واحد فهذا مشتق من هذا اي قد شق منه وكذلك ورد قول عنترة

لقد علم القبائل ان قومي لهم حد اذا لبس الحديد

فان لفظة ق م ر من الثلاثي ...

فانها وجد بها لفظها واحد ومعناهما واحد واما الاشتقاق الكبير فهو ان ياخذ اصلا من الاصول فيعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وان تباعد شيء من ذلك عنها رد بلطف الصنعة والتاويل اليها ولنضرب لذلك مثالا فنقول ان لفظة ق م ر من الثلاثي لها ست تراكيب وهي ق م ر ق ر م م ر ق م ق ر ر ق م ر م ق فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة فالقرم شدة شهوة اللحم وقمر الرجل اذا غلب من يقامره والرقم الداهية وهي الشدة التي تلحق الانسان من دهره وعيشه فاي ضيق وذلك نوع من الشدة ايضا والمقر يشبه الصبر يقال امقر الشيء اذا امر وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ومرق السهم اذا نفذ من الرمية وذلك لشدة مضائه وقوته واعلم انه اذا سقط من تراكيب الكلمة شيء جاز ذلك في الاشتقاق لان الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة بل من شرطه ان الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقدم حروفها وتاخيرها ادت الى معنى واحد يجمعها مثال ما سقط من تركيب الثلاثي لفظة و س ق فان لها خمس تراكيب وهي ق س و و ق س ق و س س و ق و س ق وسقط من جملة التراكيب قسم واحد وهو س ق و وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة ايضا فالوسق من قولهم استوسق الامر اي اجتمع وقوي والوقس ابتداء الجرب وفي ذلك شدة على من يصيبه وبلاء والسوق متابعة السير وفي هذا عنا وشدة على السائق والمسوق والقسوة شدة القلب وغلظه والقوس معروفة وفيها نوع من الشدة والقوة لتبعيد السهم واخراجه الى ذلك المرمى المتباعد واعلم اني لا ادعي ان هذا يطرد في جميع اللغة بل قد جاء شيء منها كذلك وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها لان الكلمة الواحدة تنقلب على ضروب من التقاليب وهي مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من اعجب الاسرار التي توجد

م رق

في لغة العرب واغربها فاعرفه الا ان الاستعمال في النظم والنثر انما يقع في الاشتقاق الصغير دون الكبير وسبب ذلك ان الاشتقاق الصغير تكثر الالفاظ الواردة عليه والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد في اللغة الا قليلا وايضا فان الحسن اللفظي الذي هو الفصاحة انما يقع في الاشتقاق الصغير ولا نرى في الكبير الا ترى الى هذين الاصلين الواردين ههنا وهما ق ر م و و س ق واذا نظرنا الى تراكيبهما واردنا ان نسبكهما في الاستعمال لم يات منهما مثل ما ياتي في الاشتقاق الصغير حسنا ورونقا لان ذاك لفظه لفظ تجنيس ومعناه معنى اشتقاق والاشتقاق الكبير ليس كذلك

النوع السابع والعشرون في التضمين

وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ولكل من هذين القسمين مقام فاما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو ان يضمن الايات والاخبار النبوية وذلك يرد على وجهين احدهما تضمين كلي والآخر تضمين جزئي اما التضمين الكلي فهو ان تذكر الآية والخبر بجملتهما واما التضمين الجزئي فهو ان تدرج بعض الآية والخبر في ضمن كلام فيكون جزءا منه كالذي اوردته في حل الايات والاخبار في الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وقد قيل انه لا يجوز درج آيات القرآن في غضون الكلام من غير تبيين كيلا تشتبه وهذا القول لا اقول به فان القرآن ابين من ان يحتاج الى بيان وكيف يخفى وهو المعجز الذي لو اجتمع الانس والجن على ان ياتوا بمثله لا ياتون بمثله فان كانت المفاوضة في التفرقة بينه وبين غيره من الكلام اذا ادرج فيه مع جاهل لا يعرف فذاك لا كلام معه وان كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لا يخفى عنده القرآن من غيره ومذهبي في هذا هو ما تقدم ذكره في الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وهو احسن الوجهين وذاك ان لا يوخذ الآية بكمالها

مطلب

يؤخذ جزء منها ويجعل اولاً للكلام او آخراً هذا اذا لم يقصد به التضمين فاما اذا قصد التضمين فيؤخذ
الآية بجملتها وتدرج درجاً وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ولا رأى ما رأيته واما العيب
عند قوم فهو تضمين الاسناد وذلك يقع في بيتين من الشعر او فصلين من الكلام المنثور على ان يكون
الاول منهما مسنداً الى الثاني ولا يقوم الاول بنفسه ولا يتم معناه الا بالثاني وهذا هو المعدود من
عيوب الشعر وهو عندي غير معيب لانه اذا كان سبب عيبه ان يعلق البيت الاول على الثاني فليس ذلك بسبب
يوجب عيباً اذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق احدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور في
تعلق احديهما بالاخرى لان الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى والكلام المسجوع هو كل لفظ
مقفى دل على معنى فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد
وردت في القرآن الكريم في مواضع منه فمن ذلك قوله تعالى في سورة الصافات فاقبل بعضهم على
بعض يتساءلون قال قائل منهم اني كان لي قرين يقول ائنك لمن المصدقين ائذا متنا وكنا تراباً وعظاماً
ائنا لمدينون وهذه الفقر الثلاث الاخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن الا بالتي تليها
وهذا كالابيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض ولو كان عيباً لما ورد في كتاب الله تعالى وكذلك ورد قوله
تعالى في سورة الصافات ايضاً فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم فالآيتان
الاوليان لا تفهم احداهما الا بالاخرى وهكذا ورد قوله تعالى في سورة الشعراء افرأيت ان متعناهم
سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون فهذه ثلاث آيات لا تفهم الاولى والثانية
الا بالثالثة الا ترى ان الاولى والثانية في معرض استفهام يفتقر الى جواب والجواب هو في الثالثة
ومما ورد من ذلك شعراً قول بعضهم

ومن

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنه

ان من يعرف شيئاً يدعي اكثر منه

الا ترى ان البيت الاول لم يفهم بنفسه ولا تم معناه الا بالبيت الثاني وقد استعملته العرب كثيراً
وقد ورد في شعر فحول شعرائهم فمن ذلك قول امرئ القيس

فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازاً وناء بكلكل

الا ايها الليل الطويل الا انجلي بصبح وما الاصباح منك بامثل

وكذلك ورد قول الفرزدق

وما احد من الاقوام عدوا عروق الاكرمين الى التراب

بمحتجين ان فضلتمونا عليهم في القديم ولا غضاب

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة

لعمري لرهط المرء خير بقية عليه وان عالوا به كل مركب

من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

الضرب الثاني من التضمين وهو ان يضمن الشاعر شعره او الناثر نثره كلاماً آخر لغيره قصداً للاستعانة
على تاكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاماً وربما ضمن الشاعر البيت من شعره
بنصف بيت او اقل منه كما قال جحظة

قم فاسقنيها يا غلام وغنني ذهب الذين يعاش في اكنافهم

الذين يعاش في اكنافهم

لكان المعنى تاماً لا يحتاج الى شيء آخر فان قوله قم فاسقنيها يا غلام وغنني فيه كفاية اذ لا حاجة الى تعيين

العناء لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود وقد ورد هذا في عدة مواضع من
شعر أبي نواس في الخمريات كقوله في مخاطبة بعض خاطبيه على مجلس الشراب وهو

وعلت جل الكئيب في الصهباء فاخذها من كف ذات حر فالعيش مقبل
حييته كشعاع الشمس صافية تطير بالكأس من لألائها شعل
فقال هات وغنينا على طرب ودع هريرة إن الركب مرتحل

وكذلك قوله

وذي خلوب اللفظ حلو كلامه مقبله سهل وجانبه وعر
خلت له منها خبز لوجهه وأمكن منه ما أحيط به الأزر
فقمت إليه والكرى كحل عينه فقبلته والصبح ليس له صبح
إلى أن تجلى يومه عن جفونه وقال أكسبت الذنب قلت لك العذر
فأعرض مزورا كأن بوجهه تشفي زمان وقد برد الصدر
فما زلت أرقيه وألثم خده إلى أن تغشى راضيا وبه سكر
ألا فاسلمي يا دار مي على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقد استعمل هذا الضرب كثيرا الخطيب عبد الرحيم بن نباتة فمن ذلك قوله في بعض خطبه وهو فيا أيها
العقلاء المطرقون أما أنتم بهذا الحديث مصدقون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون
وكذلك قوله في ذكر يوم القيمة وهو يومئذ تعد الخلائق على الله بهما فيحاسبهم على ما أحاط به علما
وسعد في كل عامل بعمله حكما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما الأترى إلى بياعة هذا

السير

التضمين الذي كأنه قد وضع في هذا الموضع وضعا وعلى نحو من ذلك جاء قوله في ذكر يوم القيمة وهو
هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرابا يوم يقوم الروح
والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومما ينتظم بهذا السلك قوله في خطبة أخرى
وهو أسكتهم والله الذي أنطقهم وأبادهم الذي خلقهم وسيجددهم كما أخلقهم ويجمعهم كما فرقهم يوم يعيد
الله العالمين خلقا جديدا ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيدا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا
ومن هذا الباب أيضا قوله هنالك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب ويجمع من وجبت له الثواب ومن حق
عليه العقاب فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وأمثال هذه
التضمينات في خطبه كثيرة وهي من محاسن ما يجيء في هذا النوع

النوع الثامن والعشرون في الإرصاد

وحقيقته أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي أعدها في نفسه فإذا أنشد
صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته وذلك من محمود الصنعة فإن خير الكلام ما دل بعضه على
بعض وفي الافتخار بذلك قول ابن نباتة السعدي

خذها إذا أنشدت في القوم من طرب صدورها عرفت منها قوافيها
ينسى لها الراكب العجلان حاجته ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

ومن هذا الباب قول النابغة

فدا لامرئ سارت إليه بعذره رهطا عمي وخالي

ولو كفّي اليمين بغتك خوناً لافردت اليمين عن الشمال

الا ترى انه يعلم اذا عرفت القافية في البيت الاول ان في البيت الاول السالي الثاني يكون ذكر الشمال وكذلك جا قول البحتري

احلتَ دمي من غير جرم وحرمتْ بلا سببٍ يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حللته بمحلّلٍ وليس الذي حرمته بحرام

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الاول وصدر البيت الثاني ان عجزه هو ما قاله البحتري وقد جا الارصاد في الكلام المنثور كما جا في الشعر فمن ذلك قوله تعالى وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون واذا وقف السامع على قوله تعالى فيما هم فيه عرف ان بعده يختلفون لما تقدم من الدلالة عليه ومن ذلك ايضاً قوله عز وجل فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون وعلى نحو منه جا قوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت فاذا وقف السامع على قوله وان اوهن البيوت علم ان بعده لبيت العنكبوت ورايت ابا هلال العسكري قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالارصاد اولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به واما التوشيح فانه نوع اخر من علم البيان وسياتي ذكره بعد هذا النوع ان شا الله تعالى واعلم انه قد اختلف جماعة من ارباب هذه الصناعة في تسمية انواع علم البيان حتى ان احدهم يجمع لنوع واحد اسمين اعتقادا منه ان ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كذلك بل هما نوع واحد فممن غلط في ذلك الغانمي فانه ذكر بابا من ابواب

٤

السعودي باللاهور

علم البيان وسماه التبليغ وقال هو ان ياتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير ان يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم ياتي بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في الجودة كقول امرى القيس

كان عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

فانه اتى بالتشبيه تاما قبل القافية ثم لما جاء بها بلغ الامد الاقصى في المبالغة ثم ان الغانمي ذكر بعد هذا الباب بابا اخر وسماه الاشباع يكاد يفعل ذلك الاحذاق الشعراء وهو ان الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لا عارضة به وزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذي الرمة

قف العيس في اطلال مية فاسال رسوما كاخلاق الرداء المسلسل

هذا كلام الغانمي بعينه والبابان المذكوران سوا لا فرق بينهما بحال والدليل على ذلك ان بيت امرى القيس تم معناه قبل ان ياتي بقافيته وكذلك بيت ذي الرمة الا ترى ان امرا القيس لما قال كان عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع اتى بالتشبيه قبل القافية ولما احتاج اليها جا بزيادة حسنة وهو قوله لم يثقب وهكذا ذو الرمة فانه لما قال قف العيس في اطلال مية فاسال رسوما كاخلاق الرداء اتى بالتشبيه ايضا قبل ان ياتي القافية ولما احتاج اليها جا بزيادة حسنة وهي قوله المسلسل واعلم ان ابا هلال العسكري قد سمى هذين القسمين بعينهما الايغال وقال هو ان يستوفي الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ثم ياتي بالمقطع فيزيد فيه معنى اخر واصل الايغال من اوغل في الامر اذا ابعد الذهاب فيه ثم مثل ابو هلال ذلك بقول ذي الرمة قف العيس في اطلال مية فاسال البيت وهذا اقرب امرا من الغانمي لانه ذكره في باب واحد وسماه باسم واحد ولم يذكره في باب اخر كما فعل الغانمي

وليس لأخذ يحيى الغاني في ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة على ان تنصب لا براد علم البيان ونفصل ابوابه ويكون احد الابواب التي ذكرها داخلا في الاخر فذهب عليه وتخفى عنه وهو اشهر من فلق الصباح وهاهنا ما هو اغرب من ذلك وذاك انه قد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضع علم البيان وهي بحوه منه لانها في واد وعلم البيان في واد فممن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات فانه ذكر تلك الرسالة التي تخرف من حروف الفاظها معجم والاخر غير معجم ونظم غيره شعرا اخر كل بيت اول للبيت الذي يليه وهذا وان تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة لان الفصاحة هي ظهور الالفاظ مع حسنها على ما اشرت اليه في مقدمة كتابي هذا وكذلك البلاغة فانها الانتهاء في محاسن الالفاظ والمعاني من قولنا بلغت المكان اذا انتهيت اليه وهذا الكلام المصوغ بما اخترعه الحريري في رسالته واورده ذلك الشاعر في شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة وانما الفاظه ومعانيه غثة باردة وسبب ذلك انها تستكره استكراها وتوضع في غير مواضعها وكذلك الفاظه مكرهة ايضا غير ملائمة لاخواتها وعلم البيان انما هو الفصاحة والبلاغة في الالفاظ والمعاني فاذا خرج عنه شيء من هذه الاوضاع المشار اليها لا يكون معدودا منه ولا داخلا في بابه ولو كان ذلك مما يوصف بحسن في الفاظه ومعانيه لورد في كتاب الله تعالى الذي هو معدن الفصاحة والبلاغة او ورد في كلام العرب الفصحاء ولم نره في شيء من اشعارهم ولا خطبهم ولقد رأيت رجلا اديبا من اهل المغرب وقد تغلغل في شيء عجيب وذاك انه شجر شجرة ونظمها شعرا وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الاساليب باعتبار شعب تلك الشجرة واغصانها فتارة يقرأ كذا وتارة كذا وتارة يكون جزء منه هاهنا وتارة هاهنا وتارة يقرأ مقلوبا وكل ذلك الشعر وان كان له معنى يفهم الا انه ضرب من الهذيان

لو وقع [illegible] على هذا [illegible] التي انكرها [illegible] ما يليق باهل الفصاحة ان يكون لهم رياضة وتمرين باشتغال [illegible] التسجيع [illegible] من الفصاحة [illegible] والتسجيع [illegible] النثر [illegible] النظم [illegible] في الاساليب [illegible]

الاولى به وبامثاله ان يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة ورأيت ابا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي قد ذكر بابا من الابواب في كتابه فقال لا ينبغي ان يستعمل في الكلام المنظوم والمنثور الفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ولا الالفاظ التي تختص بها بعض المهن والعلوم لان الانسان اذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه ان يستعمل الفاظ اهل ذلك العلم واصحاب تلك الصناعة ثم مثل ذلك بقول ابي تمام

مودة ذهب اثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

وبقوله ايضا

خرقا يلعب بالعقول حبابها كتلعب الافعال بالاسماء

وهذا الذي انكره ابن سنان هو عين المعروف في هذه الصناعة

ان الذي يكرهون منه هو الذي يشتهيه قلبي

وسأبين فساد ما ذهب اليه فاقول اما قوله انه يجب على الانسان اذا خاض في علم او تكلم في صناعة ان يستعمل الفاظ اهل ذلك العلم واصحاب تلك الصناعة فهذا مسلم ولكن شذ عنه ان صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لانها موضوعة على الخوض في كل معنى وهذا لا ضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره فاذا اخذ مؤلف الشعر او الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني وادّاه ذلك الى استعمال معنى فقهي او حسابي او نحوي او غير ذلك فليس له ان يتركه ويحيد عنه لانه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده الا ترى الى قول ابي تمام في الاعتذار وهو

فان يك جرم عن او تك هفوة على خطأ مني فعذري على عمد

فان هذا من احسن ما يجيء في هذا الباب باب الاعتذار عن الذنب وكان ينبغي له على ما ذكره ابن سنان ان يترك

ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا الخطأ والعمد اللتان هما من اخص الفاظ الفقهاء وكذلك قول ابي الطيب المتنبي وهو

ولقيت كل الفاضلين كانما رد الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما واتى فذلك اذ اتيت مؤخرا

وهذا من المعاني البديعة وما كان ينبغي لابي الطيب ان ياتي في مثل هذا الموضع بلفظة فذلك التي هي من الفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما اراه وذهب اليه وهذا محض الخطأ وعين الغلط واما ما انكره على ابي تمام في قوله

مودة ذهب اثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

فان هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتي الجوهر والعرض اللتين هما من خصايص الفاظ المتكلمين بل لانه في نفسه ركيك لتضمنه لفظة الشبه فانها لفظة عامية ركيكة وهي التي استخفت بالبيت وجعلته ورب قلبي انكره كثيرا واما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ولا ركاكة عليهما واما البيت الاخر وهو

حرقا يلعب بالعقول مزاجها كتلعب الافعال بالاسماء

فليس بمنكر وهل يشك في ان التشبيه الذي تضمنه واقع في موقعه الا ان الفعل ينقل الاسم من حال الى حال وكذلك تفعل الخمر بالعقول في تنقلها لاربابها فالذي انكره ابن سنان من ذلك وقد جاء لبعض المتاخرين من هذا الاسلوب ما لا يدافع في حسنه وهو قوله

عوامل زرق اعربت لغة الردى فجسم له خفض وراس له نصب

فانه لما حصل له المشابهة في الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب وعلى ما ذكره ابن سنان فان ذلك غير جائز وهو من مستحسنات المعاني هذا من اعجب

الاشياء

الاشياء وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم

وفتى من مازن ساد اهل البصرة

امه معرفة وابوه نكرة

وهل يشك في حسن هذا المعنى ولطافته وكذلك ورد من هذا النوع في شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا فقال

قال حمار الطبيب توما لو انصفوني لكنت اركب

لانني جاهل بسيط وراكبي جاهل مركب

وهذا من المعنى الذي اغرب في الملاحة وجمع بين الخفة السحرية ووقار الفصاحة وقد تقدم القول في صدر كتابي هذا انه يجب على صاحب هذه الصناعة ان يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض في كل فن من الفنون لانه مكلف لان يخوض في كل معنى من المعاني فاضم بذلك على ما ذكرته ونصصت عليه واترك ما سواه فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده وهذا النوع اذا استعمل على الوجه المرضي كان حسنا واذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا كما جاء في كلام ابي العلاء بن سليمان المعري وهو قوله في رسالة كتبها الى بعض اخوانه حرس الله سعادته ما ادغمت التاء في الطاء وذلك سعادة بعد انتهائه وهذا من الغث البارد لكن قد جاء في الشعر ما هو حسن رائق كقوله

فدونكم خفض الحياة فاننا نصبنا المطايا بالفلاة على القطع

والخفض والنصب من الاعراب النحوي والخفض رفاهة العيش والقطع من منصوبات النحو والقطع قطع الشيء يقال قطعته اذا ابنته

النوع التاسع والعشرون في التوشيح

وهو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرًا مستقيمًا من بحر على عروض وإذا أضاف إلى ذلك ما بني عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضًا شعرًا مستقيمًا من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح وقد رأيت في زماننا هذا شاعرًا ينظم القصيد من ثلاثة أبحر وكان ينشد قصيدة ثلاث مرات كل مرة على بحر من تلك الأبحر الثلاثة واقترح عليه أن ينظم على ذلك عدة قصائد ففعل وكذلك يجري الأمر في الفقرتين من الكلام المنثور فإن كل فقرة منهما تكون مسجوعة من سجعتين وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلًا وليس من الحسن في شيء واستعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنثور فمن ذلك قول بعضهم

أسلم ودمت على الحوادث ما رسا ركنا ثبير أو هضاب حراء

ونل المراد ممكّنًا منه على رغم الدهور وفز بطول بقاء

وهذا من الجيد الذي يأتي في هذا النوع إلا أن أثر الكلفة عليه بادٍ ظاهر وإذا نظر إلى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر وذلك أن يقال

أسلم ودمت على الحوادث ما رسا ركنا ثبير

ونل المراد ممكّنًا منه على رغم الدهور

وقد استعمل الحريري في مقاماته نحو قوله ذلك

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا بعدًا لها من دار

وإذا أظل سحابها لم ينتقع منه صدى لجهامه الغرار

واعلم

واعلم أن هذا النوع لا يستعمل إلا متكلفًا عند تعاطي التمكن من صناعة النظم وحسنه منوط بما فيه من الصناعة لا بما فيه من البلاغة ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيدة من أولها إلى آخرها تتضمن غزلًا ومديحًا على ما جرت به عادة القصائد لم يسر له كان يجيء باردًا غثًا لا يسلم منه على محك النظر عشير والعشر كبير وما كان على هذه الصورة من الكلام فإنما يستعمل أحيانًا على الطبع لا على التكلف وهو وأمثاله لا يحسن إلا إذا كان يسيرًا كالرقم في الثوب والشبه في الجلد

النوع الثلاثون في السرقات الشعرية

ولربما اعترض معترض في هذا الموضع فقال قد تقدم شيء في أول الكتاب وهو قولنا الناثر من الناظم ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذن حاجة ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق وعلم أن باب السرقات الشعرية يتعرض فيه إلى وجوه المآخذ وكيفية التوصل إلى مداخل السرقات وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلًا واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني إذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الأول لكن لا ينبغي لك أن تجعل بيتك اللفظ على المعنى المسروق فتنادي على نفسك بالسرقة وكثيرًا ما رأينا من يجلي في ذلك المعنى ويتعاطى فيه البديهة فيعثر والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والإخفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سواد الغراب وأطرف من عنقاء مغرب في الأعراب وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعًا فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية وأنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طرق مرارًا وهذا القول وإن دخل في حيز الإمكان إلا أنه لا يلتفت إليه لأن الشعر من الأمور المتناقلة والذي نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات

فما بعد ذلك من الحاجات ولم تزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرئ القيس وهو قبل الاسلام بمائة
سنة وزايدا فنا قصا فقصد القصايد وهو اول من قصد ولو لم يكن له معنى اختص به سوى انه اول
من قصد القصايد لكان في ذلك كفاية واي فضيلة اكبر من هذه الفضيلة ثم تتابع المقصدون
واختير من القصايد تلك السبع التي علقت على البيت وانفتح للشعراء هذا الباب في التفصيل وكثرت
المعاني المقولة بسببه ولم يزل الامر ينمي ويزيد ويوتى بالمعاني الغريبة واستمر ذلك الى عهد الدولة
العباسية وما بعدها الى الدولة الحمدانية فعظم الشعر وكثرت اساليبه وتشعبت طرقه وكان
ختامه على الثلاثة المتاخرين وهم ابو تمام حبيب بن اوس وابو عبادة الوليد بن عبيد البحتري
وابو الطيب المتنبي فاذا قيل ان المعاني المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته
والصحيح ان باب الابتداع مفتوح الى يوم القيمة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية المعاني
له الا ان من المعاني ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع الاول قبل الاخر لان الخواطر
تاتي به من غير حاجة الى اتباع الاخر الاول كقولهم في الغزل عفت الديار وما عفت آثارها من
القلوب وكقولهم ان الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وان الواشي لو علم بمزار الطيف لساء وكقولهم
في المديح ان عطاه كالبحر وكالسحاب وانه لا يمنع عطا اليوم عطا غد وانه يجود ابدا من غير
مسالة واشباه ذلك وكقولهم في المراثي ان هذا الرزء اول حادث وانه استوى فيه الاباعد
والاقارب وان الذاهب لم يكن واحدا وانما كان قبيلة وان بعد هذا الذاهب لا يعد للنبيه ذنب واشباه
ذلك وكذلك يجري الامر في غير ما اشرت اليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير
كلفة وتستوي في ايرادها ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الاول وانما يطلق اسم

السرقة في معنى مخصوص كقول ابي تمام

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه ابو تمام وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة وهي انه
لما انشد احمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها   ما في وقوفك ساعة من باس
انتهى الى قوله   اقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم احنف في ذكاء اياس
فقال الحكيم الكندي واي فخر في تشبيه ابن امير المومنين باجلاف العرب فاطرق ابو تمام ثم انشد
هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه اياه بعمرو وحاتم واياس وهذا معنى تشهد له الحال انه ابتدعه
فمن اتى من بعده بهذا المعنى او بجزء منه فانه يكون سارقا له وكذلك ورد قول ابي الطيب في عضد
الدولة وولديه فانه قال

وانت الشمس تبهر كل عين   فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يحيا   بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادي   ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه   له يائي حروف انيسيان

وهذا المعنى لابي الطيب وهو الذي ابتدعه اي ان زيادة اولاد عدو كزيادة التصغير فانها زيادة
نقص وما ينبغي ان يقال ان ابن الرومي ابتدع هذا المعنى الذي هو

تشكي المحب وتلفي الدهر شاكية   كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

فإن الناس يزعمون أن هذا معنى مبتدع لابن الرومي وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب
وهو قولهم بالدخ وتصيح ونضرب ذلك لمن بدأ بالأذى ثم يشكو وأما ابن الرومي فقد ابتدع معاني
أخر غير ما ذكرته وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعاني المبتدعة بل الغرض
أن يبين المعنى المبتدع من غيره والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول
في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على سرقته واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في
السرقات الشعرية فأكثروا وكنت ألفت فيه كتاباً وقسمته ثلاثة أقسام نسخاً وسلخاً ومسخاً أما النسخ
فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب وأما السلخ فهو أخذ
بعض المعنى مأخوذاً ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ وأما المسخ فهو إحالة المعنى
إلى ما دونه مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قردة وها هنا قسمان آخران أغفلت ذكرهما في الكتاب
الذي ألفته فأحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه والآخر عكس المعنى إلى ضده وهذان القسمان ليسا
بنسخ ولا سلخ ولا مسخ وكل قسم من هذه الأقسام تتنوع وتتفرع ويخرج بها التقسيم إلى مسالك دقيقة
وقد استأنفت ما أتى من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق للصواب ومن المعلوم أن السرقات
الشعرية لا يمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد فمن رام الأخذ بنواصيها
والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ويقنع بتأملها ناظراً فإنه لا يظفر منها إلا باللمح
والأطراف وكنت سافرت إلى الشام في سنة سبع وثمانين وخمس مائة ودخلت مدينة دمشق فوجدت
جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أولها خذا من صبا نجد أماناً لقلبه
ويزعمون أنه من المعاني الغريبة وهو

أغار إذا آنست في الحي أنة حذاراً عليه أن تكون لحبه

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله

لو قلت للدنف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ثم أني وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر
ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي وسافرت إلى الديار المصرية في سنة ست وتسعين وخمس مائة
فوجدت أهلها يلهجون ببيت من الشعر يعزونه إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عمارة وكان حديث
عهد بزماننا هذا في آخر الدولة العلوية بمصر وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض
خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام في قوله يمدح بعض الخلفاء في حجة حجها وذلك البيت
من جملة أبيات حسنة فقال

يا من رأى حرماً يسري إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتزم

ثم قلت في نفسي يا لله العجب ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين درست أشعارهم ولاهما
ممن لا يعرف ولا اشتهر أمره بل هما كما يقال أشهر من الشمس والقمر وشعرهما دائر في أيدي الناس
خلاف غيرهما فكيف خفي على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما وعلمت
حينئذ أن سبب ذلك عدم الحفظ للأشعار والاقتناع بالنظر في دواوينها ولما أنست نفسي الخوض في
علم البيان ورمت أن أكون معدوداً من علمائه علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب إلى

الصدور والاكتفا بالمحفوظ عن المسطور

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وانفدت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع فالفيته بحرا لا يوقف على ساحله وكيف ينتهي الى الاحصاء قول لم تحص اسما قايليه فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوايده وتتشعب مقاصده ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم اذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ∴ ولقد اكتفيت في هذا بشعر ابي تمام حبيب بن اوس وابي عبادة الوليد وابي الطيب المتنبي وهولاء الثلثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدما وجمعت بين الامثال السايرة وحكمة الحكما اما ابو تمام فانه رب معان وصيقل الباب واذهان وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي برز فيه على الاضراب ولقد مارست من الشعر كل اول واخير ولم اقل ما اقوله فيه الا عن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برايضه اطاعته اعنة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذي علم عليم واما ابو عبادة البحتري فانه احسن في سبك اللفظ على المعنى واراد ان يشعر فغنى ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق فبينا يكون في شظف نجد حتى يتشبث بريف العراق وسيل ابو الطيب المتنبي عنه وعن ابي تمام وعن نفسه فقال انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري ولعمري انه انصف في حكمه واعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان ابا عبادة اتى في شعره

المعنى

بالمعنى المقدود من الصخرة الصما في اللفظ المصوغ من سلاسة الما فادرك بذلك بعد المرام مع قربه الى الافهام وما اقول الا انه اتى في معانيه باخلاط الغالية ورقي في ديباجة لفظه الى الدرجة العالية واما ابو الطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال وانا اقول قولا لست فيه متاثما ولا منه متلثما وذلك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للسامع مقام افعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا وطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما اداه اليه عيانه ومع هذا فاني رايت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط فاما مفرط في وصفه واما مفرط وهو وان انفرد بطريق صار ابا عذره فان سعادة الرجل كانت اكبر من شعره وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعرا ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطرا ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة

لا تطلبن كريما بعد رويته ان الكرام باسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد افسد القول حتى احمد الصمم

ولما تاملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى وجدته اقساما خمسة خمس منه في الغاية التي انفرد بها دون غيره وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر وخمس دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبا بها وعدمها خير من وجودها ولو لم يقلها ابو الطيب لوقاه الله شرها فانها هي التي البسته

لباس المكرم وجعلت عرضة وشارة لسهام الاقوام ولسائل هاهنا ان يسال ويقول لم عدلت الى شعر
هاولاء الثلاثة دون غيرهم فاقول انى لم اعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت نظرا وذلك انى وقفت على اشعار
الشعراء قديمها وحديثها حتى لم يبق ديوان لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا وعرضته على نظرى
فلم اجد اجمع من ديوان ابي تمام وابي الطيب للمعاني الدقيقة ولا اكثر استخراجا منهما للطيف الاغراض
والمقاصد ولم اجد احسن تهذيبا للالفاظ من ابي عبادة ولا انقش ديباجة ولا ابهج سبكا فاخترت
حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والالفاظ ولما حفظتها القيت ما سواها مع
ما بقي على خاطري من غيرها وقد اوردت في هذا الموضع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيري
ونبهت على غوامض منها وكنت قدمت القول اني قسمتها الى خمسة اقسام منها الثلاثة الاول
وهي النسخ والسلخ والمسخ ومنها القسمان الاخران وها انا ابين ما ينقسم اليه هذه الاقسام في شعبها
وفروعها فاقول اما النسخ فانه لا يكون الا في اخذ المعنى واللفظ جميعا او في اخذ المعنى واكثر
اللفظ لانه ماخوذ من نسخ الكتاب ومن ذلك فانه ضربان الاول يسمى وقوع الحافر على الحافر

كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك اسى وتجمل

وقال طرفة بن العبد

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك اسى وتجلد

وقد اكثر الفرزدق وجرير من هذا في شعرهما فمنه ما اوردا فيه مورد امرئ القيس وطرفة في
تخالفهما في لفظة واحدة كقول الفرزدق

اتعدل

اتعدل احسابا لئاما حماتها باحسابنا اني الى الله راجع

وكقول جرير

اتعدل احسابا كراما حماتها باحسابكم اني الى الله راجع

ومنه ما ساوى فيه لفظا لفظ كقول الفرزدق

وغر قد وسقت مشتهيات طوالع لا تطيق لها جوابا
بكل ثنية وبكل ثغر غرائبهن تنتسب انتسابا
بلغن الشمس حيث تكون شرقا ومسقط راسها من حيث غابا

وكذلك فعل جرير من غير ان يزيد وقد حكي ان امراة من عقيل يقال لها ليلى كانت تحدث اليها الشباب
فدخل الفرزدق اليها وجعل يحادثها واقبل فتى من قومها كانت قد الفته فدخل اليها فلما دخل عليها
تركت الفرزدق وتعاطت ذلك الفتى فقال الفتى تصارعني فقال ذلك اليك فقام اليه فلم يلبث ان اخذه الفرزدق
فصرعه وجلس على صدره فضرط فوثب الفتى عنه وقال يا ابا فراس هذا مقام العائذ بك والله ما اذكر
ما جرى فقال فضحك والله ما بي انك فضحتني ولكن كاني بابن الاتان يعني جريرا وقد بلغه خبري

فقال يهجوني

جلست الى ليلى لتحظى بقربها فخانك دبر لا يزال يخون
فلو كنت ذا حزم شددت وكاءه كما شد جراب البلاص متون

قال فوالله ما مضى الا ايام حتى بلغ جريرا الخبر فقال فيه هذين البيتين وهذا من اغرب ما يكون في
مثل هذا الموضع واعجبه ويقال ان الفرزدق وجريرا كانا يتطفلان في بعض الاحوال عن ضمير واحد
وهذا عندي مستبعد فان ظاهر الامر يدل على خلافه والباطن لا يعلمه الا الله تعالى والا فاذا رايتنا
شاعرا متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر اتى من بعده علمنا بشهادة الحال انه

أخذه منه وحسبك أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة فكيف تتفق الالسنة
أيضاً في صوغ الألفاظ ومما كنا نستحسنه من شعر أبي نواس قوله في قصيدته التي أولها

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء فقال

دارت على فتية ذل الزمان لهم فما يصيبهم إلا بما شاؤوا

وهذا من بنات الشعر ثم وقفت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على هذا البيت في أصوات معبد وهو

في فتية ذل الزمان لهم فما أصابهم إلا بما شاؤوا

وما أعلم كيف هذا النصرف الثاني من السرق وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ كقول
بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء فقال

أجاد طويس والسريجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

ثم قال أبو تمام محاسن أصناف المغنين جمة وما قصبات السبق إلا لمعبد

فهذه قصيدة أولها غدت تستجير الدمع خوف نوى غد فقال

وقائع أصل النصر فيها وفرعه إذا عدد الإحسان أو لم يعدد

فمهما تكن من وقعة بعد لا تكن سوى حسن مما فعلت مردد

محاسن أصناف المغنين جمة البيت

وأما السلخ فإنه ينقسم إلى اثني عشر ضرباً وهذا تقسيم أوجبته القسمة وإذا تأملته علمت أنه لم يبق
شيء خارج عنه فالأول أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إياه وهذا من

أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة ولا يأتي إلا قليلاً فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به فقال

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

والمعروف أن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى غير أنه غامض وهو غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة
الأشعار وغاص على استخراج المعاني وبيانه أن الأول يقول إن بغض الذي هو غير طائل إياي مما زاد
نفسي حباً إلي أي جملها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل مبغضي والمتنبي يقول إن ذم
الناقص إياي شاهد بفضلي فذم الناقص إياه كبغض الذي هو غير طائل ذلك الرجل وشهادة ذم الناقص
إياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده ومن هذا الضرب ما هو الطف
ذكرته وابن كقول أبي تمام

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

أخذ البحتري هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه كقوله في قصيدة يفخر فيها بقومه

شيخان قد ثقل السلاح عليهما وعداهما رأي السميع المبصر

ركب القنا من بعد ما حملا القنا في عسكر متحامل في عسكر

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض ثم سار فيها فرعته أي أهزلته فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها
والبحتري نقل هذا إلى وصف الرجل بعلو السن والهرم فقال إنه كان يحمل الرمح في القتال ثم صار
يركب عليه أي يتوكأ منه على عصا كما يفعل الشيخ الكبير وكذلك ورد قول الرجلين أيضاً

فقال أبو تمام

لا أظلم النأي قد كانت خلائقها من قبل وشك النوى عندي نوى قذفا

أخذه البحتري فقال

أعاتك ما كان الشباب مقربي إليك فألحى الشيب إذ هو مبعدي

وهذا أوضح من الذي تقدمه وأكثر بيانا. الضرب الثاني من السلخ أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتي إلا قليلا فمنه قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلو عذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو نهاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف وهذا الضرب في سرقات المعاني من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهبا ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض وقد يجيء منه ما هو ظاهر لا يبلغ في الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار إليها كقول ابن المقفع في باب الرثاء من كتاب الحماسة

وقد جر نفعا فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

وقد جاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال

وقد

وقد عزى ربيعة أن يوما عليها مثل يومك لا يعود

وهذا من البديع النادر وهاهنا ما هو أشد ظهورا من هذين البيتين في هذا الضرب من السرقات الشعرية وذلك بأن يؤتى بالألفاظ المترادفة التي يقوم بعضها مقام بعض وذاك لا آخذ دليه لمكان وضوحه لكن قد يجيء منه ما هو ضعيف من صفات الترادف لا الاسم فيكون حسنا كقول جرير

فلا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

الضرب الثالث من السلخ وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق فمن ذلك قول البحتري في غلام

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمر إليه ودون كيد الكبار

سبقه أبو نواس فقال

لم يخف من كبر عما يراد به من الأمور ولا أزرى به الصغر

وكذلك قوله أيضا

كل عيد له انقضاء وكل يوم من جوده في عيد

أخذه من علي بن جبلة

للعيد يوم من الأيام منتظر والناس في كل يوم منك في عيد

وكذلك قوله

جاد حتى أفنى السؤال فلما باد منا السؤال جاد ابتداء

أخذه من علي بن جبلة في قوله

أعطيتني حتى لم تدع لك سائلا وبدأت إذ قطع العفاة سؤالها

وقد افتضح البحتري في هذه المآخذ غاية الافتضاح هذا على بسطة باعه في الشعر وغناه عن مثلها

وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء ولم يستنكفوا من تناوله كما فعل ذلك ابو تمام فانه قال

تدقلصت شفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلم بن رغبان المعروف بديك الجن فقال

واذا شئت ان ترى الموت في صورة لبث في لبدتي رئبال

فالقه غير انما البدتاه ابيض صارم واسمر عال

تلق لبثا قد قلصت شفتاه فتراه ضاحكا العبس الصبال

وكذلك قال ابو تمام

ولم امدحك تفخيما بشعري ولكني مدحت بك المديحا

اخذه من حسان بن ثابت في مدحه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال

ما ان مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

ولا شك ان ابا بكر رضي الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضي الله عنه فقال له عمر استخلفت غيري فقال ابو بكر ما حبوناك بها ولكن حبوناها بك وهكذا فعل ابن الرومي فيما جاء له قوله

جرحته العيون فاقتص منها بجوى في القلوب دامي الندوب

سبقه ابو تمام فقال ادميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب

وكذلك قال ابن الرومي

وكلت مجدك في انضاء حاجتي وكفى به متقاضيا ووكيلا

سبقه ابو تمام فقال

واذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضي

وكذلك قال ابن الرومي ايضا

ومالي عزاء عن شبابي علمته سوى انني من بعده لا اخلد

سبقه منصور النمري فقال

قد كدت اقضي على فوت الشباب اسى لولا تعزي ان العيش منقطع

وكذلك فعل ابو الطيب المتنبي فيما جاء منه قوله

فدى نفسه بضمان النضار واعطى صدور القنا الذابل

اخذه من الفرزدق حيث قال

كان الفداء له صدور رماحنا والخيل اذ رهج الغبار مثار

وكذلك قوله ان ارمعنا بهذا الحمام نحن نبت الربا وانت الغمام

اخذه من بشار حيث قال كان الناس حين تغيب عنهم نبات الارض اخطاه القطار

وكذلك قوله فلا زالت ديارك مشرقات ولا دانيت يا شمس الغروبا

لاصبح آمنا فيك الرزايا كما انا آمن فيك العيوبا

اخذه من ابن الرومي حيث قال

اسالم قد سلمت من العيوب الا فاسلم كذاك من الخطوب

والذي عندي في الضرب المشار اليه انه لا بد من مخالفة المتاخر المتقدم اما بان ياخذ المعنى فيزيده معنى او يوجز في لفظه او يكسوه عبارة احسن من عبارته ومن هذا الضرب ما يستعمل على وجه برداد

قبحه وتكثر الشناعة به. وهو أن يأخذ الشاعر معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية ومثال ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها في مثل ما سرقها منه والأولى به أن كان نظم تلك الجوهرة في عقد أو صاغها في سوار أو خلخال ليكون أكتم لأمرها وممن فعل ذلك من الشعراء وافتضح أبو الطيب المتنبي حيث قال في قصيدته التي أولها

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع

لم يسلم الكر في أعقاب مهجته ان كان أسلمها الأصحاب والشيع

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبي تمام في وزنها وقافيتها أولها

أي القلوب عليكم ليس ينصدع — وهذا المعنى الذي أورده أبو الطيب مأخوذ من بيت منها وهو

ما غاب عنكم من الإقدام أكرمه في الروع إذ غابت الأنصار والشيع

وليس في السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة فإنه لم يكتف الشاعر فيها أن يسرق المعنى حتى يبادي على نفسه أنه قد سرقه. الضرب الرابع من السلخ وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة فمن ذلك قول أبي نواس

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم أشهى المطي إلي ما لم يركب

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقب

فقال مسلم بن الوليد في عكس ذلك

إن المطية لا يلذ ركوبها حتى تذلل بالزمام وتركبا

والحب ليس بنافع أربابه حتى يفصل في النظام ويثقبا

ومن

ومن هذا الباب قول ابن جعفر

ولما بدا لي أنها لا تريدني وأن هواها ليس عني بمنجلي

تمنيت أن تهوى سواي لعلها تذوق الهوى فترق لي

وقال غيره — ولقد سرني صدودك عني في طلابيك وامتناعك مني

حذرا أن أكون مفتاح غيري وإذا ما خلوت كنت التمني

أما ابن جعفر فإنه تباعد والنزع عن متكبر رد الغيرة وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى غاية الغلو. وكذلك ورد قول أبي الشيص

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

أخذ أبو الطيب هذا المعنى وعكسه فقال

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

وهذا من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة وقد أوجبته في شيء من شعري فجاء حسنا فمن ذلك قولي

لولا الكرام وما سنوه من كرم لم يدر قائل شعر كيف يمتدح

أخذته من قول أبي تمام — ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلى من أين تؤتى المكارم

الضرب الخامس من السلخ وهو أن يؤخذ بعض المعنى فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال   تدعى عطاياه وفرا وهي إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

وأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لا غير ومن هذا الضرب قول علي بن جبلة

وإن نال ما لم تحوه متقدما وإن نال منه آخر فهو تابع

فقال أبو الطيب المتنبي

ترفع عن عون المكارم قدره فما يفعل الفعلات إلا عذاريا

فعلي بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدمه وإن نال الآخر منه شيئا فإنما هو مقتد به وتابع له وأما أبو الطيب المتنبي فإنه لم يأت إلا بالمعنى الواحد وهو أنه لا يفعل ما يفعله غيره غير أنه أبرزه في صورة حسنة   ومن ذلك قول أبي تمام

كلف بربّ المجد يعلم أنه لا تستدي عرف إذا لم يتمم

فقال البحتري   وشكا لأن يرى الفعال إعادة وإن صنع المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال إن الممدوح يرب صنيعه أي يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتداه والبحتري قال يستديم صنيعه لا غير وذلك بعض ما ذكره أبو تمام وكذلك قال البحتري

ادفع بأمثال أبي غالب عادية العدم أو استعفف

أخذه ممن تقدمه حيث قال

انجح الفضل أو تخل عن الدنيا فهاتان غاية الهمم

فالبحتري

فالبحتري أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه وكذلك ورد قول ابن الرومي

نزلتم على هام المعالي إذا ارتقى إليها أناس غيركم بالسلالم

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال   فوق السماء وفوق ما طلبوا فإذا أرادوا غاية نزلوا

وهذا المعنى الذي تضمنه قول ابن الرومي لأنه قال إنكم نزلتم على هام المعالي وإن غيركم رقي إليها رقيا وأما المتنبي فإنه قال إنكم إذا أردتم غاية نزلتم وأما قوله فوق السماء فإنه يبنى عنده قول ابن الرومي نزلتم على هام المعالي إذ المعالي فوق كل شيء لأنها مختصة بالعلو مطلقا الضرب الثاني من السلخ وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر فمما جاء منه قول الأخنس بن شهاب

بعض صح

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله

إن قصر الرمح لم تمش الخطا عددا أو عرد السيف لم تهمم بتعريد

وكذلك ورد قول جرير في وصف أبيات من شعره فقال

غرائب ألافا إذا حان وردها أخذن طريقا للقصائد معلما

أخذه أبو تمام فزاد عليه إذ قال في وصف قصيدة له وقرن ذلك بالممدوح

غرائب لاقت في فنائك أنسها من المجد فهي الآن غير غرائب

وكذلك ورد قول وليد مسلمة بن عبد الملك

أذل الحياة وكره الممات وكلا أراه طعاما وبيلا

فإن لم يكن غير إحداهما فسيري إلى الموت سيرا جميلا

أخذه أبو تمام فقال
مثّل الموت بين عينيه والذل وكلا أراه خطبا عظيما
ثم سارت به الحمية قدما فأمات العدى ومات كريما

فزاد عليه بقوله فأمات العدى ومات كريما ويقال نظر عبد الله بن علي رضي الله عنه عنه قال المراوتيه ابن بني عليه أبهة الشرف وهو يبلي في القتال بلاء حسنا فناداه يا فتى لك الامان ولو كنت مروان بن محمد فقال الا اكنه فلست دونه قال فلك الامان ولو كنت من كنت فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين وكذلك ورد قول أبي تمام

بعدت عن الدنيا اذا غاب سودد ولو برزت في زي عذراء ناهد

أخذه من قول المعذل بن غيلان

ولست بنظار الى جانب الغنى اذا كانت العلياء في جانب الفقر

الا انه زاده حسنة بقوله ولو برزت في زي عذراء ناهد ومما يجري هذا المجرى قول البحتري

خلعنا ما اانت فينا او عمرو او كالحديث المعاد — أخذه من قول ابن نواس

قل لمن يدعي سليمى سفاها لست منها ولا قلامة ظفر
انما انت ملصق مثل واو الحقت في الهجاء ظلما بعمرو

الا ان البحتري زاد على ابو نواس في قوله او كالحديث المعاد وهكذا ورد قول البحتري ايضا

ركبوا الفراة الى الفراة واملوحد لان يدع في السماح ويغرب

أخذه من مسلم بن الوليد في قوله

ركبت البر البحري في موخراته فأودت بنا من بعد بحر الى بحر

الا ان البحتري زاد عليه بقوله هذا لان يدع في السماح ويغرب وكذلك ورد قول ابن نواس

وليس لله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيرا ومنهم من ظنه مبتدعا لأبي نواس ويحكى عن ابي تمام انه دخل على ابن ابي دواد فقال له احسبك عاتبا يا ابا تمام فقال انما يعتب على واحد وانت الناس جميعا قال من اين هذا يا ابا تمام قال من قول الحاذق ابي نواس وانشده البيت وهذه الحكاية عندي موضوعة لان ابا تمام كان عارفا بالشعر حتى انه قال لم انظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال وما كان يخفى عنده ان هذا المعنى ليس لأبي نواس وانما هو ماخوذ من قول جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

الا ان ابا نواس زاده زيادة حسنة وذاك ان جريرا جعل الناس كلهم بني تميم وابا نواس جعل العالم كله في واحد وذلك ابلغ ومما ينتظم بهذا السلك قول الفرزدق

علام تلفتين وانت تحتي وخير الناس كلهم امامي
متى تاتي الرصافة تستريحي من الانساع والدبر الدوامي

أخذه ابو نواس فصار املك به واحق بالاحسان فقال

واذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

والفرزدق قال تستريحي من الانساع والدبر الدوامي وليست استراحتها مانعة من معاودة انعابها مرة اخرى واما ابو نواس فانه حرم ظهورهن على الرجال اي انها تعفى من السفر اعفاء مستمرا ولا شك ان ابا نواس لم يتسع لهذه الزيادة الا من فعل العرب في السائبة والبحيرة

وعلى هذا الاسلوب ورد قول المتنبي   وملومة زرد ثوبها ولكنه بالغنا مخمل

اخذه من ابي نواس في قوله   امام خميس ارجوان كانه قميص محوك من قنا وجياد

فزاد ابو الطيب زيادة صار بها احق من ابي نواس بهذا المعنى وكذلك قال ابو الطيب المتنبي

وان جاد قبلك قوم مضوا فانك في الكرم الاول

فاخذته انا وزدت عليه فقلت

انت في الجود اول وقضى الله بان لا يرى لك الدهر ثاني

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة الى غيره **الضرب** السابع من السلخ وهو ان يوخذ المعنى فيكسى عبارة احسن من العبارة الاولى وهذا هو المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة فمنه قول ابي تمام   جذلان من ظفر حران ان رجعت مخضوبة منكم اظفاره بدم

اخذه البحتري فقال   اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

ومن هذا الاسلوب قولهما ايضا فقال ابو تمام

ان الكرام كثير في البلاد وان قلوا كما غيرهم قل وان كثروا

وقال البحتري   قل الكرام فصار يكثر فذهم ولقد يقل الشي حتى يكثرا

وعلى هذا النحو ورد قول ابي نواس

يدل على ما في الضمير من الفتى تقلب عينيه الى شخص من يهوى

اخذه ابو الطيب المتنبي فقال   واذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

ومما ينتظم في هذا السلك قول ابي الطيب المتنبي

اذا

اذا ما ازددت من بعد التناهي فقد وقع انتقاصي في ازدياد

اخذه ابن نباتة السعدي فقال

اذا كان نقصان الفتى في تمامه فكل صحيح في الزمان عليل

وكذلك ورد قول ابي العلاء بن سليمان في مرثيه

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه اثر اللطم

اخذه الشاعر المعروف بالقيسراني فقال

والهوى الذي يهوى له البدر ساجدا الست ترى في وجهه اثر الترب

وكذلك قال ابن الرومي   اذا شنئت عين امر شيب نفسه فعين سواه بالشنآن اجدر

اخذه من تاخر زمانه عنه فقال

اذا كان شيبي بغيضا الي فكيف يكون اليها حبيبا

ومما ينخرط في هذا السلك قول بعضهم

مخصرة الاوساط زانت عقودها باحسن مما زينتها عقودها

اخذه ابو تمام فقال   كان عليها كل عقد ملاحة وحسنا وان امست وامست بلا عقد

ثم اخذه البحتري فقال   اذا الطفا الياقوت اشراق وجهها فان غناما توخت عقودها

وامثال هذا كثيرة وفيما اوردناه مقنع **الضرب** الثامن من السلخ وهو ان يوخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا وذلك من احسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة باعه في البلاغة فمن ذلك قول بشار

هذا القسم داخل في الذي قبله فلا حاجة الى جعله قسما ثامنا

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

اخذه سلم الخاسر وكان تلميذه فقال

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين تساوٍ في التأليف ومن هذا الاسلوب قول ابي تمام

برزت في طلب المعالي واحدا فيها تسير مغورا او منجدا

عجبًا بانك سالم من وحشة في غاية ما زلت فيها مفردا

اخذه ابن الرومي فقال غربته الخلائق الزهر في الناس وما اوحشته بالتغريب

وكذلك ورد قول ابي نواس

وكلت بالدهر عينا غير غافلة من جود كفك تاسو كلما جرحا

اخذه ابن الرومي فقال الدهر يفسد ما استطاع واحمد يتتبع الافساد بالاصلاح

وعلى هذا ورد قول ابن الرومي

كاني استدني بك ابن حنية اذا النزع ادناه من الصدر ابعدا

اخذه بعض شعراء الشام وهو ابن قسيم الحموي فقال

فهو كالسهم كلما زدته منك دنوا بالنزع زادك بعدا

ولقيت جماعة من الادباء بالشام ووجدتهم يزعمون ان ابن قسيم هو الذي ابتدع هذا المعنى وليس

كذلك وانما هو لابن الرومي ومما يجري هذا المجرى قول ابي العتاهية

واني لمعذور على فرط حبها لان لها وجها يدل على عذري

اخذه

اخذه ابو تمام فقال له وجه اذا ابصرته ناجاك عن عذري

ما اوجز في هذا المعنى غاية الايجاز ومما يجري على هذا النهج قول ابي مسلم

كانت مسائلة الركبان تخبرني عن احمد بن سعيد اطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني باحسن مما قد رأى بصري

اخذه ابو الطيب المتنبي فاوجز حيث قال

واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وكذلك قولهما في موضع آخر فقال ابو تمام

كم صارم عضب اناف على فتى منهم لاعباء الوغا حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

اخذه ابو الطيب فزاد واحسن حيث قال

يسابق القتل فيهم كل حادثة فما يصيبهم موت ولا هرم

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء

امن خوف فقر تعجلته واخرت انفاق ما تجمع

فصرت الفقير وانت الغني وما كنت تعدو الذي تصنع

اخذه ابو الطيب المتنبي فقال ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

الضرب التاسع من السلخ وهو ان يكون المعنى عاما فيجعل خاصا او خاصا فيجعل عاما وهو من

السرقات التي يسامح صاحبها فمن ذلك قول الاخطل

لانته عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

اخذه ابو تمام فقال — الوم من بخلت يداه واغتدي للبخل ترباً لساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذي جعل خاصاً الا ترى ان الاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقاً وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا في بابه واما ابو تمام فانه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الاخلاق واما جعل الخاص عاما فكقول ابي تمام

ولو حاردت شول عذرت لقاحها ولكن منعت الدر والضرع حافل

اخذه ابو الطيب المتنبي فجعله عاما اذ يقول

وما يؤلم الحرمان من كف حارم كما يؤلم الحرمان من كف رازق

الضرب العاشر من السلخ وهو زيادة البيان مع المساواة في المعنى وذلك بان يوخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه فمما جاء منه قول ابي تمام

هو الصنع ان يعجل فخير وان يرث فللريث في بعض المواطن انفع

اخذه ابو الطيب واوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله

ومن الخير بطء سيبك عني اسرع السحب في المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق وما احسن ما اتى بهذا المعنى في المثال المناسب له وكذلك قولهما ايضا في موضع آخر فقال ابو تمام

قد قلصت شفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس مبتسما

اخذه ابو الطيب المتنبي فقال — وجاهل مده في جهله ضحكي حتى اتته يد فراسة وفم

اذا

اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث مبتسم

ومما يجري في هذا السلك قول ابي تمام

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالي

اخذه ابو عبادة البحتري فقال

وقد زادها افراط حسن جوارها لاخلاق اصفار من المجد خيب

وحسن دراري الكواكب ان ترى طوالع في داج من الليل غيهب

فانه اتى بالمعنى مضمرا وبالغ بهذا المثال الذي اوضحه وزاده حسنا. الضرب الحادي عشر من السلخ وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ومثاله ان يسلك الشاعران طريقا واحدة فيخرج بهما الى موردين او روضتين وهنالك يتبين فضل احدهما على الآخر فمما جاء من ذلك قول ابي تمام في مرثية ولدين صغيرين

مجد تأوب طارقا حتى اذا قلنا اقام الدهر اصبح راحلا

نجمان شاء الله ان لا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

ان الفجيعة بالرياض نواضرا لاجل منها بالرياض ذوابلا

لهفي على تلك الشواهد فيهما لو امهلت حتى تكون شمائلا

ان الهلال اذا رأيت نموه ايقنت ان سيكون بدرا كاملا

قل للامير وان لقيت موقرا منه بريب الحادثات حلاحلا

ان ترز في طرفي نهار واحد رزءين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية الا اذا كان وهما بازلا

لا غرو ان فسان من عبدانه لقيا حماما للبين تغزو اطلا

ان الاسنا اذا اصاب مشذب منه امال ذوي واثا سافلا

شحن حلا لكان نوشنك امرا وان يذكر ناسيا او غافلا

الا مواعظ فادها لك سمحة اسجاح لبك سامعا او قايلا

لا يرحل الاودي بين مهندا الا اذا كان الحسام القاتلا

وقال ابو الطيب المتنبي يرثيه بعد بعد تغيير

فان يك في قبر فانك في الحشا وان تك طفلا فالاسى ليس بالطفل

ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر المخيلة والاصل

الست من القوم الذين رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في اعطافه منطق الفضل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

عزاءك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل

تخون المنايا عهده في سليله وتنصره بين الفوارس والرجل

بنفسي وليد عاد من بعد حمله الى بطن ام لا تطرق بالحمل

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل

وقد مدت الخيل العتاق عيونها الى وقت تبديل الركاب من النعل

وريع له جيش العدو وما مشى وجاشت له الحرب الضروس وما تغلي

فتامل ايها الناظر الى ما صنع هذان الشاعران في هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما في
واد منه مع اتفاقهما في بعض معانيه وسابين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا واذكر الفاضل من
المفضول فاقول اما الذي اتفقا فيه فان ابا تمام قال

لهفي على تلك الشواهد فيهما لو امهلت حتى تكون شمايلا

واما ابو الطيب فانه قال بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في اعطافه منطق الفضل

فاتى بالمعنى الذي اتى به ابو تمام وزاد عليه الصناعة اللفظية وهي المطابقة في قوله صمت
اللسان ومنطق الفضل وقال ابو تمام

نجمان شاء الله الا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يافلا

وقال ابو الطيب بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه في المعنى وزاد عليه بقوله وصد وفينا غلة البلد المحل لانه بين قدر حاجتهم الى وجوده
واتساعهم بحياته واما ما اختلفا فيه فان ابا الطيب اشعر فيه من ابي تمام ايضا وذاك ان معناه
امتن من معناه ومبناه احكم من مبناه وربما انكر هذا القول جماعة من المقلدين الذين تقفون مع شبهة
الزمان وقدمه لا مع فضيلة القول وتقدمه وابو تمام وان كان عندي اشعر من ابي الطيب فان
ابا الطيب اشعر منه في هذا الموضع وبيان ذلك انه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى
واما الذي اختلفا فيه فان ابا الطيب قال

عزاءك سيف الدولة المقتدى فانك نصل والشدايد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتي ابو تمام اللذين هما

بأن تبرز في طرفي نهار واحد رزين ما جالوعته وبلابلا

فالعقل ليس مضاعفاً لمطية إلا إذا ما كان وهماً بازلا

فإن قول أبي الطيب والشدائد للعقل أكرم لفظاً ومعنى من قول أبي تمام أن العقل إنما تضاعف للبازل
من المطايا وقوله أيضاً تخون المنايا عهده في سليله وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا الشعر من شعر أبي تمام اللذين هما

لا تعجبوا أن يضمن عبد الله آفاقا حاما للبرية آكلا

إن الأسد إذا أصاب جذبته منه الحال جرى [illegible]

وكذلك قال أبو الطيب الساكن من القوم الذين رماحهم ندامهم ومن يلاهم يسعد العلى

تسليهم علياؤهم عن مصابهم وتشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان خير من بيتي أبي تمام اللذين هما

نسجت خلالك أن يوسبك امرأ أن تذكر ناسياً أو غافلا

إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعاً أو قابلا

واعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك بأن قالوا المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما في المعنى فإن اعتبار التأليف في نظم الألفاظ لا يكون إلا باعتبار المعاني المندرجة تحتها فما لم يكن بين الكلامين اشتراك في المعنى حتى تعلم مواقع النظم في قوة ذلك المعنى وضعفه واتساق ذلك اللفظ واضطرابه وإلا لم يكن لكلام تأليف يخصه بحسب المعنى المندرج تحته وهذا مثل قولنا العسل أحلى

من الخل فإنه ليس في الخل حلاوة حتى يقال إن حلاوة العسل عليها وهذا القول فاسد فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة صحيحاً لوجب أن يسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه وهذا محال وإنما اتجه لهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذي تقع المفاضلة فيه وهو النعت المعاني أو اختلفت ومن هاهنا وقع لهم الغلط وسأبين ذلك فأقول من المعلوم أن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة فثبت بهذا النظر أنما هو في هذين الوصفين اللذين هما الأصل في المفاضلة بين الألفاظ والمعاني على اتفاقهما واختلافهما فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر كان أخص به من الآخر حكم له بالفضل وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج في تفضيل الشعراء أشياء بغير [illegible] كثيرة وهو مروي عن علماء العربية لكن عذرهم في ذلك أن معرفة الفصاحة والبلاغة شيء خلف معرفة النحو والإعراب فمما وقفت عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً وهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار وفيه ما فيه ولولا أن أبا عمرو عندي بالمكان العلي لبسطت لساني في هذا الموضع وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل فقال أما الفرزدق ففي يده نبعة من الشعر وهو قابض عليها وأما الأخطل فأشدنا اجتراء وأرمانا للفرائض وأما أنا فمدينة الشعر وهذا القول في التفضيل قول إقناعي لا يحصل منه على تحقيق لكنه أقرب حالاً مما روي عن أبي عمرو بن العلاء وسئل الأخطل من أشعر الناس فقال الذي إذا مدح رفع وإذا هجا وضع فقيل فمن قال الأعشى قيل ثم من قال طرفة وهذا قول فيه بعض التحقيق إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لأن المعاني

أسئولة

الشعر به كثيرة والمدح والمحاجر منها وسئل الشريف الرضي عن ابي تمام وعن البحتري وعن ابي
الطيب المتنبي فقال اما ابو تمام فخطيب منبر واما البحتري فواصف جؤذر واما المتنبي فقائد عسكر
وهذا الكلام حسن واقع في موقعه فانه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل ويروى عن بشار انه
وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره فقيل له وبم ذاك فقال لاني نظمت اثني عشر الف
قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد فيكون لي اثنا عشر الف بيت جيد وقد تاملت
هذا القول فوجدته على بشار لا له لان باقلا الذي يضرب به المثل في العي لو نظم قصيدة لما خلت من بيت
واحد جيد ومن الذي ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد لكن الاولى كان ببشار
ان قال لي اثنا عشر الف قصيدة ليس واحدة منهن الا وجيدها اكثر من رديها او ليس واحدة
منهن مما يسقط فانه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء ومع هذا فقد وصل
الينا في ايدي الناس من شعره مقصدا ومقطعا فما وجدته بتلك الغاية التي ادعاها لكن وجدت
جيده قليلا بالنسبة الى رديه ويتبدد له الابيات اليسيرة وبلغني عن الاصمعي وابي عبيدة وغيرهما
انهم قالوا هو اشعر الشعراء المحدثين قاطبة وهم عندي معذورون لانهم ما وقفوا على معاني ابي
تمام ولا على معاني ابي الطيب ولا على ديباجة ابي عبادة البحتري وهذا الموضع لا يستفتى فيه علماء
العربية وانما يستفتى فيه كاتب بليغ او شاعر مفلق فان اهل كل علم اعلم به وكما لا يسال الفقيه
عن مسئلة حسابية فكذلك لا يسال الحاسب عن مسئلة فقهية وكما لا يسال النحوي ايضا عن مسئلة طبية
فكذلك لا يسال الطبيب عن مسئلة نحوية ولا يعلم كل علم الا صاحبه الذي تلبس بظاهره وباطنه
لظهر على ان علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب الى الناس قاطبة وما من احد الا ويحب

ان يتكلم فيه حتى اني رايت اجلاف العامة ممن لا يخط بيده ورايت اغتام الاجناد ممن لا ينطق الا بلغة
صحيحة وكلهم يخوض في فن الكتابة والشعر ويأتون فيه بكل مضحكة وهم يظنون انهم عالمون به ولا
لوم عليهم فانه بلغني عن ابن الاعرابي وكان من مشاهير العلماء انه عرض عليه ارجوزة ابي تمام اللامية
التي مطلعها * وعاذل عذلته في عذله * وقيل له هذه لفلان من شعراء العرب فاستحسنها
غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الحسن والخز ثم استكتبها فلما قيل له هي لابي تمام
قال امزق اجزاء ذلك الذي عليها اثر الكلفة ثم القى الورقة من يده وقال يا غلام خرق خرق فاذا كان
ابن الاعرابي مع علمه وفضله لا يدري اي طرفيه اطول في هذا الفن ولا يعلم ان يضع [illegible]
الجهل الى ان يقع مع التقليد الشنيع الذي هذه غايته فما الذي يقول غيره وماذا الذي يتكلم
فيه سواه والمذهب عندي في تفضيل الشعراء ان الفرزدق وجريرا والاخطل اشعر العرب
اولا وآخرا ومن وقف على الاشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما اشرت اليه ولا
ينبغي ان يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير والنابغة والاعشى فان كلا من اولئك اجاد في معنى
اختص به حتى قيل في وصفهم امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى
اذا شرب واما الفرزدق وجرير والاخطل فانهم اجادوا في كل ما اتوا به من المعاني المختلفة
واشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون وهم ابو تمام وابو عبادة البحتري وابو الطيب المتنبي فان
هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء اما ابو تمام وابو الطيب فانهما ربا المعاني واما ابو
عبادة فرب الالفاظ في ديباجتها وسبكها وبلغني ان ابا عبادة سأل ولده ابا الغوث عن
الفرزدق وجرير ايهما اشعر فقال جرير اشعر فقال وبم ذاك قال لان حوكه يشبه حوكك

فقال ثكلتك امك أوفي الحكم عصبية قال بابه ممن اشعر قال الفرزدق قال وبم ذاك
قال لان اهاجي جرير كلها تدور على اربعة اشياء هي القين والزنا وضرب الرومي بالسيف
والنفي من المسجد ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك واما الفرزدق فانه يهجو جريرا بانحاء مختلفة
ففي كل قصيدة يرميه بسهام غير السهام الذي يرميه بها في القصيدة الاخرى وأنا استكذب راوي
هذه الحكاية ولا اصدقه فان البحتري عندي ابصر من ذلك وهو عارف باسرار الكلام جيد باوساطه
واطرافه وجيده ورديه وكيف يدعي على جرير انه لم يهج الفرزدق الا بتلك المعاني الاربعة التي
ذكرها وهو القائل ∴ لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت انف الاخطل ∴
فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد ولقد تاملت كتاب النقايض فوجدت جريرا رب تغزل
ومديح وهجاء والتحادي وقد كسى كل معنى من هذه المعاني الفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله

وعاو عوى من غير شي رميته بقافية انفاذها يقطر الدما
واني لقوال لكل غريبة ورود اذا الساري بليل ترنما
خروج بافواه الرواة كانها شبا هندواني اذا هز صمما
غرايب لاق ذا حان وردها أخذن طريقا للقصايد معلما

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الابيات لتقدم بها الشعراء وما اذكر من هجاء الفرزدق ما ليس فيه
شي من تلك المعاني الاربعة التي اشار البحتري اليها فمن ذلك **قوله**

وقد زعموا ان الفرزدق حية وما قتل الحيات من احد قبلي
الم تر اني لا تبل رميتي فمن أرم لا تخطي مقاتله نبلي

وانك

وانك لا تحمي عقالا ولم تزد قنا الا فيما بسبب شي من القتل

وقوله ابلغ هديتي الفرزدق انها عبء يزاد على حجير مثقل
اني انصببت من السماء عليكم حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

وقوله زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا ابشر بطول سلامة يا مربع
ورأيت نبلك يا فرزدق قصرت ورأيت قوسك ليس فيها منزع
ان الفرزدق قد تبين لومه حيث التقت حشاؤه والاخدع

وقوله اجار تجد من شئت منا ومنهم ودعنا نقس مجدا اتعد كاهله
لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج وجلاجله
فلست بذي عز ولا ذي ارومة وما تعط من ضيم فانك قابله

وقوله لا تحسبن علتك ان مجاشعا لو ينفخون من الخؤورة طاروا
قد يوسرون ولا تكاسيهم ويقلون فتسلم الاسار

وقوله بني مالك ان الفرزدق لم يزل يلوذ المخازي من لدن ان تبقعا
مددت له الغايات حتى تركته يعود القوافي ذا علوب موقعا

وقوله الا انما كان الفرزدق ثعلبا ضغا وهو في اشداق ليث ضبارم

وقوله مهلا فرزدق ان قومك فيهم خور القلوب وخفة الاحلام
الظاعنون على العما بجميعهم والنازلون بشر دار مقام

وقوله اذا اسفرت يوما نساء مجاشع بدت سوءة مما تجن البراقع

مباشيم عن غب الجزر كأنما تصوت في أعجافهن الضفادع

رأت مالك نسل الفرزدق قصرت عن الغلو اذ لا بال في الغلو نازع

اتعدل أحسابا كراما حماتها باحسابكم اني الى الله راجع

اذا قيل أي الناس شر قبيلة واعظم عارا قيل تلك مجاشع

وقوله
أتى الاخيطل يرجو نائلا بعدما غشى الفرزدق لا لعا للعاثر

لبني الفرزدق قيان وقبله طاح البعيث بغير عرض وافر

واذا رجوان سعضوا مرة مرسن غواى عليهم دوابري

ولجرير مواضع كثيرة في هجاء الفرزدق غير هذه ولولا خوف الاطالة لاستقصيتها جميعها اثر ولو سلمنا الى البحتري ما زعم من ان جريرا ليس له في هجاء الفرزدق الا تلك المعاني الاربعة لاعترضت عليه بانه ند افر لجرير بالفضيلة وذلك ان الشاعر المفلق والكاتب البليغ هو الذي اذا اخذ معنى واحدا تصرف فيه بوجوه التصرفات واخرجه في ضروب من الاساليب وكذلك فعل جرير فانه ابرز من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفا مختلف الانحاء فمن ذلك قوله

الهاك عن المكارم والعلى الكتائف وارتفاع المرجل

وقوله
وجد الكتيف ذخيرة في قبره والكلبتين جمعن والمشار

سكي صلاته اذا تصدع مرجل وان تعلق برمة اعشار

قال الفرزدق رقعي اكيارنا قالت وكيف ترقع الاكيار

وقوله
اذا اباؤنا وابوك عدوا ابان المقرفات من العراب

فاورثك

فاورثك العلاة واورثوني رباط الخيل افنية القباب

وسيف ابي الفرزدق وفاعلوه قدوم غير ثابتة النصاب

فانظر ايها الواقف على كلامي هذا الى هذه الاساليب التي تصرف فيها جرير وادارها على هجاء الفرزدق بالقين فقال اولا ان اباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ثم قال ثانيا انه بكى عليه وسد به بعد الموت المرجل والبهة الاعشار التي تصلحها ثم قال ثالثا ان اباك خير لك الة القيون واورثني ابي رباط الخيل وقد اورد جرير هذا المعنى في غير الاساليب التي ذكرتها ولا حاجة الى التطويل بذكر ذلك ههنا وهذا القدر فيه كفاية ومقنع وحيث انتهى بنا القول الى ههنا فلنرجع الى النوع الذي نحن بصدد ذكره وهو اتخاذ الطير والخلاف المقصد فيهما. اما قول النابغة

اذا ما غدا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد ايقن ان قبيله اذا ما التقى الجمعان اول غالب

وهذا المعنى قد تواردت عليه الشعراء قديما وحديثا واوردوه بضروب من العبارات فقال

ابو نواس
تتأيا الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقال مسلم بن الوليد
قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال ابو تمام
وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

اقامت مع الرايات حتى كانها من الجيش الا انها لم تقاتل

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء الا انهم جاؤوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه الا من جهة حسن السبك او من جهة الايجاز في اللفظ ولم ار احدا اغرب في هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع

اختلاف مقصديهما الا مسلم بن الوليد فقال

اشربت ارواح العدى وقلوبها خوفا فانفسها اليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذي فضل به مسلم غيره في هذا المعنى وكذلك فعل ابو الطيب المتنبي فانه لما انتهى الامر اليه سلك غير الطريق التي سلكها من تقدمه الا انه خرج فيها الى غير المقصد الذي قصدوه فاغرب وابدع وحاز الاحسان بجملته وصار كانه مبتدع هذا المعنى دون غيره فمما جاء من قوله

تفدى اتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا احداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت اسيافه والقوائم

ثم اورد هذا المعنى في موضع اخر من شعره فقال

سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفي الاغراب والاعجاب وقال في موضع اخر

وذي لجب لا ذو الجناح امامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهذا من محاسن ابي الطيب المشهورة ولو لم يكن له من الاحسان في شعره الا هذه الابيات لاستحق بها فضيلة التقدم ومما انتظم في هذا النوع الاسد وقصيدتاهما ابو عبادة البحتري وابو الطيب

المتنبي في وصف الاسد وقصيدتاهما مشهورتان فاول احديهما

اجدك ما ينفك يسري لزينبا وأول الاخرى في الخد ان عزم الخليط رحيلا

اما البحتري فانه الم بطرف مما ذكره بشر بن عوانة في ابياته الرائية التي اولها

افاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر اخاك بشرا

وهذه الابيات من النمط العالي الذي لم يات احد بمثلها وكل الشعراء لم يسموا الى استخراج معنى ليس مذكورا فيها ولولا خوف الاطالة لاوردتها بجملتها لكن الغرض انما هو المفاضلة بين البحتري وابو الطيب فيما اورداه من المعاني في هذا المقصد المختار منهما هو للبحتري من قصيدته

وما نقم الحساد الا اصالة لديك وعزما اريحيا مهذبا
وقد جربوا بالامس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبا
اذا شاء غادى عانة او غدا على عقائل سرب او تقنص ربربا
شهدت لقد انصفته حين تنبري له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم ار ضرغامين اصدق منكما عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبرا واغلب من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا
ادل بشغب ثم هالته صولة رآك لها امضى جنانا واشغبا
فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا واقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه ان كر نحوك مقبلا ولم ينجه ان حاد عنك منكبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثني ولا يدك ارتدت ولا حدّه نبا

وممّا جاء لأبي الطيب المتنبي من قصيدته

امعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

وردٌ اذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا

ما قوبلت عيناه الا ظنتا تحت الدجا نار الفريق حلولا

في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلا

يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكانه آس يجس عليلا

ويرد عفرته الى يافوخه حتى تصير لراسه اكليلا

قصرت مخافته الخطى فكانما ركب الكمي جواده مشكولا

القى فريسته وبربر دونها وقربت قربا خاله تطفيلا

فتشابه الخلقان في اقدامه وتخالفا في بذلك المأكولا

اسد يرى عضويه فيك كليهما متنا ازل وساعدا مفتولا

ما زال يجمع نفسه في زوره حتى حسبت العرض منه الطولا

وكانما غرته عين فادنى لا يبصر الخطب الجليل جليلا

انف الكريم من الدنية تارك في عينه العدد الكثير قليلا

والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا

عد

خذلته قوته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا

سمع ابن عمته به وبحاله فنجا يهرول امس منك مهولا

وامر مما فر منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلا

تلف الذي اتخذ الجراة خلة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

وساحكم بين هاتين القصيدتين والذي يشهد به الحق وتقتضيه العصبية اذكره وهو ان معاني ابي الطيب اكثر عددا واشد تقصيا للآثار ان البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالاسد مرة وتفضيله عليه اخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك واما ابو الطيب فانه اتى بذلك في بيت واحد وهو قوله امعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا ثم انه تفنن في ذكر الاسد فوصف صورته وهيئته ووصف احواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله ووصف خلق خلقه مع شجاعته وشبه الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ثم انه عطف بعد ذلك على ذكر الانفة والحمية التي بعثت الاسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح واخرج ذلك في احسن مخرج وابرزه في اشرف معنى واذا تامل العارف بهذه الصناعة ابيات الرجلين عرف بديهة النظر ما اشرت اليه والبحتري وان كان افضل من المتنبي في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي افضل منه في الغوص على المعاني ومما يدلك على ذلك انه لم يعرض لما ذكره بشر في ابياته الرائية لعلمه ان بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقول فيه ولفطانة ابي الطيب تنبه فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذلك المعنى لانه قصر عنه تقصيرا كثيرا ولما كان الامر كذلك عدل ابو الطيب عن سلوك تلك الطريق وسلك

عنيها فيها آخر ما اورده مبرزا واعلم ان من ابين البيان في المفاضلة بين ارباب النظم والنثر ان تورد اثنان
منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحتري والمتنبي ها هنا على وصف الاسد وهذا
ابين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا في بيت من الشعر او في بيتين ويصوغه الآخر
في مثل ذلك فان بعد الذي نظم ما في السوابق من الجواهر وعنده بين ربح الرابح وخسر الخاسر
واذا اردت ان تعرف فضل ابن هذين الرجلين فانظر الى قصيدتيهما في مراثي النساء التي مفتتح احدهما

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب كناية بهما عن اكرم العرب

وهي لابي الطيب ومفتتح الاخرى

غروب دمع من الاجفان ينهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهي للبحتري فان ابا الطيب انفرد بابتداع ما اتى به في معاني قصيدته والبحتري اتى بما اكثره غث
بارد والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امراة او رجل ومن الواجب انه اذا سلك الناظم والناثر مسلكا
في غرض من الاغراض ان لا يخرج عنه كالذي سلكه هذان الرجلان في رثاء امراة فان من حذاقة
الصنعة ان يذكر ما يليق بالمراة دون الرجل وهذا الموضع لم يأت فيه احد مما تثبت على المحك الا ابو الطيب
وحده واما غيره من مفلقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا عنه وله في المعنى قصيدة اخرى مفتتحها

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالابداع فيما اتى به والفرق عندي بينه وبين البحتري ان
ابا الطيب اغوص في المعنى واعرف باستخراج المعنى الدقيق واما البحتري فانه اعرف بصوغ الالفاظ
وحوك ديباجها وعلى هذا الاسلوب توارد البحتري والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيد للبحتري

ذاليه

ذاليه اولها سلام عليكم لا وفاء ولا عهد ومقطوعة للشريف الرضي اولها

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى اتيح له بالليل عاري الاشاجع

وقد اجاد البحتري في وصف حاله مع الذئب والشريف اجاد في وصف الذئب نفسه واما المسخ فهو
قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة والقسمة تقتضي ان يقرن اليه ضده وهو قلب الصورة القبيحة
الى صورة حسنة فالاول كقول ابي تمام

فتى لا يرى ان الفريصة مقتل ولكن يرى ان العيوب مقاتل

وقول ابي الطيب المتنبي يرى ان ما بان منه لضارب بأقتل مما بان منه لعائب

فهو وان لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ومثاله في ذلك كمن اودع الوشي شملا واعطى الورد جعلا
وهذا من ارذل السرقات وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان

نحن نعزيك ومنك الهدى مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وانت الذي نأوي اليه وبه نعقل
اذا عفا عنك واودى بنا الدهر فذاك المحسن المجمل

اخذه ابو الطيب فقلب اعلاه اسفله وقال

ان يكن صبر ذي الرزية فضلا تكن الافضل الاعز الاجلا
انت يا فوق ان تعزى عن الاحباب فوق الذي يعزيك عقلا
وبالفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذي له قلت قبلا

والبيت الآخر من هذه الابيات هو الآخر فذا وهو المخصوص بالمسخ واما قلب الصورة القبيحة

الى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة بل يسمى اصلاحا وتهذيبا فمن ذلك قول ابي الطيب المتنبي

لو كان ما تعطيهم من قبل ان تعطيهم لم يعرفوا التاميلا

وقول ابن نباتة السعدي — لم يبق جودك لي شيئا اؤمله تركتني اصحب الدنيا بلا امل

وعلى هذا النحو ورد قول ابي نواس في ارجوزة يصف بها اللعب بالكرة والصولجان فقال عن جملتها

جن على جن وان كانوا بشر — كانما خيطوا عليها بالابر

ثم جا المتنبي فقال — وكانها نتجت قياما تحتهم وكانهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والارض وانه يقال ليس للارض الى السما نسبة محسوسة وكذلك يقال
هاهنا ايضا فان نقد زماني قول ابي نواس من التنزل والضعف كذلك في قول ابي الطيب من العلو
والقوة وربما يظن بعض الجهال ان قول الشماخ

اذا بلغتني وحملت رحلي — عرابة فاشرقي بدم الوتين

وقول ابي نواس — واذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

من هذا القبيل الذي هو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة وليس كذلك فان قلب الصورة
القبيحة الى صورة حسنة هو ان يوخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين احداهما قبيحة والاخرى حسنة
فالحسن والقبح انما يرجع الى التعبير عن المعنى لا الى المعنى نفسه وقول ابي نواس عكس قول الشماخ وقد
تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات الاخرى الى قول ابي الطيب المتنبي وقول الشريف الرضي

فقال ابو الطيب — اني على شغفي بما في خمرها لاعف عما في سراويلاتها

وقال الشريف الرضي — احن الى ما تضمن الخمر والحلى واصدف عما في ضمان المآزر

فالمعنى

فالمعنى واحد والعبارة مختلفة في الحسن والقبح وهذه وجوه السرقات وهي ستة عشر نوعا
ولا يكاد يخرج عنها شي واذا انصف الناظر في الذي اتيت به هاهنا علم اني ذكرت ما لم يذكره غيري
وانا اسال الله التوفيق لان اكون لفضله شاكرا وان لا اكون مختالا فخورا واذ قد فرغت من تصنيف هذا
الكتاب وحررت فيه القول في تفصيل اقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقايقهما وحقايقهما فينبغي
ان اختمه بذكر فضلهما فاقول اعلم ان هذا الفن هو اشرف الفضايل واعلاها درجة ولولا ذلك لما افتخر
به رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة مواقف فقال مرة انا افصح من نطق بالضاد وقال تارة
اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلي كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت الى كل احمر واسود واحلت لي
الغنايم وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر واوتيت جوامع الكلم
وما سمع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشي من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة فلم
يقل انه افقه الناس ولا اعلم الناس بالحساب ولا بالطب ولا بغير ذلك كما قال انا افصح من نطق
بالضاد وايضا فلو لم تكن هذه الفضيلة من اعلا الفضايل درجة لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها
فان كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل معجزا من مسايل الفقه ولا من مسايل الحساب ولا من مسايل الطب
ولا غير ذلك من العلوم ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صار نثرها في الدرجة العالية والمنثور منها
اشرف من المنظوم لاسباب من جملتها ان الاعجاز لم يتصل بالمنظوم وانما اتصل بالمنثور والاخر ان
ارباب النظم اكثر ولهذا نجد المجيدين منهم اكثر من المجيدين من الكتاب الا نسبة لهاولاء الى هاولاء ولو
شئت ان تحصي ارباب الكتابة من اول الدولة الاسلامية والى الان لما وجدت منهم من يستحق اسم الكاتب
عشرة واذا احصيت الشعراء في تلك المدة وجدتهم عددا كثيرا حتى لقد كان يجتمع منهم في العصر

الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر مفلق وهذا لا تجده في الكتّاب بل ربما ندر منهم الفرد الواحد
في الزمن الطويل وأكثر ذلك الآن قد نحوا مسلك الشعر بعد ما ... والكتابة في ... دعامتي الدولة
فان كل دولة لا تفتقر إلا إلى دعامتين من السيف والقلم وربما لا يفتقر إلى الكتابة في ملكها السيف إلا مرة
او مرتين واما القلم فانه يفتقر إليه على الأيام وكثيرا ما يستغنى عن السيف وإذا نظر إلى الملوك الذين
عبرت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه من بعده إلا من حظي بكاتب خطيب ... يجعل
ذكرها خالدا بينا فإن الناس رغبة في فصل خطابه واستحسانا لبراعة كلامه يسلكون ... ذكرها
في خزائنهم ويأذن به ... وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر ... الذي ... أن يروي
أخبار منثورة باقي حفظه وبعض لسانه جامد لسامعيها ويقلبه ما به من علة ولقد أحسن أبو تمام
في هذا المعنى حيث قال

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه ... وإن كان لي طوعا ولست بجاهد
فإن أنا لم يحمدك عني صاغرا ... عدوك فاعلم أنني غير حامد

وهذا الذي ذكرته حق وصدق ولا ينكره إلا جاهل به وأنا أسأل الله المزيد من فضله وإن لم أكن أهلا
له فإنه هو من أهله وقد وقفت على كلام لأبي إسحق الصابي في الفرق بين الكتابة والشعر وهو جواب
لسائل سأله فقال إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه لأن الترسل
هو ما وضح معناه وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم
يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه ثم قال بعد ذلك ولسائل أن يسأل فيقول من أي جهة صار الأحسن في
معنى الشعر الغموض وفي معاني الترسل الوضوح فالجواب أن الشعر بني على حدود مقررة وأوزان

مقدرة وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائما بذاته وغير محتاج إلى ما يليه إلا ما يجيء على وجه التضمين وهو
عيب فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل احتيج إلى
أن يكون الفن الواحد مما يلطف ويدق والترسل مبني على مخالفة هذه الطريقة إذ كان كلاما
واحدا لا يتجزأ ولا ينفصل إلا فصولا طوالا وهو موضوع وضعا ... ويرد على أسماع
شتى من خاصة ورعية وذوي أفهام ذكية وأفهام بطيئة وإذا انفتحت مسائله لا ... ساغ فيها
وتوسعت ... الأول ... أن التضمين عيب في الشعر وهو فضيلة في الترسل
... الفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضهم التي يرمون إليها وصف
الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح
والهجاء وأما المترسلون فإنما يترسلون في سداد ثغر وإصلاح فساد وتحريض على جهاد واحتجاج على بعيد أو
مجادلة لملة أو دعاء إلى ألفة أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكل ذلك
هذا ما انتهى إليه كلام أبي إسحق الصابي في الفرق بين الترسل والشعر ولقد عجبت من ذلك الرجل
الموصوف ببلاغة اللسان وبلاغة البيان كيف يصدر عنه مثل هذا القول الذي هو بعيد من الصواب
الذي هو في باب ... النظر في باب اللهم غفرا وسأذكر ما عندي في إرادة الطعن عليه لا حقا المحل
النزاع فأقول أما قوله إن الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه فإن هذه دعوى لا
مستند لها بل الأحسن في الأمرين معا إنما هو الوضوح والبيان على أن الإطلاق في القول على هذا الوجه
من غير تقييد لا يدل على الغرض الصحيح بل الصواب في القول في هذا أن يقال كل كلام من منثور ومنظوم
ينبغي أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة لأنها إن لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة لكن إذا صارت

مركبة فعلها التركيب عن تلك الحال فتبهم معانيها فلذلك فيهما ما يفهمه الخاصة والعامة ومنه
ما لا يفهمه الا الخاصة ويتفاوت درجات فهمه ويكفي من ذلك كلام الله تعالى فانه افصح الكلام
وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ومع هذا ففيه ما يتسارع الفهم الى معانيه ومنه ما
يغمض فيعزب فهمه فالالفاظ المفردة ينبغي ان تكون مفهومة سوا كان الكلام نظما او نثرا واذا
تركبت فلا يلزم فيها ذلك وقد تقدم في كتابي هذا ادلة كثيرة على هذا فليؤخذ من مواضعها
واما الجواب الذي اجاب به في الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك
جواب وهب ان الشعر كان كل بيت منه قايما بذاته فلم كان مع ذلك غامضا وهب ان الكلام المنثور
كان واحدا لا يتجزى فلم كان مع ذلك واضحا ولو سلمنا اليه هذا فماذا يقول في الكلام المسجوع
الذي كل فقرة منه بمنزلة بيت من الشعر واما قوله في الفرق بين الشاعر والكاتب بان الشاعر من
شانه وصف الديار والاثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاحتدا
والمدح والهجاء وان الكاتب من شانه الافاضة في سداد ثغر واصلاح فساد او التحريض على جهاد
او الاحتجاج على فرقة او الجادلة للدولة او دعاء الى الفة او نهي عن فرقة او تهنية بعطية او تعزية
برزية فان هذا التحكم محض لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة واي فرق بين الشاعر
والكاتب في الاثار والحنين الى الاهواء والاوطار فلذلك يكتب الكاتب في الاشتياق
الى الاوطان ومنازل الاخوان والاحباب والحنين الى الاهواء والاوطار ولهذا كانت الكتب
الاخوانيات بمنزلة الغزل والنسيب من الشعر وكما يكتب الكاتب في اصلاح فساد او سداد ثغر
او دعا الى الفة او نهي عن فرقة او تهنية او تعزية فكذلك الشاعر فان شئت من الصابي قصايد الشعرا

في هذا المقام كلام بين الشاعر والكاتب صح

في امثال هذه المعاني فكيف خفي عنه قصيدة ابي تمام في استعطاف مالك بن طوق على قومه التي مطلعها
لو ان دهرا رد رجع جواب   ام كيف اخل بالنظر في ديوان ابي الطيب المتنبي وهما في زمن واحد
افاتا ان قصيدته في الاصلاح بين كافور الاخشيدي وبين ولد مولاه التي مطلعها
حسم الصلح ما اشتهته الاعادي   وكذلك لا شك انه لم يقف على قصيدة ابي عبادة البحتري
في غزو البحر التي مطلعها   الم تر تغليس الربيع المبكر   ولو اخذت في تعداد قصايد الشعراء
في الاغراض التي اشار اليها وخص بها الكاتب لاطلت وذكرت الكثير الذي يحتاج الى اوراق
كثيرة وكل هذه الفروق التي نص عليها وعددها فليست بشي ولا فرق بين الكاتب والشاعر
فيها والذي عندي في الفرق بينهما هو من ثلثة اوجه الاول من جهة نظم احدهما ونثر الاخر
وهذا فرق ظاهر الثاني ان من الالفاظ ما يعاب استعماله نثرا ولا يعاب نظما وكذلك شي
استخرجته ونبهت عليه في القسم الاول المختص باللفظة المفردة في المقالة الاولى من هذا
الكتاب وساعيدها هنا منه شيا واقول قد ورد في شعر ابي تمام قوله
هي العرمس الوجنا وابن ملمة وجاش على ما احدث الدهر خافض
وكذلك ورد في شعر ابي الطيب المتنبي
ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
فلفظة العرمس ولفظة العرامس لا يعاب استعمالها في الشعر ولو استعملا في كتاب او خطبة
كان استعمالها معيبا وكذلك ما يشاكلها ويناسبها من الالفاظ وكل ذلك قد ضبطته بضوابط
وحددته بحدود تفصله عن غيره من الالفاظ فليؤخذ من المقالة الاولى ولولا خوف التكرار

لا غير. وهاهنا الثالث أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورًا متعددة ذوات معانٍ مختلفة في شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل والكثير من ذلك رديء غير مرضي والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمائة سطر أو خمسمائة وهو مجيد في ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لأنا رأيناه وسمعناه وقلناه وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها فإن شاعرهم يذكر كتابًا مصنفًا من أوله إلى آخره شعرًا وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر والله أعلم

تم الجزء الثاني من كتاب المثل السائر
في أدب الكاتب والشاعر وبتمامه
تم جميع الكتاب وكان الفراغ منه يوم
الاثنين ثامن المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة

قوبل هذا المجلد من أوله إلى آخره
بالأصل المنقول منه بحسب
الطاقة والإمكان وحسبنا الله
ونعم الوكيل

حبس الله وحده
من الكتب التي وقفها الفقير
إلى الله ربه ذي المواهب
محمد المدعو [illegible]
[illegible]